

تاريخ
الأدب
العربي

١

دكتور شوقي ضيف

العصر الجاهلي

تاريخ
الأدب العربي

١

العصر الجاهلي

تأليف

الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الحادية عشرة



دار المعارف

العصر الجاهلي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

للباحثين المحدثين من عرب ومستشرقين كتبٌ مختلفة في تاريخ الأدب العربي أدَّتْ كثيراً من الفائدة والنفع منذ ظهورها ، غير أن من الحق أنه ليس بين هذه الكتب ما يبسط الحديث في أدبنا وأدبائنا على مرِّ التاريخ من الجاهلية إلى العصر الحديث بسطاً مفصلاً دقيقاً . وأغزرُ هذه الكتب وأحْفَلُها مادة كتابُ «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان ، وهو دائرة معارف جامعة ، لا تقتصر على الحديث عن شعرائنا وكُتَّابنا ، بل تُفَيِّضُ في الكلام عن فلاسفتنا وعلمائنا من كل صَنَفٍ وعلى كلِّ لون ، مع استقصاء آثارهم المطبوعة والمخطوطة في مشارق الأرض ومغاربها والإشارة إلى ما كُتِبَ عنهم قديماً وحديثاً . وهذه العناية من وصف التراث العربي جميعه جعلتْ بروكلمان لا يُعْنَى عناية مفصلة ببحث العصور والظواهر الأدبية ولا يبحث شخصيات الأدباء بحثاً تاريخياً نقدياً تحليلياً ، إذ شغلته عن ذلك مواد كتابه المتنوعة الكثيرة .

وإذن فأننا لا أبالغ إذا قلت إن تاريخ أدبنا العربي يفتقر إلى طائفة من الأجزاء المبسوطة تُبَحِّثُ فيها عصوره من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر كما تبحث شخصياته الأدبية بحثاً مُسْنِهاً ، بحيث ينكشف كل عصر انكشافاً تاماً ، بجميع حدوده وبيئاته وآثاره وما عمل فيها من مؤثرات ثقافية وغير ثقافية ، وبحيث تنكشف شخصيات الأدباء انكشافاً كاملاً ، بجميع ملامحها وقسماتها النفسية والاجتماعية والفنية .

وقد حاولتُ أن أنهض بهذا العبء ، وأنا أعلم ثِقَلِ المثونة فيه ، فإن كثيراً من الآثار الأدبية القيمة لا يزال مخطوطاً لما يُنْشَرُ ، وكثيراً مما تُشرفُ حاجة إلى أن يعاد نشره نشرأ علمياً . وهناك بيئات أدبية يغمرها غير قليل من الظلام ، إما لقلة ما بين أيدينا من تراثها الأدبي ، وإما لأن الباحثين لم يكشفوا دروبها ومناجمها كشفاً

كافياً . يُضاف إلى ذلك أن تحليل آثار الأدباء وتقويمها ليس عملاً سهلاً ، لكثرة ما يداخلها من عناصر الحياة والفن المتشابكة ، ولأنها تتألف من معانٍ وأساليب جميلة ، وهى لا تخضع خضوعاً مطلقاً لقواعد العلم وقوانينه ، حقاً تخضع للطريقة العلمية ، ولكن باستمرار تظل فيها جوانب خاضعة للذوق ونفاذ البصيرة والإحساس المرهف . وذلك كله مما يضاعف الجهد على من يريد تأريخ أدبنا العربى تاريخاً مفصلاً دقيقاً على اختلاف عصوره وتفاوت بيئاته ، غير أنه يضاعف فى الوقت نفسه لذته فيه ، إذ يرى أمنيته فى إنقاذ عمله بعيدة عسيرة ، لا يمكنه بلوغها إلا بشق النفس ، فيجد ويلج ، ويمضى فى الجِدِّ والإلحاح ، حتى يظفر بما يريد ، مؤمناً بأنه لا يقول الكلمة الأخيرة فيما يبحثه ، إذ البحث الأدبى لا يعرف الكلمة الأخيرة فى مسألة من مسائله .

ومعنى ذلك أن هذا الجزء من تاريخ أدبنا العربى الخاص بالعصر الجاهلى - والذى ستلوه أجزاء أخرى تتناول بقية عصور هذا التاريخ - لا أزعِم أنه يحمل إلى القراء الصورة الأخيرة لهذا العصر ، كما لا أزعِم أن الأجزاء التالية ستحمل الصورة الأخيرة للعصور المتعاقبة . وإنما أزعِم أن هذه الصورة هى التى استطعت رسمها مع ما بذلت من جهد واصطنعت من نهج وتحرّيت من دقة ، وقد يأتى بعدى من يعدّل فى جانب من جوانبها بما يهتدى إليه من حقائق أدبية غابت عني فى بعض العصور أو بعض البيئات والشخصيات الأدبية . وتلك طبيعة الأبحاث يكمل بعضها بعضاً ولا تزال فى نمو مطرد . والله أسأل أن يلهمنى السداد فى القول والفكر والعمل ، وهو حسبي ، ونعم الوكيل .

شوقي ضيف

القاهرة فى ٢٠ من ديسمبر سنة ١٩٦٠

تمهيد

١

كلمة أدب

كلمة أدب من الكلمات التي تطور معناها بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من دور البداوة إلى أدوار المدنية والحضارة . وقد اختلفت عليها معانٍ متقاربة حتى أخذت معناها الذي يتبادر إلى أذهاننا اليوم ، وهو الكلام الإنشائي البليغ الذي يُقصد به إلى التأثير في عواطف القراء والسامعين ، سواء أكان شعراً أم نثراً .

وإذا رجعنا إلى العصر الجاهلي ننقب عن الكلمة فيه لم نجد لها تجري على ألسنة الشعراء ، إنما نجد لفظة أدب بمعنى الداعي إلى الطعام ، فقد جاء على لسان طرفة بن العبد^(١) :

نحن في المَشْتاقِ ندعو الجَفَلَى لا ترى الآدَبَ فينا يَنْتَقِرُ^(٢)

ومن ذلك المأدبة بمعنى الطعام الذي يُدعى إليه الناس . واشتقوا من هذا المعنى أدبَ يَأدُب بمعنى صنع مأدبة أو دعا إليها .

وليس وراء بيت طرفة أبيات أخرى تدل على أن الكلمة انتقلت في العصر الجاهلي من هذا المعنى الحسي إلى معنى آخر ، غير أننا نجد أنها تُستخدَم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم في معنى تهذيبي خلقي ، ففي الحديث النبوي : « أدبني ربِّي فأحسن تأديبي »^(٣) ويستخدمها شاعر مخضرم يسمى سهم بن حنظلة

(١) انظر ديوان طرفة (طبعة آلوارد) القصيدة

رقم ٥ بيت ٤٦ .

(٢) المشتاق : الشقاء ، الدعوة الجفل :

العامة ، الأدب : الداعي إلى الطعام ،

لا ينتقر : لا يختار أناساً دون آخرين .

(٣) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر

لابن الأثير (طبع القاهرة ١٣١١ هـ) ج ١

ص ٣ .

الغنى بنفس المعنى إذ يقول ^(١) :

لا يمنع الناس منى ما أردت ولا أعطيهما ما أرادوا حُسنَ ذا أدبا

وربما استخدمت الكلمة في العصر الجاهلي بهذا المعنى الخلقى، غير أنه لم تصلنا نصوص تؤيد هذا الظن. وذهب « نالينو » إلى أنها استخدمت في الجاهلية بمعنى السنة وسيرة الآباء مفترضاً أنها مقلوب دأب، فقد جمع العرب دأباً على آداب كما جمعوا بئراً على آبار ورأياً على آراء، ثم عادوا فتوهّموا أن آداباً جمع أدب، فدارت في لسانهم كما دارت كلمة دأب بمعنى السنة والسيرة، ودلوا بها على محاسن الأخلاق والشيم ^(٢). وهو فرض بعيد، وأقرب منه أن تكون الكلمة انتقلت من معنى حسى وهو الدعوة إلى الطعام إلى معنى ذهنى وهو الدعوة إلى المحامد والمكارم، شأنها في ذلك شأن بقية الكلمات المعنوية التى تستخدم أولاً في معنى حسى حقيقى، ثم تخرج منه إلى معنى ذهنى مجازى.

ولا نمضى في عصر بنى أمية حتى نجد الكلمة تدور في المعنى الخلقى التهذيبي، وتضيف إليه معنى ثانياً جديداً، وهو معنى تعليمى فقد وجدت طائفة من المعلمين تسمى بالمؤدّبين، كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة العربية، فكانوا يلقنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام. وأتاح هذا الاستخدام الجديد لكلمة الأدب أن تصبح مقابلة لكلمة العلم الذى كان يُطلق حينئذ على الشريعة الإسلامية وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوى وتفسير القرآن الكريم.

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسى وجدنا المعنيين التهذيبي والتعليمى يتقابلان في استخدام الكلمة، فقد سُمى ابن المقفع رسالتين له تتضمنان ضرورياً من الحكم والنصائح الخلقية والسياسية باسم « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير ». وبنفس هذا المعنى سُمى أبو تمام المتوفى سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م الباب الثالث من ديوان

(١) انظر الأصميات (طبع دار المعارف) عصر بنى أمية لكارلوناينو (طبع دار المعارف)

ص ١٤ وما بعدها.

قم ١٢ بيت ٣٠.

(٢) تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى

الحماسة الذى جمع فيه مختارات من طرائف الشعر ، باسم باب الأدب . وينطبق هذا المعنى تمام الانطباق على كتاب الأدب الذى عقده البخارى المتوفى سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠ م فى مؤلفه المشهور فى الحديث والمعروف باسم الجامع الصحيح ، كما ينطبق على كتاب الأدب الذى صنفه ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨ م. وفى هذه الأزمنة أى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة وما تلاهما من قرون كانت الكلمة تطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم ، وأخذوا يؤلفون بهذا المعنى كتباً سموها كتب أدب مثل « البيان والتبيين للجاحظ » المتوفى سنة ٢٥٥هـ وهو يجمع ألواناً من الأخبار والأشعار والخطب والنوادر ، مع ملاحظات نقدية وبلاغية كثيرة . ومثله كتاب « الكامل فى اللغة والأدب للمبرد » المتوفى سنة ٢٨٥هـ وقد وجه اهتمامه إلى اللغة لا إلى البلاغة والنقد كما صنع الجاحظ ، وقدم فيه صوراً من الرسائل النثرية التى ارتقت صناعتها فى تلك العصور ، جاء فى مقدمته : « هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام مثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة باللغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة ». وما أُلّف فى الأدب بهذا المعنى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ والعقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨هـ وزهر الآداب للحصرى المتوفى سنة ٤٥٣هـ .

ولم تقف الكلمة عند هذا المعنى التعليمى الخاص بصناعته النظم والنثر وما يتصل بهما من الملح والنوادر ، فقد اتسعت أحياناً لتشمل كل المعارف غير الدينية التى ترقى بالإنسان من جانبيه الاجتماعى والثقافى ؛ فقد جاء على لسان الحسن ابن سهل المتوفى سنة ٢٣٦هـ : « الآداب عشرة ، فثلاثة شهرجانية^(١) ، وثلاثة أنوشروانية^(٢) ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن ، فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصولج ، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التى أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم فى المجالس^(٣) . وبهذا المعنى الواسع نجدها عند إخوان الصفا فى القرن الرابع للهجرة ، فقد دلوا بها فى رسائلهم إلى جانب

أنوشروان ملك الفرس من سنة ٥٣١-٥٧٩ م.

(٣) انظر زهر الآداب للحصرى (طبع

مصر) ج ١ ص ١٤٠ .

(١) الشهرجانية : نسبة إلى الشهاجة أو

الشهاجيع وهم أشرف الفرس .

(٢) الأنوشروانية : نسبة إلى كسرى

علوم اللغة والبيان والتاريخ والأخبار على علوم السحر والكيمياء والحساب والمعاملات والتجارات^(١) . ولا نصل إلى ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ حتى نجدتها تطلق على جميع المعارف دينية وغير دينية ، فهي تشمل جميع ألوان المعرفة وخاصة علوم البلاغة واللغة ، ومن ثم قال : « الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف »^(٢) .

ومنذ القرن الثالث للهجرة نجد الكلمة تدل - فيما تدل عليه - على السنن التي ينبغي أن تراعى عند طبقة خاصة من الناس ، وألفت بهذا المعنى كتب كثيرة مثل أدب الكاتب لابن قتيبة وأدب النديم لكشاجم المتوفى حوالى سنة ٣٥٠ هـ . وتواترت كتب مختلفة في أدب القاضى وأدب الوزير وأخرى في أدب الحديث وأدب الطعام وأدب المعاشرة وأدب السفر إلى غير ذلك . على أن أكثر ما كانت تدل عليه مقطعات الأشعار وطرائف الأخبار .

وأخذت الكلمة منذ أواسط القرن الماضى تدل على معنيين : معنى عام يقابل معنى كلمة Littérature الفرنسية التي يطلقها الفرنسيون على كل ما يكتب في اللغة مهما يكن موضوعه ومهما يكن أسلوبه ، سواء أكان علماً أم فلسفة أم أدباً خالصاً ، فكل ما ينتجه العقل والشعور يسمى أدباً . ومعنى خاص هو الأدب الخالص الذى لا يراد به إلى مجرد التعبير عن معنى من المعانى ، بل يراد به أيضاً أن يكون جميلاً بحيث يؤثر في عواطف القارئ والسامع على نحو ما هو معروف في صناعتى الشعر وفنون النثر الأدبية مثل الخطابة والأمثال والقصص والمسرحيات والمقامات .

تاريخ الأدب

واضح الآن أن تاريخ الأدب لأمة من الأمم إما أن يلتزم فيه المؤرخ المعنى العام لكلمة أدب ، فيؤرخ للحياة العقلية والشعورية في الأمة تاريخاً عاماً ، وإما أن يلتزم المعنى الخاص ، فيؤرخ للشعراء والكتّاب تاريخاً خاصاً بالأدب ونشأته وتطوره وأهم أعلامه ، ولعل أهم من أرخوا لأدبنا بالمعنى الأول بروكلمان في كتابه «تاريخ الأدب العربي» ، ونسج على منواله جرجي زيدان في كتابه المسمى بتاريخ آداب اللغة العربية . ونراهما يعرضان لتاريخ الحياة الأدبية والعقلية عند العرب في نشأتها وتطورها مع الترجمة للفلاسفة والعلماء من كل صنف والشعراء والكتّاب من كل نوع . ومن غير شك يتقدم بروكلمان جرجي زيدان في هذا الصدد بسبب المادة الغنية التي يحتويها كتابه ، فقد أحصى إحصاء دقيقاً أدباء العرب وعلماءهم وفلاسفتهم مع ذكر آثارهم المطبوعة والمخطوطة وما كُتب عنهم قديماً وحديثاً ، مبيناً مناهجهم ومكانتهم في الفن أو العلم الذي حذقوه ، مع نبذة عن كل فن وعلم ومدى ما حدث له من تطور ورقى .

ومؤرخ الأدب العربي إما أن ينهج هذا النهج الواسع ، وإما أن ينهج النهج الثاني الذي أشرنا إليه ، فيقف بتاريخه عند الشعراء والكتّاب مفصلاً الحديث في شخصياتهم الأدبية وما أثر فيها من مؤثرات اجتماعية واقتصادية ودينية وسياسية ، ومتوسعاً في بيان الاتجاهات والمذاهب الأدبية التي شاعت في كل عصر . ومن المحقق أن المؤرخ للأدب العربي بمعناه الخاص يأخذ الفرصة كاملة كي يؤرخ لهذا الفرع الموثق من فروع الأدب بالمعنى العام ، وهو الفرع الذي يُراعَى فيه الجمال الفني والتأثير في ذوق القارئ والسامع وإثارة ما يمكن أن يثار في نفسيهما من مشاعر وعواطف متباينة . فهو يؤرخ للأدب الخالص تاريخاً مفصلاً لا يكتفي فيه بالنبذ الموجزة عن الاتجاهات والفنون الأدبية ولا بالتراجم المجملة عن الشعراء والكتّاب ، على نحو ما يصنع بروكلمان في تاريخه العام ، بل يكتب في ذلك الفصول الواسعة مطبقاً المناهج الحديثة في دراسة الأدب الخالص ومن أنتجوه من الأدباء .

وكان من آثار سيطرة العلوم الطبيعية والتجريبية في القرن الماضي على العقول الغربية أن نادى بعض مؤرخي الأدب هناك بوجوب تطبيق مناهجها وقواعدها على الدراسات الأدبية ، وحاول نفر منهم أن يضع للأدب قوانين كقوانين الطبيعة ، وتقدم سانت بييف (Sainte-Beuve) يدعو إلى العناية بشخصيات الأدباء وتعقب حياتهم المادية والمعنوية ومؤثراتها ، حتى نتبين ما ينفرد به الأدب وما يشترك فيه مع سواه من الأدباء ، فإذا تبينا الطرفين أمكن أن نضع الأدباء في فصائل وأسرع على نحو ما يصنع علماء النبات إذ يرتبونه في أنواع وفصائل نباتية مختلفة . وبالمثل يضع مؤرخو الأدب أصحابه في طبقات وفصائل على أساس ما يقوم بين الأدب وفصيلته من تشابه ، وهو تشابه تستخلص منه قوانين الأدب العلمية وما يمتاز به أصحاب كل فصيلة من خصائص وصفات . وتلاه تين (Taine) يقرر أن هناك قوانين ثلاثة يخضع لها الأدب في كل أمة وهي الجنس والزمان والمكان ، وكأنه أراد أن يحوّل تاريخ الأدب إلى ضرب من التاريخ الطبيعي ، فأدباء كل أمة يخضعون لهذه القوانين الثلاثة خضوعاً جبرياً ملزماً ، فكل جنس خواصه ، ولكل زمان أحداثه وظروفه الاقتصادية والسياسية والثقافية ، ولكل مكان ميزاته الإقليمية والجغرافية ، وتلك هي مؤثرات الأدب ، بل قوانينه التي تطيع الأدباء بطواعها الدقيقة . ولاحظ مؤرخو الأدب ونقادهم أنه تجاهل شخصيات الأدباء وفرديتهم ومواهبهم وأصالتهم ، ولو أن قوانينه صحيحة لكان كل أديب صورة مطابقة للأدباء الآخرين ، ولما تميز أديب من سواه . والواقع يثبت عكس ذلك فلكل أديب شخصيته التي تجعل منه أديباً بعيته ، له مقوماته .

ويجانب هذين المنهجين في دراسة تاريخ الأدب وجد منهج ثالث عند برونيتير (Brunetiere) الذي فُتن بمذهب داروين المعروف في التطور ونشوء الكائنات العضوية وارتقاؤها ، وكان (سبنسر) سبقه إلى نقله من العضويات إلى المعنويات ، وطبقه على الأخلاق والاجتماع ، فحاول هو أن يطبقه على الأدب وفنونه المختلفة ، واختار لهذا التطبيق ثلاثة فنون ، هي : المسرح والتقد الأدبي والشعر الغنائي ، فتتبع كلا في نشأته ونموه وتطوره وما عمل فيه من مؤثرات ، وذهب إلى أن الفنون الأدبية مثل الكائنات الحية تخضع للتطور ، وقد يتولد بعضها من بعض

على نحو ما تولد الشعر الغنائى الرومانسى فى القرن التاسع عشر من الوعظ الدينى الذى شاع بفرنسا فى القرن السابع عشر ، فهذا الشعر لم يتطور عن شعر مماثل له ، سبقه ، وإنما تطور أو تولّد عن فن آخر على نحو ما يتطور أو يتولد كائن عضوى من كائن آخر .

وهذه الموجة الحادة التى اندفع خلالها هؤلاء المؤرخون فى القرن التاسع عشر يريدون أن يلحقوا تاريخ الأدب بالعلوم الطبيعية ويطبقوا عليه قواعد ما لم تلبث أن هدأت فى أوائل هذا القرن العشرين بتأثير نمو العلوم الإنسانية ، فإن هذه العلوم أثبتت أن عالم الإنسان يخضع لقوانين أعمق من القوانين الطبيعية وأن تاريخ الأدب ينبغى أن لا يلحق بالعلوم الطبيعية وإنما يلحق بالدراسات الإنسانية مثل التاريخ والقانون والسياسة وعلمى الاجتماع والنفس . وسرعان ما أخذ مؤرخو الأدب ونقادهم يطبقون على الأدب نظريات اللاشعور الفردى وعقود الجنس ومكبواته واللاشعور الجماعى ورواسب الحياة الإنسانية البدائية التى تتجلى فى الأساطير وما يتصل بها والعلاقات الاجتماعية والإنتاجية .

وسنحاول أن نؤرخ فى أجزاء هذا الكتاب للأدب العربى بمعناه الخاص مفيداً من هذه المناهج المختلفة فى دراسة الأدب وأعلامه وآثاره ، فنقف عند الجنس والوسط الزمانى والمكانى الذى نشأ فيه الأديب ، ولكن دون أن نبطل فكرة الشخصية الأدبية والمواهب الذاتية التى فسح لها سانس بيف فى دراساته . وكذلك لن نبطل نظرية تطور النوع الأدبى ، فما من شك فى أن الأنواع الأدبية تتطور من عصر إلى عصر ، وقد يتولد بعضها من بعض فيظهر نوع أدبى جديد لا سابقة له فى الظاهر ، ولكن إذا تعمقنا فى الدرس وجدناه قد نشأ من نوع آخر مغاير له ، على نحو ما يلاحظ ذلك من يدرس فن المقامة فى العصر العباسى ، فإنها فى رأينا تولدت من فن الأرجوزة وما ابتغى به أصحابه فى العصر الأموى عند رؤية ونظرائه من تعليم الناشئة والموالى ألفاظ اللغة العربية الغريبة وتراكيبها العويصة . فاقتران هذه الغاية بالأرجوزة يلفتنا إلى نفس الغاية فى المقامة عند بديع الزمان والحريرى وما بين الفنين من صلات وروابط . ولا بد أن نستضىء فى أثناء ذلك بدراسات التفسيرين والاجتماعيين وما تلقى من أضواء على الأدباء وآثارهم . وبجانب ذلك لا بد أن نقف

عند أساليب الأدباء وتشكيلاتهم اللفظية وما تستوفى من قيم جمالية مختلفة ، ولا بد من المقارنة بين السابق واللاحق في التراث الأدبي العربي جميعه .

٣

تقسيمات تاريخ الأدب العربي وعصوره

أكثر من أرخوا للأدب العربي وزعوا حديثهم في هذا التاريخ على خمسة عصور أساسية ، هي (١) عصر الجاهلية أو ما قبل الإسلام (٢) والعصر الإسلامي من ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠ م وهو العصر الذي تكونت فيه الدولة العربية وتمت الفتوح الإسلامية . ومن المؤرخين من يقسم هذا العصر قسمين ، فهو إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين يسمى عصر صدر الإسلام ، وما يليه إلى آخر الدولة الأموية يسمى العصر الأموي . (٣) والعصر الثالث هو عصر العباسيين أو العصر العباسي ويستمر إلى سقوط بغداد في يد التتار سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . ويقسم بعض المؤرخين هذا العصر قسمين : العصر العباسي الأول ويمتد نحو مائة عام ، والعصر العباسي الثاني ويستقل ببقية العصر . ومن المؤرخين من يقسمه ثلاثة أقسام ، يبق فيها على القسم الأول بنفس الاسم ، أما العصر العباسي الثاني فيقف به عند سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥ م وهي السنة التي استولى فيها بنو بويه على بغداد والتي أصبحت الخلافة العباسية منذ تاريخها اسمية فقط ، ويمتد العصر العباسي الثالث إلى استيلاء التتار على بغداد . وقد يقسم بعض المؤرخين هذا العصر العباسي الثالث قسمين ، فيقف بالقسم الأول عند دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ويستقل القسم الثاني أو العصر العباسي الرابع ببقية العصر . (٤) وباستيلاء التتار على بغداد يبدأ العصر الرابع ويستمر إلى نزول الحملة الفرنسية بمصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م (٥) ثم العصر الحديث الذي يمتد إلى أيامنا الحاضرة .

وسنبقى في كتابنا على العصرين الأولين ، أما العصر الثالث وهو العصر العباسي فسندخل عليه بعض التعديل ، وذلك أننا سنبقى على قسمين منه : عصر عباسي أول ينتهي بانتهاء خلافة الواثق سنة ٢٣٢ هـ ، وعصر عباسي ثان ينتهي باستيلاء

البويهيين على بغداد سنة ٣٣٤ هـ . ومن هذا التاريخ إلى نهاية العصور الوسطى نبتدى عصرًا رابعاً نمده إلى العصر الحديث وهو عصر الدول والإمارات ، فقد تفككت أوصال الدولة العباسية وظهرت إمارات وخلافات ودول كثيرة كإمارات الفرس في إيران وما وراءها وسيف الدولة الحمداني في حلب والفاطميين ثم الأيوبيين والمماليك والعثمانيين في مصر والأمويين ثم ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين ومن خلفوهم في الأندلس . وجرى أن يبحث الأدب العربي في هذا العصر الرابع ويؤرخ في كل إقليم على حدة ، فيكون هناك جزء لإيران والعراق وجزء لمصر والشام والجزيرة العربية وجزء للأندلس وبلاد المغرب ، وقد ينمو البحث وتتولد أجزاء أخرى ، حتى إذا انتهينا من ذلك أرخنا للعصر الخامس وهو العصر الحديث وقسمناه بدوره أجزاء على البلاد العربية .

ولا أشك في أن هذا التقسيم الجديد لعصور الأدب العربي أكثر دقة ومطابقة لتطوره وللظروف المختلفة التي أثرت فيه فإن بغداد لم تعد منذ القرن الرابع الهجري تحتل المكانة الأولى في الحركات الأدبية ، بل لقد نافستها في الشرق والغرب مدن كثيرة تفوقت عليها في النهوض بالشعر والنثر تفوقاً واضحاً .

الفصل الأول الجزيرة العربية وتاريخها القديم

١

صفة الجزيرة العربية^(١)

تشغل جزيرة العرب الجنوب الغربي لآسيا ، وقد سماها أهلها جزيرة لأن الماء يدور بها من ثلاث جهات في جنوبها وغربها وشرقها ، فهي شبه جزيرة ، وليس في الأرض شبه جزيرة تضاهيها في المساحة . ويرى علماء الجيولوجيا أنها كانت متصلة بإفريقية في الزمن المتعمق في القدم ، ثم فصلهما منخفض البحر الأحمر الذي يمتد في غربها ، كما يرون أنه كان يغطي جزءاً منها في العصر الجليدي مروج خضراء ، وكانت تجري بها بعض أنهار ، ولا تزال تشهد عليها أودية جافة عميقة . وبطل عليها في الجنوب المحيط الهندي وفي الشرق بحر عُمان وخليج العرب . وتترامى متوغلة في الشمال على حدود فلسطين وسوريا غرباً والعراق وبلاد الجزيرة شرقاً . وكان جغرافيو اليونان والرومان يقولون إنها ثلاثة أقسام : العربية الصحراوية والعربية الصخرية أو الحجرية والعربية السعيدة ، أما العربية الصحراوية فلم يعمّنوا حدودها ولكن يفهم من كلامهم أنهم كانوا يطلقونها على البادية الشمالية التي تصاقب بلاد الشام غرباً وتمتد شرقاً إلى العراق والحيرة . وكانت تقع في شمالها مملكة تدمر التي حكمها أسرة الزبّاء المشهورة . وأما العربية الصخرية فكانوا يطلقونها على شبه جزيرة سيناء والمرتفعات الجبلية المتصلة بها في شمالي الحجاز وجنوبي البحر الميت ، وهي التي أقام فيها النبط مملكتهم واتخذوا مدينة سلع بطراً .

٨٦ وما بعدها وكتاب تاريخ العرب (مطول)
لفيليب حنّ (الترجمة العربية) ج ١ ص ١٥
وما بعدها وكتاب «قلب جزيرة العرب» لفؤاد حمزة

(١) انظر في صفة الجزيرة العربية
كتب الجغرافية العربية وكتاب تاريخ العرب
قبل الإسلام لمواد على (طبع بغداد) ج ١ ص

حاضرة لهم ، وامتدت هذه المملكة في عهد الحارث الرابع أوائل القرن الأول للميلاد إلى دمشق ، غير أن الرومان استولوا عليها سنة ١٠٦ م . أما العربية السعيدة فكانت تشمل وسط الجزيرة وجنوبها ، أو بعبارة أخرى كل ما وراء القسمين الأول والثاني . وربما دل ذلك من بعض الوجوه على أن هذا القسم الثالث كان يدين بالولاء للدول الجنوبية مثل معين وسبأ .

ويقسم جغرافيو العرب الجزيرة إلى خمسة أقسام ، هي : تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن ، وتهامة هي المنطقة الساحلية الضيقة المطلّة على بحر القلزم أو البحر الأحمر . وتسمى في الجنوب باسم تهامة اليمن ، وقد يبلغ عرضها في بعض الأماكن خمسين ميلا ، وكان العرب القدماء يسمونها الغور لانخفاض أرضها ، وهي أرض رملية شديدة الحرارة ، وقد قامت بها بعض المرافق والثغور مثل الحديدية في اليمن ومثل جدة وينبع في الحجاز . ويقع في شاليهما ثغر صغير يعرف باسم الوجه ، ويظن أنه كان ثغر مدينة الحِجْر المعروفة الآن باسم مدائن صالح . وفي جنوبي الوجه قرية الحوراء وربما كانت هي الموضع الذي أرسى فيه إليوس جالوس القائد الروماني بجيوشه سنة ٢٤ ق . م وهي الغزوة التي أراد بها أن يفتح بلاد اليمن وباعت بالفشل الذريع .

وتمتد في شرق تهامة سلسلة جبال السّراة من الشمال إلى الجنوب فاصلة بينها وبين هضبة نجد ومؤلفة لإقليم الحجاز المعروف، وتكثر في هذا الإقليم الأودية والمناطق البركانية ، والحرّات وهي أراض رملية تعلوها قمم البراكين . وإذا وجدت في هذه الأراضي آبار وعيون آذنت بالخصب وقيام القرى الكبيرة مثل المدينة أو يثرب ووادي القرى في شاليها وهو يقع بينها وبين العُلا وكانت تسمى قديماً دادان . ومن مدن هذا الوادي قُرْح وكانت تقام بها سوق عظيمة في الجاهلية ومدينة الحِجْر أو مدائن صالح وقومه من ثمود . ونزل اليهود ببعض قرى هذا الوادي مثل خيبر وفدك ، وامتدوا إلى تيماء في الشمال ويثرب في الجنوب . وكان ينزل في هذه الجهات قبل الإسلام قبائل عُدْرة وبَلَسَى وجُهَيْنَة ، وقُضاعة وكانت تمتد عشائرها إلى شبه جزيرة سيناء. وعثر المنقبون في وادي القرى على نقوش عربية جنوبية وأخرى شمالية كاثمودية واللّحيانية. وأهم مدن الحجاز مكة واسمها

عند بطليموس مكربا (Macoraba) وكانت قبل الإسلام تمسك بزمام القوافل المصعدة إلى البحر الأبيض والمنحدرة إلى المحيط الهندي، وكان بها الكعبة بيت أصنامهم حينئذ فكان العرب يحجون إليها ويتجرون في أسواقها ويتعاونون ما يحتاجون إليه . وعلى بعد خمسة وسبعين ميلا إلى الجنوب الشرقى من مكة تقع الطائف، وقد أقيمت على ظهر جبل غزّوان، وتحف بها أودية وآبار كثيرة أُناحت للمملكة النباتية أن تزدهر هناك من قديم ، وقد عُثِرَ فيها على نقوش ثمودية .

وينبسط الحجاز شرقاً في هضبة نجد الفسيحة التى تنحدر من الغرب إلى الشرق حتى تتصل بأرض العروض وهى بلاد اليمامة والبحرين . ويسمى العرب جزءها المرتفع مما يلى الحجاز باسم العالية ، أما جزؤها المنخفض مما يلى العراق فيسمونه السافلة، بينما يسمون شرقها إلى اليمامة باسم الوشوم وشمالها إلى جبلى طي: أجأ وسلمى باسم القصيم ، وهو عندهم الرمل الذى ينبت الغضا وهو ضرب من الأثل، وإليه يُنسب أهل نجد فيسمون أهل الغضا. وشمال نجد صحراء النفود وهى تشغل مساحة واسعة ، إذ تبتدى من واحة تيماء وتمتد شرقاً نحو ٣٠٠ ميل وتزخر بكثبان من الرمال الحمراء ، تتخللها مراعى فسيحة . وإذا اقتربت من العراق مدت ذراعاً لها نحو الجنوب، فتفصل بين نجد والبحرين متسمية باسم الدهناء أو رولة عالج وهى منازل قبيلتى تميم وضبة فى الجاهلية والإسلام، حتى إذا أحاطت باليمامة انبطحت فى الرُّبْع الخالى وهو صحراء واسعة قاحلة يظن أنها تبلغ نحو خمسين ألف ميل مربع، وهى تفصل بين اليمامة ونجد من جهة وبين عُمان ومهرة والشحر وحضرموت من جهة ثانية ، وتندمج فيها صحراء الأحقاف التى تمتد إلى الغرب فاصلة اليمن من نجد والحجاز . وهذه الصحارى التى تطوق نجداً فى الشمال والشرق والجنوب قفار متسعة، وخيرها القسم الشمالى إذ تكسوه الأمطار فى الشتاء حلة قشبية من النباتات والمراعى . ووراء هذا القسم فى الشمال بادية الشام وهى كثيرة الأودية والواحات وبادية العراق أو بادية السماوة ، وواضح أنهما لا تعدان من نجد .

وتشمل العروض اليمامة والبحرين وما والاها . وصَدَّ ياقوت فى معجم البلدان اليمامة من نجد ، وكانت عند ظهور الإسلام عامرة بالقرى، مثل حِجْر وكانت حاضرتها ، ومثل سدوس ومنقوحة وبها قبر الأعشى ، ويقال إنها كانت موطن

قبيلتي طَسَمَ وجديس البائدتين . وقد عثُرَ فيها على نقوش سبئية متأخرة . وتمتد البحرين من البصرة إلى عُمان وبها كانت تنزل قبيلة عبد القيس في الجاهلية ، وهي تشمل الآن الكويت والأحساء وجزر البحرين وقطر ، وتكثر في هذا الإقليم الآبار والمياه وخاصة في الأحساء ، ومن مدنه القديمة هَجْر وفي أمثالهم « كجالب التمر إلى هجر » ، والقَطَيف وكانت تسمى أيضاً الخطَّ وإليها تنسب الرماح الخطية . وفي جنوبي البحرين عمان ومن مدنها صُحار ودُبا وكان بها سوق مشهورة في الجاهلية . وعُرف سكان هذه المنطقة من قديم الملاحاة واستخراج اللآلئ .

أما القسم الخامس من الجزيرة وهو اليمن فيطلق على كل الجنوب ، فيشمل حضرموت ومهرة والشَّحْر ، وقد يطلق على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة ، وهو الإطلاق المشهور الآن . وتتألف اليمن من أقسام طبيعية ثلاثة : ساحل ضيق خصب هو تهامة اليمن وجبال موازية للساحل هي امتداد سلسلة جبال السراة ثم هضبة تفضى إلى نجد ورمال الربع الخالي ، وبها كثير من الأودية والسهول والثمار والزروع بفضل أمطار الرياح الموسمية الغزيرة وقد وصفها القرآن الكريم بأنها « جَنَّاتٌ عن يمين وشمال » . وأتاح ذلك لسكانها أن يقيموا فيها دولاً وحضارة منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس الميلادي . ويسمى قسمها الشمالي المجاور للحجاز باسم عسير ، وكانت تنزله قبيلة بَـجِيلَة في الجاهلية ومن أشهر مدن اليمن زَبِيد وظَفَّار وصنعا وعَدَن ونَجْرَان . ومن أشهر وديانها تَبَالَة وبيشة وكانت به مأسدة . وتمتد شرق اليمن حضرموت على ساحل بحر العرب ، فإقليم مهرة ، والشَّحْر ومعناه في اللغة الجنوبية الساحل ، وتنمو في جباله أشجار الكُنْدُر وهو اللُّبَّان الذي اشتهر به جنوبي بلاد العرب في الجاهلية .

ومناخ الجزيرة في جملته حار شديد الحرارة ، وتكثر في نجد رياح السموم التي تهب صيفاً ، فتشوى الوجوه شيباً ، وألطف رياحها الرياح الشرقية ويسمونها الصَّبا ، وأكثر شعراؤهم من ذكرها . أما ربيع الشمال فباردة وخاصة في الشرق إذ تتحول إلى صقيع في كثير من الأحيان . والأمطار عامة قليلة إلا في الجنوب حيث تهطل أمطار الرياح الموسمية في الصيف ، وإلا في الشمال الغربي حيث تهطل أمطار الرياح الغربية شتاء . وكثيراً ما يتحول المطر إلى سيول جارفة في اليمن وشمال الحجاز ؛ وقد

وصف امرؤ القيس في معلقته سيلاً جارفاً حدث بالقرب من تيهاء حيث كانت منازل بني أسد . وتقل الأمطار في الداخل ولقلتها سموها غَيْثاً وحباً (من الحياة) واستنزها الشعراء على ديار معشوقاتهم وقبور موتاهم . ومتى احتبست الأمطار جفت الأرض وأجذبت وحلّ الهلاك والفناء على القطعان والرعاة . ولطول ما كان يحدث لهم من ذلك سمو الجذب سنة ، فيقولون : أصابتنا سنة أتت على الأخضر واليابس . ومن أجل ذلك كثرت عندهم الرحلة في طلب العُشب والكلأ ، فترحل القبيلة بإبلها وأغنامها إلى مراعي جديدة . وليس في الجزيرة بحيرات إلا ما يقال من أن هناك بحيرة مالحة في الربيع الحالى ، وليس بها كذلك غابات ولا أنهار جارية .

وفي الجنوب والشرق وقرى الحجاز واليمامة تكثر الزروع والثمار وتتناثر بعض الفواكه ، وقد اشتهرت اليمن وما والاها قديماً بأشجار اللبان والطيب والبخور ، كما اشتهرت حديثاً بأشجار البن ، وتشتهر الطائف بالكروم ، ولم يكونوا يعتمدون عليها وحدها في الخمر بل كانوا يعتمدون أيضاً على مدن الشام . والنخلة أهم الأشجار في الجزيرة كلها . ويتردد على السنة شعراء نجد ذكر طائفة من الأزهار على رأسها العرار والخزامى وطائفة من الأشجار على رأسها الغضا والأنثى والأرطى والسدر (الطلح) والحنظل والضال والسلّم .

أما الحيوان فقد صور شعراؤهم كثيراً من أليفه مثل الخيل والإبل والأغنام وحشيه مثل الأوعال والظباء والنعام والغزال والزراف وحمار الوحش وأتته وثور الوحش وبقره ومثل الأسد والضبع والذئب والفهد والفمر . ودارت الطيور الجارحة على ألسنتهم مثل الحدة والصقر والنسر والغراب ، وقلما وصفوا منهلاً دون أن يذكروا القسطا وهو يشبه الحمام . وذكروا كثيراً الجراد ، وتحدثوا عن النحل واشتهرت به هذيل التي كانت تغني ببيوته وخلاياه . ومن زواحفهم الثعبان والعقرب والورك والضب ، وفي أمثالهم : « أعقد من ذنب الضب » .

الساميون^(١)

تطلق كلمة الساميين على مجموعة من الشعوب في الشرق الأوسط دلت القرابة بين لغاتها على أنها كانت في الأصل تتكلم ب لهجات متقاربة تطورت إلى لغات سميت جميعاً باسم السامية أخذاً من اسم سام بن نوح الذي ورد ذكره في التوراة، وهي تسمية اصطلاحية ، فليس هناك أمة تسمى بالأمة السامية إنما هناك صلات لغوية بين طائفة من اللغات تدل على أنها ترجع إلى أصل لغوي واحد ، إذ تتشابه في أصول أفعالها وأزمانها وفي كثير من أصول الكلمات والضمائر والأعداد . وقد قسمها علماء اللغات إلى شمالية وجنوبية وقسموا الشمالية إلى شرقية وغربية ، أما الشرقية فاللغة الأكديّة (البابلية والآشورية) وأما الغربية فاللغة الأوجريّة (لغة نقوش رأس شمرا) والكنعانية (الفينيقية والعبرية والمؤابية) ثم الآرامية . وقسموا الجنوبية إلى عربية شمالية وهي الفصحى وعربية جنوبية وهي لغة بلاد اليمن وما والاها في الزمن القديم ، ثم الحبشية .

وتسأل العلماء عن المهد الأصلي لأسلاف الناطقين بهذه اللغات السامية المختلفة ، وتعددت إجاباتهم في هذا الصدد ، فمن قائل إنهم نشأوا مع الحاميين في موطن واحد ، لعله في شمال إفريقيا أو في ناحية الصومال ، ومنه هاجر الساميون إلى بلاد العرب عن طريق باب المندب أو عن طريق شبه جزيرة سيناء ، ومن قائل إنهم نشأوا مع الآريين في أواسط آسيا أو في أرمينية ، ومن قائل إنهم نشأوا في شمال سوريا ، ومن قائل إنهم نشأوا فيما بين النهرين . ومهما يكن المهد القديم لأصل نشأتهم الذي يتعمق في عصور ما قبل التاريخ فإن الباحثين يتفقون على أن موطنهم في العصور التاريخية هو الجزيرة العربية ، فقد نزلوا بها واستقروا فيها

(١) راجع في الساميين وموطنهم الأول وأسرهم تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ج ١ ص ١٤٨ وما بعدها وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى ج ١ ص ٨ وما بعدها ومقدمة في

تاريخ الحضارات القديمة لطف باقر (الطبعة الثانية) ج ١ ص ١١٥ وما بعدها و ج ٢ ص ٢٣٢ - ٢٣٦ .

وعاشوا حياة مشتركة اكتسبوا خلالها هذا التشابه في لغاتهم .

ودفعهم جَدْب الجزيرة ونصب ما حولها من العراق والشام واليمن إلى المهجرة في موجات يتلو بعضها بعضاً في فترات متباعدة وكأنما كانت الجزيرة تشبه خزاناً كبيراً يفيض على ما حوله في الحين بعد الحين . وأول موجة فاضت من هذا الخزان موجة الأكديين (البابليين والآشوريين) خرجت من الجزيرة إلى العراق في أواخر الألف الرابع ق . م وأوائل الثالث فوجدت هناك السومريين وقد عاشوا مدة تحت حكمهم ، تأثروا فيها بلغتهم ودينهم وعاداتهم وكل ما سبقوهم إليه في الحضارة والعمارة . ولا نغضى طويلاً في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م حتى نجدهم يقيمون مملكة لم يتخذون حاضرتها مدينة أكد كان أهم ملوكها سرجون الأول (في حدود ٢٣٥٠ ق.م) الذي مد فتوحه حتى وسعت دولته العراق والجزيرة والشام ، فكانت تلك أول دولة سامية عُرِفَت في الشرق الأوسط . ولم تلبث أن انهارت ، فقامت على أنقاضها دويلات مستقلة ، وتقدمت دولة بابل في أوائل الألف الثاني ق . م فأعادت الأمور إلى نصابها ، ومن أشهر ملوكها حمورابي الذي تولى الملك في القرن الثامن عشر ق.م وكان سياسياً ومشرعاً عظيماً ، واشتهر بين المؤرخين بمسلته التي سجل عليها في ثلاثمائة سطر شريعته ، وهي تصور تصويراً دقيقاً القانون البابلي القديم . وامتازت هذه الدولة بشخصية سامية حية ، فقد ازدهر القانون في عهدها وازدهر الأدب بفرعيه من الشعر والقصص . على أننا لا نغضى طويلاً حتى نفد أم غير سامية من الشرق — هم الكشيون — فتخرَّب بابل ؛ ولا يلبث الحيثيون وهم من أم آسيا الصغرى أن يقضوا عليها في أوائل القرن السادس عشر ق.م . وبينما كانت بابل تعاني من الكشيين والحيثيين كان إخوانهم الذين هاجروا معهم من الجزيرة العربية ويمموا نحو الشمال فيما بين النهرين وهم الآشوريون ينهضون ، ومعنى ذلك أنهم من نفس الموجة الأكديّة . وتاريخهم يتضح منذ القرن الرابع عشر ق.م وقد اتخذوا نينوى في بعض عصورهم حاضرة لهم ، وكانت دولتهم حربية عسكرية ، واستعمروا الشام وآسيا الصغرى واستولوا على بابل وحاربوا مصر ، ولغتهم الآشورية تخالف البابلية في بعض خصائصها ، وقد ازدهرت في عهدهم علوم الطب والفلك والرياضيات كما ازدهرت فنون الأدب . ولا نصل إلى القرن السابع ق.م

حتى تهلكهم حروبهم ، ويهجم عليهم الميديون من هضبة إيران ، ويستولوا على حاضرتهم نينوى . فستقل عنهم بابل وتقوم بها الدولة البابلية الحديثة أو دولة الكلدانيين (٦٢٦ - ٥٣٨ ق.م) الذين اشتهروا بإتقانهم لعلم الفلك كما اشتهر ملكهم بختنصر بتخريبه لبيت المقدس . وسرعان ما يقضى عليهم الفرس بقيادة كورش سنة ٥٣٨ ق.م ويخضعون لدولتهم المعروفة بالكيانية . ويدور الزمن دورة وإذا الإسكندر المقدوني في القرن الرابع ق . م يستولى على الشرق الأوسط ، وبذلك ينتهى تاريخ هذه الموجة السامية القديمة موجة الأكديين من بابليين وأشوريين .

والموجة السامية الثانية التى خرجت من الجزيرة العربية هى موجة الكنعانيين ، وقد بدأت فى خروجها منذ أوائل الألف الثانى ق. م ويممت الشام وسواحل البحر الأبيض الشرقية ، وأسست هناك مدناً تجارية مثل صَيْدَا وصور وجُبَيْل وبيروت . وكان اليونان يسمون أهل السواحل من هذه الموجة باسم الفينيقيين ، وقد أسسوا لهم مستعمرات فى إفريقية وآسيا الصغرى والأندلس وهم الذين اخترعوا الخط الأبجيدى وعندهم انتشر فى العالم . ومن هذه الموجة الأوجريتيون الذين تغلغلوا فى شامى سوريا وقد وصلتنا عنهم نقوش رأس شمرا فى شامى اللاذقية وفيها شعر وحكم . ومن هذه الموجة أيضاً المؤابيون الذين استقروا فى شرق الأردن وأسسوا به مملكة فى القرن العاشر ق . م ، وكذلك منها العبريون الذين استقروا فى فلسطين منذ القرن الثالث عشر ق.م وقد استولى الآشوريون على مملكتهم الشمالية فى القرن السابع ق.م. وهدم بختنصر ملك بابل حاضرتهم أورشليم فى القرن السادس ق.م وأجلى سكانها إلى بابل . ولا تلبث الآرامية أن تغلب على لغتهم ، إلا أنهم ظلوا يحافظون عليها فى تعاليمهم الدينية وفى بعض كتاباتهم .

والآراميون هم ثالث الموجات السامية الكبيرة التى خرجت من الجزيرة العربية قبل الميلاد ، وقد بدأ خروجهم منذ منتصف الألف الثانى ق.م. والمظنون أنهم كانوا بدواً رحلاً ينتقلون شامى صحراء النفود فى باديتى الشام والعراق ويتغلغلون إلى خليج العقبة غرباً وجنوبى الفرات شرقاً . وقد استطاعوا أن يكونوا لهم إمارة بين بابل والخليج العربى ، عرفت باسم كلد ومنها أخذ اسم الكلدانيين . ونراهم فى القرن الثالث عشر ق.م ينزحون إلى أراضى الرافدين دجلة والفرات فى الشمال ، ويعرف

هؤلاء النازحون باسم آرام النهرين . ولا نلبث أن نراهم في القرنين الحادى عشر
والعاشر ق.م يبلغون أوج قوتهم فيغيرون على شمالى الشام ويكونون به دويلات
صغيرة بين حلب وجبال طوروس ، وقد استولوا على دمشق وأسسوا بها مملكة اشتبكت
في حروب طويلة مع الفينيقيين والعبريين . وكان لها دور مهم في شئون التجارة فقد
كانت قوافلها الصلة بين العراق والشام وآسيا الصغرى ، وكانت تلتقى في شمالى الحجاز
بقوافل اليمن وقوافل النوبيين من الحجازيين . وظلت للآراميين هذه
الأهمية التجارية بعد سقوط دويلاتهم ، فلما سرعان ما سقطت إذ لم تكن تجمعها
وحدة سياسية تشد من أزرها أمام هجمات الآشوريين ، ففقدوا عليها واحدة بعد
أخرى . وقد أخذوا عن الفينيقيين أبجديتهم بسبب اختلاطهم بهم في التجارة وكتبوا
بها لغتهم . ولما سقطت دويلاتهم تفرقوا في ممالك غربى آسيا ، فكان ذلك سبباً في
انتشار لغتهم وثقافتهم وحضارتهم ، إذ وجدت أمم العراق وإيران سهولة في أبجديتهم ،
مما جعل الدولة الكيانية تتخذها إحدى لغاتها الرسمية ، وقد أصبحت اللغة اليومية
للآشوريين والبابليين والعبريين والفينيقيين ، وربما كان من الأسباب المهمة في
ذلك سهولة نحوها بالإضافة إلى سهولة أبجديتها . وتقوم الحرب بين الفرس والروم
ويتخذون من بلادهم ميداناً لها ، فيتأثرون بحضارتيهما ، وبذلك أصبحوا ورثة
الحضارات القديمة في هذا المحيط : الحضارة الفارسية والرومانية والبابلية والآشورية
والفينيقية . وقد كتبت الأناجيل بالآرامية إذ كان يستخدمها حواريو المسيح كما كتبت
بها معظم المؤلفات الدينية للكنائس الشرقية ، ولها لهجات عدة ، أهمها اللغة
السريانية التى كانت منتشرة فيما بين النهرين ، وقد اتخذتها المسيحية لغة أدبية لها ،
وهى اللغة التى كان يدرس بها الطب والعلوم الطبيعية بجانب اليونانية في مدارس الرها
فما بين النهرين ومدرسة جنديسابور الفارسية وغيرها . ومن لهجاتها أيضاً لهجة
الصابئة فيما بين النهرين . وقد ظلت بلهجاتها المختلفة لغة حية في الشرق الأوسط إلى
أن جاء الإسلام ففقدت عليها وعلى لهجاتها لغة القرآن الكريم ، وإن ظلت
معروفة في بعض البيئات .

والموجة السامية الأخيرة هى موجة العرب الجنوبيين وما تفرع عنها من موجة
حبشية ، وقد بدأت في أواخر الألف الثانى ق.م متجهة إلى الجنوب وساحل المحيط

الهندي . ويظهر أن جماعات ممن نزلت في تهامة اليمن هاجرت إلى السواحل الإفريقية ، بقصد التجارة وتغلغت في هضبة الحبشة وكونت هناك مملكة ، نشبت بينها وبين العرب الجنوبيين سلسلة من الحروب انتهت بقضائها على دولتهم في سنة ٥٢٥ م . وقد اعتنق حكامها المسيحية منذ القرن الرابع الميلادي .

٣

العرب الجنوبيون^(١)

تقسم الظروف الطبيعية بلاد العرب قسمين كبيرين ، تفصل بينهما صحراوات واسعة ، تجعل حياة كل منهما تختلف عن الأخرى . فبينما تحضر الجنوبيون كان الشماليون في الحجاز ونجد يعيشون معيشة بدوية ، إذ كانوا في الحملة بدواً رُحَّلًا ينتقلون وراء مساقط الغيث ومواضع العُشْب والكلأ . ونشأت عن ذلك فروق واسعة بين القسمين المتناقضين فبينما ظل الشماليون يحيون في الغالب حياة بدوية إلا ما تسرب إليهم من الحضارات الأجنبية المجاورة في العراق والشام نهض الجنوبيون بحضارة لا تزال حصونها وهياكلها وقلاعها وأبراجها قائمة لم تندثر اندثاراً تاماً . وقد استطاعوا أن يَشِيدُوا سَدًّا مَأْرَبَ لِحَبْسِ الْمَاءِ فِي فَصْلِ الْأَمْطَارِ ، مما يدل على أنه كان لديهم نظام محكم لتدبير شئون الزراعة وتوزيع المياه ، فقد أقاموا السدود والصحاريج ، وكانت أرضهم مهيأة لتزدهر فيها حياة نباتات وأشجار واسعة بفضل مياه الأمطار الموسمية وطرق الري الصناعية . ونشأت بينهم وبين بلاد العراق والشام ومصر علاقات تجارية واسعة فقد كانت قوافلهم تجوب الصحراء العربية شرقاً وشمالاً منذ الألف الثاني ق . م تحمل توابل الهند ورقيق إفريقية وأفافيه اليمن وعروضها من اللبان والطيب والبخور وتعود محمّلة بعروض البلاد التي تتجر فيها .

وكان المعروف عن هؤلاء العرب الجنوبيين قليلاً ، فهو لا يتجاوز إشارات

المستشرقين ترجمة فؤاد حسنين على (نشر
وزارة التربية والتعليم) وانظر تاريخ العرب
قبل الإسلام لجواد على ١/ ٣٧٥ ، ٨/ ٢ -
٢٧٦ ، ١٣٦/ ٣ - ٢١٤ .

(١) انظر في أصل تسمية العرب باسمهم
كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على
١/ ١٦٩ وراجع في تاريخ العرب الجنوبيين
كتاب التاريخ العربي القديم لطائفة من

وردت عنهم في العهد القديم وفي بعض الآثار المصرية والبابلية والآشورية وفي كتابات المؤرخين والجغرافيين من اليونانيين والرومانيين ، ثم ما كتبه العرب عنهم بعد الإسلام ، وتختلط به الأساطير . وظل تاريخهم غير واضح إلى أواسط القرن الماضي ، فقد جد علماء الغرب في قراءة نقوشهم المنشورة على الأبراج والهياكل والنُصُب والأحجار ، وهي مكتوبة بخط يسمى الخط المُسند ، وهو خط سامي قديم ، وقد عرف هؤلاء العلماء اللغة التي كتبت به ولهجاتها ، فهي لغة سامية قريبة من الحبشية والعربية الشمالية ، انبثقت فيها لهجتان أساسيتان هما المعينية والسبئية .

ومن هذه النقوش استطاع الباحثون أن يعرفوا الحضارة العربية الجنوبية بدياناتها وآلهتها وأنظمتها الحكومية ودولها وملوكها ، واستقر بينهم أنه كانت هناك خمس ممالك هي مملكة مَعِين وكانت حاضرتها معين في الجوف اليمنى ثم مملكة سَبَأ في جنوبها وعاصمتها مأرب ، ومملكة قَتَبَان في الجنوب الغربي لسبأ وعاصمتها تَمَنُح ، والمملكة الأوسانية جنوب قَتَبَان ، ثم مملكة حضرموت وحاضرتها شَبْوَة . ويظهر أنه كان للمعنيين دولة قوية منذ القرن الثاني عشر ق.م وقد سيطروا على القتبانيين والحضرميين . أو بعبارة أدق سيطروا على طريق القوافل التجارية لا في الجنوب فحسب . بل أيضاً على طول الطريق إلى الشمال . فقد وجدت نقوش معينة في شمالي الحجاز بدادان في منطقة العُلا الحالية وفي الحِجْر أومدائن صالح ، مما يدل على أنهم أنشأوا في هذه الجهات مراكز لقوافلهم التجارية كي تحميها ، وأغلب الظن أنه كان لهم بها حاميات نزلت بها بعض عشائهم . ومع مرور الزمن غلبت عليهم طوابع العرب الشماليين . فكانوا بذلك أول من حمل الحضارة الجنوبية إلى إخوانهم في الشمال .

ولا فصل إلى القرن السابع ق.م. حتى يغلب السبئيون على المعنيين ويمدوا سلطانهم بعد ذلك على الاتحاد الجنوبي كله ، كما يمدونه على مراكز المعنيين في الشمال ، وقد تحوالت إلى أيديهم أزمة القوافل التجارية ، واتخذوا مأرب حاضرة لهم ، وقصة سدّها وخرباه مشهورة ، وكذلك قصة ملكتها بلقيس مع سليمان عليه السلام . وحدث حوالي سنة ٢٧٠ ق.م أن أنشأ بطليموس الثاني أسطولاً بحرياً في البحر الأحمر يحمل إلى مصر عُرُوض الهند وإفريقية الشرقية فأحدث ذلك اضطراباً في

شئون السبثيين الاقتصادية، ونازعهم ملوك ريدان أصحاب ظفار وغلبوا عليهم وعلى الدول الجنوبية منذ سنة ١١٥ ق.م. وكانوا يتلقبون باسم ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمنات ، وهم الحميريون . ودولتهم آخر الدول العربية الجنوبية ، ولا نصل إلى سنة ٢٤ ق.م حتى نجد إليوس جالوس وإلى الرومان على مصر يجهز حملة كبيرة لفتح بلاد الحميريين والاستيلاء على ما بأيديهم من مفاتيح تجارة التوابل والأفاويه ، وفشلت حملته فشلاً ذريعاً . غير أن الرومان اتجهوا إلى الملاحة في البحر الأحمر، ويقال إنهم استولوا على ميناء عدن واتخذوها قاعدة لتأمين سفنهم، فشلتوا بذلك تجارة الحميريين وساءت أحوالهم الاقتصادية، فأهملوا شئونهم العمرانية، وأخذ الخراب يدب في البلاد ، وظهر لهم خصم ثان هو ملوك الحبشة الذين حاربهم واستولوا على بلادهم في منتصف القرن الرابع الميلادي وظلوا بها نحو عشرين عاماً ، عادت بعدها الدولة الحميرية ، ولكنها لم تعد إلى سابق قوتها ، فإن القبائل الشمالية أخذت تُغير عليها كما أخذ كثير من عشائرها يهاجر إلى الشمال . وفي نقوشهم ما يدل على أن الأعراب نزلوا بديارهم منذ القرن الرابع الميلادي واستقروا فيها ، وقد أخذت لغتهم تتغلب في بعض الجهات على لغة البلاد الأصلية كما أن من هاجر من عرب الجنوب إلى الشمال غلبت عليه لغة الشماليين ، مما أعد لا تنصار العربية الشمالية على العربية الجنوبية في أواخر العصر الجاهلي .

وفي هذه الأثناء تغلغت اليهودية في الجزيرة العربية منذ اضطهد أباطرة الرومان اليهود في القرن الأول للميلاد ، واندفعت بعثات دينية مسيحية إلى الجنوب ، واعتنقت مدينة نجران في القرن الخامس هذا الدين الجديد ، وربما كان السبب في هذه البعثات المنافسة الشديدة بين فارس وبيزنطة . وأفرع ملوك حمير تغلغل النصرانية في ديارهم ، خوفاً من تحولها إلى البيزنطيين ، فناهضوها وأيضاً فإنهم كانوا يخافون من ملوك الحبشة المسيحيين أن يدخلوا عن طريقها بلادهم . ونشب هناك صراع حاد بين اليهودية والنصرانية ، ولا تلبث أن نرى ذا نواس آخر الملوك الحميريين يعتنق اليهودية ويحاول القضاء على المسيحيين في نجران ، فأوعزت بيزنطة إلى النجاشي أن يغزو اليمن ، فغزاها سنة ٥٢٥ واستولى عليها وضمها إلى بلاده . وظل هذا الاحتلال الحبشي نحو خمسين عاماً، ثارت فيها اليمن ثورات عنيفة ، وأخيراً استنجد

أهلها بالفرس أعداء بيزنطة ، فردوا الأحباش وظلوا بها حتى سنة ٦٢٨ م إذ اعتنقوا
بإذان عاملهم الإسلام . وبذلك ينهى التاريخ القديم للعرب الجنوبيين .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أن عرب الجنوب لعبوا دوراً واسعاً في
تاريخ الحضارة العربية القديمة ، وكانت حضارتهم عربية صافية لم تأت منهم من
الخارج ، بل نمت وتطورت في الداخل ، إذ كان لهم قوانينهم وأنظمتهم وديانتهم ،
وكان لهم قديمٌ راسخ في عمارة القصور والهياكل وتشيد السدود . وكانوا يؤمنون
السيارات الفلكية والنجوم ، وأثرت ديانتهم الوثنية في العرب الشماليين إذ يُظنّ أنهم
أخذوا عنهم — كما أخذوا عن الآراميين — عبادة الكواكب ، وكانت تقوم على
أساس ثلاث هو القمر واسمه عند المعينيين ودّ ، وكان لإلههم الأكبر ، وتليه الشمس
التي اعتبروها زوجها وهي اللات ، ومنهما ولد عثر أو العزى أى الزهرة أو فينوس .
ويجانب هذا الثلاث كان عندهم آلهة أخرى ترمز لبعض النجوم أو بعض الطير
أو بعض مظاهر الطبيعة ، وكانوا يقدمون لها القرابين ويبنون الهياكل ويقوم عليها
كهنة ذوو نفوذ كبير . ويظهر أنه كان لهم أدب ديني كثير ، إلا أن الإسلام
قضى عليه كما قضى على الأدب الوثني في الشمال . وقد حملوا مع قوافلهم
وهجراتهم دينهم وحضارتهم إلى العرب الشماليين ، فأثروا فيهم أثراً بعيدة . وظلوا
حتى ظهور الإسلام يشكلون عنصراً مابيناً لهم ، على الأقل من حيث النسب ،
فكانوا يدعون القحطانيين أو اليمنيين ، بينما دُعي عرب الشمال باسم العدنانيين
أو التزاريين . ويلاحظ أن قبائلهم المهاجرة اختارت في الأكثر جوار الأمم
المتحضرة ، فنزلت غسان وقضاعة ومن إليهما في الشام ونزلت لخم في العراق . ومنهم
من نزل في داخل الجزيرة وأظهر ميلاً إلى التحضر والاستقرار كالأوس والخزرج في
المدينة ومكة في الشمال . على أن من تم منهم اندماجه في البدو تلاشت فيه هذه
التزعة مثل طي في جبلى أجبأ وسلمى . ومن يتعقب القبائل القحطانية في الإسلام
يرى أنها كانت تحترم النظام المطلق ، بينما كان يمجته التزاريون .

العرب الشماليون^(١)

هم العرب العدنانيون الذين كانوا يسكنون في الحجاز ونجد وتمتد عشائرتهم وقبائلهم إلى باديتي الشام والعراق ، وقد ظلوا يعيشون معيشة صحراوية بدوية تعتمد في أكثر الأحيان على رعى الإبل والأغنام . ولم تهبط لهم هذه الحياة الاستقرار في سكنى دائمة ، إلا حيث توجد بعض الواحات في الحجاز . ويظهر أنهم أنشأوا في بعض الأزمنة مملكة لهم بالخوف (دومة الجندل) في أقصى الشمال بين العراق والشام ، وقد خضعت لنفوذ الآشوريين إذ نرى ملوكهم يفخرون بالانتصار عليها . كما نراهم يفخرون بالانتصار على التموديين في شمالي الحجاز حيث كانوا يقيمون في العُلا والحجر (مدائن صالح) . وقد اتخذ نابونيد آخر ملوك دولة بابل الثانية أو الحديثة تيماء حاضرة له من سنة ٥٥٠ إلى سنة ٥٤٥ ق.م مما يدل على أنه كان بها حضارة زاهية .

وكل الدلائل تدل على أن العرب الشماليين لم يتجمعوا قبل الميلاد في وحدة سياسية تجمع شملهم ، فقد كانت طبيعة بلادهم تدفعهم إلى التشتت والتفرق والانقسام، ولم يهتدوا في أثناء ذلك بهدى كهدى الإسلام يجمع كلمتهم ويؤلف بينهم ، ويجعل منهم دولة واحدة ، تلعب دوراً واضحاً في التاريخ القديم . وقد كشفت نقوش آرامية في تباء الواقعة شمالي مدائن صالح تدل على أنه قامت فيها مستعمرة آرامية تجارية في القرن الخامس ق.م . وكان للمعنيين مستعمرة في ناحية «العُلا» شمالي الحجاز ، كشفت فيها نقوش معينة كثيرة ، وكانت تسمى معين مُصْران ، وكان سكانها من عرب الجنوب، وقد نقلوا إليها عباداتهم وهياكلهم المقدسة، وما زالوا ناشطين في التجارة، حتى نشأت دولة النبط في سلع «بطرا»، فكانت هي التي تنقل تجارة الجنوبيين إلى الشام ومصر ، حتى إذا دالت دولتهم في مستهل القرن الثاني الميلادي حملها اللججانيون الذين كانوا ينزلون في دادان (العلا الحالية) .

٣٧٤ ، ٢٧٧/٢ وما بعدها ، ٥/٣ وما بعدها ،
٤٢٣/٣ وما بعدها .

(١) انظر في تاريخ العرب الشماليين كتاب
تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ١/٢٢٠-

واللحيانيون عرب شماليون ، كتبوا نقوشهم بالخط المعيني المسند مما يدل على أثر الجنوبيين فيهم ، ولعلمهم كانوا يختلطون بقوم منهم ، وقد كتب النحويون ، الذين كانوا يقيمون هم أيضاً في شمالي الحجاز وكانوا عرباً مثلهم ، بهذا الخط الجنوبي ، الذي انتشر إلى منازل العرب في الصفا ببحوران جنوبي دمشق ، مما يؤكد علاقة وثيقة بين هذه الأجزاء وعرب الجنوب حين كانوا يسيطرون على طريق القوافل التجارية من القرن الثامن إلى القرن الثالث ق.م وهو القرن الذي قامت فيه إمارة عربية في شمالي الجزيرة هي إمارة النبط ، فقد كان أهل هذه الإمارة يأخذون عن الجنوبيين تجارتهم ويحملونها بدورهم إلى الشام ومصر ، واتخذوا « بطرا » حاضرة لهم ، هكذا ورد اسمها عند اليونان ولعله ترجمة لاسمها الذي جاء في التوراة وهو « سلع » ، وكانت الحِجْر (مدائن صالح) حاضرتهم في الجنوب بينما كانت بُصْرَى حاضرتهم في الشمال . ويظهر أن قبائل من هؤلاء النبط كانت قد سبقت إلى الإغارة على بلاد الآراميين شمالاً ، فتحضرت بحضارتهم واستخدمت كتابتهم الآرامية في نقوشها ، بينما ظلت تتكلم العربية في أحاديثها اليومية . وبذلك نلتقي عند هؤلاء النبط بنقوش عربية كتبت بالخط الآرامي على نحو ما التقينا عند اللحيانيين والنحويين بنقوش عربية كتبت بالخط المعيني المسند ، غير أن الخط الآرامي هو الذي انتصر فقد تطورت نقوشه حتى انتهت إلى الخط العربي الذي أشاعه الإسلام .

والمظنون أن الأنباط لم ينزحوا من نجد إلى شمالي الحجاز ، بل نزحوا من بادية الشام ، واستطاعوا أن ينهضوا بحضارة راقية لا تزال تدل عليها آثارهم في بطرا حاضرتهم الكبيرة . وقد ظلت دولتهم نحو أربعة قرون ، من القرن الثالث ق.م. إلى أوائل القرن الثاني الميلادي ، وكانت العلاقة بينهم وبين البطالسة ثم بينهم وبين الرومان حسنة ، إذ حالفهم ولم يتعرضوا لاستقلالهم حتى كانت الفتنة اليهودية على عهد طيطوس ، ففرض الرومان على استقلالهم وضموا بلادهم إلى دولتهم الرومانية سنة ١٠٦ للميلاد .

وعاد العرب الشماليون إلى الظهور في مملكة تدمر شمالي بادية الشام في أثناء القرنين الثاني والثالث الميلاديين ، وكانت السيادة فيها لهم ، غير أن السكان كان

أكثرهم من الآراميين . ووقفت تدمر صامدة خلال المنافسة الشديدة بين روما والفرس لخطّة حياذ التزمّتها ، زادت في قوتها ومنعتها ، وأصبحت من أهم المراكز التجارية . وبلغ من علو شأنها أن استولى ملكها أذينة على سوريا كلها واعترف به الرومان إمبراطوراً على المشرق ، إلا أنهم عادوا فنكسروا عهودهم في عهد زنوبيا (الزبّاء) إذ حاربوها وقضوا عليها سنة ٢٧٣ م ودمروا تدمر فلم تقم لها بعد ذلك قائمة . وظلت سيرة هذه الملكة وأبيها أذينة في ذاكرة العرب إلى ما بعد الإسلام ، وإن شابها الأسطورة وبعدت عن أساسها التاريخي الصحيح .

٥

النقوش ونشأة الكتابة العربية ^(١)

لا يكاد يخلو حجر في جنوبي الجزيرة العربية وقلبها وشمالها من نقش تذكاري نقشه كتاب محترّفون أو غير محترّفين من الرعاة ورجال القوافل ، يذكرون فيه أسماء آلهتهم متضرعين إليها أن تحميهم ، وقد يذكرون ما يقدمون إليها من قربان ، وقد يكتبونها على قبورهم مسجلين أسماءهم وأسماء عشائرتهم وما قام به الميت من أعمال وقد يودعونها بعض قوانينهم وشرائعهم .

ولا تخلو ديار أمة سامية من هذه النقوش التي أتاحت لعلماء الساميات اكتشاف تاريخ هذه الأمم من جهة وقيام دراسة اللغات السامية وخصائصها ومعرفة تطورها ومقارنتها بغيرها من أخواتها من جهة ثانية . وبذلك وقفوا وقفاً دقيقاً على حقائق هذه اللغات وحضارات أهلها وثقافتهم ودياناتهم وكل ما اتصل بهم من رقى وتطور على مر العصور والأزمان .

ص ٤٢٣ وما بعدها، ج ٧ ص ٣٦ وما بعدها
وكتاب تاريخ الأدب العربي لبلاشير (ترجمة
إبراهيم الكيلاني - طبع دمشق) ج ١ ص ٧٠
وما بعدها .

(١) انظر هنا كتاب أصل الخط العربي
وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام لخليل يحيى
نامي (بحث في مجلة كلية الآداب المجلد الثالث ،
العدد الأول) وكتاب تاريخ العرب قبل
الإسلام لمجواد علي ج ١ ص ١٠ و ج ٣

وقد عُرف الأكديون في العراق بخطهم المسماري أو الإيسيني ، بينما عرف عرب الجنوب بخطهم المسند، ومنه نشأ الخط الحبشي وخطوط اللهجات العربية الشمالية القديمة وهي اللحيانية والثمودية والصفوية. والليحيانيون — كما قدمنا — قبيلة عربية شمالية، كانت تسكن في منطقة العلا ، ونراهم يستعملون « ها » أداة للتعريف بدلا من أل ، وقد اختلف في تاريخهم ، فن الباحثين من يرجعهم إلى القرون الأولى ق.م. ومنهم من يتأخر بهم إلى ما بعد الميلاد ، بل منهم من يتأخر بهم إلى القرن الخامس إذ ضعفوا وتلاشوا في قبيلة هذيل. وعدّهم الحمداني من بقايا جرهم ، ولعله يشير بذلك إلى صلتهم باليمنيين ويظهر أنهم كانوا يدينون لهم بالولاء . أما الثموديون فيعود تاريخهم إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون ، وقد عاشوا إلى ما بعد الميلاد وكانت منازلهم كما مرّ بنا في الحجر (مدائن صالح) وحولها ، ويظهر أنهم أصيبوا بكارثة عظيمة ، فثارت بهم بعض الزلازل أو بعض البراكين ، وفي القرآن الكريم « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » . وقد خلّفوا كثيراً من النقوش كتبوها بالخط المسند المعيني . وهم مثل الليحيانيين والصفويين كانوا يستخدمون « ها » أداة للتعريف بدلا من أل . وأما الكتابات الصفوية فعُثر عليها في الحرّة الواقعة بين جبل الدروز وتلّول أرض الصفا . وكلمة الصفويين لا تعني شعباً معيناً أو قبيلة معينة ، إنما هي اصطلاح حديث للدلالة على تلك الكتابات التي عُثر عليها في تلك الجهات . وقد عُرف من دراستها أنها كتبت بالخط المعيني وأنها لهجة عربية قديمة كالثمودية والليحيانية ، وكثير من نقوشها يرجع إلى القرون الأولى للميلاد ، ويظهر أن من كتبوها كانوا بين التبدى والتحضر ، فمنهم البدو الرعاة ومنهم الفلاحون ، ولهم قرى وزراع ، وربما كان لهم تجارات .

وهذه النقوش الصفوية والثمودية والليحيانية عربية كما قدمنا برغم أنها كتبت بالخط المعيني الجنوبي ، فخصائصها اللغوية قريبة من خصائص العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، وإن اختلفت عنها في أداة التعريف وفي بعض الصفات اللغوية ، إلا أنها على كل حال تصورتوراً من أطوار اللغة العربية الشمالية ، وقد احتوت على كثير من أسماء الرجال وأسماء الآلهة والأصنام .

وبجانب هذه النقوش نجد نقوشاً أخرى بالخط النبطي ، وهي تنتشر في بطرا

حاضرة ملكهم وما حولها وفي الحجر حاضرتهم الجنوبية وبُصْرى بحوران في الشام عاصمتهم الشمالية وما يتصل بهذه الجهات في شرق الأردن وجبل الدروز ، وقد مر بنا أنهم كانوا الصلة بين العرب الجنوبيين وحوض البحر المتوسط ، وبلغ من قوتهم أن كان يخشاهم اليهود وبقية أُمم الشام حتى أهل روما كانوا يخشونهم ، فعملوا على القضاء على دولتهم حتى تم لهم ذلك كما قلنا سنة ١٠٦ للميلاد . ولم ينته بذلك تاريخهم ، فنقوشهم تستمر إلى القرن الثالث الميلادي ، ويظهر أنهم تلاشوا بعد ذلك في العرب . وكانوا يتكلمون في أحاديثهم اليومية العربية ، إلا أنهم اختلطوا بالآراميين عن طريق التجارة وأخذوا عنهم أبجديتهم أو خطهم وكتبوا به نقوشهم ، ولذلك قد يعدم بعض الباحثين من الآراميين ، ولكن من المحقق أنهم كانوا عرباً يتخاطبون بالعربية .

ولما سقطت دولتهم وانتشروا في الحجاز ونجد أخذ شيوخ العرب وأمرأؤهم يتخذون خطهم في كتابة نقوشهم وهجروا الخط اللحياني والثمودي والصفوي . وسرعان ما تطور هذا الخط النبطي الآرامي إلى الخط العربي الذي كُتب به القرآن الكريم والمؤلفات الإسلامية . وهناك روايات عند المؤرخين المسلمين تزعم أن الخط العربي منشؤه الحيرة وأنه نُقل منها إلى مكة والحجاز . غير أن هذه الروايات لا تتفق ووثائق النقوش التي كشفت في الحجاز ودرسها علماء اللغات السامية ، فقد وجدوا نقوشاً حجازية وغير حجازية تصور انتقال الخط الآرامي إلى خط نبطي ، ثم انتقال هذا الخط إلى الخط العربي . والمعروف أن الحيرة قبيل الإسلام كانت نصرانية وكانت تزخر بالثقافة السريانية ، كما كانت تكذب بالخط السرياني قلم المسيحيين في هذه الأنحاء . ولا يعقل أن يكونوا هم الذين تطوروا بالخط النبطي واشتقوا منه الخط العربي ، لأنه لم يشع في ديارهم ولأنه كان خط الوثنيين في شمالي الحجاز . وقد يكون مرجع هذا الوهم في روايات المؤرخين الإسلاميين أن الخط الكوفي نما وازدهر في الكوفة ، فظنوا أن هذه البيئة هي التي ابتكرت الخط العربي وأنه نما وتطور في الحيرة .

والحق أنه إنما حدث له هذا النمو والتطور في الحجاز نفسها ، فقد كانت بها حياة تجارية مزدهرة ، جعلتهم يأخذون الخط المعيني أولاً ، ويتطورون به إلى

خطوطهم اللحيانية والثمودية والصفوية . ثم لما ظهرت مملكة النبط واستخدمت الخط الآرامي وتطورت به ، وتفرق أهلها بعد سقوطها في داخل الجزيرة وعلى طول طريق القوافل التجارية نشروا قلمهم النبطي ، فهجر عرب الحجاز القلم المعيني وأخذوا يحاولون النفوذ من الخط النبطي إلى خطهم العربي الجديد متطورين به ضرورياً من التطور حتى أخذ شكله النهائي .

وليست المسألة مسألة فرض واحتمال ، وإنما هي مسألة نقوش حملت إلى علماء الساميات الدليل القاطع الذي لا مطعن فيه على هذه الحقيقة ، فقد عثروا على نقوش في شمالي الحجاز وعلى طول طريق القوافل إلى دمشق تثبت تطور الخط النبطي تطوراً سريعاً إلى الخط العربي . وأهم هذه النقوش على الترتيب نقش عثر عليه ليثان في قرية أم الجمال غربي حوران ، ويرجع تاريخه إلى سنة ٢٧٠ م وهو لفهر بن سُلَيْم الذي كان مربيّاً لحذيمة ملك تنوخ ، وخطه نبطي إلا أنه يمتاز بظهور روابط بين الحروف . ويليه نقش النمارة الذي اكتشفه دوسو وماكلر سنة ١٩٠١ على بعد ميل من النمارة القائمة على أطلال معبد روماني شرق جبل الدروز ، بالقرب من الأماكن التي عثُر فيها على الكتابات الصفوية ، وقد كُتِبَ شاحداً لقبر ملك من الملوك اللخميني يسمي امرأ القيس بن عمرو ، وأُرِّخَ بشهر كسلول من سنة ٢٢٣ بتقويم بَصْرِي وهو يوافق شهر كانون الأول (ديسمبر) من سنة ٣٢٨ م وهذا نصه :

قِي نَفْس مَر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج
وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجا
بِزَجِي في حبيج نجران مدينة شعر وملك معدو ونزل بنيه
الشعوب وولكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه
عكدي . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده

ويلاحظ أن الكاتب بدأه في السطر الأول بكلمة قِي الإشارية التي للمؤنث لأنها داخلة على نفس ولعلها هنا بمعنى جسد ، وقد استخدم ذو بمعنى الذي ، وهي لغة معروفة بين بعض القبائل مثل طي ، كما استخدم كلمة أسر بمعنى عصب وعقد ، وهو من معانيها في المعاجم العربية . وقد حذف الألف من كلمة « التاج » ،

ولم يكونوا يشتونها حيثئذ . وليس في هذا السطر كلمة غريبة سوى بر التي استخدمها الكاتب بمعنى ابن وهي آرامية . ونراه في السطر الثاني يضيف واوًا إلى نزر و منحجو وفقاً لكتابة النبط التي تضيف إلى الأعلام الواو . أما عكدى فلعلها عكديا ، حذفت منها الألف ، وفي المعاجم العكد : القوة . ويريد بالأسدين قبيلتي أسد . ونراه في السطر الثالث يستخدم كلمة بزجي من فعل زجا بمعنى دفع أى باندفاع ، ومعنى حبّج في المعاجم أشرف وكأنها استعملت في النص مصدراً بمعنى مشارف أو حدود ، وشمير من الملوك الحميميين . واستخدم كلمة نزل بنيه الشعوب بمعنى جعلهم على الشعوب . وفي السطر الرابع ووكلهن بإضافة نون التوكيد إلى الفعل بعد الضمير . ومعنى العبارة ووكله الفرس والروم . وفي السطر الخامس بلسعد ذو ولده أى ليسعد الذى ولده .

وواضح أن النص يمثل طوراً من أطوار اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم فكلماته جميعاً عربية ما عدا كلمة بر الآرامية ، وقد استخدمت فيه أل أداة للتعريف . وإذا أردنا أن نكتبه ونقرّبه إلى لغتنا اليوم كتبناه على هذا النحو :

هذه نفس (قبر) امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلها الذى عقد التاج
وملك قبيلتي أسد ونزاراً وملوكهم وشتت منحجاً بالقوة وجاء
باندفاع (بانتصار) في مشارف نجران مدينة شمير . وملك معدا وولى بنيه
الشعوب ، ووكّله الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه
في القوة . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول ، ليسعد الذى ولده

ولعل في هذا النص ما يدل على أن اللغة العربية التي سيشرفها القرآن الكريم بنزوله فيها كانت قد أخذت تبسط سلطانها إلى شمالي بلاد العرب منذ أوائل القرن الرابع الميلادي . وتوجد الروابط بين الحروف في هذا النص وتتخذ الحروف شكلاً أكثر استدارة .

ولهذا النص أهمية تاريخية بعيدة ، فهو يتحدثنا عن ثاني ملوك الحيرة جدود المناذرة ويذكر أنه ملك قبيلتي أسد وقبيلة نزار وملوكهم ، وشتت قبيلة منحج ، وانتصر على جموع نجران . ولعل هذه أول إغارة ثابتة تاريخياً لعرب الشمال على عرب الجنوب ومدينتهم نجران . ويحدثنا النص أيضاً أنه ملك معداً وولى بنيه على الشعوب

والقبائل الكبيرة ، وقد عقد المعاهدات مع الفرس والروم ، ولم يبلغ ملك مبلغه في القوة . وليس هذا كله ما يتحدثنا به النص ولا كل دلالته ، ف وراء ذلك دلالة أعمق ، إذ يقول هذا الملك ملك العرب كلهم ، وتلك - ولا ريب - أول محاولة في إيجاد وحدة سياسية للعرب الشماليين ، بعد أن دمر الرومان دولتهم في بطرا وتدمر . على أن إمارة الحيرة لم تلبث أن خضعت للفرس ، وقد خضع الفساسنة في الشام للبيزنطيين وأخذت البعثات المسيحية تغزو الشمال في غربيه وشرقيه . ولعل ذلك ما جعل العرب يلتفون حول مكة ، وخاصة بعد أن فقدت اليمن استقلالها واحتلتها الحبشة ثم الفرس . وقد نقلوا إليها من الجنوب والشمال أصنامهم ، فكانت دار كعبتهم وعبادتهم الوثنية ، وأخذت تقوم بما كانت تقوم به اليمن من نقل التجارة وعروضها بين المحيط الهندي وحوض البحر المتوسط .

ونمضي بعد نقش النمارة نحو مائة وثمانين عاماً ، فنلتقي في زبد الواقعة جنوبي شرق حلب بنقش وجد على باب أحد المعابد هناك "أرخ سنة ٥١٢ م وفيه نرى خصائص الكتابة العربية الجاهلية تتكامل . ومن غير شك حدثت تطورات متعددة بينه وبين نقش النمارة ، أعدت لهذه الصيغة العربية الخالصة التي نجدها فيه أو بعبارة أدق في خطه . وعلى شاكلته نقش حَرَّان اللَّجَا الذي عثر عليه في الشمال الغربي لجبل الدروز جنوبي دمشق وهو مؤرخ بسنة ٥٦٨ م .

ومعنى هذا كله أن الخط العربي نشأ وتطور شمالي الحجاز ، وأنه لا يرجع في نشأته وتطوره إلى بلاد العراق ، فتلك الوثائق السابقة دليل لا يرق إليه الشك في أنه نشأ من الخط النبطي وتطور حتى أخذ صيغته النهائية في أوائل القرن السادس الميلادي في تلك البيئة الوثنية العربية الخالصة . وهو يختلف اختلافاً تاماً عن الخط الكوفي ذي الزوايا الذي يُرسم في أشكال مستديرة . فالحجاز هو موطنه ، وهو الذي نشره في محيط العرب الشماليين على طول الدروب والطرق التي كانت تسلكها قوافل المكيين التجارية .

الفصل الثاني العصر الجاهلي

١

تحديد العصر

قد يتبادر إلى الأذهان أن العصر الجاهلي يشمل كل ما سبق الإسلام من حقبة وأزمنة ، فهو يدل على الأطوار التاريخية للجزيرة العربية في عصورها القديمة قبل الميلاد وبعده . ولكن من يبحثون في الأدب الجاهلي لا يتسعون في الزمن به هذا الاتساع ، إذ لا يتغلغلون به إلى ما وراء قرن ونصف من البعثة النبوية ، بل يكتفون بهذه الحقبة الزمنية ، وهي الحقبة التي تكاملت للغة العربية منذ أوائلها خصائصها ، والتي جاءنا عنها الشعر الجاهلي . ولاحظ ذلك الجاحظ بوضوح إذ قال : « أما الشعر (العربي) فحديث الميلاد صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حُجْر ومهلهل بن ربيعة .. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له — إلى أن جاء الله بالإسلام — خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فئات عام »^(١) . وهي ملاحظة دقيقة ، لأن ما قبل هذا التاريخ في الشعر العربي مجهول ، ونفس تاريخ العرب الشماليين يشوبه الغموض منذ قضى الرومان على دولتهم في بطرا وتدمر ، إلا بعض أخبار فارسية وبيزنطية قليلة وبعض نقوش عثر عليها علماء الساميات ، وتشير تلك النقوش والأخبار إلى إمارات الغساسنة في الشام والمناذرة في الحيرة ومملكة كندة في شامى نجد ، غير أن معلوماتنا عن هذه الإمارات فيما وراء القرن السادس الميلادي محدودة ، وهي إنما تتضح في العصر الجاهلي الذي نتحدث عنه ، إذ حمل إلينا العرب كثيراً من الأخبار عن تلك الإمارات وأسرانها الذين كانوا يستولون فيها على الحكم ، كما حملوا إلينا كثيراً من

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ٧٤ / ١ .

الأخبار عن مدن الحجاز وخاصة مكة بيت الكعبة المقدسة ، وكذلك عن القبائل وما كان بينها من أيام وحروب .

من أجل هذا كله نقف بالعصر الجاهلي عند هذه الفترة المحدودة أى عند مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام ، وما وراء ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى ، وهو يخرج عن هذا العصر الذى ورثنا عنه الشعر الجاهلي واللغة الجاهلية ، والذى تكامل فيه نشوء الخط العربى وتشكله تشكلاً تاماً كما قدمنا فى غير هذا الموضع . فذلك العصر المتميز الواضح فى تاريخ العرب الشماليين هو العصر الجاهلي .

وينبغى أن نعرف أن كلمة الجاهلية التى أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذى هو ضد العلم ونقيضه ^(١) ، إنما هى مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق ، فهى تقابل كلمة الإسلام التى تدل على الخضوع والطاعة لله جل وعز وما يطوى فيها من سلوك خلقى كريم . ودارت الكلمة فى الذكر الحكيم والحديث النبوى والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحمية والطيش والغضب ، فى سورة البقرة : (قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) وفى سورة الأعراف : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وفى سورة الفرقان : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) . وفى الحديث النبوى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذرٍّ وقد عير رجلاً بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية » . وفى معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي :

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

وواضح فى هذه النصوص جميعاً أن الكلمة استُخدمت من قديم للدلالة على السفه والطيش والحق . وقد أخذت تطلق على العصر القريب من الإسلام أو بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ، بالتأثر واقتراف ما حرمه الدين الحنيف من موبقات .

(١) انظر مادة جاهلية فى دائرة المعارف الإسلامية .

الإمارات العربية في الشمال (الغساسنة - المناذرة - كندة)

ليس بين أيدينا وثائق توضح في دقة نشأة هذه الإمارات ، التي ظهرت على صفحة التاريخ إثر قضاء الرومان على تدمر ، فتاريخها قبل العصر الجاهلي أو قبل أواخر القرن الخامس الميلادي يحيط به الغموض ، ويظهر أن الرومان وخلفاءهم البيزنطيين اتخذوا من الغساسنة في الشام إمارة تحجز بينهم وبين البدو وغاراتهم وتساعدهم في حروبهم ضد الفرس ومن كان يؤيدهم من عرب المناذرة أو الحيرة في العراق . وبالمثل اتخذ الساسانيون ملوك الفرس من دولة المناذرة درعاً تحميهم من غارات البدو وجنوداً تقف في صفوفهم في أثناء حروبهم ضد الرومان والبيزنطيين والغساسنة . وبين الطرفين قامت إمارة كندة في شمال نجد ، وكانت تدين بالولاء فيما يبدو للملوك اليمن الحميريين : ملوك سبأ وذى ريدان ويمنات .

والغساسنة^(١) يعودون في رأى نسائي العرب إلى أصل يمنى ، فهم من عرب الجنوب الذين نزحوا إلى الشمال مع قبائل أخرى كثيرة أهمها جذام وعاملة وكلب وقضاعة . وقد أقاموا إمارتهم في شرق الأردن ، ولم يتخذوا لها حاضرة بعينها فتارة تكون حاضرتهم الجولان أو الجابية ، وتارة تكون جكلواء أو جلق بالقرب من دمشق . وقد يكون في ذلك ما يدل على أنهم ظلوا بدواً يرحلون بخيامهم ولبلهم وأنعامهم من مكان إلى مكان في تلك الأنحاء . ويقال إنهم أول نزولهم بالشام اصطدموا بعرب يسمون الضجاعة ، تغلبوا عليهم ، وأصبحوا سادة تلك المنطقة التي حلوا فيها ، وقرَّبهم الرومان منهم والبيزنطيون ومنحوهم ألقاباً رسمية من ألقابهم .

ويزعم مؤرخو العرب أن مؤسس سلالتهم جفنة بن عمرو مزيقياء ، ولذلك

لجواد على ١١٨/٤ وما بعدها ومحاضرات في تاريخ العرب لصالح أحمد العلي ١/٤٤ وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتى (نشر دار الثقافة بيروت) ١/٤٤٦ .

(١) انظر في الغساسنة تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمة الأصفهاني ، وكتاب « أمراء غسان » لتولدكه ترجمة قسطنطين زريق وبندل جوزي ، وتاريخ العرب قبل الإسلام

يسمون آل جَفْسَنَة ، وأول ملك من ملوكهم يمكن الاطمئنان إلى أخباره من الوجهة التاريخية هو جيلة الذى غزا فلسطين سنة ٤٩٧ للميلاد ، وخلفه ابنه الحارث (٥٢٨ - ٥٦٩) ويسمى أحياناً الحارث بن أبى شمر ، وقد لعب دوراً مهماً فى حروب الإمبراطور جستنيان ضد الفرس وعرب العراق ، فأُنعِمَ عليه بالإكليل ، واعترف بسيادته المطلقة على جميع العرب فى الشام ومنحه لقب فيلارك ومعناه شيخ القبائل ، ولقب بالطريق ، وهو أعظم الألقاب فى الدولة البيزنطية بعد لقب الملك . وقد اشتبك مع المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة فى حروب طاحنة ، وقع فى أثنائها أحد أبنائه فى قبضته سنة ٥٤٤ فقدمه المنذر ضحية للعرسى . وتأثر الحارث لنفسه فى يوم حليمة بالقرب من قنسرين سنة ٥٥٤ إذ أوقع بالمنذر موقعة فاصلة قُتِلَ فيها ، وفى أمثال العرب : « ما يوم حليمة بسر » .

وتعد أيام الحارث بن جيلة أزهى أيام مرت بالغساسنة ، إذ امتد سلطانهم من بطرا إلى الرصافة شمالى تدمر . وكانوا قد دخلوا فى المسيحية منذ القرن الرابع الميلادى ، وزار الحارث القسطنطينية ، فاستقبل استقبالاً حافلاً ، واستطاع أن يقنع أولى الأمر هناك بتعيين يعقوب البرادعى أسقفاً على الكنيسة المونوفيسية السورية فنشر عقيدته فى سوريا وبين الغساسنة . وخلفه ابنه المنذر (٥٦٩ - ٥٨١) فسار سيرته فى تأييد العقيدة المونوفيسية التى لم تكن تتفق مع عقيدة البيزنطيين الرسمية ، كما سار سيرته فى حروبه مع المناذرة ، فاشتبك مع قابوس ملك الحيرة منذ سنة ٥٧٠ فى سلسلة معارك أهمها معركة عَيْنِ أباغ وفيها انتصر عليه انتصاراً حاسماً تغنى به الشعراء طويلاً . وتدل الدلائل على أن خلافاً نشب بينه وبين البيزنطيين ، لعل مرجعه إلى تأييده للعقيدة المونوفيسية ، وربما خافوا منه أن يثور عليهم كما ثارت الزباء على الرومان من قبل ، فحرموه من الإعانات التى كانوا يقدمونها إليه وإلى أبيه ، وقلبوا له ظهر الحن ، ولكنهم عادوا إلى مصالحته ، حتى إذا حانت لهم فرصة منه قبضوا عليه ونفوه إلى صقلية ، وثار أبنائوه بقيادة النعمان عليهم ، غير أنه لقي نفس المصير حوالى سنة ٥٨٤ .

ومنذ هذا التاريخ تمزقت وحدة الغساسنة ، إذ تجزأت إمارتهم أجزاء ، على كل جزء أمير كبير أو صغير ، ويلمع اسم الحارث الأصغر ، ويظهر أن جيوشه كانت

تشبك مع القبائل النجدية في حروب دامية ، وقد أسر في إحداها شأساً أخا علقمة ابن عبدة الشاعر القيمي المشهور ، فرحل إليه يمدحه^(١) رجاء أن يفك أخاه من أسره ، ونراه يذكر في مديحه معاركه وما كان ينزله بأعدائه من خسائر ، يقول :

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ صَوَاعِقُهَا لَطِيفُ رَهْنٍ دَبِيبٌ^(٢)
فَلَمْ تَنْجُ إِلَّا شَطْبَةً بِلَجَامِهَا وَلَا طَيْرٌ كَالْقَنَاةِ نَجِيبٌ^(٣)
وَلَا كَمِيٍّ ذُو حِفَافٍ كَأَنَّهُ بِمَا ابْتَلَى مِنْ حَدِّ الظُّبَاتِ خَضِيبٌ^(٤)
وَأَنْتَ أَزَلْتَ الْخُنْزَوَانَةَ عَنْهُمْ بِضَرْبٍ لَهُ فَوْقَ الشُّوْنِ دَبِيبٌ^(٥)
وَأَنْتَ الَّذِي آثَرَهُ فِي عَدُوِّهِ مِنَ الْبُؤْسِ وَالنُّعْمَى لَهُنَّ نُدُوبٌ^(٦)

وكان لابنيه النعمان وعمرو جيوش قوية ، تجوب نجداً والصحراء الشمالية وتدين لها القبائل بالطاعة ، ويظهر أن جيوش عمرو اشبتكت في حروب مع بني أسد وبني فزارة ، ووقع كثير من أسرى القبيلتين في يد عمرو ، فقصده النابغة الذبياني يمدحه متوسلاً إليه في فكاكهم ، فأكرمه ، كما أكرمه أخوه النعمان ، ودبج فيهما مدائح كثيرة ، لعل أروعها قصيدته البائية التي يقول فيها^(٧) :

إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُوفَهُمْ بِهِنَ قُلُوبٌ مِنْ قِرَاعِ الْكِتَابِ

الفرس المتحفزة للوثوب ، شبهها بالقناة في الضمور .

(٤) الكمي : الشجاع ، والظباة : جمع ظبة وهي حد السيف ، وخضيب : مصبوغ بالدماء .

(٥) الخنزوانة : الكبر ، وشؤون الرأس : ملتحق عظامها .

(٦) ندوب : جروح .

(٧) مختار الشعر الجاهل لمصطفى السقا (طبع الحلبي) ص ١٥٩ .

(١) يذكر أكثر الرواة أن علقمة إنما قصد بقصيدته الحارث بن جبلة (انظر ديوان علقمة بشرح المشتري طبع الجزائر سنة ١٩٢٥ ص ٢٥) وراجع القصيدة في المفضليات . وقد دحض تولد هذه الرواية ذاهباً إلى أن القصيدة في مديح الحارث الأصغر . انظر جواد على ١٤٣/٤ .

(٢) صابت : مطرت ، يقول أصابها الصواعق فلم تقدر على الطيران فديت تطلب النجاة .

(٣) الشطبة : الفرس الطويلة ، والطرير :

وعمر وهو ممدوح حسان بن ثابت ، وقد كان ينزل به وبغيره من أمراء الغساسنة ، وله فيه مطولة مشهورة يقول في تضاعيفها ^(١) :

أولاد جَفَنَةَ حول قَبْرِ أبيهم قبر ابن مارية الكريم المُفْضِلِ
بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم شُمُّ الأنوف من الطراز الأولِ

وعلى نحو ما كان ينزل به كان ينزل بجبلبة بن الأيهم الذي لحق الفتوح الإسلامية ، وحارب في صفوف الروم ، ثم أسلم وعاد فتنصر في عهد عمر بن الخطاب ، ورحل إلى بيزنطة . ويقال إنه حين أسلم دخل المدينة في موكب حافل من حاشيته وكان يضع على رأسه تاج أجداده تزيينه لؤلؤلتان كانتا فيما مضى قرطين لأم الحارث بن جبلة .

وفي أخبار الغساسنة المتأخرين ما يدل على أنهم كانوا يصيبون حظوظاً من الترف والتعيم ، فقد وصف حسان بن ثابت مجلساً من مجالس جبلة بن الأيهم ، فقال : « لقد رأيت عشر قيان : خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة . . . وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . وكان إذا جلس للشراب فُرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب ، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة ، وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بطن بالثلج وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية ، يتفضل هو وأصحابه بها في الصيف ، وفي الشتاء القراء الفنك وما أشبهه . ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع على ثيابه التي عليه في ذلك اليوم ^(٢) » .

ويقابل الغساسنة في الشام المناذرة ^(٣) في العراق ، وهم من لَحْمٍ ، ويعود بها النسابون إلى أصل يمني ، هي وبعض قبائل عربية نزلت هناك مثل تنوخ . وقد

(١) ديوان حسان (طبعة ليدن) ص ١٦ .
(٢) أغاني (سامي) ١٤/١٦ .
(٣) انظر في المناذرة تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٥/٤ - ١١٧ ،
وتاريخ العرب (مطلوب) لفيليب حتى
(الترجمة العربية) ١٠٧/١ ومحاضرات
في تاريخ العرب لصالح أحمد المل
١٥/١ وما بعدها .

احتذى الفرس الساسانيون معهم سياسة الرومان والبيزنطيين أعدائهم التقليديين مع عرب الشام . وربما كان جدّيمة الأبرش أهم ملك أسطوري ظهر في هذه الأنحاء قبل اللخمين ، ويقال إنه كان يعاصر الزباء ، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى اللخمي وهو رأس المناذرة . وتاريخهم أكثر وضوحاً من تاريخ الغساسنة ، وربما كان ذلك يرجع إلى أن ملوك الفرس دونوا تاريخهم ، فأخذ عنهم العرب ، على أن ابن الكلبي يزعم أنه استخرج تاريخهم من بيع الحيرة وأديرتها .

وكان هؤلاء العرب العراقيون ينزلون في الخيام أولاً ، ثم تحولوا إلى قرية في الجنوب الشرقي من النجف الحالية ، كانت تقع في منطقة خصبة يرويها نهر الفرات ، وهي الحيرة (تحريف لكلمة حرثا في السريانية ومعناها الخيم أو المعسكر) وسرعان ما نصب عليها الساسانيون المناذرة ليحموهم من غارات البدو ويساعدوهم في حروبهم ضد الرومان والبيزنطيين وأحلافهم من الغساسنة عرب الشام . ويقال إن سابور (٢٤١ - ٢٧٢) هو الذي نصب عمرو بن عدى ، وتتابع من بعده خلفاؤه من بيته ، وربما كان ابنه امرؤ القيس الذي عُثر على نقشه في النمارة كما أسلفنا يدين بالولاء للفرس والروم جميعاً . أما من خلفوه فكانوا يدينون بهذا الولاء للفرس وحدهم . ومن أهمهم النعمان الأعور أو السائح ، وكان له جيش قوى يتألف من كتيبتين هما الشهباء والدوسر ، واشتهر ببنائه قصرى الخورنق والسدير ، ونرى الملك الساساني الذي كان يعاصره وهو يزدجرد الأول (٣٩٩ - ٤٢٠) يرسل أكبر أبنائه إليه ، لينشأ في قومه ، وليتعلم الفروسية والصيد ، وهو بهرام جور . ولما توفي يزدجرد أراد الفرس إقصاءه عن العرش فتدخل النعمان ، وأيده بجيش مكثه من استرداد عرشه ، فأعلى ذلك من شأن المناذرة والحيرة . وهياً لها موقعها في طرق القوافل أن كانت مركزاً مهماً للتجارة ، فعاش المناذرة معيشة يسودها غير قليل من الترف ، بسبب التجارة التي كانوا يشاركون فيها وبسبب ما كان عندهم من حياة زراعية . ومن غير شك يسبق المناذرة الغساسنة في الرخاء ، ولعل ذلك ما جعل حياتهم أكثر استقراراً بالقياس إلى غساسنة الشام ، كما جعلهم أكثر حضارة ورقياً .

وأزهى عصورهم عصر المنذر بن ماء السماء (حوالي ٥١٤ - ٥٥٤ م) وقد

ساعات العلاقات بينه وبين قُبَاذ ملك الفرس في أوائل حكمه ، ولعل ذلك يرجع إلى أن قبّاذ اعتنق المزدكية واتخذها ديناً رسمياً للدولة وحاول أن يفرضها على المناذرة فأبى المنذر ، فعزله وولى مكانه الحارث بن عمرو أمير كنتة ، ولكن الأمور سرعان ما تطورت فتوفى قبّاذ ، وخلفه كسرى أنوشروان وكان يكره المزدكية والمزدكيين ، فأعاد المنذر إلى حكم الحيرة ، ونشبت بينه وبين الحارث الكندى وأبنائه سلسلة حروب قضت عليهم جميعاً . وربما كان من أسباب القضاء عليهم استيلاء الحبش على اليمن وانحلال ملك الحميريين هناك ، منذ سنة ٥٢٥ . ومهما يكن فقد تحولت قبائل نجد وشرق الجزيرة إلى الحيرة ، فدان معظمها للمنذر بالولاء ، ويظهر أنه مدّ سلطانه إلى عُمان كما تحدثنا بذلك الأخبار . وقاد منذ عاد إلى عاصمته سنة ٥٢٩ حروباً طاحنة ضد الغساسنة والبيزنطيين كُتِب له النصر في كثير منها ، ونستطيع أن نقف على مدى انتصاراته في هذه الحروب من معاهدة عُقِدَت بين البيزنطيين والفرس سنة ٥٣٢ أدّوا له فيها ما أدّوه للفرس من أموال . واشتهر بين العرب بأن كان له يومان : يوم نعيم ويوم يؤس ، فكان أول من يطلع عليه في اليوم الأول يعطيه مائة من الإبل ، وأول من يطلع عليه في اليوم الثاني يقتله ، ومن قتله في هذا اليوم المشنوم عبيد بن الأبرص ، ويقولون إنه راجع نفسه ، فأقلع عن هذه العادة السيئة ، ويقال أيضاً إنه قُتِل — وهو ثمل — نديمين له ، فلما صحا من سكره وعرف ما قدمت يداه ندم وأمر ببناء صومعتين عليهما ، وهما الغريّان اللذان يذكران في أشعار العرب . وقد يكون هذا كله من باب الأسطورة ، وربما كان الغريان نصبيين من الأنصاب التي كان العرب الوثنيون يهرقون دماء الأضحيات والذبائح عندها . وما زال المنذر يشن الحرب على الغساسنة حتى قتل في يوم حليلة كما أسلفنا .

وخلفه ابنه عمرو بن هند (٥٥٤—٥٦٩م) وينسب إلى أمه في بعض الروايات دير هند في الحيرة ، وربما كانت نصرانية ، أما هو فكان وثنيّاً على دين آبائه ، وكان طاغية مستبدّاً ، وفيه يقول أحد الشعراء (١) :

أَبَى الْقَلْبُ أَنْ يَهْوَى السِّدِيرَ وَأَهْلَهُ وَإِنْ قِيلَ عَيْشٌ بِالسِّدِيرِ غَرِيرُ

به البَقِّ والحُمَى وأَسَدُ خَفِيَّةٍ وعَمْرُو بن هِنْدٍ يَعْتَدِي وَيَجُورُ

ولقبه العرب بالخرق لأنه نذر أن يقتل مائة رجل من تميم حرّاً وبرّاً بنذره في يوم أَوارة باليمامة . واشتبك مع تغلب وطِيٍّ في بعض معاركه ، و يظهر أن سلطانه امتد على قبائل كثيرة في شرق نجد وشمالها وغربها ، وكان بحكم استبداده يتعرض له كثير من الشعراء بالهجاء ، وقصته مع طرفة والمتلمس مشهورة . وينسب إليه شعر كان ينظمه ، وقد أصبحت الحيرة في عهده مركزاً أدبياً مزدهراً ، إذ كان يجزل العطاء للشعراء ، فوفد عليه كثيرون منهم عمرو بن قميئة والمسيب بن عكّس والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم التغلبي الذي يقال عنه إن ابن هند لقي مصرعه على يده ثاراً لكرامة أمه ليلي حين أهينت في بيته .

وولى أمر الحيرة بعد عمرو قابوس ثم المنذر الرابع ، ولم تطل مدتهما ، وبذلك نصل إلى النعمان الثالث ابن المنذر الرابع المكنى بأبي قابوس (٥٨٠ - ٦٠٢) وقد نشأ في حِجْر أسرة مسيحية هي أسرة عدى بن زيد العبادي ، ولعل ذلك سبب تنصره فهو أول من تنصّر من ملوك الحيرة الوثنيين . وكان سلطانه يمتد إلى البحرين وعمّان ، وكانت له قوافل تجارية أو لطائم تجوب الجزيرة . وسار سيرة عمرو بن هند في رعايته للشعراء ، فوفد على بابيه منهم كثيرون مثل أوس بن حِجْر والمنخل اليشكري وليبد والمثقب العبدى وحجّر بن خالد الذي يقول فيه ^(١) :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أجد كمثل أبي قابوس حزمًا ونائلاً

وهو ممدوح النابغة الذبياني ، وله فيه غير قصيدة ، وحدثت جفوة بينهما ، بسبب وفود النابغة على الغساسنة ، وأرسل له بمجموعة طريفة من قصائده يعتذر إليه وهي من أجود ما خلّف الجاهليون ، وفي إحداها يقول :

نُبِّئتُ أن أبا قابوس أوعدني ولا قرارَ على زارٍ من الأسدِ

وكان الشعراء يتعرضون له بالهجاء أحياناً ويتألون منه ، على نحو ما نرى عند يزيد بن الجذّاق الشنّي من بني عبد القيس ^(٢) وعبد قيس بن خُفاف البرُجميّ

(٢) انظر المفضليات (طبع دار المعارف)

رقم ٧٨ ، ٧٩ .

(١) الحيوان ٥٨/٣ والمرزوقي على ديوان

الحملة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر)

ص ١٦٤٠ .

القمي^(١) . ويظهر أن النعمان لم يكن سهل القياد ، ويقال إنه قتل عدى بن زيد فضاق به كسرى الثاني ملك الفرس واستدرجه إلى حاضرتة بالمدائن ، وألقاه في غيابة السجن ، ثم قتله ، ويقال إنه رى به تحت أرجل الفيلة فزقته إرباً . ولم يول الفرس بعده أحداً من هذا البيت فقد نصبوا على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي ، واثارت قبيلة بكر حمية للنعمان على إياس والفرس وهزمتها شر هزيمة في يوم ذى قار . وبقيت الأمور مضطربة حتى استولى على الحيرة خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ م .

واحتلت الحيرة وأمراؤها حيزاً كبيراً في أقاصيص العرب وأخبارهم وأشعارهم فطالما تحدثوا عن الغريتين وقصرى الخورنق والسدير ، وطالما قصوا عن أمرائهم الحقيقيين والأسطوريين مثل جنديمة الأبرش . ويظهر أن المناذرة عرفوا من تقاليد الملك أكثر مما عرف الغساسنة ، وكانوا أوسع منهم سلطاناً إذ دانت لهم بالطاعة اليمامة والبحرين وعمان وقبائل العراق وعلى رأسها بكر وتغلب وكذلك كثير من قبائل نجد وخاصة بعد انحلال مملكة كندة . وعلى نحو ما أكثر الشعراء في مديح النعمان بن المنذر وأسلافه أكثروا من استعطافهم حتى لا تغزوهم جيوشهم^(٢) وقد يشكون من ثقل الضرائب وبما كانوا يدفعون ويؤدون من الإتاوات في أسواق العراق وفي غير أسواق العراق^(٣) .

وكل الدلائل تدل على أن الحياة كانت مزدهرة في الحيرة قبيل الإسلام ، وكان أكثر سكانها من القبائل العربية ، وكان يجاورهم العباديون من النصارى ، ويظهر أنهم كانوا أخلطاً من العرب وغير العرب . كما كان يجاورهم الأحلاف من بعض العرب ومن النبط : سكان العراق من بقايا الأكديين والآراميين ، وكانوا يحترفون الزراعة ، وكانت هناك جالية فارسية ، تتمتع ببعض المهن والحرف ، ويظن أنه كان هناك بعض اليهود . وكانت الحيرة كما قدمنا سوقاً تجارياً كبيراً ، وكل ذلك أعدّ لأن تنحضر ، وأن تتأثر بالثقافة الهيلينية الفارسية التي كانت تعم في تلك الأنحاء .

(٣) المفضليات رقم ٤٢ البيت ١٦ - ١٧

وقارن مع رقم ٤١ البيت ١٧ .

(١) الحيوان ٣٧٩/٤ .

(٢) الأصمعيات (طبعة دار المعارف)

رقم ٥٨ .

وبين إمارة الحيرة وإمارة الغساسنة قامت إمارة ثالثة في شمالى نجد كان أمراؤها يدينون - فيما يظهر - بالولاء لليمن ، وهى إمارة كندة^(١) ، ويرجع النسابون بها - كما رجعوا بالغساسنة والمناذرة - إلى عرب الجنوب ، وقد ظلت شعبة كبيرة منها تقيم فى مواطنها الأصلية بحضرموت إلى أن جاء الإسلام . وعُثر على نقوش تؤكد قيام هذه الإمارة الكندية فى القرن الرابع الميلادى .

وأشهر ملوكها فى القرن الخامس حُجْر الملقب بأكل المُرار ، وقد استطاع أن يفرض سيادته على القبائل الشمالية فى نجد وأن يمد نفوذه إلى اليمامة وتخوم إمارة المناذرة ، ويقال إن بكرًا وتغلب دانتا له بالطاعة . وخلفه ابنه عمرو المقصور ، وقد يكون فى هذا اللقب ما يدل على أن سلطانه كان محدوداً ، وفى عهده نقضت بكر وتغلب ولاءهما له ، ولم تلبث الحرب أن استعرت بين القبيلتين أربعين عاماً ، وهى حرب البسوس المشهورة .

وأعقبه ابنه الحارث ، وفى عهده بلغت كندة ذروة مجدها ، فقد خضعت له قبائل نجد ، ولجأت إليه بكر وتغلب فأصلح بينهما ، وأقام على بكر ابنه شرحبيل وعلى تغلب ابنه معديكرب كما أقام على أسد ابنه حُجْرًا وعلى قيس عيلان ابنه سلمة ، وعقد محالفة بينه وبين إمبراطور بيزنطة ، ووجه همه إلى الإغارة على المناذرة وزوج أخته المنذر بن ماء السماء ، وانتصر فى غير موقعة . ولم يلبث قباذ ملك الفرس أن خلع المنذر وعينه والياً على الحيرة كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، غير أن قباذ لم يلبث أن توفى ، فعاد ابن ماء السماء إلى الحيرة ، ويقال إنه أوقع بالحارث هزيمة نكراء ، قتل فيها وقتل معه أكثر من أربعين أميراً من بيته . ودس المنذر بين أبنائه ، فتحاربوا وسقط شرحبيل وسلمة فى ميادين الحرب وجُزَّ معد يكرب ، وانتقضت قبيلة أسد على حُجْر أبى امرئ القيس وقد حاول أن يسترد ملك أبيه ولكن المنذر كان له بالمرصاد ، ففشلت محاولاته وباعت بالخذلان ، ويقال إنه رحل إلى إمبراطور بيزنطة يستعين به فى محاربة المنذر خصمه ، غير أنه لم يعد

تاريخ العرب لصالح أحمد العل ٦٨/١ وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى ١١٤/١ وما بعدها .

(١) انظر فى كندة وأمرائها Olinder, The Kings of Kinda of تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٢١٥/٢ - ٢٧٢ ومحاضرات فى

من رحيله ، فقد مات دون أمنيته ، وشعره يفيض بالحقد على ابن ماء السماء وأصحابه الخيرين ، بينما يفيض شعر عبيد بن الأبرص شاعر بني أسد بالسخرية منه وبيان عجزه عن استرداد ملك آبائه مع الوعيد الشديد والتهديد .

٣

مكة وغيرها من مدن الحجاز^(١)

في منتصف الطريق المعبّد للقوافل بين اليمن والشام تقوم مكة في واد من أودية جبال السّراة ، تحفه الجبال الجرداء من كل جانب ، وقد وصفها القرآن الكريم بأنها « بوادٍ غير ذي زرع » . وهي تراءى لنا في العصر الجاهلي ممسكة بزمام القوافل التجارية ، كما تراءى لنا أكبر مركز ديني للوثنية الجاهلية . ويقال إنه كان يسكنها في غابر الأزمنة قبائل من جرّهم وبقايا من الأُمم البائدة ، ثم نزلها قبيلة خزاعة اليمنية حين هاجر كثير من القبائل اليمنية إلى الشمال ، ولعلها نزحت إليها لتسيطر على هذا المركز التجاري المهم . ولانصل إلى منتصف القرن الخامس حتى يظهر بها قصيّ ومعه قبيلة قريش فيستولى عليها ويخرج منها خزاعة . ولا يعرف بالضبط أصل قريش ، وهل هي من عرب نجد أو من العرب الأنباط الذين تراجعوا ناحية الجنوب أمام غزو الرومان لبلادهم . وقد دعم مكانتها غزو الأحباش المسيحيين لليمن ، فتحولت أفئدة العرب الوثنيين إليها ، وفزعت أرسقراطيتهم الشمالية والجنوبية إلى هذا المركز البعيد عن أعدائهم ، وحاول أبرهة وإلى الحبشة على اليمن أن يستولى عليها سنة ٦٧٠ أو ٦٧١ فباعت حملته بالفشل الذريع ، فزاد ذلك في تقديس العرب لها وإعظامها وعدّها رمزاً لاستقلالهم وعزّتهم وقوتهم ، إذ لم تدن لأى ملك أجنبي ، وفي ذلك يقول حرب بن أمية^(٢) :

أبا مَطَرٍ هَلُمَّ إِلَى صَلَاحٍ فَتَكْفِيكَ النَّدَامَى مِنْ قَرِيْشٍ

وما بعدها ودائرة المعارف الإسلامية وكتابي مكة والطائف قبل الهجرة ، للامس .
(٢) الحيوان للجاحظ ١٤١/٣ وصلاح هنا: مكة .

(١) انظر في هذه المدن تاريخ العرب قبل الإسلام ١٨١/٤ وما بعدها وصلاح أحمد العل ص ٧٧ وما بعدها وفيليب حتى ١٤٤/١

فَتَأْمَنَ وَسَطَهُمْ وَتَعِيشَ فِيهِمْ أبا مطرٍ هُدَيْتَ لخير عَيْشٍ
وَتَنْزَلَ بِلَدَهُ عَزَّتْ قَدِيمًا وَتَأْمَنَ أَنْ يَزُورَكَ رَبُّ جَيْشٍ

وقد هيأ لها التصادم المستمر بين الفرس والروم أن تزدهر بها التجارة ، فقد كان الطريق بين العراق والشام مقفلاً ، وكانت أكثر تجارة الشمال والجنوب تهبط فيها . وكانت قوافلها تجوب الصحراء العربية إلى الجنوب في اليمن وحضرموت وإلى الشرق في الحيرة وإلى الشمال حيث تذهب إلى بَصْرَى في الشام وإلى غزّة ومصر . وفي الوقت نفسه كانت راعية الكعبة وأصنامها وأوثانها ، وبذلك كان أهلها أشرف العرب وكان كثير منهم يعترفون لهم بالسيادة ، يقول ابن الفقيه : « إن أهل مكة لم يؤدوا في الجاهلية إتاوة قط ، ودانت لهم خبزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة ، وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحِلِّ إذا دخلوا الحرم ، وهم بعد أعزّ العرب ، يتأتمرون عليهم قاطبة » ^(١) وكانوا يأخذون منهم إتاوة تسمى الحريم إذا نزلوا في بلدهم ^(٢) كما كانوا يأخذون إتاوة من التجار الأجانب إذا ألموا بهم ، وكان ينزلها بيزنطيون وفرس للتجارة ^(٣) يدل على ذلك الصحابييان الجليلان : صُهَيْبُ الرومي وسلمان الفارسي .

وكل ذلك يؤكد مكانتها وزعامتها على العرب ، فهي بيت تجارتهم وبيت كعبتهم المقدسة ، فيها يقيمون أعيادهم الدينية ، كما يقيمون أسواقهم التجارية كسوق عكاظ ومجنة وذى الحجاز . ولم تكن أسواقاً تجارية فحسب ، بل كانت أسواقاً أدبية أيضاً ، تعرض فيها سلع الشعر ، فيتنافس الشعراء ويقوم بينهم المحكمون من أمثال النابغة فيحكمون للمتفوق ببراعته . وبذلك هيأت لحركة أدبية واسعة النطاق ، سيطرت فيها لغتها بحكم مكانتها الدينية وتنقلها بتجارتها في أسواق العرب خارج ديارها ، فأصبحت لغة الأدب الرفيعة .

ولعل في هذا كله ما يدل على عظم شأنها في الجاهلية ، وقد زعم لامنس في

(٢) انظر O'leary, Arabia Before

(١) كتاب البلدان لابن الفقيه (طبعة أوروبا)

Muhammad (London, 1927) P. 184

ص ١٨ .

وراجع مروج الذهب للمسعودي (طبعة باريس)

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ١٧٢ وأخبار

١٤٨/٢

مكة للأزرق (طبعة أوروبا) ص ١٧٥ .

كتابه عنها أنها كانت جمهورية كجمهورية البندقية التجارية^(١) ، وقد وقف طويلاً عند مكنها ونظامها التجارى المعقد ، ومعروف أنه كان بها ملاً يجتمع بدار الندوة ، وهو مجلس شيوخ مصغر ، لم يكن يدخله إلا من بلغ أربعين سنة ، وكانوا يختارون على ما يظهر حسب ثرائهم وخدماتهم التى يؤدونها وهم سادة بطونها فى البطاح وكانوا ينظرون فى شئونها التجارية والدينية . وكانت تشبه مصرفاً كبيراً ، به المكاييل والموازين والبيع الحاضر والمؤجل والربا وصنوف المضاربة المختلفة . واشتهر فيها بيتان بالثراء هما بيتا الأمويين والخزوميين ، وكان للأولين أكثر قافلة بدر ، ولعل ذلك ما جعل أبا سفيان يرأسها ، وفى الاشتقاق لابن دريد معلومات طريقة عن ثروات الخزوميين وكان منهم من يسمى ربّ مكة^(٢) . ولم يكن الثراء خاصاً بهذين البيتين فقد كان عبد الله بن جدعان وهو من تيسم ثرياً ثراء مفرطاً ، وشبهه بعض الشعراء بقيصر ، فقال^(٣) :

يوم ابن جدعان بجنب الحزوّره كأنه قيصر أو ذو الدسكرة

وكان كثير من العرب يرى سادة قریش فوق آل جفنة الغساسة ، بل فوق كسرى وآل كسرى ، وكانوا يقصدونهم بالمديح طلباً للعطاء والنوال ، ومديح أمية بن أبى الصلت فى عبد الله بن جدعان مشهور .

وبهذا كله كانت مكة أهم مدينة عربية فى الجاهلية إذ كانت مثابة للعرب وأمناء . وكان مجتمعيها يتألف من قریش البطاح الذين ينزلون حول الكعبة ، وهم : هاشم وأمّية ونخزوم وتيم وعدي وجُمَح وسهم وأسد ونوفل وزهرة ، وكانوا أصحاب النفوذ فيها ، ومن قریش الظواهر الذين ينزلون وراءهم ومعهم أخلاط من صعاليك العرب والحلفاء والموالى ، والعبيد وكان أكثرهم من الحبشة ، ويظهر أنهم كانوا كثيرين كثرة مفرطة ، ولعل مما يدل على كثرتهم أن هنداً بنت عبد المطلب اعتقت فى يوم واحد أربعين عبداً من عبيدها^(٤) ، وكانوا يقومون على لحرف ومهن كثيرة . ومن غير شك كان يعيش سادة قریش معيشة مترفة ، بحكم ثرائهم واتصالهم بالفرس

مادة حزورة ٤٤٤/٢ . والحزورة : الرابية .

(٤) المحاسن والأضداد ص ٧٧ وقارن بالأغاني

(طبعة دار الكتب) ٦٥/١ .

(١) Lammens, LaMecque, P. 175

(٢) الاشتقاق ص ٦٠ و ٩٢ .

(٣) معجم ما استمع ليكرى (طبعة السقا)

والروم ، ويقال إنهم كانوا يصيفون في الطائف ويشتون في جدة ، ونجد في سورة الزخرف استهزاء بمن ينشأ في الحلية والزينة^(١) . ويقال أيضاً إن عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم دُفن في حُلَّتَيْن قيمتهما ألف مثقال من الذهب^(٢) . ومن يقرأ أخبار قوافلهم التجارية يخيل إليه أن مكة كانت قافلة كبيرة مقيمة ، تخرج منها القوافل إلى الجنوب والشمال والشرق ، ودعاهم ذلك إلى أن يعقدوا معاهدات بينهم وبين القباصة^(٣) والنجاشيين والأكاسرة^(٤) ، كما دعاهم إلى عقد معاهدات بينهم وبين القبائل التي كانوا يمرون بها في طرقهم التجارية^(٥) .

ولكن هذا جميعه ينبغي أن لا يجعلنا نبالغ مبالغة لامنس ، فنظن أن مكة كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية ، فمع نمو العلاقات التجارية والاقتصادية فيها كان مجتمعها قليلاً ، فهو لا يعدو اتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض في حلف لغرض سدانة الكعبة من جهة والقيام على تجارة القوافل من جهة أخرى . ولا سلطان لعشيرة على عشيرة ، بل كل عشيرة تتمتع بالحرية التامة ولا طاعة عليها لأحد ، وكل ما هناك أن اشتراكهم في مصلحة واحدة خفف من غلواء هذه الحرية ، ولكنه تخفيف لا يخرج بنظام الجماعة القرشية عن النظام المعروف في القبائل الجاهلية ، ووجود مثلاً فيها أو مجلس شيوخ لا ينقض هذه الحقيقة . إذ لم يكن عمله يعدو عمل مجالس القبائل ، فقد كان في كل قبيلة مجلس يتكون من رؤساء العشائر ، ينظر في شئونها حسب قوانين العرف والعادة ، ولكنه لم يقص على حرية الأفراد ، فقد كان كل فرد متمتعاً بحريته ، مع شعوره بحقوق الجماعة أو حقوق القبيلة . وهذا نفسه هو النظام الذي كان سائداً في مكة قبل الإسلام ، فللفرد حريته وللجماعة عليه حقوق لا تتناقض مع هذه الحرية .

والى الجنوب الشرق من مكة على بعد خمسة وسبعين ميلاً تقوم الطائف على ارتفاع يبلغ نحو ستة آلاف قدم وسط رياض وبساتين تجعلها أشبه ما تكون بقطعة من رياض الشام ، وجعلها ارتفاعها طيبة الهواء ، فكان القرشيون كما قدمنا يصطافون فيها حيث يجدون كل الثمرات كما يجدون الحمر الصافية . وكانت

(٤) اليعقوبي ٢٨٢/١ والطبري نفس الصفحة

السابقة .

(٥) اليعقوبي ٢٨٠/١ .

(١) سورة الزخرف ، آية رقم ١٨ .

(٢) تاريخ اليعقوبي (طبعة أوربا) ١٣/٢ .

(٣) اليعقوبي ٢٨٠/١ والطبري (طبعة

أوربا) ١٠٨٩/١ .

تنزلها قبيلة ثقيف الوثنية ، وهناك قصة تزعم أنها من بقايا ثمود ، وربما كان لهذه القصة أصل صحيح ، وأن التموديين حين تقوضت إمارتهم في الشمال هاجروا إلى الطائف كما هاجر اللحيانيون إلى منازل هذيل بين مكة والمدينة ، وقد يدل على ذلك أننا نجد النسابين يذكرون من بطون هذيل بنى لحيان ، وكأنهم ظلوا يحتفظون في أحد بطونهم باسمهم القديم . ولم تكن حياة الثقيفيين تختلف عن حياة القبائل البدوية النجدية في شيء سوى ما أتاحت له زروعهم وثمارهم من الاستقرار على نحو ما استقرت قريش في مكة .

ونمضي إلى شمالي مكة على بعد نحو ثلاثمائة ميل ، فنلتقي بيثرب التي ذكرها بطليموس في جغرافيته كما ذكرتها الكتابات المعينية ، وهي تقوم في واد خصب ، تكنفه مرتفعات يعلو بعضها بعضاً ، وتكثر الآبار والعيون في هذا الوادي كثرة أتاحت له أن يصبح واحة جميلة تكتظ بالنخيل والأشجار والزروع ، مع الجو المعتدل ، إلا في بعض فترات الصيف ، إذ تشتد بها الحرارة ، ولكنها لا تبلغ حرارة مكة القاسية .

ويقال إن العمالة أول من سكنوا المدينة أو يثرب ، وظلوا بها حتى نزها اليهود في القرن الثاني الميلادي على أثر اضطهاد الرومان لهم في فلسطين ، والمظنون أنهم الذين سموها باسم المدينة (مدينتا) وهو اسم آرامي . وقد ظلوا على دين آبائهم إلى أن جاء العرب هددى الإسلام الحنيف ، واتخذوا العربية في حياتهم اليومية ، وإن ظلوا يحتفظون بالعبرية في طقوسهم الدينية وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت أن يتعلم لسانهم ولغتهم^(١) ، وظهر بينهم غير شاعر كان ينظم بالعربية مثل كعب بن الأشرف^(٢)

وما زال هؤلاء اليهود مسيطرين على المدينة حتى وفدت عليهم قبائل الأوس والخزرج الأزدية من الجنوب ، فأصبحوا هم سادتها الحقيقيين ، وقد اتخذوا العربية الشمالية لساناً لهم ، وكانوا وثنيين يحجون إلى مكة وأصنامها ، مثلهم مثل بقية العرب . ولم يكونوا يعتمدون على التجارة مثل المكيين ، إنما كانوا يعتمدون

النبوية لابن هشام وطبقات الشعراء لابن سلام ،
والأغاني ٩٧/١٩ ، ١٠٦ .

(١) انظر البلاذري (طبعة أوربا) ص
٤٧٤ .

(٢) راجع في شعراء اليهود بالمدينة السيرة

على زروع بلدهم وثمارها ، بينما كان اليهود يقومون على الحرف والصناعات ، وخاصة صناعة الأسلحة والأقمشة . ويظهر أن النصرانية كانت معروفة هناك في السيرة أن شخصاً كان بها يسمى عبد عمرو بن صيني خرج على الرسول وحاربه مع قریش ، وكان قد تهرب في الجاهلية ولبس المسوح^(١) .

وتدل دلائل مختلفة على أن حياة الأوس والخزرج لم تكن تختلف في شيء عن حياة البدو في الحيام ، مع أنهم سكنوا أطام المدينة . ومن أكبر الدلالة على ذلك أنهم كانوا يتحاربون على نحو ما تتحارب القبائل البدوية ، وأكبر الظن أن اليهود هم الذين عملوا على الوقيعة ونشر العداوة والبغضاء بينهم ، حتى يشغلهم عنهم ، وكانوا يصنعون لهم الأسلحة التي استخدموها في تلك الحروب الدامية . وفي كتب التاريخ والأدب أيام ومواقع لهم كثيرة مثل يوم سمير ويوم حاطب ويوم السراة ويوم فارغ ويوم الربيع ويوم البقيع ويوم مبعس ومضرس ويوم الفِجْجار ويوم بُعْاث . وتخرجت الظروف تحرجاً شديداً بين الأوس والخزرج حتى غدا كأنه من المستحيل أن يكفوا عن هذه الأيام والحروب وكأنما تعاهدوا على الفناء ، لولا أن نزل بينهم الرسول صلى الله عليه وسلم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً إذ دخلوا في دينه الخفيف أفواجاً ، وتحولوا إليه يشدون أزره وينصرونه حتى أضاعت بتعاليمه الجزيرة العربية من جميع أطرافها ومسالكها ودروبها .

وكان لليهود في شمالي المدينة قرى خاصة بهم أشهرها خيبر وفدك وبناء ، وما زالوا بها حتى أخرجهم عمر من الجزيرة فأصبحت عربية خالصة . والمظنون أن هؤلاء اليهود مثلهم مثل يهود المدينة نزلوا في هذه القرى حين اضطهدهم الرومان منذ أوائل القرن الثاني الميلادي ، واتخذوا العربية لساناً لهم ، وعبروا بها عن عواطفهم ، فجرى الشعر على ألسنة نفر منهم ، لعل أشهرهم السمّول صاحب حصن الأبلق ببناء وكان معاصراً لأمير القيس ، ويقال إن أمه كانت عربية من غسان ، ولعل ذلك العرق فيه هو الذي أنطقه بالشعر العربي ، وكان أخوه شعية شاعراً مثله . ومن المؤكد أن عرب الجاهلية لم يكونوا يطمثون إلى هؤلاء اليهود جميعاً ، ولذلك لم يؤثر في حياتهم الدينية فقد ظلوا بعيدين عنهم .

القبائل البدوية

يقسم النسابون هذه القبائل ، بل قبائل العرب الشمالية جميعها ، قسمين كبيرين : قسم عدنانى مضرى ، هو عرب الشمال المنحدرون من عدنان ونزار ومضر ، وقسم قحطانى ينحدر من قحطان (ولعله يقطان المذكور فى الإصحاح العاشر من التوراة) وقد هاجر هذا القسم من الجنوب ، من اليمن وحضرموت وعاش بين العرب الشماليين . وتشكك بعض المستشرقين فيما ساقه رواة الأخبار من هذا التقسيم وما يندرج فيه من أنساب القبائل الشمالية عامة ^(١) ، وقالوا إنه من وضع القرن الأول للهجرة وما كان من منافسات بين مكة التى نُسبت إلى عدنان والمدينة التى نُسب العرب فيها من الأوس والخزرج إلى قحطان ، وتداخلت عوامل سياسية واقتصادية مكنت من انتشار فكرة هذا التقسيم ، كما مكنت من ترتيب الأنساب العربية فى نظامها المعروف . ويبالغ بعض المستشرقين فينكر جملة أن يكون عرب الجنوب قد هاجروا إلى الشمال ، ويظن ذلك حديث خرافة .

ولكن من يرجع إلى الشعر الجاهلى يجد فيه الفخر بالبنية والقحطانية والعدنانية والمضرية ، كما يجد فيه العصبية مشتتة بين القبائل على أساس الاشتراك فى الدم وفى أب واحد أو أم واحدة ، ومن التحكم أن نجرى وراء ظنون لا دليل عليها . وحققاً اختلف النسابون فى أصل بعض القبائل وهل هى عدنانية أو قحطانية مثل خُزاعة وقضاعة وخشعم ولكنه اختلاف محدود ، والرأى الصحيح أن هذه القبائل قحطانية . ومن الثابت الذى لا شك فيه أن القحطانيين هاجروا بتأثير ظروف اقتصادية وسياسية إلى الشمال ، وأن هذه الهجرات بدأت منذ أزمان مبكرة ، فقد كان المعينون على ما يظهر يضعون حاميات فى طرق قوافلهم التجارية ، ولما ضعفت الدولة الحميرية : دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمنات هاجر كثير من

من كتاب سميت :

Kinship and Marriage in Early Arabia.

(١) راجع فى ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام

لجواد على ٢٢٠/١ وما بعدها وتاريخ الأدب

العربى لبلشير ٢١/١ وما بعدها والفصل الأول

الجنوبيين إلى الشمال ، وخاصة بعد سيل العرم الذي خرب سدَّ مأرب . ويؤكد ذلك أننا نجد للقبيلة الواحدة فروعاً وشعباً مختلفة في الجزيرة العربية ، فكندة التي هاجرت إلى الشمال وأسست لها مملكة أو إمارة في شمالي نجد كانت لا تزال بقيتها الكبرى تقيم في حضرموت حين ظهور الإسلام ، ونجد في أسماء رجالها نفس الأسماء الجنوبية مثل شرحبيل بن الحارث ومعديكرب أخيه ، كما مر بنا في الحديث عن إمارة كندة . وكانت عشائر من إياد لا تزال تنزل في شمالي نجران بينما يعمت عشائر منها حوض الفرات ، أما الأزد فقد توزعت عشائرها بين شمالي اليمن وعمان ، والمدينة حيث أقام الأوس والخزرج ، وشمالي الجزيرة في الشام حيث نزل بنو غسان^(١) . وفي هذا دلالة واضحة على أن هجرة الجنوبيين إلى الشمال لا يعترها الشك . وهاجرت تنوخ إلى البحرين ، ثم استقرت في جنوبي العراق حيث أسست أهم عشائرها ، وهي لحم ، دولة المناذرة في الحيرة . ولما نزلت قبائل همدان من حضرموت إلى الجوف اليمنى بين مأرب ونجران هاجرت قبيلة طيء إلى الشمال واستقرت في جبال أجأ وسلمى . وهاجرت قبائل أخرى إلى شمالي الحجاز وانتشرت في بادية الشام وأهمها قضاة وبهراء وجُهَيْسَة وبَلَى التي نزلت في مساكن ثمود وجُدَام وكلب وعاملة اللائي نزلان في حدود فلسطين وعُدْرَة التي نزلت بالقرب من تيماء ووادي القرى . ومن هاجر من الجنوب أيضاً خُزاعة وكانت مستقرة قبيل الإسلام في منطقة مكة وبجيلة وكانت تنزل جنوبي الطائف .

ويقابل هذا القسم القحطاني اليمنى قسم عدنانى مضرى ، ومن أهم قبائله قريش في مكة ، وثَقِيف في الطائف ، وعبد القيس في البحرين ، وبنو حنيفة في اليمامة ، وتميم وضَبَّة في صحراء الدهناء ، وبكر وعشائرها الكثيرة التي تمتد من الشمال الشرقي للجزيرة إلى اليمامة والبحرين ، ويرد إليها النسابون بنى حنيفة وبنى عجل وشيبان وذُهل ، ثم تغلب وكانت تتوغل أكثر من بكر في شمالي الجزيرة صوب الشرق ، وكان يجاورها بنو النمر ، بينما كانت تنزل أسد في شمالي نجد وتنتشر عشائرها إلى تيماء . ومن هذه القبائل العدنانية أيضاً كنانة وهذيل بالقرب من مكة ،

(١) انظر مادة إياد والأزد في دائرة المعارف الإسلامية وكذلك مادة غنم .

وقيس عيلان في نجد ، وأهم قبائلها هوازن ، وسليم ، وعامر وعشائرها كلاب وعقيل وقُشَيْر ومزينة وبنو سعد ، وغطفان وفرعاها الكبيران : عبس وذُبْيَان . وفي المفضليات قصيدة لطيفة للأخنس بن شهاب يحصى فيها منازل كثير من هذه القبائل^(١) .

وهذه الأنساب التي قدمناها كان يؤمن بها العرب إيماناً شديداً ، وظلوا على هذا الإيمان في الإسلام ، فتكتلوا على أساسها في مجموعتين كبيرتين : مجموعة قحطانية يمنية ، ومجموعة مضرية عدنانية ، وكان التنافس شديداً بين الطرفين ، وكثيراً ما جرّ إلى منازعات في الكوفة والبصرة كما جرّ إلى حروب في الجيوش المقاتلة في أقصى الشرق بخراسان وفي أقصى الغرب بالأندلس ، فكانت تتجمع عشائر كل فريق حين تصطدم مصلحة عشيرة يمنية بمصلحة عشيرة مضرية ، وسرعان ما تنشّب بين الفريقين معارك دامية .

ومن المؤكد أن عرب الجاهلية كانوا يتمسكون بهذه الأنساب التي أجمعناها وعندهم ورثها أبناؤهم في الإسلام ، وهي تؤلف علماً واسعاً عند العرب هو علم الأنساب ، وكأنهم رأوا في النسب ما نراه نحن الآن في الوطن ، فكل قبيلة تؤمن بنسبها وتعزّز به وبأنها تعود إلى أصل واحد ، فهي من دم واحد ولحم واحد ، ومن أجل ذلك عبروا عن القرابة باللحمة كما عبروا عن عشائرتهم وفروعهم بالبطن والفخذ . وهذه القبائل جميعها المتبدية منها والمستقرة في مدن كمكة والحيرة كانت تتحد في نظمها السياسية ، وهي نظم قبلية ، تقوم على أساس القبيلة واشتراك أبنائها في أصل واحد وموطن واحد ، وهو موطن متنقل مع المراعى ، وكذلك اشتراكها في تقاليد وعُرف تتمسك بهما تمسكاً شديداً . وكان الرباط الذي يوثق الصلة بين أفراد القبيلة هو العصبية ، وهي عصبية قبلية ، ليس فيها شعور واضح بالجنس العربي العام ، وحقاً تكونت عندهم إمارات في الشمال ، ولكنها ظلت تقوم على أساس العصبية القبلية ، وإن بدا في تضاعيفها شعور ضئيل بالوحدة ، لا بين القبائل الشمالية فحسب ، بل بينها وبين القبائل الجنوبية ، فقد كان أمراء هذه الولايات من العرب الجنوبيين كما يقول رواة الأخبار والنسابون ، وإنما نقول

شعوراً ضئيلاً ، لأن أصحاب هذه الإمارات لم ينفذوا فعلاً إلى فكرة الأمة العربية أو الجنس العربي بحيث يجمعون العرب تحت لواء واحد ، إنما كل ما هناك اتحاد قبلي ، له رئيس .

ومن الاتحادات التي كانت تجمعهم اتحادات الأحلاف ، ويُظَنُّ أن هذه الاتحادات لعبت دوراً كبيراً في تكوين القبائل إذ كانت تنضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية الكبيرة لتحميها وترد العدوان عنها ، يقول البكري : « فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة وتنافس الناس في الماء والكلاً ، والتماهم المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش واستضعاف القوى الضعيف ، انضم الدليل منهم إلى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومعالهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم »^(١) ومن القبائل التي تمثل ذلك خير تمثيل قبيلة تنوخ في العراق ، فقد انضم إليها وتلاشى فيها كثير من القبائل والعشائر العراقية^(٢) .

وبمجرد أن تدخل القبيلة في حِلْفٍ يصبح لها على أحلافها كل الحقوق ، فهم ينصرونها على أعدائها ويردون كيدهم عنها في نحورهم . وقد تنفصل بعض قبائل الحلف لتنضم إلى حلف آخر يحقق مصالحها ، ومن ثم كنا نجد دائماً أحلافاً تضعف ، وتحل محلها أحلاف أخرى . وقبائل قليلة لم تدخل في أحلاف ، ولذلك سميت باسم جرات العرب ، لما كان فيها من شجعان يكفونها في الحروب ، على أن هذا كثيراً ما كان يؤول بها إلى أن تنهك في المعارك ، أما القبائل المتحالفة فكانت تهاب لخشونة مسّها . وأصل الحِلْف والتحالف من كلمة الحَكِيف بمعنى اليمين الذي كانوا يقسمونه في عهودهم ، وكانوا يغمسون أيديهم في أثناء عقد أحلافهم في طيب أو في دم ، وكانوا يقولون^(٣) : الدم الدم والهدم الهدم ، لا يزيد العهد طلوع الشمس إلا شدة وطول الليالي إلا مدّاً ، ما بكلّ بحر صوفة وأقام رَضوى في مكانه ، إن كان جبلهم رَضوى وإلا ذكروا ما يجاورهم من جبال . وربما أوقدوا النار عند تحالفهم ، ودعوا الله على من ينكث العهد بالحرمان من منافعها ، ويقال إن قبائل مرة بن

(١) معجم ما استعجم للبكري (طبعة السقا) (٢) انظر مادة تنوخ في دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) انظر الحيوان للجاحظ ٣/٤ .

عوف الذبيانيين تحالفت عند نار ودنوا منها حتى محشتم (أحرقهم) فسمى حلفهم باسم المحاش . ومن الأحلاف المشهورة في مكة حلف المطييين وقد تعاقد فيه بنو عبد مناف وبنو زهرة وبنو تميم وبنو أسد ضد بني عبد الدار وأحلافهم ، ويقال إنهم غمسوا أيديهم في جفنة مملوءة طيباً . وأكرم من هذا الحلف حلف الفضول وفيه تحالفت قبائل من قريش على أن لا يجحدوا بمكة مظلوماً إلا نصره وقاموا معه حتى تُرد عنه مظلّمته . ومن أحلاف العرب المشهورة حلف الرّباب ، وهم خمس قبائل: ضبة وثور وعُكل وقيم وعدى ، وحلف عبس وعامر ضد ذبيان وأحلافها من تميم وأسد وحلف الحُمس بين قريش وكنانة وخزاعة .

وكان لهذه القبائل جميعاً المتحالفة وغير المتحالفة مجلس يضم شيوخ عشائرها^(١) وهو ندوتهم ، التي ينظرون فيها شئون قبيلتهم . وكان كل فرد يستطيع أن يحضره وأن يتحدث فيه ، ولم يكن له موعد معين ، وفي العادة كانوا يجتمعون مساء وكلما حزب أمر أو ظهر ما يدعو إلى الاجتماع ، فيتناقشون ويتحاورون ، وقد يخطبون ، أو يستمعون إلى بعض ما ينظمه شعراؤهم ، وفي أثناء ذلك يدلى ساداتهم بحكمهم وتجاربهم في الحياة ، وإلى ذلك يشير زهير بن أبي سلمى إذ يقول في مديح هَرَم بن سنان وقومه^(٢) :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوههم وأنديةٌ يَنْتَابُهَا القولُ والفعلُ
ولإن جثثهم ألفت حول بيوتهم مجالسٌ قد يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا الجهل
وكانت قرارات هذه المجالس نافذة ، فجميع أفراد القبيلة تدعى لها ولا تشذ عليها .

وغالباً ما يتقدم شيوخ القبيلة شيخ كبير مجرب ، هو سيدها ، له حكمة وحكمة وسداد في الرأي وسعة في الثروة ، وهو الذي يقود القبيلة في حروبها ويقسم غنائمها ويستقبل وفود القبائل الأخرى ، ويعقد الصلح والمحالقات ، ويقسم الضيافات ، غير أنه ينبغي أن لا يفهم من ذلك أنه كانت له أو لشيوخ القبيلة سيادة واسعة ،

(٢) ديوان زهير (طبعة دار الكتب المصرية)

(١) انظر في مجالس القبيلة وحقوق سيدها
وواجباته القسم الثالث من كتاب لامنس :

فسيادته رمزية ، وإذا بغى كان جزاؤه جزاء كليب التغلبي حين بغى وطني على أحلافه من بكر ، فقتلوه ، مما كان سبباً في نشوب حرب البسوس المشهورة .

فالسيد في القبيلة إنما هو الشخص الأملئ الذي حنكته التجارب ، وغالباً ما يرث سيادته عن آبائه ، حتى يتم له الحسب الرفيع ، وليس له أى حقوق سوى توقيره ، أما واجباته فكثيرة ، فلا بد فيه من الشجاعة والكرم والنسجدة وحفظ الحوار وإعانة المعوز والضعيف ، ولا بد أن يتحمل أكبر قسط من جزائر القبيلة وما تدفعه من ديّات ، ولا بد أن يكون حليماً متسامحاً ، وإلى ذلك كله يشير معاوية سيد بني كلاب حين يقول^(١) :

لَمْنِي امْرُؤٌ مِنْ عَصْبَةٍ مَشْهُورَةٍ	حُشِدَ لَهُمْ مَجْدٌ أَشْمٌ تَلِيدٌ ^(٢)
أَلْفُوا أَبَاهُمْ سَيِّدًا وَأَعَانَهُمْ	كِرْمٌ وَأَعْمَامٌ لَهُمْ وَجَدُودٌ
إِذْ كُلُّ حَيٍّ نَابَتْ بِأَرْوَمَةٍ	نَبَتَ الْعِضَاهُ فَمَا جَدُّ وَكْسِيدٌ ^(٣)
نَعَطَى الْعَشِيرَةَ حَقًّا وَحَقِيقَةً	فِيهَا وَنَغْفَرُ ذَنْبَهَا وَنَسُودُ
وَإِذَا تَحَمَّلْنَا الْعَشِيرَةَ نُقْلَهَا	قَمْنَا بِهِ وَإِذَا تَعُودُ نَعُودُ ^(٤)
وَإِذَا نَوَافِقُ جُرْأَةٍ أَوْ نَجْدَةٍ	كُنَّا ، سُمِّيَ ، بِهَا الْعَدُوُّ نَكِيدُ ^(٥)
بَلْ لَا نَقُولُ إِذَا تَبَوَّأَ جِيرَةً	إِنْ الْمَحَلَّةُ شِعْبُهَا مَكْدُودُ ^(٦)

وواضح أن السيد في رأى معاوية لا بد أن يكون شريف الأصل والأرومة ، من عشيرة لها مجد فسيح الفناء ، ولا بد أن يرضى حقوق هذه السيادة ، وهى الحلم والصفح عن السفهاء وكظم الغيظ مع العفو والمغفرة ، ولا بد له أن يبذل المال والنفس في جبايات القبيلة وأن يسارع إلى النجدة والحرب وأن يكون كريماً مضيافاً ،

(١) المغنليات ، القصيدة رقم ١٠٤ .

(٢) الحشد : الذين يحتشدون ويجمعون

للملمات ، والتلید : القديم .

(٣) الأرومة : الأصل ، العضاه : شجر

فسخ من أشجار البادية ، الماجد : ذوالمجد ،

والكسید : اللون .

(٤) الثقل : الغرم والدية .

(٥) سمى : مرخم سمية ، وحذف ياء النداء .

(٦) الشعب : ما انفرج بين جبلين ،

مكدود : فى ضيق وشدة . يقول إنه لا يعتذر

لأضيافه بما يلم به من شدائد .

إذا نزل به جار أضافه وأعانه وحفظ له كل ما يمكن من حقوق الجوار . وكان من أهم ما يقوم به السيد لإصلاح ذات البين في القبيلة ولسم شعها ، مستعيناً في ذلك بشيوخها وأصحاب الشرف فيها . ودائماً لا بد له من استشارتهم ، بل لا بد له من أن يستمع إلى كل فرد من أفراد القبيلة ، فهم جميعاً أكفاء يتساوون في الحقوق . ومن أهم ما يدل على هذه المساواة نظام الإجارة ، وهي حق التوطن في القبيلة ، إذ كان لكل فرد فيها أن يجبر من يشاء ، وإذا أجار شخصاً أصبحت قبيلته ملزمة به ، وأصبح له ما لأفرادها من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات .

وكان أفراد القبيلة جميعاً يضعون أنفسهم في خدمتها وخدمة حقوقها ، وعلى رأسها حق الأخذ بالثأر ممن سولت له نفسه من القبائل الأخرى أن يعتدى على أحد أبنائها ، فكل فرد فيها يضحي لها بنفسه كما يضحي لها بماله ، فهي حياته وكيانه ، وهو مع اعتزازه بفرديته وشخصيته وحرية يعيش لها وداخل إطارها ، مدفوعاً في ذلك بعصبية شديدة ، وهي عصبية سيطرت على نفوسهم ، وقدسوها تقديساً كان أعظم من تقديسهم للشعائر الدينية ، فتلك الشعائر تشرکهم فيها قبائل أخرى ، أما شعائر العصبية القبلية فإنها خاصة بالقبيلة وأبنائها الذين يجمعهم دم واحد ونسب واحد . وربما تسامح الواحد منهم في دينه ، إذ لم يكن يهمه في كثير من الأحوال ، أما في العصبية فإنه لا يتسامح في أى واجب من واجباتها ، ومن خير ما يصور ذلك قول دريبد بن الصمة^(١) :

وما أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت وإن ترشدت غزيرة أرشد

فغيه ورشده مرتبطان بعشيرته غزيرة ، فإن ضلت ضل معها وأمعن في ضلاله ، وإن اهتدت اهتدى معها وأمعن في هداه .

وكانت القبيلة من جانبها تعطي لأبنائها عليها نفس الحقوق ، فهي تنصرهم في الملمات التي تنزل بهم ظالمين أو مظلومين ، فحسب أحدهم أن يستغيث فإذا السيوف مشرعة ، وإذا الدماء تتصبب على أنفه الأسباب . وقد تحولوا بسبب اختصاصهم على المراعى واتخاذهم الغزو وسيلة من وسائل عيشهم إلى ما يشبه كتائب حربية ،

(١) الأسميات (طبع دار المعارف) ص ١١٢

وانظر المرزوق على الحامسة ٨١٥/٢ .

فكل قبيلة مستعدة دائماً للحرب والجلاد والإغارة على من حولها من البدو والحضر ،
وهي دائماً شاكية السلاح حتى تحمي حماها ومنازلها وآبارها ومراعياها ، ولذلك
كانت الشجاعة مثلهم الأعلى ، فداًئماً يفتخرون ببطولتهم وبعدد من قتلوا في
حروبهم مما يدور في أشعارهم ويدور معه اعتدادهم بسيوفهم الجمانية والهندية ،
ولبعضها أسماء اشتهرت بينهم ، وكما يعتدون بسيوفهم نراهم يعتدون برماحهم وقسيهم
ودروعهم وتروسهم وبيضايتهم أو خوذايتهم ، وأشاد فرسانهم بالخيال إشادة بالغة
وسموها أسماء كثيرة .

٥

حروب وأيام مستمرة

لعل أهم ما يميز حياة العرب في الجاهلية أنها كانت حياة حربية تقوم على
سفك الدماء حتى لكانه أصبح سنة من سنهم ، فهم دائماً قاتلون مقتولون ،
لا يفرغون من دم إلا إلى دم ، ولذلك كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم
وصغيرهم هو قانون الأخذ بالثأر ، فهو شريعتهم المقدسة ، وهي شريعة تصطبغ
عندهم بما يشبه الصبغة الدينية ، إذ كانوا يحرمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب
حتى يثأروا من غرمائهم . ولم يكن لأى فرد من أفراد القبيلة حق ولا ما يشبه الحق
في نقض هذه الشريعة ولا في الوقوف ضدها أو الخروج عليها ، فما هى إلا أن
يُقْتَلَ أحد منهم ، فإذا سيوف عشيرته مسلولة ، وتبعها العشائر الأخرى
في قبيلته ، تؤازرها في الأخذ بثأرها ، ويتعدد القتل والثأر بينها وبين القبيلة
المعادية ، وتتوارثان الثارات حتى يتدخل من يصلح بينهما ويتحمل الديات
والمغارم ، ولم يكونوا يقبلونها إلا بعد تفاقم الأمر وإلا بعد أن تأتى الحرب على
الحرث والنسل ، أما قبل ذلك فكانوا يعدونها سبة وعاراً ، وفي ذلك يقول عبد العزى
الطائي (١) :

رقم ٤٢ البيت ١٥ والأصمعيات القصيدة رقم
٤٤ البيت ١ ، ٢ .

(١) حماسة البحرى (طبع بيروت) ص
٢٨ وانظر ٢٩ ، ٣١ والمرزوق على الحماسة
٢١٥/١ - ٢١٦ وراجع المفضليات ، القصيدة

إذا ما طلبنا تَبَلَّنَا عند معشرٍ أبينا حِلَاب الدَّرَّ أو نشرب الدِّمَا^(١)
 فهم لا يرضون بالدية ويرونها ذلاً ما بعده ذل أن يستبدلوا بالدم الإبل وألبانها ،
 فالدم لا يشفيهم منه إلا الدم ، وكأنما أصبح سفكه غريزة من غرائزهم لا تزييلهم ،
 فهم يطلبونه وهم يتعطشون إليه تعطشاً شديداً على شاكلة تأبط شراً إذ يقول^(٢) :
 قليل غرار النوم أكبر همه دمُ الثَّارِ أو يلقي كميّاً مُسْفَعاً

فأكبر ما يهم به وينصب له طلبُ الثَّارِ ولقاء بطل سفعت وجهه الهواجر .
 وأكثر حروبهم كان يحرقها نزاع بين بعض الأفراد في قبيلتين مختلفتين ،
 إما بسبب قتل أو بسبب إهانة ، أو بسبب اختلاف على حد من الحدود ، وحيث
 تشبك عشيرتنا هؤلاء الأفراد ، وتنضم إلى كل عشيرة عشائر قبيلتها ، وقد تنضم
 أحلافهما ، فتنتشر نيران الحرب بين قبائل كثيرة ، وصور ذلك شاعر الحماسة
 إذ يقول^(٣) :

الشيء يبده في الأصل أصغره وليس يصلى بكل الحرب جانبيها
 والحرب يلحق فيها الكارهون كما تدنو الصَّحاح إلى الجَرَبِ فتُعْديها

فهى تبدأ صغيرة ضعيفة ، ثم تقوى وتستحكم وتعظم بمرور الزمن ، فتصبح لها
 عدوى كعدوى الحرب ، لا يفلت منها راغب فيها ولا كاره ، فالجميع يصطلون
 بنارها ، بل يترامون فيها ترمى القراش ، فهى أمنيتهن ومبتغاهن ، يقول زهير^(٤) :

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم طوال الرماح لا ضِعاف ولا عَزْل^(٥)
 فإن يُقتلوا فيُشتفى بدمائهم وكانوا قديماً من منايهم القتلُ

فجميعهم يطبِّرون إلى المستغيث بخيلهم ورماحهم ، وتدور رحى الحرب فيقتلون

(١) التبل : الثَّار ، وحلاب الدَّر : كناية

عن الإبل التي تحلب وتشرب ألبانها .

(٢) المرزوق على حِصاة أبي تمام ٤٩٢/٢

غرار النوم : قليله ، والكى : الشجاع .

(٣) المرزوق ٤٠٧/١ .

(٤) ديوان زهير ص ١٠٢ .

(٥) الأعزل مفرد عزل : من لا سلاح له ،

وفزعوا : أغاثوا .

من أعدائهم ويشفون حقدهم ويقتل منهم أعداؤهم ويشفون غليلهم . يقول دريد ابن الصمة^(١) :

وإنا لَلْحَمُ السيفِ غيرَ نَكيرةٍ ونُلحِمه حيناً وليس بذي نُكْرٍ^(٢)
يُغارُ علينا واترين فيُشتَفَى بنا إن أُصِبنا أو نُغير على ونُترِ^(٣)
قَسَمنا بذاك الدهر شطرين بيننا فما ينقضى إلا ونحن على شَطَرٍ

ومثلُ قبيلة دريد قبائلُ العرب جميعها ، فهم طعام السيوف ، يطعمونها أعداءهم ، ويطعمهم أعداؤهم لها في غير نكران ، فهم دائماً واترون وموتورون ، وحياتهم مقسومة على هذين الحدين وإلى هذين الشطرين . ولم يكونوا يرهبون شيئاً مثل الموت . حتف الأنف بعيداً عن ميادين القتال ، ميادين الشرف والبطولة ، حيث يموتون طعناً بالسيوف والرماح ، وحيث تتناثر أشلاؤهم وتأكلها السباع ، يقول الشنفرى^(٤) :

ولا تُقْبِرُونِي إِنْ قَبِرِي مُحَرَّمٌ عليكم ولكن أبشِري أم عامرٍ
فهو يتمنى أن لا يقبر ، وأن يترك بالعراء في ساحة الحرب تنوشه السباع ، ويبشر أم عامر وهي الضميع بجسده ، حتى يخلد في سجل قتلى الجاهلية المجيد . وكانوا يسمون حروبهم ووقائعهم أياماً ، لأنهم كانوا يتحاربون نهاراً ، فإذا جَسَنَهم الليل وقفوا القتال حتى يخرج الصباح . وأيامهم وحروبهم كثيرة ، وهي تدور في كتب الأدب والتاريخ ، ويقال إن أبا عبيدة المتوفى سنة ٢١١ للهجرة صنف في ألف يوم ومائتين منها كتاباً اعتمد عليه من جاءوا بعده ، ولم يصلنا هذا الكتاب ، وإنما وصلنا شرحه لنفائض جرير والفرزدق وفيه طائفة كبيرة منها . وألف فيها من بعده كثيرون أحصاهم ابن النديم في المقالة الثالثة من الفن الأول بكتابه الفهرست . وفي كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني وشرح حماسة أبي تمام للتبريزي منشورات منها كثيرة . وعقد لها ابن عبدربه في العقد الفريد وابن الأثير

(١) المرزوقي ٨٢٥/٢ .
(٢) نكيرة ونكر : نكران وامتراء ،
ونلحمه : نطعمه اللحم .
(٣) الوتر : الثأر ، واترين : قاتلين
ومسيبين الوتر .
(٤) المرزوقي ٤٨٧/٢ .

في الجزء الأول من كتابه الكامل والنويرى في نهاية الأرب فصولاً طويلة ، وكذلك صنع الميداني في الفصل التاسع والعشرين من كتابه مجمع الأمثال إذ تناول منها مائة واثنين وثلاثين يوماً ضبط أسماءها وذكر القبائل التي اشتركت في كل منها .

وتسمى هذه الأيام والحروب غالباً بأسماء البقاع والآبار التي نشبت بجانبها مثل يوم عَيْنْ أباغ وكان بين المناذرة والغساسنة ومثل يوم ذى قار وكان بين بكر والفرس ويوم شِعْبْ جبلة وكان بين عبس وأحلافها من بنى عامر وذبيان وأحلافها من تميم . وقد تسمى بأسماء ما أحدث اشتعالها مثل حرب البسوس وحرب داحس والغبراء .

ومن أيامهم المشهورة يوم خَزَاز وكان بين ربيعة واليمن من مَدْحَج وغيرهم ، ويوم طَخْخَفَة بين المنذر بن ماء السماء وبنى يربوع ، ويوم أَوَارَة الأول بينه وبين بنى بكر ويوم أَوَارَة الثاني بين ابنه عمرو بن هند وبنى تيم ، ويوم ظهر الدِّهْناء بين بنى أسد وطى ، ويوم الكَلَاب الأول بين بنى بكر وعشائر من تميم وضبة بقيادة شرحبيل ابن الحارث الكندى وبين تغلب والنمر وبهراء بقيادة أخيه سلمة وأيام الأوس والخزرج ومرّ ذكرها في غير هذا الموضع ، ويوم حَوَزَة الأول بين سُلَيْم وغطفان ، ويوم اللّوى بين غطفان وهوازن ، ويوم الكلاب الثاني بين تميم وبنى عبد المدان النجرائين ويوم الوقيط بين تميم وربيعه وكذلك يوم جَدُود وذى طُلُوح والغبيط وزُبَالَة ومبايض والجفار ، ويوم الرَّحْرَحَان بين قيس وتمر وكذلك الصَّراثم والمروت والنَّسَار ، ويوم الشقيقة بين ضبة وبنى شيان ، ويوم بُزَاخَة بين ضبة وإباد ؛ ويوم دَارَة مَأْسَل بينها وبين بنى علمر . وكانوا لا يقتتلون في الأشهر الحرم ، ومع ذلك وقعت فيها بعض مناوشات تسمى بأيام الفِجَار بين كنانة وهوازن يومها الأول ، أما يومها الثاني فكان بين كنانة وقريش وبين بنى عامر وتبع ذلك أيام أخرى . وستقف قليلاً عند حرب البسوس وحرب داحس والغبراء لأنهما من أشهر حروبهم وأطولها زمناً .

أما حرب البسوس فقد اشتعلت بين قبيلتي بكر وتغلب في أواخر القرن الخامس الميلادى ، وكان سببها اعتداء كليب سيد تغلب — وكان قد طغى واشتد بغيه — على ناقة للبسوس خالة جَسَّاس بن مرة سيد بنى بكر ، إذ رمى ضرعها بسهم ،

فاختلط لبنها بدمها . ولما علم جساس بما حدث ثار لكرامته ، وسنحت له فرصة من كُليّيب فقتله ، ودارت رحي حرب طاحنة ظلت — فيما يقال — أربعين سنة ، فكثر أيامها مثل يوم عُنَيْرَة وكان سجالات بين الطرفين ، ويوم واردات وكان لتغلب على بكر ويوم قَصَّة (تحلاق اللحم) وفيه انتصرت بكر . ولما أنهكت الحرب الفريقين لجأ إلى الحارث بن عمرو الكندي ، فأصلح بينهما ، وأقام كما مرّ بنا على بكر ابنه شرحبيل وعلى تغلب ابنه سلمة . ونمت في العصور الإسلامية أساطير حول هذه الحرب وبطلها التغلبي المهلهل أخى كليب ، وألفت عنه قصة شعبية باسم « الزير سالم » .

وأما حرب داحس والغبراء فكانت في أواخر العصر الجاهلي ، وكان السبب في نشوبها سباقا على رهان بين الفرسين . فسميت باسميهما ، وكان قد أجراهما سيدا عبس وذبيان : قيس بن زهير وحذيفة بن بدر . وأوشك داحس أن يفوز ، غير أن رجلا من ذبيان كان قد كمن له ، فاعترضه ونفّره ، فعدل عن الطريق ، وبذلك سبقته الغبراء . وأبى قيس أن يعترف بهذا السبق وطُلب الرهان المضروب ، وحدث صدام بين الفريقين لم تلبث الحرب أن اندلعت على إثره ، وظلت سنوات طويلة حتى تدخل سيدان من ذبيان هما هرم بن سنان والحارث بن عوف المرّي ، فتحملا ديات القتلى . وبذلك وضعت الحرب أوزارها بين القبيلتين ومن كان قد انضم إليهما من الأحلاف ، فقد انضمت عامر إلى عبس بينما انضمت تميم وأسد إلى ذبيان . وعلى نحو ما نمت الأساطير حول المهلهل بطل حرب البسوس نمت حول عنرة بطل هذه الحرب ، وكان من عبس ، فألفت عنه قصة شعبية مشهورة لا نبعد إذا قلنا إنها تحولت إلى إلياذة كبرى للعرب وفروسياتهم الرائعة .

الفصل الثالث الحياة الجاهلية

١

الأحوال الاجتماعية

كانت القبيلة في العصر الجاهلي تتألف من ثلاث طبقات : أبناؤها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب ، وهم عمادها وقوامها ، والعبيد ، وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة ، والموالي ، وهم عَسَقَاؤُهَا ، ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفقتهم عنها لكثرة جرائرهم وجناباتهم .، وكانوا يعلنون هذا الخلع على رؤوس الأشهاد في أسواقهم وبجائعهم ، وقد يستجير الخلع بقبيلة أخرى فتجيره ، وبذلك يصبح له حق التوطن في القبيلة الجديدة ، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها ، مثله مثل أبناؤها .

ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة ، وكانوا يمحضون على وجوههم في الصحراء ، فيتخذون الذهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم ، على نحو ما نعرف عن تأبط شرراً والسُّلَيْك بن السلكتة والسَّنْفَرى . على أن منهم من كان يظل في قبيلته لفضل فيه مثل عروة بن الورد ، وكان كريماً فياضاً ، وأُثر عنه أنه كان يجمع إلى خيمته فقراء قبيلته عِبَسَ ومعوذياً ومرضاها ، متخذاً لهم حظائر يأوون فيها ، قاسماً بينه وبينهم مغانمه^(١) .

وهذا الخلع إنما كان يحدث في حالات شاذة ، أما بعد ذلك فإن أفراد القبيلة كانوا متضامنين أشد ما يكون التضامن وأوثقه ، وهو تضامن أحكم عُرَاه حرصهم على الشرف وقد تكونت حوله مجموعة من الخلال الكريمة ، لعل خير كلمة تجمعها هي كلمة المروءة التي تضم مناقبهم ، من مثل الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللثم والغضب عن العوراء .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٧٨/٣ وما بعدها .

ولم تكن خصلة عندهم تفوق خصلة الكرم ، وقد بعثها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإحمال فكان الغنى بينهم يَفْضَلُ على الفقر ، وكثيراً ما كان يذبح لإبله في سنين القحط ، يطعمها عشيرته ، كما يذبحها قريير العين لضيفانه الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه . ومن سُنَنهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلاً على الكُشْبَان والجبال ، ليبتدى إليهم التائهون والضالون في الفيافي ، فإذا وفدوا عليهم أمتنهم حتى لو كانوا من عدوهم . ويدور في شعرهم الفخر بهذه النيران وأن كلابهم لا تنبح ضيوفهم لما تعودت من كثرة الغادين والرائحين ، يقول عوف بن الأحوص (١) :

ومستنبج يخشى القواء ودونه	من الليل بابا ظلمة وستورها (٢)
رفعت له نارى فلما اهتدى بها	زجرت كلابى أن يهر عقورها (٣)
فلاتسألنى واسألنى عن خليقتى	إذا رد عافى القدر من يستعيرها (٤)
ترى أن قدرى لا تزال كأنها	لدى الفروة المقرور أم يزورها (٥)
مبرزة لا يجعل السر دونها	إذا أخذ النيران لاح بشيرها (٦)
إذا الشول راحت ثم لم تفد لحمها	بألبانها ذاق السنان عقيرها (٧)

واشتهر عندهم بالكرم الفياض كثيرون (٨) ، مثل حاتم الطائي الذى ضربت الأمثال بكرمه ، وهو يصوره في كثير من شعره كقوله (٩) :

إذا ما بخيل الناس هرت كلابه وشق على الضيف الغريب عقورها

-
- (١) المفضليات رقم ٣٦ والحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ١٣٦/٥ .
- (٢) مستنبج : من ينبع حتى ترد عليه الكلاب ، فيعرف أن حيا قريباً منه ، القواء : القلاة . . .
- (٣) يهر : ينبع نبعا خفيفاً ، المقرور : الماض .
- (٤) عافى القدر : مستعيرها .
- (٥) ذو الفروة : السائل ، المقرور :
- الذى اشتد به البرد .
- (٦) بشيرها هنا : ضومها .
- (٧) الشول : الإبل العظيمة التى لا تحلب ، راحت : رجعت ، يقول إذا رجعت الإبل من مراعيها عقروا لأهل الحى والضيغان .
- (٨) انظر في أجواد الجاهلية كتاب الخبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد) ص ١٣٧ .
- (٩) الحيوان ١/٣٨٣ .

فلأن جبان الكلب بيتى موطاً جواد إذا ما النفس شح ضميرها

وكانوا لا يقدرّون شيئاً كما يقدرّون الوفاء ، فإذا وعد أحدهم وعداً أوفى به وأوفت معه قبيلته بما وعد ، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهداً أن ينصروه . وجعلهم ذلك يعظمون الأحلاف فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب . وبلغ من اعتدادهم بهذه الحصلة أن كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء في مجامعهم وأسواقهم ، حتى يلحقوا به عار الأبد . يقول الحادرة لصاحبه سمية ^(١) :

أسمى ويحك - هل سمعت بغدرة رُفع اللواء لنا بها في مَجْمَعٍ

وليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها ، فهم يتمدحون بإغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة ، كما يتمدحون بالأنفة وإباء الضيم ، وكيف يقبلون الضيم ، وهم أهل حرب وجلاد ، يقول المتلمس ^(٢) :

إنّ الهوانَ حمارُ الأهل يعرفه والحرُّ ينكره والرُّمْلَةُ الأَجْدُ ^(٣)

ولا يُقيم على خَسَفٍ يُرادُّ به إلا الأَذْلانُ : غيرُ الأهل والوَتِدُ ^(٤)

هذا على الخَسَفِ معقولٌ برُمته وذا يُشجُّ فلا يبكي له أحدٌ

فهم لا ينكرون شيئاً مثل إنكارهم للهوان والضيم ، فهما السواة الكبرى والمثلثة العظمى إذ يعنيان الذل وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها . وكل شيء إلا الهوان ، وكان أقل شعور به يثيرهم ، على نحو ما مر بنا من ثورة عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند حين علم بإهانة أمه في بلاطه ، وكان نازلاً معها عنده ، فاستل سيفه وقتله ، وتغنى شعراء تغلب طويلاً بهذا الحادث مفاخرين بعزتهم . وكان للشجاعة والفروسية عندهم منزلة ليس فوقها منزلة ، بحكم حروبهم الدائرة التي لا تنى ولا تفتّر .

وكان سادتهم يمثلون هذه الخصال جميعاً في أقوى صورها ، مضيفين إليها

(٣) الرسالة : الناقة الذلول ، الأجد : الموثقة الخلق .

(٤) العير : الحمار .

(١) المفضليات ص ٤٥ .

(٢) حسنة البحري ص ٢٠ .

حنكة وحكمة بالغة، وقد اشتهر من بينهم حكام تجاوزت أبعثهم حدود قبائلهم^(١)، مثل عامر بن الظرب وأكم بن صيفى، وكانت تفرع إليهم القبائل فى خلافتها الكبيرة التى يصعب حلها فى دائرة قبائلهم وشيوخهم، وقد يفزعون فيها إلى الكهنة والعرفاء.

على أن هناك آفات كانت تشيع فى هذا المجتمع الجاهلى، لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والقمار، ونحن نجد الخمر تجرى على كل لسان، وقد اشتهر بالحديث عنها وعن كثورها ودنانها وحوانيها ومجالسها أعشى قيس وعدى بن زيد العبادى الحيرى، وعرض لها كثيرون فى أشعارهم مفاخرين بأنهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم. وأكثر من كان يتجربها اليهود والنصارى، وكانوا يجلبونها لهم من بصرى وبلاد الشام ومن الحيرة وبلاد العراق، ويقال إنهم كانوا يضرّبون خيامهم فى بعض الأحياء أو فى بعض القرى ويضعون فوقها راية تعلن عنهم، فباتهم الشباب ليشربوا وليسمعوا بعض القيان ممن يصاحبهم. وكان من الشباب من يدمن عليها حتى تنفر منه قبيلته، وقد تخلعه لما يتدنّى فيه من رذائل، على نحو ما يروى عن البراء بن قيس الكنانى أحد أدلاء القوافل فى الجاهلية، إذ كان سكيراً فاسقاً، فخلعه قومه وتبرأوا منه^(٢). ويقول طرفة فى معلقته :

وما زال تشربى الخمر ولذتى وبئى وإنفاقى طريف ومثلى^(٣)
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد^(٤)
ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى^(٥)
فمنهن سبق العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزيد^(٦)

(٥) عود: جمع عائد أو عائدة، ويقصد من يعودونه عند الوفاة ويكفونه. والجد: الحظ والبحث.

(٦) انكبت: الخمر، يقول إنه يباكر شرب الخمر قبل انبثاء المواذل.

(١) انظر فى حكام العرب كتاب المجرى ص ١٣٢.

(٢) أغاني (طبعة الساسى) ٧٥/١٩.

(٣) الطريف: المال الحديث، والمثله: المال القديم.

(٤) تحامتنى: تجنبتنى، المعبد: الأجرب.

وكررى إذا نادى المضاف محنبا كسيد الغضا نبهته المتوردا^(١)
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمد^(٢)

وواضح أنه يجعل من خلال الفتى هذه الخصال الثلاث ، وهى الخمر والفروسية أو الشجاعة فى الحرب والتمتع بالنساء . على أن هذه الفتوة التى يصورها طرفة كانت تتسامى عند كثير من فرسانهم مثل عنترة ، بل حتى من صعايلكهم مثل عروة ابن الورد وسنعرض لذلك فى موضع آخر .

ومهما يكن فقد كانت الخمر وما يتبعها من استباحة النساء شائعة فى هذا العصر ، وكان يشيع معها القمار أو الميسر ، وكانت عاداتهم فيه أن يذبحوا ناقة أو بعيرا ، ويقسموا ما يذبحونه عشرة أجزاء ، ثم يأتوا بأحد عشر قدحا ، يجررون عليها قمارهم ، وكانوا يجعلون لسبعة منها نصيبا إن فازت ، وعلى أصحابها غرم إن خابت ، وأكبرها نصيبا يسمى المئلى . أما الأربعة الباقية فلاحظ لها حتى إن فازت .

وأكبر الدلالة على شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التى هاجمها فى القرآن الكريم وما وضعه الإسلام لها من عقاب صارم حتى يكف العرب عنها ، وقد شدد فى عقوبة استباحة النساء ، وأكثر من النهى عن الخمر والميسر من مثل قوله تعالى : (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما) وقوله جل وعز : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وقد وصف الخمر بأنها (رجس من عمل الشيطان) . ونجد فى الحديث النبوى نهيا كثيرا عنها وأن الله لعنها ولعن عاصرها ومعتصرها وشاربها^(٣) وقد جعل لها

(٢) الدجن : النيم ، البهكة : المرأة الجميلة ، المعمد : المرفوع بالعماد .

(٣) انظر كتاب الأشربة فى سنن أبى داود وابن ماجه والنسائى والبخارى ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية فى مادة خمر ..

(١) المضاف : الخائف المذعور ، والمحنب : الفرس الذى فى قوائم أو ضلوعه انحناء قليل ، والسيد : الذئب ، والغضا : شجر ، نبهته : هيجه ، المتورد : الجرى . يقول : إذا استغاث به خائف عطف فرسا يسرع فى عدوه لإسراع ذئب الغضا الجرىء حين تهيجه .

الرسول صلى الله عليه وسلم حدًّا : أربعين جلدة ، ولما وجد عمر أن بعض العرب لا يزال يتورط في شربها رفع حدها إلى ثمانين .

وهذا كله يشهد شهادة قاطعة بانتشار هذه الآفات بين عرب الجاهلية ، وفي أخبار الأعشى أنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم رغب في الوفود عليه بالمدينة ومدبحه ، وعلمت قريش فتعرضت له تمنعه ، وكان مما قاله له أبو سفيان إنه « ينالك عن خيال كلها بك رافق ولك موافق » فلما سأله عنها أجابه : الزنا والقمار والخمر ، فعدل الأعشى عن وجهته^(١) . وعلى نحو ما هاجم الإسلام هذه الآفات هاجم قانونهم الدموي المقدس : قانون الأخذ بثأر ، فهدمه هدمًا وأبطله إبطالا إذ جعل حقه للدولة لا للأفراد ، وأقام لهم نظاماً سماوياً رفيعاً لاجتماعهم ليس هنا محل بحثه .

وحتى الآن لم نتحدث عن المرأة ومكانتها في هذا المجتمع ، وقد كان هناك نوعان من النساء : إماء وحُرّات ، وكانت الإماء كثيرات ، وكان منهن عاهرات يتخذن الأخذنان ، وقينات يضربن على المزهر وغيره في حوانيت الخمارين ، كما كان منهن جوار يخدمن الشريقات ، وقد يرعين الإبل والأغنام . وكن في منزلة دانية ، وكان العرب إذا استولوهن لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن ، إلا إذا أظهروا بطولة تشرفهم على نحو ما هو معروف عن عنترة بن شداد ، فإن أباه لم يلحقه بنسبه إلا بعد أن أثبت شجاعة فائقة ردت إليه اعتباره .

وكانت الحرة تقوم بطهي الطعام ونسج الثياب وإصلاح الحياء ، إلا إذ كانت من الشريقات المخدومات ، فإنه كان يقوم لها على هذه الأعمال بعض الجوارى . وتدل دلائل كثيرة على أن بنات الأشراف والسادة كان لهن منزلة سامية ، فكن يخترن أزواجهن ، ويتركهن إذا لم يحسنوا معاملتهن^(٢) . وبلغ من منزلة بعض شريقاتهن أنهن كن يحمين من يستجير بهن ويرددن إليه حريته إذا استشفع بهن ، على نحو ما ردت فكيهة إلى السليسيك بن السلوك حريته حين وقع أسيراً في يد عشيرتها من بني عوار^(٣) . وكانوا يعدونها جزء لا يتجزأ من عرضهم ، ولم يكن شيء

والأمالى ١٠٦/٢ والمغرب ص ٣٩٨ .

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٦/٩ .

(٣) الأغاني (طبعة الساسي) ٣٧/١٨ .

(٢) انظر الأغاني ١٣/١٠ وما بعدها

يثيرهم كَسَبْنِي نَسَائِهِمْ وَهُمْ بَعِيدٌ عَنِ الْحَيِّ ، فَكَانُوا يَرْكَبُونَ وَرَاءَهُمْ كُلَّ وَعَرٍ حَتَّى يَلْحَقُوا بِهِمْ وَيَنْقُذُوهُمْ وَيَغْسِلُوا عَارَ سَبِيهِمْ عَنْهُمْ ، وَهُوَ عَارٌ عَنْهُمْ لَيْسَ فَوْقَهُ عَارٌ .
وكانوا يصحبونهم معهم في الحرب ، وكن يشددن من عزائمهم بما ينشدن من أناشيد حماسية ، حتى إذا قتل فارس ندبته ندباً حاراً . حاضرات على الأخذ بثأره والانتقام من قتلته . وتلمع في هذا الجانب أسماء كثيرات على رأسهن النساء ومراثيها في أخويها صخر ومعاوية مشهورة . وكن يستشطن غضباً إذا رضى العشيخة بأخذ الدية ، حقناً للدماء ، على نحو ما تصور ذلك كبشة أخت عمرو بن معد يكرب ، وقد قُتل أخ لها (١) :

فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَشَارُوا وَاتَّيَيْتُمْ فَمَشُوا بِأَذَانِ النَّعَامِ الْمَصْلَمِ (٢)
فهى ترى أن عشيرتها إن قبلت الدية في أخيها أعطت عن يد وهى صاغرة صغار الأسرى الذين تُجَدِّعُ آذانهم ، بل صغار النعام المصلم المقطوعة آذانه . وتقول أم عمرو بنت وقْدان في أخ لها قُتل وقد فكرت عشيرتها في قبول ديته (٣) :

إِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَطْلُبُوا بِأَخْيَكُمُ فَذَرُوا السَّلَاحَ وَوَحِّشُوا بِالْأَبْرِقِ
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا نَقَبَ النِّسَاءِ فَبُشَّ رَهْطَ الْمُرْهَقِ (٤)
فهم إن لم يثأروا لأخيها حقاً عليهم أن يلقوا السلاح ويمضوا على وجوههم إلى مكان بعيد بالأبرق ، فيتزويوا بزى النساء ، ويتعطروا ويتزينوا بزيتنهن . وكانوا يفرون من الحرب حين لا يكون من الفرار بد ، إلا أن تكون معهم النساء ويروهن فارات وقد حسرن عن وجوههن ، حينئذ يثبتون في المعركة ويناضلون حتى الذِّمَاءُ الأخير (٥) :

وكان جماهن يثيرهم ، وينطق ألسنتهم بوصفه ووصف ما كن يتزين به من

(١) المرزوق ٢١٨/١ وقارن الأصمعيات

(٢) المرزوق ١٥٤٦/٣ .

ص ١٥٧ .

(٤) المجاهد : جمع مجحد وهو الثوب المشيع

(٢) اتديتم : أخذتم الدية ، وأذان النعام

صبغة ، والنقب : جمع نقبة ، وهى إزار للمرأة .

مصلة خلقة .

(٥) المرزوق ١٧٧/١ .

طيب وحلى وثياب على نحو ما تصور ذلك معلقة امرئ القيس إذ يقول :

وَتُضْحَى فَتَيْتُ الْمَسْكَ فَوْقَ فَرَاشِهَا نَوُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَظِقْ عَنْ تَفْضُلِ

ويقول المنخل اليشكري في فتاته^(١) :

الكَاعِبُ الْحَسَنَاءُ تَرَّ قُلُ فِي الدَّمَقَسِ وَفِي الْحَرِيرِ

ولم يقفوا عند جمالها الجسدى ، فقد فطنوا إلى جمالها المعنوى وما تتحلى به من شيم وخصال كريمة ، على نحو ما يقول الشنفرى في زوجته أميمة^(٢) :

لَقَدْ أَعْجَبْتَنِي لِمَسْقُوطَا قِنَاعِهَا إِذَا مَا مَشَتْ وَلَا بِذَاتِ تَلَقُّتِ

تَبَيَّتْ - بُعِيدَ النَّوْمِ - تُهْدَى غَبُوقُهَا لِحَارَاتِهَا إِذَا الْهَدْيَةُ قَلَّتِ^(٣)

تَحَلَّ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللُّومِ بَيْتِهَا إِذَا مَا بَيَّوتُ بِالْمَذْمَةِ حُلَّتِ

كَأَنَّ لَهَا فِي الْأَرْضِ نِسِيًّا تَقْصُصُهُ عَلَى أُمِّهَا وَإِنْ تَكَلَّمْتَ تَبَلَّتِ^(٤)

أُمِيمَةُ لَا يُخْزِي نَشَاهَا حَلِيلُهَا إِذَا ذُكِرَ النِّسْوَانُ عَقَّتْ وَجَلَّتِ^(٥)

إِذَا هُوَ أَمْسَى آبَ قُرَّةَ عَيْنِهِ مَا بَ السَّعِيدِ لَمْ يَمَلْ أَيْنَ ظَلَّتِ^(٦)

فصاحبه وقور خجول ، لا يسقط قناعها في أثناء سيرها ولا تلتفت حولها ، وهى كريمة مؤثرة تؤثر جاراتها في الجذب بغبوق اللبث ، وقد حصنت بيتها عن كل لوم أو ذم يلحقها ، وهى شديدة الحياء ، ومن أجل ذلك لا ترفع رأسها عن الأرض في مسيرها ، حتى ليظن من يبصرها أنها تبحث عن شيء ضاع منها . وإذا اعترضها شخص وكلمها أوجزت ومضت لقصدها وغرضها . وإن الحديث العطر عنها في العشيرة ليملاً زوجها زهواً وخيلاء ، إنها مثال العفة والحلال . وإنه ليرفعها عن كل شك وهمة ، فإذا أمسى وعاد إليها من المرعى أو بعد رحلته

(١) الأصمعيات ص ٥٥ .

(٢) المفصليات رقم ٢٠ .

قصدها . تبلى : أوجزت .

(٣) الغبوق : اللبث الذى يشرب فى العشى .

(٤) التاب : الحديث عن الشخص ، الحليل :

(٥) الزوج .

(٦) آب : رجع .

(٣) الغبوق : اللبث الذى يشرب فى العشى .

(٤) التاب : الحديث عن الشخص ، الحليل :

(٥) الزوج .

(٦) آب : رجع .

(٤) التاب : الحديث عن الشخص ، الحليل :

(٥) الزوج .

(٦) آب : رجع .

الطويلة عاد قرير العين بها سعيداً ، فلا يسألها أين كانت لأنها موضع ثقته .
وتدور في كتب الأدب قصص وأشعار كثيرة تصور هيام بعضهم بهم ،
وكانوا دائماً يفتتحون قصائدهم بذكرهن وما كان لهم من ذكريات معهن في بعض
المعاهد والمنازل ، ويمزجون ذلك بالدموع ، على نحو ما يقول امرؤ القيس في
مطلع معلقته :

قفَا نَبْكَ مِنْ ذَكَرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْملِ

فالمرأة لم تكن في الجاهلية مهملّة ، بل كان لها قدرها عندهم ، كما كان لها
كثير من الحرية ، فكانت تمتلك المال وتتصرف فيه كما تشاء ، وقصة اتجار
الرسول صلى الله عليه وسلم في أموال السيدة خديجة أم المؤمنين مشهورة . وقد دعم
الإسلام هذه الحرية ، فحرم أن تُعْضَلَ المرأة وتمنع من الزواج بعد وفاة زوجها
كما حرم زواج المَقْتِ ، وهو أن يجمع الرجل بين أختين ، وحرم الشُّغار ، وهو أن
يتزوج شخص "أخت صديق له على أن يزوجه أخته ، وأيضاً فإنه حرم أن يتزوج
الابن امرأة أبيه بعد موته أو أن يتزوج عدة رجال امرأة واحدة ، إلى غير ذلك
مما كانوا يبيعونه . وتلك كانت عادات عندهم ، وهي تلازم الأمم في عصور
بداوتها ، ولكن ينبغي أن لا نفهم منها أن المرأة كانت مهددة الحقوق في الجاهلية ،
أما ما سجله عليهم القرآن الكريم من وأدهم للبنات في قوله تعالى : (وَإِذَا بُشِّرَ
أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به
أيمسكه على هُونٍ أم يدسّه في التراب ألساء ما يحكمون) فأكبر الظن أن من
كانوا يصنعون ذلك منهم أجلاف قساة القلوب كانوا ينحشون عليهم من الفقر
أو السبي ، إذ كان سباؤهن كثيراً في الجاهلية ، وكانوا يعدون ذلك سبّة ما بعدها
سبة .

المعيشة

لم يكن العرب يعيشون في الجاهلية معيشة واحدة ، فقد عُرِفَت الزراعة في الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثل يثرب وخيبر وفي الطائف ووادي القرى . وعاش أهل مكة على التجارة ، إذ كانوا يحملون عُرُوضها وسلعها بين حوضي المحيط الهندي والبحر المتوسط . وكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالا وجنوبا في طرق معلومة كما كانت تجوبها شرقا في طريقين معروفين : طريق إلى الخليج الفارسي من شرق مكة وكان يمر بمدينة الرياض الحالية ، وطريق ثان كانوا يذهبون فيه شمالا إلى خيبر ، ثم يتحركون الصحراء في وادي الرُّمَّة ، ويظن أنه كان يجري نهر في عصور ما قبل التاريخ ، ومنه يهبطون إلى الحيرة . وكان يصحبهم في هذه القوافل أدلاء يحملونهم الضلال في مجاهل الصحراء ^(١) ، ومن أشهرهم فُرات ابن حيان ، كما كان يصحبهم خفراء يحملون قوافلهم من ذُؤبان البادية وقراصنتها أو صعاليكها الذين تعودوا النهب والسلب ^(٢) ، وقد يبلغون ثلاثمائة عدداً ، ومن أهم القبائل التي كانوا يخشون ذُؤبانها قبيلتنا هَذَيْلَ وفِثَمَ . وكانوا ينقلون من الجنوب : من اليمن وحوض المحيط الهندي وإفريقية الشرقية اللُّبان والطيب والبخور والجلود وثياب عدن النفيسة وتوابل الهند ورقيق إفريقية والصمغ والعاج ، كما كانوا ينقلون من الطائف الزبيب ومن مناجم بني سليم الذهب . كل ذلك كانوا ينقلونه إلى حوض البحر المتوسط ويعودون محملين بالأسلحة والقمح والزيت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية ^(٣) .

فكة في الجاهلية كانت مدينة تجارية عظيمة ، وكان بها الكعبة أكبر معابد العرب حينئذ ، فكانوا يحجون إلى أصنامهم وأوثانهم فيها ، وتقيم لهم قريش الأعياد والأسواق كسوق عكاظ ^(٤) ، وكانت أكبر أسواقهم ، وكانوا يقيمونها في نجد

(١) المغازي للواقدي (طبع كالكتا) ص ٣٦ ،

١٩٦ ، والمخبر ص ١٨٩ .

(٢) المخبر ص ٣٦٤ .

(٣) انظر مكة في دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) راجع في تحقيق عكاظ رسالة بعنوان موقع

عكاظ لعبد الوهاب عزام (طبع دار المعارف) .

بالمقرب من عرفات من منتصف ذى القعدة إلى نهايته ، ولم تكن سوق تجارة فحسب ، بل كانت سوقاً للخطابة والشعر أيضاً ، وقد استمع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قُصِّ بن ساعدة وهو يخطب في الناس . وقالوا إنه كانت تقام للناطقة فيها قببة ويقد عليه الشعراء يعرضون شعرهم ، فن أشاد به طار اسمه . وكثيراً ما كانوا يفتنون الأسرى فيها وتدفع الديات ، وأيضاً كثيراً ما كانت تقوم المفاخرات والمنافرات . وعُرف غير واحد بأن الناس كانوا يحتكمون إليه فيها ، ويذكر في هذا الصدد أناس من تميم مثل الأقرع بن حابس . ومعنى ذلك كله أن عكاظاً كانت أشبه بمؤتمر كبير للعرب ، فيه يجتمعون وينظرون في خصوماتهم ، ومنازعاتهم ، وكل ما يتصل بهم من شئون . ومن أسواق قريش أيضاً ذو الحجاز بالقرب من عكاظ ، وكانت تظل هذه السوق منعقدة إلى نهاية الحج .

ويجانب هاتين السوقين الكبيرتين كان للعرب أسواق أخرى كثيرة يمررون فيها كما يريدون ويشترون ويبيعون ، ومن أهمها سوق دومة الجندل في شمالي نجد وسوق خيبر وسوق الحيرة وسوق الحِجْر باليمامة وسوق صُحار ودِّبَا بعمان وسوق المشقر بهجر وسوق الشحر وسوق حضرموت وسوق صنعاء وعدن ونجران . وكان لكل سوق من هذه الأسواق وقت معلوم تعقد فيه ^(١) .

ولم يكن عرب نجد يفيدون من هذه الأسواق فقط البيع والشراء فإن قوافل عروضا القرشية وغيرها كانت تجعل لكثيرين منهم 'جعلًا نظير حمايتها، وكانت تتخذ منهم الخفراء والأدلاء ، فتتفحهم بأموالها . على أنه ينبغي أن لا نظن أن أهل مكة جميعاً كانوا أثرياء ، فقد كان يجانب الأثرياء فقراء وصعاليك كثيرون ، وكان الفرق شاسعاً بين ثراء السيد الشريف وفقير المعوز البائس ، كما كان بها رقيق كثير .

وراء المجتمع المكي كان يعيش العرب في تهامة ونجد وصحراء النفود وبوادي الشام والدهناء والبحرين معيشة بدوية تعتمد على رعى الأغنام والأنعام . وكانوا لا يفضلون شيئاً على حياتهم الرعوية البدوية ، لا يفضلون الزراعة ولا الصناعة ، بل يحتقرونهما ويزدرونهما ، فلا حياة مثل حياتهم حياة البساطة والحرية التي

لَا تُحَدِّدُ. ووقفت الصحراء تحميمهم وتحرس تقاليدهم ولغتهم وتقيم أسواراً من دونهم ودون هذه الحياة الصحراوية ، وهى حياة كان غذاؤهم فيها بسيطاً ، فقليل من الشعير يكفيهم ، وإذا أضيف القمح واللبن فذلك غذاء رافه ، وكان لباسهم بسيطاً كغداؤهم ، وهو ليس أكثر من ثوب طويل يضمه فى وسطه منطقة وقد تلفه عباءة ، وغطاء للرأس يمسكه عقال .

ولكن لا تظن أن هذه الحياة البسيطة كانت سهلة ، فقد كانت الصحراء مليئة بالخواف والمخاطر ، إذ فيها غير قليل من الوحوش والسباع والحشرات والحيات ، وفيها القفار الجرداء الزاخرة بالخنادق والمهاوى ورياح السموم ، وفيها خنادس الليل المظلم الخيف التى كانت تلقى فى روعهم بالخيالات والأوهام وما تمثل لهم من السَّعَالَى والجن والغيلان . وفى تضاعيف ذلك كان العرب يتربص بعضهم ببعض ، إذ كانت حياتهم كما قدمنا حياة حربية دامية ، وكاد أن لا يكون هناك حى أو عشيرة بل أسرة إلا وهى واثرة موتورة .

وقد تحولت هذه الحياة الحربية من بعض وجوهها إلى مصدر من مصادر رزقهم ، إذ كانوا يتخذون الغزو وسيلة من وسائل عيشهم ، وهو عيش مشوب بالضنك والشظف وهذا الصراع العنيف الذى كانوا يخوضونه ضد مخاطر الصحراء ومن يترصدهم من الأعداء ، وصوّر ذلك تصويراً طريفاً تأبط شراً فى كلمة له ، فقال (١) :

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا
وَيَسْبِقُ وَقَدْ الرِّيحَ مِنْ حَيْثُ يَنْتَحِي
إِذَا خَاطَ عَيْنِيهِ كَرَى النُّومِ لَمْ يَزَلْ
وَيَجْعَلُ عَيْنِيهِ رَبِيبَةً قَلْبِهِ

جَحِيشًا وَيَعْرِوْرِي ظَهْرَ الْمَهَالِكِ (٢)
بِمُنْخَرَقٍ مِنْ شِدَّةِ الْمَتَارِكِ (٣)
لَهُ كَالِيٌّ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانِ فَاتَكَ (٤)
إِلَى سَلَّةٍ مِنْ حَدِّ أَخْضَرَ بَاتَكَ (٥)

الشد : العدو ، المتدارك : المتلاحق .

(٤) خاط عينيه كرى النوم : نام ، الكالى :

الرقيب ، الشيحان : الجناد فى الأمر .

(٥) الربيبة : الرقيب والديديان ، والسلة :

الواحدة من سل السيف ، والأخضر : السيف ،

وبالتاك : القاطع .

(١) المرزوقى ١/ ٩٥ وآمالى القالى ٢/ ١٣٨

وزهر الآداب ١٨/ ٢ .

(٢) يظل هنا : يفتد ، المومة : الفلاة ،

جحيشاً : منفرداً ، يعرورى : يركب .

(٣) وقد الرّيح : أوطأ ، يتحنى : يقصد ،

منخرق : سريع ، يقصد العدو السريع ،

إِذَا هَزَّهٗ فِي عَظَمِ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ نَوَاجِدُ أَفْوَاهِ الْمَنَابِي الضَّوَاحِكِ ^(١)
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك ^(٢)

وتلك كانت حياة أكثرهم ، فهم يقطعون مفازة في النهار ، فإذا جنَّهم الليل وجدتهم في مفازة أخرى وقد ركبوا ظهور المهالك والمعاطب ، لا يستصحبون رفيقاً غالباً سوى أرجلهم التي تعودت العدو السريع . وهم دائماً مفزعون حتى في النوم ، فإذا ناموا لم ينم قلبهم بل ظل يكلوهم ويرعاهم خيفة عدو راصد من وحش أو إنسان ، بل إن النوم لا يكاد يلهم بعينهم إلا غراراً ، فهي معلقة بسيوفهم التي لا تلبث أن تستقر في صدور من يهجمون عليهم ، فيضحك الموت ويكشر عن أنيابه الغلاظ . وعلى هذه الشاكلة هم دائماً مستوحشون ، بل إنهم ليؤثرون الوحشة ويستحبونها إذ يرون فيها الأنس ، فأنسهم في التفرد بالفلوات والتغار التي تمرسوا بها وعرفوا مسالكها ودروها معرفة تجعلهم لا يضلون قصدهم ، كما لا تضل الشمس قصدها ، بل يهتدون دائماً إليه .

وهذه الحياة القاسية المخوفة هي التي دفعتهم إلى الإشادة باحتمال الشدائد والحرارة والشجاعة ، فإن القبيلة إن لم يكن لها حماة يذودون عنها تخطفتها القبائل من حولها وفنيت فيها . وكان أهم حيوان أعانهم على احتمال هذه الحياة المجهدة البعير الذي يتحمل — مثلهم — مشاق الصحراء ولا يرهقه عطش ولا جوع ولا ما يحمله من أثقال . فهو رفيقهم المفضل الذي يوافقهم ، ولذلك طالما أشادوا به في شعرهم . وكثيراً ما يصفون معه الحيوانات التي تصادفهم من مثل أذن الوحش وحمارها وبقرة الوحش وثورها والنعام والظباء . وكان فرسانهم ينفقون أيامهم على صهوات الجياد يرتادون بها مجاهل الصحراء ويلقون عليها الأعداء ، وقد يتخذونها لصيد الوحش على نحو ما يصور لنا ذلك امرؤ القيس في معلقته وزهير في لاميته ^(٣) .

وكان صيد الحيوان الشغل الشاغل لكثيرين منهم ، فكانوا يدرّبون الكلاب عليه ويضربونها تضرية ، حتى تصبح من الجوارح الفاتكة ، وفي شعرهم قطع كثيرة تصف المعارك التي كانت تنشب بينها وبين الأئمن وحمارها أو البقر وثورها .

(١) القرن : الكف والنظير ، تهلت : (٢) أم النجوم : الشمس .
(٣) انظر ديوان زهير ص ١٢٤ وما بعدها .
تلاّت وأشرقت .

وفي معلقة ليبد وصف بارع لأثن وحمارها ، ثم لبقرة وحشية تعقبها الرماة بنبههم ، ولما يشوا أن يصيبوا منها مقتلاً أرسلوا في إثرها جوارح الكلاب فنشبت معركة حامية قتلت فيها البقرة كلبتين هما كساب وسُخام ، يقول :

حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غُضُفًا دواجنَ قافلاً أعصامها^(١)
فلحِقْنَ واعتكرت لها مدرية كالسُمهرية حَدُّها وتامامها^(٢)
لتدودهن وأيقنت إن لم تذد أن قد أحَمَّ مع الحتوف حِمامها^(٣)
فتقصدت منها كساب فضرجت بدمٍ وغودر في المكر سُخامها^(٤)
ولأوس بن حجر قصيدة فائقة^(٥) وصف فيها حمار الوحش وصفاً بديعاً ،
ثم وصف الصائد وصفاً مسهباً ، أَرانا فيه ناموسه وكيف كان ينجي للوحش على
عين ، حتى إذا ورد الحمار ختله بسهمه ، غير أنه أخطأه .

ويظهر أن صيد الوحش لم يكن هم شجعانهم وفرسانهم ، إنما كان هم فقرائهم
ومعوزيهم ، ولذلك كان يأتي في المرتبة الثانية من غزوهم ونهبهم اللذين بدلان على
بطولتهم واستبسالهم ، ولعل ذلك ما جعل عمرو بن معد يكرب يهجو قوماً بأنهم
يعيشون على الصيد ، إذ يقول^(٦) :

أبني زياد أنتم في قومكم ذنبٌ ونحن فروعُ أصلٍ طيبٍ
نصلُ الخميسَ إلى الخميس وأنتم بالقهر بين مُربقٍ ومُكَلَّبٍ^(٧)
جيدٌ عن المعروف سعى أبيهم طلبُ الوعلِ بوقُضبةٍ وبأكلبٍ^(٨)

وكما كانوا يصيدون الوعل أو الماعز الجبلي كانوا يصيدون الوحش ، ويردد
وصفهم له في أشعارهم تردداً واسعاً ، وهو تردد أتاح للجاحظ في حيوانه سيولا

(٥) انظر ديوانه بتحقيق محمد يوسف نجم
(طبع دار صادر بيروت) رقم ٣٠ .
(٦) حيوان ٣٠٩/٢ .
(٧) الخميس : الجيش . المربق : الصائد
بالريقة وهي العروة في الحبل ، والمكَلَّب :
الصائد بالكلاب .
(٨) الوقفة : جعبة للسهام من آدم .

(١) الغضف : الكلاب المسترخية الآذان ،
الدواجن : الضاريات وقيل الملعبات ،
وقافلاً : يابساً ، والأعصام : قلائد من آدم
تجمل في أعناق الكلاب .
(٢) اعتكرت : رجعت وعطفت ، والمدرية
القرون الحادة ، والسهمرية : الرماح .
(٣) الحمام : الموت ، وأحم : حان .
(٤) تقصدت : قتلت من قوليهم رماه فأقصده .

من هذه الأشعار .

وتلك كانت معيشتهم بين صيد للوحش وصيد للإنسان ورعى للأغنام والأغنام ، فتلك موارد رزقهم ، وليس معنى ذلك أنهم كانوا متساوين في هذا الرزق ، فقد كان في كل قبيلة السادة الذين يملكون مئات الإبل والفقراء الذين لا يملكون شيئاً . وتحول كثير من هؤلاء الفقراء إلى قطاع للطرق يسلبون وينهبون ويقتلون على نحو ما هو معروف عن تأبط شراً والشنفرى وأضرابهما . وما كان يقوم به هؤلاء الذؤبان أو الصعاليك كانت تقوم به القبائل برمتها أحياناً حين تكف السماء عنهم غيثها وتجذب ديارهم وتُصَحِّل ، فلا يكون أمامهم سوى الغزو وشن الغارات ، ولعل ذلك هو الذى دفعهم دفعاً إلى الإشادة بالكرم والكرماء ، وقد أشادوا طويلاً بهذه الفضيلة كما أسلفنا ، وهى إشادة طبيعية في هذه الصحراء المقفرة المهلكة ، التى يحفُّ بها المحل والجذب من كل جانب .

٣

المعارف

ليس بين أيدينا ما يدل على أن العرب الجنوبيين أوروثوا عرب الشمال حضارة واضحة ، ويظهر أنهم لم يخطوا في طريق الحضارة خطى واسعة ، فقد كان عندهم علم بالزراعة وهندسة إرواء الأرض وإقامة المدن ، ولم يكن عندهم ثقافة ذات معالم بيّنة ، وحتى من وجهة التنظيم السياسى كان يعمهم النظام الإقطاعى ، ولذلك حينما ضعفت دولتهم الأخيرة دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمانات أو الدولة الحميرية تحولوا سريعاً إلى قبائل بدوية .

وما لا ريب فيه أن العرب الشماليين كانوا على صلة بالحضارات المجاورة ، فقد كان تجّار مكة يدخلون في مصر والشام وبلاد فارس ، وكان الحيريون يتصلون مباشرة بالفرس ، كما كان الغساسنة يتصلون بالروم ، وقد تنصروا ، وشاعت النصرانية في قبائل الشام والعراق ، ونزل بينهم كثير من اليهود في الحجاز واليمن . وكل ذلك معناه اتصال العرب الشماليين بالأمم المجاورة وحضاراتها ، ولكن يبدو أن ذلك كان يجرى في حدود ضيقة وأنه وقف في جمهوره عند تأثرات بسيطة كأن يأخذوا عن الفرس والروم بعض فنون الحرب أو يعرفوا بعض أخبارهم وأساطيرهم ، ففي السيرة

النبوية أن قريشاً حين جمعت العرب — بعد موقعة أحد — لغزو المدينة أشار سلمان الفارسي على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفر الخندق ، حتى لا يستطيعوا اقتحام المدينة عليه ، وكأنه كان أعلم من حوله بأساليب الحرب^(١). وفي السيرة أيضاً أن النضر بن الحارث كان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رؤسهم وإسفسنديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهو لا يزال في مكة) مجلساً فذكر فيه الله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نعمة الله خلتفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلهم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس وأبطالهم الأسطوريين^(٢) .

فالعرب الشماليون لم يكونوا منقطعين عن التأثيرات الحضارية الأجنبية ، غير أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ما وصل إليهم من هذه التأثيرات ، فقد كانوا لا يزالون في طور السذاجة البدوية ، وكل ما يمكن أن يقال إنهم كانوا في نهاية هذا الطور . وقد وقف من قديم قوم يقارنون بينهم وبين الشعوب المتحضرة من حولهم كالفرس والروم ، وكان على رأسهم الشعوبية ، وهي مقارنات تقوم على التحكم ، لأنها تقارن بين بدو ومتحضرين ، وقد مر الفرس والروم بطور بداوة كما مر العرب ، ولم يكن لهم فيه حضارة ولا نظر علمي دقيق . ومثل هذه المقارنات ما بعثه الغربيون منذ القرن الماضي من الموازنة بين الساميين جميعاً عرباً وغير عرب وبين الآريين ، على نحو ما هو معروف عن رينان^(٣) ، فقد ذهبوا يزعمون أن الآريين هم الجنس المفضل الذي أحدث الحضارة ، وكأنهم يريدون أن يبرروا صنيع ساستهم واستعمارهم للشعوب السامية . . وهي نظرية لا تؤيدها الحقائق العلمية الخالصة ، إذ لا يستطيع أحد أن يثبت نقاء سلالة جنسية بعينها ، لها نسب صريح ، وأيضاً فإن هذه النظرية تتناسى أثر البيئة والظروف التي تلم بالشعوب ، ومن المحقق أن الحضارة الإنسانية ليست من عمل جنس واحد ، فقد تعاونت على تكوينها أجناس متباينة ، ولكل جنس فيها نسبة المتعادلة . ويدخل في هذه المقارنات المضللة ما نجده عند ابن خلدون

(١) السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ٢٣٥/٣ . (٢) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لحواد

(٢) السيرة النبوية ٢٢١/١ . على ١٦٨/١ .

من حكمه على العرب بأنهم ليسوا أصحاب صناعات ولا علوم^(١) ، لأن ذلك إنما ينطبق عليهم في الجاهلية ، أما في الإسلام فقد عرفوا الصناعات ونهضوا في الميادين العلمية والفلسفية نهضة كانوا فيها أساتذة العالم في عصوره الوسيطة . ويقول أوليري : إن العربي مادي ، ضيق الخيال والعواطف^(٢) ، وكأنه يتجاهل أدبهم وما يزرع به من أخيلة ومشاعر ، وهو تعميم جنسى لا دليل عليه ، وكأنما قادت إليه نظرية الأجناس البشرية وما يدعو إليه أصحابها من تفوق الجنس الآرى على ما سواه من أجناس .

وندع هذه المقارنات المضللة وما سقط منها من أحكام خاطئة إلى بيان ما كان لدى العرب في الجاهلية من معارف ، لعل أهمها علمهم بالأنساب والأيام وما ينطوى في ذلك من المناقب والمثالب ، مما سجله العباسيون في مجلدات ضخمة . وكأنهم رأوا في ذلك كله تاريخهم ، فكانوا يروونه ويحفظونه أبناءهم ، واشتهر عندهم كثيرون في هذا الباب من أبواب الرواية .

وبلى هذا النوع من المعارف معرفتهم بالنجوم ومطالعها وأنوائها وأمطارها ، يقول الجاحظ : « عرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء لأن من كان بالصالحاصح الأماليس^(٣) — حيث لا أمانة ولا هادى مع حاجته إلى بعد الشقة — مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه^(٤) ، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجذب وضنه بالحياة اضطرتته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، ولأنه في كل حال يرى السماء وما يحجرى فيها من كوكب ويرى التعاقب بينها والنجوم الثابت فيها وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً^(٥) ، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً . وسئلت أعرابية فقبل لها : أتعرفين النجوم ؟ قالت : سبحان الله أما أعرف أشباحاً وقوفاً على كل ليلة . ووصف أعرابي لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء ونجوم الاهتداء ونجوم ساعات الليل والسعود والنحوس ، فقال قائل لشيخ عبادى كان حاضراً : أما ترى هذا الأعرابي

(٣) الصالحاصح : الأرض المستوية ،

الأماليس : التى ليس بها ماء ولا شجر .

(٤) يؤديه : يمينه .

(٥) فارداً : منفرداً .

(١) المقدمة (طبع المطبعة البية) ص

٢٥٢ وفى مواضع متفرقة .

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة

الأولى) ص ٣٩ نقلاً عن كتاب أوليري :

Arabia Before Muhammad .

يعرف من النجوم ما لا نعرف ؟ قال : من لا يعرف أجذاع^(١) بيته^(٢) ؟ ! .
وهي معرفة أدامها إليها فرط الحاجة ، ويقول صاعد بن أحمد المتوفى سنة ٤٣٥ هـ :
« كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغايها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها
على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في
أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب في العلوم^(٣) » .

وبهذا القياس نفسه كانت معارفهم الطبية ، فقد عرفوها بالتجربة مثل الكي
بالنار وفوائد بعض العقارات النباتية . وكان ينتشر بينهم في تضاعيف ذلك كثير
من الخرافات كلما بهم بأن دم السادة يشفى من الكلب وأن عظام الميت تشفى من
الجنون وأن روحاً شريرة تحلّ في المريض ، وكانوا يتداوون منها بالعزائم والرقي .
فطبهم كان قاصراً ولم يكن مبنياً على قواعد عقلية ، وحقاً ما يقول ابن خلدون :
« للبادية . . طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ،
متوارثة عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على
قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج ، وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان
فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كسلدة وغيره^(٤) » . ومن أهم معارفهم الطبية
معارفهم البيطرية ، وخاصة فيما اتصل بالخيول والإبل ، فقد عرفوا شباتها وما يزيها
ويعيها وما يتصل بذلك من علل وأمراض وأدواء كالجرب وما كانوا يداوونه به .
وقد تحدثوا طويلاً عن حيواناتهم وخصائصها حديثاً بل أحاديث أفاد منها الجاحظ
في حيوانه ، غير أنه يعلق على ذلك بقوله : « وإنما أعتمد على ما عند الأعراب ،
وإن كانوا لم يعرفوا شكل ما أحتاج إليه منها من جهة العناية والفلاية^(٥) ولا من جهة
التذاكر والتكسب ، ولكن هذه الأجناس الكثيرة ما كان منها سبعاً أو بهيمة
أو مشترك الخلق فإنما هي مبثوثة في بلاد الوحش من صحراء أو واد أو غائط
أو غيضة أو رملة أو رأس جبل ، وهي في منازلهم ومناشئهم ، فقد نزلوا كما ترى
بينها وأقاموا معها . . وربما بل كثيراً ما يبتلون بالناب والخلب وباللدغ واللسع
والعض والأكل ، فخرجت بهم الحاجة إلى تعرف حال الجاني والجارح والقاتل

(١) الأجذاع : سيقان النخل تجعل سقفاً للخيمة .

ص ٤٥ .

(٢) الحيوان ٣٠/٦ .

(٤) المقدمة ص ٣٤٦ .

(٣) طبقات الأمم لصاعد (طبع بيروت)

(٥) الفلاية : النظر الملى .

وحال المحنى عليه والمجروح والمقتول ، وكيف الطلب والهرب ، وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر ، مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء^(١) . وكانت علم عناية خاصة بالفراسة والقيافة ، وهى تتبع الأثر فى الأرض والرمل ، ولم فى ذلك أقاصيص طويلة ، وطبيعى أن تنمو عندهم القيافة ليعتقبوا من يضل منهم فى الصحراء ، أو ليعتقبوا الأعداء الذين يغيرون عليهم وينهبون أموالهم ونساءهم فى غيبتهم عن أحيائهم .

وهذه الضروب جميعها من المعرفة ضروب أولية ، تقوم على التجربة الناقصة ولا تؤسس على قاعدة ولا على نظرية ، فهم فى جمهورهم بدو ، ليسوا أصحاب علم ولا نظر عقلى مؤسس على أسلوب علمى . ولعله من أجل ذلك شاعت عندهم العيافة وهى التنبؤ بملاحظة حركات الطيور ، وقد اشتهر بها بنو أسد وبنو لهب ، وكانوا يتيامنون بها ويتفاءلون إن جرت يمنة ويتشاءمون إن جرت يسرة ، ولم فى الطيرة أحاديث كثيرة ، قال الجاحظ : « وأصل التطير من الطير إذا مرَّ بارحاً (ميامناً) وسانحاً (مياسراً) أو رآه يتفلى ويتنف ، حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبر زجروا عند ذلك وتطيروا . . فكان زجر الطير هو الأصل ، ومنه اشتقوا التطير ، ثم استعملوا ذلك فى كل شئ . . وللطيرة سمت العرب المنهوش بالسليم والبرية بالمفاضة وكسوا الأعى أبا بصير والأسود أبا البيضاء وسموا الغراب بحاتم . والغراب أكثر من جميع ما يتطير به فى باب الشؤم^(٢) . ولا يمانهم بباب الطيرة كانوا يستقسمون بالأزلام والقداح ، وهى سهام ، كانوا يكتبون عليها عبارات يصدرن عنها مثل الأمر والنهى والمتر بص ، وهى غير أزلام القمار وقداحه .

وكل هذا يدل على أن التسبب العقلى عندهم كان ضعيفاً ، وأنهم كانوا لا يحسنون ربط المسببات بأسبابها ربطاً محكماً ، وهذا طبيعى فقد كانوا فى طور البداوة ، فلم يكونوا يفهمون الارتباط بين العلة والمعلول ، وكانوا لا يتعمقون فى بحث الأشياء ، إنما كانوا ينظرون إليها نظراً عارضاً أو خاطفاً . يقفون عند الجزئيات ، ولا يتعلقون بمدركات كلية أو نظرات شاملة فكل ذلك لا يطوف بالدائرة التى يحونها دائرة الحياة الفطرية الساذجة . وحقاً شاعت عندهم الحكمة ، ولكن لا بمعناها

(٢) الحيوان ٣/٤٣٨ وما بعدها .

(١) الحيوان ٦/٢٩ .

الذى عُرِفَتْ به في العصور الإسلامية وهو الفلسفة ، وإنما بمعنى الخبرة المحدودة التى تصورها عبارة من العبارات القصيرة . ومن أمثالهم « في بيته يؤتى الحُكْم » وهو من يحكم بين الناس في منازعاتهم ومنازعاتهم وخصوماتهم . وربما اشتقت الكلمة من هذا المعنى ، فالحكم هو العاقل المجرب الذى يحقق بحكمه العدل ويمنع الخصام . وكذلك كانت الحكمة ، فهى تنبئ عن معرفة الشخص بالحياة ، ووقوفه على طرقها المستقيمة التى تهدى سبيل الرشاد .

وكثرت الحكم والأمثال عندهم ، وألفت فيها كتب ضخمة في العصر العباسى ، من أشهرها كتاب « جمهرة الأمثال » للعسكرى و « مجمع الأمثال » للميدانى . واشتهر عندهم حكماء كثيرون كانوا يفصلون بينهم ، ويتناقلون ما يجرى على ألسنتهم من وصايا وتعاليم يفيدون منها في حياتهم ، يقول الجاحظ : « ومن القدماء بمن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والتكراء (الفطنة) لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومجاشع بن دارم وسليط بن كعب بن يربوع . . ولؤى بن غالب وقس بن ساعدة وقصى بن كلاب . ومن الخطباء البلغاء والحكام والرؤساء أكرم بن صيفى وربيع بن حذار وهرم بن قُطَيْبَة وعامر بن الظرب ولبيد بن ربيعة » (١) . وللقمان سورة في القرآن الكريم ، ويقال إنه كانت له حكم معروفة عند الجاهليين جمعوها في صحيفة تدعى مجلة لقمان ، ففى أخبار سُويْد بن الصامت أنه « قدم مكة حاجاً أو معتمراً ، فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام ، فقال له سويد : لعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله : وما الذى معك ؟ قال : مجلة لقمان ، يعنى حكمة لقمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعرضها على ، فعرضها عليه ، فقال : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل منه : قرآن أنزله الله علىّ ، وهو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد ، وقال إن هذا القول حسن ، ثم انصرف ، وقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتلتة الخزرج ، فكان رجال من قومه يقولون : إنا لراه مات مسلماً ، وكان قَتْلُهُ يوم بُعَاث (٢) » .

(٢) أسد الغابة ٢/٣٧٨ .

(١) البيان والتبيين (طبعة عبد السلام هارون) .

وتتلى* كتب الأمثال والأدب بما دار على لسان لقمان وغيره من حكماء
الجاهلية من حكم، مثل قول أكرم: «مقتلُ الرجل بين فكَّيه» وقول عامر بن
الظرب: «رب زارع لنفسه حاصد سواه». وفي الشعر الجاهلي كثير من هذه
الحكم، وهي تُذكَّرُ في ثنايا كلامهم من مثل قول طرفة في معلقته:

أرى العيشَ كَنَزًا ناقصًا كلَّ ليلةٍ وما تَنَقُّصُ الأيامِ والدَّهرُ يَنفَدُ
ومن اشتهر بهذه الحكم الأفوه الأودى وليبد وعبيد بن الأبرص، وفي خاتمة
معلقة زهير طائفة كبيرة منها على شاكلة قوله:

وأعلمُ عِلْمَ اليومِ والأَمْسِ قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عَمِ
ومن لا يصانعُ في أمورٍ كثيرةٍ يضرُّ بأنيابٍ ويوطأ بمنسِمٍ^(١)
ومن لا يذُدُّ عن حَوْضِهِ بسلاحِهِ يهدمُ ومن لا يظلمُ الناسَ يُظلمَ
ومن هابَ أسبابَ المنية يلقها ولو رامَ أسبابَ السماءِ بسُلْمِ
ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الناسِ تُعلمُ

وكان أكثر حكمهم يستقى من مروءتهم وسُنَنها التي وصفناها فيما مر من
حديثنا، وهي تجرى مجرى التعاليم التي ينبغي أن يأخذوا بها في حياتهم. وقد وقف
شعراؤهم كثيراً عند فكرة الحياة والموت والدهر وما يرى به الناس، وكانوا يرون
أنه لا مفر من الموت ولا حيلة منه، فلا ينفع إزاءه صحة ولا شباب ولا قوة،
وكثيراً ما يذكرون مَنْ سبقهم إليه متخذين من ذلك عظمهم، يقول قُصَّ بن
ساعدة^(٢):

في الذاهبين الأول ين من الشعوب لنا بصائرُ
لما رأيت مواردًا للموت ليس لها مصادِرُ
ورأيت قومي نحوها تسعى الأصاغرُ والأَكابرُ
لا يرجعن قومي إلَّا يَّ ولا من الباقين غابرُ

(٢) حماسة البحترى ص ٩٩ وانظر البيان

والتيين ٣٠٩/١.

(١) المصانعة: الترفق والمداواة، يضرس:

يعض، المنسم: خف البعير.

أَيَقْنَتُ أَنِّي لَا مَحَا لَةَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَانِرُ

وكثيراً ما يتسعون بهذه النظرة ، فيخرجون عن إفاء الزمان لعشائهم وقبائلهم إلى إفناثه للدول والملوك من حولهم ، فالليالي والدهر والأزمان في كل وقت تهدم جداراً كبيراً إما من ملك أو دولة ، وحتى الأنبياء وسليمان الذي سُخِّرَتْ له الجن تلفتْ نفوسهم جميعاً وهلكوا كما هلك من قبلهم ، ويهلك من بعدهم^(١) .

ودائماً يكررون أن الدهر بالمرصاد وأنه لا يؤمنُ في صباحه ومساءه ، ولم في عتابه على فجيعته لهم بالأهل ومحاورات طريفة ، كقول زهير إن صح أنه له^(٢) :

يا من لأقوامٍ فُجِعَتْ بِهِمْ كانوا ملوك العرب والعجم
استأثر الدهرُ الغداةَ بِهِمْ والدهرُ يرميني ولا أرمي
لو كان لي قِرْنًا أَنَاضِلُهُ ما طاش عند حَفِيظَةٍ سَهْمِي^(٣)
أو كان يعطى النِّصْفَ قَلْتُ لَهُ أَحْرَزْتُ قَسْمَكَ فَالُهُ عَنْ قَسْمِي^(٤)
يا دهر قد أَكْثَرْتَ فَجَعَتْنَا بَسْرَاتِنَا وَوَقَرْتَ فِي الْعِظَمِ^(٥)
وسلبتْنَا مَا لَسْتَ مُعْقِبِنَا يا دهر ما أَنْصَفْتَ فِي الْحَكَمِ

وعلى هذه الشاكلة كان لهم ضرب من التفكير في حقائق الحياة والموت ، كما كان لهم حكم كثيرة مقتبسة من حقائق مجتمعاتهم ومعاشهم . وليس في ذلك كله فلسفة ، ولكن فيه البساطة والفطرة وما يدل على حنكتهم وتجربتهم الحسية الواقعية .

(٣) الحفيظة : الغضب .

(٤) النصف : العدل .

(٥) المرأة : السادة ، وقرت : صدعت .

(١) حماسة البحري ص ٨٣ وانظر

المفصليات ص ٢١٧ .

(٢) حماسة البحري ص ١٠٥ وانظر

الديوان (طبعة دار الكتب) ص ٣٨٥ .

الدين^(١)

كانت كثرة العرب في الجاهلية وثنية تؤمن بقوى إلهية كثيرة تنبث في الكواكب ومظاهر الطبيعة ، وفي أسماء قبائلهم ما يدل على أنهم كانوا قريبي عهد بالطوطمية (Totemism) إذ تلتف جماعة حول الطوطم تتخذة حاميا والمدافع عنها من مثل كلب وثور وشعلة . وقد آمنوا بقوى خفية كثيرة في بعض النباتات والجمادات والطير والحيوان ، وليس بصحيح ما يزعمه رينان من أنهم كانوا موحدين^(٢) ، فقد كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى كما جاء في القرآن الكريم، وكانوا يتعبدون لأصنام وأوثان كثيرة اتخذوها رمزا لآلهتهم، ويفيض كتاب الأصنام لابن الكلبي في بيان هذا الجانب . ويظهر أن عبادة النجوم والكواكب دخلت عندهم من قديم ، وقد جاءتهم من الصابئة وبقايا الكلدانيين ، كما جاءتهم من لدن عرب الجنوب الذين كانوا يرجعون بآلهتهم إلى ثالوث مقدس، كما مر بنا ، هو القمر أو ودّ ، والشمس أو اللات ، والزهرة أو العزى . ونراهم يقدسون النار ، ويظهر ذلك في إيقادهم لها عند أحلافهم ، واستمطارهم السماء وتقديم القرابين إليها^(٣) . ويقال إن المجوسية كانت متفشية في تميم وعمان والبحرين وبعض القبائل العربية^(٤) ، والمجوس كما نعرف ثنوية يؤمنون بإلهين يدبران العالم هما النور والظلمة أو الخير والشر .

وكانت عبادة الأصنام منتشرة بينهم انتشاراً واسعاً ، وقد صوروها أو نحتوها رمزا لآلهتهم ، وقد يرون في بعض الأحجار والأشجار والآبار ما يرمز إليهم ، ففي أخبارهم أن العزى كانت لغطفان ، وهى شجرة بوادى نخلة شرق مكة ، وقد قطعها خالد بن الوليد ، وهو يقول :

الإسلام لمحمد عبدالمعبد خان وتاريخ العرب القديم ترجمة فؤاد حسين على .

(٢) راجع جواد على ٢٠/٥ وما بعدها و ٥٣/٥ وما بعدها حيث يذكر رأى رينان وآراء غيره من المشرقين .

(٣) انظر الحيوان ٤/٤٦١ وما بعدها .

(٤) جواد على ٢٨٤/٦ وما بعدها .

(١) انظر في ديانات الجاهليين الجزئين الخامس والسادس من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على وكتاب روبرتسن سميث :

Lectures on the Religion of the Semites.

وبقايالوثنية العربية لوطوزن : - Reste Arabis

chen Heidentums . والأساطير العربية قبل

يا عَزَّ كُفْرَانِكَ لَا سُبْحَانَكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ^(١)

ويشير القرآن الكريم إلى بعض آلهتهم ورموزها من أصنامهم وأوثانهم ، فيقول جل وعز: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) ويقول سبحانه وتعالى : (وَلَا تَدْرِيْنَ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا). وكانت عبادة اللات أو الشمس شائعة بين العرب الجنوبيين وفي الحجاز ، وكان معبدها في الطائف ، ويقال إنه كان صخرة مربعة بيضاء بَسَتْ عليه ثقيف بيتاً وكانت قریش وجميع العرب يعظمونه^(٢) ، ويتردد في أسمائهم وهب اللات وعبد شمس ، وعبد العزى ومثلها مثل اللات في تعظيم قریش والعرب لها وتقديسها . وكانت مناة صخرة منصوبة على ساحل البحر بين المدينة ومكة ، وربما كان في اسمها ما يدل على أنها ترمز إلى إله الموت ، فهي إلهة القضاء والقدر ، وكانت معظمة عند هُذَيْل وخُزَاعَة والعرب جميعاً وخاصة الأوس والخزرج إذ « كانوا يحججون إلى مكة ، ويقفون مع الناس المواقع كلها ، ولا يخلقون رءوسهم ، فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رءوسهم عندها ، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك »^(٣) . وودّ كما قدمنا من الآلهة الجنوبية ، وهو يؤلف مع اللات والعزى ثلاث الأب والأم والابن ، وكان صنمه بدومة الجندل ، وظل منصوباً هناك إلى أن جاء الله بالإسلام^(٤) . وكان سُوَاع صنم هذيل وكنانة ، وهو حجر كانوا يعبدونه هم وعشائر كثيرة من مضر^(٥) ، وربما كان في اسمه ما يدل على أنه إله الشر والهلاك ، ويغوث وهو صنم مذحج وعشائر من مراد وهوازن^(٦) . وكان يعوق صنم هَمْدَان ونُحُولَان وما والاهما من القبائل^(٧) . وفي اسمه واسم يغوث ما يشير إلى أرواح حافظة ، فعنى يغوث يعين ، ومعنى يعوق يحفظ

(٥) الأصنام ص ٥٧ وجميع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ٣٦٤/١٠ ومادة رهاط ، حيث أقاموه ، في معجم ما استعجم للبكري ومعجم البلدان لياقوت .

(٦) الأصنام ص ١٠ ، ٥٧ والمخبر ص ٣١٧ والطبرسي ٣٦٤/١٠ ومعجم البلدان في يغوث .

(٧) الأصنام ص ١٠ ، ٥٧ والطبرسي ٣٦٤/١٠ ويعوق في معجم البلدان .

(١) الأصنام لابن الكلبي ص ١٧ وما بعدها ومادة العزى في معجم البلدان .

(٢) الأصنام ص ١٦ والمخبر لابن حبيب ص ٣١٥ ومعجم البلدان في اللات .

(٣) الأصنام ص ١٤ وأخبار مكة للأزرق (طبعة المطبعة المأجدية) ٧٣/١ ومعجم البلدان في مناة والمخبر ص ٣١٦ .

(٤) الأصنام ص ٥٥ وما بعدها والمخبر ص ٣١٦ ومعجم البلدان في «ود» .

ويمنع . وكان نسر معبود حمير^(١) ، وانتشرت عبادته في الشمال ، ويشير اسمه في وضوح إلى الطائر المعروف باسمه ، وفي الطبرسي : « كان ودّ على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر من الطير »^(٢) .

وراء هذه الأصنام التي ذكرها القرآن الكريم أصنام كثيرة كانت تتعبد لها قريش والقبائل العربية في الجاهلية ، ويقال إنه كان في الكعبة عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة ثلاثمائة وستون صنماً^(٣) ، وكان أعظمها عند القرشيين هُبَـل : « وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، وجعلتها له قريش من ذهب : وكان في جوف الكعبة قدامه سبعة قِـداح ، مكتوب في أحدها : « صريح » والآخر : « مُلصَق » . فإذا شكّوا في مولود أهدوا إليه هدية ، ثم ضربوا بالقِداح (السهام) فإن خرج (صريح) ألحقوه بأبيه ، وإن خرج (ملصق) دفعوه . وقدحٌ على الميت ، وقدح على الزواج .. وإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو عملاً أتوه فاستقسموا بالقِداح عنده ، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه .. وعنده ضُرب عبد المطلب بالقِداح على ابنه عبد الله^(٤) . وباسمه كان ينادى أبو سفيان في معركة أحد ويصبح : اعلُ هبل .

ومن أصنام قريش المشهورة إساف ونائلة ، ويقال إنهما كانا شخصين أتيّا أعمالاً سيئة فُسخا حجّرين ، وعبدهما الناس ، وكان أحدهما ملاصقاً للكعبة ، وثانيهما في موضع زمزم ، ويقال إن إسافاً كان بإزاء الحجر الأسود وكانت نائلة بإزاء الركن اليماني^(٥) . ومن أصنامهم مناف وبه سمي عبد مناف .

ومن الأصنام المشهورة رضا وتيسم وشمس لقيم وذوالخلصة وهو صنم خشب وبجيلة وأزد السراة ، ويقال إنه كان مروة بيضاء منقوشة عليها كهنة التاج ، وكان موضعه بتبالة وله بيت يحجون إليه^(٦) . وذو الشرى وكان له معبد ضخم في

(١) الأصنام ص ٥٧ والطبرسي ٣٦٤/١٠ (٤) الأصنام ص ٢٨ والطبرسي ٣٦٤/١٠

ومادة نسر في معجم البلدان واللسان وتاج العروس . (٥) الأصنام ص ٢٩ والحجر ص ٣١٨

(٢) الطبرسي ٣٦٤/١٠ والطبرسي ٣٦٤/١٠

(٣) انظر الجزء الثاني من ابن الأثير في (٦) الأصنام ٣٤ ، ٤٧ والأزرق ٢٥٦/١

والحجر ص ٣١٧ وذكر فتح مكة .

سلع (بطرا) ^(١) ويظهر أن عبادته قديمة ، وهو يقابل الإله ديونيسيوس عند اليونان إله الخصب والخمر .

وكانوا يتخذون عند هياكل هذه الأصنام والأوثان أنصاباً من حجارة يصبون عليها دماء الذبائح التي يتقربون بها إلى آلهتهم ، وكانوا يقدسون هذه الأنصاب ويعلمونها مقراً لبعض الأرواح . وفي القرآن الكريم : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) . والأزلام هي القداح كما مر بنا .

وفرق بين الصنم واللوثن ، فالصنم يكون غالباً تمثالا ، أما اللوثن فيكون غالباً حجراً ، وقد يسمى الصنم باللوثن ، يقول ابن الكلبي : « واستهترت العرب في عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتاً ومنهم من اتخذ صنماً ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسنت ثم طاف به كطوافه بالبيت .. فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها ، فاتخذته ربياً وجعل ثلاثة أثنافٍ لشدِّه ، وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك . وكانوا ينحرون ويدبحون عند كلها ويتقربون إليها » ^(٢) .

وهذه البيوت التي اتخذوها لأصنامهم كان منها كعبات كبيرة يحجون إليها ككعبة ذي الحليفة وهي الكعبة الحجازية وكعبة الطائف وهي بيت صنمهم اللات ، وأشهر كعباتهم كعبة مكة حارسه الوثنية في الجاهلية ، وهي التي وصلتنا عنها تفاصيل كثيرة توضح ما كانوا يتخذون في حجِّهم إليها من شعائر . وكانوا يطوفون بها أسبوعاً ويسعون بين الصفا والمروة ، ويُظَنُّ أنه كان على كل منهما صنم ، ويقال إنه كان على الصفا إساف وعلى المروة نائلة . وكانوا يقفون بعرفة ويفيضون منها إلى المزدلفة ثم منى . وكانت إفاضتهم في عرفة عند غروب الشمس ، أما في المزدلفة فعند شروقها ، وكان يتولَّى الإجازة في الأولى بعض التيمييين . وفي الكعبة الحجر الأسود وكانوا يتبركون به ويتمسحون بأركان الكعبة جميعها . ويقال إن طوافهم بأصنامهم كان سبعة أشواط وكانوا يختلفون في طوافهم ، فمنهم من يطوف عريانياً وهم الحلة ^(٣) ، ومنهم من يطوف في ثيابه وهم الخمس ^(٤) من قریش

(١) الأصنام ص ٣٧ وتاج العروس

(٣) الخبر ص ١٨٠ وما بعدها .

(٤) الخبر ص ١٧٩ والأزرق ١١٤/١ .

(٢) الأصنام ص ٣٣ .

والسان في مادة الشرى .

وكنانة وخزاعة، ويصور لنا الأزرق طواف العريان بقوله : « يبدأ بإساف فيستلمه (يعتقه) ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه ، فإذا ختم طوافه سبعاً استلم الركن (حيث الحجر أو الحطيم) ثم استلم نائلة ، فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس فيأخذها ، فيلبسها، ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عرياناً^(١) . وقد أبطل الإسلام العري في الطواف ، كما أبطل كثيراً من تقاليد الخمس^(٢) . وكان من تقاليدهم رمي الجمرات في منى وتقديم العتائر أو الضحايا وذبحها عند الأصاب وكذلك تقديم الهدايا من الزروع والغلات ، وفي القرآن الكريم : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) . وتدل الآية الكريمة على أنهم كانوا يجعلون لله نصيباً ، ثم يعودون فيجعلونه لأهلهم الصغرى أو لأصنامهم . وذكر القرآن الكريم البهيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وأولاها الناقة أو الشاة يحرمون لبنها والانتفاع بها ، والثانية مايسيب (يترك) نذراً للآلهة فلا يمنع من ماء ولا كلاً ، والثالثة ناقة أو شاة تحمل سبعة أبطن ، فإذا كان السابع ذكراً ذُبِح وأكل منه الرجال والنساء ، وإن كان أنثى استحويه ، وإن ولدت توأمًا : ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها وحرّموا ذبحه على أنفسهم . أما الحام فالبعير ينتج عشرة أبطن من ضلّبه ، ويقولون : قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

ويظهر أنه كانت عندهم طقوس كثيرة في تذودهم وقرابينهم ، وقد هدمها الإسلام هدمًا ، وأيضاً كانت هناك شعائر وطقوس كثيرة في الحج نفسه لعل أهمها التلبية ، يقول ابن حبيب : « وكانوا يلبّون إلا أن بعضهم كان يشرك في تليّبه ، وكان نسك قريش لإساف ، تقول : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك . وكان لكل قبيلة بعد تلبية ، فكانت تلبية من نسك للعزى : لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ما أحسنًا إليك . وكانت تلبية من نسك لللات : لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، كفى بيتنا بنية ، ليس بمهجور ولا يلية ، لكنه من تربة زكية ، أربابه من صالحى البرية . . . وكانت تلبية من نسك لود :

ليك اللهم ليك ، ليك معذرة إليك . وكانت تلبية من نسك لدى الخلصة :
ليك اللهم ليك ، ليك بما هو أحب إليك . . . (١) .

وجعلوا للحج أربعة أشهر معلومات ، سموها الأشهر الحرم ، وهي رجب
وذو القعدة وذو الحجة والحرم ، وكان الحج إلى مكة في ثالثها ، وفي اسمه ما يدل
على أن الحج المعظم للكعبة القرشية كان فيه . وكانت هذه الأشهر حراماً عندهم
فلا يستباح دم ، ولا تنشب حروب ، إلا ما كان من حرب الفجار ، وعدت
انها كأعظيماً لحرمات البيت . وكأنما كانت هذه الأشهر هدنة لهم ، ومعيناً لبعدها
عن الأماكن المقدسة في الوصول إليها دون أن تُمسّ نذورهم . وكانوا فيها يتجرون
ويمiron ويقيمون أسواقهم كسوق عكاظ .

وكانت هناك جماعات تقوم على سِدانة بيوتهم المقدسة ، ويسمونها الحجابة ،
وكانت في مكة لبني عبد الدار ، ويجانب هؤلاء السدنة كهان كانوا يدعون معرفة
الغيب وأنه سُخر لهم طائف من الجن يسرق لهم السمع فيعرفون ما كُتب للناس في
ألواح الغد . ومن عرف بذلك سَطِيع الذنبي وشيق بن مصعب الأتماري وعوف بن
ربيعة الأسدي وسلمة الخزاعي وسواد بن قارب الدوسي وعزّي سلمة (٢) . ونجد
يجانب الكهنة كاهنات مثل الشعناء والكاهنة السعدية والزرقاء بنت زهير وكاهنة
ذى الخلصة (٣) . وفي أخبار الإسلام الأولى ما يدل على أنه كان يلحق ببيوت
الأصنام بغايا ، وكانوا سبباً في ثورة بحضرموت قضى عليها أمية بن أبي المهاجر
لعهد أبي بكر الصديق (٤) .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أنهم كانوا يؤمنون إيماناً واسعاً بالأرواح
وأنها تحل في كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة ، وكان منها أرواح خيرة ،
هي الملائكة وأرواح شريرة هي الشياطين . وفي القرآن الكريم : (وجعلوا الملائكة
الذين هم عباد الرحمن إناثاً شهدوا خلقهم سكتكبت شهادتهم ويسألون) . فكانوا

بولاق) ٥/١ .

(١) الخبر ص ٣١١ .

(٢) انظر مجمع الأمثال للبيداني ٩١/١ ،

(٢) السيرة النبوية (طبع الحلبي) ١٥/١

٢٢٣/١ ، ٥٤/٢ .

والكامل لابن الأثير (طبع ليدن) ٣٠١/١

(٤) الخبر ص ١٨٤ .

وأغاني (طبعة دار الكتب) ٨٤/٩ وطبعة

السامى ٧٠/١٥ والسيرة الحلبية (طبع

يَزْعُمُونَ أَنَّهُ بَنَاتُ اللَّهِ ، وكانوا يعبدونها — كأصنامهم — من شفعايم عند الله وشركائه ، وحكى القرآن اعتقادهم في ذلك إذ يقول جلَّ وعز : (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) . وفي القرآن سورة للجن وكانوا يخافونها ويتعبدونها ويعملون بينها وبين الله نسباً ، يقول جلَّ وعز : (وجعوا لله شركاء الجن ، وخلقهم ، وخلقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون) . وفي أساطيرهم أو قل في معتقاداتهم أن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب فتهلك . يقول الجاحظ : وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب إما لكدر الماء أو لقلة العطش ضربوا الثور ليقتم الماء ، لأن البقر تتبعه^(١) ، فكانوا إذا امتنعت ظنوا ذلك من عمل الجن وإيحاءهم . ولهم فيها كثير من الأساطير ، عرض لها الجاحظ في الجزء السادس من حيوانه ، فتحدث عن مواطنها في رأيهم وأنها تركب النعام والظباء والحشرات وأنها تتصور في صور كثيرة ، وتتوالد مع الناس ، وقد تسويهم وتقتلهم أو تخبلهم ، ويسمَّع ليلاً عزيفهم وهتافهم . ومنهم من يألف الكهان ويخدمهم وهو الرقي ، ومنهم من صورته على نصف صورة الإنسان ويسمى شيفاً ، ولكل شاعر شيطانه الذي ينفث فيه الشعر . ومنهم السعلاة ، والغول وهي من سباعهم ، ويزعم تأبط شراً في شعر يضاف إليه أنه لقيها في ليلة مظلمة وهو يسعى في فلاة ، فنازلها وما زال بها حتى قتلها وهو لا يعرفها ، يقول^(٢) — إن صح أنه قائله — :

فلم أنفك متكثراً عليها لأنظر مصبها ماذا أتاني
إذا عينان في رأس قبيح كرأس الهر مشقوق اللسان
وساقاً مخدج وشواة كلب وثوب من عباء أو شنان^(٣)

وهؤلاء الوثنيون كانوا ينكرون الرسل وأن هناك إلهاً واحداً قال جلَّ وعز : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملائة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن

(١) انظر الحيوان ١٨/١ وما بعدها . (٢) مخدج : ناقص الخلق ، الشواة :

الأطراف ، الشنان : جلد القرية البالي .

(٢) الأغاني (سامي) ٢١٢/١٨ .

هذا الشيء يُراد، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق) . وكانوا لا يؤمنون
ببعث ولا نشور يقول جل ذكره : (وقالوا إن هـى إلا حياتنا الدنيا وما نحن
بمبعوثين) وقال : (وقالوا ما هـى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر
وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) وقال : (وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال
من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) .
ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلى حتى نجد استعداداً لفكرة الإله الواحد،
وخاصة عند طائفة كانت تدعى باسم الحنفاء ، وكانت تشك في
الدين الوثنى القائم وتلتمس ديناً جديداً يهديها في الحياة . يقول ابن إسحق :
« اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه ويتشعرون
له ويعكفون عنده ويدبرون (يطوفون) به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة
يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكنم
بعضكم على بعض قالوا أجل ، وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وعبيد الله
ابن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل . . . فقال
بعضهم لبعض : تعلمون والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ،
ما حجر تطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً ،
فإنكم والله ما أنتم على شىء . ففترقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ،
فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية . . . وأما عبيد الله بن جحش فأقام على
ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم . . . وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر
ملك الروم فتنصر . . . وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية
ولا نصرانية وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والميثة والدم والذبائح التى تذبح على
الأوثان . . وقال أعبد رب إبراهيم » ^(١) ومعروف أنه أسلم وكان من الصحابة الأولين
المقدمين .

وأكبر الظن أن كلمة حنيف معناها المائل عن دين آبائه كما يدل على ذلك
اشتقاقها ، ولم يكن هؤلاء الحنفاء في مكة وحدها ، فقد كانوا منتشرين في القبائل ،
إذ تعد كتب الأدب والتاريخ منهم قس بن ساعدة الإيادى وأبا ذر الغفارى وصيرمة

ابن أبي أنس أحد بني النجار في المدينة وعامر بن الظرب العدواني وخالد بن سنان العبسي وأمية بن أبي الصلت الثقي وعمر بن جندب الجهتي . ويمكن أن ندخل فيهم كثيرين ممن حرموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام^(١) مثل عبد المطلب بن هاشم وقيس بن عاصم التميمي وحنظلة الراهب ابن أبي عامر غسيل الملائكة . ولا نرتاب في أن صنيع هؤلاء إنما كان شكاً في حياتهم الدينية ، وكل ذلك يؤكد أن الوثنية الجاهلية كانت على وشك الانحلال ، فما انبلجت أضواء الإسلام ، حتى اعتنقه العرب ودخلوا فيه أفواجا .

٥

اليهودية والنصرانية

لا نصل إلى العصر الجاهلي حتى نجد اليهود منتشرين في اليمن والحجاز^(٢) ، والمظنون أنهم هاجروا من موطنهم الأصلي في فلسطين إلى الجزيرة على أثر اصطدامهم بالقيصر طيطوس (Titus) وهدمه للهيكل سنة ٧٠ للميلاد ، وكذلك اصطدام القيصر هديران بهم سنة ١٣٢ في هذه الأثناء فر كثير منهم إلى الحجاز ، وسقط غير قليل منهم إلى اليمن . وقد تكون هجراتهم أقدم من ذلك ، ولكن ليس بين أيدينا نصوص وثيقة ، نعرف منها بالضبط مراحل وفودهم على الجزيرة سواء في الحجاز أو اليمن ، وحتى هجراتهم في أيام طيطوس وهديران غير واضحة تماما .

وقد استطاع يهود اليمن في أوائل العصر الجاهلي أو بعبارة أخرى في أوائل القرن السادس الميلادي أن يؤثروا في ملك من ملوك التبابعة هو ذو نواس ، وأن يدخلوه في دينهم ، وقد دفعوه دفعاً إلى التنكيل بنصارى نجران وتحريقهم ، وفي ذلك نزلت الآيات الكريمة : (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) .

السادس وكذلك كتاب مرجليوث :

The Relation between Arabs and

Israelites Prior to the Rise of Islam.

(١) المعبر ص ٢٣٧ .

(٢) راجع في اليهودية بجزيرة العرب كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي الجزء

وربما كان السبب الحقيقي في استجابته لليهود أنه كان يخشى من تغلغل النصرانية في بلاده وأن يفتح ذلك الأبواب لنصارى الحبشة ، فيستولوا عليها بدون مقاومة . على أن الأحباش سرعان ما انتقموا لإخوانهم ، فأزالوا دولة ذى نواس سنة ٥٢٥ وظلوا نحو خمسين عاماً ، حتى أجلاهم عنها أهلها بمساعدة الفرس .

ويظهر أن هذه الفترة التي قضوها الأحباش النصارى هناك كانت سبباً في تفرق اليهود وخروج كثيرين منهم من اليمن وتشتتهم في البلاد . ولكن ظلت بقايا هناك ، دخل كثيرون منها في الإسلام من مثل كعب الأحبار ووهب ابن منبه ، ولهما في الإسرائيليات التي شاعت بين المسلمين ومؤرخيهم أثر كبير .

وأهم من يهود اليمن يهود الحجاز ، وكانوا قبائل وجماعات كثيرة انتشرت في واحات الحجاز : يثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء ، وكان في يثرب منهم عشائر كثيرة أهمها بنو النضير وبنو قريظة وبنو قيسنق وبنو بهل ، وقد نزل بينهم الأوس والخزرج كما قدمنا ، وفرضت القبيلتان عليهم سيادتهما . وكانوا يشتغلون بالزراعة والصياغة والحداذة وصناعة الأسلحة ونسج الأقمشة ، وكانوا يعمدون عمداً إلى الإيقاع بين القبيلتين العربيتين ، فاشتبكنا في حروب دامية ، حتى جمعتهما الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأصبح أفرادها بنعمة الله إخواناً متحابين . وناهض اليهود الرسول ، فكانوا يثيرون معه مناقشات ومجادلات صورها القرآن الكريم ، وذهبوا يحاولون الرقعة بين المسلمين ، ويؤيدون عليهم قريشاً وغير قريش ، مما اضطر الرسول عليه السلام إلى إجلائهم عن المدينة . وفي السيرة النبوية لابن هشام وطبقات ابن سعد ما يدل على أنهم كانوا يتدارسون دينهم في دار ندوة لهم تسمى المدارس وأنهم كانوا يقرأون التوراة والمشتنة والزبور (مزامير داود) بلغتهم القديمة العبرية ، ولكنهم اتخذوا العربية لغتهم اليومية ، ونظم فيها بعضهم شعراً عربياً .

وعلى نحو ما تعرب يهود يثرب تعرب يهود خيبر ووادي القرى وفدك وتيما ، واشتهر بينهم غير شاعر كالمسؤول بن عادياء ، وقد قاوموا الإسلام وأظهروا له العداوة والبغضاء ، فحاربهم الرسول ، وانتصر عليهم ، ولم يلبث عمر أن أمر بإجلاء كل من ليس له عهد منهم ، فخرج جمهورهم من الجزيرة ، ولم يبق منهم إلا نفر قليل . وليس بين أيدينا ما يدل على دلالة على أنهم خلفوا آثاراً واضحة في الجاهليين ،

فقد ظل العرب الشماليون بعيدين عنهم وعن دينهم ، لا يتأثرون به في قليل ولا كثير ، وإن حاول بعض المستشرقين لإثبات هذا التأثير ^(١) .

وقد انتشرت النصرانية في اليمن وشمال الجزيرة الغربي والشرقي ^(٢) ، ويُظنُّ أن انتشارها في اليمن بدأ منذ القرن الرابع الميلادي ، وكان من أهم الأسباب في انتشارها هناك بعثات دينية كان يشجعها القياصرة ، ولعلمهم أرادوا بذلك النفوذ إلى فرض سلطانهم على البلاد وتحول كنوز قوافلها إليهم . ولا فصل إلى العصر الجاهلي حتى نرى النصرانية منتشرة في نجران وغيرها ويظهر أن نجران كانت أهم مواطنها ، وقد نكسهم ذو نواس نكبته المشهورة التي أشرنا إليها فيما أسلفنا ، ودخل الأحباش بقيادة أبرهة ، فدعمت النصرانية واعتنقها كثيرون ، وبُنيت لها كنائس في غير مدينة . ومن أشهر كنائسها كنيسة نجران ، وفي السيرة النبوية أن وفدًا منها قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم وكان فيه العاقب والسيد ، وهما الرئيسان السياسيان كما كان فيه أسقفهم وحبرهم أبو حازمة بن علقمة ، وكان « قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه بدينهم ، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس » ^(٣) . ويقال إن أبرهة أنشأ كنائس كثيرة في مدن اليمن ، واهتم بزينة وزخرفتها ، أشهرها القليس في صنعاء ، وهي تعريب لكلمة Ecclisia اليونانية بمعنى الكنيسة ، ويقال إنه « نقشها بالذهب والفضة والفسيفساء وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر . . وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام المنحزَع والحجارة المنقوشة بالذهب . . ونصب فيها صليبانًا من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنوس » ^(٤) . ويظهر أنه استعان في بنائها بأنقاض من قصور ملوكهم السابقين ومعابدهم القديمة ، وقد حولها المسلمون إلى مسجد لا يزال قائمًا إلى اليوم .

وكانت النصرانية منتشرة بين عرب الشام من الغساسنة وغيرهم مثل عاملة وجندام وكلب وقضاة ، وكانوا على مذهب اليعاقبة أو المنوفستيين ، وهم القائلون بأن

(١) انظر جواد عل ٩١/٦ وما بعدها
وكذلك ص ١٧٧ وما بعدها .

(٢) انظر في النصرانية بجزيرة العرب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد عل ، الجزء السادس ، وتفسير الطبري ١٩٣/٣٠ .

والنصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية للويس شيخو .

للمسيح طبيعة واحدة وأقنوماً واحداً . ولذلك يسمون أصحاب الطبيعة الواحدة ،
وصاحب هذا المذهب هو يعقوب البرادعي المولود حوالي سنة ٥٠٠ للميلاد ، وقد
دخل في مذهبه — كما قد منا — الغساسنة ومنّ والاهم من عرب الشام .

ونفذت النصرانية إلى عرب العراق أيضاً إلى تغلب وإباد وبكر ، وتغلغت
في الحيرة على الرغم من ملوكها الوثنيين فكان يعتنقها بها العباديون ، وأغلب الظن
أنهم سموا بذلك تمييزاً لهم من جيرانهم الوثنيين ، فهم عباد الله . ولم يكونوا يعاقبة
كعرب الشام ، وإنما كانوا غالباً نساطرة نسبة إلى نسطوريوس (Nestorius)
المتوفى سنة ٤٥٠ للميلاد وكان يرى أن للمسيح طبيعتين أو أقنومين : أقنوم الناسوت
وأقنوم اللاهوت . وقد تأخرت الهيئة الحاكمة من آل المنذر في التنصر ، ويقال إن هنذا
أم عمرو بن المنذر ابنت ديراً هناك ويقال بل بنسبته هنذا بنت المنذر ، وقد دخل
أخوها النعمان في النصرانية ، وهو آخر المناذرة .

وكان الرقيق الحبشي الذي تزخر به مكة نصرانياً ، ويظن أنه كان بها جالية
من الروم النصارى^(١) ، ويقال إنه كان بها عبدان نصرانيان أصلهما من عين
التمر^(٢) وإنه كان بها جوار روميّات^(٣) ، ويقال إن شماساً زار مكة في الجاهلية^(٤) ،
وكان يعيش في مَرَّ الظهران راهب مسيحي^(٥) . ويزعم اليعقوبي أن قوماً تنصروا
من قريش قبيل الإسلام منهم ورقة بن نوفل وعتبة بن أبي لبّ وعثمان بن الحويرث
الأسدي^(٦) . والمظنون أنه كان في المدينة بعض النصارى ، وإليهم يشير حسان
في رثائه للرسول صلوات الله عليه — إن صح أنه له — إذ يقول^(٧) :

فرحت نصارى يشرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد

وكانت النصرانية منتشرة في طيء ودومة الجندل . وهي على هذا النحو كانت
تختلف عن اليهودية التي لم تذع في القبائل . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور
من تنصروا من العرب قبل الإسلام ، ونظن أنهم قاموا بتعاليم النصرانية قياماً دقيقاً ،

(٤) ابن هشام ١/٣٤٩ وأسد الغابة ٣/٣٧٥

(٥) السيرة الحلبية ١/٧٥ .

(٦) تاريخ اليعقوبي ١/٢٩٨ .

(٧) ديوان حسان (طبعة هرشفلد)

ص ٥٩ .

(١) O'Leary, Arabia Before Muhammad

p. 184.

(٢) أسباب النزول للواحدى ص ٢١٢ .

(٣) أسد الغابة ١/٣٨٧ ، ٤٤ / ٢٣٢ ،

١٩٤/٥ ، ٤٦٢ .

فقد عرفوا الكنائس والبيع والرهبان والأساقفة والصوامع ، ولكنهم ظلوا لا يتعمقون في هذا الدين الجديد ، وظلوا يخالطونه بغير قليل من وثنيهم ، وربما كان مما يوضح ذلك خير توضيح قول عدى بن زيد العبادي^(١) :

سعى الأعداء لا يألون شراً على رب مكة والصليب

فهو يجمع في قسمه بين رب مكة الوثنية ورب الصليب ، وكذلك كان أكثر العرب من النصارى ، فهم مسيحيون وثنيون في الوقت نفسه . ومن يقرأ شعره لا يجد فيه فكرة التثليث المعروفة في النصرانية .

والحق أن نصارى العرب في الجاهلية إنما عرفوا ظاهراً من دينهم ، وقلما عرفوا حدوده ، وقد سقطت إلى أشعارهم وأشعار الوثنيين أنفسهم كلمات ومصطلحات كثيرة منه ومن شخوصه وطقوسه ، فنذا امرئ القيس وقوله^(٢) :

يضيئ سناه أو مصابيح راهب أهان السليط في الذبال المفتل

والشعراء يرددون ذكر الرهبان ومحارب كنائسهم ، يقول الأعشى^(٣) :

كدمية صور محرابها بمذهب ذي مرمر مائر

وطالما تحدثوا عن نواقيسهم وقرعها في أواخر الليل ، يقول المرقش الأكبر في بعض شعره^(٤) :

وتسمع تزقاة من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقيس^(٥)

وعرض النابغة الذبياني في مديحه للغساسنة لتدينهم ، ولبعض أعيادهم كعيد الشعانين ويسميه السباب إذ يقول فيهم^(٦) :

رقاق النعال طيب حُجَزَاتُهُمْ يحيون بالريحان يوم السباب

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١١/٢ .

(٢) ديوان امرئ القيس (طبعة دار

المعارف) ص ٢٤ . و السليط : الزيت .

(٣) الديوان (طبعة جابر) القصيدة رقم ١٨ .

(٤) المفضليات (طبعة دار المعارف)

ص ٢٢٥ .

(٥) التزقاء : الصياح . والهدو : أوائل الليل .

(٦) مختار الشعر الجاهل للسقا ص ١٦٢ .

وذكر أوس بن حجر عيد الفصح الذى كانوا يحتفلون به فيوقدون المشاعل ويضيئون الكنائس بالقناديل والمصابيح ، يقول^(١) :

عليه كمصباح العزيز يَشْبُهُ لِفِصْحٍ ويحشوه الذبَالُ المَفْتَلُ

وجرى على لسانهم كثير من أسماء الأنبياء ، من مثل داود ، وكان يشهر عندهم بنسجه للدروع المتينة القوية ، ومن ثمَّ يقول سلامة بن جندل في وصف بعض الدروع^(٢) :

مُدَاخَلَةٌ من نسج داود شَكَّهَا كَحَبِّ الْجَنَّا من أْبْلُمٍ مَفْلُقٍ^(٣)

وقد يتحدثون عن ملكه في صدر حديثهم عن الملوك البائدين وكيف يعتدى الدهر على الناس فلا يبقى ولا يذر.

ويكثر في شعر الأعشى وأمية بن أبى الصلت وعدى بن زيد القصصُ عن الأنبياء وسيروهم قصصاً نظن ظناً أنه موضوع . وهو إن قُبِلَ من عدى النصراني فإنه لا يقبل من الأعشى ، وكان وثنيا . وتبدو في شعر بعض الشعراء نزعة إلى التفكير في الحياة والموت على نحو ما أسلفنا في غير هذا الموضع ، كما يبدو في شعر نقر منهم إيمان بالله ، كقول عبيد بن الأبرص في معلقته — إن صح أنه له — :

من يسأل الناس يَحْرِمُوهُ وسائلُ الله لا يَخِيبُ

ويزعم بعض المستشرقين أن الرواة الإسلاميين هم الذين وضعوا لفظة الجلالة في شعر الجاهليين بدلا من كلمة اللات التي تتفق معها في الوزن^(٤) . وفي معلقة زهير :

فلا تَكْتُمَنَّ الله ١٠ في نفوسكم ليخفى ومهما يُكْتَمَ الله يعلم
يوخّر فيوضع في كتاب فيُدْخَرُ ليوم الحساب أو يعجل فيُنْقَمَ

(٣) مداخلة: بحكمة النسيج ، شكها : أحكمها ،

الأيلم : بقلة لها قرون بها حب يابس .

(٤) جواد على ٣٠٥/٦ .

(١) ديوان أوس ص ٨٤ .

(٢) الأصميات (طبعة دار المعارف)

ص ١٥٠ .

فالله يعلم خائنة الصدور وما تخفى ، ويعاقب كل إنسان على ما قدمت يده
عاجلاً أو آجلاً في يوم الحساب ، وإذا صح البيتان لزهير كان ذلك دليلاً على أنه
من تحننوا قبل الإسلام .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أن وجود النصرانية في الجزيرة قد أثر في
الشعر آثاراً مختلفة لا في شعرائها الخاصين بل أيضاً في بعض الشعراء الوثنيين ، وكان
من آثار ذلك ظهور جماعات المتحننين ، وتسرب فكرة البعث والحساب إلى
نفر من الجاهليين .

الفصل الرابع اللغة العربية

١

عناصر سامية مغرقة في القدم^(١)

أشرنا في غير هذا الموضع إلى أن اللغات السامية تتشابه في كثير من الكلمات والضمائر والأعداد تشابهاً يثبت القرابة بينها ، وهو تشابه يفيدنا في معرفة نمو كل لغة من هذه اللغات وتطورها على مر التاريخ حتى تشكلت في صورتها الأخيرة . وقد أبلى علماء الساميات بلاء مشكوراً في الدراسة المقارنة لهذه اللغات من حيث الصيغ والألفاظ والتصريف والإعراب والأصوات ، وهي دراسة تفيدنا فائدة جلّلى في التأريخ لكثير من الظواهر اللغوية ومعرفة قديمها من حديثها . فإن لاحظنا تشابهاً بين لغتين من هذه اللغات في ظاهرة بعينها ورجعنا إلى اللغات الأخرى ووجدنا نفس التشابه كان معنى ذلك أن الظاهرة قديمة وأنها ترتقى إلى العصر الذى كانت هذه اللغات متحدة فيه . وقد يقع التشابه في الظاهرة في لغتين غير متجاورتين ، فإما أن يرجع إلى أصل قديم ، وإما أن يكون ثمرة تطور تاريخي في كل منهما أدّى إلى نفس النتيجة ، أما إذا كانتا متجاورتين كالعربية والآرامية فإما أن تكون الظاهرة قديمة ترجع إلى أزمان اتحادهما ، وإما أن تكون إحداهما تأثرت الأخرى . ولعل في هذا ما يدل على أن أسلافنا توسعوا أكثر مما ينبغي حين درسوا الدخيل في عربيتنا ، فوقفوا عند ألفاظ كثيرة وقالوا إنها سريانية آرامية ، غير ملتفتين إلى أن طائفة من هذه الألفاظ ترجع إلى الأصل السامي القديم ، فلا يقال إن العرب أخذوها من السريان ولا إن السريان أخذوها من العرب ، بل يقال إنها من الكلمات السامية

الإسلام لحواد على ومحاضرات خليل يحيى زامى
بكلية الآداب في جامعة القاهرة .

(١) راجع في هذه العناصر كتاب « التطور
النحوي للغة العربية » لبرجستراسر (طبع القاهرة
١٩٢٩) والمجلد السابع من تاريخ العرب قبل

القديمة التي تداولها الساميون في زمان اتحادهم قبل تفرق لهجاتهم وتطورها إلى لغات مستقلة لها مشخصاتها وسماتها الصرفية وغير الصرفية .

ونضرب مثالا آخر أثار ضجة واسعة بين المستشرقين ، وهو ما زعمه فولرز من أن القرآن الكريم كان في بادئ الأمر غير مُعَرَّب ، إذ كان بلهجة قريش الدارجة ، وهي لهجة - فيما يزعم - كانت غير معربة ، وكانت تختلف عن لهجة الشعر الجاهلي الخاضعة لقواعد النحو والعربية ، ومضى يقول إن النحاة المتأخرين هم الذين صاغوه في لغة البدو المعربة . وقد رفض كثير من المستشرقين وعلى رأسهم بوهل ونولدكه وجاير هذا الرأي رفضا باتاً^(١) ، ويقول يوهان فك : « أما أن أقدم أثر من آثار النثر العربي وهو القرآن قد حافظ أيضاً على غاية التصرف الإعرابي فهذا أمر وإن لم يكن من الوضوح والجلاء بدرجة الشعر الذي لا تترك أساليب العروض والقافية مجالاً للشك في إعراب كلماته ، إلا أن مواقع كلام القرآن الاختيارية لا تترك أثراً للشك فيه كذلك ، انظر مثلاً آية ٢٨ من سورة فاطر : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وآية ٣ من سورة التوبة : (أن الله برئ من المشركين ورسوله) وآية ١٢٤ من سورة البقرة : (وإذ ابتلى إبراهيمَ ربه) وآية ٨ من سورة النساء : (وإذا حضر القسمة أولو القربى) فثل مواقع الكلمات في هذه الآيات . . . لا يمكن أن يكون إلا في لغة لا يزال الإعراب فيها حياً صحيحاً . يُضاف إلى ذلك شهادة القرآن نفسه في مثل آية ١٣٠ من سورة النحل : (وهذا لسان عربي مبين) وصریح من هذا أنه لم يقم عند محمد ومعشره فرق هام بين لغة القرآن وبين لغة العرب أى قبائل البدو^(٢) .

وما يشب بطلان رأى فولرز أيضاً أنه لم يُعرَف عن قبيلة عربية من القبائل الشمالية أنها اتخذت لهجة دارجة خالية من قواعد النحو والعربية . وقد نسى أو تناسى أن قراءات القرآن الشريف توقيفية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو أنه قرأه على الصحابة في لهجة غير معربة لقضى على اللهجات المعربة من حوله . وعلى الرغم من وضوح فساد هذا الرأى وبطلانه نجد كاله (Kahle) يحاول أن يدلل

ليوهان فك ص ٣ وما بعدها .

(٢) العربية ليوهان فك ص ٣ .

(١) انظر مادة قرآن في دائرة المعارف

الإسلامية وتاريخ القرآن لتولدكه وكتاب العربية

على صحته ، تارة بما وجدته من نصوص متأخرة تحت على مراعاة الإعراب في ترتيب القرآن ، وتارة بما يزعمه من أن قرآء القرآن الأولين رحلوا لمخالطة عرب البادية ، حتى يفقهوا قواعد شعرهم النحوية والصرفية ويطبّقوها على الذكر الحكيم^(١) ، وهو يستمد في الشطر الثاني لقوله وزعمه من فولرز ، أما الشطر الأول فواضح البطلان ، لأن هذه النصوص إنما تشير إلى مخافة العلماء في عصور اللهجات العامية المولدة من أن يهجم بعض العامة على قراءة القرآن قراءة غير معربة .

وإذا رجعنا إلى تاريخ اللغات السامية وعرضنا هذه المسألة تبين لنا أنها تفقد السند التاريخي ، فإن الإعراب في الفصحى ليس خاصة مستحدثة نشأت بين بعض قبائل العرب وفي بعض لهجاتهم البدوية بعد أن لم تكن موجودة ، وإنما هو خاصة سامية قديمة تشترك فيه مع العربية الأكديّة ، كما تشترك في بعضه الحبشية وغيرها من اللغات السامية . وحدث في سنة ألف وتسعمائة وتسع وعشرين أن اكتشف العلماء في رأس شمرا بالقرب من اللاذقية نقوشاً كثيرة ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد في موضع كان يعرف قديماً باسم أوجريت (Ugarit) وجدوا في حل رموزها ، وسرعان ما وجدوها تقرب من اللغات السامية ومن العربية القديمة ، فسموها باسم موضعها تمييزاً لها ، ولاحظوا أن هذه اللغة الأوجريّة يشيع فيها الإعراب مثل العربية ، وأيضاً فإنهم وجدوا فيها ظواهر المنع من الصرف ، وكان المظنون أنه خاصة عربية .

ومعنى ذلك أنه ثبت بين علماء الساميات أن ظاهرتي الإعراب والمنع من الصرف قديمتان في اللغات السامية وأن العربية احتفظت بهما ، بينما فقدتهما مع الزمن أكثر هذه اللغات ، فهما ليستا من الظواهر المستجدة ، بحيث يمكن أن ينسبا إلى بعض قبائل البدو كما وهم فولرز وكاله ، وإنما هما من الظواهر السامية القديمة ، وليس بين أيدينا نص واحد يشهد بأن قريشاً أو بعض قبائل العرب الشماليين ضعف عندهم الإعراب فأهملوه في لهجتهم الخاصة ، بل كان الإعراب عامّاً بينهم جميعاً في الشرق والغرب ، وفي الحجاز ونجد وغير الحجاز ونجد ، فن الخطأ البين أن يزعم زاعم أن الإعراب كان مهملاً في لغة قريش ، فإن ذلك مجرد حدّس لا قيمة له .

(١) راجع ما ساقه عبد الحليم النجار من تعليقات في كتاب العربية المذكور .

ومن ظواهر العربية التي أكدت اللغة الأوجريّة أنه قديم ظاهرة التعريف بأل ، وهي تقابل حرف الهاء الذي كان يستخدمه العبريون والآراميون في التعريف ، وكان الأولون يلحقونه ببدء الكلمة والأخرون يلحقونه بآخرها . وكان أصحاب النقوش الصفوية من قدماء العرب يجارون العبريين في استخدام هذا الحرف في التعريف ومثلهم التموديون واللحيانيون . واستخدم النبط في نقوشهم أل استخداماً واسعاً ، إذ نراهم يضعونها مع أسماء آلهتهم مثل الله واللات والعزى ، وقد تحذف الألف منها في الكتابة فيكتبون وهب الله وعبد الله هكذا وهب لى وعبد لى بإشباع الكسرة ومدها بحيث تتولد منها الياء ، ويقول اللغويون إن الأزديشبعون حركات الإعراب ومعنى ذلك أن الإشباع قديم في العربية . ويدل حذف الألف في مثل وهب لى أن النبط كانوا يسهلون الهزمة ولا يحققونها على نحو ما أثر عن قريش وأهل الحجاز في عدم تحقيق الهزمة لا في أل وحدها بل في كلمات كثيرة ، فيقولون في أسأل : سأل . وكل ذلك معناه أن أداة التعريف في العربية قديمة وأن تسهيل الهزمة حدث قبل العصر الجاهلي ، إذ كانت تميل إليه بعض القبائل العربية ممن كانوا يسكنون في غربي الجزيرة مثل النبط والحجازيين .

وإذا أخذنا نقارن بين صيغ الفعل في العربية وصيغته في اللغات السامية وجدنا همزة التعدية في صيغة أفعال العربية تشيع في اللغتين الحبشية والسريانية ، بينما تعبر العربية والسبئية وبعض اللهجات الآرامية عنه بالهاء ، فهفعل عندهم تقابل أفعال في العربية ، وكان اللحيانيون والتموديون يستخدمون الصيغتين جميعاً . وفي الوقت نفسه نجد النقوش اليمنية ما عدا السبئية ، ونقصد المعينية والقتبانة والأوسانية والحضرية تعبر عنه بسفعل ، وتعبر عنه الأكديّة بشفعل واحتفظت العربية على نحو ما نعرف بالسين في وزن استفعل ، ومن ثم ذهب ليمان إلى أن أداة التعدية كانت في الأول سيناً ، ثم صارت شيئاً في الأكديّة ، وصارت السين هاء عند بعض الساميين ، ثم صارت الهاء همزة في العربية والسريانية والحبشية^(١) . ولعل من الطريف أن من يرجع إلى العربية يجد فيها بقايا من هذه الصيغ جميعاً كصيغة هراق

الماء بمعنى أراقه . يقول ابن يعيش : « اعلم أنهم قالوا أهرق فن قال هراق فالهاء عنده بدل من همزة أراق على حد هردت أن أفعل في أردت ونظائره »^(١) وكأنه كان بينهم من يجمع في التعدية بين الهمزة والهاء ، ومن يكتفى بإحداهما في مثل هذه الكلمة ، ويظهر أن هذا كان كثيراً إذ ينص ابن يعيش على أن له نظائر متعددة ، فيقولون هراح في أراح وهنار في أنار وهكذا . وفي القاموس المحيط الهذروف كعصفور : السريع ، وهذرف : أسرع . ومعنى ذلك أن بين الأسماء صيغة احتفظت بتلك الهاء لأنها اشتقت من أفعالها ، يقول صاحب القاموس : « الهِجْزَع كدرهم : الجبان لأنه من الجزع » .

أما وزن سفعل الذي استخدمته بعض اللهجات العربية الجنوبية القديمة فالمعينة فإن العربية احتفظت به في صيغة استفعل . وفي المزهر من مزيد الثلاثي هفعل في مثل هلقم إذا أكبر اللقم وسفعل في مثل سنسب بمعنى نبس^(٢) . ويمكن أن يُردَّ إلى هذه الصيغة كثير من الأفعال التي تبتدئ بالسين ، كما يرد إلى صيغة هفعل كثير من الأفعال التي تبتدئ بالهاء ، فهدر مثلاً يمكن أن يكون أصلها در وأضيفت إليها الهاء وخففت الراء ، وسكن أصلها كان من كان التامة ، ثم حذف الألف . وبهذا القياس يمكن أن ننعم النظر في بعض الكلمات المبدوءة بالشين فردها إلى صيغة شفعل الأكدية ، فشسع يمكن أن يكون أصلها شوسع من وسع وشوش من وش وهكذا . وكأن العربية كانت تستخدم في بعض أزمنتها القديمة كل هذه الصيغ ، ثم تطورت بصيغة هفعل إلى أفعل وأثرتها معرضة عن الصيغ الأخرى لأنها أخف في النطق وأيسر .

ومن الظواهر التي تتقارب فيها العربية من أخواتها السامية الضمائر ، إذ نرى مثلاً : أنا تختص بالمتكلم مع زيادة مميزات عديدة أوجنسية في بعض اللغات ، بينما تختص التاء بضمير الرفع المتصل ، وقد تخلفها الكاف كما في الأكدية ، على نحو ما جاء على لسان بعض الرجاز يهجو ابن الزبير^(٣) :

يا بن الزبير طالما عصيكا وطالما عَنَيْتِنسا إليكَا

فقال عصيكا بدلا من عصيت . وكما تتشابه اللغات السامية في الضمائر تتشابه في

(١) شرح المفصل للزحري ٥/١٠

(٢) النوادر في اللغة لأبي زيد (طبعة بيروت)

ص ١٠٥ وأنساب الأشراف للبلاذري ٤٨/١١ .

(٣) المزهر للسيوطي ٤٠/٢ .

أسماء الصلة والإشارة ، ويدل الاسم الموصول « ذو » عند الطائيين على أن الأسماء الموصولة كانت في الأصل أسماء إشارة ، وهو في الحبشية « ذ » وفي السريانية « د » ، و « دى » في النقوش النبطية . وأيضاً فإن هذه اللغات تتشابه في كثير من حروف العطف وحروف الجر وأدوات الاستفهام وفي الميل إلى المخالفة بين الذكر والأنثى رغبة في الازدواج كما يتضح في العدد ومخالفته للمعدود في الجنس وفي تأنيث الفعل مع جمع التكسير المذكور .

وتشارك العربية مع أخواتها السامية في أن الأسماء الثنائية أقدم أسماها ، وفي العربية أمثلة كثيرة منها احتفظت بها ، وقد أخذت — كأخواتها — تشتق منها الثلاثي وغيره أو تولدهما ، ومن أقدم ما اتبعته في ذلك تضعيف الحرف الثاني أو زيادة واو أو ياء في أوله أو زيادة حرف لين في وسطه أو نهايته . وقد تتكرر المادة الثنائية مثل حصحص وصرصر وسلسل . ولعلماء الساميات أبحاث في الكلادات التي تشارك فيها العربية مع غيرها من اللغات السامية والتي يمكن أن تعد من أقدم عناصرها ، وهم يردون بعضها إلى أسماء الإنسان وأحواله مثل ذكر وأنثى وأب وأم وابن وبنت وأخ وبعل وبكر وأمة وضرة ، ومن الأفعال القديمة المتعلقة بهذه الأسماء : ولد وملك . ومن هذه الأسماء المشتركة أسماء الحيوانات مثل نمر وذئب وكلب وخنزير وإبل وثور وحمار ونسِر وعقرب وذباب ومعها فعل نَبَح . ومن أسماء النباتات عنب وثوم وقثاء وكمون وزرع وسنبلة . ومن أعضاء البدن رأس وعين وأذن وأنف وفم ولسان وسن وشعر ويد وظفر وركبة وكتف وذنب وقرن وعظم وكرش وكبد وكلية ونفس ودم ، ومعها تَمَسَّعَ وطعم . وصفات مثل شيب ويمين وموت وقبر . ومن أجزاء العالم سماء وشمس وكوكب وأرض وحقل وماء ومنبع وبئر ، ومما يتبعها ظل ويوم وليلة وبرق وذهب . ثم بعض أسماء البيت وأقسامه وما يتبعه مثل بيت وعمود وعرش وقوس وحظ أصل معناه السهم وحبل وإناء ومما يتبعها من الأفعال رمى . ومن المأكولات والمشروبات قمع ودبس وسكر ويتبعها طحن وطبخ وقلى . وإلى جانب ذلك عدد كبير من الأفعال والأسماء مثل كان ونشأ وعلا وقدم وقرب وبكى وصرخ وأخذ وذكر وسأل وبشر ورحم وبل ونقل وكتب وصغر ورعى وسقى وركب ونظر وفقد وسلم وذبح وبارك ووفر ، ومثل اسم وكل وأسماء العدد إلى العشرة والمائة^(١)

(١) راجع في ذلك كله برجستراسر ص ١٤٠ .

وما بعدها .

وهناك أسماء وأفعال تشترك فيها العربية مع اثنتين أو ثلاث أو أربع من اللغات السامية، والحكم في مثل هذه الكلمات مشكل، فلما أن تكون من الكلمات السامية الأصلية، أو تكون بعض القروع اختصت بها بعد تفرقها، بمعنى أنها نشأت بينها، وتكونت في زمن متأخر. ومن علماء الساميات من يظن أن ما تنفرد به العربية من كلمات لا توجد في أخواتها السامية هو من السامي الأصيل احتفظت به بينما سقط من أخواتها، ويذهب برجشتراسر إلى أن « هذا بعيد عن الاحتمال للغاية ولا يجوز افتراضه إلا على فرض كون اللغة العربية أقرب إلى اللغة السامية الأم من أخواتها . . وهذا من الأوهام التي لا سبب لها، فإن اللغة العربية ترقى رقياً بعيداً بالقياس إلى أخواتها الساميات . . ولا بد من أن نفترض أن اللغة العربية اخترعت ألوفاً من الكلمات الجديدة ولا عجب في ذلك بعد ما شاهدناه مراراً من ميلها إلى التخصص وإلى اختراع العبارات الجديدة المحدودة »^(١) ويضرب مثلاً لذلك : كثرة ما اخترعته في باب الإبل وأوصافها وشيائها وأمراضها وأدوائها من أسماء، ومثل ثان هو ما اخترعته من أدوات النسي، إذ تشترك مع اللغات السامية في أدواته الأساسية « لا » ثم تنفرد بما اشتقته من أدوات كثيرة لا يوجد منها في أخواتها سوى ليس، إذ نجد فيها لم بزيادة الميم وحذف الألف، ولما بزيادة ما على لم، ولن بزيادة النون، وأضاف إلى ذلك أدوات جديدة هي ما وإن وغير، وبذلك عدت وظائف النسي ونوعاً عنها .

ومعنى كل ما قدمنا أن هناك عناصر في العربية ترجع إلى أقدم أزمئتها، وأخرى جديدة، وقد عقد ليتمان مقالين طويلين^(٢) بحث فيهما أسماء الأعلام في اللغات السامية متخذاً منها ما يدل على تاريخها وصيغها وأديانها وعاداتها . ولا حظ أن منها أسماء مركبة وأسماء مفردة وأسماء اسمية وأسماء فعلية وأسماء دينية وأسماء دنيوية وأسماء مكانية وأسماء زمانية وأسماء تخص أمنية أو فرحاً أو صفة أو دعاء وأسماء لرجال مشهورين أو نساء مشهورات، بالإضافة إلى أسماء أجنبية . ومن طريف ما لاحظته أن النبط كانوا يلحقون في كتابتهم ونقوشهم الواو بآخر الأعلام أحياناً، يقول : والواو هذه تشير إلى أن الاسم معرب، وأما الأسماء المبنية فكتبوها بلا واو في آخرها . وأخذ

العرب بعد ذلك هذه الواو من الخط النبطي فالحقوها بعمر و فرقا بينه وبين عمر^(١) وقارنَ مقارنات واسعة بين الأعلام في العربية منذ الجاهلية وبين لهجاتها القديمة من صفوية ونبطية ، وأدلى في هذا الصدد بملاحظات جيدة .

وعلى هذا النحو لا يزال علماء الساميات يقارنون مقارنات طريفة بين العربية الجاهلية وما سبقها من لهجات كتبت في نقوش قديمة ، كما يقارنون بينها وبين العربية الجنوبية اليمنية وغيرها من أخواتها السامية محولين استخلاص عناصرها وظواهرها المغرقة في القدم ، والتي جدت على مر التاريخ . وقد لاحظوا أنها هي والحبشية واللهجات اليمنية القديمة تُكثر من جموع التكسير كثرة مفرطة ، كما لاحظوا أنها هي والعربية الجنوبية أو اليمنية تتميزان بوجود حرف الظاء فيهما ، وبما يميزها أيضاً حرف الضاد ، ولهم كلام كثير فيه وفي مخرجه ، وتبادله مع الظاء واللام في بعض الكلمات .

٢

لهجات عربية قديمة^(٢)

عثر علماء الساميات على نقوش أربع لهجات عربية قديمة، منها ثلاث كتبت بالخط المسند الجنوبي ، وهي اللهجة النودية واللحنيانية والصقوية ، وواحدة كتبت بالخط الآرامي ، وهي اللهجة النبطية . وقد جاء ذكر ثمود في القرآن الكريم مراراً ، وكانوا ينزلون في مدائن صالح وما حولها ، وتمتد عشائرهم غرباً إلى البحر الأحمر وشرقاً إلى جبال أجأ وسلمى ، وقد تردد ذكرهم عند الإغريق والرومان وفي كتابات آشورية ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد . وترجع نقوشهم التي عثر عليها إلى القرون الأخيرة قبل الميلاد والقرون الأولى بعده ، وهي تنتشر في كثير من البلاد ، فهي فضلاً عن وجودها في أماكن إقامتهم وسكنهم نجدتها مبثوثة في الطوائف وطورسيناء ومصر بوادي الحمامات ، وربما كان في ذلك ما يدل على أن أهلها

ليتان في العدد الثاني من الجزء العاشر بمجلة كلية الآداب، وكذلك مقالته : « لهجات عربية شمالية قبل الإسلام » في الجزء الثالث من مجلة مجمع اللغة العربية .

(١) مجلة كلية الآداب ، المجلد العاشر ، العدد الثاني ص ٤٣ .

(٢) انظر في هذه اللهجات الجزء السابع من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ومقالة

كانوا أصحاب تجارة واسعة . ونقوشهم قصيرة وجمهورها مما كتبوه أو نقشوه ليسجلوا أسماءهم للذكرى ، وقليل منها أدعية لآلهتهم ، وهى صعبة القراءة لأن خطهم مشتق من الخط المسند الجنوبي ، مثلهم مثل اللحيانيين والصفويين ، وهو خال من الشكل ومن علامات الإشباع والحركات والتشديد . ومما يزيد فى صعوبته أيضاً ، أو بعبارة أدق مما يزيد فى صعوبة الأحكام اللغوية عليه أن جميع نقوشه بضمير الغائب وأنهم كثيراً ما يحذفون منه بعض الحروف كالنون من ابن والضمير من « لى » وأيضاً فإنه تختلط به آثار عبرية وآرامية .

وهذه النقوش مع أنها كتبت بالخط المسند الجنوبي نقوشاً للعرب الشماليين ، فاللغة التى تعبر عنها عربية شمالية ، ويتضح ذلك فى تراكيبها الصرفية والنحوية وفى اشتقاقات أفعالها وأزمنتها . ونجد عندهم صيغة المثنى بجانب صيغة الجمع كما نجد نفس أسماء الإشارة والأسماء الموصولة والضمائر وحروف الجر من مثل اللام والباء وإلى وعلى وحرف العطف واو . غير أن أداة التعريف الشائعة عندهم هى الهاء لا أل ، وكذلك الشأن عند اللحيانيين والصفويين ، أما عند النبط فهى أل ، ومن هنا يصح أن نطلق على الأولين اسم أصحاب لهجات الهاء ، وهم فى ذلك يتطابقون مع العبريين ، وأيضاً فإنه يشيع عند الثموديين واللحيانيين تعدية الفعل الثلاثى بالهاء بدلاً من الهمزة ، مثلهم فى ذلك مثل العبريين والسبئيين ، على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع .

واللهجة القديمة الثانية هى اللهجة السحيانية نسبة إلى منازل أهلها من بنى لحيان الذين ذُكروا فى نقوشها ، وقد عثر عليها علماء الساميات منشورة فى شمالى الحجاز بمنطقة العلا الحالية ، وكانت حاضرتهم تسمى دادان بالقرب من مدائن صالح ، ويختلف الباحثون فى تاريخهم وهل كانوا قبل الميلاد أو بعده ، بل منهم من يتأخر بهم حتى القرن الخامس للميلاد . وتلقانا فى نقوشهم نفس الصعوبات التى تلقانا فى نقوش الثموديين من نقص الشكل وحروف العلة والمد والتشديد . وهم يعرفون بالهاء على شاكلة الثموديين ، وقد يعرفون بأل أو باللام على شاكلة العربية الجاهلية ، وقد يجمعون بينهما مثل هليحسى بمعنى الحمى . وهم يستبقون بين صيغ الفعل على صيغتي هفعل وسفعل ونراهم يلحقون بالماضى تاء التأنيث كما نراهم يشيرون بالذال

وذه وذات . ومن أسماهم الموصولة من وما وذو المعروفة في لهجة طيء . ومن آلتهم التي يرددون ذكرها بعل والعزى ومناة وودّ وإلهة . ومن أسماهم عبد ودّ وعبد شمس وعبد مناة وبعيث وعمر وطود . ومن ألفاظهم رب ويوم وبيت وحية وشبعة وحرّة ورتاج وإيلاف وكبير وقديس وصانع ونحاس ووارث وعابد ومقدر ومنعم . وهم يكونون وينسبون على نحو ما نعرف في الفصحى ، وأيضاً نجد عندهم التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع السالم والمكسر وهم يجمعون الذكور بالواو والنون والياء والنون كما يجمعون الإناث بالآلف والتاء . ومن أدوات الجر والإضافة عندهم الباء واللام وفي ومن ومع وقبل وبعد وتحت ولدى وخلف ، وزاهم ينفون بلا .

أما اللهجة الصفوية فقد نسبت إلى جبل الصفاة القائم في شرق حوران ببادية الشام ، ولم توجد النقوش به ، وإنما وجدت في الحرّة الواقعة بينه وبين حوران ، ولم ينسبها علماء الساميات إليها بحيث يقولون النقوش الحرية مخافة اللبس لأن الجزيرة العربية تمتلئ بحرات كثيرة ، لذلك رأوا نسبتها إلى الجبل المذكور ، واتخذوه علماً عليها ، وقد عثروا على نقوش منها في مواضع أخرى كالحرّة الواقعة في جنوبي دمشق والصالحية على الفرات . وواضح أنها لا تنسب إلى قوم بأعيانهم أو إلى أمكنة بعينها ، إنما هي تسمية اصطلاحية . وخطها مشتق من الخط المسند الجنوبي كاللهجيتين السابقتين ولذلك يصادف العلماء فيه نفس الصعوبات التي أشرنا إليها ، وما يزيداه صعوبة أن رسوم حروفها تتشابه فالباء تشبه الظاء والخاء تشبه التاء وكذلك تشبه اللام النون والهاء الصاد ، وقد يبدأ الكاتب من اليمين إلى اليسار وقد يعكس الاتجاه فيبدأ من اليسار إلى اليمين .

ونقوشهم قصيرة وشخصية ، وقد يضمونها وثائق تملك أو أدعية للآلهة ، وقد يذكرون تاريخ نقشها فيؤرخونه بتاريخ بصرى أو ببعض حروب النبط والروم . وهي تسبق الميلاذ وتمتد بعده قروناً . ونرى أداة التعريف الشائعة عندهم الهاء ، وقد وردت عندهم أسماء قليلة معرفة بالآلف واللام مثل الأوس والعبد . وتشيع عندهم إضافة المنعوت إلى النعت على شكلة الحبشية والعبرية المتأخرة وبعض اللهجات الجاهلية ، فيقولون مثلاً « جبل الأحمر » بدلا من الجبل الأحمر ، ويتبع اسم الإشارة المشار إليه ولا يتقدمه فيقولون أويكتبون « جو ، ذ » أى هذا الوادى ، بالضبط

كما نصنع في عاميتنا المصرية فنقول « النهاردا » بدلا من هذا النهار . وتلقانا عندهم ذو الطائية التي تُستخدم اسماً موصولا في مثالها المشهور « بثرى ذو حفرت وذو طويت » أي الذي حفرت والذي طويت .

وهذه اللهجة بصفة عامة أقرب إلى عربية الجاهليين من اللهجتين اللحيانية والثمودية سواء في الضائير واستخدام العدد أو في أسماء الأعلام وصيغ الفعل ، فنحن لا نجد عندهم هفعل ، بينما نجد الفعل المبني للمعلوم والمبني للمجهول ، وهي تشابه مع العربية الفصحى في تصريف الأفعال ومصادرهما ففعل مصدره تفعيل أو تفعلة وفاعل مصدره فِعال أو مفاعلة وأفعل مصدره إفعال وانفعل مصدره انفعل وهلم جرا . ونراها تدخل تاء التأنيث على الكلمة للفرق بين المذكر والمؤنث ، وتشيع فيها أدوات البحر المعروفة في العربية الفصيحة ، وتعطف بالواو والفاء ، وتنادى بها وبيا . والحروف جميعها هي نفس حروف عربيتنا عدداً ، ويشيع تسهيل الهزمة فيها ، وخاصة في أول الكلمة فعندهم ونس بدلا من أنس وودم بدلا من آدم . وكانت قبيلة هذيل تصنع نفس الصنيع فتقول وشاح بدلا من إشاح . ومن ذلك أنهم يقولون واكل بدلا من آكل على نحو ما نصنع في لهجاتنا العربية المعاصرة ، وهم لا يدغمون الحرف الثاني مع الثالث في الأسماء المشتقة من الفعل المضاعف مثل ظن فيقولون أو يكتبون ظانن ، بالضبط كما نطلق في عاميتنا مادد بدلا من ماد . ومن أفعالهم المنقوصة التي احتفظت بها العربية : شتى وبني وأنى ونجا ورعى ودعى ، ودائماً لام الفعل الناقص عندهم ياء . ومن العبارات التي وردت فيها هذه الأفعال : « نجى من هسلطان » أي نجى من السلطان و « رعى هضأن » أي رعى الضأن و « هأبل » أي الإبل و « همعر » أي المعز و « هبقر » أي البقر . وفي نقش من نقوشهم « ورعى هأبل سنة مرق نبط جوذ » أي رعى الإبل سنة مرق النبط بهذا الوادي . ومعنى كلمة مرق في النقش مر ، وهي تستخدم بنفس هذا المعنى في لهجاتنا المصرية . ومن آلهتهم رضا والللات ومناة وبعل وشيع هقوم أي شيع القوم وهو إله مشهور عند النبط ، قيل إنه لا يشرب الخمر وكذلك عابده .

ولو أنه جاءتنا نماذج طويلة من نقوش الصفييين وأبناء عمومهم الثموديين

واللحيانيين لأمكن الحكم بدقة على لهجاتهم جميعاً ، في صورة واضحة ، ومن المؤكد أنها تصور ضرورياً من نمو العربية وتطورها في طريق اكتمالها ، ومن المهم أن نعرف أن هذه النقوش جميعاً تنتهى بالقرن الثالث الميلادى . وأقرب منها إلى فصحانا نقوش النبط الذين عاشوا في شمالى الحجاز وكونوا لهم إمارة اتخذوا مدينة سَلْع (بطرا - Petra) حاضرتها الكبرى ، وموقعها الآن وادى موسى في جنوبى فلسطين . وكان لهم في الجنوب حاضرة صغرى هى الحِجْر وموضعها الآن يسمى مدائن صالح ، وكان لهم في الشمال حاضرة صغرى ثانية هى بُصْرَى بحوران في الشام . وظلت هذه الإمارة مزدهرة من القرون الأخيرة قبل الميلاد إلى سنة ١٠٦ م ، كما قدمنا ، إذ قوّضها الرومان ، غير أن النبط عادوا إلى الظهور ثانية في تدمر وكونوا بها إمارة ظلت إلى سنة ٢٧٣ إذ خشي الرومان من اتساع سلطان أمراءها ، فحاربوا ملكها زنوبيا ، وما زالوا بها حتى أسروها ودمروا حاضرتها تدميراً . وبذلك ينتهى تاريخ النبط ، ويظهر أنهم لعبوا دوراً واسعاً في التجارة ، فقد كانت قوافلهم تتسلم العُرُوض من عرب الجنوب ومن النُموذجيين واللحيانيين وتحملها إلى العراق وحوض البحر المتوسط .

والنبط عرب شاليون كانوا يتكلمون العربية الشمالية في أحاديثهم اليومية ، غير أنهم اختلطوا بالآراميين ، وكتبوا بأبجديتهم فظهرت في نقوشهم آثار آرامية كثيرة ، إذ نراهم يستعرون منهم بعض كلماتهم وقد يبقون في خطهم على بعض خصائص لغتهم . وهم كذلك خالطوا الروم والمصريين والعبريين ، فظهرت في نقوشهم أسماء قليلة أخذوها منهم ، يمكن أن تكون هذه الأسماء لأشخاص روميين ومصريين وعبريين عاشوا في إمارتهم .

وتمتد نقوش النبط في الأنحاء التى سيطروا عليها ، وقد كتبوها بالخط الآرامى المشتق من الخط الفينيقى ، وهى مشورة في الحِجْر ووادى موسى وتيما وشرق الأردن وسيناء وحوران بُصْرَى ودمشق وصيدا وجبل الدروز ، وتنتهى بالقرن الثالث الميلادى مثلها مثل النقوش السابقة . وكثير منها عثر عليه علماء الساميات في القبور وعلى أبوابها وفوق الصخور ، وهى تكتظ بذكر قرابينهم وما نذروه لآلئهم ، وقد يؤرخون لها بأسماء ملوكهم ، وكثيراً ما يؤرخونها بالسنة التى انتهت فيها دولتهم الأولى وهى سنة ١٠٦ .

وأصحاب هذه النقوش من النبط يختلفون اختلافاً واضحاً عن أصحاب المجموعة السابقة من اللحيانيين والتموديين والصفويين في استخدامهم لأداة التعريف العربية ، فبينما كان يشيع عند الأولين استخدام الهاء في التعريف كما قدمنا كان يشيع عندهم استخدام أل المعروفة في فصحاءنا ، على أنهم قد يجارون الآراميين في تعريفهم الكلمات بإلحاق ألف في نهايتها فقد نجدهم يكتبون القبر « قبرا » والمسجد « مسجدا » ولكن الغالب عليهم استخدام أداة التعريف العربية « أل » . وربما صنعوا ذلك في كتابتهم فحسب ، مجارة للآراميين الذين أخذوا منهم خطهم وأبجديتهم ، أما في حياتهم اليومية ولغتهم الدارجة فكانوا يستخدمون أل كما يدل على ذلك شيوعها في كتابتهم . وقد ميزوا في نقوشهم كما قدمنا بين الأعلام الممنوعة من الصرف والمصروفة فكانوا يضيفون للأخيرة واواً دلالة على تنوينها ، مما بقيت آثاره في الخط العربي في مثل عمرو وعمر .

وهاتان الظاهرتان : أى استخدام أل في التعريف والواو في آخر الأعلام المصروفة يقرب بين هذه اللهجة والفصحى الجاهلية . ومما يلاحظ أنهم يكتبون أحيانا في كتابة أل باللام وحدها فيقولون أويكتبون عبد البعل هكذا عبد لبعل بحذف الألف ، وكأنهم سهلوها وجعلوها همزة وصل لا قطع . وإذا رجعنا إلى خصائص هذه اللهجة وجدناها حقاً شديدة الصلة باللغة الجاهلية ، فهي لا تكاد تفرق عنها في أبواب الضمير والفعل وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والنسبة والتصغير وحروف الجر والعطف وكذلك الشأن في التذكير والتأنيث للاسم والفعل . ونجدهم يذكرون بين آلهتهم الله جلّ وعز . وتدور في نقوشهم كلمات عربية كثيرة مثل سلام ونذر ونذور وحب وخلد وحسن ولطف ورءوف وسعود ومرأة وأمة وعبد ورب وسعد ، ويتقدم اسم القبيلة لفظ أل أو بني مثل آل قصي وبني سهم .

واستخرج ليّمان من نقوشهم ثلاثمائة اسم تتفق مع الأسماء العربية وهي مدونة في كتابه : (Nabataean Inscriptions) من مثل أمين ، أمة ، أمة الله ، أوس ، إياس ، أوس الله ، أوس البعل ، بدر ، بكر ، تيم ، تيم الله ، تيم ذوشر (يعنى عبد ذى الشرا) جذيمة ، جرم ، جمل ، حجر ، حارث ، حارثة ، حنظل ، حيان ، رجب ، زيد ، سبج ، سعد ، سلم ، مسلم ، سكيئة ، سمية ، أسود ، صعب ،

عدى ، عقرب ، على ، عمر ، عمير ، عميرة ، عياض ، غالب ، غانم ، غوث ،
مغير ، فهر ، قصي ، كعب ، لحم ، مجد ، امرؤ الله ، امرؤ القيس ، معن ،
مالك ، نصر ، نزار ، نعيمة ، نقيب ، تنوخ ، هاني ، وائل ، وحش ، ورد ،
وهب ، وهبان ، وهب الله .

والنبطية بذلك كله تعد وثيقة الصلة بعربية الجاهلية ، وهو طور قريب
منها قريباً شديداً . ومن المؤكد أن العرب أخذوا يتطورون بلغتهم تطوراً سريعاً
في القرون الأولى للميلاد بالضبط كما أخذوا يتطورون بالخط النبطي مشتقين منه
خطهم العربي على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع .

٣

نشوء الفصحى

ليس من السهل تحديد الزمن الذي اتخذت فيه لغتنا العربية شكلها النهائي
الذي تصوره الفصحى الجاهلية ، وهو شكل كامل النضج سواء من حيث الإعراب
والتصريف والاشتقاق أو من حيث التنوع الواسع في الجموع والمصادر وحروف
العطف وأدوات الاستثناء والنفي والتعريف والتنكير والانهاء بالممنوع من الصرف
إلى نظام تام منضبط مضافاً إلى ذلك احتفاظها بحروف ومخارج لم تحتفظ بها
لغة سامية احتفاظاً كاملاً ، وهي الثاء والحاء والذال والظاء والضاد والغين .

وهذه الصورة التامة لفصحانا لم تصل إليها إلا بعد مراحل طويلة من النمو
والتطور ، وقد رأينا نماذج منها في نقوش كتبت بأبجدية مشتقة من أبجدية المسند
الجنوبي ، وهي نقوش التموديين واللحيانيين والصفويين ، ونقوش أخرى كتبت
بأبجدية الآراميين ، وهي نقوش النبطيين ، غير أنها جميعاً لا تصور هذا التكامل
الذي انتهت إليه الفصحى ، والذي تمثله نصوص العصر الجاهلي منذ أواخر القرن
الخامس الميلادي ، وأوائل السادس ، فهل تم لها ذلك التشكل النهائي مع ظهور
الشعر الجاهلي أو أن ذلك تم في حقب أبعد منه ؟ .

ليست الإجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة ، لسبب بسيط أو طبيعي ، وهو

أنه ليس بين أيدينا نقوش كثيرة ، نستطيع أن نعرف منها بالضبط الزمن الذى يعد بدءاً حقيقياً للفصحى . وحقاً عثر علماء الساميات كما قدمنا فى غير هذا الموضع على نقوش تمتد من أواخر القرن الثالث الميلادى إلى القرن السادس ، غير أنها قليلة ، ثم هى قصيرة ، وأكثرها فى أمور شخصية ، وليس بينها نص أدبى أو نص طويل يمكن أن نتبين فى تضاعيفه جملة الخصائص اللغوية لتلك اللغة التى كان يتحدث بها كتبة هذه النقوش ، وجميعها على لسان الشخص الثالث الغائب ، وليس بينها نص على لسان مخاطب أو متكلم ، وهى تخلو خلواً تاماً من الشكل والحركات وحروف العلة وعلامات الإعراب .

على أن من يرجع إلى هذه النقوش يجدها تقرب اقتراباً شديداً من فصحانا ، وقد وقفنا فى الفصل الأول عند أقدمها وهو نقش التمرة المورخ بسنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ، وهو لامرئ القيس ثانى ملوك الحيرة ، وُضع على قبره فى التمرة شرق جبل الدروز ، وقد لاحظنا أن كاتبه استخدم كلمة بر الآرامية بدلا من ابن العربية ، غير أن النقش يعد ذلك تام فى عروبه سواء من حيث الأسماء والأفعال ، أو من حيث استخدام أداة التعريف العربية أل . وأيضاً فإن خطه المكتوب به مع اشتقاقه من الخط النبطى يعد مقدمة للخط العربى . إذ توجد فيه الروابط بين الحروف كما تتخذ الحروف فيه شكلا أكثر استدارة .

ولعلنا لا نبعد إذ اتخذنا هذا النقش بدءاً لتكوين الفصحى ، وقد لُقب امرؤ القيس فيه بلقب ملك العرب ، وهى أول مرة نعثر فيها على هذا اللقب ، وقد يكون فى ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن العرب أخذوا يفكرون فى إنشاء وحدة سياسية لهم منذ هذا التاريخ ، وكانوا قبله لا يفكرون فى هذه الوحدة ولا فى أن يستقلوا بخط خاص بهم يميزهم أو يميز كتابتهم من كتابة المسند الجنوبية وكتابة الآراميين الشمالية .

ومعنى ذلك أننا نتخذ من هذا النقش رمزاً لإحساسهم إحساساً عميقاً بوجود اتحادهم إزاء الدول التى كانت تناهضهم فى الشمالين الغربى والشرقى ، وتقصد دولتى الروم والفرس ، فقد قضى الروم على دولة أسلافهم من النبط فى سَلَع وتدمر وفرضوا سيادتهم على القبائل العربية المجاورة لهم ، وبالمثل فرض الفرس سيادتهم

على الحيرة وقبائل العراق . وهذا في الشمال ، أما في الجنوب فقد هاجم الحبش اليمن واستولوا عليها في أواسط القرن الرابع لمدة عشرين عاماً ، وعادوا في سنة ٥٢٥ فاستولوا عليها .

والذي لا ريب فيه أن هذه الأحداث جعلت العرب يشعرون أنهم مهددون في الشمال والجنوب ، وليس ذلك فحسب ، فإنهم رأوا الديانتين اليهودية والنصرانية وكذلك الديانة الفارسية المجوسية ، رأوا كل هذه الديانات تغزو دينهم . وكان هذا كله حافزاً لهم أن يقاوموا من يريدون أن يتخطفوهم ، فنمت شخصيتهم السياسية ، وأخذوا يكونون لهم إمارات مختلفة في الشمال ، يتجمعون حولها ، والتفت قلوبهم وأهوازهم حول مكة بيت أصنامهم وكتبهم الكبرى . وفي هذه الأثناء أخذوا يسقطون إلى الجنوب منذ القرن الرابع ليؤازروا لإخوانهم اليمنيين في مقاومة عدوهم المشترك من الأحباش ، وكان اليمنيون يرحبون بهم ، لما يقدمونه لهم من عون ومساعدة .

وليس هذا كل ما نلاحظه ، فنحن نلاحظ أيضاً أن زمام القوافل التجارية يتحول إلى مكة ، فلم يعد بيد اليمنيين المهددين بالأحباش ولم يعد بيد النبط المهددين بالروم ، وإنما أصبح بيد المكيين البعيدين عن الدولتين ، وربما كانوا يرجعون في أصولهم إلى النبط ، وكأنما هبطوا إليها بعيداً عن الروم وجيوشهم وما يبغون من فرض سيادتهم عليهم . والمظنون أن التهوديين هبطوا بدورهم إلى الطائف ، أما اللحيانيون فسقطوا إلى منازل هذيل .

وفي هذه الأثناء أخذت شخصية هؤلاء العرب الشماليين اللغوية تنمو نمواً سريعاً ، كما أخذ خطهم هو الآخر ينمو في سرعة ، على نحو ما يصور لنا ذلك نقش زيد المؤرخ بسنة ٥١٢ للميلاد . وزيد خربة بين قنسرين ونهر الفرات ، ونقشها مكتوب بثلاث لغات : العربية واليونانية والسريانية ، وهو يتضمن أسماء أشخاص بنوا كنيسة بموضعه ، وأهميته ترجع إلى أن خصائص الخط العربي الجاهلي تتكامل فيه . ومن المؤكد أنه حدثت تطورات مختلفة في الحقبة الممتدة بينه وبين نقش الغارة هيأت له هذه الصيغة الخطية النهائية . وعلى مثاله نقش حران اللجا المؤرخ بسنة ٥٦٨ للميلاد ، وقد وُجد على باب معبد بنوه في الشمال الغربي لجبل الدروز جنوبي دمشق ، وجميع كلماته وعباراته عربية ، وهو يمضي على هذا النحو :

« أنا شرحيل (شرحيل) ير (بن) ظلمو (ظالم) بنيت ذا المرطول (المعبد) سنة ٤٦٣ بعد مفسد (خراب) خير بعم (بعام) ». وهو يشير إلى غزو أحد أمراء غسان لخير ، وقد ألحقت بكلمة ظالم واو وفقاً لقواعد النبط في كتابة أعلامهم المنصرفة ، وحذف حرف العلة من كلمة « عام » وهي نفس الصورة المألوفة في الأعلام الإسلامية الأولى .

ونرى من ذلك أن الخط العربي تكامل مع أوائل القرن السادس كما تكاملت الفصحى نفسها وأخذت شكلها النهائي بشهادة نصوص الشعر الجاهلي التي يرجع أقدمها إلى أواخر القرن الخامس ، فنذ هذا التاريخ تقاربت لهجات القبائل ، وأصبحت هناك لغة أدبية عامة ، هي الفصحى ، ينظم بها شعراء العرب جميعاً شعرهم . وتدل دلالات كثيرة على أن هذه اللغة أخذت تنتشر لا بين القبائل الشمالية وحدها ، تلك التي عاشت في الشمال ، فقد حملتها إلى الجنوب القبائل التي تسقط فيه ، وانجذب كثير من الجنوبيين إلى المحيط اللغوي الشمالي ، وخاصة من كانوا يجاورون الشماليين مثل سكان نجران وقبائل الأزد في جنوبي الحجاز .

ومعنى ذلك أنه كان يعاصر اكتمال الفصحى حركة تعريب قوية في الجنوب ، ولسنا نريد أن نبالغ في هذه الحركة فإنها إنما كانت تتناول القبائل الشمالية من هذا الجنوب ، أما في داخل اليمن وفي ظفار فقد كانت اللغة الجنوبية لا تزال سائدة كما تدل على ذلك نقوشهم . ونستطيع الآن أن نفهم قول أبي عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعريبتنا »^(١) فإنه ينص على أن لسان اليمنيين الداخلين ومن يجري مجراهم هو الذي يخالف لسان العرب الشماليين . بل لعلنا لا نبعد إذا قلنا إن اليمنيين الداخلين أنفسهم أخذوا في التعريب ، فإن من يرجع إلى وثيقة أبرهة التي دونها سنة ٥٤٣ للميلاد عند ترميمه لسد مأرب^(٢) يلاحظ تواتراً في الكلمات أسماء وأفعالا من اللغة الشمالية ، وحقاً تحتفظ الوثيقة بجملة الخصائص اللغوية للغة الجنوبية ، لكننا نجد في تضاعيفها صيغاً تشبه الصيغ

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبعة

دار المعارف) ص ١١ .

(٢) انظر هذه الوثيقة في الجزء الأول من

المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العراقي وتعليق جواد علي عليها .

العربية شهاً تاماً ، من مثل : « كن لهو خلفن وقسد » أى كان له خليفة وقاسد ، وكلمة قاسد معناها قائد فى اللغة الجنوبية .

فنحن لا فصل إلى العصر الجاهلى الذى نتحدث عنه حتى نجد الفصحى قد تكاملت وتكامل معها خطها ، وأخذت تغزو العربية الجنوبية ، وتنتصر عليها انتصارات تختلف قرباً وبعداً ، فهى فى الجهات الغربية منها تكتسحها اكساحاً ، وهى فى الجهات البعيدة تؤثر تأثيراً يختلف قوة وضعفاً . على أنه ينبغى أن نعترف بأن اليمينيين كانوا فى نقوشهم يحافظون على لغتهم القديمة المرتبطة بدينهم وآلهتهم ، اما فى حياتهم اليومية وخاصة فى أطرافهم الشمالية فإنهم كانوا يتحدثون بعريبتنا الفصحى .

٤

لهجات جاهلية^(١)

على الرغم من شيوع لغة أدبية عامة فى العصر الجاهلى كانت هناك لهجات كثيرة تميزت بها بعض القبائل ، وظلت آثارها واضحة على ألسنتها إلى القرن الثانى للهجرة ، فسجلها اللغويون ، غير أنهم لم يعنوا غالباً بنسبة هذه اللهجات إلى أصحابها فقد كانت تهمهم الصحة اللغوية من حيث هى ، وكأنهم يريدون التنبيه على ما يخالف اللغة الأدبية العامة التى نزل بلسانها القرآن الكريم . ونحن لا ننكر أنهم نصوا أحياناً على القبيلة التى تنطق اللهجة الشاذة ، ولكنهم لم يعمموا ذلك فيما حملوه إلينا بحيث أصبحنا أمام ركام واسع من لهجات لا نستطيع تعيين القبيلة أو القبائل التى كانت تنطق بها إلا فى الندرة والحين بعد الحين ، فن ذلك الكشكشة والكسكة ، وهما تخصصان ضمير المخاطبة ، إذ كان بعض تميم وأسد ، وقيل أيضاً بعض بنى ربيعة يلحقون بكاف المخاطبة شيئاً فى الوقف ، وفى الوصل أحياناً ، فيقولون : رأيتكش وعليكش وبكش وكانت بعض قبائل ربيعة تلتحق السين بدل

كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد العاشر ، العدد الأول وكتاب Ancient West-Arabian لراين .

(١) انظر فى هذه اللهجات كتاب المزهر للسيوطى فى مواضع متفرقة وكتاب الصاحبى فى فقه اللغة لأحمد بن فارس ومقالة ليثان بمجلة

الشين فتقول رأيتكس وعليكس وبكس ، وكان منهم من يحذف الكاف ويضع مكانها الشين أو السين .

ومن ذلك التعنة ، وهى فى تميم وبعض قيس وأسد ، إذ يجعلون الهمزة عيناً فى بعض الكلمات ، فيلفظون استعدى بدلاً من استأدى ، ويلفظون أعدى بدلاً من أدى ، ويقال إن بعض بنى طي كان يقول دأنى عوضاً عن دعنى . وكان هناك من يلفظ لعل لأن ، بإبدال اللام أيضاً نوناً ، وقالوا بدلاً من أن وأن عن وعن .

وتقرب من التعنة الفصححة ، وكانت فى هذيل إذ تبدل الحاء عيناً ، ويقال إن بنى ثقيف كانوا يصنعون صنيع الهذليين فى ذلك فيقولون فى حتى عى . وهذه اللهجات جميعاً كانت تشيع فى بعض القبائل الشمالية المضرية ، ومثلها التضجع وهو الإمالة ، إذ كانت تميم وقيس وأسد تميل إلى إمالة الألف ، وكان الحجازيون ينطقونها بتفخيم فلا يُميلون . ويظهر أن ذلك لم يكن عاماً فى القبيلة الواحدة ، فقد كان بعض الأفراد يميل وبعضهم لا يميل ، يقول سيبويه : « اعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل ، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه فينصب بعض ما يميل صاحبه ، ويميل بعض ما ينصب صاحبه . وكذلك من كان النصب فى لغته لا يوافق غيره ممن ينصب ، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين فى الكسر (الإمالة) فإذا رأيت عربياً كذلك فلا ترينه خلط فى لغته ولكن هذا من أمرهم » . ونستطيع أن نمد ملاحظة سيبويه إلى اللهجات الشاذة التى حكيناها ، فمن الممكن أن يكون بعض أفراد القبيلة قد تبع اللغة الأدبية العامة ، بل من الممكن أن تكون بعض العشائر فى قبيلة بعينها قد هجرت لهجة قبيلتها ، ولعل هذا هو سبب اختلاط نسبة هذه اللهجات عند اللغويين إذ نرى بينهم اختلافاً فى الكشف مثلاً هل كانت فى تميم أو كانت فى بكر أو كانت فى قيس أو كانت فيهم جميعاً ، وأغلب الظن أن مرجع هذا الاختلاف إلى ما لا حظ له سيبويه فى الإمالة من أن عشيرة أو أفراداً فى قبيلة تميل قد لا تميل ، وبالمثل يمكن أن يكون ذلك نفسه حدث فى اللهجات الشاذة التى رويت عن بعض القبائل المضرية .

وقد نسب اللغويون إلى قبائل مضرية وأخرى قحطانية ما سموه الاستنطاء إذ

كانت قبائل هذيل وقيس والأزد والأنصار في يثرب تبدل العين نوناً في مثل أعطى فتقول أنطى ، وأغلب الظن أن هذا ليس إبدالاً كما لاحظ لبيان ، وإنما هما فعلان مختلفان .

وهناك لهجات نسبها اللغويون إلى القحطانيين ، من ذلك التثنية في قضاة وبهراء إذ يكسرون الفعل المضارع فيقولون : تعلمون وتكتبون وتنجحون كما نصنع في عاميتنا المصرية . ومن ذلك العجعة في قضاة إذ يجعلون الياء المشددة جيماً ، فيقولون تميمج في تميمي ، وقال ابن فارس إن إبدال ياء المتكلم جيماً وجد عند بني تميم ، وقال الزمخشري إن بني حنظلة التميميين كانوا يبدلون الياء المشددة لصيغة النسبة جيماً مشددة .

ونسب الرواة إلى قبيلة كلب اليمنية ما سموه الوهم ، وهو كسر الهاء في ضمير الغائبين وإن لم يكن قبلها ياء ولا كسرة فيقولون : منهم وضمهم وبينهم . وسُمع عن قوم منهم ما سمي بالوكم إذ يكسرون الكاف في ضمير مخاطبين إذا سبقها ياء أو كسرة ، فيقولون : عليكم وبكم بكسر الكاف فيهما . واشتهرت حمير وأهل اليمن وبعض عشائر طيء بالطمطمانية ، وهي إبدال لام التعريف ميماً ، فيقولون في السهم والبر والصيام : امسهم ، وامبر ، وامصيام ، وهذا ليس إبدالاً ، وإنما هي لهجة يمنية ، إذ كانوا يعرفون بالألف والميم ، ولعل في ذلك ما يدل على صحة ما ذهب إليه النسابون من أن طيء قبيلة يمنية ، ولا تزال لذلك بقية في عاميتنا المصرية إذ نقول بدلاً من البارحة إمبراح وأول إمبراح . ومما ينسب إلى بعض القبائل اليمنية الشنشنة إذ يجعلون كاف الخطاب شيناً مطلقاً ، فيقولون بدلاً من لبيك اللهم لبيك لبيش اللهم لبيش ، وهم في ذلك يلتقون بأصحاب الكشكشة في بعض وجوهها من المضربين . وينسب إلى بعض الحميريين أنهم كانوا يجعلون السين تاء في بعض الكلمات فيقولون : التات بدل الناس . ويستشهد اللغويون على ذلك بقول علباء بن أرقم :

يا قُبَحَ الله بنى السُّعَلات عمرو بن يربوع شرار الناتِ

ليسوا أعفَاء ولا أكيات

وواضح أنه استعمل التات بدل الناس والأكيات بدل الأكياس . على أن هذا الشاعر ليس حميرياً وإنما هو من بكر ، وأكبر الظن أنه اضطر لذلك من أجل القافية ورويها .

وفى كتب اللغة كثير من هذه اللهجات الشاذة التى كانت تنفرد بها بعض القبائل ، وقد عقد السيوطى فى الزهر فصلاً لألفاظ اختلفت فيها لغة تميم والحجازيين ، ويمكن أن نمد هذا الفصل للبحث فيما كان بين القبائل الشرقية والغربية من خلافاً لغوية . ولعل أهم ما سجله اللغويون من فروق بين التميميين والحجازيين أن الأولين كانوا يحققون الهمزة وكان الثانون يسهّلونها فثل سأل يسأل سؤالاً عند الأولين يقابل سال يسأل سؤالاً عند الثانين ، ومثل رثأت وعباءة ونبيّ عند الأولين يقابل رثيت وعباية ونبيّ عند الثانين . ويظهر أن ذلك لم يكن يطرد فى كل الكلمات ولا على جميع الألسنة فى الجانبين المتقابلين من الجزيرة . وكان التميميون يدغمون الحرف الثانى فى الثالث فى أمرٍ مثل ردّ ، بينما كان يفك الحجازيون الإدغام فيقولون : ارددّ ، وهذه أيضاً فيما نظن كانت مسألة حيسّ ، فكان بين الفريقين من يجارى الفريق الآخر . وما اشتهر بينهما من فروق إهمالٍ ما عند التميميين فى نحو ما زيد قائم وإعمالها عند الحجازيين فيقولون ما زيد قائما ، ومن ذلك أيضاً أن الحجازيين كانوا يُجْمَرُونَ « هلم » مجرى أسماء الأفعال مثل صه ، فيلزمونها طريفاً واحداً فى مخاطبة المفرد والمفردة والاثنين والاثنين والجماعتين ، فيقولون : هلم يا رجل وهلم يا امرأة وهلم يا رجلان وهلم يا امرأتان وهلم يا رجال وهلم يا نساء ، أما التميميون فكانوا يجرونها مجرى الأفعال ، فيقولون : هلم وهلمى وهلموا وهلممن يا نساء ، وبلغت الحجازيين نزل القرآن الكريم فى قوله تعالى : « والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا » . ومن ذلك أمس عند الحجازيين فلإنها تلزم البناء على الكسر ، أما التميميون فكانوا يقولون أمسّ فى الرفع وأمسّ بفتح السين فى الجر والنصب . ومن ذلك هيات فلإنها تلزم فتح التاء عند الحجازيين بينما تلزم الكسر عند التميميين فيقولون هيات ، ورؤى فيها الإعراب بالحركات . ومن ذلك تنوين التثنية فى قوافى الشعر ، فقد كان الحجازيون يطلقون القافية ، ليفرقوا بين الشعر الذى يغنى والكلام المنشور ، وكان التميميون يبدلون المدّ فى القافية نونا ، على نحو ما عُرِف عن جرير فى قصيدته :

أَقْلَى اللوم عاذلٌ والعِتَابَنُ وقولِي إن أَصَبْتُ لقد أَصَابَنُ

فقد أبدل المدّ نوناً فى « العتابن » و « أصابن » وهو يحذف فى لغة الحجازيين ، فيصبح البيت على هذا النظم :

أقلَى اللوم عاذل والعتابا وقولِي إن أصبْتُ لقد أصابا

وروى اللغويون كثيراً من اختلاف الفريقين في همس الحركات والجهر بها ومدّها ، فبينما يمدّ الحجازيون الألف في مثل كلاب يقصرها التميميون فيقولون كلب ، وبينما يقول الأولون ناداه يقول الثانون : ندّه ، وبذلك ننطق في عاميتنا المصرية ، ويقول الحجازيون خمس عشرة بتسكين الشين وتميم تفتحها ، ومنهم من يكسرهما ومن يثقلها ، ويقول الحجازيون يبطش بكسر الطاء ويقول التميميون يبطش بضمها ، ويقول الحجازيون مرية بكسر الميم ويقول التميميون مرية بضمها ، ويقول الحجازيون الحجج بكسر الحاء ويقول التميميون الحجج بفتحها ، ويقول الحجازيون تخذت ووخذت ويقول التميميون اتخذت ، ويقول الحجازيون قلنسية بالياء ويقول التميميون قلنسوة بالواو ، ويقول الحجازيون ينقدالدرهم ويقول التميميون ينتقد ، ويقول الحجازيون القير ويقول التميميون القار ، ويقول الحجازيون الكراهة ، ويقول التميميون الكراهية ، ويقول الحجازيون ليلة ضحيانة (مصححة) ويقول التميميون لإضحيانة ، ويقول الحجازيون منذ ويسقط التميميون النون فيقولون مذ ، ويقول الحجازيون برأت من المرض بفتح الراء في الفعل ويقول التميميون برئت بكسرهما ، ويقول الحجازيون أنا منك براء ، ويقول التميميون برىء ، ويقول الحجازيون قلت القمح وأقلوه قالوا ويقول التميميون قلتيه وأقلبه قلّتي ، ويقول الحجازيون لى بك إسوة وقدوة بكسر أولهما ويضمه التميميون فيقولون أسوة وقدوة بالضم ، ويقول الحجازيون : الشفع والوتر بفتح الواو في الوتر ، ويكسرهما التميميون فيقولون الوتر ، ويقول الحجازيون وكدت والتميمون أكدت .

ولعل خير مرجع يصور الاختلافات بين الفريقين هو قراءات القرآن الكريم ، فمثلاً في قوله تعالى : (فنظرة إلى ميسرة) قرأ الجمهور نظرة بكسر الطاء وهي لغة قريش ، وقرأ مجاهد والضحاك نظرة بسكون الطاء وهي لغة تميم ، وقال جلّ ذكره : (ورضوان من الله أكبر) وقرئت رضوان بكسر الراء وهي لغة الحجازيين وقرئت بضمها وهي لغة تميم وبكر ، وقال تبارك وتعالى : (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) وقرأ الجمهور كسالى بضم الكاف وهي لغة الحجازيين ، وقرأها الأعرج بالكسر وهي لغة تميم وأسد ، وقال : (وليجدوا فيكم غلظة) وقرأ الجمهور غلظة

بكسر الغين وهي لغة الحجازيين ، وقرأها السلمي وأبو حنيفة بالضممة ، وهي لغة تميم ، وقال : (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما) وقرأ الجمهور يستحي بياءين ، وهي لغة أهل الحجاز وقرأ ابن كثير يستحي بياء واحدة ، وهي لغة تميم ، وقال : (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل) وقرئت الرسل بتسكين السين وهي لغة الحجازيين ، وقرئت بضمها وهي لغة التميميين ، وقال : (وإن أحصرتم فما استيسر من الهدى) وقرئت الهدى بتسكين الدال وتخفيف الهاء ، وهي لغة أهل الحجاز وقرئت بكسر الدال وتشديد الياء ، وهي لغة تميم ، وقال : (وآتوا حقه يوم حصاده) وقرئت الحصاد بكسر الحاء وهي لغة الحجازيين وفتحتها وهي لغة تميم وقيس ، وقال تبارك وتعالى : (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً) وقرئت عشرة بتسكين الشين وهي لغة الحجازيين وقرئت بكسرهما وهي إحدى لغات تميم فيها كما قدمنا .

وهناك لهجات كثيرة نسبت إلى بعض القبائل ، فقد قالوا إن بني مازن كانوا يبدلون من الباء ميماً ، فيقولون : باسمك بدلا من ما اسمك ، ويقولون بكة بدلا من مكة والبوابة بدلا من المومة وهي الفلاة ، ويقال إن أطباء بدلا من اطمأن لغة في بني أسد . ولا نعرف بالضبط أكان ذلك يشيع في كل الكلمات الميمية أو أن ذلك كان خاصاً ببعض الكلمات . ويقال إن بعض بني تميم كان ينطق أثاني بدلا من أثاني جمع أثنية ، ولعل كلمة تم بمعنى فم عند إخواننا الشاميين قد تطورت عن ثم ، فقلبت الفاء فيها أولا ثاء ثم أصبحت مع الزمن ثاء تخفيفا . ويقال إن بني عبد القيس في البحرين كانوا يقولون رنز بدلا من رز وأرز ، كما كانوا يقولون لإنجاص في إنجاص ، ويقال إن بعض بني تميم كانوا يقولون في أفلت أفلط بالطاء ، ويقال إن قريشاً كانت تقول التابوت بينما كان الأنصار في يثرب يقولون التابوه ، ويروى عن بعض الطائيين أنهم كانوا يقلبون ثاء الجمع المؤنث هاء في الوقف فيقولون البناء والأخواه في البنات والأخوات . ويقال إن بعض ربيعة كانوا يقولون ذكر في ذكر ، على نحو ما نعرف في عاميتنا ، ويقال أيضاً إن بعض التميميين كانوا يبدلون السين صاداً في مثل سوق وساق ، وفي عاميتنا راص بمعنى رأس . وتبادل الضاد والظاء في كثير من الكلمات ، ففي لغة تميم فاضت نفسه ، وفي لغة الحجازيين

والقيسين والطائيين فاضلت نفسه بالظاء . ومن هذه اللهجات أن طيناً كانت تفتح الفعل اليائي في مثل بقى ورضى فتقول بَقَى ورضى ، وكانوا يقولون في مثل توصية وجارية وناصية مما ياءه مفتوحة توصاة وجاراة وناصاة . وأثر عن هذيل أنها كانت تستخدم متى حرف جر بمعنى من ، وأنها كانت مثل كنانة والحجازيين تقول نعم بكسر العين بدلا من نَعَم وأنها كانت تكسر الباء في ابن فتقول ابن ، وأنها كانت تقول لإشاح في مثل وشاح ، ومر بنا أنها كانت تقلب الحاء عيناً في مثل حتى ، فتقول عَتَى ، وأنها كانت تقول في مثل أعطى أنطى ، وكانت تقلب الألف ياء في مثل عصاى وهوأى وفتأى فتقول عصى وهوأى وفتى وكانت تنطق مثل قال وباع إذا بنيا للمجهول قول وبوع بقلب الألف واواً ، وكانت لا تشيع كسرة المنقوص بل تهمسها وتخطفها كما جاء في بعض القراءات : (واللبل إذا يَسَّر) بدون ياء .

وقد عقد أحمد بن فارس في كتابه « الصحاحي » فصلاً حاول فيه أن يضبط اختلاف لهجات العرب ، فقال : « اختلاف لغات العرب من وجوه : أحدها الاختلاف في الحركات كقولنا نستعين بفتح النون وكسرها ، قال الفراء هي مفتوحة في لغة قریش وأسد ، وغيرهم يقولونها بكسر النون . ووجه آخر : الاختلاف في الحركة والسكون مثل قولهم معكم بفتح العين وتسكينها . ووجه آخر ، هو الاختلاف في إبدال الحروف نحو أولئك وأولالك . . ومنها قولهم أن زيداً وعن زيداً . ومن ذلك الاختلاف في الهمز والتلين نحو مستهزئون ومستهزون . ومنها الاختلاف في التقديم والتأخير نحو صاعقة (في لغة الحجازيين) وصاقعة (في لغة التميميين) . ومنها الاختلاف في الحذف والإثبات نحو استحيت واستحييت وصددت وأصددت . ومنها الاختلاف في الحرف الصحيح يُبدلُ حرفاً معتلاً نحوأما زيد وأيما زيد . ومنها الاختلاف في الإمالة والتفخيم في مثل قضى ورمى ، فبعضهم يفخم وبعضهم يميل . ومنها الاختلاف في الحرف الساكن يستقبله مثله ، فنههم من يكسر الأول ومنهم من يضم فيقول : (اشترُوا الضلالة) و (اشترِ الضلالة) . ومنها الاختلاف في التذكير والتأنيث فإن من العرب من يقول هذه البقر وهذه النخيل ، ومنهم من يقول هذا البقر وهذا النخيل . ومنها الاختلاف في الإدغام نحو مهتدون ومهدون . ومنها الاختلاف في الإعراب نحو ما زيد قائماً وما زيد قائم ، وإن هذين وإن هذان ،

وهذان بالألف دائماً لغة لبني الحارث بن كعب . . ومنها الاختلاف في صورة الجمع نحو أسرى وأسارى . ومنها الاختلاف في التحقيق والاختلاس نحو يأمركم بضم الراء وتسكينها ونحو عُنى له بتسكين الفاء وكسرهما . ومنها الاختلاف في الوقف على هاء التانيث مثل هذه أمة وهذه أمت . ومنها الاختلاف في الزيادة نحو أنظر وأنظور . وقال ابن فارس إنه « يقع في الكلمة الواحدة لغتان كقولهم الحصاد والحصاد بكسر الحاء وفتحها ، ويقع في الكلمة ثلاث لغات نحو الزجاج والزجاج والزجاج بضم الزاي وفتحها وكسرهما ، ويقع في الكلمة أربع لغات ... ويكون فيها خمس لغات نحو الشمال والشمل والشمل والشمال والشمل . ويكون فيها ست لغات نحو قسطاس بضم القاف وكسرهما وبإبدال السين صاداً مع ضم القاف وقُسْطَاط وقِسْطَاط وقُسْطَاط .

وراء هذه الاختلافات في نطق الكلمات كان بينهم اختلاف كثير في التعبير عن بعض المسميات مما نشأ عنه كثرة المترادفات في العربية مثل الذهب والعسجد والغيث والمطر والقمح والبر ، قال الجاحظ في البيان والتبيين : « القمح لغة شامية والحنطة لغة كوفية والبر لغة حجازية » ويقول المفسرون في تفسير قوله تبارك وتعالى : (وفومها) القوم هو الحنطة . وكما يكون الترادف في الأسماء يكون في الأفعال مثل تقاتلوا وتعاركوا وتحاربوا وتواقعوا وتخاصموا . وكثيراً ما ينشأ الترادف من اختلافات لهجاتهم في حذف بعض الحروف أو إبدال بعضها ببعض مثل جدث وجدف بمعنى القبر ومثل تابوت وثابوت ومثل اذكر واذكر وساط وشاط بمعنى اختلط ، ومثل لثام ولقام في لغة ومثل سبجت الحمامة وسبجت بالحاء ومثل حظوة وحظلة في لغة .

والترادف في العربية كثير كثرة مفرطة ، وهو يُرَدُّ في جمهوره إلى اختلاف اللهجات واختلاف القبائل فيما وضعته للمعاني الحسية والذهنية من أسماء وأفعال ، فإن اللغويين جمعوا كل ما دار على ألسنة القوم ، وبذلك اتسعت مادة المعجم العربي اتساعاً شديداً ، وهو في حقيقته معجم عدة لهجات ، نُظِمت في سلك واحد هو العربية ، وحقاً مَيَّزَ اللغويون في مباحثهم الشواذ والشوارد والنوادر والمنكر والمتروك وغير الفصيح وساقوا في ذلك شواهد احتفظ السيوطي في المزهرة بكثير منها ،

ولكنهم حين ألفوا المعاجم حشدوها فيها جميعاً . وقد ذهبوا يحصون أسماء السيف مثلاً ويقولون إنها خمسون ، وبالمثل أحصوا أسماء الأسد والفرس والبعير ، وأمدتهم الاختلافات اللغوية بين القبائل بمدد لا يتفد أو بعبارة أدق لا يكاد يتفد في ذلك كله . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن لغة من اللغات لا يمكن أن تجارى العربية في هذا الباب : باب الترادف ، فهو باب واسع فيها ، وقد أعدها ليشع فيها أسلوب من التكرار الصوتي والترادف الموسيقي عند الجاحظ وأضرابه .

ومما يرجع أيضاً إلى اللهجات الجاهلية وتباين التعبير فيها عن المسميات وتعددده باب الأضداد ، إذ نجد كلمة واحدة تستعملها قبيلة بمعنى ، ثم تشيع عند قبيلة ثانية لا بمعنى مغاير له فحسب ، بل بمعنى مضاد يناقضه ، مثل جليل بمعنى عظيم فلننا نجد المعاجم تنصّ على أنها تأتى بمعنى حقير ، ومن ذلك الجَوْنُ يوصف به الأسود والأبيض ويدلّ عليهما ، ومثله البَسْلُ بمعنى الحلال والحرام . وعلى شاكلة التضاد في الأسماء قد يكون التضاد في الأفعال فتعبر عن معنيين متناقضين مثل رجا بمعنى رغب وخاف ومثل شرى بمعناها الذى نعرفه وهو اشترى وبمعنى باع الذى يضاده . وتكثر الأضداد لنفس السبب الذى كثرت من أجله المترادفات ، وهو أنها ليست من استعمال قبيلة واحدة ، وقد أفرد اللغويون لها بسبب كثرتها أبحاثاً وكتباً مثل كتاب الأضداد لابن الأنبارى . ونحن إنما نقصد ما يتضح فيه التضاد مما مثلنا به ، فإن اللغويين وسّعوا مفهوم الضد ، حتى شمل ما يكون بين استعمالين من فروق ضئيلة في المعنى مثل ناء بمعنى حمل ، وبمعنى حمل بمشقة ، وأيضاً فإنهم أدخلوا في الأضداد ما نشأ عن المجاز والاستعارة ، كاستخدام العرب كلمة السليم للملدوغ بأفعى تفاؤلاً . فهذا ونحوه لا يُعدّ من الأضداد بمفهومها اللغوي الدقيق ، إنما الذى يعد من الأضداد مثل ما ذكرناه ومثل الرهوة بمعنى الارتفاع والانحدار ومثل الصَّريم بمعنى الليل والصبح والصارخ بمعنى المغيث والمستغيث والزبية للمكان المرتفع وحفرة الأسد . ومرجع ذلك كما قلنا أنهم كانوا في الجزيرة متباعدين ، فقد تطلق قبيلة كلمة على معنى ، ولا تسمع بها القبيلة البعيدة ، فتضعها لمسمى يضاده ويكون ذلك اتفاقاً ومحض مصادفة ، قال أبو عبيد في باب الأضداد من كتابه الغريب المصنف : سمعت أبا زيد بن أوس الأنصارى

يقول : « السُدُفة في لغة تميم الظلمة والسُدفة في لغة قيس الضوء .. ولقت الشيء ألقه لماً إذا كتبته في لغة بني عقيل وسائر قيس يقولون لقمته بمعنى محوته »^(١). وعن ابن دريد : « خرج رجل من بني كلاب أو من سائر بني عامر بن صعصعة إلى ذي جَدَن (من أقيال حمير) فأطلع إلى سطح ، والمُلك عليه ، فلما رآه الملك اختبره ، فقال له : ثبْ أى اقمَد ، فقال : ليعلم الملك أني سامع مطيع ، ثم وثب من السطح . قال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ! إن الوثب في كلام نزار الطفر (القفز) فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم »^(٢). ولم يكن هذا التضاد بين لغة نزار الفصحى ولغة الجنوبيين الحميرية فحسب ، بل كان أيضاً في كثير من الكلمات التي كانت تدور على ألسنة القبائل الشمالية لتباعد أوطانها .

ولا نريد أن نمضي في تصوير الاختلافات بين لهجات القبائل في الجاهلية أكثر من ذلك ، لسبب طبيعي وهو أننا لا نستطيع أن نستوعبها في صحف معدودة ، إنما أردنا أن نكشف عن بعض جوانبها ليتضح أنه كانت في الجاهلية لهجات كثيرة ، سجل منها اللغويون أطرافاً ، ومن غير شك لم يسجلوها جميعاً لأنها لم تكن تعنيهم في حد ذاتها ، إنما كان يعينهم التنبيه على ما يخالف الفصحى التي تُنظم بها الشعر الجاهلي ونزل بها القرآن الكريم ، ومن أجل ذلك لم ينصوا في أكثر الأحوال على القبيلة التي كانت تنطق باللهجة الشاذة ، وأيضاً فإنهم مع نصهم أحياناً على القبيلة لا نستطيع أن نتبين كما قدمنا هل كل أفرادها كانوا يصطنعون تلك اللهجة أو أن ذلك كان خاصاً ببعض عشائرها أو ببعض أفرادها . ولعل في هذا كله ما يوضح صعوبة دراسة اللهجات الجاهلية ، فعلى الرغم من مادتها الوفيرة التي جمعها اللغويون تظل غير واضحة ويظل المجال واسعاً فيها للظن والتخمين ، وخاصة حين نحاول أن نضع حدوداً للهجة قبيلة بعينها كاللهجة تميم أو لهجة هذيل . ونفس القدماء اضطربوا في نسبة كثير مما نسبوه إلى القبائل ، فتارة يجعلونه تميم أو لعشيرة تميمية وتارة يجعلونه لقيس أو لعشيرة قيسية ، وأخرى يجعلونه لقضاعة أو عشيرة عذنية ، وقد يشتركون بين قبائل متباعدة في الظاهرة اللغوية الواحدة .

سيادة اللهجة القرشية

يدل ما بين أيدينا من شعر جاهلي دلالة قاطعة على أن القبائل العربية الشمالية اصطلحت فيما بينها على لهجة أدبية فصحي كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم ، فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى هذه اللهجة الأدبية العامة ، ومن ثم اختفت جملة الخصائص التي تميزت بها كل قبيلة في لهجتها فلم تتضح في شعر شعرائهم إلا قليلاً جداً . وقد اختلفت آراء^(١) المستشرقين في هذه اللهجة التي كان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، فقال نولدكه إن الاختلافات بين اللهجات في الأجزاء الأساسية من جزيرة العرب ، مثل الحجاز ونجد وإقليم الفرات ، كانت قليلة ، وقد تركبت منها جميعاً هذه اللهجة الفصحى . وتبعه جويدي يقول إنها ليست لهجة معينة لقبيلة بعينها ، إنما هي مزيج من لهجات أهل نجد ومن جاورهم . وذهب فيشر إلى أنها لهجة معينة ، ولكنه لم ينسبها إلى قبيلة من القبائل . وذهب نالينو إلى أنها لغة القبائل التي اشتهرت بنظم الشعر والتي جمع اللغويون والنحاة من أهلها مادتهم اللغوية وشواهدهم ، وهي قبائل معد التي جمع ملوك كندة كلمتها تحت لواء حكم واحد قبل منتصف القرن الخامس الميلادي . وفي رأيه أنها تولدت من إحدى اللهجات النجدية ، وتهدبت في زمن مملكة كندة ، وصارت اللغة الأدبية السائدة بين العرب . ويرى هارتمان وفولر أن لهجة أعراب نجد واليمامة وقد أدخل فيها الشعراء تغيرات كثيرة ، ومضى فولر يزعم أن بقية بلاد العرب كانت تتكلم لغة مخالفة ، ليصل إلى رأيه الذي سبق أن دحضناه ، وهو أن القرآن الكريم نزل بلغة شعبية مكية ، ثم كُتب بعد ذلك بالأسلوب الفصيح . وزعم بروكلمان أن الفصحى كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات وإن غلبتها جميعاً^(٢) .

(١) انظر في هذه الآراء مقالة جواد على

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع

دار المعارف) ٤٢/١ .

عن لهجات العرب قبل الإسلام في كتاب الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة (نشر مكتبة

وعلى ضوء من رأى نالينو حاول بلاشير أن يقيم حدوداً لهذه اللهجة الأدبية معتمداً على القبائل التي كان يأخذ عنها اللغويون والنحاة مادتهم ، وهي تميم وقيس وأسد وهذيل وعُلياً هوازن وبعض العشائر الكنانية والطائية ، وجعل هذه الحدود محصورة بين خطين يمتد أحدهما على مسافة بضعة أميال من جنوبي مكة متجها شرقاً إلى الخليج العربي في البحرين ويمتد ثانيهما في الشمال من ضواحي يثرب إلى شمالي الحيرة . وذهب يزعم أن الفصحى مشتقة من الشعر الجاهلي والقرآن معاً وأن القرآن لا يستند على اللهجة المكية وإنما على لغة هذا الشعر ، وهي لغة تولدت من لهجة محلية ارتفعت إلى مرتبة لغة أدبية ، ولم يبين لنا هذه اللهجة التي تسامت على أخواتها ولا أسباب تساميتها ، ومضى يشكك في أن تكون لهجة قريش هي التي حققت لنفسها هذا التسامي^(١) .

وواضح أن كل هذه الآراء تعتمد على الفرض والحدس ، وقد أراد بها أصحابها أن يناقضوا أشد المناقضة ما استقر في نفوس أسلافنا من أن هذه اللهجة الفصحى إنما هي لهجة قريش التي نزل بها الذكر الحكيم ، يقول أبو نصر الفارابي : « كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما في النفس »^(٢) ويقول أحمد بن فارس نقلاً عن إسماعيل بن أبي عبيد الله : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً صلى الله عليه وسلم فجعل قريشاً قُطْبان حرمه وجيران بيته الحرام ، وولاته ، فكانت وفود العرب من حُجَّاجها وغيرهم يقدون إلى مكة للحج ، ويتحاضرون إلى قريش في أمورهم . . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصنى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلاتقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب ، ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عننة تميم ولا عجرفية^(٣) قيس

(١) انظر تاريخ الأدب العربي لبلاشير

(٢) العجرفية : التفتت وطلب الغريب الوحشي من الكلام .

٧٧/١ وما بعدها .

(٢) المزهر للسيوطي ٢١١/١ .

ولا كشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة»^(١) . ويقول ابن خلدون « كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم » فصانها بعدها عن الأعاجم من الفساد والتأثر بأساليب العجم « حتى إن سائر العرب على نسبة بعمدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية »^(٢) .

وفي رأينا أن المستشرقين جانبهم التوفيق في الحدس والفرض حين رفضوا نظرية العرب في أن الفصحى هي عين اللهجة القرشية ، فقد ذهبوا يطلبونها في لهجات القبائل النجدية ، متناسين أن شيوع لهجة بعينها لا بد أن تقترن به حالة سياسية أو روحية أو حضارية ، تهيئ لها هذا الشيوع والانتشار ، بحيث تصبح لغة الفكر والشعور للجماعة الكبيرة ، فتتخذها أداة لأدبها بينما تظل وحداتها الصغيرة تتحدث في حياتها بلغاتها المحلية . وما تزال اللغة الأدبية في الذبوع ، حتى تظهر بتلك اللغات المحلية التي تستخدم في الحياة اليومية العملية .

ونحن إذا طلبنا سبباً لتفوق لغة قبيلة في نجد على جميع اللغات واللهجات المجاورة لها أعوزنا ذلك كما أعوز المستشرقين ، بينما إذا طلبنا ذلك في قريش وجدنا أسباباً كثيرة تعين عليه ، فقد كانت مهوى أفئدة العرب في الجاهلية ، وكان لها عليهم نفوذ واسع بسبب مركزها الديني الروحي والاقتصادي المادي ، إذ كانت حارسه الكعبة بيت عبادتهم ، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية ، وكان العرب يجتمعون إليها في أعيادها الدينية وفي أسواقها القريبة والبعيدة .

ومعنى ذلك أن هناك أسباباً دينية واقتصادية أعدت لهجة مكة لتسود اللهجات القبلية في الجاهلية ، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية ، فإن القبائل العربية كانت ترى تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفرس والروم والحبش على أطرافها ، كما كانت ترى هجوم الديانتين المسيحية واليهودية على دينها الوثني ، فتجمعت قلوبها حول مكة ، وهوت أفئدتها إليها . وبذلك كله تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها في الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة ، وأن تصبح هي اللغة الأدبية التي يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم . وقد تدل على ذلك بعض

(٢) راجع الفصل الثاني والثلاثين من القسم السادس في مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٩ .

(١) انظر الصاحبى في فقه اللغة (طبعة المؤيد) ص ٢٣ .

الدلالة سوقُها عكاظ ، فقد كانت سوقاً أدبية كما كانت سوقاً تجارية ، وكان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم وينشد الشعراء قصائدهم ، ولم يُروَ ذلك عن سوق سواها ، ومما يدعم هذا الدليل ما قاله الرواة من أن العرب « كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردوه منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عبسة التيمي ، فأنشدهم قصيدته : ” هل ما علمت وما استودعت مكتوم “ فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته : ” طحا بك قلب في الحسان طروب “ فقالوا : هاتان سمطا الدهر « (١) .

وإذن فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا إن لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب ، بل في كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً ، وفي النمامة والبحرين ، وسقطت إلى الجنوب وأخذت تفتح الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخشم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران . ومما يؤكد ذلك أن الوفود اليمنية التي وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدثنا رواة الأخبار والسيرة النبوية أنها كانت تجد صعوبة في التفاهم معه ، وأيضاً فإنه كان يرسل إليهم دعاة يعظونهم ويعلمونهم الشريعة الإسلامية من مثل معاذ بن جبل ، ولو أنهم لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى لكان إرسال هؤلاء الدعاة عبثاً . وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعريب واسعة في الجنوب حدثت قبيل الإسلام .

أما في الشمال فقد كانت الفصحى معروفة في كل مكان ، وكان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، ومما يدل على ذلك دلالة قاطعة سرعة استجابتهم للقرآن الكريم ودعوته ، فإنهم كانوا يفهمونه بمجرد سماعه ، فإذا عرفنا أنه نزل بلغة قريش تحتم أن تكون هي اللغة الأدبية التي كانت سائدة . أما ما يردده اللغويون من أن القرآن الكريم نزل على سبع لغات منها خمس بلغة العَجَز من هوازن ، وهم الذين يقال لهم عُلَيا هوازن مثل سعد بن بكر بن معاوية وثقيف فذلك في رأيي إنما هو تفسير منهم للحديث النبوي : « أنزل القرآن على سبعة أحرف فافقهوا ما تيسر منه » فقد فسروا الحروف باللغة أو اللهجة ونظروا فوجدوا لهجات العرب ولغاتها

كثيرة ، فاختراروا منها سبعاً هي أفصحها ، وهي التي كان يرحل إليها اللغويون لجمع مادتهم اللغوية الصحيحة ، وقد اختلفوا في بعضها . وفي رأينا أن الحديث لا يراد به تخصيص ، وإنما يراد به الترخيص لقبائل العرب أن تقرأه بلهجاتها المختلفة متى جاءت بها الرواية الصحيحة من مدد وإمالة وتحريك للحروف وتسكين وتشديد تسهيلاً عليهم وتيسيراً حتى لا يجدوا مشقة وثقلاً في نطق بعض ألفاظه . روى الرواة عن أبي حاتم السجستاني أنه قال في كتابه الكبير في القراءات : « قرأ على أعرابي بالحرم (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طيبين لهم وحسن مآب) فقلت : طوبى ، فقال : طيبى ، فلما طال على قلت : طوطو قال : طى طى »^(١) . فلم يستطع أن يثنى طبعه لأن لهجته القبلية في مثل طوبى مما وزنه فعلى تنطقه طيبى على وزن فعلى بكسر الفاء ، فتقلب الواو ياء والضممة في أول الكلمة كسرة . ولم ينفع في الأعرابي لَفْتُ أبي حاتم ولا تمرينه له على نطق طوبى . ولثل ذلك تعددت قراءات القرآن الكريم ، تخفيفاً للمشقة عليهم في تلاوته . وفعلاً قرأوه بلهجاتهم ، المرخص بها ، وكان ذلك سبب اختلاف قراءاته التي دونها العلماء .

ونعتقد أن تفسير الحديث بأن القرآن نزل بسبع لغات معينة هي أفصح لغات العرب هو الذى ضلل المستشرقين ، فإنهم ظنوا أنه نزل بلغات قبائل نجدية ولم ينزل بلغة قريش ، وكأنهم لم يلاحظوا أن نفس هذه القبائل التي عيَّنها اللغويون هي أقرب القبائل إلى قريش ، ومن هنا جاءت فصاحتها ، ولعل ذلك هو الذى جعل الطبرى يذهب إلى أن لغة قريش نفسها كانت تستوعب الأحرف السبعة التي أشار إليها الحديث النبوى . وليس بمعقول أن يترك الرسول لغة قومه الذين بعث فيهم إلى لغات أقوام آخرين ، وفي القرآن الكريم نفسه : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) فالقرآن بشهادته إنما نزل بلغة قريش ، وما دام المستشرقون يسلمون بأنه نزل بالفصحى ، مع استثنائنا لقولرز وأضرابه ، فإن هذه الفصحى إذن هي نفس لغة قريش التي لم يكن بها عِوَج من لغات أولهجات شاذة كالعنينة والكشكشة وكسر أول المضارع .

وربما كان من الأسباب التي ضللت المستشرقين أيضاً ودفعتهم عن محجة الصواب أنهم وجدوا اللغويين حين أخذوا يجمعون مادتهم اللغوية يرحلون إلى قبائل نجدية متحازين عن قريش ، وكأنهم نسوا أن الزمن قد تغير وأن مكة دخلها أعاجم كثيرون في الإسلام وأن الفصحى فيها في أثناء القرن الثاني قرن جمع اللغة وتدوينها دخلها شوائب من الأعاجم والموالى الذين كثروا فيها كثرة مفرطة . ومن أجل ذلك رحل اللغويون إلى قبائل نجد التي كانت لا تزال تحتفظ بصفاء لغتها . وقد شاع أن أفصح العرب لعصرهم علياً هوازن وسفلى تميم وأسد وكنانة وهذيل . ويوضح أبو نصر الفارابي السبب في أنهم اقتصروا على تلك القبائل في جمع اللغة فيقول : « والذين عنهم نُقلت العربية وبهم اقتلدى وعظم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس و تميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لحم ولا من جندام لجاورتهم أهل مصر والقطب ، ولا من قضاة وغسان وإياد لجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرعون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد وعمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم ^(١) » .

فاللغويون في القرن الثاني حين أقبلوا على القبائل النجدية يجمعون منها مادتهم إنما كانوا يتحرّون ينباع التي لا تزال نقية صافية ، وليس في عملهم ما يشكك أى تشكيك في لغة مكة في أثناء العصر الجاهلي وفترة نزول القرآن الكريم ، فقد التمسوا بغيثهم في القبائل المجاورة لقريش مثل كنانة وهذيل وبعض عشائر قيس .

ومن المؤكد أن الفوارق في الجاهلية بين لهجة مكة ولهجات هذه القبائل كانت ضئيلة وأن هذه الفوارق كانت تتسع كلما ابتعدنا جنوباً أو شرقاً أو شمالاً . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصورها ، فإن الشعراء تضافروا منذ أوائل العصر الجاهلي على إذاعة اللهجة المكية في قبائلهم بما كانوا ينظمون فيها من أشعارهم .

ومعنى ذلك أن لهجة قريش لم يبدأ ذبوعها وانتشارها بين العرب في الإسلام عن طريق القرآن الكريم كما ظن ذلك بعض الباحثين ، فقد كانت ذائعة منتشرة بينهم منذ العصر الجاهلي ، بل منذ أوائله ، فأقدم نصوصه كأحدثها نُظم بهذه اللهجة القرشية التي اتخذوها لغة أدبية عامة لهم ، والتي سُميت بعد بالفصحى ، فقد كانوا يشعرون بروعتها ، فاندفعوا يحاكونها ، وقد امتلأت نفوسهم بأهلها ومكانتهم الروحية والاقتصادية والسياسية . ومن غير شك بلغ انتشار هذه اللهجة الذروة في الإسلام ، فقد أقبل العرب في كل مكان شمالاً وجنوباً على الارتشاف من أفوايق لغته ، وقد أخذ يعمّمها لا في أنحاء الجزيرة القاصية وحدها ، بل في كل بلد إسلامي شرقاً وغرباً ، فإذا أعلامها تخفّق على الدروب من أواسط آسيا إلى مشارف المحيط الأطلسي .

الفصل الخامس

رواية الشعر الجاهلي وتلويته

١

رواية العرب للشعر الجاهلي

مرّ بنا في غير هذا الموضع أن العرب الشماليين نمو الخط النبطي وتطوروا به إلى خطهم العربي منذ أوائل الجاهلية أو لعلهم وصلوا إلى ذلك قبل فجرها ، فقد وجدت نقوش مختلفة تشهد بذلك ، ونرى شعراءهم يشيع عندهم تشبيه الأطلال ورسوم الديار بالكتابة ونقوشها من مثل قول المرقش الأكبر (١) :

الدَّارُ قَقْرٌ والرسومُ كما رَقَشَ في ظهر الأديم قَلَم

ويقال إنه كان يحسن الكتابة وإنه كتب على بعض الرّحال قصيدة له حين وقع أسيراً في يد بعض العرب (٢) ، ويقول سلامة بن جندل (٣) :

لَمَن طَلَّلْ مثل الكتاب المنمَّقِ خلا عَهْدُهُ بين الصَّلَيبِ فمُطَرِّقِ

ولعله يقصد بالكتاب الصحيفة ، ويقول لبید في مطلع معلقته :

عَفَتِ الديارُ محلُّها فمَقَامُها بِمَنَى تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجَامُها (٤)

فمدافعُ الرِّيانِ عُرِّيَ رَسْمُها خَلَقًا كما ضَمِنَ الوُحَى سِلَامُها (٥)

وجلا السيولُ عن الطلولِ كَأَنَّها زُبُرٌ تُجَدُّ متونها أَقلامُها (٦)

المجلس ، ومنى : موضع بحمى ضرية ، والفول والرجام : جبلان أو موضعان .

(٥) مدافع الريان : موضع ، والرسم :

آثار الديار ، وخلقا : دروسا ، والوحى :

جمع وحى وهو الكتابة ، والسلام : الحجارة الرقيقة .

(٦) الزبر : جمع زبور وهو الكتاب ، وتجدد : تجدد .

(١) المفصليات (طبع دار المعارف) ص

٢٣٧ ، رقص : زين ونمق .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٣٠/٦ .

(٣) الأصميات (طبعة دار المعارف) ص

١٤٦ والصليب ومطر : موضعان .

(٤) عفت : درست وأمحت ، تأبد :

توحش ، والمحل : حيث يحل القوم . والمقام :

فهو يشبه رسوم الديار بالوحي أو الكتابة في الحجارة الرقيقة ، ويقول إن السيول جلت التراب عن الطلوع ، حتى لكأنما آثار الديار كتب طمست فأعيد بعضها على بعض وترك ما تبين منها ، فهي مختلفة . ويقول الأخنس بن شهاب التغلبي ^(١) :

لإبنة حِطَّان بن عَوْفٍ منازلٌ كما رَقَّشَ العنْوَانَ في الرِّقِّ كاتبٌ

ويقول الحارث بن حِلِيزَةَ اليشكري البكري ^(٢) :

لمن الديار عَقَوْنَ بالحُجُس آياتُها كمهارق الفُرُس

ويدور هذا التشبيه كثيراً في أشعارهم ، مما قد يدل على أن كثيرين منهم كانوا يعرفون الكتابة ، بل إن فريقاً منهم ، كما يقول الرواة ، كان يعرف الكتابة الفارسية على نحو ما حدثونا عن لقيط بن يعمر الإيادي وعدى بن زيد العبادي ^(٣) . ومما لا شك فيه أن الكتابة كانت شائعة في الحواضر وخاصة في مكة الناجرة . وفي السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل فداء الأسرى القرشيين الكاتبتين في بدر أن يعلم الأسير منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ^(٤) ، وكان من يكتبون بين يديه الوحي وفيما يعرض من أموره وأمور المسلمين في عقودهم ومعاملاتهم كثيرين ^(٥) . فالكتابة كانت معروفة بل كانت شائعة في الجاهلية ، ورؤيت أخبار متفرقة تدل على أن بعض الشعراء استخدمها بلاغاً شعرياً لقومه في بعض ما حزبه من الأمر ^(٦) . وغلا كرنكو فزعم أن نظم الشعر في الجاهلية كان مرتبطاً بها وبمعرفتها بدليل اختلاف القراءات للفظلة الواحدة ، وأيضاً فإن استخدام الشاعر لبعض القوافي النادرة يدل على أنه كان يلاحظ العين أكثر مما يلاحظ الأذن ^(٧) .

(الجلي) ص ١٢ .
(٦) انظر الباب الثاني . في كتاب مصادر
الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد (طبع دار المعارف) .
(٧) انظر مقالة له بعنوان The Use of Writing
for the Preservation of Ancient Arabic
Poetry نشرت مع مقالات أخرى في كتاب :
A Volume of Oriental Studies to E.G.
Browne, Edited by J.W. Arnold.

(١) المفضليات ص ٢٠٤ والرق : الجلد الرقيق .
(٢) المفضليات ص ١٣٢ والحجس بثلاث
الحاء : موضع ، وآياتها : علاماتها ، والمهارق :
الصحف .
(٣) أغاني ١٠١/٢ وطبعة الساسي ٢٤/٢٠
والشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ١٨٠/١
(٤) طبقات ابن سعد ١/٢ : ١٤ .
(٥) الوزراء والكتاب للجيشياري (طبعة

وأكبر الظن أن اختلاف القراءة إنما نشأ في عصر التدوين أو بعبارة أخرى في القرن الثاني للهجرة ، وأيضاً فإن الشعر فن سمعي ، وليس فناً بصرياً .

والحق أنه ليس بين أيدينا أى دليل مادى على أن الجاهليين اتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم ربما كتبوا بها بعض قطع أو بعض قصائد ، ولكنهم لم يتحولوا من ذلك إلى استخدامها أداة في نقل دواوينهم إلى الأجيال التالية ، فقد كانت وسائلها الصعبة من الحجارة والجلود والعظام وسعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعراء في حفظ دواوينهم ، إنما حدث ذلك في الإسلام ، بفضل القرآن الكريم وما أشاعه من كتابة آية وتحول جمهور العرب معه من أميتهم الكبيرة إلى قارئين يتلون . ولا نكاد نغضى طويلاً في العصر الإسلامى حتى تتحول العربية من لغة مسموعة فحسب إلى لغة مسموعة مكتوبة ، وهو تحول شارك فيه العرب والمستعربون . وكل ما بين أيدينا من روايات عن كتابة بعض الأشعار في الجاهلية إنما يدل على أن الكتابة كانت معروفة ، وخاصة في البيئات الآخذة بشيء من الحضارة ، ونقصد المدن مثل مكة والمدينة والحيرة ، ولكنه لا يدل بحال على أنها اتخذت أداة لحفظ الشعر الجاهلى ودواوينه ، ولو أنهم كان لهم كتاب جمعوا فيه أطرافاً من أشعارهم لما أطلق الله جل وعز على القرآن اسم الكتاب ، فلا كتاب لهم من قبله لا في الدين ولا في غير الدين .

أما ما يقال من أن المعلقة كانت مكتوبة ومعلقة في الكعبة فن باب الأساطير ، وهو في حقيقته ليس أكثر من تفسير فسر به المتأخرون معنى كلمة المعلقة ، فقد جاء في العقد الفريد أنه بلغ من شغف العرب بالشعر أن « عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب في القباطى المدرجة وعلقتها في أستار الكعبة ، فنه يقال : مذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير . . والمذهبات السبع ، وقد يقال لها المعلقة »^(١) ولو أنهم تنهوا إلى المعنى المراد بكلمة المعلقة ما لجأوا إلى هذا الخيال البعيد ، ومعناها: المقلدات والمسمطات ، وكانوا يسمون فعلاً قصائدهم الطويلة الجيدة بهذين الاسمين وما يشبههما^(٢) ، وقد

(٢) البيان والتبيين ٩/٢ .

(١) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر) ١١٩/٦ .

نقى ابن النحاس الأسطورة فقال : « لم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة ^(١) » .

ونستطيع أن ندخل في هذا الباب باب الأساطير ما يروى عن حماد الراوية من أن النعمان بن المنذر المتوفى سنة ٦٠٢ للميلاد « أمر فنُسخت له أشعار العرب في الطنوج - الكراريس - ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبي عبيد (حوالى سنة ٦٧ هـ) قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفزه ، فأخرج تلك الأشعار ، فنُسمَّ أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة ^(٢) » ويقول ابن سلام : « وقد كان عند النعمان بن المنذر منه (من شعر العرب في الجاهلية) ديوان فيه أشعار الفحول وما مُدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بني مروان ، أو صار منه ^(٣) » . ويكفى أن يكون أصل الخبر حماداً المتهم في روايته لنشك فيه ، بل إنه يحمل في أطوائه ما يجعلنا نهمه ، فهو ينتهى عنده إلى تعليله به كيف أن أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة ، وكأنما ساقه حماد الكوفى لبيان سابقة الكوفة على البصرة في الشعر القديم والعلم به ، والمنافسة بين البلدين في هذا الباب معروفة .

وإذا كان القرآن الكريم على قداسته لم يُجسَّع في مصحف واحد إلا بعد وفاة الرسول ، وبعد مشاورة بين أبي بكر رضوان الله عليه والصحابه ، فذلك وحده كاف لبيان أن العرب لم تنشأ عندهم في الجاهلية فكرة جمع شعرهم أو أطراف منه في كتاب ، إنما نشأ ذلك في الإسلام وبمرور الزمن . أما في الجاهلية فكانوا يعتمدون فيه على الرواية وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته ، ويتلقاها عنه الناس ويروونها . ومعنى ذلك أن النهر الكبير الذى فاض بالشعر الجاهلى إنما هو الرواية الشفوية ، وقد ظلت أزماناً متتالية في الإسلام ، ويدل على ذلك أقوى الدلالة أن الحديث النبوى ظل في أغلب أحواله يعتمد على الرواية والمشافهة إلى نهاية القرن الأول للهجرة . وإذا كان الحديث بما له من قدسية لم يعتمدوا إلى تدوينه تدويناً عاماً إلا بعد مرور

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت في ترجمة

في القصر الأبيض .

حماد ٢٦٦/١٠ .

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبعة

دار المعارف) ص ٢٣ .

(٢) راجع الخصائص لابن جنى (طبعة دار

الكتب) ٢٩٢/١ ومعجم البلدان لياقوت

نحو قرن على الهجرة الشريفة فأولى أن يكونوا قد تبعوا ذلك في الشعر الجاهلي ، ولم يكن ركناً في الشريعة الإسلامية ولا كانت تقوم عليه حاجاتهم الدينية الملحة . ومن يرجع إلى شعرهم يجد شعراءهم يذكرون دائماً الرواية وأنها وسيلة انتشاره في القبائل ، فهي الوسيلة التي كانوا يعرفونها وقد نفذ شعرهم من خلالها إلى آفاق الجزيرة ، يقول المسيّب بن عكس (١) :

فَلَاهِلِينَ مَعَ الرِّيحِ قَصِيدَةً مَنِ مُغْلَغَلَةً إِلَى الْقَعْقَاعِ (٢)
تَرَدُّ الْمِيَاهُ فَمَا تَزَالُ غَرِيبَةً فِي الْقَوْمِ بَيْنَ تَمَثُّلٍ وَسَمَاعٍ

فقصيدته تنتشر في القبائل ، ويردها الناس مستمعين إليها ومتمثلين بأبياتها ، ويقول حميرة بن جعفل نادماً على هجائه لقومه وشيوعه في العرب وأنه لم تعد له حيلة في رده (٣) :

نَدِمْتُ عَلَى شَتَمِ الْعَشِيرَةِ بَعْدَمَا مَضَتْ وَاسْتَتَبْتُ لِلرَّوَاةِ مَذَاهِبُهُ
فَأَصْبَحْتُ لَا أَسْتَطِيعُ دَفْعًا لَمَّا مَضَى كَمَا لَا يَرُدُّ الدَّرُّ فِي الضَّرْعِ حَالِبُهُ

فرواية الشعر في العصر الجاهلي كانت هي الأداة الطيبة لنشره وذيوعه ، وكانت هناك طبقة تحترفها احترافاً هي طبقة الشعراء أنفسهم ، فقد كان من يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعراً يروى عنه شعره ، وما يزال يروى له ولغيره حتى ينفق لسانه ، ويسيل عليه ينوع الشعر والفن . ونص صاحب الأغاني على سلسلة من هؤلاء الشعراء الرواة الذين يأخذ بعضهم عن بعض ، وقد بدأها بأوس بن حجر التميمي ، فعنه أخذ الشعر ورواه حتى أجاد نظمه زهير بن أبي سلمى المزني ، وكان له راويان كعب ابنه والحطيئة ، وعن الحطيئة تلقن الشعر ورواه هذبة بن خشرم العذري ، وعن هذبة أخذ جميل صاحب بثينة ، وعن جميل أخذ كثير صاحب عزة (٤) .

(١) المفضليات ص ٦٢ .

(٢) الشعر والشعراء ٦٣٢/٢ وقارن مع

المفضليات ص ١٠٠ .

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ٩١/٨ .

(٢) مع الرياح : يريد أنها تذهب كل

ملعب ، مغلغلة : نافذة تفض في الناس

ونسلك إليهم السبل البعيدة .

نحن إذن بإزاء مدرسة تامة من الشعراء الرواة تتسلسل في طبقات أو حلقات ، وكل حلقة تأخذ عن سابقتها وتسلم إلى لاحقها ، ومن أهم ما يلاحظ في هذه المدرسة أن شعراءها أو رواة كانوا من قبائل مختلفة في شرق الجزيرة وغربها . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعراء القبيلة الواحدة كان يروى خلفهم شعر سلفهم ، ونصّ القدماء على ذلك في غير شاعر ، فقالوا إن الأعشى كان راوية لخاله المسيّب بن علس وكان يأخذ منه^(١) وقالوا إن أبا ذؤيب الهذلي كان راوية لساعدة ابن جؤيّة الهذلي^(٢) ، ومن يقرأ ديوان الهذليين يجد أواصر فنية قوية تجمعهم وتربط بينهم . وعلى هذا القياس توجد وشائج واضحة بين شعراء قيس بن ثعلبة ، فطرفة يروى للمرقش الأصغر عمه ويأخذ عنه ، ويروى هذا عن عمه المرقش الأكبر ويحتذى على شعره ، وأيضاً فإن فطرفة كان يروى عن خاله المثلثس الذي رُبّي في أخواله من بني يشكر . وقد لا تكون القبيلة الجامعة الواصلة ، فقد يجمع بين الشعراء سلوك في الحياة كالصعاليك أو الفرسان فيروى بعضهم لبعض ، ويأخذ بعضهم عن بعض ، على نحو ما نلاحظ عند تأبط شرّاً والشنفرى أو عند أبي دؤاد الإيادي وزيد الخليل .

ولو أن الرواة لم يرووا لنا هذه الصلات الجامعة أو الرابطة بين الشعراء الجاهليين لحدسناها حدساً من اتفاقهم على تقاليد فنية واحدة مهما شرقنا وغربنا في الجزيرة ، وهي تقاليد جاءت من تمسكهم بنماذج أسلافهم لا يحيدون عنها ولا ينحرفون ، فهي دائماً الإمام المتبع ، وهم كل شاعر أن يتقن معرفتها عن طريق ما يحفظ من شعر أساتذته وشعراء قبيلته ، بل أيضاً شعراء القبائل الأخرى . ولم يكن الشعراء وحدهم الذين يهتمون برواية هذا الشعر ، فقد كان يشركهم في ذلك الاهتمام أفراد القبيلة جميعهم ، لأنه يسجل مناقب قومهم وانتصاراتهم في حروبهم كما يسجل مثالب أعدائهم ، وإلى ذلك أشار بعض بني بكر معيّراً تغلب لكثرة ترددها لقصيدته واحدة هي معلقة عمرو بن كلثوم ، وكان ليس لها شعر سواها ، يقول^(٣) :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

(٢) الشعر والشعراء ٢/٦٣٥

(١) الشعر والشعراء ١/١٢٧ والموشح

(٣) أغاني ١١/٥٤ .

للمرزياني ص ٥١ .

يروونها أبداً مذ كان أولهم يا للرجال لشعرٍ غير مشومٍ

ولم يكن أبناء القبيلة وحدهم الذين يُشيعون شعر شعرائها ، فقد كان كثير من أفراد القبائل الأخرى يشركون معهم في إشاعته ، إذ كان بينهم جم غفير من الحفظة ، كانوا يتناقلون الشعر وينشدونه في محافلهم ومجالسهم وأسواقهم ، إذ لم يكن لهم شاغل سواه ، وكان يسجل مآثرهم ومثالبهم وأنسابهم وأيامهم وأخبارهم ، ومن ثم قال عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه »^(١) فهو كل علمهم وكل حياتهم .

جاء الإسلام فانكبوا على تلاوة القرآن الكريم ، ولكن لم ينسوا شعرهم أبداً ، حتى منذ بدء الدعوة الإسلامية ، فقد كان الرسول عليه السلام يستحث حسان ابن ثابت وغيره من شعراء الأنصار على هجاء قريش والرد على شعرائها ، وكان كثيراً ما يستنشد الصحابة الشعر ، حتى شعر أعدائه من مثل أمية بن أبي الصلت ، قال الشريد بن سُوَيْد الثقفي : « استنشدني النبي صلى الله عليه وسلم شعر أمية بن أبي الصلت فأنشدته ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يقول : هيه ، هيه ، حتى أنشدته مائة قافية »^(٢) . وكان أبو بكر نسابة راوية للشعر الجاهلي ، وكان يتمثل به أحياناً في خطابه كخطبته المشهورة في يوم السقيفة ، وكذلك كان عمر ، وقلما كان يترك وافداً عليه من قبيلة دون أن يسأله عن بعض شعرائها ، وفيه يقول ابن سلام : « كان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »^(٣) .

وهذا نفسه شأن الصحابة جميعاً ، فقد كانوا كثيراً ما يتناشدون الأشعار ويقصون بعض الأخبار عن جاهليتهم ، قال جابر بن سمرة : « جالست رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار في المسجد وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم »^(٤) . ومعنى ذلك أن رواية الشعر الجاهلي كانت مستمرة في صدر الإسلام ، وقد أخذت تظهر عوامل تشدد من أزرها وتقوى من شأنها ، فقد أخذت تنشأ منذ

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٢٢ .

(٢) ابن سعد ٣٧٦/٥ وغزاة الأدب

٢٢٧/١ والمزهر ٣٠٩/٢ .

(٣) البيان والتبيين ٢٤١/١ .

(٤) طبقات ابن سعد ٢/١ : ٩٥

وما بعدها .

تدوين عمر للدواوين حاجة شديدة لمعرفة الأنساب ، إذ كانت تلعب دوراً مهماً في رواتب الجند الفاتحين وفي مراكز القبائل بالمدن الجديدة التي خططوها مثل البصرة والكوفة . وكان بين العرب قديماً من يشتهرون بمعرفة الأنساب ، ولكن في هذا العصر الإسلامي إلى تمامه يصبح هؤلاء النسابين شأن خطير ، إذ كان العرب يرجعون إليهم في معرفة أصولهم ، وكثيراً ما كانوا يسوقون لهم قطعاً من الشعر تحدد نسبهم ، ومن أشهرهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل ودغفل والنخار بن أوس العذري^(١) .

ونحن لا نصل إلى الحرب التي نشبت بين علي ومعاوية حتى تشتعل العصبية القبلية اشتعالاً لم تحسبُ نيرانه حتى نهاية العصر الأموي ، وكان الشعر الوقود الجزل لهذه العصبية ، فأخذت كل قبيلة تُعنى برواية شعرها الجاهلي الذي يصور مناقبها ومثالب خصوصها ، ويتناقله أبناؤها ، فهو جعبة سهامهم التي يوجهونها إلى خصومهم . ومن غير شك كان ذلك أكبر عون على حفظ الشعر الجاهلي ، فقد حملته القبائل طوال القرنين الأول والثاني حتى أدوه إلى العلماء الذين عنوا بتدوينه^(٢) .

وكانت الدولة الأموية عربية النزعة ، فعملت على حفظ هذا التراث ، بما كانت تروى منه ، نجد ذلك عند معاوية وعبد الملك بن مروان وغيرهما من الخلفاء ، وكانوا كثيراً ما يسألون وفود القبائل التي تفد عليهم عن بعض شعرائها ، وقد ينشدون بيتاً ويسألون عن صاحبه وقصيدته ، ومن تحسن إجابته تحسن له جائزتهم^(٣) ، وكان أبناؤهم على غرارهم « وكانوا ربما اختلفوا في بيت من الشعر أو خبر أو يوم من أيام العرب فيبردون فيه يريدون إلى العراق »^(٤) يسألون علماءها عن صحة الأمر فيه وصوابه . وأقام لهم آباؤهم غير مؤذب يروّيهم أشعار الجاهلية وأيامها وأخبارها ، ويلقانا هؤلاء المؤدبون في كل مكان يؤدّبون الناشئة ، وفي البيان والتبيين فصل طويل يخصي فيه أسماءهم .

وما يدخل في عناية الأمويين بالشعر الجاهلي ما يروى عن معاوية من شغفه بالمسامرة ومعرفة أخبار الماضين ، مما جعله يستدعي عبيد بن شريق الجرهمي من

(٢) راجع مصادر الشعر الجاهلي ص

٢٣١ وما بعدها .

(٣) انظر الأغاني ٩١/٣ .

(٤) التصحيف والتعريف للمسكوي ص ٤

(١) انظر في هؤلاء النسابين وفيما نسوق هنا

من اتصال رواية الشعر الجاهلي حتى القرن

الثاني الباب الثالث من كتاب مصادر الشعر

الجاهلي .

صنعاء اليمن ، ويتخذنه سميّاً له يسأله عن الأخبار المتقدمة والملوك السالفة ، وهاله ما عنده من العلم بذلك ، فاتخذ غلماناً يقيدون في دفاتر ما يذكره من سير الملوك وأخبارها ووقائع العرب وأيامها في الجاهلية وأشعارها^(١) .

ومنذ وقت مبكر في صدر الإسلام نرى القصاص يجلسون للعة في المسجد الجامع ، وكانوا كثيراً ما ينثرون الأشعار الجاهلية التي تتصل بوعظهم في تضايف قصصهم ، وقد أخذت تنشأ جماعة مثل أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير تُعنى بغزوات الرسول وما قيل فيها من الشعر ، وأخذ يظهر بجانبهم جماعة تعنى بأخبار العرب الماضين وما كان يجري على ألسنة شعرائهم . وفي أثناء ذلك كان الشعراء الإسلاميون أنفسهم يعنون عناية شديدة برواية الشعر القديم ، وبلغ من اهتمام بعضهم بذلك أن أصبح مؤدبا للناشئة يروونها الشعر القديم على نحو ما نعرف عن الكسيت والطرماح^(٢) . ولم يكن هناك شاعر مبرز إلا وهو يروى للجاهليين وينشد من شعرهم ، وفي كتب الأدب إشارات مختلفة إلى ما أخذه العلماء عن أمثال ذى الرمة والفرزدق وجريز ورؤبة من هذا الشعر^(٣) ، وصور الفرزدق مدى روايته ومعرفته للشعر الجاهلي ، فقال في بعض قصيده^(٤) :

وَأَبُو يَزِيدُ وَذُو الْقُرُوحِ وَجَرَوَلٌ ^(٥)	وَهَبِ الْقَصَائِدَ لِي النَّوَابِغُ إِذْ مَضُوا
حُلِّلَ الْمُلُوكُ كَلَامُهُ لَا يُنْحَلُ	وَالْفَحْلُ عُلْقَمَةُ الذِّى كَانَتْ لَهُ
وَمُهَلِّهِلُ الشُّعْرَاءِ ذَاكَ الْأَوَّلُ ^(٦)	وَأَخُو بَنِي قَيْسٍ وَهَنْ قَتَلْتَهُ
وَأَخُو قَضَاعَةَ قَوْلُهُ يَتَحَمَّلُ ^(٧)	وَالْأَعَشِيَانِ كَلَاهِمَا وَمُرْقَشُ
وَأَبُو دُوَادٍ قَوْلُهُ يَتَنَحَّلُ	وَأَخُو بَنِي أَسَدٍ عَيْبِدُ إِذْ مَضَى

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلي ص ١٥٩ والفهرست ص ١٣٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٥١ ، ٢/ ٣٢٣ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٤) نقائض جرير والفرزدق ص ٢٠٠ والديوان (طبع القاهرة) ص ٧٢٠ .

(٥) النوايغ : النابغة الذبياني والجمدى والشيباني . وأبو يزيد : الخليل ، وذو القروح : امرؤ القيس ، وجرول : الحطيئة .

(٦) أخو بني قيس : طرفة ، وهن قتله : يريد القواقي ، لأنه قتل بسبب بعض أهاليه .

(٧) الأعشيان : أعشى بني قيس وأعشى باهلة . وأخو قضاعة : أبو الطمعان القيبي .

وابن أبي سلمى زهير وابنه وابن الفريرة حين جد المقول^(١)
 والجعفرى وكان بشر قبله لى من قصائده الكتاب المجل^(٢)
 ولقد ورث لآل أوس منطقاً كالم خالط جانبيه الحنظل^(٣)
 والحارثى أخو الحماس ورثته صدعاً كما صدع الصفاة المقول^(٤)

ويجبل إلى الإنسان أنه لم يبق عربى فى العصر الإسلامى وما ولىه من أوائل
 العصر العباسى إلا وهو يروى الشعر الجاهلى ، إن هو تحدث أو وقف خطيباً ،
 وتمثل الحجاج بالشعر فى خطابه ذائع مشهور . وإذا كنا لاحظنا فى الجاهلية
 أن الرواة الموصوفين بهذا الاسم كانوا عادة من الشعراء ، فإننا نلاحظ فى العصر
 الإسلامى نشوء طائفة من الرواة ، لم يكونوا ممن يحسنون نظم الشعر ، فهم لا يروونه
 لغرض تعلمه ، وإنما يروونه لغرض نشره فى الناس وإذاعته ، وإليهم يشير جرير
 بقوله فى وصف بعض قصائده^(٥) :

خروج بأفواه الرواة كأنها قرأ هندوانى إذا هز صمما^(٦)

وفى أخباره أنه كان له رواة يلزمونه ويأخذون عنه شعره ، وكذلك كان الفرزدق .
 ولم يكونوا يروون شعرهما فحسب بل كانوا ينقحونه ويهذبونه ، فعن شيخ من هذيل
 قال : « جئت الفرزدق . . ودخلت على رواته فوجدتهم يعدلون ما انحرف من
 شعره . . ثم أتيت جريراً . . وجئت رواته وهم يقومون ما انحرف من شعره وما فيه
 من السناد^(٧) . وفى رأينا أن ظهور هذه الطبقة من الرواة إنما نشأ من العناية
 الشديدة برواية الشعر القديم والحديث ، وكأنما لم يعد للناس من شغل وراء هذه
 العناية ، فهم من يتخصص برواية شعر المعاصرين ومنهم من يتخصص برواية
 الشعر الجاهلى كيونس بن متى راوية الأعشى^(٨) .

(٦) قرأ : متن ، وهندوانى : السيف .

(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٥٦/٤

وما بعدها .

(٨) راجع فى تحقيق اسم هذا الراوى

مصادر الشعر الجاهلى ص ٢٣٨ وما بعدها .

(١) ابن الفريرة : حسان بن ثابت .

(٢) الجعفرى : ليلى ، وبشر هو بشر بن

أبي خازم .

(٣) أوس : أوس بن حجر .

(٤) الحارثى : النجاشى .

(٥) التفاضل ص ٤٣٠ .

ولعل في كل ما قلنا ما يدل أوضح الدلالة على أن رواة لا يحصيهم العدد حملوا الشعر الجاهلي إلى عصور التلوين ، فقد حافظت القبائل عليه كما حافظ كثير من الأفراد وخاصة الشعراء والرواة ، وبذلك أسلموه للأجيال التالية ، وإن كان قد شابه شيء من الانتحال والوضع على نحو ما سنعرض لذلك في غير هذا الموضع ، ومن غير شك سقط منه كثير في أثناء اجتيازه هذا الطريق الزمني الطويل ، يقول ابن سلام : « لما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألّفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير » (١) .

٢

رواة محترفون

ونحن لا نصل إلى نهاية العصر الإسلامي ومطلع العصر العباسي حتى تنشأ طبقة من الرواة المحترفين الذين يتخذون رواية الشعر الجاهلي عملاً أساسياً لهم ، وتختلط في هذه الطبقة أسماء عرب وموال ، وأسماء قرّاء للقرآن الكريم وغير قرّاء ، وهم جميعاً حضريون ، عاشوا غالباً في البصرة والكوفة . ولم يكونوا يقفون عند رواية الشعر القديم مجردة ، بل كانوا يضيفون إليها كثيراً من الأخبار عن الجاهلية وأيامها ، وكانوا يتخذون لأنفسهم حلقات في المسجد الجامع يحاضرون فيها الطلاب وفي أثناء ذلك يشرحون لهم بعض الألفاظ الغريبة ، أو يفسرون لهم ظروف النص التاريخية .

وأهم هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء وحماة الراوية وخلف الأحمر ومحمد ابن السائب الكلبي والمفضل الضبي ، وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب البلو ، وكان بعضهم يرحل إلى نجد أحياناً ليستقى الأشعار والأخبار الجاهلية من ينابيعها الصحيحة ، وكان بين البلو أنفسهم من هاجر إلى الكوفة والبصرة حيث هؤلاء الرواة العلماء ليمدهم بما يريدون . وقد أظهروا في علمهم مهارة منقطعة النظير ، إذ تحولوا يجمعون المادة الجاهلية جميعها ، وكان من أهم الأسباب في ذلك تفسير

ألفاظ القرآن الكريم ، فقد جرت عادة المفسرين منذ ابن عباس على الاستشهاد بالشعر الجاهلي في شرح ألفاظ الذكر الحكيم ، وأيضاً فقد انبرت جماعات تحاول وضع قواعد العربية وجمع ألفاظها ، واعتمدت في ذلك اعتماداً شديداً على الشعر الجاهلي فهو مادة اللغة ومادة قواعدها وقوانينها التي ينبغي أن تتبع . على أن هاتين الغايتين سرعان ما انفصلتا عن عمل الرواة ، وأصبحوا يقصدون لجمع هذا الشعر في ذاته ومن أجل نفسه ، وقد حملته إليهم الموجة الحادة من روايته في أثناء العصر الإسلامي ، ومن المهم أن نعرف أنهم قلما يذكرون مَنْ حملوا عنهم هذا الشعر ، فهم يغفلون أسانيدهم إلا قليلاً^(١) .

ولا نكاد نمضي في العصر العباسي حتى يكون هؤلاء الرواة مدرستين متقابلتين : مدرسة في الكوفة ومدرسة في البصرة ، وعُرف الأولون بأنهم لا يتشددون في روايتهم تشدد الأخيرين ، ومن ثم تضخمت رواياتهم ودخلها موضوع ومتنحل كثير . ولعل من الطريف أن نعرف أن الكوفة عُرفت في الحديث النبوي بالوضع والانتحال أيضاً حتى كان مالك بن أنس يسميها دار الضرب يريد أنها تضرب الأحاديث وتصنعها كما تُضرب الدراهم والدنانير وتصنع . يقول أبو الطيب اللغوي : « والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله وذلك بين في دواوينهم »^(٢) . وندد بهم البصريون كثيراً ، وبادلهم الكوفيون نفس التنديد ، فكان كل منهما يشكك في الآخر^(٣) ، ولكن إذا صفينا هذه التشكيكات والتنديدات اتضح لنا أن رواية البصرة في جملتها أوثق من رواية الكوفة . وليس معنى ذلك أن رواية الكوفة في الحملة كانوا متهمين بخلاف رواية البصرة ، فبين الطرفين جميعاً متهمون ، وموثقون أحاطوا روايتهم بسياج من الأمانة والدقة والتحرى .

وربما كان السبب الحقيقي في تقدم البصرة على الكوفة في الرواية أن رأس رواتها وهو أبو عمرو بن العلاء كان أميناً ، بينما كان رأس رواية الكوفة حماداً ، وكان متهماً كثير الوضع ، لا يؤثق بما يرويه . وكان أبو عمرو من مؤسسي المدرسة النحوية في البصرة ، وأحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة الذكر الحكيم ، ولقد سنة ٧٠ للهجرة ، وتوفي سنة ١٥٤ وقيل سنة ١٥٩ : « وكان أعلم الناس بالغريب

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٥٥ (٢) مراتب النحويين ص ٧٤ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلي ٤٣٤ وما بعدها . وما بعدها .

والعربية وبالقرآن والشعر وأيام العرب وأيام الناس وكانت كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف . . ثم إنه تقرأ أى تنسك فأحرقها^(١) وهو إحراق لا يغير من الأمر شيئاً فإن ما رواه حملة عنه تلاميذه البصريون، وكان إمامهم وقلوبهم . ويحكى عنه أنه قال : « ما زدْتُ في شعر العرب إلا بيتاً واحداً ، يعني ما يُروى للأعشى من قوله :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيبَ والصلعَا^(٢) وحاول بعض الباحثين التشكيك في روايته لهذا الاعتراف^(٣) ، وهو اعتراف يوثق روايته ويزيدها قوة، وفي سيرته ما يدل دلالة قاطعة بأنه كان ثقة ؛ فقد كان تقياً صالحاً، وكان أحد الأعلام الذين أخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم . أما حماد رأس رواة الكوفة فكان من الموالى ، وُلد سنة ٩٥ للهجرة ، وتوفي سنة ١٥٦ وقيل بل سنة ١٦٤ ويقال إنه : « كان في أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك والصوص ، فنقبَ ليلة على رجل ، فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد ، فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك وترك ما كان عليه ، فبلغ في العلم ما بلغ^(٤) وربما كان مما يصور هذا العلم ومده ما يُروى عن مروان بن أبى حفصة من قوله : « دخلت أنا وطربُح ابن إسماعيل الثقفي والحسين بن مطير الأسدي في جماعة من الشعراء على الوليد ابن يزيد (١٢٥ - ١٢٦) هـ وهو في فُرش قد غاب فيها ، وإذا رجل عنده كلما أنشد شاعر شعراً وقف الوليد بن يزيد على بيت بيت من شعره وقال : هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان ، حتى أتى على أكثر الشعراء ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا حماد الراوية^(٥) » وُروى عن الهيثم بن عدى أنه كان يقول : « ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حماد^(٦) . وهذه المعرفة الواسعة بكلام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها وأيامها جعلتهم يطلقون

٤٢٩ وتاريخ الأدب العربى لبلاشير ١/ ١١١ .

(٤) الأغاني ٨٧/٦ .

(٥) الأغاني ٧١/٦ .

(٦) انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت

٢٦٥/١٠ .

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٣٢١ .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٤٣/٣ .

(٣) انظر مقالة مرجليوث The Origins

of Arabic Poetry في صحيفة الجمعية

الآسيوية الملكية عدد يولية سنة ١٩٢٥ ص

اسم الراوية علماً عليه ، ويروى أن الوليد بن يزيد سأله بم استحقت هذا القلب فقيل لك الراوية ؟ فقال : « بأنى أرى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أرى لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أنشد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم منه من المحدث ، فقال الوليد : إن هذا العلم وأبيك كثير ، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال كثيراً ، ولكنى أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام ، قال : سأمتحنك فى هذا ، وأمره بالإنشاد ، فأنشد الوليد حتى ضجر ، ثم وكل به من استحلفه أن يصدقته عنه ، ويستوفى عليه ، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين ، وأخبر الوليد بذلك ، فأمر له بمئة ألف درهم ^(١) . وقد يكون فى هذا الخبر ضرب من المبالغة ، غير أنه يصور مدى ما استقر فى أذهان معاصريه عن معرفته وروايته للشعر الجاهلى .

ومن سوء حظ الكوفة أن كان هذا الراوية البارع فاسد المروءة فاسقاً ماجناً زنديقاً ^(٢) ، وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر وحوكه ^(٣) فكان ينظم على لسان الجاهليين ما لم ينطقوا به ، وكثر منه ذلك حتى عرف به واشتهر ، يقول الأصمعى : جالسته فلم أجده عنده ثلاثمائة حرف ولم أرض روايته ، ويقال إنه مدح بلال بن أبى بردة المتوفى بعد سنة ١٢٦ بقصيدة ، وكان ذو الرمة حاضراً ، فقال له : إنها ليست لك ، وسرعان ما اعترف بأنها جاهلية ^(٤) ويقال إنه قدم عليه مرة ، فقال له : ما أطرفتني شيئاً ؟ فعاد إليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الخطيئة بمديح أبى موسى الأشعرى (جد بلال) فقال بلال : ويحك يمدح الخطيئة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أرى شعراً الخطيئة ! ولكن دعها تذهب فى الناس ^(٥) وقصته فى مجلس أمير المؤمنين المهدي مع المفضل الضبي مشهورة ، فقد زاد ثلاثة أبيات فى مطلع قصيدة زهير : (دع

٢٠٩/٥ حيث يروى له أبياتاً بحكمة الصنعة.

(٤) الأغاني ٨٨/٦ .

(٥) طبقات فحول الشعراء ص ٤٠ - ٤١

وحاول ناصر الدين الأسد أن يصحح نسبة

القصيدة للخطيئة لرواية المدائني ورواية ديوان

الخطيئة لها ، ولكن ذلك لا يكتفى لصحة نسبها .

(١) الأغاني ٧١/٦ وسجع الأدباء ٢٥٩/١٠

(٢) الحيوان ٤٤٧/٤ والأغاني ٧٤/٦

وأمال المرتضى ١٣١/١ ولسان الميزان ٣٥٣/٢

١٧٣/٣ .

(٣) المزهر ٤٠٦/٢ حيث يذكر أن

الأصمعى روى شيئاً من شعره ، وانظر الأغاني

ذا وعد القول في هرم) فأنكرها المفضل ولما سأله عنها المهدي بكل يمين مخرجة اعترف بأنه أضافها من عنده ، فأمر المهدي أن يتادى في الناس بإبطال روايته لكذبه وبصححة رواية المفضل مواطنه^(١). وحاول بعض الباحثين التشكيك في القصة^(٢) ، لأن المهدي ولى سنة ١٥٨ بعد وفاة حماد ، ولكن هناك من تأخروا بوفاته إلى سنة ١٦٤ كما قدمنا ، وربما أخطأ الرواة في تعيين الزمان والمكان ، إذ ذكروا أن القصة حدثت في قصر عيساباذ الذي بناه المهدي في سنة ١٦٤ بينما أرواها لها بسنة ١٥٨ . وحتى على فرض بطلان هذه القصة فإن هذا البطلان لا يدفع التهمة عن حماد ، كما لا يدفعها ما يذكره بعض هؤلاء الباحثين من أن اتهامه الواسع قد يرجع إلى المنافسة بين البصرة والكوفة ، فسيرته كانت سيرة شخص سبي السيرة خلقياً ودينياً ، وما كان ابن سلام البصري ليقول فيه : « كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به : كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ويزيد في الأشعار »^(٣) . بعامل المنافسة والعصبية ، ونفس البصريين الذين اتهموه وثقوا رواية مواطنه رمعاصره المفضل الضبي . فليست المسألة مسألة منافسة بين بلدين ، وإنما هي حقيقة واقعة ، ونفس الرواة الأثبات من بلدته كانوا يشركون البصريين في نفس التهمة ، فابن الأعرابي الكوفي يروى عن المفضل أنه قال : « قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده ، فلا يصلح أبداً ، فقيل له وكيف ذلك ؟ أيخطئ في روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟ »^(٤) .

فالتهمة لم تكن بصرية خالصة ، بل كانت بصرية كوفية ، وربما بالغ بعض البصريين فقال عنه إنه كان يلحن ويكسر الشعر ويصحف ويكذب^(٥) ، ولكن

(١) الأغاني ٨٩/٦ وما بعدها .

(٢) انظر مقدمة لآيل للفضليات ص ١٨

وما بعدها ومقالة برينلش في مجلة O.L.Z.

عدد ١٩٢٦ ص ٨٢٩ وما بعدها ومصادر

الشعر الجاهل ص ٤٤٢ .

(٣) ابن سلام ص ٤٠ .

(٤) الأغاني ٨٩/٦ ومعجم الأدباء ١٠٠/٢٦٥ .

(٥) الأغاني ٨٩/٦ وانظر ٢٨٣/٨ .

بعد تجريد التهمة من مبالغاتها تظل عالقة به . ولذلك ينبغي أن لا نقبل شيئاً مما يروى دون أن يأتينا عن الرواة الثقات ، وكذلك ينبغي أن نتشكك فيما يرويه تلاميذه مثل ابن كناسة المتوفى سنة ٢٠٧ وخلف الأحمر راوية البصرة المشهور إذ كان قد أكثر الأخذ عنه^(١)، ويروى أنه كان يعطى حماداً المنحول فيقبله منه ويرويه^(٢) . ومن رواية الكوفة الذين عاصروا حماداً واشتهروا بالوضع برزخ العروضي وكان من أكذب الناس في الرواية^(٣) ومثله جنّاد وكان يخلط في الأشعار ويصحف ويلحن^(٤) . وإذا كانت الكوفة أصيبت بمثل هؤلاء الرواة الوضاعين الذين ينحدرون من أصول غير عربية فقد كان من ورائهم رواة ثقات على رأسهم المفضل بن محمد ابن يعلى الضبي المتوفى حوالى سنة ١٧٠ للهجرة وكان عالماً علماً دقيقاً بأشعار الجاهلية وأخبارها وأيامها وأنساب العرب وأصولها ، ويجمع الرواة كوفيين وبصريين على توثيقه ، وقد خلف مجموعة كبيرة من أشعار الجاهليين هي الملقبة بلقب المفضليات ، وهي أروع ما بأيدينا من نصوص الشعر الجاهلي ووثائقه التي لا يترقى إليها الشك .

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة في الحقبة التي تلت أبا عمرو بن العلاء وجدنا بها خلفاً للأحمر الذى تُسدّد إليه سهام الاتهام ، ولم يكن يقل عن حماد في معرفته بأشعار العرب وأخبارها ، بل لعله يتقدمه ، إذ كان شاعراً مبرزاً ، وكان بصيراً بالشعر ، وأصل أبويه من فرغانة فهو من الموالى ، وُلد سنة ١١٥ للهجرة وتوفى حوالى سنة ١٨٠ وفيه يقول ابن سلام : « اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقهم لساناً ، وكنا لانبأى إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً ألا نسمعه من صاحبه »^(٥) غير أن شهادة ابن سلام له لا تعفيه من التهمة الشديدة التي سلّطت على روايته ، وقد شهد هو نفسه بها إذ زعم كما قدمنا أنه كان يعطى حماداً المنحول من الشعر ويزيفه عليه فيرويه ، ويقال إنه هو الذى وضع اللامية المنسوبة إلى الشنفرى^(٦) :

-
- (١) مراتب النحويين ٤٧ ، ٧٢ .
 (٢) الأغاني ٩٢/٦ .
 (٣) إنباء الرواة ٢٤٢/١ والفهرست
 (٤) انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت
 وراجع الفهرست ص ١٣٥ .
 (٥) ابن سلام ص ٢١ .
 (٦) الأمل ١٠٦/١ .
 (طبعة مصر) ص ١٠٧ .

أقيموا بنى أُمِّي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ فإني إلى قومٍ سواكم لَأَمِيلُ
كما وضع اللامية الأخرى المنسوبة إلى تَابِطٍ شَرًّا أو إلى ابنِ أخته (١) :

إِنَّ بِالشَّعْبِ الذِّي دُونَ سَلْعٍ لَقَتِيلًا دَمُهُ مَا يُطْلُ

وتصدى له الأصمعي مراراً يتهمة بالوضع والنحل ، فقال إنه « وضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً ، وعلى غيرهم ، عبثاً بهم ، فأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة » (٢) وعرض مرة لرواة الكوفة يصفهم بأنهم يَقْبَلُونَ كل ما يرد عليهم ، فقال : « رواة غير منقَّحين ، أنشدوني أربعين قصيدة لأبي دُوَادٍ الإباضي قالها خلف الأحمر ، وهم قوم تعجبهم كثرة الرواية ، إليها يرجعون وبها يفتخرون » (٣) . ويظهر أن البصريين كانوا يتحامون روايته ، بينما كان يحملها الكوفيون رواة حماد وأضرابه ، ويقول المبرد فيه موضعاً ذلك : « لم يُرَ أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه ، وكان به يُضْرَبُ المثل في عمل الشعر ، وكان يعمل على ألسنة الناس ، فيشبهه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه ، ثم نسك فكان يحتم القرآن في كل يوم وليلة ، وبذل له بعض الملوك ما لا عظمياً خطيراً على أن يتكلم في بيت شعر شكوا فيه ، فأبى ذلك وقال : قد مضى لي في هذا ما لا أحتاج إلى أن أزيد فيه . وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه ، وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد . فلما تقرأ ونسك خرج إلى أهل الكوفة فعرفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقي ذلك في دواوينهم إلى اليوم » (٤) .

وواضح من ذلك أن الكوفة هي التي حملت رواية خلف بالإضافة إلى رواية حماد ، أما البصرة فقد حمل فيها بعض الرواة روايته ، ولكن الكثرة وعلى رأسها الأصمعي رفضتها . والأصمعي يقوم في البصرة مقام المفضل الضبي في الكوفة ، وقد أشاد معاصروه ومن تلاهم بسعة علمه بالجاهلية

(١) انظر المقد الفريد ١٥٧/٦ والحيوان

١٨٢/١ وانظر مصادر الشعر الجاهل ص

٤٥٨ وما بعدها .

(٢) مراتب النحويين ص ٤٧ .

(٣) الموشح للمرزباني ص ٢٥١ وما بعدها

(٤) مراتب النحويين ص ٤٧ .

وأشعارها وأخبارها ، وثقوه وعدّله ، وإن كان ذلك لم يمنع بعض منافسيه من التّنبّل منه ، ولكنه نيل مردود ، فقد كان في الدّروة من الثّقة والأمانة ، وهو عربي صليبي ، ولد حوالي سنة ١٢٢ للهجرة وتوفي سنة ٢١٥ وقيل سنة ٢١٦ ، أو ٢١٧ ، وفيه يقول ابن جنيّ : « وهذا الأصمعي هو صنّاجة الرواة والنّقله ، وإليه عبط الأعباء والثّقلة . . . كانت مشيخة القراء وأماثلهم تحضره وهو يحدث لأخذ قراءة نافع عنه ، ومعلوم قدر ما حذف من اللّغة فلم يشته ، لأنّه لم يقو عنده إذ لم يسمعه ، وإما إسفاف مَنْ لا علم له وقول من لا مُسَكّة به إن الأصمعي كان يزيد في كلام العرب ويفعل كذا ويقول كذا فكلام معفو عليه غير معبوء به »^(١) ويقول أبو الطيب اللّغوي : « فأما ما يحكيه العوام وسفّاط الناس من نوادر الأعراب ويقولون : هذا مما افتعله الأصمعي . . . وأنى يكون الأصمعي كما زعموا وهو لا يقنى إلا فيما أجمع عليه العلماء ويقف عما ينفردون به عنه ، ولا يجوز إلا أفصح اللّغات ويلجّ في دفع ما سواه »^(٢) . وله مجموعة مشهورة من الشعر القديم هي الأصمعيات وهي كالمفضليات ثقة ودقة ، ورُوّيت عنه دواوين كثيرة أشهرها الدواوين الستة : دواوين امرئ القيس والتّابغة وزهير وطرفة وعنّرة وعلقمة بن عبّدة الفحل .

وكان يعاصره عالمان كبيران هما أبو زيد وأبو عبيدة ، وكان أبو زيد يُعنى بجمع اللهجات واللّغات الشاذة وتوفى وقد قارب المائة ، سنة ٢١٤ أو ٢١٥ ، وهو عربي أنصاري خزرجي ، أما أبو عبيدة معمر بن المنّى فولد حوالي سنة ١١٠ وتوفى حوالي سنة ٢١١ وهو من الموالى وكانت فيه نزعة شعوبية صارخة ، ولكن الرواة وثقوه^(٣) وينبغي أن لا نتبعهم في توثيقه وأن نقدم عليه الأصمعي وأبا زيد ، وكان يهتم بالأنساب والأيام ، وشرّح نقائض جرير والفرزدق شرحه المشهور .

وكان بجانب هؤلاء الذين تحدثنا عنهم رواة يخلطون ثقة وتجربياً مثل المهيّم ابن عدى المتوفى سنة ٢٠٦ وكان يهتم بالأخبار التاريخية وتشوب التهمة روايته ، وأكثر منه تهمة في هذا الباب محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٤٦ للهجرة وابنه هشام المتوفى سنة ٢٠٤ وهما من كبار الوضعيين ويروى عن هشام أنه كان يقول : « كنت

(٣) إنباه الرواة ٣/ ٢٨٠ .

(١) الخصائص ٣/ ٣١١ .

(٢) مراتب التعوين ص ٤٩ .

أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة (المنافرة) ومبالغ أعمار من ولي منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من كتبهم بالحيرة^(١). ويتنظم في سلك هؤلاء المؤرخين الواقدي والمدائني.

وخلف بعد من قدّمنا تلاميذهم من رواة القرن الثالث، وعلى رأسهم أبو عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢١٣ وابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ هـ الكوفيان وكان وراءهما كثير من الرواة في بلدتهم مثل محمد بن حبيب وابن السكيت المتوفى حوالي سنة ٢٤٤ وتعلب المتوفى سنة ٢٩١. وانتهت الرواية في البصرة إلى أبي سعيد الحسن ابن الحسين السكري المتوفى سنة ٢٧٥ وإليه يرجع الفضل في جمع كثير من الدواوين الجاهلية، وهو يجمع بين الروايتين البصرية والكوفية.

ويتضح من كل ما أسلفنا أن رواية الشعر الجاهلي أُحييت بكثير من التحقيق والتحجيص، وأنه إن كان هناك رواة متهمون، فقد كان لهم العلماء الأثبات بالمرصاد أمثال المفضل الكوفي والأصمعي البصري، وما مثل الشعر الجاهلي في ذلك إلا مثل الحديث النبوي، فقد دخله هو الآخر وضع كثير، ولكن العلماء استطاعوا تمييز صحيحة من زائفه، وقدّموا لنا كتب الصحيح الستة المشهورة، وكذلك الشأن في الشعر فقد دخله فساد كثير، ولكن أصحابه الأثبات استطاعوا — في مهارة بالغة — أن يميزوا صحيحة من زائفه، غير تاركين منفذاً إلى ذلك سواء في سند الرواة أو في المتن نفسه، بل إن ابن سلام ليقدمهم على علماء الحديث في هذا الباب، يقول: «حدثني يحيى بن سعيد القطان قال: رواة الشعر أعقل من رواة الحديث، لأن رواة الحديث يروون مصنوعاً كثيراً، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون هذا مصنوع»^(٢).

فينبغي أن لا نتخذ من كثرة الاتهامات في بيئة الرواية اللغوية مزلقاً إلى الطعن في الشعر الجاهلي عامة، إنما نطعن على ما طعن الرواة الثقات فيه حقاً، ونضيف إليه ما يهدينا بحثنا الحديث إلى تزييفه. أما بعد ذلك فتبقى عامة ما رواه أثباتهم كالمفضل والأصمعي صحيحة. وكانا يتحريان تحريماً شديداً.

فلنهمل إذن من الشعر الجاهلي ما جاءنا منه عن أمثال حماد وخلف الأحمر وكذلك ما جاءنا منه عن طريق أصحاب الأخبار المتريدين أمثال عبيد بن شربة ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وما وضعه القصاص عن العرب البائدة ، وأيضاً ينبغي أن نهمل ما اختلف فيه الرواة ، أما ما اتفقوا عليه أو جاءنا عن أثباتهم فينبغي أن نقبله . وكانوا يأخذون بهذا القياس ، يقول ابن سلام : « وليس لأحد — إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه (من الشعر) — أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى »^(١) ويقول : « قد اختلفت العلماء في بعض الشعر كما اختلفت في بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه »^(٢) . واحتفظ ابن سلام في طبقاته بمادة وفيرة من نقد البصرة للرواية والرواة ، فهو تارة يعدّ للشاعر القصائد الصحيحة النسبة إليه ، وتارة يقف عند بيت أو أبيات بعينها تنسب لشاعر من الشعراء الجاهليين وينص على أنها منتحلة ، فن الضرب الأول قوله عن طرفة وعبيد بن الأبرص : « وما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه قلة ما بقى بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد بن الأبرص اللذين صحّ لهما قصائد بقدر عشر . ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير أن الذى نألهما من ذلك أكثر ، وكانا من أقدم الفحول فلعل ذلك لذلك ، فلما قلّ كلامهما حُمِلَ عليهما حِمْلٌ كثير »^(٣) ثم عاد فوسّع الشك في شعر عبيد فقال فيه : « قديم الذكر عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب ، لا أعرف له إلا قوله :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ فَالْقُطَيْيَاتُ فَالذَّنُوبُ

ولا أدري ما بعد ذلك »^(٤) . ومن الضرب الثانى إنكاره أن يكون النابغة هو الذى قال :

فَالْقَيْتُ الْأَمَانَةَ لَمْ تَخُنْهَا كَذَلِكَ كَانَ نَوْحٌ لَا يَخُونُ

وقد عقب على إنكاره بأن أهل العلم أجمعوا على أن النابغة لم يقل هذا^(٥) ،

(٤) ابن سلام ص ١١٦ .

(٥) ابن سلام ص ٤٩ وما بعدها .

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن سلام ص ٢٣ .

وعلى هذا النحو صنفى علماء الرواية واللغة الشعر الجاهلى من شوائب كثيرة علقته به ، وإن كنا لا ننكر فى الوقت نفسه أنهم تناولوا أشياء منه بالتنقيح ، غير أن ذلك كان فى حدود ضيقة ، كأن يبدلوا كلمة مكان كلمة ، أو يقيموا بعض الألفاظ على سنن لهجة قریش ، فقد كانت تسقط على لسان الشعراء أحياناً أشياء من لهجاتهم القبلية ، فكانوا يصلحونها ، وقد يصلحون عروض بعض القصائد ، ولكنهم بصفة عامة حافظوا على جوهر هذا الشعر محافظة تشهد لهم بالدقة وأنهم استطاعوا أن ينقلوا غير قليل منه إلى أجيالهم والأجيال التالية فى صورة تكاد تكون مطابقة تمام المطابقة لأصوله .

٣

التلوين

مرّ بنا أن العرب لم يدوّنوا شعرهم فى الجاهلية ، وأن ما يذكر من أخبار عن كتابة بعض شعرائهم لمقطوعات لهم ، إن صحّ ، فإنه لا يدل على أنهم فكروا فعلاً فى تدوين أشعارهم ، إنما هى قطع تكتب على رَحْل أو على حجر أو جلد لإنباء القبيلة أو بعض أفرادها بحادث . وقد نفينا أن يكونوا علقوا المعلقات فى الكعبة وكذلك رفضنا رواية حماد عن تدوين النعمان بن المنذر لأشعار العرب وما مُدح به هو وأهل بيته . ومن الأدلة على ذلك أننا لا نجد راوياً ثقة يزعم أنه نقل عن قراطيس كانت مكتوبة فى الجاهلية ، كما أننا لا نجد راوياً ثقة يزعم أن شاعراً فى الجاهلية ألّقى قصيدته من صحيفة مدونة ، إنما كانوا ينشدون شعرهم إنشاداً ، ومن كان منهم يُعيد قصيدته فى حوّل أو أقل من حول كان يعدها فى نفسه ، ويردها فى ذاكرته ، ثم ينشدها ، ويَحْمِلُها الناس عنه ، ومن ثم قال الجاحظ : « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال وكأنه إلهام . . فها هو إلا أن يصرف (العربي) وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا (أفواجا) وتشتال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيده على نفسه » (١) .

وظل هذا شأن العرب في صدر الإسلام ، فهم يتناشدون الشعر ولا يقيّدونه إلا قليلا في ظروف خاصة ، حتى مُصِّرت الأمصار ، وراجعت العرب الأشعار ، وأخذت فكرة التدوين تسلك طريقها في تسجيل غزوات الرسول وأحاديثه وفي تقييد بعض الأخبار التاريخية ، فدوّن زياد بن أبيه كتاباً في المثالب ، ودوّن عروة ابن الزبير غزوات النبي عليه السلام وحروبه ، ودوّن معاوية أخبار عبيد بن شربة أو بعبارة أدق أمر غلمانه بتدوينها ، وأخذ بعض الصحابة والتابعين يدوّن أحاديث الرسول عليه السلام . وقد يكون في تدوين الأحاديث ما ينير لنا الطريق في تدوين الشعر ، فإن كثيراً من الصحابة والتابعين كان ينكر تدوينها ، ولم تدوّن تدويناً عاماً إلا على رأس المائة ، وكذلك نستطيع أن نقول إنه على الرغم من اهتمام القبائل بشعرها الجاهلي وشعرائها الذين يعدّون مناصب شرفها وفخارها لما يسجلون من مناقبها وأبجادهها ومثالب خصومها فإنها لم تعتمد إلى تدوين هذا الشعر إلا في حقبة متأخرة من عصر بني أمية .

ويظهر أنهم لم يكونوا يدوّنون أشعار شعرائهم وحدها ، بل كانوا يدونون معها أنخبارهم ، ولعل أقدم إشارة إلى هذه المدونات ما أسلفنا من رواية أصحاب الأخبار عن حماد في أول تعلقه بالشعر من أنه نقب ليلة على رجل ، فأخذ ما عنده وكان فيما أخذه جزء من شعر الأنصار ! ويزعم حماد أن الوليد بن يزيد أرسل في طلبه ، فقال في نفسه : « لا يسألني إلا عن طرفه : قريش وثقيف ، فنظرت في كتابي قريش وثقيف »^(١) ويروى عن ثعلب أن الوليد بن يزيد جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، وأنه طلب لذلك من حماد وجند الكوفيين ما عندهما من هذا الديوان ، ثم رد إليهما ما أخذه منهما^(٢) .

وإن صحت هذه الأخبار كانت دليلاً على أنه أخذت تظهر مع أوائل القرن الثاني مدونات تاريخية للقبائل لعلها هي التي أعدت فيما بعد لتدوين الرواة أشعار كل منها على حدة بنفس الصورة التي نعرفها لديوان هذيل .

ونمضي بعد عصر الوليد بن يزيد فيلقانا أبو عمرو بن العلاء ، وكان يعتمد على الرواية ، ولكنه كان يقيّد إلى جانبها كثيراً من الأشعار والأخبار حتى قالوا إن

كتبه ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم تقرأ (تنسك) فأحرقها كلها ، يقول الجاحظ : « فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية ^(١) . » وكان حماد على ما يظهر يُعنى بالرواية أكثر من عنايته بالكتابة ، بل لعله لم يكن يعنى بالكتابة ، إنما كتب عنه تلاميذه ، يقول صاحب الفهرست : « لم يُرَ لحماذ كتاب ، وإنما روى عنه الناس وُصِفَت الكتب بعده » ^(٢) . وتُروى للمفضل الضبي كتب صنّفها ، فيها أشعار وأخبار ^(٣) ومن المؤكد أنه لم يكتب مفضلياته ، وإنما أنشدها تلاميذه فحملوها عنه .

ولعلنا لانخطئ إذا قلنا إن الرواة الأولين لم يدوّنوا ما روه لطلّابهم ، ولم يكن هذا شأن رواة الشعر وحدهم ، بل كان شأن رواة التاريخ الجاهلي جميعهم مثل محمد بن السائب الكلبي فإن ابنه هشاماً هو الذى حمل مادة أخباره ودوّنها في كتبه ، ونفس الخليل بن أحمد لم يخلف كتاباً في النحو ، بل أملى إملاءات جمع منها سيبويه كتابه المشهور . وكانوا يتأثرون في ذلك برواة الحديث ، وربما كانت الحاجة عندهم أمس ، لأن الشعر يحتاج إلى تلقين حتى لا يلحن فيه من ينشده ، ولذلك كانوا ينيدون في أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث من يلحن فيه بأنه صحفى* يأخذ عن الصحف ، ولا يأخذ شفاها عن مشيخة العلماء باللغة والشعر . ومن ثم ضعفوا من يروى عن المدونات ولم يقبلوا روايته إلا أن يكون قد أخذها عن شيخ ، ولذلك ضعف ابن سلام رواية من يتداولون الشعر القديم من كتاب إلى كتاب ، يقول : « ليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى » .

والرواة التالون هؤلاء الرواة المتقدمين هم الذين يرجع الفضل إليهم في تدوين الشعر الجاهلي تدويناً منهجياً قائماً على التوثيق والتجريح ، وعلى رأسهم الأصمعي ، وقد حصر اهتمامه في جمع الشعر الجاهلي في دواوين ومجموعات صحيحة . وكان هؤلاء الرواة المدوّنون لا يكفون بالسماع من جِلّة الرواة السابقين ، فكانوا يرحلون إلى الصحراء العربية ليتوثقوا مما يروونه على نحو ما هو معروف عن الأصمعي

(٣) إنباه الرواة (طبعة دار الكتب المصرية)

٣٠٢/٣ .

(١) البيان والتبيين ١/٣٢١ .

(٢) الفهرست (طبعة المطبعة الرحمانية)

نفسه وعن أبي عمرو الشيباني الذي يقال إنه دخل البادية ومعه دَسْتِجَتَانِ من حبر ، فما خرج حتى أفناهما بكتب سماعه عن العرب ^(١) .

وكان بعض الأعراب يفد على الحواضر وقد يقيم فيها ليسدَّ هذه الحاجة عند الرواة . والمهم أنهم لم يكتبوا بالاعتقاد على ذاكرتهم صنيع الرواة من قبلهم ، بل كانوا يدوّنون ما يسمعونونه ويحتفظون به ويقرءون منه في مجالسهم وينقله عنهم طلابهم . وأخذت موجة هذا التدوين تتسع اتساعاً شديداً ، ويستطيع من يرجع إلى الفهرست وكتب التراجم أن يطلع على هذا النشاط التأليفي الذي لا يكاد يبلغه الحصر والعدد ، فقد ترك هشام بن محمد الكلبي نحو مائة وأربعين كتاباً ، وكانت كتب المدائني لا تقل عنها عدداً ، بينما خلف الهيثم بن عدي خمسين مصنفات ، وأكثر كتبهم يعد مفقوداً ومن بينها ما يشير إلى عناية بالشعر ككتاب أخبار خزاعة للمدائني وأخبار طيء للهيثم ، وقد نُشر الأصنام لابن الكلبي وهو يمتليء بالشعر الجاهلي مما يدل على أنه كان يملأ كتبه به .

على أنه يلاحظُ لزاء هؤلاء المؤرخين أن كثيراً منهم لم يكن دقيقاً فيما يجمع من شعر ، ولعل ابن إسحق صاحب السيرة النبوية أشهرهم في هذا الباب ، وقد تصدّى له ابن سلام في طبقاته ، فقال : « وكان ممن أفسد الشعر وهجّته وحمل كل غشاة منه محمد بن إسحق بن يسار ، مولى آل مخزومة بن المطلب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسيّر . . فقبل الناسُ عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر أوتي به فأحمله . ولم يكن ذلك له عذراً . فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع إلى نفسه ، فيقول : من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ آلاف السنين والله تبارك وتعالى يقول : (فتقطع دابر القوم الذين ظلموا) أي لا بقية لهم ، وقال أيضاً : (وأنه أهلك عاداً الأولى وثموداً فما أبقى) وقال في عاد : (فهل ترى لهم من باقية) وقال : (وقرئنا بين ذلك كثيراً) وقال : (ألم يأتكم نبال الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) ^(٢) .

وقال ابن سلام أيضاً في ابن إسحق : « فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن إسحق ومثل ما رواه الصحفيون ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل على علم »^(١) وتعقب ابن هشام في سيرته ابن إسحق ورد كثيراً مما روى ، أو صحح نسبه .

وواضح أن هذه المتحلات من الشعر المنسوب إلى عرب الجاهلية الأولى ليس لها أدنى قيمة ، فقد ردها الرواة المحققون ، ومع ذلك يتعلق بها بعض الباحثين المحدثين ليشككوا في الشعر الجاهلي عامة ، مع أن القدماء رفضوها وردوها ، كما رفضوا وردوا رواية المتهمين من الرواة أمثال حماد وخلف . وليس معنى ذلك أننا نريد أن نوسع الأبواب فنقبل كثرة ما يُروى عن الجاهليين ، بل نحن نضييقها تضيقاً شديداً ، فلا نقبل إلا ما أورده الثقة مثل أبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والأصمعي ، فجملتها ما روه وثيق .

ولا نبالغ إذا قلنا إن ما رواه هؤلاء الثقات لا يزال مادة غفلاً لم يدرس ولم يفحص ، وقد خلف من بعدهم خلف أتموا تدوين الشعر الجاهلي وأشهرهم في الكوفة أبو عمرو الشيباني وابن الأعرابي وقد اشتهر الأول بأنه جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، وكان كلما عمل شعر قبيلة منها وأخرجه للناس كتب مصحفاً وجعله في مسجد الكوفة ، وطبعي أن يُخرج دواوين القبائل راو كوفي لأن بيوتات العرب وأشرفها كانوا في الكوفة ولم يكونوا في البصرة ، ومن غير شك كانوا من أهم الأسباب التي أعانت على حفظ الشعر الجاهلي وروايته إلى أن دُونَ في القرن الثاني . ويظهر أن الكتب الخاصة بالقبائل لم تكن تكني برواية الأشعار بل كانت تضم إليها غير قليل من أخبارهم وأيامهم ، وربما كان هذا هو السبب في أننا نرى مؤرخيهم ينثرون في تاريخهم أشعاراً كثيرة كأنهم يرون أنها سنده وعماده ، على نحو ما تصور ذلك كتب المدائني والواقدي وابن الكلبي . وكان رواية الشعر يمزجون بروايتهم كثيراً من الأخبار التاريخية على نحو ما نرى في شرح النقااض لأبي عبيدة . وقد بقي من دواوين القبائل ديوان هذيل برواية السكري المتوفى سنة ٢٧٥ وفيه تختلط الأشعار بالأخبار ، ومن خير ما يصور ذلك فيه ديوان أبي ذؤيب .

ويدل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني أنهم دونوا من هذه الأشعار

والأخبار تراثًا كبيرًا ، ومعروف أنه يقع في واحد وعشرين مجلدًا ضخماً وأن للجاهليين فيه حظاً موفوراً . وهو يسوق هذه المادة الجاهلية الشعرية التاريخية مقترنة بأسناد ، تصور مصدرها ، محتاطاً إزاء رواته أشد الحيطه ، فمن عُرِف بكذبه نبه عليه ، وحتى من عُرِف بصدقه كان يراجع روايته على روايات معاصريه ودواوين الشعراء ، مبالغة في الدقة والتحري . والكتاب مؤلف حقاً في القرن الرابع الهجري ، ولكنه يستمد من رواة القرنين الثاني والثالث الهجريين كما يتضح من أسانيده ، فهم الذين جمعوا هذا التراث الجاهلي الضخم ، وأتاحوا لمن جاءوا بعدهم أن يؤلفوا مؤلفاتهم الكبرى ، سواء أكانت مجموعات شعرية أو أمالي أو أخبارا وتراجم . بل لقد بدأ منذ القرن الثالث تأليف هذه الكتب الجامعة مثل حماسة أبي تمام والبيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد وعيون الأخبار لابن قتيبة وكتابه الشعر والشعراء .

وربما كان السكري أهم راوٍ ظهر في النصف الثاني من القرن الثالث ، فقد رُوِيَ عنه دواوين كثيرة ، وهو يجمع في روايته بين الروايتين الكوفية والبصرية إذ أخذ عن ابن حبيب وابن السكيت الكوفيين كما أخذ عن الرياشي وأبي حاتم السجستاني البصريين . ونمضى في القرن الرابع الهجري ، فيتكاثر التأليف والتدوين على نحو ما هو معروف عن ابن دريد وابن الأنباري والقالى والمرزبانى ، وعملهم كما ذكرنا مشتق من عمل رواة القرن الثالث ، ونراهم يهتمون — مثل أبي الفرج الأصبهاني في أغانيه — بالسند ، فهم لا يكتفون غالباً بالراوى القريب الذى سمعوا منه ، بل يسلسلون الرواة حتى تصل إلى أبي عمرو بن العلاء أو إلى المفضل الضبي مثلاً . وبذلك قدموا لنا — صنع سابقهم — مادة الشعر الجاهلي بكل ما تحمل من أسباب ضعف أو ثقة ، وكان كثير منهم لا يزال يرحل إلى البادية صنع الرواة المتقدمين .

قضية الانتحال

واضح مما قدمنا أن الشعر الجاهلي دخل فيه انتحال كثير ، وقد أشار إلى ذلك القدماء مراراً وتكراراً ، وحاولوا جاهدين أن ينفوا عنه الزيف وما وضعه الوضّاع متخذين إلى ذلك مقاييس كثيرة ، وبلغ من حرصهم في هذا الباب أن أهل ثقاتهم كل ما روى عن المتهمين أمثال حماد وخلف ، وكان الأصمعي خاصة لهم بالمرصاد ، كما كان المفضل الضبي من قبله ، وتتابع الرواة الأثبات بعدها يحققون ويمحصون في التراث . ومن أهمهم في هذا الجانب ابن سلام ، فقد دوّن في كتابه « طبقات فحول الشعراء » كثيراً من ملاحظات أهل العلم والدراية في رواية الشعر القديم من أساتذة المدرسة البصرية التي ينتسب إليها ، وأضاف إلى ذلك كثيراً من ملاحظاته الشخصية .

وهذا الكتاب في الحقيقة هو أول كتاب أثار في إسهاب مشكلة الانتحال في الشعر الجاهلي ، وقد ردها إلى عاملين : عامل القبائل التي كانت تنزید في شعرها لتنزید في مناقبها ، وعامل الرواة الوضاعين ، يقول : « لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار »^(١) . فالقبائل كانت تنزید في أشعارها وتروى على ألسنة الشعراء ما لم يقولوه ، وقد أشار ابن سلام مراراً إلى ما زادته قریش في أشعار الشعراء ، فهي تضيف إلى شعرائهم منحولات عليهم ، وقد أضافت كثيراً إلى شعر حسان^(٢) » ويذكر أن من ألبناء للشعراء وأحفادهم من كان يقوم بذلك ، مثل داود بن متمم بن نويرة ، فقد استشهد أبو عبيدة شعر أبيه متمم ، ولا حظ أنه لما نقد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علم أبو عبيدة ومن كانوا معه أنه يفعل ما^(٣) .

ولعل في هذا ما يدل على أن الرواة من مثل أبي عبيدة كانوا يراجعون ما ترويه

(٣) نفس المصدر ص ٤٠ .

(٢) ابن سلام ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) ابن سلام ص ١٧٩ ، ٢٠٤ وما بعدها .

القبائل ، وكانوا يرفضون منه ما يتبين لهم زيفه ، إما بالرجوع إلى أصول صحيحة أو إلى أذواقهم وما يحسنون من نقد الشعر وعرفهم بالشاعر ونظمه ، ويسوق لنا ابن سلام شكاً في قصيدة أبي طالب التي روتها قریش في أشعارها والتي يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم ^(١) ، ومعنى ذلك أنهم نظروا في شعر قریش فقبلوا منه ورفضوا ^(٢) . وهم يفحصون ويحققون في شعر المدينة كما فحصوا وحققوا في شعر قریش وغيرها من القبائل .

ويقدم لنا ابن سلام طائفتين من الرواة كانتا ترويان متتحلاً كثيراً وتنسبانه إلى الجاهليين ، طائفة كانت تحسن نظم الشعر وصوغه وتضيف ما تنظمه وتصوغه إلى الجاهليين ، ومثل لها بحماد ، ورأينا فيما مر بنا ، أشباهاً له في جَنَاسٍ وخلف الأحمر . وطائفة لم تكن تحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلي ، ولكنها كانت تحمل كل غناء منه وكل زَيْف ، وهم رواة الأخبار والسير والقصص ، من مثل ابن إسحق راوي السيرة النبوية إذ كانت تُصَنِّعُ له الأشعار ويدخلها في سيرته دون تحرز أو تحفظ ، منطلقاً بالشعر العربي من لم ينطقوه من قوم عاد وثمود والعماليق وطسم وجديس .

ورفض ابن سلام والأصمعي وأضرابهما رواية الطائفتين جميعاً ، فلم يقبلوا شيئاً مما يرويه أشباه حماد إلا أن يأتيهم من مصادر وثيقة ، وكذلك لم يقبلوا شيئاً مما يرويه ابن إسحق لا عن الأُمِّ البائدة فحسب ، بل عن عرب الجاهلية أنفسهم ، إلا أن يجدوه عند رواية أثبات ، يقول ابن سلام وقد ذكر أبا سفيان بن الحارث أحد شعراء قریش الذين كانوا يناقضون حسان بن ثابت وشعراء المدينة : إن شعره في الجاهلية « سقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل » ثم علق على ذلك بقوله : « ولسنا نعدّ ما يروى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم ^(٣) » . فهم كانوا يرفضون جملة ما يرويه ابن إسحق وأشباهه من مثل عبید بن شَرِيَّة وينحونه عن طريقهم ، يقول ابن سلام : « وليس يُشْكَلُ على أهل العلم زيادةُ الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولودون ^(٤) » مما حمّله رواة القصص والأخبار من شعر غَثَّ « لا خير فيه ولا حجة في عربيته ولا أدبٌ يستفاد ولا معنى

(٣) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٤) ابن سلام ص ٤٠ .

(١) ابن سلام ص ٢٠٤ .

(٢) ابن سلام ص ٢٠٥ .

يستخرج ولا مثل يضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر معجب ولا نسب مستطرف^(١) .

ففي الشعر الجاهلي منتحل لا سبيل إلى قبوله ، وفيه موثوق به وهو على درجات منه ما أجمع عليه الرواة^(٢) ، ومنه ما رواه ثقات لا شك في ثقتهم وأمانتهم ، من مثل المفضل والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء . وقد يغلب المنتحل الموثوق به ، ولكن ذلك لا يخرج بنا إلى إبطال الشعر الجاهلي عامة ، وإنما يدفعنا إلى بحثه وتحصيله مهتدين بما يقدم لنا الرواة الأثبات من أضواء تكشف الطريق .

وقد لفتت هذه القضية ، قضية انتحال الشعر الجاهلي أنظار الباحثين المحدثين من المستشرقين والعرب ، وبدأ النظر فيها فولدته^(٣) سنة ١٨٦٤ وتلاه آلورد^(٤) حين نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنتر فتشكك في صحة الشعر الجاهلي عامة ، منتهيا إلى أن عددا قليلا من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته ، مع ملاحظة أن شكا لا يزال يلزم هذه القصائد الصحيحة في ترتيب أبياتها وألفاظ كل منها . وتابع كثير من المستشرقين آلوارد في موقفه الحذر من قبول كل ما يُروى للجاهليين ، أمثال موير وباسيه وبروكلمان . وكان مرجليوث أكبر من أثاروا هذه القضية في كتاباته إذ كتب فيها مقالا مفصلاً نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعدد يولية سنة ١٩٢٥ جعل عنوانه كما مر بنا (أصول الشعر العربي : The origins of Arabic Poetry) ونراه^(٥) يستهله بموقف القرآن الكريم من الشعر متحدثاً عن بدء ظهوره ونشأته وآراء القدماء في ذلك ، ثم ينتقل إلى الحديث عن حفظه ، وينبئ أن تكون الرواية الشفوية هي التي حفظته ، وقد بينا آنفاً بأدلة لا تُدْفَعُ كيف أن سلسلة روايته لم تنقطع حتى عصر التدوين ولكن مرجليوث يذهب هذا المذهب ، ليقول إنه لم تكن هناك وسيلة لحفظه سوى الكتابة ، ثم يعود فينبئ كتابته في الجاهلية ليؤكد أنه نُظِمَ في مرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم ! . ويقف بإزاء الرواة المتهمين أمثال حماد وجناد وخلف الأحمر وما كان يطعن به بعض الرواة في بعض ، ليزعم أن الوضع في هذا الشعر كان

(١) ابن سلام ص ٥ .

(٢) ابن سلام ص ٦ .

(٣) انظر في مناقشة المستشرقين لقضية

الانتحال، تاريخ الأدب العربي لبلشير

١٧٦/١ وما بعدها .

(٤) نخلص ناصر الدين الأسد هذه المقالة

في كتابه مصادر الشعر الجاهلي تلخيصاً دقيقاً

ص ٣٥٣ وما بعدها .

مستمراً . ويقول إنه لا يمثل الجاهليين الوثنيين ولا من تنصروا منهم ، فأصحابه مسلمون لا يعرفون التثليث المسيحي ولا الآلهة المتعددة ، إنما يعرفون التوحيد والقصاص القرآني وما في الإسلام من مثل الحساب ويوم القيامة وبعض صفات الله . وفي كتاب الأصنام لابن الكلبي من الشعر الجاهلي ما ينقض زعمه نقضاً ، أما الشعر المصبوغ بصبغة إسلامية بحجة فنسلم بأنه موضوع ، ووضعه ينحصر فيه ، ولا يبطل ما وراءه من أشعار جاهلية . وينتقل مرجليوث من ذلك إلى اللغة فيلاحظ أنها لغة ذات وحدة ظاهرة ، وهي نفس لغة القرآن الكريم التي أشاعها في العرب ، ويقول ولو أن هذا الشعر صحيح لمثل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية في الجنوب . وأسلفنا في غير هذا الموضع أن لغة القرآن الفصحى كانت سائدة في الجاهلية وأن الشعراء منذ فاتحة هذا العصر كانوا ينظمون بها وأنها كانت لهجة قريش ، وسادت بأسباب دينية واقتصادية وسياسية . فكان الشعراء ينظمون فيها متخلين عن لهجاتهم المحلية على نحو ما يصنع شعراء العرب في عصرنا على اختلاف لهجات بلدانهم وأقاليمهم . أما أن الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الحميرية فهذا طبيعي لأنها ليست لغته ، وقديماً قال أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا^(١) وقد أخذت الفصحى كما قدمنا تقتحم الأبواب على هذه اللغة في الجاهلية نفسها ، بحيث نستطيع أن نقول إن تعريب الجنوبيين بدأ منذ عهود مبكرة . وآخر أدلة مرجليوث على مزاعمه أن النقوش المكتشفة للممالك الجاهلية المتحضرة وخاصة اليمنية لا تدل على وجود أي نشاط شعري فيها ، فكيف أتيج لبدو غير متحضرين أن ينظموا هذا الشعر بينما لم ينظمه من تحضروا من أهل هذه الممالك . ودحض بروينلش هذا الدليل لأن نظم الشعر لا يرتبط بالحضارة ولا بالثقافة والظروف الاجتماعية ، وهناك فطريون أو بدائيون لهم شعر كثير مثل الإسكيمو^(٢) .

والحق أن مرجليوث جانبه الصواب في دعواه ، ولذلك هب كثير من المستشرقين يردون عليه ، مثل بروينلش ولايل ، واحتج عليه الأخير في مقدمته للمفضليات بأن من وضعوا هذا الشعر — على فرض التسليم بذلك — كانوا يحاكون نماذج سابقة

وتقاليد أدبية موروثه قلدها وحاكوها . ونفس هذه المحاكاة تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه ، إذ لا يمكن أن يحاكو شيئاً لم يبق منه ما يتيح لهم هذه المحاكاة ، وإذن فلا بد أن يكون هناك شعر جاهلي عرفه الإسلاميون وحاكوه ، وحقاً دخله انتحال أمثال حماد وخلف ، ولكن وراء انتحالهم شعر صحيح ، ينبغي أن نهتدي في معرفته بالرواية الوثيقة وصفاته الشخصية والأسلوبية المميزة . ونراه يعود إلى هذا الموضوع في مقدمته لديوان عبيد بن الأبرص ، فيؤكد أن رواية هذا الشعر استمرت حية نشطة من الجاهلية إلى أن دُون نهائياً في العصر العباسي ، وقد يكون أصاب قصائده بعض التغيير ولكن من يرجع إلى الملاحظات مثلاً يجد لكل منها شخصيتها الواضحة التي تنفرد بها والتي تثبت أنها لصاحبها ، وأعاد ما قاله في المقدمة الأولى من أن تقاليد شعر القرن الأول المعجزى تلزم بوجود الشعر الجاهلي الذي يشترك معها في نفس التقاليد ، وأيضاً فإن فيه من الألفاظ الغريبة ما لم يكن يستخدم في عصر هؤلاء الرواة ممن دونوه مما يدل دلالة قاطعة على أنه صحيح في جوهره .

ونضيف إلى ذلك أن في الشعر الجاهلي صوراً من الأساليب والتراكيب الملتوية التي تخرج على الصورة النحوية الطبيعية ، مما يدل على قدمها وأنها ليست من صنع العباسيين وأيضاً فإن فيه صورة تهتك خلق لا يمكن أن تقوم إلا في نفس وثني ، على نحو ما يلقانا في معلقة امرئ القيس وحديثه عن الموضع وبسطه لجوانب متعته بالمرأة . ولا يزال المستشرقون إلى اليوم يختلفون في قبول هذا الشعر بحذر والشك فيه شكاً معتدلاً أو متطرفاً ، ومن أدلى بدلوه منهم في هذا الموضوع بلاشير في الجزء الأول من كتابه : تاريخ الأدب العربي ، إذ تحدث طويلاً مبيناً بل مجسماً الشبهات ، وبينما يحاول الاعتدال أحياناً إذا به يهجم هجوماً عنيفاً^(١) . ومن ألوان هجومه قوله : « نحن نجد في النصوص المذكورة أن الشعراء أياً كان عصرهم أو قبائلهم يستعملون لغة موحدة منزهة بصورة عامة عن كل أثر لهجي ، خاضعة لقواعد تركيبية ، هي بصورة مجملة قواعد نحاة البصرة ، ولا شك في أن القصائد الجاهلية جُردت بتأثير الرواة الكبار عن كثير من الظواهر اللهجية ، كما أن التثبيت الكتابي بدوره أتم توحيد اللغة وحتى الأسلوب^(٢) » ويقول : « كل شيء يدعونا إلى الاعتقاد بأن كبار الرواة ومعهم علماء العراق قد أجروا في الشعر القديم إصلاحات ذات صبغة

جمالية^(١)» ثم يقول : « والمدهش هو تعدد الروايات واتساعها داخل كل بيت ، ولا ريب في أنها ناشئة عن ضعف الذاكرة في أثناء الرواية الشفوية وأن عدداً قليلاً منها ناشئ عن عدم اكتمال طريقة الكتابة أو عن استبدالات في المترادفات . وما من شيء يجيز لنا التأكيد بأن هذه الفروق الجزئية ليست قديمة ولا تصعد إلى ظهور الأثر نفسه^(٢) » وينتهي من ذلك إلى أن « دراسة النصوص الشعرية (يقصد الصحيحة) تقودنا إلى وضع مبدأ يقضى بعدم امتلاكنا أى أثر شفوي في شكله الأصل . . ونحن نعلم لكى تم المأساة أن المقلدات قد امتزجت بالأصول القديمة التى يختلف تحريفها قلة أو كثرة دون أن نتمكن في كثير من الأحيان من كشف هذه الانتحالات^(٣) » .

وواضح أن بلاشير يزعم أن الأصول الصحيحة للشعر الجاهلى اختلطت بالتماذج والقصائد الموضوعة اختلاطاً يتعذر معه أن تميز ، وهو زعم مبالغ فيه ، لأن هذه الأصول كما قدمنا وصلتنا عن رواة ثقات ، وأجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على توثيقها ، بحيث لا يرقى إليها الشك . وهو يزعم أيضاً أن الرواة ونحاة البصرة عدلوا في هذه الأصول بما يتمشى مع القواعد النحوية البصرية من جهة والقواعد الجمالية الأسلوبية من جهة ثانية ، ويتخذ دليلاً على ذلك خلو القصائد الجاهلية من ظواهر اللهجات القبلية ، وقدّمنا أن هذه الظواهر كانت فعلاً تكاد تكون منعدمة في الجاهلية نفسها لأن الشعراء في القبائل المختلفة اصططلحوا على أن ينظموا شعرهم بلهجة قريش ، واتخذوها لغة لشعرهم ، ومن أجل ذلك لم يسقط من لهجتهم في أشعارهم إلا أشياء قليلة جداً ، سجلها هؤلاء النحاة البصريون ، وإلا فقيم هذه الشواذ النحوية التى تمتلئ بها كتبهم . ولم يكن رواة البصرة ونحاتها وحدهم الذين يروون هذا الشعر ، بل كان يرويه معهم رؤاة الكوفة ونحاتها ، وكانوا مولعين بإثبات الشواذ واعتبارها أصولاً يقاس عليها . أما أن هؤلاء الرواة جميعاً أدخلوا في الشعر الجاهلى إصلاحات ذات صبغة جمالية ، تقوم على متانة اللفظ وجزالته ، فهى دعوى تستلزم ضرباً من الدور ، إذ كانوا يرجعون في هذه الإصلاحات إلى المقاييس الجمالية المثبوتة في هذا الشعر الجاهلى والتى تقوم على الرصانة والجزالة ،

(٣) بلاشير ص ١٩٢ .

(١) بلاشير ص ١٨٩ .

(٢) بلاشير ص ١٨٩ .

ثم يصلحونه على أساسها ، وبذلك يجعلهم بلاشير يدورون ، وهو دورٌ باطل ، تنفضه طبيعة الأشياء . والحق أن ثقافتهم نقلوا إلينا هذا الشعر بكل صفاته الجمالية وما داخله من عيوب تركيبية أو شواذ نحوية أو لغوية . على أننا نسلّم بمايقوله بلاشير من أن القصائد أصابها بعض التغيير في أثناء سفرها الطويل من الجاهلية إلى عصر التدوين ، فقد يستبدل الراوى بكلمة أخرى ترادفها ، وقد يغيب عن ذاكرته بعض الأبيات ، وقد يخالف في ترتيب أبيات القصيدة فيقدم فيها أو يؤخر . غير أن ذلك لا يخلّ بصحة ما حمّله ورواه العلماء الثقات الذين نَصَّوْا على المتنحل المصنوع على نحو ما يصور لنا ذلك كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام .

وإذا تركنا المستشرقين إلى العرب المحدثين والمعاصرين وجدنا مصطفى صادق الرافعي يعرض هذه القضية قضية الانتحال في الشعر الجاهلي عرضاً مفصلاً في كتابه « تاريخ آداب العرب » الذي نشره في سنة ١٩١١ ولكنه لا يتجاوز في عرضه - غالباً - سرّده ما لاحظته القدماء^(١) ، ونحن نحمد له استقصاءه لملاحظاتهم كما نحمد له ما وقف عنده من شعر الشواهد للمذاهب النحوية والكلامية ، فقد لاحظ ما دخل هذا الشعر من بعض الوضع ، وهو وضع سجله القدماء أنفسهم ولم يفهم التنبيه عليه .

وخلف مصطفى الرافعي طه حسين فدرس القضية دراسة مستفيضة في كتابه « الشعر الجاهلي » الذي أحدث به رجة عنيفة أثارت كثيرين من المحافظين والباحثين فتصدوا للرد عليه . ولم يلبث أن ألف مصنفه « في الأدب الجاهلي » الذي نشره في سنة ١٩٢٧ وفيه بسط القول في القضية بسطاً أكثر سعة وتفصيلاً ، إذ زودها ببراهين جديدة ، وقد خصص لها في مصنفه أربعة كتب ، هي الكتاب الثاني والثالث والرابع والخامس ، ونراه يعنى في الكتاب الثاني ببيان الأسباب التي تحمل على الشك في الشعر الجاهلي ، ويقدم بين يديها نتيجة بحثه فيقول : « إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء ، وإنما هي منتحلة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أشك في أن ما بقى من الأدب الجاهلي الصحيح

(١) انظر الطبعة الثانية من هذا الكتاب

ص ٢٧٧ وما بعدها .

قليل جداً ، لا يمثل شيئاً ولا يدل على شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي (١) .

وواضح أنه ينبغي في الشعر الجاهلي على بقية صحيحة ، وإن كانت في رأيه قليلة ، ولا تعطينا الصورة الأدبية الوثيقة لهذا الشعر . وقد مضى يبسط الأسباب التي تدفع الباحث إلى الشك فيه واتهامه ، وردّها إلى أنه لا يصور حياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية ، كما أنه لا يصور لغتهم وما كان فيها من اختلاف اللهجات ، وتباينها بلهجاتها من اللغة الحميرية . أما من حيث حياتهم فيقول إنه عرضها على القرآن الكريم ، فوجده يمثلها من جميع جوانبها المذكورة تمثيلاً قوياً ، فهو يجادل اليهود والنصارى والصابئة والمجوس ويهاجمهم كما يهاجم الوثنيين والوثنية ، ويُطْلَعُنَا في تضاعيف ذلك على جملة معتقداتهم ، بينما نجد الشعر — كما يقول — بريئاً أو كالبريء من الشعور الديني القوي والعاطفة المتسلطة على النفس . وقياس الشعر الجاهلي في هذا الجانب على القرآن الكريم مردود أو منقوض ، لأن القرآن كتاب ديني يريد أن يجمع العرب على الإسلام ، فطبيعي أن يعرض لدياناتهم ويناقشها ، ويبين ما فيها من ضلال ، بخلاف الشعر ، فإن شاعراً لم يدعُ لدين جديد ، ومع ذلك فإن في كتاب الأصنام لابن الكلبي ذخيرة كبيرة من الشعر تصور حياتهم الوثنية تصويراً دقيقاً .

ويتنقل إلى حياتهم العقلية فيلاحظ أنها غير واضحة في الشعر المنسوب إليهم ، وكأنه يطلب إليهم حياة عقلية راقية أو معقدة ، وكانوا في جمهورهم بدوً لم يتحولوا إلى طور فكري منظم ، وقد عرضنا في غير هذا الموضع لذلك الطور وما يمثله من أشعارهم . ومعنى ذلك أن حياتهم العقلية الفطرية ماثلة في شعرهم . ويخرج من ذلك إلى أن حياتهم السياسية لا تتضح في أشعارهم ، مع أنهم كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم ، مما يوضحه القرآن الكريم في سورة الروم ، إذ يعرض علينا العرب شيعتين : شيعة تنتصر للروم وشيعة تنتصر للفرس . وهذا في الواقع لا يصدق على العرب جميعاً ، إنما يصدق على قريش وقوافلها التجارية التي كانت تنزل في بلاد الدولتين . ومع ذلك فقد كان شعراء نجد والحجاز يتصلون بالغساسنة من أرباع

الروم والمناذرة من أتباع الفرس ويمدحونهم ويهجونهم . ولما نشبت الحروب بين قبيلة بكر والفرس قبيل الإسلام هدّهم شعراء هذه القبيلة وتوعدوهم طويلاً على نحو ما هو معروف عن الأعشى مثلاً .

ويتحدث عن حياتهم الاقتصادية وأننا لا نظفر بشيء ذى غناء في شعرهم يمثل لنا هذه الحياة ، بينما يمثل لنا الذكر الحكيم العرب طائفتين : طائفة الأغنياء المستأثرين بالثروة وطائفة الفقراء المعدمين ، وليس في الشعر ما يصور ذلك كما يقول ، إنما فيه أن العرب جميعاً أجواد كرام ، على حين يُلح القرآن الكريم في ذم البخل والبخلاء . وهذا القياس أيضاً لا يستقيم ، لسبب بسيط ، وهو أن شعر الصعاليك طافح بما يصور النضال بين الأغنياء والفقراء^(١) ، وأيضاً فإن شعراءهم إذا كانوا قد أكثروا في مدحهم وفخرهم من ذكر الكرم فإنهم أكثروا في هجائهم من ذكر البخل وشح النفس . ولا بد أن نلاحظ أن كثيراً من القرآن نزل في قریش التجارة التي بلغ كثير منها مبلغاً عظيماً في الثراء والتي كان يشع فيها الربأ أضعافاً مضاعفة .

ووقف طه حسين طويلاً إزاء لغة الشعر الجاهلي ولاحظ أنه لا يصور اللغتين الشائعتين في الجزيرة : لغة الحميريين الجنوبية ولغة العدنانيين الشمالية ، بل هو يضيف إلى الجنوبيين أشعاراً بلغة الشماليين . وحقاً أن ما يضاف إلى من كانوا في أقصى الجنوب ودخل اليمن منتحل ، أما من كانوا منهم يجاورون الشماليين فقد تعربوا في الجاهلية مثل مذحج وبلحارث بن كعب . على أنه يطرد القياس فيتشكك في شعراء القبائل اليمنية التي هاجرت من موطنها الأصلية في الجنوب إلى الشمال مثل كندة وشاعرها امرئ القيس . وما لا شك فيه أن هذه القبائل هاجرت إلى الشمال قبل العصر الجاهلي وتعربت ، فهي ليست يمنية ولا جنوبية من الوجهة اللغوية ، وإنما هي شمالية . وقد وقف عند لهجات الشماليين في الجاهلية ، تلك التي تمثلها قراءات القرآن الكريم ، ولاحظ أن الشعر الجاهلي لا يمثلها ، واتخذ من ذلك مطعناً في صحته ، ومر بنا في غير هذا الموضع أن لهجة قریش عمت في الجزيرة منذ أوائل القرن السادس الميلادي واتخذها الشعراء لغة أدبية لهم ، ينظمون

وما بعدها و ص ٢٢٧ وما بعدها .

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي
ليوسف خليل (طبع دارالمعارف) ص ١٣٢

فيها أشعارهم مرتفعين غالباً عن لهجات قبائلهم المحلية ، فلا محل للتساؤل عن هذه اللهجات في شعر الجاهليين ، ولا موضع لاتخاذ ذلك دليلاً على أنه منتحل موضوع . ونراه يتشكك في شعر الشواهد التعليمية على ألفاظ القرآن والحديث والمذاهب الكلامية ، غير أن هذه الشواهد أبيات فردية ، وأتاهما ينبغي أن ينحصر فيها وأن لا يتعداها إلى الشعر الجاهلي عامة .

ويخرج طه حسين في مصنفه من هذا الكتاب الثاني إلى الكتاب الثالث ، فيتحدث عن أسباب نحل الشعر ويبسطها بسطاً معتمداً على ملاحظات القدماء ، ونراه يردّها إلى السياسة والدين والقصص والشعرية والرواة ، أما السياسة وأراد بها العصبية القبلية فرأها تلعب دوراً واضحاً في شعر قريش والأنصار ، إذ أضافت قريش إلى نفسها أشعاراً كثيرة ، وقد استكثرت بنوع خاص من الشعر الذي يهيج به الأنصار . وواضح أن هذا لم يكن غائباً عن ابن سلام ، فقد نص عليه وحذّر منه كما أسلفنا ، كما حذر من أشعار وضعها قريش على لسان حسان . على أن الأشعار جميعها التي وقف طه حسين عندها ليست جاهلية ، وإنما هي إسلامية . وينتقل إلى الدين فيبين دوره في هذا النحل متشككاً في الأشعار التي يقال إنها نُظمت في الجاهلية لإرهاصاً ببعثة الرسول ، مما رواه ابن إسحق واحتفظ به ابن هشام في سيرته ، ومثله ما يضاف إلى الجحى والأُمم القديمة البائدة . ومرّ بنا رَفُضُ ابن سلام لهذه الأشعار وما يماثلها . وتشكك فيما أضيف إلى شعراء اليهود والنصارى من أشعار ، وكذلك ما أضيف إلى عدى بن زيد العبادي ، ولم يكن القدماء في غفلة عن ذلك ^(١) . ونراه يتحدث عن القصص والقصص وأثرهم في وضع الشعر ، ومرّ بنا تنبيه ابن سلام على ذلك عند ابن إسحق وأضرابه . ويعرض للشعرية وما يمكن أن تكون قد نحلّت الجاهليين من أشعار ، لتثبت على لسانهم مثالهم التي تدعيها ، كما تثبت ثنائهم على الأعاجم . وقد تشكك في هذا الشعر الكثير الذي يضيفه الجاحظ إلى الجاهليين في مصنفه الحيوان ، ليدل على اتساع معرفتهم في هذا العلم : علم الحيوان ، عصبية لهم ، والحق أن هذا لم يكن من أهداف الجاحظ ، فهو نفسه ينفي عنهم العلم الدقيق بالحيوان ، إذ يقول إن معارفهم فيه معارف أولية ، وإنه إنما دار في أشعارهم لأنه كان مبثوثاً تحت أعينهم وأبصارهم

(١) انظر ابن سلام ص ١١٧ .

في ديارهم^(١) . ويختتم هذا الكتاب بالوقوف عند الوضعين من الرواة أمثال حماد وخلف ، ومرّب بنا كيف أن القدماء كانوا لهم بالمرصاد . ومعنى ذلك كله أنه في هذا الكتاب إنما يردّ ما نص عليه العلماء السابقون من قضايا ، يريد أن يتسع بها لنقص الشعر الجاهلي جميعه ، وهي إنما تنقص جوانب منه ، وينبغي أن نقف عندها ، وأن لا نذهب مذهب التعميم ، فإن القدماء إنما ذكروا هذا كله ليدلوا على ما أحاطوا به رواية الشعر الجاهلي من سياج قوى ، حتى نميز الصحيح من الزائف والوثيق من المنحول .

ويعمضى طه حسين في مصنفه إلى الكتاب الرابع ، وهو دراسة تطبيقية لبيان الانتحال في شعر طائفة من شعراء اليمن وربيعه ويبدأ في دراسته بامرئ القيس ويشكك في شعره ، لأنه يمتن شعره قرشي اللغة ، ثم هو شعر مضطرب ركيك . ومرّب بنا أنه كان يمتن الجنس ، ولكنه كان قرشي اللغة ، أما أن شعره ركيك والوضع فيه كثير فقد كان يغنيه عن هذا الظن ما يروى عن الأصمعي من أنه قال : « كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نشفاً سمعناها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء »^(٢) . ونراه ينتقل إلى علقمة الفحل فيشك في شعره ، وقد كان ابن سلام لا يثبت له سوى ثلاث قصائد^(٣) . وشك في شعر عبيد بن الأبرص ، وأسلفنا أن ابن سلام لم يكن يعرف له سوى معلقته (أقفر من أهله مَلْجُوب) وكان يقول إن شعره مضطرب ذاهب . ومضى طه حسين على هذا النحو يشك في شعر عمرو ابن قميئة ومهلل وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وطرفة والمتلمس والأعشى معتمداً على الأحكام الذاتية ، ولو أنه استقصى آراء الرواة الثقات لأعانه ذلك كثيراً في تحقيق أشعارهم جميعاً .

وننتقل مع طه حسين في مصنفه إلى الكتاب الخامس ، وهو خاص بشعراء مضر ، فزاه لا يستبعد أن يكون هناك شعراء مضرّيون وشعر مضرى ، غير أنه لا يلبث أن يستدرك قائلاً : « لكننا لا نشك أيضاً في أن هذا الشعر قد ذهب وضاعت كثرته ، ولم يبق لنا منه إلا شيء قليل جداً لا يكاد يمثل شيئاً ، وهذا المقدار القليل الذى بقى لنا من شعر مضر قد اضطرب وكثر فيه الخلط والتكلف

(٣) ابن سلام ١١٦

(١) الحيوان ٢٩/٦ وما بعدها .

(٢) مراتب النحويين ص ٧٢ .

والنحل، حتى أصبح من العسير جداً إن لم يكن من المستحيل تخليصه وتصفيته^(١). ويضيف إلى ذلك أن من الخطأ أن نكتفي في الحكم على الشعر المضرى بالسند ومن يحمله من الرواة، أو بالغرابية والسهولة، ذاهباً إلى أن الباحث في هذا الشعر ينبغي أن يحكم فيه مقياساً مركباً من خصائص فنية يشترك فيها طائفة من الشعراء بحيث يكونون مدرسة كمدرسة أوس بن حجر التي تألف منه ومن زهير وابنه كعب والخطيئة، فإن لهذه المدرسة من الخصائص الفنية المشتركة ما يؤكد صحة شعرها وسلامته من الوضع والانتحال. وكأنه بذلك يهدم شكوكه الواسعة في الشعر الجاهلي، فقد رجع أخيراً يسلم بصحة بعض جوانبه ودواوينه. على أننا لا نسلم له بطرد هذا المقياس في تلك المدرسة نفسها، فقد لاحظ القدماء أن شعر أوس بن حجر اختلط بشعر ابنه شريح^(٢)، واختلف الرواة في بعض ما نسب إليه من شعر هل هو له أو لعبيد ابن الأبرص الأسدي^(٣)، وسنرى في درسنا لزهير أن من الخطأ أن نقبل رواية الكوفيين لديوانه، فقد حتمت زيادات كثيرة، شك القدماء في أطرافها، ونفس الرواية البصرية سرفض قطعاً وأشعاراً منها، على الرغم من أنها جاءتنا عن الأصمعي بل سنرى الأصمعي نفسه يشك في ثلاث قصائد مثبتة في روايته. والحق أن الشعر الجاهلي فيه موضوع كثير، غير أن ذلك لم يكن غائباً عن القدماء، فقد عرضوه على نقد شديد، تناولوا به رواته من جهة وصيغته وألفاظه من جهة ثانية، أو بعبارة أخرى عرضوه على نقد داخلي وخارجي دقيق. ومعنى ذلك أنهم أحاطوه بسياسج محكم من التحري والتثبت، فكان ينبغي أن لا يبالغ المحدثون من أمثال مرجليوث وطه حسين في الشك فيه مبالغة تنتهي إلى رفضه، إنما يشك حقاً فيما يشك فيه القدماء ورفضه، أما ما وثقوه ورواه أثباتهم من مثل أبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والأصمعي وأبي زيد فحري أن نقبله ما داموا قد أجمعوا على صحته. ومع ذلك ينبغي أن نخضعه للامتحان وأن نرفض بعض ما رويوه على أسس علمية منهجية لا لمجرد الظن، كأن يروى لشاعر شعر لا يتصل بظروفه التاريخية، أو تجرى فيه أسماء مواضع بعيدة عن موطن قبيلته، أو يضاف إليه شعر إسلامي النزعة، ونحو ذلك مما يجعلنا نلمس الوضع لمسا.

(٣) ابن سلام ص ٧٦ - ٧٧.

(١) في الأدب الجاهلي ص ٢٧٠.

(٢) الحيوان ٢٧٩/٦.

أهم مصادر الشعر الجاهلي

رأينا علماء البصرة والكوفة وروائهما يجمعون مادة الشعر الجاهلي ، وقد توزعتها منتخبات عامة ودواوين مفردة للشعراء وأخرى للقبائل غير كتب الطبقات والتراجم وكتب التاريخ واللغة . وسنحاول وصف طائفة منها وبيان مقدار الثقة بها . ونبدأ من المنتخبات العامة بالمعلقات ، وقد مر بنا أنها لم تعلق بالكعبة كما زعم بعض المتأخرين ، وإنما سميت بذلك لنفاستها أخذاً من كلمة العلق بمعنى النفيس ، ويقال إن أول من رواها مجموعة في ديوان خاص بها حماد الراوية^(١) ، وهي عنده سبع : لامرئ القيس وزهير وطرفة وليد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة . ونراها عند صاحب الجمهرة سبعاً أيضاً ، غير أنه أسقط اثنين من رواية حماد هما الحارث ابن حلزة وعنترة وأثبت مكانهما الأعشى والنابعة ، وربما أضاف حماد الحارث في مقابلة عمرو بن كلثوم التغلبي لأن ولاءه كان في بكر . على أننا لا نمضي في عصر التبريزي حتى نجده يجعلها في شرحه لها عشرًا جامعًا بين الروایتين ومضيفاً قصيدة عبيد بن الأبرص : (أفقر من أهله ملحوب) .

وقد عني الشراح بهذه المجموعة ، فشرحوها مراراً ، وطُبع من شروحهم شرح الزوزني المتوفى سنة ٥٤٨٦ هـ . وقد كتبه على رواية حماد ، ثم شرح التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ . وأكبر الظن أن حماداً لم يأخذ حرите كاملة في قصائد مجموعته ، فقد كانت على ما يظهر معروفة بين العرب ، على أنه ينبغي مقابلتها على دواوين أصحابها ورواياتها الوثيقة .

والجموعة الثانية في المنتخبات هي المفضليات ، نسبة إلى جامعها المفضل الضبي راوى الكوفة الثقة ، وقد نشرها ليال بشرح ابن الأثير ، وهي مائة وست وعشرون قصيدة أضيف إليها أربع قصائد وُجدت في بعض النسخ ، وفي مقدمة الشرح

(١) انظر ترجمة حماد في معجم الأدباء

سند كامل لها يرفعه ابن الأنباري إلى ابن الأعرابي تلميذ المفضل ورّيبه ، ويقول ابن النديم « هي مائة وثمانية وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر ، بحسب الرواية عن المفضل ، والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي ^(١) » ومعنى ذلك أن في أيدينا أوثق نسخة للمفضليات . وتعلّق عبد السلام هرون وأحمد شاكر ناشراها في دار المعارف بنص عن الأخفش يزعم أنها كانت ثمانين ألفاها المفضل على المهدي ، وزاد فيها الأصمعي أربعين ، ثم زاد البقية بعض تلاميذه ^(٢) ، وربما جاء الأخفش اللبس ^(٣) من أن الأصمعيات تلتقى معها في تسع عشرة قصيدة ، وأيضاً فقد وجد الرواة يقولون إن أبا جعفر المنصور حين عهد إلى المفضل بثقيف ابنه المهدي بالشعر القديم اختار له ثمانين قصيدة ، فلما وجدها قد زادت عن الثمانين ووجدها تلتقى مع الأصمعيات في بعض القصائد ظن أن الأصمعي وتلاميذه هم الذين أضافوا فيها هذه الزيادات ، ولو أنه اطلع على رواية ابن الأعرابي خصم الأصمعي لزيله هذا الوهم ، وكان المفضل اختار أولاً ثمانين ألفاها على المهدي ، ثم زادها إلى مائة وثمان وعشرين كما جاءت في رواية تلميذه ابن الأعرابي .

وهي موزعة على سبعة وستين شاعراً منهم سبعة وأربعون جاهلياً وعلى رأسهم المرقشان الأكبر والأصغر والحارث بن حلزة وعلقمة بن عبدة والشنفرى وبشر بن أبي خازم وتابط شراً وعوف بن عطية وأبو قيس بن الأسلت الأنصاري والمسيّب وبينهم امرأة من بني حنيفة ومجهول من اليهود ومسيحيان هما عبد المسيح بن عسلة الشيباني وتتضح مسيحته في اسمه ، ثم جابر بن حنّى التغلبي ، ونراه يقول في مفضليته :

وقد زعمتُ بهراً أن رماحنا رماحُ نصارى لا تخوض إلى الدّمِ

ولو لم يصلنا من الشعر الجاهلي سوى هذه المجموعة الموثقة لأمكن وصف تقاليدهِ وصفاً دقيقاً ، فقد مثّلت جوانب الحياة الجاهلية ودارت مع الأيام والأحداث

البصري يريد أن يقول إن المفضليات من

صنع البصريين والكوفيين جميعاً لما كان لها من

شهرة في عصره فاقت شهرة الأصمعيات .

(١) الفهرست ص ١٠٢ .

(٢) ذيل الأمال ص ١٣١ .

(٣) ذهبنا إلى أنه لبس ، وربما كان بعامل

التنافس بين البصريين والكوفيين ، فالأخفش

وعلاقات القبائل بعضها ببعض وبملوك الحيرة والغساسنة ، وانطبعت في كثير منها البيئة الجغرافية . وقد جاء فيها غير قليل من الكلمات المندثرة التي لم ترد في المعاجم اللغوية^(١) على كثرة ما أثبتت من الألفاظ المهجورة ، مما يرفع الثقة بها ويؤكددها . والمجموعة الثالثة من كتب المنتخبات العامة الأصمعيات نسبة إلى الأصمعي راويها ، وقد نشرها آلورد (Ahlwardt) عن نسخة سقيمة في برلين سنة ١٩٠٢ وأعاد نشرها عبد السلام هرون وأحمد شاكر عن نسخة للشنقيطي نقلها عن أصل قديم وهي نشرة علمية جيدة ، وقد بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين ، وهي موزعة على ٧١ شاعراً منهم نحو ٤٠ جاهلياً على رأسهم امرؤ القيس والحرث ابن عباد وحريد بن الصمة وأبو دؤاد الإيادي وذو الإصبع العذواني وسلامة بن جندل وطرفة وعروة بن الورد وقيس بن الخطيم ، وبينهم يهوديان هما شعبة بن الغريضة والسموأل . وهذه المجموعة كسابقتها في الثقة بها وعلو درجتها ، وقد جاء فيها أيضاً كثير من الكلمات المهجورة التي لم تثبت المعاجم^(٢) ، غير أنها لم تلعب الدور الذي لعبته المفضليات فلم يتعلق بها الشراح ، ولعل ذلك يرجع إلى قلة غريبها بالقياس إلى المفضليات ، وأيضاً فإن الأصمعي لم يرو كثيراً من القصائد كاملة ، بل اكتفى بمختارات منها .

والمجموعة الرابعة جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، ولا نجد اسمه بين الرواة المشهورين ، غير أنه يتضح من مقدمته لكتابه وما نقله عن الرواة أن بينه وبين رواة القرن الثاني جيلين أو ثلاثة ، فالوسائط بينه وبينهم في السند غير بعيدة ، ولذلك نظن أنه كان يعيش في أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع ، وقد ذكره ابن رشيح المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة في كتابه العمدة^(٣) كما ذكره السيوطي في المزهري^(٤) والبغدادى في الخزانة^(٥) . والجمهرة تضم تسعاً وأربعين قصيدة طويلة موزعة على سبعة أقسام ، في كل قسم سبع قصائد ، والقسم الأول خاص بالملقات ، وقد أخذ فيها برواية أنها سبع ، وأسقط منها معلقى الحرث وعنترة ووضع مكانهما معلقى الأعشى والنابغة ، وبلى هذا القسم المجمرات وهي

-
- (١) انظر الفهرس الثالث الملحق بالمفضليات (٣) العمدة ٦٠/١ .
 (٤) المزهري ٤٨٠/٢ .
 (٥) الخزانة ١٠/١ ، ٦١ ، ٥٥/٢ .
 (٢) انظر الفهرس الثالث الملحق بالأصمعيات .
 (٣) انظر الفهرس الثالث الملحق بالمفضليات (٣) العمدة ٦٠/١ .

لعبيد بن الأبرص وعدى بن زيد وبشر بن أبي خازم وأمّية بن أبي الصلت وخيداش ابن زهير والنمر بن تولب وعنترة وألحقت قصيدته في النسخة المطبوعة بالمعلقات خطأ. ويلي ذلك المنتقيات أى المختارات ، ثم المذهبات وجميعها لشعراء من الأنصار جاهليين أو مخضرمين ، وربما قصد باسمها أنها تستحق أن تكتب بالذهب ، ثم عيون المراثى ، ثم المشوبات ، وهى لمخضرمين ، شابههم الكفر والإسلام ، ثم الملحقات وجميعها لإسلاميين . وهى مجموعة غنية بالقصائد الطويلة ولكنها غير موثقة الرواية ، فلا بد فى الاعتماد عليها من مقابلتها على روايات صحيحة . وطُبعت الجمهرة مراراً فى بيروت والقاهرة .

ومثل هذه المجموعة فى ضعف سندها مختارات ابن الشجرى المتوفى سنة ٥٤٢ للهجرة ، وهى مختارات من شعر جاهلى وإسلامى ، موزعة على ثلاثة أقسام وأهم من فى القسم الأول الشنفرى وطرفة ولقيط الإيادى والمتلمس ، أما القسم الثانى فمختارات من دواوين زهير وبشر بن أبي خازم وعبيد بن الأبرص ، وأما القسم الثالث فمختارات من ديوان الخطيئة . وطُبعت هذه المجموعة بالقاهرة .

وتدخل فى هذه المختارات دواوين الحماسة ، وقيمتها أدبية أكثر منها تاريخية ، إذ لا يعرفنا أصحابها بمصادرهم وأشهرها ديوان الحماسة لأبى تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣١ للهجرة وقد شُرح مراراً ، ومن شروحه المطبوعة شرح المرزوق وشرح التبريزى وهو يفيض بالإشارات التاريخية . ونصّ المرزوق على أن أبا تمام أصلح فى الشعر الذى رواه ، يقول : « إنك تراه ينتهى إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه ، فيسجبر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها فى فقهه ، وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم ، فقابل ما فى اختياره بها ^(١) » . وحماسته موزعة على عشرة أبواب أكبرها باب الحماسة وبه سماها ، وهى مقطوعات لجاهليين وإسلاميين وعباسيين ، وقلما روى فيها قصائد كاملة . وتلى هذه الحماسة فى الأهمية حماسة الحترى المتوفى سنة ٢٨٤ هـ وهى مقطوعات قصيرة موزعة على مائة وأربعة وسبعين باباً ، وأكثر أبوابها فى نزعات خلقية ، ولم يُعْنِ القدماء بشرحها . ولابن الشجرى صاحب

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوق (طبع)

لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٤/١ .

المختارات حماسة طُبعت في حيدر آباد ، وأغلب منتخباتها من الشعر الجاهلي . وطُبعت أخيراً حماسة الخالدين أو الأشباه والنظائر للأخوين سعيد الخالدي المتوفى سنة ٣٥٠ ومحمد المتوفى سنة ٣٨٠ ولا تزال الحماسة البصرية لعلى بن أبي الفرج البصري المتوفى في القرن السابع غير مطبوعة ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطتان منها . وإذا تركنا هذه المختارات إلى الدواوين المفردة لقينا منها دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرئ القيس والنابعة وزهير وطرفة وعنزة وعلقمة وقد نشرها ألوارد ، إلا أنه لم يكتف برواية الأصمعي التي احتفظ بها شرح الشنتمري ، بل أضاف إليها زيادات هي في الأكثر منحولات ، ولا تزال في حاجة إلى نشر شرح الشنتمري المتوفى سنة ٤٧٦ وقد استخرج منه مصطفى السقا شرحه على تلك الدواوين والتزم روايته في المجموعة التي سماها باسم مختار الشعر الجاهلي . * وطُبع ديوان امرئ القيس طبعات مختلفة لعل أهمها الطبعة الأخيرة بدار المعارف ، وقد جَمَعَ فيها أبو الفضل إبراهيم رواياته جميعها وقارن بينها مقارنات دقيقة * ونشرت دار الكتب المصرية ديوان زهير بشرح ثعلب ، غير أن من حققوه لم يقابلوا بين هذه الرواية الكوفية ورواية الأصمعي البصرية التي يحتفظ بها الشنتمري في شرحه . * وطُبعَت دواوين أخرى مثل ديوان النابغة وطرفة وليبد وعروة بن الورد وحاتم وعلقمة والشنفري وأوس بن حجر ، إلا أن أكثر هذه الدواوين لا يزال في حاجة إلى نشرة علمية جيدة . وقد نشر * لايل ديواني عبيد بن الأبرص وعامر بن الطفيل ، وهناك دواوين مخطوطة لما تنشر .

أما دواوين القبائل التي جمع منها الشيباني نيفاً وثمانين ، وعُنى السكري بكثير منها ، ففقدت في الطريق ^(١) ، ولم يبق منها إلا قطع من ديوان هذيل نشرت في خمس مجموعات ، أربع منها في أوروبا وهي من صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ، طُبعت أولاها في لندن سنة ١٨٥٤ بتحقيق كوزجارتن وطُبعت الثانية في برلين سنة ١٨٨٧ بتحقيق قلهاوزن ، وطُبعت الثالثة وهي خاصة بديوان أبي ذؤيب في هانوفر سنة ١٩٢٦ بتحقيق يوسف هل ، وفي سنة ١٩٣٣ نُشر القطعة

(١) انظر في تحقيق هذه الدواوين مصادر الشعر الجاهلي ص ٥٤٣ وما بعدها .

الرابعة في ليبزج ، وهى تتداخل مع القطعة الخامسة التى نشرتها دار الكتب المصرية ، ويظهر أن هذه القطعة الأخيرة اختلطت فيها نسخة السكرى بنسخة أخرى مختصرة ولذلك كان يقل فيها الشرح وإسناد الرواية . ويعنى عبد الستار فراج — بمراجعة محمود شاكر — بتحقيق أشعار الهذليين من صنعة السكرى وقد نشرت منه مكتبة دار العروبة جزءين ~~بالحق~~ الحق أن القطع التى وصلتنا من شرح السكرى غاية فى النفاسة لأنه يضمها أخباراً وشروحاً فحسب ، بل أيضاً لأنه يقفنا وقوفاً دقيقاً على مصادره ، إذ يذكر دائماً الإسناد فى القصيدة وألفاظها وأبياتها مثبتاً ما اختلف فيه الرواة البصريون وعلى رأسهم الأصمعى والكوفيون وعلى رأسهم ابن الأعرابي وأبو عمرو الشيباني ومن جاء بعدهم من البغداديين مثل عبد الله بن إبراهيم الجهمي ، ومن بين من ينقل عنهم أبو عبيدة . ومنه نعرف أن الأصمعى كان ينقل عن مصدر من نفس القبيلة هو عمارة بن أبي طرفة الهذلي . وبذلك كانت هذه القطع التى رواها السكرى من ديوان هذيل لا تقل ثقة ولا قيمة تاريخية عن المفضليات والأصمعيات .

ومن الكتب الجيدة التى تشتمل على شعر جاهلى كثير شرح النقائض لأبي عبيدة ، فقد أنشد فيه كثيراً من الشعر الذى قيل فى أيام العرب ، وحذا حذوه من كتبوا فى أيام العرب مثل ابن الأثير فى كامله وابن عبد ربه فى عقده . ومن الكتب الجيدة أيضاً طبقات الشعراء لابن سلام ، ومربنا أنه أودع فيه دراسة دقيقة للشعر الجاهلى صحيحه ومصنوعه . أما كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة فربما كان خير ما فيه مقدمته التى يحاول أن يربط فيها شعراء عصره بالمثل الجاهلية القديمة ، أما بعد ذلك فالكتاب فقير فى تراجمه وما يطوى فيها من أخبار وأشعار غير مسندة إلى رواتها . وهناك كتب أدب ألقت فى البصرة مثل البيان والتبيين والحيوان للجاحظ والكامل للمبرد ، ومن الخير أن نرد ما بها من شعر إلى روايات بصرية صحيحة ، حتى نكون أكثر طمأنينة ، ويجرى مجراها ما فى أمالى الزبدي ومجالس ثعلب من أشعار. وينبغى أن نتلقى كتب الأدب البغدادية مثل عيون الأخبار لابن قتيبة بمجرد ، ومثلها أمالى أبي على القالى ففيتها انتحال كثير . ومن المختصرات التى تفيد فى المراجعة كتاب المؤتلف والمختلف للأمدى ومعجم الشعراء للمرزبانى وكتابه الموشح نفيس فى التعرف على كثير مما

وُضع على الشعراء الجاهليين . وهناك أشعار جاهلية كثيرة في كتب النقد مثل نقد الشعر
 لقدماء والصناعتين لأبي هلال العسكري والوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني
 والعمدة لابن رشيقي ، ومثلها مثل الشواهد المبثوثة في كتب اللغة والنحو ينبغي التوثيق
 منها بالرجوع إلى المصادر الأصلية الوثيقة . أما ما جاء في كتب السير والأخبار
 والتاريخ كسيرة ابن هشام وتاريخ الطبري ومغازي الواقدي فينبغي أن نرفضه إلا أن
 تدعمه روايات صحيحة .

ولإذا كنا فقدنا كثيراً من الدواوين المفردة ودواوين القبائل وما كان بها من
 أخبار وأشعار فإن كثيراً من ذلك احتفظ به أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني
 الذي ترجم فيه للشعراء من القرن السادس إلى القرن التاسع للميلاد ترجمات غنية ،
 سجل فيها كثيراً من المادة التي فُقدت ، وكان له ذوق عالم ناقد بصير ، فساق من
 الكتب التي سبقته أطرف ما فيها من أخبار وأشعار ، ولم يسقها مفردة ، بل ساقها
 بأسانيدھا التي ترجع بها إلى مصادرھا ورواھا الأوائل مثل الأصمعي وأبي عبيدة
 وابن الأعرابي وأبي عمرو والشيباني والهيثم بن عدي وخالد بن كلثوم وابن الكلبي
 وأضرابهم ، ومن خلفهم من جلة الرواة والمصنفين ، وإذا تعددت الروايات في
 الخبر ذكرها جميعاً ، وكثيراً ما يقف ليفحص ما ينقله ، فيرفض رواية لأن راويها
 ابن الكلبي أو ابن خرداذبة أو غيرهما من المتهمين . وقد يشك في مقطوعة أو قصيدة
 تنسب لشاعر من الشعراء ، فيرجع إلى ديوانه في رواياته المختلفة ، وينص على أنه
 وجدھا أو لم يجدھا . وقد يعرض الخبر على التاريخ ليتوثق منه . وفي تضاعيف ذلك
 يسوق آراء الرواة والنقاد في الشعراء وشعرهم . والحق أنه أكبر مصدر لتاريخ الشعر
 الجاهلي وأصحابه ، فإذا أضفنا له الأصمعيات والمفضليات وديوان هذيل وما صح
 من الدواوين المفردة كنا أمام مادة خصبة للبحث والدراسة في الجاهليين وأشعارهم
 وأخبارهم .

ومن الكتب المتأخرة التي احتفظت ببعض ما فُقد من الروايات والمصنفات
 القديمة خزانة الأدب للبغدادی المتوفى سنة ١٠٩٣ للهجرة ، وهو شرح على شواهد
 الرضي شارح كتاب الكافية لابن الحاجب ، وفيه تراجم دقيقة لبعض الجاهليين
 وملاحظات على بعض أشعارهم من حيث الانتحال والصحة . ومثله في هذا الاتجاه
 شرح السيوطي على شواهد المغني لابن هشام .

الفصل السادس

خصائص الشعر الجاهلي

١

نشأة الشعر الجاهلي وتفاوته في القبائل

لا ريب في أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوى في صورته الجاهلية غامضة ، فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى ، إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة في الوزن والقافية وفي المعاني والموضوعات وفي الأساليب والصياغات المحكمة ، وهي تقاليد تلقى ستاراً صفيقاً بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى فلا نكاد نعرف من ذلك شيئاً . وحاول ابن سلام أن يرفع جانباً من هذا الستار فعقد فصلاً^(١) تحدث فيه عن أوائل الشعراء الجاهليين ، وتأثر به ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء ، فعرض هو الآخر لهؤلاء الأوائل ، وهم عندهما جميعاً أوائل الحقبة الجاهلية المكتملة الخلق والبناء في صياغة القصيدة العربية ، وكان الأوائل الذين أنشأوا هذه القصيدة في الزمن الأقدم ونهجوا لها سُننها طوأم الزمان . وفي ديوان امرئ القيس^(٢) .

عُوجاً على الطلل المٌحيل لأننا نبكى الديار كما بكى ابن خُدام
ولا نعرف من أمر ابن خُدام هذا شيئاً سوى تلك الإشارة التي قد تدل على أنه أول من بكى الديار ووقف في الأطلال .

وتراءى لنا مطولات الشعر الجاهلي في نظام معين من المعاني والموضوعات ، إذ نرى أصحابها يفتتحونها غالباً بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار ، ثم يصفون رحلاتهم في الصحراء وما يركبونه من إبل وخيل ، وكثيراً ما يشبهون الناقة في

ص ١١٤ وعوجاً : اعطفوا . الخيل : الذي أتى عليه أحوال . لأننا هنا : لعلنا .

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبع)

دار المعارف) ص ٢٣ وما بعدها .

(٢) ديوان امرئ القيس (طبع دار المعارف)

سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية ، ويمضون في تصويرها ، ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحاً أو هجاءً وفخراً أو عتاباً أو اعتذاراً أو رثاء . وللقصيدة مهما طالت تقليد ثابت في أوزانها وقوافيها ، فهي تتألف من وحدات موسيقية يسمونها الأبيات وتتحد جميع الأبيات في وزنها وقافيتها وما تنتهي به من روى^١ .

وتلقانا هذه الصورة التامة الناضجة للقصيدة الجاهلية منذ أقدم نصوصها ، وحقاً توجد قصائد يضطرب فيها العروض ولكنها قليلة ، من ذلك قصيدة عبيد بن الأبرص الأسدي^(١) :

أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ فَالْقَطِيبَاتُ فَالذَّنُوبُ

فهي من مَنخَلْع البسيط ، وقلما يخلو بيت منها من حذف في بعض تفاعيله أو زيادة على نحو ما نرى في الشطر الأول من هذا المطلع ، وعلى غرارها قصيدة تنسب لامرئ القيس مطلعها^(٢) :

عَيْنَاكَ دَمْعُهُمَا سِجَالٌ كَأَنَّ شَأْنِيهِمَا أَوْشَالٌ

ومثلهما في هذا الاضطراب قصيدة المُرَقَّش الأكبر^(٣) :

هَلْ بِالْدِيَارِ أَنْ تُجِيبَ صَمَمٌ لَوْ كَانَ رَسْمٌ نَاطِقًا كَلَمٌ

فهي من وزن السريع ، وخرجت شطور بعض أبياتها على هذا الوزن كالشطر الثاني من هذا البيت :

مَا ذَنْبُنَا فِي أَنْ غَزَا مَلِكٌ مِنْ آلِ جَفْنَةَ حَازِمٌ مُرْغَمٌ

فإنه من وزن الكامل . وعلى هذه الشاكلة قصيدة عدى بن زيد العبادي^(٤) :

تَعْرِفُ أَمْسٍ مِنْ لَمِيْسِ الطَّلَلِ مِثْلَ الْكِتَابِ الدَّارِسِ الْأَحْوَلِ

مجرى الدمع . أو شال : جمع وشل وهو الماء القليل .

(٣) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٣٧ .

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٥٣/٢ .

الأحول : الذي أتى عليه أحوال وسنوات كثيرة .

(١) انظر القصيدة في المعلقات العشر وفي

ديوان عبيد . وملحوب والقطيبات والذنوب :

أسماء مواضع .

(٢) الديوان ص ١٨٩ بحال : جمع سجل

أى صب بعد صب . شأنيهما : مثني شأن وهو

فهي من وزن السريع وخرجت بعض شطورها على هذا الوزن كالشطر الثاني من هذا البيت :

أَنِعْ صَبَاحًا عَلَقَمَ بَنَ عَدِيْ أَثْوَيْتَ الْيَوْمَ أَمْ تَرْحَلَ
فإنه من وزن المديد . ويمثل هذه القصيدة في اختلال الوزن قصيدته ^(١) :

قَدْ حَانَ أَنْ تَصْحُوَ أَوْ تُقْصِرَ وَقَدْ أَتَى لِمَا عَهَدْتَ عُصْرُ
ومن هذا الباب نونية سُلَيْمَى بن ربيعة التي أنشدها أبو تمام في الحماسة ^(٢) :

إِنْ شِوَاءَ وَنَشْوَةِ وَخَبَبِ الْبَازِلِ الْأَمُونِ

فقد لاحظ التبريزي والمرزوقي أنها خارجة عن العروض التي وضعها الخليل . واضطراب هذه القصائد في أوزانها مما يدل على صحتها وأن أيدي الرواة لم تعيب بها . ومعروف أن الزحافات تكثر في الشعر الجاهلي ، بل في الشعر العربي بعامه ، وبما كان يشيع بينهم الإقواء ، وهو اختلاف حركة الروي في القصيدة كقول امرئ القيس في معلقته يصف جبل أبان :

كَأَنَّ أَبَانًا فِي أَفَانِينَ وَذَقِهِ كَبِيرُ أَنْاسٍ فِي بَجَادٍ مَزْمَلٍ ^(٣)

فقد ضم اللام في نهاية البيت ، وهي مكسورة في المعلقة جميعها . وفي رأينا أن احتفاظ الشعر الجاهلي بهذه العيوب العروضية مما يؤكد صحته في الجملة وأن الرواة لم يصلحوه إصلاحاً واسعاً ، كما يزعم بعض المحدثين .

ومهما يكن فليس بين أيدينا أشعار تصور مرحلة غير ناضجة من نظام الوزن والقافية في الجاهلية ، فإن نفس هؤلاء الشعراء الذين رُوي عنهم تلك القصائد المضطربة في وزنها رُوي عنهم قصائد كثيرة مستقيمة في وزنها وقوافيها ، مما يدل على أن ذلك كان يأتي شذوذاً وفي الندرة . وزعم بعض القدماء والمحدثين أن الرجز أقدم أوزان الشعر العربي ، وأنه تولد من السجع ، مرتبطاً بالخداء ووقع أخفاف الإبل

(١) الفصول والغايات لأبي الملاء ص ١٣١ . البازل : الناقة المسنة . الأمون : المؤثقة الخلق .

(٢) انظر التبريزي على الحماسة ٨٣/٣ (٣) أفانين : ضروب وأنواع . الودق : المطر .

والمرزوقي رقم ٤٠٨ . والخبب : ضرب من السير . البجاد : كساء مخطط . مزمل : متهدر .

في أثناء سيرها وسُراها في الصحراء ، ومنه تولدت الأوزان الأخرى^(١) ، غير أن هذا مجرد فرض . وكل ما يمكن أن يقال هو أن الرجز كان أكثر أوزان الشعر شيوعاً في الجاهلية ، إذ كانوا يرتجلونه في كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم في السلم والحرب ، ولكن شيوعه لا يعنى قدمه ولا سبقه للأوزان الأخرى ، إنما يعنى أنه كان وزناً شعبياً لا أقل ولا أكثر . وكان الشعراء الممتازون في الجاهلية لا ينظمون منه ، إنما ينظمون في الطويل والبسيط والكامل والوافر والسريع والمديد والمنسرح والخفيف والوافر والمتقارب والمزج ، وإن كان نظمهم في الثلاثة الأولى أكثر وأوسع .

والحق أنه ليس بين أيدينا شيء من وزن أو غير وزن يدل على طفولة الشعر الجاهلي وحقيقته الأولى ، وكيف تمّ له تطوره حتى انتهى إلى هذه الصورة النموذجية التي تلقاها منذ أوائل العصر الجاهلي أو بعبارة أخرى منذ أوائل القرن السادس الميلادي . ولم تكن تختص بهذا الشعر في الجاهلية قبيلة دون غيرها من القبائل الشمالية عدنانية أو قحطانية ، وآية ذلك أننا نجد الشعراء موزعين عليها ، فمنهم من ينسب إلى القبائل القحطانية مثل امرئ القيس الكندي وعدى بن رَعْلَاء الغساني^(٢) والحارث بن وُعْلَة الجرمي القضاعي^(٣) ومالك بن حَرِيم الهَمْداني^(٤) وعبد يغوث الحارثي النَّجْراني^(٥) والشَّنْفَرى الأزدي^(٦) وعمرو بن معد يكرب المَذْحِجى^(٧) ، أما من ينسبون إلى مضر وربيعه فأكثر من أن نسميهم ، وعلى شاكلتهم من ينسبون إلى الأوس والخزرج القحطانيين في المدينة . ونحن لا نستطيع أن نحصى من جرى لسانهم بالشعر حينئذ ، فقد كانوا كثيرين ، وكانت تشركهم فيه النساء مثل الخنساء ، وكان ينظمه سادتهم وصعاليكهم . ويخيل إلى الإنسان أن الشعر لم يكن يستعصى على أحد منهم ، وعدّ ابن سلام في طبقاته أربعين من فحولهم وفحول المخضرمين وقد جعلهم في عشر طبقات وجعل في كل طبقة أربعة ، وأضاف إليهم

ص ١٦٤ .

(٤) الأصمعيات ص ٥٦ .

(٥) المفضليات ص ١٥٥ .

(٦) المفضليات ص ١٠٨ .

(٧) الأصمعيات في مواضع متفرقة .

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ الأدب

العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ص ٥١ .

(٢) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص

١٧٠ .

(٣) المفضليات (طبع دار المعارف)

أربعة من أصحاب المراثي كما أضاف تسعة في مكة وخمسة في المدينة وخمسة في الطائف وثلاثة في البحرين ، وعدّ لليهود ثمانية . ومن يرجع إلى هؤلاء الشعراء يجد بينهم البدوي والحضرى كما يجد بين البدو اليمنى والرّبعى والمضرى .

وترجم أبو الفرج في الأغاني لكثيرين منهم ، وتراجمه هو الآخر إنما تقف عند مقدّميهم الذين دوت شهرتهم ، ووراءهم كثيرون لم يترجم لهم ، يعدون بالمئات على نحو ما يصور لنا ذلك المؤلف والمختلف للآمدى ومعجم الشعراء للمرزبانى . ومن غير شك سقط من ذاكرة الرواة أسماء كثيرين لم يسجلوهم ، ويشهد لذلك قول ابن قتيبة : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره في التنقير عنهم واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال ، ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها » (١) . ومن يقرأ في كتاب المؤلف والمختلف للآمدى يجده يقول كثيراً إن شاعراً بعينه لم يجد له شعراً ولا ذكرأ في ديوان قبيلته (٢) . فدواوين القبائل لم تستقص هؤلاء الشعراء استقصاء دقيقاً .

والذى لا ريب فيه أن حظ القبائل المضرية من هذا الشعر الجاهلى كان أوفر من حظ القبائل الربعية والقحطانية ، وأقرأ في الأغاني والمفضليات والأصمعيات فستجد لمضر الكثرة الكثيرة من الشعر والشعراء ، وهى كثرة يؤيدها تاريخها في الإسلام ، فقد تفوقت القبائل التى نزلت في العراق على قبائل الشام والأخرى التى نزلت في مصر وبلاد المغرب والأندلس ، لأنها كانت في جمهورها مضرية بينما كانت تلك في معظمها قحطانية .

وكان حظ القبائل المضرية من الشعر متفاوتاً ، وكذلك كانت القبائل الربعية والقحطانية ، فقبائل كل مجموعة ليست سواء فيه ، ومثلها المدن فكة كانت قليلة الشعر (٣) ، وأقل منها نصيباً فيه اليمامة (٤) . ووقف الجاحظ في حيوانه عند جانب

١٨٧ ، ١٩٢ - ١٩٣ .

(٣) ابن سلام ص ٢١٧ .

(٤) ابن سلام ص ٢٣٤ .

(١) انظر مقدمة لكتابه الشعر والشعراء .

(طبع دار المعارف) ص ٤ .

(٢) راجع المؤلف والمختلف ص ٢٣ ،

٣٨ ، ٦٨ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٧١ ،

من حظوظ القبائل وتفاوتها في ذلك فقال : « وبنو حنيفة "سكان اليمامة" مع كثرة عددهم وشدة بأسهم وكثرة وقائعهم وحسد العرب لهم على دارهم ، وتُخومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكثرة أكلها ، ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعراً منهم . وفي إخوانهم عجلٌ قصيد ورجز وشعراء ورجّازون . وليس ذلك لمكان الخصب وأنهم أهل مدر وأكألو تمر ، لأن الأوس والخزرج كذلك ، وهم في الشعر كما قد علمت . وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحرين ، فقد نعرف أن طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة . وثقيف "سكان الطائف" أهل دارنا هيكل بها خصباً وطيباً ، وهم وإن كان شعرهم أقل فإن ذلك القليل يدل على طبع في الشعر عجيب . وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء ، ولا من قلة الخصب الشاغل والغنى عن الناس ، وإنما ذلك على قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز . . وبنو الحارث ابن كعب (سكان نجران) قبيل شريف يجرون مجارى ملوك اليمن ومجارى سادات الأعراب أهل نجد ، ولم يكن لهم في الجاهلية كبير حظ في الشعر ، ولهم في الإسلام شعراء مفلقون . . وقد يحظى بالشعر ناس ويخرج آخرون ، وإن كانوا مثلهم أو فوقهم . . وقد كان في ولد زُرارة (جد بطن من تميم) لصلبته شعر كثير كشعر لقيط وحاجب وغيرها من ولده . ولم يكن لحذيفة ولا حصن ولا عيينة بن حصن ولا لحمل بن بدر شعر مذكور » ^(١).

ومن الحق أنه فقد كثير من الشعر الجاهلي ، إذ عدت عليه عوادى الرواية وتلك الرحلة الطويلة التي قطعها من الجاهلية إلى عصور التدوين ، ويروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقول : « ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرأ بجاءكم علم وشعر كثير ^(٢) » . ونحن لا نبالغ مبالغة أبي عمرو ، فقد بقى منه كثير ألقت فيه مجلدات ضخام ، إذ حافظت القبائل بكل ما استطاعت على قصائده الطوال ومقطعاته القصار وكثير من أبياته المفردة ، وما زالت تحافظ عليه ، حتى أسلمته إلى أيدي رواة أمناء سجلوه ودونوه .

الشعر الجاهلي شعر غنائى

من المعروف أنه يوجد عند الغربيين منذ اليونان أنواع مختلفة من الشعر ، يردها نقادهم إلى أربعة أصرب ، شعر قصصى وتعليمى وغنائى وتمثيلى ، ويمتاز الضرب الأول بأن قصائده طويلة ، فالقصيدة منه تمتد إلى آلاف الأبيات ، وتتوالى فيها حلقات من الأحداث تنعقد حول بطل كبير ، وقد يوجد بجانبه أبطال ، ولكن أدوارهم ثانوية . وهى فى حقيقتها قصة إلا أنها كتبت شعراً ، فالتسلسل القصصى فيها دقيق والانتقال بين أجزائها منطقى محكم ، وهى قصة تفسح للخيال مجالاً واسعاً ، ولذلك كانت تكثر فيها الأساطير والأمور الخارقة ، وكانت الآلهة تظهر فيها عند اليونان بدون انقطاع . وخير ما يمثلها عندهم الإلياذة لهوميروس وقد نقلها إلى العربية منذ فاتحة هذا القرن سليمان البستاني ، ولكثير من الأئم القديمة والحديثة قصائد قصصية تشبهها ، فللرومان الإنيادة لفرجيل ، وللهند الرامايانا والمهاباراتا وللفرس الشهنامة للفردوسى وللألمان أنشودة الظلام وللفرنسيين أنشودة رولان .

والشاعر فى هذا الضرب القصصى لا يتحدث عن عواطفه وأهوائه ، فهو شاعر موضوعى ينكر نفسه ، ويتحدث فى قصته عن بطل معتمداً على خياله ، ومستمداً فى أثناء ذلك من تاريخ قومه ، وكل ما له أنه يخلق القصة ويرتب لها الأشخاص والأشياء ، ويجمع لها المعلومات ، ويكون من ذلك قصيدته ، وعادة ينظمها من وزن واحد لا يخرج عنه . ولم تعرف الجاهلية هذا الضرب من الشعر القصصى ، وهى كذلك لم تعرف الضرب الثانى من الشعر التعليمى الذى ينظم فيه الشاعر طائفة من المعارف على نحو ما نعرف عند هزبود الشاعر اليونانى وقصيدته « الأعمال والأيام » التى يصور فيها فصول السنة والحياة الريفية ، وعند هوراس الشاعر الرومانى فى قصيدته « فن الشعر » التى نظمها فى قواعد الشعر ونقده ، وكما هو معروف عن أبان بن عبد الحميد شاعر البرامكة فى قصيدته التى نظم فيها أحكام الصوم والزكاة . وكذلك لم يعرف الجاهليون الشعر التمثيلى الذى يعتمد على مسرح وعلى حركة وعمل معقد وحوار طويل بين الأشخاص ، تتخلله مشاهد ومناظر مختلفة .

فهذه الضروب الثلاثة من الشعر لم يعرفها الجاهليون ، فشعرهم منظومات قصيرة قلما تجاوزت مائة بيت ، وهو شعر ذاتي يمثل صاحبه وأهواءه ، على حين الضروب السابقة جميعاً موضوعية ، فالشاعر فيها لا يتحدث عن مشاعره وأحاسيسه إنما يتحدث عن أشياء خارجة عنه ، سواء حين يقص أو حين يعلم أو حين يمثل ، فهو في كل ذلك يُغفل نفسه ولا يقف عندها ، إنما يقف عند جانب قصصى تاريخى يحكيه أو علمى تهذيبى يرويه أو تمثيلى مسرحى يؤدّيه ، متجرداً عن شخصه وما يتصل بذاته وأهوائه وعواطفه .

ولكن إذا كان الشعر الجاهلى يختلف عن ضروب الشعر الغربية القصصية والتعليمية والتمثيلية ، فإنه يقترب من الضرب الرابع الغنائى ، لأنه يحول مثله فى مشاعر الشاعر وعواطفه ، ويصوره فرحاً أو حزيناً ، وقد وُجد من قديم عند اليونان ، إذ عرفوا المدح والمهجاء والغزل ووصف الطبيعة والرثاء ، وكان يُصحبُ عندهم بآلة موسيقية يُعرَفُ عليها تسمى (لير Lyre) ومن ثمَّ سمّوه (Lyric) أى غنائى .

وإذن فتحسن لا نبعد حين نزع أن الشعر الجاهلى جميعه غنائى ، إذ يماثل الشعر الغنائى الغربى من حيث إنه ذاتي يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس ، سواء حين يتحمس الشاعر ويفخر أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أو يريث أو حين يعتذرويعاتب ، أحيان يصف أى شىء مما ينبثُ حوله فى جزيرته . وليس هذا فحسب ، فهو يماثل الأصول اليونانية للشعر الغنائى الغربى من حيث إنه كان يغنى غناء ، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون فيه ، فهم يروون أن المهلهل غنى فى قصيدته :

طفلة ما ابنة المحلل بيضا لعوبٌ لذيدةٌ فى العناق^(١)

ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلى ارتبط بالغناء عند أقدم شعرائه . ومن حين إلى حين نجد أبا الفرج الأصبهاني يشير إلى أن شاعراً جاهلياً تغنى ببعض شعره من مثل السليلك بن السلسكة^(٢) وعلقمة بن عبدة الفحل والأعشى ، وكان يوقع

(١) انظر الأغاني (طبعة دار الكتب)

رخصة ناعمة .

(٢) أغاني (طبعة الساسى) ١٨ / ١٣٤ .

٥١/٥ وما فى البيت زائدة ، وطفلة :

شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصنج، ولعله من أجل ذلك سمي صنّاجة العرب^(١). ويقول أبو النجم في وصف قينة^(٢) :

تَغْنَى فَإِنَّ الْيَوْمَ يَوْمٌ مِنَ الصَّبَا ببعض الذي غنى امرؤ القيس أو عمرو
وهو يقصد بعمره، عمرو بن قسيثة. ويقول حسان بن ثابت^(٣) :

تَغْنُ بِالشَّعْرِ إِمَّا كُنْتَ قَائِلَهُ إن الغناء لهذا الشعر مضمارُ
فالغناء كان أساس تعلم الشعر عندهم ، ولعلمهم من أجل ذلك عبروا عن إلقائه بالإنشاد، ومنه الحُداء الذي كانوا يحدون به في أسفارهم وراء إبلهم ، وكان غناء شعبياً عاماً .

ويقترن هذا الغناء عندهم بذكر أدوات موسيقية مختلفة كالزهر والدف و كانا من جلد وكالصنج ولعله هو نفسه الآلة الفارسية المعروفة باسم الجنك، وكالبربط وهو آلة موسيقية وترية شاعت في بلاد الإغريق، ويقص علينا علقمة بن عبدة أنه وفد على بلاط الغساسنة فاستمع عندهم إلى قيان يزنطيات يضربن على البرابط^(٤) وكانوا كذلك في الحيرة يستمعون إلى القيان وهن يضربن على الآلات الموسيقية الفارسية . وأدخلوا كثيراً من هؤلاء القيان إلى جزيرتهم من مثل خُلَيْدَة وهُرَيْرَة في البجامة^(٥) والأخيرة هي صاحبة الأعشى التي ذكرها في معلقته ، ويروى الرواة أنه كان بمكة قيتتان لعبد الله بن جُدعان جليهما من بلاد الفرس وكانتا تغنيان الناس^(٦) وفي أخبار غزوة بدر أنه لما نصح أبو سفيان قريشاً أن تعود قبل أن يوقع الرسول عليه السلام بها قال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ فنقيم عليه ثلاثاً وننحر الجزر ونطعم الطعام ونُسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب^(٧). وفي السيرة النبوية أن الرسول أمر يوم فتح مكة بقتل رجل يسمى ابن سخطل كان مسلماً ثم ارتد وهرب إلى مكة ، وكان له قيتتان تغنيان بهجاء الرسول ، فأمر بقتلهما ، فقتلت

-
- (١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٠٩/٩ (٤) أغاني (مأسي) ١٤/١٦ .
وانظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢١٤/١ . (٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١٣/٩ .
(٢) الشعر والشعراء ٦٠/١ . (٦) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٢٧/٨ .
(٣) المسند لابن رشيقي (طبعة أمين هندية) ٢٤١/٢ . (٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٢/٤ .

إحداهما ، وفرت الأخرى^(١) . ومربنا أن أهل يثرب حين وفد عليهما النابغة أمروا
إحدى القيان أن تغني بشعر له فيه إقواء ، حتى يقف على ما فيه من عيب^(٢) .
ويكثر ذكر هؤلاء القيان في شعر الشعراء كما يكثر ذكر ما كن يضربن عليه من
آلات الطرب ، كقول علقمة في ميميته^(٣) :

قد أشهد الشرب فيهم مِزْهَرَرْنِمُ والقوم تصرعهم صهباء خُرطومُ
ويقول الأعشى في معلقته :

ومستجيبٍ تحال الصنج يسمعه إذا تُرَجَّع فيه القينةُ الفضلُ^(٤)

ولطرفة في معلقته وصف طويل لإحدى هؤلاء القيان . ولعل في ذلك كله ما
يدل على أن الغناء في الجاهلية تأثر بعناصر أجنبية كثيرة .

وكان نساؤهم يؤلفن ما يشبه الجوقات ويتغنين في حفلاتهم لاعبات على
المزاهر^(٥) ، وفي الطبرى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع ذات يوم عزفاً
بالدفوف والمزامير ، فسأل عنه ، فعرف أنه عُرْس^(٦) ، وأكبر الظن أنهم كن
يقرن هذا العزف بأناشيد كأناشيد الزفاف المعروفة عند اليونان والرومان . وكن
يؤلفن في الحروب جوقة كبيرة تحمّس وتثير ، ففي الطبرى والأغانى أن هنداً بنت
عتبة ونسوة من قريش كن يضربن على الدفوف في غزوة أحد وكانت هند تغني
في تضاعيف هذا العزف بمقطوعات على شاكلة قولها^(٧) :

إن تُقبلوا نعائق ونفرش النمارق^(٨)

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق^(٩)

(١) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة)

الجلبي) ٥٣/٤ .

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١/١٠ .

(٣) المفضليات ص ٤٠٢ والشرب : جمع

شارب ، رَم : مترنم ، والصهباء : الحمر ،

والخرطوم أول ما ينزل منها صافياً .

(٤) المستجيب : العود ، واستاع الصنج

له كناية عن اتساق أنغامهما . الفضل :

اللايسة ثوباً واحداً .

(٥) العمدة ٣٧/١ .

(٦) الطبرى (طبعة أوربا) ١١٢٦/١ .

(٧) أغاني (طبعة السامى) ١٤/١٦ وتاريخ

الطبرى ١٤٠٠/١ .

(٨) النمارق : جمع تمرقة وهي الطنفسة

والوادة الصغيرة .

(٩) وامق : محب .

وبجانب هذا الغناء العام كان عندهم غناء ديني يرتلونه في أعيادهم الدينية ، على نحو ما مر بنا من تليياتهم ، فكانوا يرددون مثل « أشرق كئير كئير كما نُغير » . وكانوا في أثناء تقديم ذبائحهم وصبّ دماؤها على الأنصاب المقدسة عندهم يتغنون غناء لعله هو أصل غناء النَّصَب الذي شاع بينهم في الجاهلية . وربما كان في اسم الداجنة والمدجنة ، وهي القينة تغنى في الدَّجَن وحين ظهور الغيم في صفحة السماء^(١) ما يدل على أنهم كانوا إذا عزَّهم المطر وغلبهم الجَدْب توجهوا بالغناء إلى آلهة الغيث والخصب .

ومعنى كل ما قدمنا أن الشعر في الجاهلية كان يُصَحَّب بالغناء والموسيقى ، فهو شعر غنائي تام ، ويظهر أن الغناء لم يكن ساذجاً حينذاك ، فقد عرفوا منه ضرباً مختلفة ، يقول إسحق الموصلي : « غناء العرب قديماً على ثلاثة أوجه : النَّصَب والسَّناد والمزج ، فأما النَّصَب فغناء الركبان والقينات وهو الذي يستعمل في المراثي ، وكله يخرج من أصل الطويل في العروض ، وأما السَّناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبات ، وأما المزجُ فالخفيف الذي يُرَقَّصُ عليه ويُمشَى بالدفِّ والمزمار فيطرب ويستخف الحليم . هذا كان غناء العرب قديماً ، حتى جاء الله بالإسلام وفتحت العراق وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم وتغنوا الغناء المحزناً المؤلف بالفارسية والرومية وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير »^(٢) .

ولعل في اقتران النصب بالمراثي ما يدل على ما قلناه من أنه كان غناء دينياً ، فهم يتغنون به في الموت ، أما السناد فلعله الغناء الذي كان يقترن ببعض الآلات الموسيقية ، وأما المزج فغناء خفيف كان يقترن بالرقص والدف والمزامير ، وهو غناء حفلاتهم ، ولعلمهم كانوا يؤثرون فيه الوزن الذي يساعد على الحركة المعروف باسمه بين أوزان الشعر وهو وزن المزج ، كما كانوا يستخدمون فيه الرَّمْل والرجز ليطابق الشعر ما يريدون من رقص وسرعة في الحركة .

وعلى هذا النحو نظم شعراء الجاهلية شعرهم في جو غنائي مشبه لنفس الجو الذي نظم فيه اليونان شعرهم الغنائي فقد كان الشاعر يغنى شعره ، وقد يوقَّع هذا الغناء على

(١) انظر مادة دجن في لسان العرب وغيره (٢) العمدة لابن رشيقي (طبعة أمين هتدي) من معاجم اللغة . وراجع المفضليات ص ١٣٠ . ٢٤١/٢

بعض الآلات الموسيقية . وقد يقوم له بالغناء في شعره قبان وجوقات مختلفة ترقص وتعزف في أثنائه . ويظهر أن الشعر أخذ في أواخر هذا العصر يستقل عن الغناء والموسيقى ، فكان بعض الشعراء لا يغنيه ، وإنما ينشده إنشاداً ، والإنشاد مرتبة وسطى بين الغناء والقراءة .

ونحن إذا رجعنا إلى هذا الشعر وجدنا بقايا الغناء والموسيقى ظاهرة فيه ظهوراً بيناً ، ولعل القافية هي أهم هذه البقايا التي احتفظ بها ، فهي بقية العزف فيه ورمز ما كان يصحبه من قرع الطبول ونقر الدفوف . ومثلها التصريع في مطالع القصائد وما كان يعتمد إليه الشعراء أحياناً من تقطيع صوتي لأبياتهم كقول امرئ القيس في معلقته يصف القرس :

مَكْرٌ، مِفْرٌ، مُقْبِلٌ، مُدْبِرٌ، مَعَا كَجُلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلِيٍّ
ويكثر هذا التقطيع في أشعارهم ، ومن يرجع إلى معلقة لبيد التي يستهلها بقوله :

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمَقَامُهَا بِمَنْى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا

يجده على شاكلة هذا المطلع يلائم كثيراً بين الكلمتين الأخيرتين ، وكأن البيت قافيتين : داخلية ، وخارجية ، وكأنه يريد أن يهين لنفسه أو لمن يتغنى بقصيدته أن يرتفع بصوته في كلمتين متتاليتين . ولا نشك في أن صور الأوزان المتنوعة التي يمتاز بها الشعر الجاهلي إنما حدثت بتأثير هذا الغناء ، وقد نفذوا منه إلى ضروب من التجزئة في بعض الأوزان ، كمجزوء الكامل والمديد ، بل نفذوا إلى أوزان خفيفة كثيرة كالمتقارب والرملى والمزج . وبدون ريب إنما كثرت التجزئة والتعديل في الرجز لأنه كان وزناً شعبياً وكان كثير الدوران في حداثهم وفي كل ما يتصل بهم من حركة وعمل كحفر الآبار والمتح منها ومبارزة الأقران واستصراخ العشائر ، فكثرت فيه الحذف وكثرت التحريف والتعديل كثرة مفرطة ، حتى زعم الخليل أنه ليس من أوزان الشعر ^(١) ، وهو شعر غير أن التغنى به تغنياً كثيراً حُدِّدَ وغير حُدِّدَ أحدث فيه تغيرات شتى .

(١) انظر باب الرجز في العمدة لابن رشيقي .

الموضوعات

لعل أقدم من حاولوا تقسيم الشعر العربي جاهلياً وغير جاهلي إلى موضوعات ألف فيها ديواناً هو أبو تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣٢ للهجرة ، فقد نظمته في عشرة موضوعات ، هي الحماسة ، والمراثى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف ومعهم المديح ، والصفات ، والسير ، والنعاس ، والملح ، ومذمة النساء . وهي موضوعات يتداخل بعضها في بعض فالحديث عن الأضياف إما أن يدخل في المديح أو في الحماسة والفخر ، والسير والنعاس يدخلان في الصفات ، كما تدخل مذمة النساء في الهجاء ، أما الملح فغير واضحة الدلالة . وجاء في باب الأدب بما يدل على أنه يقصد به المعنى التهذيبي ، غير أنه أنشد فيه أبياتاً في وصف الخمر ، وأغفل إغفالاً تاماً باب العتاب والاعتذار .

ووزع قدامة في كتابه نقد الشعر هذا الفن على ستة موضوعات ، هي المديح والهجاء والنسيب والمراثى والوصف والتشبيه وحاول بعقله المنطقي أن يرد الشعر إلى باين أو موضوعين هما المدح والهجاء ، فالنسيب مديح وكذلك المراثى ، ومضى يعين المعانى التى يدور حولها المديح ، وهى فى رأيه الفضائل النفسية . ونجد نفس المحاولة فى تصنيف موضوعات الشعر واضحة فى كتاب نقد النثر ، فهو مديح وهجاء وحكمة وهو ، ويدخل فى المديح المراثى والافتخار والشكر واللفظ فى المسألة ويدخل فى الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء والتأنيب ، كما يدخل فى الحكمة الأمثال والزهد والمواعظ ، أما اللهو فيدخل فيه الغزل والطرد وصناعة الخمر والحجون .

وجعل ابن رشيق موضوعات الشعر فى كتابه العمدة تسعة ، وهى النسيب ، والمديح ، والافتخار ، والرثاء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب ، والوعيد والإنذار ، والهجاء ، والاعتذار . ومن السهل أن يُردّ موضوع الاقتضاء والاستنجاز إلى المديح ، والوعيد والإنذار إلى الهجاء ، وأن يضم العتاب إلى الاعتذار ، وأيضاً فإنه نسي موضوع الوصف . ويقول أبو هلال العسكري : « وإنما كانت أقسام الشعر فى الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيه والمراثى ، حتى زاد النابغة فيها قسمًا

سادساً وهو الاعتذار فأحسن فيه ^(١) وهو تقسيم جيد غير أنه نسي باب الحماسة ، وهو أكثر موضوعات الشعر دوراناً على لسانهم .

ولا نستطيع أن نرتب هذه الموضوعات في الشعر الجاهلي ترتيباً تاريخياً ، ولا أن نعرف كيف نشأت وتطورت ، فإن الأصول الأولى لهذا الشعر انطمرت كما قدمنا في ثنايا الزمن ، وإن كنا نستطيع أن نظن ظناً أنها تطورت من أناشيد دينية كانوا يتجهون بها إلى آلهتهم ؛ يستعينون بها على حياتهم فتارة يطلبون منها القضاء على خصومهم ، وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم ، ومن ثم نشأ هجاء أعدائهم ومدح فرسانهم وسادتهم ، كما نشأ شعر الرثاء وهو في أصله تعويذات للميت حتى يطمئن في قبره ، وفي أثناء ذلك كانوا يمجّدون قوى الطبيعة المقدسة التي تكمن فيها آلهتهم والتي تبعث فيهم الخوف ، ومعنى هذا كله أن موضوعات الشعر الجاهلي تطورت من أدعية وتعويذات وإبهالات للآلهة إلى موضوعات مستقلة ^(٢) .

ويظهر أنه كانت لا تزال في نفوسهم بقية من هذه الصلة القديمة بين الشعر ودعاء الآلهة ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما جاء في القرآن الكريم من كثرة الربط بين الشعر والسحر وتعويذ الكهنة فقد كانوا يرمون الرسول في بدء دعوته تارة بأنه شاعر وتارة ثانية بأنه كاهن وتارة ثالثة بأنه ساحر (وقالوا إن هذا إلا سحر مبين) ورد عليهم القرآن دعواهم الكاذبة مراراً في مثل : (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) ومثل : (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين) . ويقول جل وعز في سورة الشعراء : (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون) وبعد ذلك : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفك أنثم ، يلقون السمع وأكثهم كاذبون ، والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) . وواضح أن القرآن الكريم يحكي على ألسنتهم ما كانوا يؤمنون به من العلاقة بين

(١) ديوان الماعاني ٩١/١ .

(طبع دار المعارف) ٤٤/١ وما بعدها .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان

الشعر والكهانة والسحر ، وكانوا يزعمون أن الشياطين تنزلُ على الشعراء كما تنزل على الكهان . وزعموا أن الأعشى كان له شيطان ينفث في وعيه الشعر يسمى مسحلا وأن شاعراً كان يهاجيه يسمى عمرو بن قطن ، كانت له تابعة من الجن اسمها جهنم^(١) .

وظل بعض الشعراء في الإسلام يزعم أن له تابعاً من الجن ، ويؤكد الأسطورة أبو النجم فيزعم أن لكل شاعر شيطاناً إما أنثى وإما ذكراً ، يقول^(٢) :

إني وكلُّ شاعرٍ من البشرِ شيطانه أنثى وشيطاني ذكرٌ
وفي أخبارهم أن الشاعر كان إذا أراد الهجاء لبس حُلَّة خاصة ، ولعلها كحلل الكهان ، وحلق رأسه وترك له ذؤابتين ودهن أحد شقّي رأسه وانتعل نعلًا واحدة^(٣) ونحن نعرف أن حلق الرأس كان من سننهم في الحج ، وكأن شاعر الهجاء كان يتخذ نفس الشعائر التي يصنعها في حجه وأثناء دعائه لربه أو لأربابه ، حتى تصيب لعناتُ هجائه خصومه بكل ما يمكن من ألوان الأذى وضروب النحس المستمر .

فالهجاء في الجاهلية كان لا يزال يُقرَن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر ، ولعلمهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ويتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . ونحن نعرف أن الغزو والنهب كان دائراً بينهم ، غير أن المغيرين إن أغاروا ونهبوا إبلا بينها إبل لشاعر ، وتعرض لهم يتوعددهم بالهجاء اضطروا اضطراباً إلى ردها أو على الأقل يردون ماله هو وإبله . يروى الرواة أن الحارث بن ورفاء الأسدي أغار على عشيرة زهير ، واستاق فيما استاق إبلاً له وغلاماً ، فنظم زهير أبياتاً يتوعدده بالهجاء المقذع ، يقول فيها^(٤) :

ليأثمينك مني منطلقٌ قدعٌ باقٍ كما دنس القُبْطِيَّةَ الودكُ

١٩١/١ .

(٤) غنار الشعر الجاهلي للسقا ص ٢٥٥
وديوان زهير (طبعة دار الكتب المصرية)
ص ١٨٣ . القذع : القبيح . القبطية : كل
ثوب أبيض . الودك : الدسم .

(١) انظر المؤلف والمختلف ص ٢٠٣ ومادة
جهنم في لسان العرب ، والحيوان ٢٢٦/٦
والقصيدتين رقم ١٥ ، ٣٣ في ديوان الأعشى
(٢) الحيوان ٢٢٩/٦ .
(٣) امالي المرتضى (طبعة عيسى الحلبي)

ففزع الحارث ورد عليه ما سلبه منه ^(١) . وواضح أن زهيراً يستخدم في وصف هجائه المنتظر كلمة الدنس ، فهو سيلحق به عن طريق هجائه الرجس والإثم . ويروى أن رجلاً يسمى زُرْعَة بن ثوب من بني عبد الله بن غطفان خدع غلاماً من عشيرة مزرد بن ضيرار الشاعر يسمى خالداً كان يرعى إبلًا لأبويه فاشتراها منه بغم واستاقها ، ورجع الغلام إلى أبويه فأخبرهما بما فعل ، فقال أبوه : هلكت والله وأهلكتنا ، وركب إلى مزرد وقصَّ عليه القصة ، فقال مزرد : أنا ضامن لك أن تُردَّ عليك بأعيانها ، وأنشأ قصيدة طويلة يتوعد فيها زُرْعَة ، ويطلب إليه أن يرد الإبل ، ونراه يعودُها بهجائه ، فهي إن لم ترد ستكون ناراً تأتي على الأخضر واليابس عند زُرْعَة وقومه وسيصيبها الجرب والأمراض المستعصية ، يقول ^(٢) :

فيا آلَ ثُوبٍ إنما ذُوذُ خالد كئار اللَّطَى ، لا خير في ذُوذِ خالدٍ ^(٣)
 بهن دُرُوءٍ من نُحازٍ وُغْدَةٌ لها ذَرِبَاتٌ كالثُدَيِّ النواهدِ ^(٤)
 جَرِبْنَ فما يُهَنَّانُ إلا بغَلَقَةٍ عَطِينٍ وأبوالِ النساءِ القواعدِ ^(٥)

وقد تحولوا يصبُّون أهاجيهم ولعناتهم على خصومهم هم وعشائرتهم ، فلم يسلم منها أحد من أشrafهم ، يقول الجاحظ : « وإذا بلغ السيد في السؤدد الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به ، وفخرت به عشيرته فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه ، ومن طلب عيباً وجده فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره وجد من يغلط فيه ويحمله عنه . ولذلك هُجِيَ حصن بن حذيفة ، وهجى زُرَّارَةُ بنُ عُدَسٍ وهجى عبد الله بن جُدْعان وهجى حاجب بن زُرَّارة . وإنما ذكرت لك هؤلاء لأنهم من سؤددهم وطاعة القبيلة لهم لم يذهبوا فيمن تحت أيديهم من قومهم ومن حلفائهم وجيرانهم مذهب كليب بن ربيعة ولا مذهب حذيفة بن بدر ولا مذهب عَيْسَةَ بن حصن ولا مذهب لقيط بن زُرَّارة . . فإن هؤلاء وإن كانوا سادة فقد كانوا يظلمون ^(٦) » وبمقدار ما

-
- (١) أغاني ٣٠٧/١٠ وما بعدها .
 (٢) الفضليات ص ٧٩ .
 (٣) الذود : الجماعة القليلة من الإبل .
 (٤) دُرُوء : جمع دره وهو التثو .
 (٥) يهَنَّان : يهجن . عطين : العطن ، القواعد : المعاجز .
 (٦) الحيوان ٩٣/٢ .

كان في القبيلة من شرف وأشراف كان هجاؤها عندهم ، إذ كانوا لا يزالون يتعرضون لها ولأشرافها بأقبح الهجاء وأقذعه ، يقول الجاحظ أيضاً :

« إذا استوى القبيلان في تقادم الميلاد ، ثم كان أحد الأبوين كثير الذرّة (النسل) والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء ، وكثير السادات في العشائر وكثير الرؤساء في الأرحاء (القبائل الكبيرة) وكان الآخر قليل الذرّة والعدد ولم يكن فيهم خير كثير ولا شر كثير تخلوا أو دخلوا في غمار العرب وغرقوا في معظم الناس وكانوا من المغمورين ومن المنسيين فسلموا من ضروب الهجاء . . وسلموا من أن يُضْرَبَ بهم المثل في قلة ونذالة ، إذ لم يكن (منهم) شر وكان محلهم من القلوب محل من لا يغيظ الشعراء ولا يحسدكم الأكفاء . . وإذا تقادم الميلاد . . . وكان فيهم خير كثير وشر كثير ومثالب ومناقب لم يسلموا من أن يُهْجَوْا ويضرب بهم المثل . ولعل أيضاً أن تنفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة وأمثال تسير على ألسنة العلماء . فيصير حينئذ من لا خير فيه ولا شر أمثل حالاً في العامة ممن فيه الفضل الكثير وبعض النقص ولا سيما إذا جاؤوا من يأكلهم وحالفوا من لا ينصفهم كما لقيت غنّى أو باهلة . . فن القبائل المتقادمة الميلاد التي في شطرها خير كثير وفي الشطر الآخر شرف وضعة مثل قبائل غطفان وقيس عيلان ومثل فزارة ومرة وثعلبة ومثل عبّس وعبد الله بن غطفان ثم غنّى وباهلة واليعسوب والطفافة ، فالشرف والخطر في عبس وذبيان ، والمبتلى والملقى والمحروم والمظلوم مثل باهلة وغنّى مما لقيت من صواب سهام الشعراء وحتى كأنهم آلة لمدارج الأقوام ينكب فيها كل ساع ويعثر بها كل ماش . وربما ذكروا اليعسوب والطفافة وهاربة البقعة (من ذبيان) وأشجع الخنثى ببعض الذكر . . وجلّ معظم البلاء لم يقع إلا بغنّى وباهلة وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولاً ومناقب . حتى صار من لا خير فيه ولا شر عنده أحسن حالاً ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر . . ومن هذا الضرب تميم بن مرّة وثور وعُكْل وتيمّم ومزينة ، ففي عكل وتيمّم ومزينة من الشرف والفضل ما ليس في ثور ، وقد سلمت ثور إلا من الشيء اليسير ، مما لا يرويه إلا العلماء ، والتحف الهجاء على عكل وتيمّم . وقد شعّثوا بين مزينة شيئاً . . وقد نالوا من ضربة مع ما في ضربة من الحصال الشريفة . . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء . كما بكى مخارق بن شهاب وكما بكى

علقة بن عُلَّة وكما بكى عبد الله بن جُدعان من بيت لخداش بن زهير^(١) .
وفي السيرة النبوية أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب إلى شعراء المدينة أن يعينوه
بأهاجيمهم في قريش ، ويروى أنه قال لحسان بن ثابت ، وقد أخذ في هجاء
القرشيين : « لشعرك أشد عليهم من وقع النبل » وفي ذلك ما يصور مدى أثر الهجاء في
نفوس العرب ، فقد كان سلاحاً لا يقل عن أسلحتهم في القتال ، ولذلك قرنه عبد قيس
ابن خفاف البرجمي إلى ما يلقى به أعداءه من سيف ورمح ودرع ، يقول^(٢) :

فأصبحتُ أعددتُ للنائبِ ت عِرْضاً بريئاً وعَضْباً صَقِيلاً^(٣)

وَوَقَعَ لسانِ كحدِ السَّنانِ ورُمحاً طويل القنْاة عَسولاً^(٤)

وسابغةً من جِياذِ الدُّرو ع تسمع للسيف فيها صليلاً

كماء الغدير زَقْتَه الدُّبورُ يَجُرُّ المدججُ منها فُضولاً^(٥)

فاللسان كان يَنْكأ بهجائه في الأعداء نكأ السيوف والرماح . ويخيل إلى الإنسان
كأنما تراص شعراء القبائل بجانب فرسانها وشجعانها في صفوف ، وقد أخذ كل
منهم يريش سهام هجائه ويرى بها أعداءه من الأشراف والقبائل ، وكل يحاول أن
يكون سهمه أنفذ السهام وأصاها . حتى لا تقوم للشريف وقيلته قائمة . وكانوا
ينتهزون فرصة تلاقيهم في الأسواق وخاصة سوق عُكاظ ، فينشدون أهاجيمهم لتذيع ،
وليلحقوا بخصومهم كل ما يريدون من خزي وعار ، وفي ذلك يقول راشد بن شهاب
الشكري لقيس بن مسعود الشيباني^(٦) :

ولا تُوعِدْنِي إني إن تُلَاقِي معي مَشْرِقِي في مضاربه قَضَمَ^(٧)

وذمٌ يُغَشِّي المرءَ خِزْيًا ورهطه لدى السَّرْحة العِشاء في ظلها الأَدَمُ^(٨)

وهو يشير إلى سرحة أو شجرة عظيمة كانت بعكاظ ، حيث تقام السوق

(١) الحيوان ١/ ٣٥٧ - ٣٦٣ .

(٢) المفضليات ص ٣٨٦ .

(٣) العصب : السيف القاطع ، والحقيل :

المسقول الحاد .

(٤) العسول : اللين المصى .

(٥) زفته : حركته ، الدبور : ريح غربية

تقابل الصبا ، المدجج : تام السلاح ، ويمر

منها فضولاً كناية عن أنها سابقة تفضل عن أطرافه .

(٦) المفضليات ص ٣٠٨ .

(٧) المشرق : السيف ، وقضم : فلول

من كثرة العطن .

(٨) السرحة : الشجرة ، العشاء ، الخفيفة .

الكبيرة هناك ويضرب العرب قباب الأدم ، وتجتمع العشائر من أنحاء الجزيرة ومعها شعراؤها وما يحملون في حجورهم من حجارة الحجاء .

ودار هجاؤهم على كل ما يناقض مثلهم التي صورناها في غير هذا الموضع ، وقد قلنا إنه كانت تجمعها كلمة المروعة ، وهي تعني عندهم فضائلهم من الشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر ، وما هي إلا أن يدخل الشاعر في الهجاء فإذا هو يخلص القبيلة وأشرفها من كل هذه الفضائل وما يتصل بها فهي لا تكرم الجار ولا تحمي ، وهي تفر في الحروب وتقعدهم عن الأخذ بثأرها . ولا يكتفي الشعراء الهجاءون بذلك بل يتعرضون لمخازي القبيلة في حروبها وأيامها التي ولت على أدبارها فيها منهزمة منكسة الأعلام ، واقرأ في المفضليات قصيدة ربيعة بن مقروم رقم ٣٨ فستره يذكر أجداد قبيلته في أيام بزاحة والنسار وطخفة والكُلاب وذات السليم ، واقرأ قصائد بشر بن أبي خازم الأسدي في المفضليات أيضاً فستجده يفصل الحديث عن حروب قومه مع بني عامر في يوم النصار ومعهم ومع أحلافهم من تميم في يوم الجفار وما أنزلوا بهم من خسائر في الرجال ، وتعرض لانتصاراتهم على كثير من القبائل مثل جرهم والرباب وجندام وبني سليم وبني كلاب وبني أشجع ومرة بن ذبيان . ولم يكونوا يقفون عند ذلك ، بل كانوا يقذفون في الأعراض ويطعنون في الأنساب ، متعرضين للأهيات على نحو ما نرى عند الجُمَيْح الأسدي في هجاء بني عامر وقد غدروا بأسدي منهم وقتلوه فقال يعبرهم بما غدروا ، مفدياً أهمهم سلمى استهزاء بهم لما ألحقوا بها من العار ، ثم عاد فادعى عليها البغاء (١) :

سائلٌ معداً من الفوارس لا أوقوا بجيرانهم ولا غنموا
فدى لسلمي ثوباي إذ دنس الـ قومٌ وإذ يدسمون ما دسموا (٢)
أنتم بنو المرأة التي زعم الـ ناس عليها في الفتي ما زعموا
واسترسل يصمها أبشع الوصم بأبيات ثلاث لا نستطيع التمثل بها لإمعانه في
الفحش . وكثيراً ما يتعرضون لشخص فيزعمون أنه دعى في قومه زئيم . وشاع بينهم
هذا الضرب من الوقوع في الأعراض ، مما نجد آثاره فيما بعد عند جرير والفرزدق

(١) المفضليات ص ٤١ . وهو الدنس . يقول ذلك تهكماً واستهزاء بهم وبأهمهم .

(٢) ثوباي : أراد نفسه . يدسمون : من الدسم

في العصر الإسلامي ، وكأنما أصبح همّ الهاجى أن يضرب عدوه الضربة القاضية ، حتى لو كان شريفاً معروفاً بكثرة المناقب كما يلاحظ الجاحظ ، بل لكان مناقبه كانت تؤذيهم ، فكانوا يلطخونه بالعارما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، ومن ثمّ لا نعجب حين نجد شاعراً يزعم أن النعمان بن المنذر لم يولد لرشدة ، فهو ليس سليل المناذرة إنما هو سليل صائغ بالحيرة ، يقول فيه عبد قيّس بن خفاف البرجمي ^(١) :

لعنَ اللهَ ثمَ ثَنَى بَلَعْنِ ابْنَ ذَا الصَّائِغِ الظُّلُومَ الْجَهُولَا
يَجْمَعُ الْجَيْشَ ذَا الْأُلُوفِ وَيَغْزُو ثَمَ لَا يَرْزَا الْعَدُوَّ فَتِيلَا ^(٢)

وكان النعمان كثير الوقائع في قبائل العرب وخاصة عبد القيس فتعرض له شاعرها يزيد بن الحذاق بهجاء كثير يتوعده وينذره ويخيفه ، يقول في بعضه ^(٣) :

نَعْمَانُ إِنَّكَ خَائِنٌ خَلَعٌ يُخْفِي ضَمِيرُكَ غَيْرَ مَا تُبْدِي

وقصة هجاء المتلمس وطرفة لعمر بن هند مشهورة .

ولم يكن جمهور هجاءهم يُفسرَدُ بالقصائد ، بل كانوا يسوقونه غالباً في تضاعيف حماسهم وإشادتهم بأبجادهم وانتصاراتهم الحربية ، ولا نُبعد إذا قلنا إن الحماسة أهم موضوع استنفد قصائدهم ، فقد سَعَرَتِهم الحروب ، وأمدّها شعراؤهم بوقود جزل من التغنى ببطلاتهم وأنهم لا يرهبون الموت ، فهم يترامون عليه تحت ظلال السيوف والرماح مدافعين عن شرف قبائلهم وحماها . ويرتفع هذا الغناء بل قل هذا الصياح في كل مكان ، بحيث يخيل إلينا أنه لم يكن هناك صوت سواه ، ولعل ذلك ما دفع أبا تمام إلى أن يسمى مجموعته من أشعارهم وأشعار من خلفوهم باسم الحماسة ، فهي التي تستنفد أشعارهم وقصيدهم ، وهي ديوانهم الذي يسطر تاريخهم ومناقبهم ومفاخرهم ، وهل هناك فخر أعلى من فخر الشجاعة والتنكيل بالأعداء . وقرأ في المفضليات والأصمعيات فستجد هذا الفخر وما يطوى فيه من حماسة يدور على كل لسان ، وستجد الشاعر فيه يتحدث دائماً عما تعتز به قبيلته من الأخذ بأوتارها ومن تضيق الخناق على أعدائها ، وهو يعدد أيامها مشيداً بحسبها ونسبها وصبرها في

الملمات وكرمها في الجذب وحمايتها للجار وإغايتها للملحوف ، وفي أثناء ذلك يصوب سهام الهجاء إلى نحور أعدائهم ، وكأنه يريد أن يقضى عليهم قضاء مبرماً . ونحس في هذه الحماسة أثر الموجدة الشديدة والحدق البالغ على خصوصهم ، فهم دائماً يتعرضون لهم يهددونهم ويتوعدونهم انتقاماً مروّعاً ، وكان أشد ما يهيجهم أن يقتل منهم قتيل ، فحينئذ تهيج القبيلة ويهيج شعراؤها هياجاً لا حد له ، فإذا تأثرت لنفسها وشفقت غلّها وحقدتها أخذ شعراؤها ينشدون أناشيد النصر من مثل قصيدة دُرَيْد بن الصَّمَّة التي يتغنى فيها بأنه ثار من قتلة أخيه عبد الله ، ومع ذلك لا يزال يتوعدهم ، يقول (١) :

ويا راكباً إما عرضتَ قبلُغَنَ أبا غالبٍ أن قد ثأرنا بغالبِ (٢)
 قتلتُ بعبد الله خير لِدَاتِهِ ذُؤَابَ بن أسماء بن زيد بن قاربِ (٣)
 فلليوم سُميتُم قَزَارَةُ فاصبروا لَوْعِ القَنَا تَنزَوْنَ نَزْوَ الجَنَادِ (٤)
 تَكُرُّ عليهم رَجَلَتِي وفوارسي وأكرهُ فيهم صَعْدَتِي غير ناكِبِ (٥)
 فإن تُدْبِرُوا يأخذنكم في ظهوركم وإن تُقْبِلُوا يأخذنكم في التَّرائِبِ (٦)
 وإن تُسهِّلُوا للخيل تُسهِّلَ عليكمُ بطعنِ كَيْزَاغِ المَخَاضِ الصُّوَابِ (٧)
 ومرةً قد أخرجنهم فتركنهم يروغون بالصَّلَاءِ رَوْغَ الثَّعَالِبِ (٨)
 وأشجعَ قد أدركنهم فتركنهم يخافون خَطْفَ الطير من كل جانبِ
 وشعبة الخُنثى تركنا شريدهم تَعِلَّةً لَاهٍ في البلاد ولاعبِ
 فليت قبوراً بالمخاضة أخبرتْ فتُخْبِرُنا الخُضْرَ خُضْرَ مُحَارِبِ (٩)

(١) الأصمعيات ص ١١٧ .

(٢) عرضت : أتيت العروض ، يريد مكة والمدينة وما حولها .

(٣) لدات : جمع لدة وهو الترب والكف .

(٤) النزو : الوثب ، الجنادب : ضرب

صغير من الجراد .

(٥) رجلى : جمع راجل ضد الفارس

الراكب ، وهم المشاة . والصعدة : القناة .

غير فاكب : غير عادل عنهم .

(٦) الترائب : عظام الصدر .

(٧) تسهلوا : تنزلوا السهل من الأرض .

المخاض : الحوامل من النوق ، الصواريب :

الوقائع ، وإيزاغها : أن تسمى ببوها شبه رشاش

الطعنة من الدم ببوها ورشاشه .

(٨) يروغون : يذهبون هنا وهناك . الصلاء

موضع هو مكان معركته مع مرة .

(٩) المخاضة : موضع من ديار ذبيان ،

وخضر محارب : قبيلة .

رَدَسْنَاهُمْ بِالْخَيْلِ حَتَّى تَمَلَّاتِ عَوَافِي الضَّبَاعِ وَالذَّنَابِ السَّوَاغِبِ (١)
ذَرِينِي أَطُوفُ فِي الْبِلَادِ لَعَلَّنِي أَلَاقِي بِإِثْرِ ثُلَّةٍ مِنْ مُحَارِبِ (٢)

وواضح أنه يتشقى من قتلة أخيه، فقد ظفر مع جمع من قبيلته بأعدائه من فزارة، فأخذتهم سيوفهم من أمام ومن وراء، ومسهلين في الأرض. ويصور ما لقيته مرة في الحرب من بلاء شديد وكيف هربت أشجع وكيف نكلوا ببني ثعلبة وبني محارب، حتى شبت منهم الضباع. ويتهادهم بأنه سيعيد الكرة عليهم. وفي كل مكان يدوي مثل هذا التشديد، ومن روايتهم في هذا الباب معلقة عمرو بن كلثوم، وفيها يصيح بانتصارات قومه وأيامهم المعلمة المشهورة من مثل قوله:

مَتَى نَنْقِلُ إِلَى قَوْمِ رَحَانَا يَكُونُ ثِفَالُهَا شَرْقَى نَجْدِ
نُطَاعِنَ مَا تَرَاحَى النَّاسُ عَنَا بِسُمْرٍ مِنْ قَنَا الْخَطَى لُدُنْ
نَشَقُّ بِهَا رُءُوسَ الْقَوْمِ شَقًّا كَأَنَّ جَمَاجِمَ الْأَبْطَالِ فِيهَا
وَرِثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمْتُ مَعَدُّ وَنَحْنُ إِذَا عِمَادُ الْحَيِّ خَرَّتْ
نَجْدٌ رُءُوسُهُمْ فِي غَيْرِ وَتَرٍ يَكُونُوا فِي اللَّقَاءِ لَهَا طَحِينَا
وَلُهُوتُهَا قِضَاعَةً أَجْمَعِينَا (٣)
وَنَضْرِبُ بِالسَّيْفِ إِذَا غُشِينَا ذَوَابِلَ أَوْ بَبِيضٍ يَغْتَلِينَا (٤)
وَنُخْلِيهَا الرُّقَابَ فَتَخْتَلِينَا وَسُوقُ بِالْأَمَازِ يَرْتَمِينَا (٥)
نُطَاعِنَ دُونَهُ حَتَّى يَبِينَا (٦)
عَلَى الْأَحْقَاضِ نَمْنَعُ مِنْ يَلِينَا (٧)
فَمَا يَدْرُونَ مَاذَا يَتَّقُونَا (٨)

(١) ردسناهم : رديناهم ، العوافى :

الجماعة ، وكذلك السواغب .

(٢) الثلة : الجماعة من الناس .

(٣) الثفال : خرقه توضع تحت الرحي

لاستقبال ما يطلن ، الهوة : القبضة من الحب .

(٤) توصف الرياح بالسمرة لذبولها ، وقنا

الخطى : نسبة إلى الخط وهي بلدة كانت على

ساحل البحرين تشتهر بصناعة القنا ، اللدن :

المرقة . البيض : السيوف .

(٥) الأماز : الأراضي الصلبة ، الوسوق :

جمع سوق وهو الحمل .

(٦) يبين : يتضح .

(٧) العماذ : جمع عمود ، خرت : سقطت ،

الأحفاض : متاع البيت ، يقصد بذلك رحلة

الحج للحرب .

(٨) الوتر : الثأر ، ونجد : نقطع .

كَأَنَّ سَيْفُونَا فِينَا وَفِيهِمْ مَخَارِيقُ بِأَيْدِي لَاعِبِينَا^(١)
كَأَنَّ ثِيَابَنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ خُضْبُنَ بِأَرْجَوَانٍ أَوْ طُلِينَا^(٢)

والمعلقة جميعها صياح شديد على هذا النحو الذى يرفع فيه قبيلته تغلب على كل من حولها فى نجد شرقها وغربها ، فكل من حدثته نفسه منهم بقتالها كان مصيره الهلاك والدمار ، ويقول إن حياتهم سلسلة من الحروب ، ويصف أسلحتهم التى يذيقون بها أعداءهم كثوس الموت المرة ، ومدَّ فخره إلى قبائل معد كلها بما يجذون من رموس شجعانها ، واعترف لأعدائه بشجاعته ، فالسيف فى أيديهم وأيدي أعدائهم كأنها مخاريق بأيدي لاعبين ، وهم يقتلون فيهم ، كما يُقتل من قومه ، فثيابهم جميعاً ملطخة بالدماء . وليس عمرو وحده الذى يصف خصومه بالشجاعة ، فهناك كثيرون اشتهروا بهذا الإنصاف ، وتسمى قصائدهم المنصفة وفى الأصمعيات أمثلة منها طريفة ، من مثل قول المفضل النُكمرى يصف موقعة بين عشيرته من بنى نكرة بن عبد القيس وعشيرة عمرو بن عوف ، يقول (٣) :

كَأَنَّ هَزِيزَنَا يَوْمَ التَّقِينَا هَزِيزُ أَبَاةٍ فِيهَا حَرِيقُ^(٤)
وَكَمَ مِنْ سَيْدٍ مِنَّا وَمِنْهُمْ بَذَى الطَّرْفَاءِ مَنْطَقُهُ شَهِيْقُ^(٥)
فَأَشْبَعْنَا السَّبَاعَ وَأَشْبَعُوها فَرَاَحَتْ كُلُّهَا تَثِيقُ يَفُوقُ^(٦)
فَأَبَكَيْنَا نِسَاءَهُمْ وَأَبَكُوا نِسَاءَ مَا يَسُوغُ لَهْنٍ رِيْقُ
يُجَاوِبُنَ النَّيَّاحَ بِكُلِّ فَجْرٍ فَقَدْ صَحَلَتْ مِنَ النَّوْحِ الْحُلُوقُ^(٧)

وطببعي وهم يصورون هذه الملاحم أن يصفوا أسلحتهم على نحو ما تقدم عند عمرو بن كلثوم ، وهناك كثيرون يطيلون فى وصفها ووصف الخيل التى يركبونها فى اللقاء . ومن اشتهر بينهم بوصف الأسلحة أوس بن حجر فى لامية له مشهورة أطال فيها فى تصوير سيفه ورمحه ودرعه وقوسه ، ويلقانا هذا الوصف كثيراً فى المفضليات

- (١) المخاريق : المناديل تلف ويلعب بها ،
(٢) لبة كانت عندهم .
(٣) الأرجوان : صيغ أحمر .
(٤) الهزيز : الصوت ، الأباة : أجمة الغراب .
(٥) ذو الطرفاء : موضع المعركة .
(٦) تثق : تمتلئ ، يفوق : يأخذه البهر .
(٧) صحلت : بحت .

والأصمعيات^(١) ، كما يلقانا معه وصفهم للخيل وكانوا يلقونها بالأسماء ، ومن اشتهر في هذا الوصف أبو دؤاد الإيادي وزيد الخيل وعمرو بن معد يكرب وغيرهم من فرسانهم المعدودين ، وتزخر المفضليات والأصمعيات بهذا الوصف عند من سميتهم وغيرهم .

وفي الحق أن هذا اللون من شعرهم ليس شعر قوة وبطولة فحسب ، فقد تغنوا فيه بكريم الشيم وكل ما اتخذه مثلاً رفيعاً لهم في حياتهم وسلوكهم ، من كرم ووفاء وغير كرم ووفاء ، فعلى نحو ما صوروا فيه بطولة وشجاعة نادرة صوروا كثيراً من الفضائل الحميدة على شاكلة ما نقرأ في ميمية ربيعة بن مقروم إذ يقول^(٢) :

وإن تسأليني فإني امسروُ أهين اللثيمَ وأخْبُو الكريما
وأبني المعالي بالمكرُماتِ وأرضي الخليل وأروى النديما
ويحمد بذلي له مُعْتَفٍ إذا ذمَّ من يَعْتَفِيهِ اللثيما^(٣)
وأجزى القروضَ وفاءً بها ببؤسى بئسى ونُعْمى نعيما^(٤)
وقوى فإنْ أنت كذَّبْتَنِي بقولِي فاسْئَلْ بقوى عليما
يُهيِنون في الحق أموالهم إذا اللَّزَبَاتُ انتَحَيْنِ المُسيما^(٥)
طوالُ الرماح غداة الصبحِ ذُوو نَجْدَةٍ يَمْنَعون الخريما

وهو يذكر في البيت الثاني أن من شيمه أن يروى نديمه بالخمير ، ويكثر في حماستهم تملحهم بأنهم يسقون ندماءهم الخمر وأنهم يأخذون حظهم من الغناء وسماع القيان ولعب الميسر^(٦) ، وكأن في ذلك إعلاناً عن كرمهم وبنلهم على نحو ما تقدم في غير هذا الموضع عن طرفة وفتوته . وربما كان ذلك هو أصل ذكر الخمر ووصفها في الشعر الجاهلي على نحو ما هو معروف عن الأعشى وعلدى بن زيد

(١) انظر المفضليات ص ٩٥ وما بعدها
(٢) رقم ٦٤ و ٧٥ والأصمعيات رقم ٦٢ و ٦٥ .
(٣) المفضليات ص ١٨٣ .
(٤) المعتق : السائل في غير طلب .
(٥) البؤس والبئسى بمعنى ، يقول يجزى
بالسيرة مثلاً وكذلك الحسنة .
(٦) المفضليات رقم ١١٣ ، ١٢٠ .

العبادى ، فقد تحولوا بها من هذا الباب إلى وصفها في ذاتها وصفاً طريفاً .
ومن الموضوعات التى تتصل اتصالاً واضحاً بالحماسة الرثاء ، فقد كانوا يرثون
أبطالهم في قصائد حماسية يريدون بها أن يثيروا قبائلهم لتأخذ بثأرهم ^(١) ، فكانوا
يمجدون خلاصهم ويصفون مناقبهم التى فقدتها القبيلة فيهم ، حتى تنفر إلى حرب من
قتلهم . وكان يشرك الرجال في ذلك النساء ، فقد كن ما يزلن ينحُنَّ على القَتيل
حتى تثار القبيلة له . ويظهر أنه كان يشيع عندهم ضرب من (التعديد) الذى
نعرفه في مصر ، فما تزال امرأة تنوح ويرد عليها صواحبا ، وقد حدثنا الرواة أن
الخنساء كانت تخرج إلى عكاظ فتندب أخويها صخرًا ومعاوية ، وكانت هند بنت
عتبة أم معاوية تحكيها نائحةً أباهما ^(٢) . وفي هذا الخبر ما يدل على أن النساء لم
يكن يندبن موتاهن يوماً أو أياماً ، بل كن يُطلن ذلك إلى سنين معدودات ، ويقال
لهن كن يخلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود ، وكن يصنعن
ذلك على القبر وفي مجالس القبيلة والمواسم العظام . ولعل في حلق رهوسن ما يجمع بينهن
وبين الهجائين كما قدمنا وما يشهد بأن هذا الرثاء إنما هو تطور عن تعويذات كانت
تقال للميت وعلى قبره حتى يطمئن في لحدّه . وبمر الزمن تطور الرثاء عندهم إلى
تصوير حزنهم العميق إزاء ما أصابهم به الزمن في فقيدهم ، فتلك التعويذات أصبحت
وخاصة عند نساءهم بكاء ونواحاً وندباً حاراً . ونجد بجانب هذا الندب ضرباً من
الرثاء يقوم على تأبين الميت والإشادة بخصاله وصفاته ، وما نشك في أن الصورة
القديمة لهذا التأبين هي تلك النقوش التى عثروا عليها في أنحاء مختلفة من الجزيرة ،
وقد تحدثنا عنها فيما أسلفنا ، وكانوا يكتبون فيها أسماءهم وألقابهم وبعض أعمالهم
تمجيهاً لذكراهم وتخليداً لها ، وتحولت هذه الصورة الساذجة إلى هذا التأبين الواسع
الذى نجده عند الجاهليين . وقد ذهبوا يضمنون إليه صورة من العزاء والدعوة إلى
الصبر على الشدائد ، فالموت كأس دائرة على الجميع ، ولا مرد لحكم القضاء .

وقام بالقسط الأكبر من ندب الميت وبكائه النساء ، فكن يشققن جيوبهن
عليه ويلطمن وجوههن ويقرعن صدورهن ويعقدن عليه مأتماً من العويل والبكاء ،
ومن خير ما يصور ذلك كتاب « مرآئى شواعر العرب » للويس شيخو ، وسابقتهم

التي لا تنازعُ هي الخنساء ، فقد قُتِلَ أخوها معاوية في بعض المعارك ، فارتفع نشيجها وبكاؤها عليه ، وقُتِلَ أيضاً أخوها صخر فاتسع الجرح والتاعت لوعة شديدة ، ومن رائع ما نذبت به صخرًا :

قَدَى بِعَيْنِكَ أُمَ بِالْعَيْنِ عَوَّارُ
كَأَنَّ عَيْنِي لَذِكْرَاهُ إِذَا خَطَرْتُ
فَالْعَيْنِ تَبْكِي عَلَى صَخْرٍ وَحَقُّ لَهَا
تَبْكِي خُنَاسٌ وَمَاتَنَفَكُ مَاعَمَرْتُ
بِكَاءَ وَالْهَةِ ضَلَّتْ أَلِفَتَهَا
تَرْعَى إِذَا نَسِيتُ حَتَّى إِذَا ذَكَرْتُ
وَلِإِنْ صَخْرًا لَسَاتُمْ الْهَذَاةُ بِهِ
كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارُ^(١)
فَيَنْصُ يَسِيلُ عَلَى الْخَدَّيْنِ مِذْرَارُ^(٢)
وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ الْأَرْضِ أَسْتَارُ^(٣)
لَهَا عَلَيْهِ رَنِينَ وَهِيَ مِقْتَارُ^(٤)
لَهَا حَنِينَانِ : لِإِصْفَارُ وَإِكْبَارُ^(٥)
فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالُ وَإِدْبَارُ^(٦)
كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارُ^(٧)

ولعل من الطريف أن بعض شعرائهم كان إذا أحسَّ داعي الموت ندب نفسه ووصف ما يصنعه به أهله بعد الموت من تَرْجِيلِ شعره ووضعه في مدارج الكفن ، ثم كَحْدَهُ ودفنه ، وتنسَّبُ للممزَّقِ العبدى أو ليزيد بن الحذَّاقِ قطعة يصور فيها هذا المصير الذى ينتظره ، يقول فيها ^(٧) :

هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقٍ
قَدْ رَجَلُونِي وَمَا رُجِّلْتُ مِنْ شَعَثٍ
وَأَرْسَلُوا فَتِيَّةً مِنْ خَيْرِهِمْ حَسْبًا
أُمَ هَلْ لَهْ مِنْ حِمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاقٍ^(٨)
وَأَلْبَسُونِي ثِيَابًا غَيْرَ أَخْلَاقٍ^(٩)
لِيُسْنِدُوا قِيَّ ضَرِيحِ التُّرْبِ أَطْبَاقٍ^(١٠)

- (١) العوار : الرمد ، ذرفت : قطرت
قطرًا متتابعًا .
(٢) مِذْرَارُ : كثير .
(٣) الأستار : الأحجار ، وكنت
بجديد الأرض عن أنه مات حديثًا .
(٤) خناس : الخنساء ، مقتار : ضعيفة .
(٥) الإصْفَارُ : خفض الصوت بالحنين ،
والإِكْبَارُ : رفعه .
(٦) العلم : الجبل .
(٧) المفضليات : ص ٣٠٠ .
(٨) بنات الدهر : أحداثه ، حمام الموت : دفنه .
(٩) الترجيل : تسريح الشعر ، الأخلاق :
المعزة .
(١٠) الأطباق : المفاصل .

وكانوا يكثرون من تأيين من يموتون منهم في ميادين الحرب ، وقد يضمنون هذا التأيين هجاء لاذعاً لخصومهم وفتحاً بعشيرتهم ومآثرها وأيامها ، على نحو ما نجد في قصيدة المرقش ^(١) :

هل بالديار أن تجيب صمم لو كان رسم ناطقاً كلّم
فقد بداها بالغزل وخرج منه إلى الرثاء ، فديح بعض ملوك الغساسنة ، ثم فخر بقومه ، وهجا أعداءهم . وقد يجعلون القصيدة خالصة للتأيين ، على نحو ما صنع دريد بن الصمة في مريثة أخيه عبد الله ^(٢) .

أرث جديده الجبل من أم معبد بعاقبة وأخلفت كل موعد
وقد استهلها على هذه الشاكلة بالغزل ، ثم مضى يرثي أخاه مصوراً مصرعه وولفه به وجزعه ومتحدثاً عن خلاله الحميدة من الشجاعة والجود والمضاء والصبر والحزم .

ولم يؤنوا أبطالهم من القتلى فحسب ، بل فسحوا في مراثيهم لتأيين أشرافهم وإن ماتوا حتف أنوفهم ، فتحراً بهم واعتزازاً بمناقبهم وأعمالهم ومآثرهم . وقد نجدهم يستنزلون لهم الغيث من السماء حتى تصبح قبورهم رياضاً عطرة . ومن رائع تأيينهم مريثة أوس بن حجر لفصالة بن ككلة الأسدي ، وفيها يقول ^(٣) :

أيتها النفس أجمل جزعاً إن الذى تحذرين قد وقعا
إن الذى جمع الساحة والد جدّة والحزم والقوى جمعا
الألمى الذى يظن لك ال ظن كأن قد رأى وقد سمعا ^(٤)
المخلف المتلف المرزأ لم يمتع بضعف ولم يمت طبيعا ^(٥)
أودى وهل تنفع الإشاحة من شيء لمن قد يحاول البدعا ^(٦)

يحدث الأمور فلا يخطئ وأنه فطن صادق
الفن جيد الفراسة .

(٥) المرزأ : الذى تصيبه الرزايا في ماله
لكرمه ، يمتع : يصاب ، الطبع : التيم .
(٦) أودى : مات ، الإشاحة : الجد في طلب الشيء ، البدع : الأمور الغريبة .

(١) المفضليات ص ٢٣٧ .

(٢) الأصمعيات ص ١١١ ، أرث : أخلق . بعاقبة : بأخرة .

(٣) ديوان أوس بن حجر ص ٥٣ والأغاني ٧٤/١١ .

(٤) الألمى : حاد الذكاء ، يريد أنه

وكانوا أحياناً حين يذكرون الموت يتأسون ويتعزون عنه بأنه حوض لا بد من وروده وقد سبقهم إليه الأجيال الماضية من ملوك وغير ملوك (١) :

وعلى هذا النحو أَلَمَّ الشاعر الجاهلي بجوانب الرثاء الثلاثة من الندب والتأبين والعزاء ، وكان رثاؤه غالباً يتعلق بأفراد وقلماء تعلق بمجموعة من الفرسان ، ومن هذا القليل قصيدة أصمعية لأبي دؤاد الإيادي يرثي فيها من أودى من شباب قبيلته وكهولهم ، ونراه يقول في مطلع رثائهم (٢) :

لَا أَعُدُّ الْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلَكِنْ فَقَدْتُ مَنْ قَدْ رُزِنْتُهُ الْإِعْدَامُ

ويستمر يبكي فيهم الرؤوس العظام وخلالهم من التأني والرفق والكرم وطيب الأرومة وشجاعة الأسد وما يخلط فرط حداثتهم من أحلام وعقول راجحة ، ويقول لإنهم أصبحوا هاماً وصدى ، إذ كانوا يعتقدون أن عظام الميت تتحول هامة تطير وصدى ما يزال يقول اسقوني :

سُلِّطَ الدَّهْرُ وَالْمَنُونُ عَلَيْهِمْ فَلَهُمْ فِي صَدَى الْمَقَابِرِ هَامٌ

فَعَلَى إِثْرِهِمْ تَسَاقَطَتْ نَفْسِي حَسِرَاتٍ وَذَكَرَهُمْ لِي سَقَامٌ

وبجانب هذا الرثاء كان عندهم مديح واسع يتمدحون فيه بمناب قبائلهم وساداتها . وكانوا كثيراً ما يمدحون القبيلة التي يجدون فيها كرم الجوار متحدثين عن عزتها وإبائها وشجاعة أبنائها وما فيهم من فتك بأعدائهم وإكرام لضيوفهم ورعاية لحقوق جيرانهم (٣) .

وكان بعض السادة تمتد مآثرهم إلى من حولهم من القبائل فكان يتصدى لهم شعراؤها يمدحونهم لمكرماتهم التي أدوها ، كأن يفتكوا أسيراً ، على نحو ما صنع خالد بن أنمار بابن أخت المثقب العبدى ، فكان جزاؤه منه مدحة جيدة ، يقول فيها (٤) :

ربيعى الندى : نسب نداه إلى الربيع كناية

عن كثرة وإمرائه ، والندى : الكرم . ويقول

إن مجلسه غير لعم فهو لا يتلاطم فيه ، إنما

هو مجلس سكون وحلم .

(١) المفضليات ص ٢١٧ .

(٢) الأصميات ص ٢١٥ .

(٣) المفضليات ص ٣٠٥ ، ٣٧١ .

(٤) المفضليات ص ٢٩٤ ، مترج : ملائ .

مُتَرَعُ الْجَفْنَةِ رِبْعِي النَّدَى حَسَنُ مَجْلُسِهِ غَيْرُ لُطَمٍ

ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى يتخذ الشعراء المديح وسيلة إلى الكسب ، فهم يقدّمون به على السادة المبرزين وملوك المناذرة والغساسنة يمدحونهم ويتألون جوائزهم وعطاياهم الجزيلة . وأخذوا في أثناء ذلك يعنون بهذه القصائد عناية بالغة حتى تحقق لهم ما يريدون من التأثير في ممدوحهم . واشتهر بذلك زهير والنابغة وحسان ابن ثابت ، أما زهير فاختص بأشراف قومه ، وأما حسان فاختص بالغساسنة ، ولعلقمة بن عبدة فيهم مفضلية بديعة نظمتها في الحارث الأصغر يتشفع لأخيه وقد وقع في يديه أسيراً ^(١) . أما النابغة فخص النعمان بن المنذر بمدائحه ، وتصادف أن وقع بعض قومه أسرى في أيدي الغساسنة ، فأقبل عليهم يمدحهم ويتشفع فيهم ، مما كان سبباً في غضب النعمان بن المنذر عليه ، وسرعان ما أخذ يقدم له اعتذارات هي من أروع ما دبّجه الجاهليون

ومعنى ذلك أن الاعتذار نشأ نشوءاً من المديح وفي ظلاله ، وإن كانت تتداخل فيه عاطفة الخوف مع عاطفة الشكر والرجاء . وما ينحو نحو الاعتذار ما ظهر عندهم من فنون عتاب كان ينشئه بعض الشعراء ملامة لما قد يصيبه من أذى الأقارب على نحو ما نجد عند ذى الإصبع العُدْوانى ^(٢) والمتلمّس ^(٣) .

ولكن عتابهم واعتذارهم قليل ، أما المديح فكثير كثيرة مفرطة ، إذ رحل به الشعراء إلى الملوك والأشراف يمتارون به ، ويرجعون إلى أهلهم بُجْر الحقائق . ويظهر أن المناذرة خاصة كانوا يتخذونه وسيلة للدعاية لهم في القبائل ، فكثّر الشعراء حولهم وأخذ يموج بهم بلاطهم منذ عمرو بن هند ، فقد قصده كثيرون من أمثال المثقب العبدى ، الذى لجأ إليه يملحه بعد إيقاعه بقبيلته ، ومن رحل إليه التلمس والمزق العبدى وطرفة والمسيب بن علس . وكان النعمان بن المنذر مملحاً للشعراء ومن بديع ما نُظِم فيه قول حُجْر بن خالد ^(٤) :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أجِدْ كفعل أبى قابوسَ حزماً ونائلاً

(١) المفضليات ص ٣٩٠ وما بعدها . (٢) الأسميات رقم ٩٢ .

(٣) انظر قصيدته في المفضليات برقمى ٣١٠٢٩ . (٤) الحيوان ٥٨/٣ .

يُسَاقُ الغَمَامُ الغُرُّ من كل بلدةٍ إليك فأضحى حول بيتك نازلاً
فلئن أنت تهلك يهلك الباعُ والنَّدَى وتُضْحى قُلُوصُ الحمد جُرباءَ حائلاً^(١)
فلا ملكٌ ما يبلغنك سَعْيُهُ ولا سوقَةٌ ما يمدحنك باطلاً
وانتهى هذا الفن من فنون شعرهم إلى الأعشى فأصبح حرفة خالصة للمنالة
والتكسب ، إذ لم يترك ملكاً ولا سيّداً مشهوراً في أنحاء الجزيرة إلا قصده وملحه
وفخّم شأنه معرضاً بالسؤال .

وإذا تركنا المديح إلى الغزل وجدناه موزعاً بين ذكريات الشاعر لشبابه ووصفه
للمرأة ومعروف أن أول صورة تلقانا في قصائدهم هي بكاء الديار القديمة التي
رحلوا عنها وتركوا فيها ذكريات شبابهم الأولى ، وهو بكاء يفيض بالحنين الرائع ،
ومربّنا أنهم يردونه إلى شاعر قديم سبق امرأ القيس هو ابن خديّام ، وربما كان في
ذلك ما يدل على أن هذا الجزء من غزلهم يسبق في قدمه الأجزاء الأخرى فيه .

ونراهم يقفون عند المرأة فيصفون جسدها ، ولا يكادون يتركون شيئاً فيها دون
وصف له ، إذ يتعرضون لحيينها وخذها وعنقها وصدرها وعينها وفها وريقها ومعصمها
وساقها وثديها وشعرها ، كما يتعرضون لثيابها وزينتها وحليها وطيبها وحيائها وعفتها^(٢) ،
وقد يتعرضون لبعض مغامراتهم معها ، وهي مغامرات تحوّل بها بعض الرواة إلى
قصص غرامية على نحو ما قصّوا عن حب المرقش الأكبر لأسماء والأصغر لفاطمة
بنت المنذر وعن حب المنخّل الشكري للمتجردة زوج النعمان ، وله قصيدة رائعة
رواها الأصمعي وهي تجري على هذا النمط^(٣) :

ولقد دخلتُ على الفتاة في الخِدرِ في اليوم المَطِيرِ
الكاعبِ الحسناءَ ترُ فل في الدَّمَقِيسِ وفي الحريرِ
فدفعْتُها فتدافعتْ
مَشَى القِطَاةِ إلى الغَدِيرِ

(٢) المفضليات رقم ٢٠ .

(٣) الأسميات رقم ١٤ .

(١) الباع : الشرف ، الندى : الكرم .

القلوص : الناقة الشابة . الحائل : التي

جبل عليها فلم تلتح .

وَلَشَمْتُهَا فَتَنَفَّسَتْ كَتَنَفَّسَ الظُّبَى الْبَهِيرِ^(١)
فَدَنَنْتُ وَقَالَتْ يَا مَنْ خَلَّ مَا بِجَسْمِكَ مِنْ حَرُورٍ
مَا شَفَّ جَسْمِي غَيْرَ حُبٍّ لَكَ فَاهْدُئْ عَنِّي وَسِيرِي

ووقف الشعراء طويلاً يصورون حبهـم للمرأة وما يذرفون من دموعهم على شاكـلة قول بشر بن أبي خازم^(٢) :

فَظَلَلْتُ مِنْ فَرَطِ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى طَرَفًا فَوَادُكَ مِثْلَ فَعْلِ الْإِنْهَمِ^(٣)
وكانت ذكراها لا تزال تلم بهم ، ومن ثمَّ أكثروا الحديث عن طيفها وما يثيره في أنفسهم من تباريح الحب^(٤) ولم في وصف هذه الذكرى وماتصنع بهم شعر كثير يصفون فيه صبايتهم على شاكـلة قول المرقش الأصغر^(٥) :

صَحَا قَلْبُهُ عَنْهَا ، عَلَى أَنْ ذِكْرَهُ إِذَا خَطَرْتُ دَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ قَائِمًا
وكانوا كثيراً ما يصفون ظُعنُها ، وهي ترحل في الجزيرة من موضع إلى موضع ، وكانت الرحلة أساساً في حياتهم ، فهم يرحلون وراء منابت الغيث ، ويتقلون معها حيث حلت ، وفي معلقة زهير وصف طويل لهذه الظعن ، وربما فاقه في هذا الوصف المثقَّب العبدى في قصيدته^(٦) :

أَفَاطُمُ قَبْلَ بَيْنِكَ مَتَّعْنِي وَمَنْعُكَ مَا سَأَلْتُ كَأَنْ تَبِينِي
فَإِنِّي لَوْ تَخَالَفَنِي شِمَالِي خِلَافُكَ مَا وَصَلْتُ بِهَا يَمِينِي

وقد مضى يصف ظُعنُها ويتبع سيرها وما تصنع هي وصواحبها في قلوب الرجال وهن يظهرن بكـلَّة ويسدلن أخرى ويرسلن براقعهن على وجوههن وذوائبهن على ظهورهن :

(١) البهـير : من البهر وهو ما يترى الإنسان والحيوان عند السعى الشديد من التـج وتتابع الأنفاس .
(٢) المفضليات ص ٣٩ ، ١١٣ والأصمـيات ص ٥٧ ، ٢٤٦ .
(٣) المفضليات ص ٢٤٥ .
(٤) المفضليات ص ٢٨٨ .
(٥) المفضليات ص ٣٤٦ .
(٦) (٣) طرـفًا : يـلـو فـهـنا وهـنـاك ، الأيـهـم :

أَرَيْنَ مُحَاسِنًا وَكُنْتُ أُخْرَى مِنْ الْأَجْيَادِ وَالْبَشَرِ الْمُصُونِ
ويقول لمن كن يمددن أعناقهن مستشرفات للنظر وصاحبته بينهن تفوقهن حسناً
وجمالاً . وكن كطبيعة النساء في كل عصر ينصرفن عن الشَّيْبِ ومن قلّ ماله ^(١) .
ولذلك كثر عتابهم معهن ، وخاصة من حيث ما يأخذنه عليهم من البذل الذي يذهب
بأموالهم ، ودائماً نراهم يحتجون عليهن بأن خلود المرأة في بذر لا في ثرائه ^(٢) . وقد
يصورون في تعلقهم بالمرأة ضرباً من المتاع الحسى ، على نحو ما يصور ذلك طرفة
في معلقته وكذلك امرؤ القيس ، ومرد ذلك إلى ضرب شاع عندهم من الفتوة ، فهم
يتملحون بأنهم يغالون من المرأة ما يريدون ، وكانوا وثنيين ولم يكن هناك دين
يردهم . على أن منهم من كان يتسامى في غزله حتى يمكن القول بأن الغزل العذري
له أصول في الجاهلية عند عنزة وأضرابه .

ومن المؤكد أن المرأة الحرة لم تكن ممتهنة عندهم ، بل كانت في المكان المصون ، وكان
الشاعر يستلهمها شعره ، ولذلك كان يضعها في صدر قصيده ، ونحس عند
كثيرين منهم ، وخاصة فرسانهم من مثل عنزة ، أنهم يقدمون مغامراتهم في الكرم وفي
الحرب لها لينالوا حبها ، وكان أكثر ما يشجيم ويبعث الموجدة في قلوبهم أن تؤسر
وتسبي ، فكان لا يقر لهم قرار إلا أن يعودوا بها مكرمة إلى ديارهم .

ومن موضوعات شعرهم المهمة الوصف ، وقد وصفوا كل شيء وقعت عليه
أعينهم في صحرائهم ، وفي العادة يذكرون ذلك بعد غزلم وتشبيهم إذ يخرج الشعراء
إلى وصف رحلاتهم في الصحراء ، فيتحدثون عن قَطْعهم للمفاوز البعيدة ، فوق
إبلهم ، ويأخذون في وصفها وصفاً مسهباً على نحو ما هو معروف عن طرفة في
وصفه لنائقة بمعاقته وقد كاد أن لا يترك فيها عضواً ولا جزءاً دون وصف وتصوير ،
والمفضليات والأصمعيات تزخر بأحاديثهم عنها ومقدار ما كانوا يرون فيها من جمال
وكانوا يشبهونها بالقصور ويشبهون قوائمها بالأعمدة وقد يشبهونها بالسفن والقناطر
ويشبهون قوائمها بمجنوح الطلح ويديها بالصخر الغليظ أو بيدي السابح ، وصوتها

(١) المفضليات ص ٣٥ ، ١٨٦ ، ٤١٨ . بيت ٤ وما بعده ورقم ٥٩ ورقم ١٠٤ بيت

(٢) المفضليات ص ١١٨ ، ص ١٢٥ . ١٢ ، ١١

بصوت القصب وخفافها بالمطارق . وقد يشبهونها بالجليل ويشبهون صدرها بالطريق .
 وكانوا يشبهونها بكثير من الحيوان مثل الظليم والثور وحمار الوحش ،
 وحينئذ يستطردون إلى وصف هذه الحيوانات وما يكون من عراك بينها وبين كلاب
 الصيد^(١) ، يقول الجاحظ : « ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن
 تكون الكلاب هي التي تقتل بقر الوحش ، وإذا كان الشعر مديحاً وقال كأن ناقتي
 بقرة من صفها كذا أن تكون الكلاب هي المقتولة . ليس على أن ذلك حكاية عن
 قصة بعينها ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلها . وأماي أكثر ذلك فلإنها
 تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم »^(٢) . وكأنهم كانوا
 يتخذون قتل الكلاب في المديح رمزاً لأعداء الممدوح ، وكانوا فعلاً يشبهونهم
 بالكلاب^(٣) .

وعلى نحو ما أكثروا من وصف الإبل أكثروا من وصف الماعز كما أكثروا من
 وصف الخيل وشبهوها بضروب من السباع المنعوتة بالخالب وطول الأظفار .
 ولا مرئ القيس قطعة بديعة بمعلقته يصف فيها فرسه الذي اتخذه للصيد ، وفيها
 يقول :

له أَيْطَلَا ظَبْيِي وَسَاقَا نَعَامَةً وَإِرْخَاءً سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبَ تَتْفَلٍ^(٤)
 يقول أبو عبيدة : « وما يشبه خلقه من خلق النعامة طول وظيفها^(٥) وقصر
 ساقها وعُرْيَ نِسْيِهَا^(٦) وما يشبه من خلقه خلق الأرنب صغر كعبيها ، وما يشبه من
 خلقه خلق الحمار الوحشي غلظ لحمه وظماً فصوصه وسرته^(٧) وتمحُّص^(٨) عصبه
 وتمكن أرساغه^(٩) وعرض صهوته^(١٠) .. وما يشبه من خلقه خلق الكلب هَرَّتْ^(١١)
 شِدْقُه وطول لسانه وكثرة ريقه وانحدار قَصَصِه^(١٢) وسبوغ ضلوعه وطول ذراعيه ورُحْبُ

(٦) النسي : عرق في الساق .
 (٧) ظماً هنا : ضصور ، الفصوص : ملتق
 كل عظمتين ، سراته : أعلاه .
 (٨) تمحُّص : شدة .
 (٩) الرسغ في الحيوان : المستلق بين الحافر
 وموصل الوظيف من اليد والرجل .
 (١٠) الصهوة : مقعد الفارس على الفرس .
 (١١) هرت : اتساع .
 (١٢) قصه : صدره .

(١) انظر في ذلك معلقة لبيد والمفضليات
 رقم ١٧ بيت ٦٤ وما بعده حيث وصف مزرد
 صائداً مسياً كلابه الستة .
 (٢) الحيوان ٢/٢٠ .
 (٣) الأصمعيات ص ١٣٠ .
 (٤) أَيْطَلَا الظبي : خاصرته ، الإرخاء :
 سير السرحان وهو الذئب . والتتفل : الثعلب ،
 وتقريبه : قفزه ووثبه .
 (٥) الوظيف : مستدق الساق والذراع .

جلده ولحرق^(١) بطنه^(٢) . وكثيراً ما وصفوا كلاب الصيد وسموها أسماء كثيرة .
ولأبي زُبَيْد الطائي قصيدة طريفة يصور فيها معركة بين كلب له وأسد ، وقد حطمه
الأسد حطماً^(٣) ، وكما ذكروا الأسد ووصفوه وصفوا الذئب كقول طُفَيْل
الغنوي وقد شبه فرسه بذئب^(٤) :

كَيْسِدِ الْغُضَا الْعَادِي أَضَلَّ جِرَاعَهُ عَلَى شَرْفِ مُسْتَقْبَلِ الرِّيحِ يَلْحَبُ^(٥)
وذكروا الهر والديك والخزير في وصفهم لنشاط الناقة فقال أوس بن حجر^(٦) :
كَانَ هِرّاً جَنِيْباً عِنْدَ مَغْرَضِهَا وَالتَفَّ دِيكٌ بِرَجْلَيْهَا وَخِنْزِيرُ
وقد ذكروا كثيراً الضباع والرخم والعقبان والنسور والغربان وأكلها القتل^(٧)
كما ذكروا الخباري والضَّبَّ واليربوع والجُرْذَانِ والجُرَادِ والأَرَانِبِ والضَّفَادِعِ والوعول
أو المعز الجبلية . وتعرضوا كثيراً لوصف الحيات والأفاعي ، ويشبه عنزة نفسه إزاء
بعض أعدائه بأسود قد علق فيه نابيه ، ويقول في بعض وصفه له^(٨) :

رَقُودٌ ضُحِيَّاتٍ كَأَنَّ لِسَانَهُ إِذَا سَمِعَ الْأَجْرَاسَ مَكْحَالٌ أَرْمَدًا^(٩)
وعلى نحو ما وصفوا الحيوان والزواحف وصفوا الطير ، وكثيراً ما يستطردون من
وصف فرسهم بالعُقاب إلى وصفها^(١٠) ، وكانوا يذكرون الغراب كثيراً ويتشاءمون
به ، وفيه يقول عنزة^(١١) :

ظَعَنَ الَّذِينَ فَرَّقَهُمُ أَتَوْعُ وَجَرَى بَيْنَهُمُ الْغَرَابُ الْأَبْقَعُ^(١٢)

- (١) لحوق : ضمور .
(٢) الحيوان ٢٧٥/١ .
(٣) الحيوان ٢٧٤/٢ والأغاني ١١/١٣٢ .
(٤) الحيوان ٤١٦/٤ .
(٥) السيد : الذئب ، والغضا : نبت ،
وذئاب الغضا أغضب الذئب ، أضل جراحه :
فقد أولاده فهو يسرع في علوه ، يلحَب :
يمرمر سريعاً .
(٦) الحيوان ٢٧٧/١ وديوان أوس ص ٤٤
جنيباً : يمنة ، مغرضها : موضع الخزام منها ،
وإنما ذكر الهر لأنه يجمع الغض بالناب والخمش
بالخالب ، يصفها بشدة تفزعها لفرط نشاطها .
(٧) المفضليات ص ٣٠٤ وانظر ص
٢٥٢ والأصميات ص ١١٩ ، ١٧٤ ،
٢٣٤ والحيوان ٢١/٧ .
(٨) الحيوان ٣٠٨/٤ .
(٩) رقود الضحى ، ذلك من شأن الأفاعي
تنام في الضحى وتستيقظ في الظلام ، والأجراس :
الأصوات ، مكحال الأرمدة : ما يكتحل به ،
جعل لسانه كالملكاح في دقته وسواده .
(١٠) الحيوان ٣٣٩/٦ وما بعدها .
(١١) الحيوان ٤٤٢/٣ وبختار الشعر الجاهل
ص ٣٩٢ .
(١٢) الأبقع : الأسود .

حرق الجناح كأنَّ لَحْيَيْ رَأْسِهِ جَلَمَانِ بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مَوْلَعٌ^(١)
 إِنِّ الَّذِينَ نَعَبْتْ لِي بِفِرَاقِهِمْ هُمْ أَسْهَرُوا لَيْلِي التَّمَامَ فَأَوْجَعُوا^(٢)

وكانوا يذكرون القطا والجراد والعصافير والنمل والعنكبوت والحمام ونوحه وما يهيج فيهم من شوق وشجاء . وقد أفاض الجاحظ بكتابه الحيوان فيما جاء على ألسنتهم من وصف ذلك كله وتصويره . وينبغي أن لا نعتد بما جاء فيه من قصص أسطوري عن طوق الحمامة والديك والغراب والمدهد والحيات مما ساقه على لسان أمية بن أبي الصلت ، فقد حُمل عليه شعر كثير وضعه القصاصون والرواة . وقد استرعى الجاحظ كثرة ما جاء على ألسنتهم من وصف فلولاتهم^(٣) ووصف البرد وقوارصه والحر وهواجره^(٤) وما يجرى في ديارهم أحيانا من خصب بعد مطر غزير^(٥) ، وفي معلقة امرئ القيس قطعة طويلة يصف فيها سيلا عَرِمَ ما نزل في مواطن بني أسد بالقرب من تيماء ، ويتردد هذا الوصف في شعره وشعر شاعرهم عبيد بن الأبرص .

وكما أكثروا من ذكر الخصب ورطوبة النبات ولدونة الأغصان وكثرة الماء أكثروا من وصف الجذب . وطالما وصفوا وعوثة الصحراء ومخاوفهم في لياليها من الجن والشياطين . وكادوا لا يتركون شيئا يتصل بهم إلا وصفوه ، فوصفوا الرعى والمراعى ، ووصفوا الأسلحة والحروب ، ووصفوا الخمر وأوانها وسقاتها ومجلسها وأثرها ، وكانوا يثقلونها كما قلدها في حماسهم ، ويفتخرون بأنهم يسقونها الصحاب والرفاق على صوت القيان ومع نَحْرِ الجزور ، يقول ثعلبة بن صُعَيْرٌ في حماسية له^(٦) :

أُصَمِّىَ مَا يُدْرِيكَ أَنْ رَبَّ فِتْيَةٍ بِيضَ الْوَجْهِ ذَوَى نَدَى وَمَآثِرٍ
 بَاكَرَتْهُمْ بِسَبَاءِ جَوْنٍ ذَارِعٍ قَبْلَ الصَّبَاحِ وَقَبْلَ لَغْوِ الطَّائِرِ^(٧)

(٤) الحيوان ٧٣/٥ ، ٧٨/٥ وما بعده
 وانظر المفضليات رقم ١٢٠ بيت ٥٠ ، ٥١ .
 (٥) الحيوان ١٢٠/٣ والمفضليات ص ٣٣٥ .
 (٦) المفضليات ص ١٣٠ .
 (٧) السبأ : اشتراء الخمر ، الجن : الزق الأسود .
 الذارع : المختلط بالماء .

(١) حرق : أسود ، وشبه لحيه بالجلمين
 لأنه يخبر بالفرقة كما يقطع الجمالان أو المقرضان .
 (٢) نعب : صاح ، ليل التمام : الشدید
 الطول .
 (٣) الحيوان ٢٥٥/٦ وانظر الأسمعيات
 رقم ٦١ بيت ٢٩ وما بعده والمفضليات رقم ٧٥ .

فَقَصَرْتُ يَوْمَهُمُ بَرْنَةً شَارِفٍ وَسَمَاعٍ مُدْجِنَةٍ وَجَذَوْتُ جَازِرًا^(١)
وهذه الموضوعات التي قدمناها جميعاً كانت تتداخل في القصيدة الطويلة وكان
يتداخل معها ضرب من الحكم والمعاني التهذيبية، فالشاعر ما يزال يُدلى في تضاعيف
قصيدته بتجاربه ، وقد يفرد لها مقطوعات ، إذا اتجه بها إلى تقديم وصية لابنه، على
نحو ما صنع عمرو بن الأَهم في وصيته لابنه التي يستهلها بقوله^(٢) :

وإن المجد أوله وعُورٌ ومصدر غِبه كرمٌ وخيرٌ^(٣)
ومن كثرت الحكمة في شعرهم زهير والأفوه الأودي وعلقمة بن عبدة ، وهي
تكرر في ميمية الأخير وتتوالى في أبيات متعاقبة من مثل قوله^(٤) :

الحمدُ لا يُشْتَرَى إِلَّا لَهُ ثَمَنٌ مِمَّا يَصْنُ بِهِ الْأَقْوَامُ مَعْلُومٌ
والجود نافيةٌ لِلْمَالِ مَهْلِكَةٌ وَالْبَخْلُ بَاقٍ لِأَهْلِيهِ وَمَذْمُومٌ
وَكُلُّ حِصْنٍ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ عَلَى دَعَائِمِهِ لَا بُدَّ مَهْدُومٌ
ويلخص لنا رأى الجاهليين في المرأة وما تطلبه من الرجل ، فيقول في بائيته^(٥) :
فإن تسألوني بالنساء فإنني بصيرٌ بأذواء النساء طَبِيبٌ
إذا شاب رأسُ المرءِ أو قلَّ ماله فليس له من وُدِّهن نصيبٌ
ويظهر أن الحكمة قديمة عندهم ، فنحن نجد لها في معلقة عبید بن الأبرص،
وفيها يقول :

وكلُّ ذی غَيْبَةٍ يَثُوبُ وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يَثُوبُ
ويقول عبدة بن الطبيب^(٦) :
والمرءُ سَاعٍ لِأَمْرِ لَيْسَ يُدْرِكُهُ وَالْعَيْشُ شَحٌّ وَإِشْفَاقٌ وَتَأْمِيلٌ

(١) الشارف : الناقة ، ورنثها : صوتها عند النحر . المدجنة : القينة تغنى يوم الدجن والغيم . وجدوى الجازر : عطاياه من أطايب اللحم .
(٢) المفضليات ص ٤١٠ .
(٣) غبه : عاقبه ، الخير : الكرم .
(٤) المفضليات ص ٣٩٢ .
(٥) المفضليات ص ٤١٠ وانظر القصيدة رقم ١١٦ .
(٦) المفضليات ص ١٤٢ .

ويقول عدى بن رَعْلَاء الغساني (١) :

ليس من ماتَ فاستراحَ بمَيِّتٍ إنما المَيِّتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ
وتلك هي الموضوعات الأساسية التي تنظم في سلك القصيدة الجاهلية ،
فالشاعر يبدؤها بالتشبيب أو النسب بالأطلال والديار ، ويصف في أثناء ذلك
حبه ، ثم يصف رحلته في الصحراء ، وهي أول ما يقدمه للمرأة من ضروب
جرائته ، وحينئذ يصف ناقته أو فرسه ، وقد يؤخرهما إلى نهاية القصيدة ، ويقدم
عليهما غرضه من الحماسة أو الهجاء أو الرثاء أو المديح ، هفتناً في أثناء ذلك في
وصف ما يقع تحت عينه ، وناثراً حكمه وتجاربه .

٤

الخصائص المعنوية

لعل أول ما يلاحظ على معاني الشاعر الجاهلي أنها معان واضحة بسيطة ليس
فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق في الخيال سواء حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين
يصور ما حوله في الطبيعة ، فهو لا يعرف الغلو ولا المغالاة ، ولا المبالغة التي قد تخرج
به عن الحدود المعتدلة .

ومرجع ذلك في رأينا أنه لم يكن يفرض لإرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء
بل كان يحاول نقلها إلى لروحاته نقلاً أميناً ، يُبقي فيه على صورها الحقيقية دون أن
يُخل عليها تعديلاً من شأنه أن يمسّ جواهرها . ومن أجل ذلك كان شعره وثيقاً
دقيقاً لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملمها ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها
وحيواتها وزواحفها وطيرها . وعرف القدماء ذلك فكلما تحدثوا عن عادات الجاهليين
واللوان حياتهم استشهدوا بأشعارهم ، وحينما كتب الجاحظ كتاب الحيوان وجد في
هذه الأشعار مادة لا تكاد تنفد في وصفه ووصف طباعه وكل ما يتصل به من
سمات ومشخصات . ومعنى ذلك أن الشاعر الجاهلي لم يقتصب الحيوان لنفسه ،

فيسكب عليه من خياله ما يحمله عن حقيقته ، ونستطيع أن نلاحظ ذلك في وصفه للمعارك الدائرة بينهم ، إذ نراه يعترف بهزيمة قومه إن هُزموا^(١) ، وبفراره إن ولَّى الأديبار ونكص على أعقابهِ^(٢) ، وفي أثناء ذلك لا ييخل على أعدائه بوصف شجاعتهم وبلائهم في الحروب ، ولم في ذلك قصائد تلقب بالمنصفات ، مرّ الحديث عنها . وجاءهم ذلك من أنهم لا يبدلون في الحقائق ولا يعدّلون في علاقاتها ومعانيها ، بل يخضعون لها ويضبطون خيالهم وانفعالاتهم إزاءها . ونحن بهذا الوصف إنما نقصد إلى جمهور أشعارهم ، فقد تندّب بعض أبيات تحمل ضرباً من المبالغة ، ولكن ذلك يأتي شاذّاً وفادراً . ونظنّ ظناً أن شيوع هذه الروح فيهم هو الذي طبع أفكارهم بنزعة تقريرية ، إذ تعودوا أن يسندوا أقوالهم بذكر الحقيقة عارية دون خداع بموهها أو طلاء يزيّفها . ومن هنا كانت معانيهم محدّدة تحديداً يبرزها في أتم ما يكون من ضياء ، ومن ثمّ تبدو في كثير من جوانبها كأنها شيء راسخ ثابت . ويتضح ذلك في حكمهم التي تصور أحكاماً سليمة وخبرات صائبة كما يتضح في جوانب كثيرة من تأبينهم ومدحهم وغزلهم وحماسهم ، إذ يقدم الشاعر المعاني منكشفة كأنها أشياء صلبة محسوسة ، فهي حقائق تُسرّدُ سرّداً وقلما شابها الخيال ، إلا ليزيدها إمعاناً في الوضوح والجلال . وقرأ في أشعاره فستجد معانيه حسية ، واضحة ، لا يقف بينك وبينها أى غموض أو أشراك ذهنية تفضل في ممراتها وشُعَبها الفكرية ، إذ يعرض عليك هذه المعاني دائماً مجسّمة في أشخاص أوفى أشياء . وخُذْ فضائلهم التي طالما أشادوا بها في حماسهم ومراثيمهم ومدائحهم ، فستجدها دائماً تساق في مادة الإنسان الحسية ، فهو لا يتحول بها إلى معنى ذهني عام يصور إحساسه بالبشرية جميعها في هذه الفضيلة أو تلك ، فالكرم مثل البخل والوفاء وغيرها من الفضائل والذائل لا بد أن يقترن بشخص معين يتحدثون عنه .

وهذه النزعة في الشاعر الجاهلي جعلته لا يحلل خواطره ولا عواطفه إزاء ما يتحدث فيه من حب أو غير حب ، فهو لا يعرف التغلغل في خفايا النفس الإنسانية ولا في أعماق الأشياء الحسية . وتتضح هذه النزعة في نفس خياله وتشبيهاته فهو يتترعها من عالمه المادّي ، ولنرجع مثلاً إلى تشبيهاته للمرأة فهو يشبّها بالشمس

والبدن والبيضة والدرة والدُّمَيَّة والرمح والسيف والغمام والبقرة والظبية والقطاة ، ويشبه أسنانها بالأقحوان وبناتها بالعم وثغرها بالبلور وخدها وترائبها بالمرأة شعرها بالحبال والحيات والعناقيد ووجهها بالدينار وثديها بأنف الظبي ورائحتها بالملك وبالأترجة وريقها بالخمرو بالعسل وعينها بعين البقرة والغزال وعجزها بالكثيب وساقها بالبردية . أما الرجل فيشبهه بالبحر وبالغيث والأسد وبالذئب والعقاب والبعير وبالبدن والقمر وبالرمح والسيف وبالثور والتيس والضبع وبالأفعوان والحية وبالكلب والحمار وبالصخرة والصقر والفحل .

وعلى هذه الشاكلة من الحسية في التشبيه الشعرُ الجاهلي جميعه ، فالشاعر يستقي في أخيلته من العالم الحسي المرامى حوله . وجعلهم تمسكهم بهذه الحسية إذا وصفوا شيئاً أدقوا النظر في أجزائه ، وفصلوا الحديث فيها تفصيلاً شديداً ، وكأنما يريدون أن ينقلوه إلى قصائدهم بكل دقائقه ، وكأن الشاعر نحات لا يصنع قصيدة وإنما يصنع تمثالاً ، فهو يستوفي ما يصفه بجميع أجزائه وتفصيله الدقيقة . وخير مثل لذلك وصف طرفة لناقته في معلقته فقد نعت جميع أعضائها وكل دقيقة فيها وجليلة . ولم يترك منها شيئاً دون وصف أو بيان .

وهذه الحسية فيهم جعلتهم لا يتسعون بمعانهم ، بل جعلتهم يدورون حول معانٍ تكاد تكون واحدة ، وكأنما اصطلمحوا على معانٍ بعينها ، فالشعراء لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة ، فما يقوله طرفة في الناقة يقوله فيها غيره ، وما يقوله امرؤ القيس في بكاء الديار يقوله جميع الشعراء ، وقرأ حماسية كعلقة عمرو بن كلثوم فستجد الشعراء الحماسيين لا يكادون يأتون بمعنى جديد . وقل ذلك في غزلهم ومدحهم ورنائهم فالشعراء يتداولون معاني واحدة وتشبيهات وأخيلة واحدة . ومن ثمَّ تَبَسَّد في أشعارهم نزعة واضحة للمحاكاة والتقليد ، وجئ عليهم ذلك ضيقاً واضحاً في معانهم ، غير أنه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها وأن يجلوها ويكشفوها أتم كشف وجلاء . وقرأ في المفصليات والأصمعيات فستجد دائماً نفس المعاني ، وستجد أيضاً براعة نادرة في إعادتها وصوغها صوغاً جديداً ، فكل شاعر يحاول أن يعطيها شيئاً من شخصيته ، ويحْدُ مثلاً تشبيه المرأة بالظبية ، فشاعر يشبهها تشبيهاً عادياً ، وشاعر يشبهها بها وهي تمد عنقها إلى شجر السلم الناضر ، يريد أن يستم بذلك منظرأً بديعاً

الظبية ، يقول علباء بن أرقم ^(١) :

فيوما تُوافيننا بوجهٍ مُقسَّمٍ كأنَّ ظبيةً تَعْطُو إلى ناضِر السَّلَمِ
وثالث يشبه جيدها بجيد الظبية في استوائه وطوله وبجماله ، يقول الحادرة ^(٢) :
وتصدَّفتُ حتى استَبَدَّكَ بواضحٍ صلتِ كَمُتَّصِبِ الغزال الأتْلَعِ
ورابع يجعل وجه الشبه حور العين ، وخامس يجعله في التنفس كقول المنخل
البشكري :

ولثمتُها فتنفَّستُ كتنفس الظبي البَهِيرِ
وما يزال كل شاعر يضيف تفصيلاً جديداً. ونَحْدُ مثلاً تصويرهم للرجال
بالكواكب والنجوم ، يقول عامر المحاربي ^(٣) :
وكنا نجومًا كلما انقَضَّ كوكبٌ بدا زاهرٌ منهمنٌ ليس بأَقْتَمَا
ويقول طُفَيْلُ الغنوي في مديح قوم ^(٤) :
نجومٌ ظلامٍ كلما غاب كوكبٌ بدا ساطعاً في حِنْدَسِ الليل كوكبٌ
ويقول لقيط بن زُرارة وقد أضاف إلى هذا المعنى زيادةً بديعةً ^(٥) :
وإني من القوم الذين عرفتمُ إذا مات منهم سَيِّدٌ قام صاحبهُ
نجومٌ سماءٍ كلما غار كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوى إليه كواكبهُ
أضاءتْ لهم أحسابُهم ووجوههم دُجى الليل حتى نظَّم الجَزَعُ ثاقبه ^(٦)
والمَّ النابغة بهذه الصورة فنقلها نقلةً جديدةً ، إذ قال في النعمان بن المنذر مقارناً
بينه وبين الغساسنة ^(٧) :

-
- (١) الأصمعيات ص ١٧٨ ومقسم : من
القسم وهو الجمال ، وأن في كأن زائدة ،
تعطو : تتناول ، والسلام : من أشجار البادية .
(٢) المفضليات ص ٤٤ وتصدفت :
أعرضت . بواضح : يريد يمتق ناصع جميل ،
وصلت : مشرق ، الأتلع : طويل العنق .
(٣) المفضليات ص ٣٢١ الأقم : من
القتام وهو النبار .
(٤) الحيوان ٩٤/٣ .
(٥) الحيوان ٩٣/٣ .
(٦) الجزع : غرز فيه سواد وبياض
(٧) الحيوان ٩٥/٣ ويختار الشعر الجاهل
ص ١٧٥ .

ولأنك شمس والملوك كواكبٌ إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهم كوكبٌ

ومعنى ذلك أن ضيق الدائرة في معانيهم لم يحل بينهم وبين النفوذ منها إلى دقائق كثيرة ، فقد تحولوا يولدونها ويستنبطون منها كثيراً من الخواطر والصور الطريفة .

وملاحظة ثالثة هي أنهم لم يعرضوا علينا معانيهم الحسية جامدة ، بحيث تنشر الملل في نفوسنا ، فقد أشاعوا فيها الحركة ، وبذلك بثّوا فيها كثيراً من الحيوية ، وما من شك في أن هذه الحركة مشتقة من حياتهم التي لم تكن تعرف الثبات والاستقرار ، فهم دائماً راحلون وراء الغيث ومساقط الكلا ، ومن ثم كانوا إذا وصفوا الحيوان وصفوه متحركاً لا واقفاً جامداً ، وارجع إلى وصف طرفه لناقته فستجده يصفها وهي سائرة به في طريق إلى غاية تصبو إليها نفسه ، يقول :

أَمُونٌ كَأَلْوَا حِ الْإِرَانِ نَسَأَتْهَا عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهَرُ بُرْجُدٍ^(١)

وهو يشبه الطريق بكساء مخطط ، يجذ فيه جمالا ، كما يجذ فيها روعة وبهاء ، فيستمر في وصفها وكأنه تدلّه بها حباً ، فهو لا يترك شيئاً دون أن يقيده ، وكأنه يصنع لها تمثالاً يريد أن يحفره حفراً في أذهان العرب الذين كانوا يعجبون بنوقهم ويودون لو أتيح لهم من ينصبها لهم تمثالاً بديعاً . وعلى هذا النحو كانوا يصفون خيولهم وكانوا ينتقلون منها ومن وصف النوق إلى وصف النعام وبقر الوحش وثورها والأثني وحمارها ويصورونها لنا وهي تجرى في الصحراء تطلب الماء ، والصائد إما في طريقها بكلا به أو على الماء مستتراً منها ، وما تلبث أن تنشب معركة هائلة لا تقل عن معاركهم هولاً .

وطبيعي أن يفيض هذا الجزء من قصائدهم بحركة واسعة ، فالحركة أساسه ، وقد يدخلون هذه الحركة في المقدمة نفسها ، فالشاعر لا يكتفي بالوقوف بالأطلال وبكاء الديار ، بل كثيراً ما يصور ظعن حبيته وصواحبها في القافلة ، وقد خرجت تطلب مرعى جليداً ، فلا تزال متنقلة من موضع إلى موضع وعين الشاعر بإزائها تسجل هذه الرحلة الدائبة تسجيلاً بديعاً .

البرجد : كساء مخطط شبه به طرائق الطريق
وما فيه من تعاريج وغطوط وآثار .

(١) أمون : موثقة الخلق ، والإران :
قايوت لموتاهم ، ونسأتها : زجرتها ، اللاحب :
الطريق البين الواضح الذي أثر فيه المشي .

وهذه الحركة في حياتهم التي تعنى عدم الثبات والاستقرار ، وبالتالي تعنى عدم التوقف عند شيء وإطالة النظر فيه هي التي جعلت معانيم سريعة ، أو على الأقل كانت من أهم البواعث على سرعتها ، فالشاعر لا يقف طويلاً عند المعنى الذي يلم به بل لا يكاد يمسح حتى يتركه إلى معنى آخر . فحياته لا تثبت ولا تستقر ، وهو كذلك في معانيه لا يثبت ولا يستقر ، بل ينتقل من معنى إلى معنى في خفة وسرعة شديدة . ومن ثمَّ "غلب عليه الإيجاز ، فهو لا يعرف الإطناب ولا ما يتصل به من هدوء وسكون ، ولعل هذا هو الذي جعل البيت في قصائدهم وحدة معنوية قائمة بنفسها ، وتألّف القصيدة من الأبيات أو البيوت المستقلة التي يكتفي فيها كل بيت غالباً بنفسه ، غير متوقف على ما يسبقه ولا على ما يلحقه إلا نادراً .

وربما كان هذا هو السبب الحقيقي في أن القصيدة الطويلة لا تلم بموضوع واحد يرتبط به الشاعر ، بل تجمع طائفة من الموضوعات والعواطف لا تظهر بينها صلة ولا رابطة واضحة ، وكأنها مجموعة من الخواطر يجمع بينها الوزن والقافية وتلك هي كل روابطها ، أما بعد ذلك فهي مفككة ، لأن صاحبها لا يطيل المكث عند عاطفة بعينها أو عند موضوع بعينه . ومن أجل ذلك زعم بعض النقاد أن الاستطراد أساس في الشعر الجاهلي ، ومن حقنا أن نعطيه اسماً جديداً مشتقاً من حياته ، وهو التنقل السريع . وما أشبه القصيدة عندهم بفضائهم الواسع الذي يضم أشياء متباعدة لا تتلاصق ، فهذا الفضاء الرحب الطليق المترامي من حولهم في غير حدود هو الذي أملى عليهم صورة قصيدتهم ، فتوالى الموضوعات فيها جنباً إلى جنب بدون نسق ولا نظام ولا محاولة لتوجيه فكرى : إنما هي موضوعات أو أشكال متجاوزة يأخذ بعضها برقاب بعض في انطلاق غريب كأنطلاق حياة الشاعر في هذا الفضاء الصحراوي الواسع الذي لا يكاد يتناهى ولا يكاد يحده ، والذي تراءى فيه الأشياء متناثرة غير متجاوزة . على أن هذه الحركة قد أتاحت لشعرهم ضرباً من الروح القصصية ، لا نراه ماثلاً في وصفهم للحيوان الوحشي فحسب ، بل نراه أيضاً في وصف الصعاليك لمغامراتهم على نحو ما تعرض علينا ذلك تائية الشنفرى التي أنشدتها المفضل الضبي والتي يسلمها بقوله (١) :

(١) المفضليات ص ١٠٨ ، وأجمعت : عزمت أمرها ، واستقلت : ارتحلت .

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت وما ودعت جيرانها إذ تولت فإنه يقص علينا بعد غزوها الطريف قصة غزوة له مع بعض رفاقه من الصعاليك ، وهو لا يسردها في إجمال ، بل يسرد تفاصيلها ، إذ يذكر أنهم أعدوا العدة للغزو والسلب ، يحملون قسيهم الحمر ، وقد خرجوا من واديين : مشعل والحبأ راجلين ، وقد حمل زادهم تأبط شراً الصعلوك المشهور ، وكان يقتتر عليهم في الطعام خشية أن تطول بهم الغزوة فيهلكوا جوعاً . ويصف لنا الشنفري جعبة السهام التي كانت معهم ، وكيف أنهم كانوا يحملون حساماً صارماً ، بل سيوفاً قاطعة كأنها قطع الماء في الغدير لمعاناً ، بل كأنها أذئاب البقر الصغير تحركه ، وقد نهلت وعلت من دماء محرم ساق هديته إلى الكعبة ، فقتلوه دون غايته وأخذوا ما معه ، كما قتلوا بعض من كانوا يرافقونه ، ومن لم يقتل أخذوه أسيراً . وينتهي القصة مفتخراً بشجاعته وأنه لا يرهب الموت .

ويكثر الصعاليك من قصص مثل هذه المغامرة ، ويلقانا في حماسياتهم كثير من وصف معاركهم ، وقد يحاولون سردها ، وهو سرد تتمشى فيه الروح القصصية على نحو ما تمثل ذلك معلقة عمرو بن كلثوم وقصائد بشر بن أبي خازم في المفضليات ، إذ يتحدث فيها حديثاً مفصلاً عن يومئذ الساروا الجفار ، فالتصص يتخلل شعرهم ، وقد أفردوا له في مطولاتهم قطعة وصف الحيوان الوحشي . ونراه ماثلاً في غزله على نحو ما مر بنا في غزلية المنخل الشكري ، وإنما تمثلنا بقطعة منها ، وهو ماثل في غزل المرقش الأصغر مما رواه صاحب المفضليات . فإذا قلنا بعد ذلك كله إن معانيهم كان يسودها في بعض جوانبها ضرب من الروح القصصية لم تكن مبالغين ، وهي روح لم تتسع عندهم ، فقد أضعفتها حركتهم وميلهم إلى السرعة والإيجاز . وبذلك لم يظهر عندهم ضرب من ضروب الشعر القصصي ، فقد ظل شعرهم غنائياً ذاتياً ، يتغنى فيه الشاعر بأهوائه وعواطفه ، غير محاول صنّع قصة ، يجمع لها الأشخاص والمقومات القصصية ، ويرتبطها ترتيباً دقيقاً ، فإن شيئاً من ذلك لم يخطر بباله ، إذ كان مشغولاً بنفسه ، لا يهيم إلا أن يتغنى بها وعشاعره .

الخصائص اللفظية

من أهم ما يلاحظ على الشعر الجاهلي أنه كامل الصياغة ، فالتراكيب تامة ولها دائماً رصيد من المدلولات تعبر عنه ، وهى فى الأكثر مدلولات حسية ، والعبارة تستوفى أداء مدلولها ، فلا قصور فيها ولا عجز . وهذا الجانب فى الشعر الجاهلي يصور رقيقاً لغوياً ، وهورق لم يحدث عفواً فقل لمبقتة تجارب طويلة فى غضون العصور الماضية قبل هذا العصر ، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى أخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه الصورة الجاهلية التامة ، فالألفاظ توضع فى مكانها والعبارات تؤدى معانيها بدون اضطراب .

وقد يكون من الأسباب التى أعانته على ذلك أن الشعراء كما أسلفنا كانوا يرددون معاني بعينها ، حتى لتتحول قصائدهم إلى ما يشبه طريقاً مرسوماً ، يسرون فيه كما تسير قوافلهم سيراً رتيباً ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بذلك شعوراً دقيقاً ، مما جعل زهيراً يقول بيته المأثور - إن صح أنه له - :

ما أَرَانَا نَقُولُ إِلَّا مُعَارَا أَوْ مُعَادَا مِنْ لَفْظِنَا مَكْرُورَا

فهو يشعر أنهم يبدئون ويعيدون فى ألفاظ ومعان واحدة ، ويمجرون على طراز واحد ، طراز تداولته مئات الألسنة بالصقل والتهديب ، فكل شاعر ينقح فيه ويهذب ويصنى جهده حتى يثبت براعته . ولم تكن هناك براعة فى الموضوعات وما يتصل بها من معان إلا ما يأتى نادراً ، فاتجهوا إلى قوالب التعبير ، وبذلك أصبح المدار على القالب لا على المدلول والمضمون ، وبالفرا فى ذلك ، حتى كان منهم من يُخرج قصيدته فى عام كامل ، يردّ نظره فى صيغها وعباراتها حتى تصبح تامة مستوية فى بنائها^(١) .

وربما دل ذلك على أن مطولاتهم لم تكن تُصنَعُ دفعة واحدة ، بل كانت تصنع على دفعات ، ولعل هذا هو سبب تكرار التصريح فى طائفة منها ، ولعله أيضاً السبب

(١) البيان والبيان ٩/٢ وما يعلها .

فى تفككها واختلاف عواطفها ، فقد كان الشاعر يصنعها فى أزمنة مختلفة . وأغلب الظن أنه كان إذا صنع قطعة عَرَضَها على بعض شعراء قبيلته وبعض من يلزمه من رواته ، فكانوا يروونها بصورة ، وما يلبث أن يُعيد فيها النظر فيبدّل فى بعض أبياتها ، يبدل كلمة بكلمة ، وقد يحذف بيتاً . ومعنى ذلك أن صناعة المطولات أعدت منذ العصر الجاهلى لاختلاف الرواية فيها بسبب ما كان يُدخله صاحبها عليها من تعديل وتنقيح . وفى أسماء شعرائهم وألقابهم ما يدل على البراعة فى هذا التنقيح وما يطوى فيه من تجويد ، فقد لقبوا امرأ القيس بن ربيعة التغلبى بالمهلhelل لأنه أول من هلhelل ألفاظ الشعر وأرقها^(١) . ولقبوا عمرو بن سعد شاعر قيس بن ثعلبة بالمرقش الأكبر لتحسينه شعره وتنميقه^(٢) . ولقبوا ابن أخيه ربيعة بن سفيان بالمرقش الأصغر ، كما لقبوا طُفَيْلاً بالمخبّر لتزيينه شعره^(٣) ، ولقبوا علقمة بالفحل لجودة أشعاره^(٤) . ولقبوا غير شاعر بالنابعة فى شعره ، ومن ألقابهم التى تدل على احتفالهم بتنقيح الشعر المثقّب والمتنخل . وقد استطاعوا حقاً أن يبهروا العصور التالية بما وفّروه لأشعارهم من صقل وتجويد فى اللفظ والصيغة .

ونحن نعرف أن الصيغة فى الشعر صيغة موسيقية ، وقد أسلفنا كيف أحكموا هذه الصيغة ، فقد كان الشاعر يتقيد فى قصيدته بالنغمة الأولى ، وما زالوا يصفون فى نغم القصيدة ، حتى استوى استواء كاملاً ، سواء من حيث اتحاد النغم أو اتحاد القوافى وحركاتها ، وبرعوا فى تجزئة الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة وحلاوة موسيقية على نحو ما نلاحظ فى غزلية المتنخل اليشكرى السابقة . وحقاً هو فى جمهوره جزل ، ولكنها جزالة تستوفى حظوظاً من الجمال الفنى ، ولذلك ظلت ماثلة فى شعرنا العربى عند شعرائه الممتازين إلى عصورنا الحديثة . وأقرأ فى حَوَليّات زهير وقصائده المطولة وفى غيره من المبرزين أمثال النابعة وعلقمة الفحل والمرقشين والأعشى وطرفة والمتلمس وعنرة ودُرَيْد بن الصّمة وسلامة بن جندل والحادرة والمثقب العبّدى فستجدك أمام قصائد باهرة ، قد أُحكمت صياغتها وضُبّطت أدق ضبط ، وستعرض قطعاً منها فى حديثنا عن الشعراء ، لنصور براعتهم

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٥٧/٥ . (٢) المفضليات ١/٤١٠ .

(٣) أنظر المفضليات (طبعة لايلى) ١/٤١٠ ، ٤٨٥ . (٤) أغاني (طبعة السامى) ٢١/١١٢ .

في هذا الجانب وكيف حققوا لموسيقاهم مهما جَزَلَتْ وتضخمت كل ما يمكن من بهاء ورونق .

وقد استعانوا منذ أقدم أشعارهم ، لغرض التأثير في سامعيهم ، بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية ، وأكثرها دوراناً في أشعارهم التشبيه ، فلم يصفوا شيئاً إلا قرنوه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسى ، فالفرس مثلاً يشبّه من الحيوان بمثل الظبي والأسد والفحل والوعل والذئب والثعلب ويشبّه من الطير بالعقاب والصقر والقطاة والباز والحمام ، ويشبه بالسيف والقناة والرمح والسهم وبالأنفوان والحبل والحرارة والعسيب والجذع وتشبّه ضلوعه بالحصير وصدرة بمدك العروس وغرته بخمار المرأة والشيب المخضوب ومنخره بالكبير وعُرفه بالقصب الرطبة وحافره بقصب الوليد وعنقه بالرمح والصدرة وعينه بالقرّة والقارورة ولونه بسبائك الفضة وارتفاعه بالحيااء . وكل هذه الأوصاف والتشبيهات مبنوثة في المفضليات والأصمعيات ، ويعرض علينا امرؤ القيس في وصفه لفرسه بمعلقته طائفة طريقة منها . وعلى نحو ما لاحظنا آنفاً كانوا يحاولون الإطراف في التشبيه ، حتى يخلدوا ألباب سامعيهم ، وقد يقعون على صور نادرة كصوير المتنخل اليشكري لغدائر بعض النساء بأنها كالحيات ، يقول (١) :

يَعْكُفْنَ مِثْلَ أَسَاوِدِ الْتَنُومِ لَمْ تُعْكُفْ لَزُورٍ (٢)

وكانوا يشبهون المرأة بالبدن والشمس ، وألمَّ سُوَيْدُ بْنُ أَبِي كَاهِلٍ بهذا التشبيه ، وحاول أن يخرج به لإخراجاً جديداً فقال (٣) :

حَرَّةٌ تَجْلُو شَتِيَّتًا وَاضِحًا كَشَعَاعِ الشَّمْسِ فِي الْغَيْمِ سَطَعَ (٤)

فجعل أسنان صاحبتة المفلجة البيضاء كشعاع الشمس يبرز من خلال الغيم . وكانوا يشبهون الرمح بالجرم ولبه ، وألمَّ عَمِيرَةُ بْنُ جُعْلٍ بهذا التشبيه فأضاف إليه إضافة جديدة ، إذ قال (٥) :

(١) الأصمعيات ص ٥٤ .

(٣) المفضليات ص ١٩١ .

(٢) يمكفن : يمشطن شعرهن ، والأساود : (٤) الشئيت : المتفرق يريد أسنانها الأفاعي ، والتنوم : شجر ، ولم تعكف لزور

كناية عن عفتن . (٥) المفضليات ص ٢٥٩ ، والردني : الرمح .

جمعتُ رُدَيْنِيَا كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ
وكان الجاحظ يعجب إعجاباً شديداً بوصف عنترة لبعض الرياض وتصويره
للذباب وحركة جناحيه حين يسقط ، إذ يقول (١) :

جَادَتْ عَلَيْهَا كُلُّ عَيْنٍ ثَرَةً فَتَرَكْنَ كُلَّ حَدِيقَةٍ كَالَّذَرَمِ (٢)
فترى الذبابَ بها يُغْنِي وحده هَزَجًا كفعل الشارب المترنم
عَرِدًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ فَعَلَ الْمُكِبُّ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْذَمِ (٣)
فقد شبه قرارات الروضة وحُفَرَهَا بالدراهم ، وشبه صوت الذباب بصوت الشارب
المترنم ، وما زال يطلب صورة نادرة حتى وقع على الصورة الأخيرة إذ شبه الذباب
في حركة أجنحته الدائبة حين يسقط برجل مقطوع اليدين يقدح النار من عودين
أَوْزَنْدِينَ فلا تقتلح ، فيستمر في قلحه لا يفر .

وبجانب التشبيهات الكثيرة التي تلقانا في شعرهم نجد الاستعارة بفرعها من
التصريحية والمكنية ، وهي مبثوثة في أقدم أشعارهم . نجدها عند امرئ القيس
ومعاصريه كما نجدها عند من جاءوا بعده ، ومن أمثلها الطريقة عند امرئ القيس
تصويره طول الليل وفتوره وبطئه بعبير جائم لا يريم ، إذ يقول في معلقته مخاطباً الليل :
فَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكُلْكَلٍ (٤)
وأنشد ابن المعتز في كتابه « البديع » كثيراً من استعاراتهم مثل قول أوس بن
حَجَر :

وإني امرؤ أعددتُ للحرب بعدما رَأَيْتُ لَهَا نَابًا مِنَ الشَّرِّ أَغْصَلَا (٥)
وقول علقمة بن عبدة :
بَلْ كُلُّ قَوْمٍ وَإِنْ عَزُّوا وَإِنْ كَرُمُوا عَرِيفُهُمْ بِأَثَافِي الشَّرِّ مَرْجُومٌ (٦)

(١) الحيوان ٣/٣١٢ ومختار الشعر الجاهل للسقا ص ٣٧١ .
(٢) العين الثرة هنا : السحابة غزيرة المطر ،
وشبه الحديقة بالدرهم في استدارته .
(٣) الأجزم : مقطوع اليدين .
(٤) الكلكل : الصدر .
(٥) الأعصل : المعوج في صلابه .
(٦) المريف : الرئيس ، والأثافي : الحجارة التي تصب عليها القدر ، استعارها لنواب الدهر .

وقول طُفَيْلِ الغَنَوَى في وصف ناقته :

وجعلتُ كورى فوق ناجيةٍ يقتاتُ شَحْمَ سَنامها الرَّحْلُ^(١)

وقول الحارث بن حِزْزَةَ الشُّكْرِى :

حتى إذا التَفَعَ الطُّبَاءُ بِأَطْ راف الظلالِ وقُلْنَ في الكُنْيسِ^(٢)

وفي شعرهم كثير من هذه الاستعارات الطريفة ، وسنعرض لطائفة منها ومن التشبيهات في دراستنا لشعرائهم المبرزين ، وكانوا يضيفون إلى ذلك عناية ببعض المحسنات التي شاعت في الشعر العباسي وكثُر استخدامها فيه حتى اتخذها بعض الشعراء مذهباً يطبقها على جميع أبياته أو جمهورها ، ونقصد الطباق والجناس ، فلهما أصول في الجاهلية ، ونحن نجدهما عند امرئ القيس في وصفه لفرسه إذ يقول :

مِكرٌ مِفْرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَا كجلمود صَخِرَ حِطَّةُ السَّيْلِ من عِلْ
كَمِيتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عن حالٍ مَتْنِهِ كما زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بالمتنزلِ^(٣)

والطباق واضح في البيت الأول ومثله الجناس في البيت الثاني . وقد أنشد المفضل الضبي لعبد الله بن سلمة الغامدي قصيدة كَثُرَ في آخرها الجناس كثرة مفرطة ، حتى لكأننا بلزاء شاعر عباسي من شعراء البديع ، يقول عبد الله^(٤) :

ولقد أصاحبُ صاحباً ذا مَأَقَةٍ بصِحابٍ مُطْلِعِ الأَذَى نِقْرِيسِ^(٥)
ولقد أزاحمُ ذا الشَّدَاةِ بِمَزْحَمِ صَعْبِ البُدَاهَةِ ذَى شَمْدَاوِشْرِيسِ^(٦)

(١) الكور : الرجل ، ناجية : ناقصة سريعة .

(٢) التفتت الأطباء بالظلال : دخلت فيها واكتنت من الحر . وقُلْنَ : أمضين القائلة وهي نصف النهار . والكُنْيس : جمع كناس وهي حفرة تحفرها الحيوانات الوحشية في أصل شجرة لتستر فيها .

(٣) الكميت : الأحمر في سواد ، يزل : يسقط ، يريد أنه أُمس المتن . الصفواء : الصخرة الملساء ، المتنزل : النازل عليها .

(٤) المفضليات ص ١٠٧ .

(٥) المأقة : حدة الغضب ، وصحاب : مصدر صاحب ، مطلع الأذى : مالك له في استلاء ، والنقريس : الحاذق .

(٦) ذا الشداة : ذا الأذى . بمزحم : شديد المزاحمة . صعب البداة : شديد المفاجأة . والشدا : الأذى ، والشريس : الشراسة .

ولقد أداوى داء كلُّ مُعَبِّدٍ بِعَيْنِيَّةٍ غَلَبَتْ عَلَى النَّطِيسِ^(١)

فقد جانس في البيت الأول بين أصحاب وصاحباً وصحاب، وجانس في البيت الثاني بين أراحم وبمزحم والشذاة وشذا وأدخل حرف الشين على كلمة شريس، وجانس في البيت الأخير بين أداوى وداء .

وتلك كلها محسنات كان الشاعر الجاهلي يُعْنَى بها حتى يؤثر في نفوس سامعيه ويغلب ألبابهم، وهي تصور مدى ما كان يودعه قصيدته من جهد فني، وخاصة من حيث التصوير ودقته وبراعته، فقد كان ما يزال يجهد خياله حتى يأتي فيه بالنادر الطريف .

النطيس كالنظامي : الطبيب الماهر .

(١) المعبد : البعير الأجرب ، أراد به الشرير . العنية : من أدوية الحرب .

الفصل السابع امرؤ القيس

١

قبيلته وأسرته^(١)

امرؤ القيس من قبيلة كندة ، ومن بيت السيادة فيها ، وهي قبيلة يمنية^(٢) كانت تنزل في غربي حضرموت ، وهاجرت منها جماعة كبيرة إلى الشمال مع هجرات اليمنيين المعروفة ، واستقرت جنوبي وادي الرُّمَّة الذي يمتد من شمالي المدينة إلى العراق . وقد احتلت كما مرَّ بنا مكاناً بارزاً في نجد منذ أواسط القرن الخامس للميلاد ، فإننا نجد على رأسها أميراً يسمى حُجراً أكل المُرَّار^(٣) تعاقبت الإمارة في بنيهِ من بعده ، ويظهر أنه استطاع أن يفرض سيادته على كثير من القبائل الشمالية ، وأنه كان يدين بالطاعة للملك حمير اليمنيين^(٤) .

وهذه الإمارة الكندية النجدية كانت تقابل إمارة المناذرة في الحيرة والغساسنة في الشام ، وقد أدى وقوعها بينهما وسط نفوذها على قبائل معد من حولها إلى أن تصطدم بالإمارتين المجاورتين لها جميعاً ، وهو اصطدام تُروى أخباره منذ قيام حجر أكل المُرَّار ، إذ كثيراً ما كان يشتبك في حروب مع الغساسنة^(٥) . وما زال يمد رقعة ملكه حتى بلغت حدود المناذرة ، ويتوفى فيخلفه ابنه عمرو ويحافظ على ما ورث عن أبيه من سلطان ، ويُصهر إليه ملك الحيرة^(٦) مما يدل على اتساع نفوذه ، ويعقبه

(١) راجع في كندة وأمرائها كتاب أوليندر السالف ذكره .

(٢) انظر في ذلك الاشتقاق (طبعة جوتنجن)

٢١٨/٢ والأغاني ٧٧/٩ وهناك من يزعم أن كندة

قبيلة عدنانية (انظر الأغاني طبعة دار الكتب

٧٩/١٣ والمفضليات طبعة لايل ١/٢٧٧)

ولكن هذا الزعم غير صحيح ، ويدل على ذلك

دلالة قاطعة أننا نجد في أسماء أعلامها كما قلنا نفس الأسماء اليمنية مثل شرحبيل ومديكرب

ابن الحارث .

(٣) أكل المُرَّار لقب لحجر ، وأصله

فحل الإبل يأكل نباتاً مرا يسمى المُرَّار ،

فكأنهم أرادوا به حجراً الفحل .

(٤) الأغاني (طبع الساسي) ٢٨/١٥ وابن

خلدون ٢٧٣/٢ وجواد على ٣/٢٢٠ .

(٥) الأغاني ٨٢/١٥ وما بعدها .

(٦) تاريخ الطبري (طبعة أوربا) ١/٩٠٠

وحزمة الأصفهاني ص ٦٩ .

ابنه الحارث ، وهو أهم أمراء هذه الأسرة ، والمظنون أنه بدأ حكمه حوالى سنة ٤٩٠ للميلاد . ويذكر المؤرخون البيزنطيون أنه كان كثير الإغارة على الحدود الرومانية وكان يقود غاراته ابنائه حُجْر ومعد يكرب ، وقد أغار على فلسطين الرومانية فى عامى ٤٩٧ و ٥٠١ للميلاد ^(١) .

ولا نتقدم فى القرن السادس حتى يعظم سلطان الحارث فى نجد . وحدث أن غضب قُبَاذ ملك الفرس على المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة بسبب رفضه لمذهب المزدكية ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، فعزله وولى على الحيرة مكانه الحارث ختنه ^(٢) ، ففتح له حلم آبائه بتقويض الإمارة اللخمية ، وولّى أبنائه على القبائل ، فجعل — كما تقول بعض الروايات — حُجْراً على أسد وغطفان ، وشرحيل على بكر ومعد يكرب على تغلب وسلمة على قيس ^(٣) .

وسرعان ما تطورت الأحداث ، فإن الأحباش استولوا على اليمن وتوفى قُبَاذ وخلفه كسرى أنوشروان سنة ٥٢٨ وكان يكره مزدك والمزدكية ، فاضطهد أنصارها فى بلاده ، وأعاد المنذر بن ماء السماء إلى الحيرة عاصمته ، وقد أدار مع الحارث معارك طاحنة ، انتهت بقتل الحارث . وتبع المنذر أبنائه يوقع بهم ويؤلب القبائل عليهم ، وسرعان ما سقط معد يكرب وسلمة فى معركة تعرف بيوم أواراة الأول ^(٤) . ويقال إن معد يكرب أصابه الجنون ، وكان شرحيل قد سقط قبل ذلك فى معركة بينه وبين أخيه سلمة تعرف بيوم الكلاب الأول ^(٥) .

أما حُجْر وهو أبوامرئ القيس فقتلته قبيلة بنى أسد ، ويرى صاحب الأغاني أربع روايات مختلفة فى قتله ^(٦) ، أما الأولى فقد رواها عن هشام بن الكلبي (المتوفى سنة ٢٠٤ هـ) وهى تزعم أن حجراً كان له على بنى أسد إتاوة يؤدونها كل عام ، فلما قُتل أبوه أرسل إليهم جباته فنعوهم وضربهم ضرباً مبرحاً ، فسار إليهم حجر بجند من ربيعة وقيس وكنانة ، فاستسلموا له ، فأخذ سادتهم ، وجعل يقتلهم بالعصا

(٥) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٢٠٨/١٢

وما بعدها والمفضليات. (طبعة لايلى) ٤٢٨/١

وابن الأثير ٢٢٧/١ ومجمع البلدان لياقوت

٢٦٩/٧ .

(٦) أغاني (طبعة دار الكتب) ٨٢/٩ .

(١) انظر فى ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام

لجواد على ٢٤٥/٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٨ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤٣ وما بعدها .

(٤) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفان)

ص ٨٨٧ وتاريخ ابن الأثير ٢٢٨/١ .

— فَسُمُّوا عبيدَ العصا — وأباح أموالهم ، وطردهم من منازلهم في جنوبي وادي الرمثة إلى تهامة ، وحبس سيدهم عمرو بن مسعود الأسدي ، وشاعرهم عبيد بن الأبرص وقد استعطفه بقصيدة يقول له فيها :

أنت المليكُ عليهمُ وهمُ العبيدُ إلى القيامة

فأثر ذلك في نفس حُجْر ، وعفا عنهم ، ولكنهم أضَمُّوا له الانتقام ، وأصابوا منه غيرةً ، فقتلوه في قُبُستَه ، ونهبوا ما كان معه من أموال .

والرواية الثانية رواها أبو الفرج عن أبي عمرو الشيباني (المتوفى سنة ٢١٣هـ) وهي تزعم أن حَجْرًا خاف على نفسه من بني أسد ، فاستجار بعُوَيْر بن شِجْنَةَ التميمي لبنته هند وأهله ، ثم مال على بعض بني سعد بن ثعلبة فأدركه عِلْبَاء بن الحارث الأسدي ، وغافله ، وقتله .

والرواية الثالثة رواها أبو الفرج عن الهيثم بن عدي (المتوفى سنة ٢٠٦هـ) وهي تذكر أن حَجْرًا لما استجار عُوَيْر بن شِجْنَةَ لبنيه وأهله تحول عن بني أسد فأقام في عشيرته كندة مدة ، وجمع لبني أسد منهم جمعاً عظيماً ، وأقبل مُدلاً بمن معه من الجنود ، فتأمرت بنو أسد بينها ، وقالوا : والله لئن قهركم هذا ليحكمن عليكم حكم الصبي ! وما خير عيش يكون بعد قهر وأنتم بحمد الله أشدَّ العرب فُوتوا كراماً . فساروا إلى حَجْر وقد ارتحل نحوهم فلقوه ، فاقتتلوا قتالاً عنيفاً ، وكان صاحب أمرهم عِلْبَاء بن الحارث فحمل على حَجْر فطعنه ، فقتله ، وانهمزت كندة وفيهم يومئذ امرؤ القيس بن حَجْر ، فهرب على فرس له شقراء ، وأعجزهم . وقد قتلوا من أهل بيته طائفة وأسروا أخرى وملأوا أيديهم من الغنائم ، وأخذوا جوارى حَجْر ونسائه وكل ما كان معه من أموال ، واقتسموا ذلك جميعه .

أما الرواية الرابعة فرواها أبو الفرج عن ابن السكيت (المتوفى سنة ٢٤٤هـ) وهي تزعم أن حَجْرًا أقبل بعد موت أبيه راجعاً إلى بني أسد ، وكان قد أساء ولايتهم . وتشاورت بنو أسد فيه ، وأجمع أمرهم على إعلان الحرب عليه ، وخرج إليه بعض شجعانهم ، فقتلوا من كان يقدم ركبه من غلمانهم وسبوا جواريه . وعلم حَجْر بذلك فقاتلهم غير أنهم هزموه وأسروه ، ووثب منهم فتى كان له عنده نَار ، فقتله .

والرواية الأولى رواية هشام الكلبي ، وهو منهم فيما يرويه ، فهي رواية ضعيفة ،
ومما يدل على فساده قصيدة عبيد التي ذكر في تضاعيفها يوم القيامة : ومن أين
له بمعرفة هذا اليوم الذي جاء في القرآن الكريم وهو جاهلي وثني ؟ . ومثلها الروايتان
الثانية والرابعة ، فأثر الافتعال فيهما واضح ، لسبب بسيط ، وهو أن حجرًا يموت
غيلة ، ولا نرى عشيرته كندة تتأثر له أو تشتبك من أجله في حرب مع بني أسد .
لذلك نرجح الرواية الثالثة رواية الهيثم بن عدي ، وهي تتفق مع ما ردهه عبيد بن
الأبرص في شعره مراراً من أن قبيلته نكَّلت بكندة وصاحبها حجر ، وكان عبيد
معاصراً للحوادث وشاهد عيان لها ، ومن قوله في ذلك يخاطب امرأ القيس (١) :

وَرَكُضُكَ لَوْلَاهُ لَقِيتَ الَّذِي لَقَّوْا فذاك الذي أنجأك مما هنالك

وهو يشير بذلك في وضوح إلى فرار امرئ القيس من المعركة التي قُتل فيها
أبوه ، ونراه يصف هذه المعركة ، ويصرح بهزيمة كندة فيها وقُتل حُجْرٌ إذ يقول
معرضاً بامرئ القيس وساخرأ من وعيده وتهديده لقومه (٢) :

ياذا المخوفنسا بقتَ ل أبيه إذلالاً وحِيناً (٣)
أزعمتَ أنك قد قتلَ تَ سَرَاتنا كذباً ومِيناً (٤)
هلاً على حُجْر ابن أم قطام تبكى لا علينا
هلا سألت جموع كندة يوم ولَّوا أين أيننا
أيام نضربُ هامهم ببواترٍ حتى انحنينا (٥)

ويتكرر في ديوان عبيد وصف نهاية حجر ومُلك كندة على أسد بهذه الصورة
مراراً (٦) مما يدل على أن رواية الهيثم بن عدي أكثر قرباً إلى الصحة والصدق وأن
الروايات الأخرى دخلها الفساد والانتحال .

(٤) المرأة : السادة ، المين : الكذب .

(٥) السيوف البواتر : القاطعة .

(٦) انظر ديوان عبيد القصائد رقم ٤ ،

٢٦ ، ١٧

(١) ديوان عبيد بن الأبرص (طبعة لايل)

ص ٥٣ .

(٢) الديوان ص ٢٧ .

(٣) الحين : الموت .

حياته

تردد في كتب الأدب أسماء مختلفة لامرئ القيس ، فيسمى حُنْدَجًا وعديًا ومُنَيْكَةً^(١) ، ويكنى بأبي وهب وأبي زيد وأبي الحارث ويلقب بنى القروح والملك الضليل^(٢) ، وأشهر ألقابه امرؤ القيس ، والقيس من أصنامهم في الجاهلية كانوا يعبدونه ويتسبون إليه . وأبوه حُجْر بن الحارث كما مربنا . أما أمه ففاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومهلل التغلبيين^(٣) . وهم بعض الرواة في نسبه ، فقالوا إنه امرؤ القيس بن السمط بن امرئ القيس بن عمرو الكندي ، وإن أمه تملك بنت عمرو بن زُبَيْد بن مَدْحَج من رَهط عمرو بن معد يكرب^(٤) . وهو خلط أوقعهم فيه تشابه اسمه مع اسم هذا الشاعر ، وكان في الجاهلية ستة عشر شاعراً كلهم يتسمى باسم امرئ القيس .

ولا نعرف سنة مولده ، ويظن أنه وُلد في أوائل القرن السادس للميلاد ، وليس بين أيدينا أى شيء واضح عن نشأته وكيف أمضى أيامه الأولى في شبابه إلا أخباراً تغلب عليها الأسطورة ، من ذلك ما رواه^(٥) هشام الكلبي إذ يزعم أن أباه حجراً طرده وآلى (أقسم) أن لا يقيم معه أنفة من قوله الشعر ، وكانت الملوك تأنف من ذلك ، فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شُدَّ آذ القبائل : من طيبي وكتب وبكر ابن وائل ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم وخرج إلى الصيد ، فتصيّد ثم عاد ، فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر ، وسقاهم ، وغتته قيانة . ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى

الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبعة دار المعارف)
٥٢/١ وما بعدها .
(٣) أغاني ٧٧/٩ .
(٤) أغاني ٧٧/٩ .
(٥) أغاني ٨٧/٩ وما بعدها .

(١) انظر جواد عل ٢٥٣/٣ و Olinder ص ٩٥ وشرح المملقات السبع للزوزنى ص ١ وما بعدها والمؤتلف والمختلف للاندلسي ص ٩ وجهرة أشعار العرب ص ٢٠ والمزهر للسيوطي ٤٢٢/٢ وشرح شواهد المغني له ص ٦ .
(٢) الأغاني ٧٨/٩ وانظر ترجمته في

غيره . فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدّمون من أرض اليمن ، أتاه به رجل من بني عجل يقال له عامر الأعور أخو الوصاف ، فلما أتاه بذلك قال :

تَطاول الليلُ على دُمونٍ دُمونٍ إنا معشرُ يمانونُ

وإننا لأهلنا محبونُ

ثم قال : ضيَّعني صغيراً وجمَّلني دمه كبيراً ، لا صحوَ اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمرٌ وغداً أمرٌ . فذهبت مثلاً ، ثم قال :

خليلٌ لا في اليوم مَضْحَى لشاربٍ ولا في غدٍ إذ ذاك ما كان يُشربُ
ثم شرب سبعاً ، فلما صحى آل أن لا يأكل لحماً ولا يشرب خراً ولا يدّهن بدهن
(طيب) ولا يقرب النساء حتى يدرك بثأره ، فلما جنَّ الليل رأى برقاً ، فقال :

أَرِقْتُ لَبْرِقٍ بَلِيلٍ أَهْلٌ يَضِيءُ سَنَاهُ بِأَعْلَى الْجَبَلِ

أَتَانِي حَدِيثٌ فَكَذَّبْتُهُ بِأَمْرِ تَزَعَزَعُ مِنْهُ الْقُلَلُ^(١)

بقتل بنى أسدٍ ربهم ألا كلُّ شيءٍ سواه جَلَلُ^(٢)

فأين ربعةٌ عن ربها وأين نعيمٌ وأين الخَوْلُ^(٣)

ألا يحضرون لدى بابِه كما يحضرون إذا ما أكل

وواضح أن هذا الخبر يخالف رواية المهيم بن عدى السابقة في مقتل حُجْرٍ والتي تذكر أن امرأ القيس كان مع أبيه في حربه لبنى أسد وأنه فرّ حين هُزمت كندة وقتل أبوه ، فهو من منحولات ابن الكلبي . ومثله الخبر الذي ساقه ابن قتيبة ، إذ يقول إن أباه طرده لما صنع في الشعر بفاطمة ابنة عمه ما صنع ، وكان لها عاشقاً ، فطلبها زماناً فلم يصل إليها ، وكان يطلب منها غرة ، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل ما كان فقال قصيدته : (قفا نَبِّك من ذكرى حبيب ومنزل) فلما بلغ ذلك أباه دعا مولى يقال له ربعة ، فقال له : اقتل امرأ القيس واثنتي بعينه ،

(٣) الخول : العبد .

(١) القل : قم الجبال .

(٢) جلال هنا : هين .

فذبح جَوْذراً^(١) ، فأثاه بعينيه . وندم حجر على ذلك ، فقال : آيت اللعن ! إني لم أقتله ، قال : فأننى به .. فردّه إلى أبيه ، فهناك عن قول الشعر ، ثم إنه قال قصيدته : (ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالي) فبلغ ذلك أباه فطرده ، فبلغه مقتل أبيه بدمون^(٢) . وواضح أن هذا الخبر يلتقى بسابقه ويكمل بنفس أسلوبه فهو منتحل ، صنع تعليقاً وتوضيحاً لبعض أبيات معلقته التي يذكر فيها صاحبته فاطمة ويذكر معها يوم دارة جُلُجل . ومثل هذين الخبرين ما قاله بعض الرواة من أن أباه طرده لتغزله ببعض نسائه .

والحق أن هذه الأخبار ظاهرة الانتحال هي وكل ما يتصل بها من أشعار يسوقونها على لسانه ، وكأن ابن الكلبي وغيره من الرواة استلهموا ما تدل عليه أشعاره الصحيحة من أنه كان صبياً بالشراب والصيد ومغازلة النساء ، فلفقوا هذه الأخبار ، وضمنوها بعض الأشعار . وفاتهم أنه عاش في عصر الوثنية وأنه كان أميراً من أسرة تفرض سيادتها على كثير من القبائل فلا عجب أن يحيا حياة لاهية لا تتورع عن الإثم .

على أن الدهر لم يلبث أن قلب لهذا الفتى العاكف على الصيد واللهو ظهر المحزن ، فإذا أبوه يقتل ، وإذا هو موتور ، لا بد له من أخذ ثأره على عادة العرب ، ولا بد أن يحاهد في سبيل استرداد ملك آبائه وملك كندة قبيلته على بنى أسد قتلة أبيه . ويظهر أن بنى أسد خافوا العاقبة ، فأرسلوا إليه — في رواية للخليل بن أحمد — وفدًا للمفاوضة ، وعرض عليه الوفد إحدى ثلاث : القصاص أو الفداء أو النظرة (الإمهال) حتى تضع الحوامل ، فتعقد الرايات وتكون الحرب ، فقال : « لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم ، وإني لن أعتاض به جملاً أو ناقة ، فأكتسب بذلك سبة الأبد ، وقت العضد ، وأما النظرة فقد أوجبها الأجنة في بطون أمهاتها ، ولن أكون لتعطيها سبياً ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حنقاً وفوق الأسنة علقاً (دما) ورويداً ينكشف لكم دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ، فنهضوا عنه^(٣) » وقد عرفوا أنه طالبهم .

(١) الجوذور : ولد البقرة الوحشية .

(٢) انظر الشعر والشعراء ٥٤/١ وشرح

شواهد المغنى للسيوطي ص ٦ .

(٣) الأغاني ١٠٣/٩ وما بعدها .

ويلقانا قصص كثير عن طلبه لبني أسد ، وأكثره مما رواه ابن الكلبي ^(١) ،
 إذ يزعم أنه ارتحل حتى نزل بكرة وتغلب فسألم النصر على بني أسد ، وعلمت بنو
 أسد بما يدبر لهم ، فارتحلوا ولجئوا إلى بني كنانة ، فاختلفوا بهم . وأقبل امرؤ القيس
 بمن معه من بكر وتغلب حتى انتهى إلى بني كنانة ، وهو يحسبهم بني أسد ، فوضع
 السلاح فيهم ، فأعلموه أنهم ليسوا طلبته . وكان بنو أسد قد عرفوا قدومه بمن
 معه ، فرحلوا ، فتبعهم حتى لحقهم ، وقتلهم ، حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم ،
 وحجز الليل بينهم ، فهربت بنو أسد ، فلما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم ،
 وقالوا له : قد أصبت ثأرك ، وانصرفوا عنه . ومضى لوجهه حتى لحق حمير ،
 فاستنصر أزد شنوءة فأبوا أن ينصروه ، فنزل بقبيل (أمير) يدعى مرثد الخير الحميري
 فأمدّه بخمسمائة رجل ، وتبعه شذاذ من العرب واستأجر من القبائل رجلا ، فسار
 بهم إلى بني أسد ، ويقال إنهم عادوا فتركوه ، ويقال إنه لجأ إلى عمرو بن المنذر
 ابن ماء السماء وذكر ما بينهما من صهر فأجاره ، وبلغ المنذر مكانه فطلبه ، فهرب .
 وفي رواية إن المنذر ألح في طلبه ووجه الجيوش إليه فلجأ إلى الحارث بن شهاب من
 بني يربوع بن حنظلة ، فأرسل إليه المنذر مائة من رجاله ينذره بالحرب إن لم يسلم
 امرؤ القيس ومن معه من بني أكل المزار . فخرج امرؤ القيس على وجهه حتى نزل في
 أرض طيء وقيل بل نزل قبلهم على سعد بن الضباب الإيادي فأجاره ، ثم تحول عنه
 إلى المعلّى بن تميم الطائي ، فأكرمه . وولى وجهه نحو عشيرة بني نُبَهان الطائية ، فبذلت
 له من مالها ، ثم خرج عنها فنزل بعامر بن جُوَيْن الطائي . وكان المنذر لا يزال
 يتبعه ، فتحول عن طيء إلى رجل من بني فزارة يسمى عمرو بن جابر فدله على
 السموأل بن عادياض صاحب حصن الأبلق بتياء ، فلجأ إليه . وهنا يزعم ابن الكلبي
 وغيره من الرواة أنه طلب منه أن يكتب له إلى الحارث بن جبلة الغساني بالشام
 ليوصله إلى قيصر ، واستودعه أهله وأمواله وما كان معه من سلاح . ومضى حتى
 انتهى إلى قيصر في القسطنطينية ، وهو حينئذ جوستنيان فأكرمه ورفع منزلته ، وضم
 إليه جيشاً كثيراً . ولما فصل اندس إلى جوستنيان رجل من بني أسد يقال له الطمّاح
 فقال له : « إن امرؤ القيس غوي عاهر ، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه

كان يرسل ابتك ويوصلها، وهو قائل في ذلك أشعاراً يشهرها بها في العرب ،
 فيفضحها ويفضحك . فبعث إليه القيصر حينئذ بحلّة وثني مسمومة منسوجة
 بالذهب ، وقال له : إني أرسلت إليك بحلّي التي كنت ألبسها تكرمه لك ، فإذا
 وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة ، واكتب إلىّ بخبرك من منزل منزل . فلما وصلت
 إليه لبسها واشتد سروره بها ، فأسرع فيه السم وسقط جلده ، فلذلك سُمّي ذا القُروح ،
 وقال في ذلك :

لقد طمَح الطَّمَّاحُ من بُعد أرضه ليُلْبَسني مما يلبس أبوسا^(١)

فلو أنها نفسُ تموت سَوِيَّةً ولكنها نفسٌ تساقط أنفسا

فلما صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقرة احتضرها ، فقال :

رُبَّ حُطْبَةٍ مُسْحَنِفَةٍ وَطَعْنَةٍ مُثْعَنَجِرَةٍ^(٢)

وَجَنَنَسَةٍ مُتَحَيِّرَةٍ حَلَّتْ بِأَرْضِ أَنْقَرِهِ^(٣)

ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدُفنت في سفح جبل يقال له عسيب
 فسأل عنها ، فأخبر بقصتها فقال :

أَجَارَتْنَا إِنْ الْمَزَارَ قَرِيبُ وَإِنِّي مَقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ

أَجَارَتْنَا إِنْنا غَرِيبَانِ هَاهُنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة ، فقبره هناك ! » .

وهذه الأخبار عن امرئ القيس بعد مقتل أبيه ومصييره رويت في جملتها عن
 ابن الكلبي المهم فيما يرويه ، والتلفيق فيها بين واضح . ويمكن أن يكون لها أصل ،
 تشهد به الحوادث ، وهو أن يكون امرؤ القيس حاول عبثاً استرداد ملك آبائه ، ولكنه
 مات دون تحقيق غايته . ومن الممكن أيضاً أن يكون قد حاول اللجوء إلى الحارث بن
 جبلة الغساني وأنه أوصله إلى جوسنتيان في القسطنطينية ، غير أنه مات في الطريق .
 ومن المحقق أن قصة ثار جوسنتيان لشرفه منه قصة متحلة ، نسجها القصاص حين

(١) يريد بالأبوس ما لبسه من الحلة المسمومة.

سائلة .

(٢) مسحنفرة : مسهية ، متحنجرة :

(٣) جفنة متحيرة : متكلة طعاماً ودنيا .

وجلسوه في شعره يفخر بمغامراته الغرامية ، وكأنهم أرادوا أن لا يخلوه في القسطنطينية من ضرب من ضروب هذه المغامرات الجريئة ، وقد تبادوا فجعلوه يدخل مع القيصر الحمام وقالوا إنه كان ينادمه ، وإن ابنته نظرت إليه فعشقتة وواصلته .

والحق أن القصص لعب دوراً واسعاً في حياة امرئ القيس ، بحيث طُمست معالمها ، سواء قبل مقتل أبيه أو بعده ، ومن ثمَّ ذهب طه حسين إلى أن حياته بتفاصيلها وبما تزعمه من ذهابه إلى قيصر وموته في رجوعه من عنده إنما هي تمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي الذي ثار على الحجاج وحاول الاستعانة بملك الترك ، وأخفق في مسعاه^(١) . وفيما ذهب إليه طه حسين ضرب من المبالغة والخيال البعيد .

وإذا رجعنا إلى المؤرخين البيزنطيين لم نجد عندهم أى إشارة إلى امرئ القيس ابن حُجْر الكندي وزيارته لبيزنطة وطلبه النصرة منها ضد المنذر بن ماء السماء ، وقد ورد عند «بروكوبيوس» اسم شخص يدعى قيساً اقترن اسمه بغزو الحبشة لليمن سنة ٥٢٤ للميلاد ، ويقال إن القيصر طلب منه أن يقود الجيوش ضد الفرس ، وذكر «نونوسوس» أن جوستينيان كلفه بالسفارة لديه^(٢) . ومن ثم ظن كوزان دى برسفال أن قيساً المذكور عند هذين المؤرخين هو امرؤ القيس^(٣) ، وخاصة حين رآه يزور القسطنطينية ، وأكبر الظن أن هذا مجرد تشابه في الأسماء .

على أن بعض المصادر التاريخية اليونانية ذكرت في صراحة اسم شخص يدعى امرأ القيس كان من العرب التابعين للملك الفرس ، وقد جعل يغير على القبائل في شمالي الحجاز وييسط سلطانه عليها وقد استطاع أن يستولى على جزيرة يوتابه Iotabe — جزيرة تيران الحالية في مدخل خليج العقبة — ويطرد منها عمال المكوس من الروم ، وعاد فرأى أن يصانع الروم ، مخافة غزوهم له ، فأرسل إلى بيزنطة أسقف العرب الذين خضعوا لحكمه سنة ٤٧٣ للميلاد ، ليفاوض قيصر في أن يعينه حاكماً على جنوبي الأردن وساحل خليج العقبة ، ويمنحه لقب فيلارك . ونجح الأسقف في

(١) في الأدب الجاهل ص ٢١١ وما بعدها . (٢) انظر جراد عل في نفس الصفحة .

(٣) جواد عل ٢٦٥/٣ وما بعدها .

سفارته ، ودعا القيصر امراً القيس لزيارة عاصمته ، وبالف في إكرامه ، وعاد إلى بلاده^(١) .

وواضح ، مما تذكره تلك المصادر اليونانية عن هذا الأمير وأنه كان من العرب التابعين للملك الفرس ، أنه كان من اللخمين ، ولعل من الطريف أن محمد بن حبيب يذكر في كتابه «المخبر» أن فيروز ملك الفرس (٤٥٧ - ٤٨٣ م) هو الذي نصب امراً القيس بن المنذر اللخمي ملكاً ، وإذا رجعنا إلى ملوك الحيرة في هذا التاريخ لم نجد بينهم من يتسمى بهذا الاسم ، وفي ذلك ما يؤكد ما تذكره المصادر اليونانية من أنه كان ملكاً في شمالى الحجاز ، وكأنه بدأ كما تقول المصادر اليونانية موالياً للفرس ، ثم استقل عنهم ، وأصنى ولاءه للروم . ومراً بنا في أخبار الحارث الكندى أنه استطاع أن يفرض سلطانه على القبائل العدنانية في الشمال ، ومراً بنا أيضاً أنه كان يُغير في أواخر القرن الخامس على تخوم الروم ، وكان يقود هذه الغارات ابنه حُجر ومعد يكرّب . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن الحارث استطاع أن يقضى على امرئ القيس اللخمي في شمالى الحجاز وسواحل خليج العقبة ، وكأنه قضى على اللخمين في غربى الجزيرة ، ومراً بنا أنه استطاع أن يخضع إمارة الحيرة لسلطانه ؛ فكانه قضى على دولتهم في الغرب والشرق ، وإن كان ذلك لم يدم طويلاً ، إذ سرعان ما ظهر المنذر بن ماء السماء يمدده كسرى أنو شروان بجيشه ، ففرض على خصمه الكندى ، وعادت الإمارة اللخمية الشرقية ، أما الإمارة الغربية فلم تعد ، فقد دخلت أملاكها في ملك الغساسنة .

ولمّا أطلعنا في بيان ذلك لنذل على أن أخبار امرئ القيس بن حجر الكندى اختلطت في ذاكرة العرب بأخبار امرئ القيس اللخمي^(٢) ، ومن هنا كنا نظن ظناً أن امراً القيس الشاعر الكندى لم يزر قيصر بيزنطة ، وكنا ندفع هذه القصة

به على الفرس ومكث هذا الشاعر طويلاً بالقسطنطينية ، ثم استعمل على الشام وعلى القبائل التي تعيش هناك على الحدود ومن ثم لقب بلقب فيلارك أى الوالى ولكنه توفى في أنقرة بين عامى ٥٣٠ و ٥٤٠ فى أثناء رحيله لتولى منصبه .

(١) انظر جواد على ٢٦٧/٣ وما بعدها .
(٢) وبسبب من هذا الخلط قال هيار فى ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية : عمل الإمبراطور جستنيان بنصيحة الحارث بن جبلة الفساسى والى بادية الشام فدعا امراً القيس إلى القسطنطينية حوالى عام ٥٣٠ م ليستعين

الطويلة التي نسجت حول مقتله . غير أننا لا نرتاب في أنه حاول أن يأخذ بثأر أبيه ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح . ولم يلبث أن مات ، ولا نعرف بالضبط تاريخ موته ، ويغلب أن يكون بين سنتي ٥٣٠ و ٥٤٠ فإن القبائل انتقضت على أبيه وأعمامه منذ سنة ٥٢٨ وهي السنة التي توفي فيها أو قُتل جده الحارث .

٣

ديوانه

طُبِعَ ديوان امرئ القيس مراراً ، وكان أول من طبعه دى سلان (De Slane) بباريس سنة ١٨٣٧ وقد أخرجه من مخطوطتين لكتاب « دواوين الشعراء الستة » للشنتمرى ، وهي دواوين امرئ القيس والنابعة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة ، ومعروف أن الشنتمرى يحتفظ في شرحه لهذه الدواوين برواية الأصمعي ، وبعد أن ينتهي منها في كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى . وقد نشر دى سلان الديوان باسم « نزهة ذوى الكيس وتحفة الأدباء في قصائد امرئ القيس » وجرّد نشرته من شرح الشنتمرى .

وعنى المستشرق ألوارد (Ahlwardt) بنشر الدواوين الستة في سنة ١٨٧٠ ولم يأخذ برواية الشنتمرى في ديوان امرئ القيس ، فقد نشره من نسخة مروية عن السكرى ، وألحق به غير قصيدة ومقطوعة مما وجده منسوباً إليه في كتب الأدب والتاريخ . وطُبِعَ الديوان بعد ذلك من صنعة أبي بكر البطلبيسي في مصر والهند وإيران . وأخرجه حسن السندوي في نشرة مرتبة على حروف المعجم ساق فيها كل ما وجده منسوباً إليه في الكتب الأدبية والتاريخية . كما أخرجه مصطفى السقا مع بقية الشعراء الستة معتمداً على رواية الشنتمرى في مجموعته التي سماها « مختار الشعر الجاهلي » . وفي سنة ١٩٥٨ نشر محمد أبو الفضل إبراهيم الديوان نشرة علمية جديدة بدار المعارف في القاهرة ، واعتمد في نشرته على طائفة من المخطوطات ، استطاع من خلالها أن يوزعه على رواياته . وبدأ برواية الأصمعي نقلاً عن نسخة الشنتمرى التي تضم الدواوين الستة كما قدمنا والتي تحتفظ بسند وثيق يصل بين الشنتمرى والأصمعي ، فهي رواية موثقة ، وهي تشتمل على ثمان وعشرين قصيدة ومقطوعة

بشرح الشتمرى ، وأتبعها بتسع عشرة قصيدة ومقطوعة من رواية الطوسى وهى رواية كوفية ، ويلي ذلك زيادات من هذه الرواية نصّ الطوسى على انتحالها ، وتقع فى ٣٢ قصيدة ومقطوعة . ثم زيادات من نُسَخ السكرى وابن النحاس المصرى وأبى سهل عن بعض الكوفيين . وبذلك تبلغ قصائد الديوان ومقطوعاته مائة . وقد ألحق بها أبو الفضل تخريجاً دقيقاً . وإذا أخذنا نبحت فى هذه الروايات لاحظنا تواتراً أعلاها فى الثقة رواية الشتمرى عن الأصمعى ، فهى موصولة السناد ، وقد تلاها زيادات من روايات كوفية ، وبمجرد النظر فى تخريجها نجد كثيراً منها شك فى الرواة ، ومعنى ذلك أن هذه الزيادات ليست وثيقة ، ولا يصح الأخذ بمضمونها والاعتماد عليها ، ومثلها الزيادات الأخرى عن السكرى وابن النحاس وأبى سهل . وإذن فالرواية التى ينبغى أن تناقش الديوان وتفحصه على أساسها هى رواية الأصمعى ، وقبل مناقشتها ينبغى أن نلاحظ الشبهة العامة التى تحوم حول شعر امرئ القيس ، ولعل أهمها ما جاء على لسان الأصمعى نفسه إذ روى عنه أنه كان يقول : « كل شيء فى أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا انتفاء سمعناها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء »^(١) وحماد فى أشعاره يقابل ابن الكلبي فى أخباره فأكثرها من منحوه . وفى الموشح للمرزبانى : « يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه ، وعن الرياشى يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا يكونون معه مثل عمرو بن قميثة وغيره »^(٢) . ولا بد أن نضيف إلى ذلك قدم عهد امرئ القيس ، فقد بعدت الرواية بينه وبين عصور التدوين ، وقد أدبيل من قومه ، ولم يعد لهم شأن منذ زوال دولة آبائه . ولا بد أن نضيف أيضاً أنه كان فى العصر الجاهلى كثير من الشعراء الذين تسموا باسم امرئ القيس ، حتى يقال إنهم بلغوا ستة عشر ، وقد تداخل شعرهم فى شعره . وينبغى أن لا ننسى أبداً أن رواية الأصمعى بشهادته غير وثيقة ، لما دخلها من رواية حماد . وأما الرواة الآخرون غير الأصمعى يلاحظون كثرة ما دخل من انتحال فى شعر امرئ القيس حتى لئزى الطوسى يفرد لذلك فصلين فى نسخته ، فصل يذكر فيه القديم المنحول ، وفصل يفرد للمستحدث المصنوع .

(١) مراتب النحويين ص ٧٢ .

(٢) الموشح ص ٣٤ وانظر ابن سلام ص ١٣٤ .

نحن إذن بإزاء شاعر زُيِّت أخباره وزيف عليه كثير من أشعاره ، ولذلك ينبغي أن نتلقى رواية الأصمعي بغير قليل من الحذر والاحتراس ، وأول ما يلقانا فيها معلقته ، وهي بين المعلقات التي يقال إن حماداً أول من رواها ، غير أن روايته لها شُفِّعت بروايات أخرى لرواة موثقين فقد رواها المفضل الضبي ورواها الأصمعي إلا أنه أنكر منها أربعة أبيات ، وهي التي تبتدئ بقوله :

وَقَرَّبَ أَقْوَامٍ جَعَلَتْ عَصَامَهَا عَلَى كَاهِلٍ مَنَى ذَلُولٍ مُرَحَّلٍ^(١)

لأنها لا تشاكل شعره ، إنما تشاكل شعر الصعاليك ، ومن ثمَّ نسبها بعض الرواة إلى تابط شرّاً^(٢) . وتليها قصيدته (ألا عيمٌ صباحاً أيها الظل البالي) وهي من روح القصيدة السابقة ، ولم يشك فيها الرواة ، فهي وثيقة عند المفضل الضبي والأصمعي وأبي عبيدة ، ولذلك كنا نثبها له . أما القصيدة الثالثة (خليلي مرأبى على أم جندب) التي يقال إنه نظمها استجابة لزوجته أم جندب حتى تحكم بينه وبين علقمة الفحل أيهما أشعر فإن القدماء شكوا فيها واتهموها هي وما يطوى فيها من قصة أم جندب^(٣) على أن من الرواة من لاحظ أنها اختلطت بقصيدة على وزنها ورويتها لعلقمة بن عبيدة^(٤) ، ولعل هذا هو الذي جعل بعض الرواة يصنع قصة المعارضة وأن أم جندب حكمت بين الشاعرين ، غير ملاحظين أن علقمة كان يعيش في أوائل القرن السابع ، فهو ليس من معاصري امرئ القيس .

والقصيدة الرابعة (سمالك شوق بعد ما كان أقصراً) تصف رحلته إلى قيصر وصفاً مسهباً ، ويكفي ذلك لردّها لأن كل ما يتصل بهذه الرحلة مما وضعه ابن الكلبي وأضرابه . وشك الأصمعي نفسه في القصيدة الخامسة (أعنى على برق أراه وميض) وقال إنها تنسب في بعض الروايات لأبي دؤاد الأيادي^(٥) . ويمكن أن نقبل القصيدة السادسة (غشيت ديار الحى بالبكرات) وربما كانت مما قاله بعد مقتل أبيه . أما القصيدة السابعة (ألا إن قوماً كنتم أمس دونهم) وهي في مديح عُوَيْر بن

(١) عصام القرية : الحبل الذي تحمل به ،

(٢) الموشع ص ٣٠ .

(٣) ديوان امرئ القيس ص ٣٨١ وأنظر

كتاب الخليل لأبي عبيدة ص ١٣٦ .

(٤) الديوان ص ٧٢ .

(٥) أنظر ديوان امرئ القيس (طبع دار المعارف)

ص ٣٧٢ .

شَجْنَةُ التَّمِيمِ فلم يروها الطوسي بين ما رواه عن المفضل الضبي^(١) ، ولذلك كنا ندفعها لأنها لم تثبت فيما يظهر عند المفضل . وشك أبو عبيدة في القصيدة الثامنة (لن طلل أبصرته فشجاني) وقال إنها محمولة عليه^(٢) . والقصيدة التاسعة (قفا ذكك من ذكرى حبيب وعرفان) تذكر خشبات كان يُحمَلُ عليها في مرضه، فهي تتصل بقصة رحلته إلى قيصر ، وهي لذلك لا يمكن الاطمئنان إلى صحتها . والمقطوعة العاشرة (دع عنك نهباً صيح في حَجَرَاتِهِ) قيلت في مديح نَبْهَاتِي أجاراه في أثناء طوافه في القبائل ومطاردة المنذر له وربما كانت صحيحة . والقصيدة الحادية عشرة (أرانا موضعين لأمر غيب) جيدة ، وهي مما رواه الأصمعي عن أبي عمرو ابن العلاء^(٣) . أما القصيدة الثانية عشرة (أماوى هل لي عندكم من معرّس) فقد روى أبو عمرو الشيباني أنها لبشر بن أبي خازم الأسدي^(٤) . والقصيدة الثالثة عشرة (ألمّا على الرّبع القديم بعسسا) تشير بعض أبياتها إلى قصة الحلة المسمومة ، ولذلك كنا نرفضها . ويمكن أن تقبل القصيدة الرابعة عشرة التي نظمها في مديح سعد بن الضباب الإيادي حين أجاراه والتي يستهلها بقوله (لعمرك ما قلبي إلى أهله بحرّ) وهي مما أثبتته له الأصمعي وأبو عبيدة والمفضل جميعاً . وكذلك يمكن أن تقبل المقطوعة الخامسة عشرة (لن الديار غشيتها بسُحام) وهي في عتاب سُبَيْع بن عوف وما قاله بعد مقتل أبيه .

أما المقطوعة السادسة عشرة (يا دارماويّة بالخائل) فقد أنكرها الطوسي وقال عن أحمد بن حاتم إنه لم يجد أحداً من الرواة يعرفها^(٥) . ولا ريب في أن المقطوعة السابعة عشرة (رب رام من بني ثعلل) محمولة عليه، لأنها تصف عمرو بن المسيح الطائي ورميه للصيد، وكان من أرى العرب له ، وزمنه متأخر عن زمن امرئ القيس ، إذ وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن وفد عليه من العرب^(٦) . والمقطوعة الثامنة عشرة (يا هند لا تنكحى بوهة) أنكر الآمدي نسبتها إليه ، وقال إنها لامرئ القيس بن مالك الحميري^(٧) . أما المقطوعة التاسعة عشرة (ألا قبح الله البراجم كلها) التي نظمها في

(١) الديوان ص ٣٩٧ .

(٢) الديوان ص ٣٩٨ .

(٣) الديوان ص ٤٠٢ .

(٤) الديوان ص ٤٠٤ .

(٥) الديوان ص ٤١١ .

(٦) الاشتقاق لابن دريد (طبعة جوتنجن)

٢٣٢/٢ .

(٧) معجم الشعراء ص ١٢ وانظر الديوان ص ٤١٣

هجاء قبائل من تميم حين خذلت عمه شرحبيل في يوم الكلاب فقد كان ابن الأعرابي لا يعرفها^(١). وأما المقطوعة رقم ٢٠ (إن بني عوف ابتنوا حسباً) التي قالها في مديح عُوَيْر بن شِجْنَة فيمكن أن تكون صحيحة . وأما المقطوعة رقم ٢١ (والله لا يذهب شيخى باطلا) فأغلب الظن أنها مستحالة لأنهم يروون أنه قالها حين بلغه مقتل أبيه ومراً بنا في رواية الهيثم بن عدى أنه كان حاضراً مقتله . وقد أنكر الأصمعي المقطوعة رقم ٢٢ (ألا لا تكن لبل فعضى)^(٢). ويمكن أن تكون المقطوعة رقم ٢٣ (ألا يا لطف هند إثر قوم) التي يقال إنه نظمها حين أخطأ بني أسد وأوقع ببني كنانة صحيحة ، ومثلها المقطوعة رقم ٢٤ التي يمدح فيها المعلّى الطائي والمقطوعة الخامسة والعشرون وأختها السادسة والعشرون ، وهما مما نظمته في أثناء مطاردة المنذر له . أما المقطوعة السابعة والعشرون (ديمة هطلاء فيها وطف) فما رواه الأصمعي عن أبي عمرو ابن العلاء عن ذى الرمة^(٣) ، وهى لذلك من شعره الوثيق ، أما الثامنة والعشرون التي تدور على إجازة الشطور بينه وبين التوهم اليشكري ، بحيث يقول امرؤ القيس شطراً ويتم البيت التوهم فأغلب الظن أنها من صنع الرواة ، ولعل اتهامها هو الذى جعل الطوسي لا يرويها بين ما أسند روايته إلى الراوى الثبت المفضل الضبي .

وإذن لا يبقى صحيحاً من رواية الأصمعي سوى القصيدتين الأوليين ، وهما مطولتان ، ومثلهما في الصحة والثقة القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون لأنهما رويتا عن أبي عمرو بن العلاء ، وتظل بعد ذلك المقطوعات أرقام ٦ ، ١٠ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ قابلة لأن تكون صحيحة . على أن كثرتها الكثيرة نُظمت — إن صحّت — بعد مقتل أبيه ، يتعرض فيها لمن أجاروه ومن ردوه ، وقد رُويت طائفة منها على لسان ابن الكلبي في أثناء حديثه الذى رواه له صاحب الأغاني عن طلب امرئ القيس لبني أسد واستعدائه القبائل عليهم ، ولذلك قلنا إنها يمكن أن تكون صحيحة . وكأنما الثابت الصحيح له إنما هو المعلقة أو القصيدة الأولى في ديوانه ، وتالياتها ، ثم ما أنشده له أبو عمرو بن العلاء ، أو بعبارة أخرى القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون .

شعره

حاول طه حسين أن يردَّ شعر امرئ القيس جميعه ، لأنه يعني من كندة وشعره قرشيّ اللغة ، وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع أن كندة إن كانت يمنية الجنس فقد كانت عدنانية اللغة ، كما مرّ بنا أن لغة قريش هي التي سادت وذاعت منذ أوائل العصر الجاهلي على لسان جميع الشعراء الشماليين سواء منهم من ينتسب إلى القبائل العدنانية ومن ينتسب إلى القبائل اليمنية ، وقد أسلفنا أن أشعاره وأخباره دخلها وضع كثير . غير أن هذا كله لا ينتهي بنا إلى إنكار شعره جملة ، وقد رأينا أننا لم ننبئ منه إلا على قلة قليلة .

ولعل أول ما يلاحظ على هذه الأشعار القليلة أنها تنقسم قسمين واضحين : قسماً نظمه قبل مقتل أبيه وقسماً نظمه بعد مقتله . أما القسم الأول فلا يعدو المعلقة ، والمطولة الثانية في ديوانه (الأعيم صباحاً أيها الظلل البالي) وهما جميعاً مما رواه الأصمعي والمفضل الضبي وأبو عبيدة كما يتبين من تخريجهما في طبعة الديوان بدار المعارف . وإذا رجعنا إلى المعلقة وجدنا فيها جزءاً خاصاً بوصف البرق والمطر والسيول ، ونجد نفس الموضوع في القطعة السابعة والعشرين التي رواها أبو عمرو بن العلاء عن ذى الرمة . ولعل في ذلك ما يؤكد صحة هذا الجزء على الأقل . ونحن نعرف أن امرأ القيس شبَّ في ديار بني أسد بالقرب من تيماء^(١) ، وأن عبيد بن الأبرص كان يعاصره ، وقد اشتهر بين الرواة بوصفه للمطر وإحسانه فيه^(٢) . واجتماعهما على هذا الوصف دليل بين على صحة ما ينسب إلى امرئ القيس منه . ومعنى ذلك أن المعلقة تحمل بين ثناياها ما يؤكد نسبتها إلى امرئ القيس ، وهو يستلها بقوله :

قفا نَبِّكْ من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ
بِسِقْطِ اللَّوَى بين الدخول فحوَمَلِ^(٣)

(١) السقط : منقطع الرمل ، واللوى حيث يلتوى ويرق . وإنما خص منقطع الرمل وملثواه لأنهم كانوا لا ينزلون إلا في صلابه من الأرض ، والدخول وحول : موصمان .

(١) لعل من أكبر الدلالة على ذلك الأمكنة التي يذكرها في معلقته فجميعها من منازل بني أسد .

(٢) ابن سلام ص ٧٦ .

وقد عدّ القدماء هذا المطلع من مبتكراته ، إذ وقف واستوقف وبكى وأبكى من معه وذكر الحبيب والمنزل ، ثم أخذ يصور لنا كيف كان أصحابه يحاولون أن ينفّسوا عنه ، وهو غارق في ذكرياته وبكائه وإرسال دموعه وزفراته وانتقل انتقالاً سريعاً يقصُّ علينا مغامراته مع النساء ، وكأنه يريد أن يستثير صاحبه فاطمة وأن يزرع الغيرة في قلبها ، فهو يذكر لها بعض صواحيه اللائي أبكينه وبرح به حين مثل أم الحويثرت وأم الرباب ، ثم يفيض في وصف يوم عننيزة مصوراً كيف كان ينال منها وكيف كانت تدلُّ عليه أحياناً ، وفي أثناء ذلك يتعهر ولا يتستر ، فيقول لعنيزة بيته المشهور :

فَمَثَلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعاً فَالْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمٍ مُغِيلٍ^(١)

ثم يعود فيبثُّ فاطمة حبه مصوراً دلالها ، ومعاتباً لها عتاباً رقيقاً ، في تلك الأبيات البديعة :

أَفَاطَمَ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدْلِيلِ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَزْمَعْتُ صَرْمِي فَأَجْمَلِي^(٢)

وَإِنْ كُنْتُ قَدْ سَاعَدْتُكَ مِنْ خَلِيقَةٍ فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسُلِ^(٣)

أَغْرَكَ مِنْ أَنْ حَبَكَ قَاتِلِي وَأَنْكَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ

وَمَا ذَرَفْتُ عَيْنَاكَ إِلَّا لِتَقْدَحِي بِسَهْمَيْكَ فِي أَغْشَارِ قَلْبٍ مُقْتَلٍ^(٤)

وما يلبث أن يرجع إلى استشارة فاطمة بمغامرة جريئة له مع مَنْ كُنِيَ عنها ببياضة خِدَرٍ لا يرام خباؤها ، مصوراً كيف اقتحم إليها الأهوال والأحراس وكيف انتحى

(٣) سل ثيابي من ثيابك : انزعى أمرى من أمرك ، وتنسل : تسقط .

(٤) ذرفت العين : سال دمعها ، الأعشار : القلع ، يقول : ما بكيت إلا لتجرحي قلباً مكسراً .

(١) التمايم : جمع تميمية وهي العوذة تعلق على الصبي ، المغيل : المرضع .

(٢) بعض هذا التدليل : أى كنى عن بعضه ، وأزمنت : عزمت ، وأجملى : من التجميل وهو ترك ما يقيح .

بها ناحية من الحى يتبادلان فيها الصباية والغرام ، يقول :

- وَبَيْضَةُ خِدْرٍ لَا يُرَامُ خِيَاوُهَا تَمْتَعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلٍ ^(١)
تَجَاوَزْتُ أَحْرَاسًا وَأَهْوَالَ مَعْشِرٍ عَلَى حِرَاصٍ لَوْ يُشِيرُونَ مَقْتَلِي ^(٢)
إِذَا مَا الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضْتُ تَعَرَّضَ أَثْنَاءِ الْوُشَاحِ الْمِفْصَلِ ^(٣)
فَجِئْتُ وَقَدْ نَضْتُ لِنَوْمٍ ثِيَابَهَا لَدَى السُّتْرِ إِلَّا لِبَسَةِ الْمُتَفَضَّلِ ^(٤)
فَقَالَتْ يَمِينُ اللَّهِ مَالِكُ حِيلَةٍ وَمَا إِنْ أَرَى عَنْكَ الْعِمَامَةَ تَنْجَلِي ^(٥)
خَرَجْتُ بِهَا تَمْشِي تَجْرُ وَرَاءَنَا عَلَى أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلٍ ^(٦)
فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى بِنَابِطُنْ حِقْفٍ ذِي رُكَامٍ عَقَنْقَلٍ ^(٧)
إِذَا التَّفْتَتُ نَحْوَى تَضْوَعٍ رِيحُهَا نَسِيمَ الصَّبَاجَاتِ بَرِيًّا الْقَرْنَقَلِ ^(٨)
إِذَا قُلْتُ هَاتِي نَوَّيْنِي تَمَائِلْتُ عَلَى هَضِيمِ الْكَشْحِ رِيًّا الْمُخْلَخَلِ ^(٩)
فهو يذكرك خيدرها وأحراسها ومنعتها، وكيف وصل إليها وقد استعدت للنوم وما كان بينه وبينها من حوار، وكيف أطاعته وخبرجت معه من الحى إلى مكان بعيد لا تراهما فيه العيون، وكيف كانت تعفى آثار أقدامهما بأذيال ثوبها الموشى، واسترسل يصف محاسنها ومفاتن جسدها وأطرافها، مصوراً كيف تستنصبى الرجال وتعبث بقلوبهم .

- (١) شبه صاحبه بالبيضة لبياضها ورقها .
(٢) يشرون : يظهرون .
(٣) يقول : تجاوزت هذه الأحراس حين مالت الثريا للغيب فأرتك جانباً منها على نحو ما ترى من جانب الوشاح حين يتلاقا بناحية منه ، والمفصل : الذى جعل بين كل خرتين فيه لؤلؤة .
(٤) نضت : نزعت . اللبسة : هيئة اللباس . المتفضل : اللباس ثوباً واحداً .
(٥) العمامة : الغواية والجهالة .
(٦) المِرْط : إزار من غز ، المرحل : الموشى .
(٧) أجزنا : قطعنا ، والساحة : الفناء . والحقف : الموج من الرمل ، وركام : بعضه فوق بعض ، وعقنقل : منعقد متداخل . والوؤ فى وانتحى زائدة لأنها جواب لما .
(٨) تضوع : انتشر . الريا : الرائحة .
(٩) هضم : ضامر ، الكشع : الخاصرة ، وريا المخلخل : أى أن موضع الخلخال من ساقها ممتلئ .

ومن يقرأ هذه المغامرات القصصية عند امرئ القيس تفد على ذهنه توارث مغامرات ابن أبي ربيعة في غزله ، لا من حيث حوار مع النساء وحكايته لأحاديثهن وكلامهن فحسب ، بل أيضاً من حيث وصف الدبيب إليهن في الليل ومنعة أحراسهن على نحو ما تصور ذلك رائيته المشهورة :

أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبَكِّرُ غَدَاةٍ غَدٍ أَمْ رَائِحُ فَمُهْجَرُ

وقد لاحظ طه حسين هذا التشابه في غزل الشاعرين ، فأنكر ما ينسب إلى امرئ القيس من هذا الغزل القصصى الصريح وقال إنه انتحل انتحالا ، انتحله بعض القصاص على غيرار ما وجدوا منه عند ابن أبي ربيعة^(١) . وليس هناك ما يمنع أن يكون ابن أبي ربيعة قد عرف غزل امرئ القيس وتأثر به كما تقضى طبيعة التأثير إذ يتأثر اللاحق بالسابق ، ومن التحكم أن نرفض ذلك ، ولعل خيراً من هذا الرفض أن نقارن بين صنيعى الشاعرين في وصف مثل هذه المغامرات ونفذ إلى ما بينهما من فروق ، فكلاهما حقاً يتحدث عن زيارته لصواجه وما يتجشم فيها من أهوال ، وما يكون بينه وبينهن من هو ، غير أننا نلاحظ عند عمر كما تصور ذلك رائيته تفنتاً في رقة النجوى وفي كلف صواجه به ، بينما يمضى امرؤ القيس في وصف مغامراته مع النساء وصفاً حسيّاً حتى ليتحول في بعض جوانبه إلى صورة من التهتك الخلقى الفاحش ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن قضية الانتحال .

وكل ما يمكن أن يقال أن هذا المنحى من القصص الغرامى منحى قديم بدأ امرؤ القيس ونمّاه من بعده الأعشى^(٢) ، ثم كان العصر الأموى فتعلق به عمر بن أبي ربيعة وأضرابه . ولعل من الطريف أنه لا يتضح عند امرئ القيس في المعلقة وحدها ، فثلثها المطولة (الأعم صباحاً أيها الطلل البالى) فإنها تذهب نفس المذهب الذى رأيناه في المعلقة ، وهو يفتتحها بالوقوف على أطلال سلمى ، ثم يفيض في وصف مغامراته وعشه الفاجر مع بعض النساء بالضبط على نحو ما رأينا في المعلقة ، يقول :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سَمَوْتُ حَبَابِ الْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالٍ (١)
 فَقَالَتْ : سَبَاكَ اللَّهُ إِنَّكَ فَاضِحِي أَلَسْتَ تَرَى السَّمَارَ وَالنَّاسَ أَحْوَالِي (٢)
 فَقُلْتُ : يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي
 فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْحَدِيثَ وَأَسْمَحْتُ هَضَرْتُ بُغْضَنِي ذِي شَهَارِيخٍ مِيَالِي (٣)
 وَصَرْنَا إِلَى الْحُسْنَى وَرَقَّ كَلَامُنَا وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أَيْ إِذْلال (٤)
 فَأَصْبَحْتُ مَعْشُوقًا وَأَصْبَحَ بَعْلُهَا عَلَيْهِ الْقَتَامُ سَيِّئُ الظَّنِّ وَالْبَالِ (٥)
 يَغِطُّ غَطِيطَ الْبَكْرِ شُدَّ خِنَاقُهُ لِيَقْتُلَنِي وَالْمَرْءُ لَيْسَ بِقَتَالٍ (٦)
 أَيْقَتَلَنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زَرْقُ كَانِيَابِ أَغْوَالِ (٧)

وكان امرأ القيس هو الذي سبق إلى هذا الغزل الفاحش الصريح ، وتبعه الشعراء من بعده وإن لم يبلغوا مبلغه من الفحش والصراحة وقد تبعوه في تشبيهه الذي يودعه مقدمات قصائده وما يطوى فيه من بكاء ولوعة .

ورجع في معلقته بعد حديثه عن بيضة الحدر يصف لصاحبه شقاءه بحبها وأنه لا يستمتع فيه إلى نصيحة ناصح ، ولا إلى عذل عاذل ، ويصور كيف يفتح لها الليل المخوف ، ويسترسل في وصفه فيقول :

وليلِ كموج البحر أرخى سُدُولَهُ عَلَى بَأَنَوَاعِ الْهَمومِ لِيَبْتَلِي (٨)
 فَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَمْطِي بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءً بِكُلْكُلِ (٩)

الحال .

(٦) يغط : يردد صوتاً كصوت البكر وهو الشاب من الإبل يشد حبل في خنقه ، فيسمع له غطيط ، كأنه يريد أن يقول إنه يردد صوتاً كصوت البعير المختنق .

(٧) المشرق : السيف ، والمسنونة الزرق : السهام .

(٨) السدول : الستور .

(٩) تمطي : امتد . بصلبه : بظهره . وفي رواية يجوز والجوز : الوسط . والكلكل : الصدر ، وناء : نهض .

(١) سموت إليها : يريد نهضت إليها شيئاً فشيئاً لئلا يشعر أحد بمكانه فكانت مثل حباب الماء يملو بعضه بعضاً في رفق ومهل .

(٢) سباك : باعدك وأذهب عقلك .

(٣) تنازعنا : تبادلنا ، وأسححت : انقادت وسهلت . وهضرت : جذبت : وأراد بالفصن قامتها وبالشاريخ شعرها شبهه بشاريخ النخل لكثرة وغزارته .

(٤) رضت : أذلت ، وذلت : لانت .

(٥) القتام : الغبار يريد أن بعلمها ساء ما رآه من ميلها إليه فأصبح كأنه منبر كاسف

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انجَلِي
بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ فَيْكَ بِأَمْثَلِ (١)
فِيَالِكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْوَاهُ
بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلُ شُدَّتْ يَبْذُبُلُ (٢)
كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِي مَصَامِيهَا
بَأَمْرَاسٍ كَثَّانٍ إِلَى صُمٍّ جَنْدَلُ (٣)

فهو يتصور الليل بسواده وهوومه كأنه أمواج لا تنهى ، ويحس كأنه طال وأسرف في الطول حتى ليظن كأن نجومه شُدَّتْ بأسباب وأمراس من الجنادل والجبال فهي لا تتحرك ولا تزول ، كأنما مُثِمَّتْ في مكانها ، فهي لا تجرى ولا تسير ، وقد ردَّد الشعراء بعده هذا المعنى طويلا . ونراه يخرج منه إلى وصف فرسه وصيده ولذاته فيه ، وكأنه يريد أن يضع بين يدي صاحبه فروسيته وشجاعته ومهارته في ركوب الخيل واصطياد الوحش ، يقول :

وَقَدْ أَغْتَدَيْ وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا
بِمُنْجَرِدٍ قَيْنِدٍ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ (٤)
مِكْرٌ مِقْرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَا
كَجَلْمُودٍ صَخْرَحَطُهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ (٥)
كَمَا زَلَّتِ الصَّفَوَاءُ بِالْمُنْتَزَلِ (٦)
أَثَرَنَ غُبَارًا بِالْكَدِيدِ الْمُرْكَلِ (٧)

(١) انجلي : انكشف . وما الإصباح بأمثل : يريد أنه مهموم في الليل وفي الصبح .

(٢) مغار : شديد . يذبل : جبل .

(٣) المصام : مكانها الذي لا تبرسه ، والأمراس : جمع مرس وهو الحبل . والجندل : الحجارة الكبيرة ، والصم : جمع أصم وهو الصلب الشديد .

(٤) الوكناات : المواضع التي تأوي إليها الطير ليلا ، والمنجرد : الفرس قصير الشعر ، الأوابد : الوحش ، هيكل : ضخم .

(٥) الجلمود : الصخرة الصلبة ، حطه :

أسقطه .

(٦) الكيت : الفرس الأحمر في سواد .

يزل : يسقط ، حال المتن : موضعه من وسط الظهر ، الصفواء : الصخرة المساء ، المنتزل : النازل عليها .

(٧) مسح : عداه . يصب الجرى صبا ، السابحات : الخيل المرسعة . البقي : الضعف والفتور . الكديد : ما غلظ من الأرض ، المركل : الذي ركلته الخيل بحوافرها . يريد أن حوافره لا تكاد تمس الأرض ، وهي لذلك لا تثير بها غباراً كما تصنع السابحات .

على العقب جِيشَ كَانَ اهْتِزَامُهُ إِذَا جَاشَ فِيهِ حَمِيَهُ غَلَى مِرْجَلٌ^(١)
يُطِيرُ الْغُلَامَ الْخِفَّ عَنْ صَهْوَاتِهِ وَيُلَوِي بِأَثْوَابِ الْعَنِيفِ الْمُثْقَلِ^(٢)
دَرِيرٍ كَخُذْرُوفِ الْوَلِيدِ أَمْرُهُ تَقْلُبُ كَفَيْهِ بِخَيْطٍ مُوَصَّلِ^(٣)
لَهُ أَيْطَلَا ظُبِّيَّ وَسَاقَا نِعَامَةٍ وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَنْفُلِ^(٤)
كَأَنَّ عَلَى الْكِتْفَيْنِ مِنْهُ إِذَا انْتَحَى مَدَاكُ عَرُوسٍ أَوْ صَرَايَةِ حَنْظَلِ^(٥)

وهو وصف رائع لفرسه الأشقر ، فقد صور سرعتَه تصويراً بديعاً ، وبدأ فجعله قيداً لأوبد الوحش إذا انطلقت في الصحراء فإنها لا تستطيع إفلتاً منه كأنه قيد يأخذ بأرجلها . وهو لشدة حركته وسرعته يخيل إليك كأنه يفر ويكرر في الوقت نفسه وكأنه يقبل ويدبر في آن واحد ، وكأنه جلمود صخر يهوى به السيل من ذروة جبل عال ، وإن لبده لشدة حركته ليسقط عنه وينزلق كما تنزلق الصخرة من منحدر بعيد . وهو يصبُّ الجرى صَبّاً ، ويسبق كل الخيل سبقاً ، لا يثير غباراً ولا نفعاً ، إنما هو أن يحركه راكبه فإذا به يغلي غليان القدر لا ينو ولا يفتر ، وإذا راكبه لا يستطيع الثبات عليه ، وما أشبهه في سرعة انطلاقه بلعبة الخذروف الدوارة التي يلعب بها الصبيان ، إذ يصلونها بخيط ويسرعون في إمراها لإسراعاً . وهو فرس ضامر كأنه ظبي نافر ، فله خاصرته النحيلتان ، بل لكأنه نعامة خفيفة فله ساقاها الضئيلتان الصليتان ، وهو يهوى في الأرض كأنه الذئب الفزع ، ويقفز كأنه الثعلب الخائف ، وإذا اعترضك خَيْلٌ إليك للمعانة وبريقه أنك تنظر إلى مَدَاكِ عَرُوسٍ أَوْ صَرَايَةِ حَنْظَلِ . واستطرد امرؤ القيس يتحدث عن صيده ، فوصف سرباً من بقر الوحش عن لُحْمٍ في الصحراء مصوراً كيف قيده فرسه ، فإذا هو يلحق بأوائله

- (١) العقب : جرى بعد جرى ، اهتزامه : صوت جوفه عند الجرى ، الحمى : الغلى ، المِرجل : القدر .
(٢) يطير : يسقط ، الخف : الخفيف ، والصهوات : موضع البدن من ظهره ، ويلوي : بأثواب العنيف : يذهب بها . العنيف : الأخرق ، المثقل : الذي لا يحسن الركوب .
(٣) درير : سريع ، خيط موصل : وصلت أجزاؤه ، أمره : أمضاه .
(٤) السرحان : الذئب ، التنفل : الثعلب والإرخاء : العدو ، التقريب : القفز .
(٥) مَدَاكِ العروس : حجر تسحق عليه طيهها فيرق ، شبه به الفرس في بريقه . الصراية : حنظلة صفراء براقه .

تاركاً وراءه ما تخلف منه . فصادوا ما ابتغوا ، وأخذ الطهارة يعدون لهم طعامهم بين مشوى ومطبوخ . وانتقل من ذلك إلى وصف الأمطار والسيول التي أملت بمنازل قومه بنى أسد بالقرب من تيماء في شمالي الحجاز ، يقول :

- أَحَارٍ تَرَى بَرَقًا كَأَنَّ وَمِيضَهُ
يُضِي سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ
قَعَدْتُ لَهُ وَصَحْبَتِي بَيْنَ حَامِرٍ
وَأَضْحَى يَسُحُّ الْمَاءَ عَنْ كُلِّ فَيْقَةٍ
وَتَيْمَاءٌ لَمْ يَتْرَكْ بِهَا جِدْعَ نَخْلَةٍ
كَأَنَّ طَبِيَّةَ الْمُجِيمِرِ غُدُوَّةٌ
كَأَنَّ أَبَانًا فِي أَفَانِينَ وَذَوِّهِ
وَأَلْقَى بِصَحْرَاءِ الْغَبِيطِ بَعَاعَهُ
كَأَنَّ سِبَاعًا فِيهِ عَرَفَى غُدِيَّةً
- (١) كَلَمَعَ الْيَدَيْنِ فِي حَبَى مُكَلَّلٍ
(٢) أَهَانَ السَّلِيطَ فِي الذُّبَالِ الْمُفْتَلِ
(٣) وَبَيْنَ إِكَامٍ بُعَدَ مَا مُتَّامِلٍ
(٤) يَكْبُ عَلَى الْأَذْقَانِ دَوَّحَ الْكَنْهَبِلِ
(٥) وَلَا أَطْمَأَ إِلَّا مَشِيدًا بِجَنْبَلٍ
(٦) مِنَ السَّيْلِ وَالْغُثَاءِ فَلَكَّةٌ مِغْزَلٍ
(٧) كَبِيرُ أَنْاسٍ فِي بِجَادٍ مُزْمَلٍ
(٨) نَزُولَ الْيَابِي ذِي الْعِيَابِ الْمَخُولِ
(٩) بَارِجَاتِهِ الْقَصَوَى أَنْابِيْشُ عُنْصَلٍ

- (١) حار : ترخيم حارث يعني يا حارث ، وميض البرق : لمعانه . الحبي من السحاب : المتراكم ، وكذلك المكمل ، وقيل الحبي : الداني من الأرض .
(٢) السنا : الضوء ، السليط : الزيت ، الذبال : الفتائل ، وأهانه هنا : أكثر منه ، ويروى آمال بمعنى رعى ، وهي أجود .
(٣) حامر وإكام : موضعان ، بعد ما متأمل : تأملته من مكان بعيد .
(٤) الفيقة : ما بين الحلبتين : يريد أنه يسح ثم يسكن ثم يسح . وعن : معناها هنا بعد ، يكب على الأذقان : يسقط ويلقى على الوجه ، الكنبيل : معظم من شجر الغضاء ، والدوح : جمع دوحه وهي الشجرة كثيرة الورق والأغصان .
(٥) الأطم : البيت .
(٦) طمية : جبل ، المجيمر : أرض لبني فزارة ، الغثاء : ما يحمله السيل من فئات الأشجار . وفلكة المغزل : ما استدار فوق رأسه .
(٧) أبان : جبل ، أفانين : ضروب . الودق : المطر ، البجاد : كساء مخطط ، ومزمل : صفة لكبير أناس أى أنه متدثر بشيابه ملتف بها .
(٨) الغبيط : موضع ، البعاع : الثقل ، العياب : الحقائق ، المخول : كثير المتاع والفلمان الذين يصحبونه .
(٩) غدية : حين يصبح الناس ، وأنابيش العنصل : جنود البصل البرى .

على قَطَنِ بالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ وَأَيْسَرُهُ عَلَى السُّتَارِ فَيَذْبُلُ^(١)
أَلْقَى بِبُسْيَانٍ مَعَ اللَّيْلِ بَرَكُهُ فَأَنْزَلَ مِنْهُ الْعُصَمَاءَ مِنْ كُلِّ مَنْزِلٍ^(٢)

وقد استهل القطعة بوصف وميض البرق وتألقه في سحاب متراكم ، وشبه هذا التألق واللمعان بحركة اليمين إذا أشير بهما أو كأنه مصابيح راهب يتوهج ضوءها بما يمدّها من زيت كثير . ويصف كيف جلس هو وأصحابه يتأملونه بين حامر وإكام ، والسحاب يسحّ سحاً ، حتى لتقتلع سيوله كل ما في طريقها من أشجار العضاة العظيمة . وتلك تيماء لم تترك بها نخلا ولا بيتاً ، إلا ما شيد بالصخر ، فقد اجتثت كل ما مرت به وأتت عليه من قواعده وأصوله . وهذا طمية جبل المجيمر التفت به السيول وما تحمل من غناء ، حتى لكانه فلكة مغزل . وذاك أبان بما غطاه من هذا السيل والغناء يشبه شيئاً ملتقاً في كساء مخطط . وقد ألقى بصحراء الغبيط ثقله فنشربه من النباتات والأزهار ما يشبه ضروب الثياب الزاهية الألوان التي ينشرها التاجر البماني حين يعرضها للشراء . وما زالت السيول تفيض حتى علت آجام السباع ففرقت في لحجها وتراءت رموسها للعين كأنها جذور البصل البرى . وقد تراكم السحاب وملأ أقطار السماء حتى ليظن مبصره أن أيمنه على قطن جبل بنى أسد وأيسره على الستار ويذبل مما يلي بلاد البحرين ، وعمّ المطر جبل بسيان حتى أنزل منه الأوعال التي كانت مستقرة به .

ولامرئ القيس مقطوعة في الغيث والسيل تلتقى في كثير من معانيها وصورها بهذه القطعة ، وهي ذات الرقم ٢٧ في ديوانه ، وقد مر بنا أن أبا عمرو بن العلاء رواها عن ذى الرمة ، وهي تَمْضَى على هذا النحو :

دِيمَةٌ هَطَلَاءُ فِيهَا وَطَفٌ طَبَقُ الْأَرْضِ تَحَرَّى وَتَدَّرُ^(٣)

(١) قطن : اسم جبل في ديار بني أسد ، الشيم : النظرة إلى البرق والمطر . الستار ويذبل : جبلان .

(٢) بيسان : جبل ، والبرك : الصدر ، العصم : الأوعال .

(٣) الديمة : المطر الدائم ، هطلاء : كثيرة الهطل ، والوطف : الدنو من الأرض . طبق الأرض : تطبيقها وتعمها لكثرة مطرها . تحرى : تمتد إلى الأمكنة وتثبت فيها . وتدر : يكثر ماؤها وترسل درتها .

تُخْرِجُ الْوَدَّ إِذَا مَا أَشْجَذَتْ	وتواريه إذا ما تشتكِر ^(١)
وَتَرَى الْقَصَبَ خَفِيفاً مَاهراً	ثانياً بُرْتَنَهُ مَا يَنْعَقِرُ ^(٢)
وَتَرَى الشَّجَرَاءَ فِي رَيْقِهِ	كرعوسٍ قُطِّعَتْ فِيهَا الْخُمُرُ ^(٣)
مَسَاعَةً ثُمَّ انْتَحَاهَا وَابِلٌ	ساقِطُ الْأَكْنَافِ وَاهٍ مُنْهَرٍ ^(٤)
رَاحَ تَعْرِيه الصَّبَا ثُمَّ انْتَحَى	فيه شُوبُوبٌ جَنُوبٌ مُنْفَجِرٌ ^(٥)
ثُجٌّ حَتَّى ضَاقَ عَنْ آذِيهِ	عَرَضُ خَيْمٍ فَجُفَافٍ فَيُسِرُ ^(٦)
قَدْ غَدَا يَحْمِلُنِي فِي أَنْفِهِ	لَا حَقَّ الْإِطْلَاسِينَ مَحْبُوكٌ مُمَرٌّ ^(٧)

وهو يصور في هذه المقطوعة منظراً يماثل المنظر السابق ، فالمطر ينهمر حتى يعم الأرض من حوله ، وهو يدرُّ لها ويدنو منها بأهدابه ، وحيناً يُقْلَعُ فتبدو الأوتاد من الأرض ولا يلبث أن يعود وتكثر سيوله فتتواري عن الأنظار . وتُخْرِعُ القيعان فيخرج الصَّبُّ من جحره يعدو عدواً سريعاً لما يرى من كثرة المطر . وما تزال السيول تتدفق حتى تغمر الأشجار بل حتى لا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراى كأنها رموس معمرة قطعت في ساحة حرب عنيفة . وظل المطر على هذا الانصباب الشديد فترة لم تنكشف بعدها السماء ، فقد أُلْقَتْ السحب بوبلها وأثقالها تستدرُّها ريح الصبا الشمالية . ولم تلبث ريح الجنوب أن هبَّتْ فانهمرت الأمطار وعلت السيول حتى ضاقت بها خَيْمٌ

- (١) الود : الودد ، أشجذت : أقلعت وسكنت . تشتكِر : تحتفل ويكثر مطرها . وقيل الود اسم جبل .
(٢) خفيفاً ماهراً : يريد مسرعاً في عدوه . وبرتن الصب : كالإصبع للإنسان . وما ينعقر : لا يصيبه العفر والتراب ، يقصد أنه لا يلمس بالتراب لحفة عدوه .
(٣) الشجراء : الأرض ذات الشجر الكثير ، ريق المطر : أوله ، يريد أن المطر يغمر الأشجار فلا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراى كأنها رموس قطعت وفيها الخمر وفيها العمام .
(٤) انتحاهَا : قصدَهَا . وابل : مطر غزير ، ساقط الأكناف : دان من نواحي الأرض . واه : متخرق ، منهر : منسكب .
(٥) راح : عاد بالمطر في آخر النهار . تمرية : تحركه وتديره . الشوبوب : دفعة المطر ، والجنوب : ريح . منفجر : سائل .
(٦) ثج : سأل . الآنى : الموج . وخيم وجفاف ويسر : مواضع .
(٧) يحملني في أنفه : يريد في أنف المطر أي أوله . لاحق الإطلسين : فرس ضامر الكشحين ، محبوك : مؤثق الخلق ومثله عر ، وأصله من الحبل الممر ، وهو المحكم القتل .

- (١) الود : الودد ، أشجذت : أقلعت وسكنت . تشتكِر : تحتفل ويكثر مطرها . وقيل الود اسم جبل .
(٢) خفيفاً ماهراً : يريد مسرعاً في عدوه . وبرتن الصب : كالإصبع للإنسان . وما ينعقر : لا يصيبه العفر والتراب ، يقصد أنه لا يلمس بالتراب لحفة عدوه .
(٣) الشجراء : الأرض ذات الشجر الكثير ، ريق المطر : أوله ، يريد أن المطر يغمر الأشجار فلا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراى كأنها رموس قطعت وفيها الخمر وفيها العمام .
(٤) انتحاهَا : قصدَهَا . وابل : مطر غزير ،

وَحُفَّافٌ وَيُسَرُّ .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت الآن الموضوعات الأساسية التي كان ينظم فيها امرؤ القيس شعره قبل مقتل أبيه ، وهي التشبيب ، والغزل القصصي الصريح ، ووصف الطبيعة المتحركة بما فيها من خيل ووحش والطبيعة الصامتة بما فيها من أمطار وسيول . فتلك هي الموضوعات التي تستغرق أشعاره الأولى . وتجمعها المعلقة جميعاً ، بينما تقف المطولة الثانية (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي) عند التشبيب والقصص المادى ، ووصف الوحش والفرس ، وهو في أثناء وصفهما يعرض لصيده وما يجده فيه من لذة ومتاع وهو .

وكتب لامرؤ القيس أن لا تجرى حياته على هذه الوتيرة من الفراغ الذي يعد لاقتناص اللذات في اتباع المرأة واللهو بها والمتعة بركوب الخيل والصيد عليها وتملئ مناظر الطبيعة ، فقد قُتل أبوه ، وانقلبت حياته من حياة لاهية إلى حياة جادة ومحاولة عائرة في الأخذ بثأر أبيه وربّجع سلطان كندة على بني أسد ، وكأنه كان يحس ما ينتظره حين قال في مطولته (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي) :

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلذِّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبَا ذَاتَ خَلْخَالٍ
وَلَمْ أَسْبَأِ الزُّقَّ الرُّوِيَّ وَلَمْ أَقْلَ لَخِيلِي كُرَى كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ^(١)

ولعله نظم هذه القصيدة في إبان الدورة الثانية من حياته .

ونحن لا ننتظر منه في هذه الدورة سوى الحزن والألم العميق ، فهذا أبوه حُجِرَ يُقْتَلُ وهؤلاء أعمامه يلقون نفس المصير ، ومن قبلهم قُتل جده الحارث . وهو يسعى في سبيل الأخذ بثأر أبيه ، والمندر بن ماء السماء يطلبه وتتحاماه القبائل والعشائر وهو يتنقل فيما بينها يستغيث ولا مغِيث . وربما لقي في أول الأمر شيئاً من العون ، ولكن ذلك لم يستمر ، فقد ازوروا عنه ، وهو يطلب من يحميه ، وعين المنذر تتبعه وسيف المنذر مُصَلَّتٌ يلمع أمام عينيه . فكان طبيعياً أن يشكو الدهر وأن يتحدث عن مصيره . وهنا تلقانا مقطوعة رواها الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء ، تصور حزنه على آباءه

(١) أسبأ : أشتري . الزق : دن الخمر .
الروى : المملوء ، الإجفال : الانهزام في سرعة .

وما تَجْمَعُ عليه من البلاء ، وهى ذات الرقم الحادى عشر فى ديوانه ، وفيها يقول :

أرانا مُوضِعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ وَنُسَحَّرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ^(١)
 عصافيرٌ وَذِبَابٌ وَدُودٌ وَأَجْرًا مِنْ مُجْلَحَةِ الذَّنَابِ^(٢)
 وكلُّ مكارمِ الأخلاقِ صارتُ إليه هِمَّتِي وَبِهِ اكْتِسَابِي
 فبعضُ اللومِ عاذلتني فإني ستكفيني التجاربُ وانتسابِي
 إلى عِرْقِ الثَّرَى وَشَجَّتْ عُرُوقِي وهذا الموتُ يسلبني شَبَابِي^(٣)
 ونفسي سوف يَسْلُبها وَجَرِي فبُلْحَقْنِي وَشَيْكَا بِالثَّرَابِ
 أَلَمْ أَنْصِ الْمَطْيَ بِكُلِّ خَرَقٍ أَمَقُّ الطولِ لِمَاعِ السَّرَابِ^(٤)
 وأركبُ في اللُّهَامِ المَجْرُ حَتَّى أَنَالُ مَا كَلَّ الْقُحْمِ الرُّغَابِ^(٥)
 وقد طَوَّقْتُ فِي الْآفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ
 أَبْعَدَ الْحَارِثِ الْمَلِكِ بْنِ عَمْرٍو وبعد الخير حُجْرُ ذِي الْقِيَابِ^(٦)
 أَرْجَى مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ لَيْنًا وَلَمْ تَغْفُلْ عَنِ الصَّمِّ الْهَضَابِ^(٧)
 وَأَعْلَمُ أَنَّنِي عَمَّا قَلِيلٍ سَأَنْشَبُ فِي شَبَا ظَفَرٍ وَنَابِ^(٨)
 كَمَا لَاقَى أَبِي حُجْرٌ وَجَدِّي وَلَا أَنْسَى قَتِيلًا بِالْكَلابِ^(٩)

فقد ضاع منه الماضى بكل أحلامه ، وهو ينظر أمامه فى الأفق البعيد بل
 القريب ، فلا يرى إلا وادى العدم الذى يشدُّ إليه الناس جميعاً رحالهم ، وهم

- (١) موضعين : مسرعين . لأمر غيب :
 يريد الموت الغيب . ونُسَحَّرُ بالطعام :
 نلتهم ونخدع .
 (٢) مجلحة الذئاب : المصمة التى لا ترجع
 عما تريد .
 (٣) وشجت : اشتبكت واتصلت . ويشير
 بعرق الثرى إلى آبائه الذين ماتوا .
 (٤) أنفص : أهزل يطول الرحلة . الخرق :
 الفلاة . أمق الطول : واسع الطول .
 (٥) اللهَام : الجيش الكثيف . المحر :
 الكثير . المأكَل هنا : الغنائم ، القم :
 جمع قحمة من الاقتحام ويريد التزاحم فى شدة .
 الرغاب : الواسع .
 (٦) القِيَاب : الخيام الكبيرة .
 (٧) الصم المصمة : الجبال . الهضاب :
 الصلبة .
 (٨) شباكل شيء : حده . أنشب : أعلق .
 (٩) قتيل موقعة الكلاب هو عمه شرحبيل .

يتعللون عنه بالطعام والشراب ، وهو في انتظارهم ، وهم جادون في المسير إليه . ويَصْغُرُ الناس وتَصْغُرُ أطماعهم في عينه ، ويراهم ضعافاً كالعصافير والذباب والدود ، ومع ذلك يسقطون على أطماعهم كالذئاب الضارية . ويطلب إلى عاذلته أن تكف عن لومه لتركه اللهو ، فإن التجارب غيرت شخصيته خلال ما مر به من أهوال الحياة . وهو ينتسب ، فلا يجد أمامه إلا موتى ، وهو يترقب نفس الأجل المحتوم ، وكأنه شخص آخر سوى هذا الشخص الذي كان يركب الخيل ويُنْضِجُها في الفلاة الواسعة ، والذي كثيراً ما انتظم في جيوش أبيه الكثيفة ، يغنم المغامم الكبيرة . وما هو اليوم يطوف في الآفاق وراء مجده المضيئ فلا يظفر إلا بالخيبة واليأس القاتل . وماذا يرجو بعد هذه الصخور الصلبة من آبائه وقد واراها التراب . إنه ينتظره نفس المصير ، فالموت يفتح فاه ، وأظفاره وأنيابه توشك أن تفتسه افتراساً كما افترست جده الحجارث وأباه حجراً وعمه شرحبيل يوم الكلاب .

والمقطوعة رائعة لأنها تصور لنا إحساسه بعث الكفاح ضد المنذر وكيف كان هذا الإحساس يتعمقه في تلك الفترة من حياته . وليس له بعد ذلك أشعار تستحق الوقوف عندها سوى بعض مقطوعات قصيرة تتداخل فيها رواية الأصمعي مع رواية هشام بن الكلبي ، وفيها يمدح ويهجو بعض من كانوا يكرمونه جواره أو يسيئون هذا الجوار فلا يمدون يد العون إليه ، وهي شظايا صغيرة لا توضح منهجاً في مديح ولا هجاء .

وأكبر الظن أن فيما قدمنا ما يدل على قيمة امرئ القيس ، فهو الذي نهج للشعراء الجاهليين من بعده الحديث في بكاء الديار والغزل القصصي ووصف الليل والخيل والصيد والمطر والسيول والشكوى من الدهر ، ولعله سبق بأشعار في هذه الموضوعات ، ولكنه هو الذي أعطاها النسق النهائي ، مظهراً في ذلك ضروباً من المهارة الفنية ، جعلت السابقين جميعاً يجمعون على تقديمه ، سواء العرب في أحاديثهم عنه أو النقاد في تقديمهم للشعر الجاهلي ، يقول ابن سلام : « سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها ، استحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء ، منها : استيقاف صحبه والبكاء في الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالظباء والببيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وقيد الأوابد ، وأجاد في التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين

المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً^(١) .

وواضح أن هذه الفقرة من كتاب طبقات فحول الشعراء تقرر أن امرأ القيس هو الذى فتح للجاهليين أبواب النسيب والغزل ووصف النساء والخيل ، وهى تضيف إلى ذلك قرب المأخذ ، بحيث جعل العبارات قريبة المنال لايشوبها عسر ولا صعوبة ، وأيضاً تضيف أنه فصل بين النسيب والمعنى ، فلم يخلطه بشئ ، بل أسهب فيه وأفرده عما يليه .

وكل من يقرأ المعلقة وما أثبتناه له من شعر يلاحظ استواءً فى العبارات واتساقاً فى ترتيب الألفاظ ، مما يدل على أنه كان يملك أجنة اللغة فى يده ، وقليل جداً ما قد نلاحظه عنده من بعض النبو كقوله السابق فى المعلقة :

أحارٍ ترى بَرَقاً كأن وميضه كلمع اليدين فى حَبِيٍّ مُكَلَّلٍ
يضئ سناه أو مصابيحُ راهبٍ أهان السليط فى الذُّبَالِ المُقَتَّلِ

فقد كان ترتيب السياق ونسقه يقتضيان أن يكمل وصفه للبرق بأنه فى محيى مكمل وسحاب متراكم وأنه يضيئ سناه ، ثم يشبهه بلمع اليدين ومصابيح الراهب . ولكن على كل حال مثل هذا قليل فى شعره ، إذ قلما نجد فيه اضطراباً فى ترتيب ألفاظه ومعانيه .

وحقاً ما تقوله الفقرة السابقة عند ابن سلام من أنه أحسن طبقته تشبيهاً ، فتشبيحاته جيدة ، وهى تراكم فى المعلقة وفى قصيدته (ألاعم صباحاً أيها الظلل البالى) تراكمًا يجعله حقاً صاحب فن التشبيه فى العصر الجاهلى فالتشبيحات تتلاحق فى صفوف متعاقبة ، وقد عقد لها ابن سلام فصلاً فى طبقاته^(٢) ، استمدته فى جملته من القصيدتين السالفتين . وأول ما يلاحظ فى هذه التشبيحات أنها مستمدة من واقعه الحسى ، وارجع إلى تشبيحاته فى المرأة ، فستراه يشبهها بالبيضة فى بياضها ورقها ، كما يشبهها بالدرّة والبقرة الوحشية ، أما تراثها فكالمراة وأما شعرها الغزير فكعذق النخلة المتداخل ، وأما خصرها فليّن كالزمام ، وأما ساقها فكالبردى فى بياضه ،

(١) ابن سلام ص ٤٦ وانظر الشعر^٢ (٢) انظر ابن سلام ص ٦٧ وما بعدها .
والشعراء ٥٧/١ .

وأما أصابعها فكمساوليك شجر الإسحل . وكل هذه الأوصاف مبثوثة في المعلقة . وإذا تركنا حديثه فيها عن المرأة إلى حديثه عن الفرس وجدناه يشبهه بخد زوف الوليد ومساك العروس وصراية الحنظل والصخرة الملساء تسقط من عل ، كما يشبهه بالظبي في خاصرته والنعامة في ساقيه والذئب في عذوه والثعلب في تقريره وقفزه . ونحس دائماً أنه يحاول أن يطرف سامعه بما يورد عليه من الصور الغريبة ، كقوله :

كَأَنَّ دَمَاءَ الْهَادِيَاتِ بَنَحَرِهِ عَصَارَةُ حِنَاءٍ بِشَيْبٍ مَرَجَلٍ^(١)

فدم الوحش الذي صاده امرؤ القيس يلطخ صدر الفرس فيترامى كأنه عصارة حناء صبغ بها شيب ، إذ لا يكاد يفرق عن الخضاب في شيء . ويخرج من ذلك إلى وصف السيل والمطر ، فيفزع إلى التشبيه الكثير ، كأنه لا يرى الشعر شيئاً بدونه ، وهو لذلك يوشى به كل شيء يعرض له في المعلقة ، سواء حين يصف الثريا أو يصف الليل ، وقد أبدع في وصفه لقطعه وأجزائه ، فهي مانتى تتدافع وتتلاحق غير منتبهة ، وألم بالوحش ، فشبه بقره بعذارى دوار ، يقول :

فَعَنَّ لَنَا مِرْبُ كَأَنَّ نِعَاجَهُ عَذَارَى دُورٍ فِي الْمَلَأِ الْمَذِيلِ^(٢)

وبذلك عكس الصورة فشبه البقر بالنساء ، وهو تشبيه مقلوب ، تبعه فيه الشعراء ، وأصبح ضرباً من ضروب الخيال التي ينسجونها . وننتقل معه إلى مطولته (الأعم صباحاً أيها الظلل البالي) فنلقانا نفس تشبيهاته للمرأة التي لقيتنا في معلقته ، فهي كالظبية وبيضة النعامة ، بل هي كالتمثال الجميل يقول :

وَيَارِبُّ يَوْمٍ قَدْ لَهَوْتُ وَلِيلَةٍ بَأَنَسَةٍ كَأَنَّهَا خَطٌّ تَمَثَّلَ

ويشبه وجهها في إشرافه بالمصباح ، ويقول إنها لينة ممتلئة كحقيف الرمل أو ما استدار منه ، ويشبهها بالغصن في اعتدال قوامها وتثنيها ، أما شعرها فكشمار يخ النخل في تداخله وغزارته . ويعرض لليل ونجومه فيشبهها بمصابيح رهبان ، ويحدثنا

الوحش . ودوار : صنم كانوا يطوفون به في الجاهلية .
المذيل : الطويل السابغ .

(١) الهاديات : المتقدّمات من بقر الوحش . مرجل : مسرح .

(٢) السرب : القطيع . النعاج هنا : بقر

عن شجاعته وأنه لا يرهب زوج مَنْ يغازلها ولا تهدده ، فيقول :

أَيَقْتُلْنِي وَالْمَشْرِقُ مُضَاجَعِي وَمَسْنُونَةُ زُرْقُ كَأَنِّيَابِ أَغْوَالِ

وهي صورة طريفة ، لأنها تقوم على التخيل والوهم . ويخرج إلى وصف فرسه فيشبهه بالهراوة أو العصا في ضموره وصلابته ، ويقول إنه ذعر به قطع بقر ، يجري البياض والسواد في سيقانه ، حتى لكانها وثى برود يمانية بديعة . ويعود إلى فرسه ، فيشبهه بعقاب تنقض انقضاضاً على فريستها ، ويقول إن هذه العقاب تصيد الطير وتحمله إلى وكرها ، فتأكله إلا قلبه ، فنها الطرى الغض ، ومنها الجحاف المتقبض ، ويعمل خياله ، وما يلبث أن يقول :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

وواضح أنه يشبه القلوب الرطبة بالعناب واليابسة بالحشف البالي أو التمر الرديء الجحاف ، وهو تشبيه كان القدماء يعجبون به لأن امرأ القيس استطاع أن يلائم ملائمة خيالية بين أشياء متعددة . ويروى عن بشار أنه قال : ما زلت أحسد امرأ القيس على جمعه في هذا البيت بين تشبيه شيئين بشيئين ، حتى قلت :

كَأَنَّ مُشَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رَعُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ^(١)

فجمعت فيه بين ثلاثة وثلاثة^(٢) .

ولعلنا لا نُسعد بعد ذلك كله إذا قلنا إن امرأ القيس هو الذى ألهم الشاعر العربى على مر العصور فكرة التشبيه ، بل هو الذى وجهه إلى الإسراف فى استخدامه ، حتى عُدَّ ذلك ضرباً رقيقاً من ضروب الزخرف والبديع^(٣) . ويجانب هذا التشبيه نجد عنده بعض أمثلة للاستعارة المكنية والتصريحية ، وهو يأتي بها فى قلة ، من ذلك قوله فى المعلقة يخاطب الليل :

فَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَحْطَى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكُلِّكُلٍ

(٣) انظر كتاب البديع لابن المعتز (طبعة

كراتشكوفسكى) ص ٥٨ وما بعدها .

(١) النقع : الغبار .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٦/٣ .

فقد استعار صورة البعير لهذا الليل الذى لا يزول . ومضى فاستعار صورة القيد لفرسه ، فسماه قيد الأوابد فهى لا تفوته ، على نحو ما مر بنا فى بيته :

وقد أغتدى والطيرُ فى وُكُناتِها بمنجردٍ قيدِ الأوابد هَيْكَلٍ
ولإذا صحت رواية (١) آمال بدلا من أهان فى قوله يصف البرق :

يضىء سناه أو مصابيحُ راهبٍ آمال السَّليطَ فى الذُّبالِ المقتلِ
كان البيت يتضمن استعارة بديعة ، لأن من معانى آمال رعى ، وكأنه استعار صورة رعى الأنعام للنبات لما يُقنيه الذبال من الزيت شيئا فشيئا . وإذا تركنا معلقته إلى مطولته (ألا انعم صباحاً) وجدناه يستعير للحلى على نَحْر صاحبه وتوجهه صورة الجَمَر ، يقول :

كَأَنَّ عَلَى لِبَائِهَا جَمَرَ مُصْطَلٍ أَصَابَ غَضًّا جَزْلاً وَكُفَّ بِأَجْذَالِ (٢)
ومن الحق أن الاستعارة قليلة فى أشعاره ، ولكنها على كل حال ماثرة فيها ، مثلها مثل لوني البديع المسميين بالطباق والجناس ، ومن أمثلة طباقه قوله فى المعلقة يصف غدائر صاحبه :

غدائره مستشزراتٌ إلى العُلا تَضِلُّ المَدَارَى فى مُشْنَى ومُرْسَلِ (٣)
وقوله يصف فرسه :

مَكْرٌ مَفْرٌ مَقْبَلٌ مَبِيرٌ مَعَا كَجَلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ من عَلِ
ومن أمثلة الجناس قوله فى غزله :

وإن كنتِ قد ساءتِكِ منى خَلِيقَةٌ فَسُئِلَ ثِيَابِي من ثِيَابِكَ تَنْسَلِ
وقوله :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي بِصُبْحٍ وما الإصباحُ فَيْكِ بِأَمْثَلِ

بحواره مصطلياً يقلبه ويتعهده ومن حوله أصول
شجر الغضا وعيدانه لا يزال يمد بها النار .
(٣) مستشزرات : مفتولات ، المدارى :
الأمشاط .

(١) ابن المعتز ص ٧ .
(٢) النفا : من أشجار نجد . الجزل :
الكثير ، كف : مد . الأجذال : أصول
الشجر . يقول إنه جمر لا يزال متقدماً ، لأن

وبجانب ذلك كله نجده يعنى بالتلاؤم بين ألفاظه ، فقلما تلقانا فيها لفظة نابية في حروفها ، وأيضاً نجد عنده عناية واضحة بموسيقاه ، ولعله من أجل ذلك كان يكثر من التصريح على نحو ما صنع في المعلقة فقد صرّح فيها مراراً ، كما في بيته الذى أنشدناه آنفاً والذى يخاطب فيه الليل . وفي الحق أن الموسيقى تطرّد في المعلقة اطراداً ، فلا نحس بنشاز ، سوى الزخافات التى يكثر منها على شاكلة قوله :

فجئت وقد نَصْتُ لنوم ثيابها لَدَى السُّرِّ إِلَّا لَيْسَةَ الْمُتَفَضِّلِ

فإن التفعيلة الثانية في حشو البيت « مفاعِلن » وليست مفاعيلن . وإذا قرأنا في المعلقة قوله :

مَكْرٌ مَفْرٌ مَقْبِلٌ مَدْبِرٌ مَعَا كَجَلْمُودٍ صَخِرَ حَطُّهُ السَّيْلُ مِنْ عُلٍّ

بضم لام القافية — وهذا ما يقتضيه القياس النحوى تقول : من أسفل الجبل ومن علٍّ أى من أعلاه فتضم اللام على نية حذف المضاف إليه — أصبح في البيت إقواء ، وهو يكثر في الشعر الجاهلى وخاصة قديمه . وأيضاً إذا قرأنا وصفه للسيل وغثائه الملتف بجبل أبان في قوله :

كَأَنَّ أَبَانًا فِي أَفَانِينَ وَذَقَهُ كَبِيرُ أَنْاسٍ فِي بِجَادٍ مَزْمُلٌ

بضم اللام في كلمة « مزمل » وهو ما يقتضيه القياس النحوى لأنها صفة لكلمة كبير أناس المرفوعة أصبح في هذا البيت هو الآخر إقواء ، إذ اختلفت حركة الروى ، فأصبحت مرفوعة بينما هى في بقية القصيدة مجرورة . ويظهر أن هذا لم يكن يكثر عنده .

والحق أنه يعد أباً للشعر الجاهلى بل للشعر العربى جميعه ، فقد استوى عنده في صورة رائعة ، سواء من حيث سبقه إلى فنون أجاد فيها ، أو من حيث قدرته على الوصف والتشبيه ، وقد مضى يعنى بأخيلته ومعانيه وألفاظه مما نجده ماثلاً في استعاراته وبعض طباقاته وجناساته ، وبذلك أعد الشعراء من بعده للعناية بحلّى معنوية ولفظية مختلفة .

الفصل الثامن النابعة الذيباني

١

قبيلته

النابعة من قبيلة ذُبْيَان الغطفانية القيسية، إذ تنتسب إلى بَغِيض بن رَيْث بن غطفان بن سعد بن قَيْس عَيْلَان ، وإلى بَغِيض تنتسب أيضاً قبيلة عَبْس . ومن أهم عشائر ذبيان وبطونها بنو فَزَارَة وبنو مَرَّة وبنو سعد ، ومن فزارَة بنو مازن ، وبنو بدر وفيهم كانت رئاسة فزارَة في الجاهلية ، ومنهم حذيفة بن بدر وأخوه حَمَل . ومن بنى مرة بنو غِيظ وبنو سَهْم وبنو صِرْمَة وبنو خُصَيْلَة وبنو نُشْبَة وبنو يربوع عشيرة النابعة ، وسيدا بنى مرة غير مدافعين هَرَم بن سنان والحارث بن عوف ممدوحا زهير بن أبي سُلمى .

وتظهر قبيلة ذبيان وعشائرها على مسرح التاريخ الجاهلى مع حرب داحس والغبراء التى نشبت بينها وبين أخيها عبس واستمرت فيما يقول الرواة نحو أربعين عاماً امتدت فيما يُظن من سنة ٥٦٨ إلى سنة ٦٠٨ للميلاد . ومرّ بنا أن السبب في نشوبها سباق داحس والغبراء ، وكان داحس جواداً لقيس بن زهير سيد بنى عبس ، وكانت الغبراء فرساً لحَمَل بن بدر سيد بنى فزارَة . وسبق داحس إلا أن الفزاريين أقاموا له كميناً في نهاية الشوط نفّره عن غايته ، فسبقت الغبراء . واستشاط قيس غضباً ، وطلب الرهان ، وبعث حَمَل ابنه يطلب منه الرهان المضروب - وقتله قيس . فاستعرت نيران الحرب بين القبيلتين ، واشترك فيها أحلافهما ، فكان مع عبس بنو عامر ، وكان مع ذبيان بنو تميم وبنو أسد ، ودارت سلسلة معارك طاحنة ، من أهمها يوم المريقب وكان لعبس على ذبيان ، وفيه قتل عنترة ضمضاً أبا حصّين المري والحارث بن بدر ، ومن قُتل فيه أيضاً عوف بن بَدْر ، ويوم ذى حسى وكان للذبيان على عبس ، ويوم جَعْفَر الهبأة وكان لعبس

على ذبيان وفيه قُتل حذيفة وحمل ابنا بدر، ورثاهما قيس خصمهما رثاء حاراً ،
يقول في بعضه^(١) :

شفيتُ النفس من حملِ بنِ بدرٍ ومِني من حذيفةٍ قد شفاني
شفيتُ بقتلهم لغليلِ صَدْرِي ولكني قطعْتُ بهم بَنَانِي
وثارتُ ذبيان لنفسها في معركةِ الجراجِرِ أو ذاتِ الجراجِرِ . ثم تجمعت ذبيان
وأحلافها من تميم وأسد كما تجمعت عبس وعامر ، واشتبكت الفئتان في يومِ شِعْبِ
جبله ، وفيه دارت الدوائر على ذبيان وأحلافها ، إذ أثخت فيهم عبس وعامر القتل
فقتل لقيط بن زُرارة التيمي وأسر أخوه حاجب . ولم تلبث ذبيان أن أوقعت بعبس
وعامر في يومِ شعواء وقعة منكرة . ورأت عبس أن تقف هذه الحروب التي أتت على
الأبطال والرجال ، فأرسلتُ وقدأ إلى ذبيان يطلب الصلح ، ولقي الوفد سيدي بنى مرة :
الحارث بن عوف وهريم بن سنان ، فحملا قورمهما على الصلح ، وتحملاً ديات
القتلى ، ويقال إنها بلغت ثلاثة آلاف بعير . وبذلك وضعت هذه الحروب أوزارها ،
ويُظن أنه لم يُكتب للنابغة أن يرى انفضاضها ، فقد توفي قبل ذلك بقليل .

وبيها كانت ذبيان تدبر رحي هذه الحروب كانت تدبر رحي حروب أخرى
مع الغساسنة ، وكان يؤازرها أحلافها من بنى أسد ، ولعل في ذلك ما يدل على أن
القبيلتين جميعاً كانتا تدينان بالولاء للمناذرة خصوم الغساسنة ، فهم يشرعون سيوفهم
ويشهرونها في وجوه خصومهم ، وكانوا آونة ينتصرون عليهم وآونة يهزمون وتمتلئ
أيدي الغساسنة بأسراهم ، مما اضطر النابغة على نحو ما سرى بعد قليل أن ينزل
بالغساسنة ويستعطفهم حتى يردوا إلى هؤلاء الأسرى حريتهم .

وتدل دلائل مختلفة على أن عشائر ذبيان لم تكن دائماً في وفاق ووثام ، فهي
تتجمع لحرب عبس والغساسنة ، ثم تعود فتتناحر داخلياً ، على نحو ما تصور ذلك
أشعار بشامة بن الغدير والحصين بن الحُمام المرى وزبَّان بن سيار الفزاري والنابغة ،
إذ يشيرون إلى بعض المنازعات بين تلك العشائر ، وقد يشيرون إلى معارك وقعت بينها ،
فن ذلك قول الحُصين بن الحُمام عقب معركة بين عشيرته بنى سهم وبين بنى
صيرمة ، وفيها انتصر الأولون^(٢) :

(٢) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٦٥
والهام : الروس .

(١) عيون الأخبار ٨٨/٣ والمرزوق على
الحماسة ٢٠٣/١ وسط اللالى للبكري ٣٠٥ .

صَبِرْنَا وَكَانَ الصَّبْرُ فِينَا سَجِيَّةً بِأَسْيَافِنَا يَقْطَعْنَ كَفًّا وَمَعْصَمًا
يُفْلَقْنَ هَامًا مِنْ رِجَالِ أَعْزَةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعْقًى وَأَظْلَمًا

ونجد يزيد بن سنان أخى هرم بن سنان يطلق زوجه ، وكانت ابنة النابغة ،
ويشير على عشيرتها يربوع عشيرتى خصيلة ونُسْبة ، عاقدًا بينهما حلفاً سُمي حلف
الحاش ، وما يزال يربوع حتى يجلبها عن ديارها إلى ديار بنى عُدْرة ، وفى ذلك
يقول النابغة :

جَمْعٌ مَحَاشِكُ يَا يَزِيدُ فَإِنِّى أَعْدَدْتُ يَرْبُوعًا لَكُمْ وَتَمِيمًا
حَلَبْتُ عَلَى بَطُونٍ ضِنَّةً كُلِّهَا إِنْ ظَلَمْنَا فِيهِمْ وَإِنْ مَظْلُومًا^(١)

فلم تكن عشائر ذبيان على صفاء دائماً ، بل كثيراً ما كانت تتحارب وتتقاتل
ويعتزل بعضها بعضاً ، وقد ترك عشيرة منازلها إلى منازل جيرانها من عُدْرة وغير عُدْرة .
وكانت ذبيان كغيرها من قبائل غطفان تعبد فى الجاهلية العزى وتتخذ لها كعبة
تحج إليها ، وتقدم لها النذر والقربان ، وقد هلمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى
الله عليه وسلم . ومعنى ذلك أن ذبيان ظلت على وثنيها حتى دخلت فى الإسلام
الحنيف .

٢

حياته

هو زياد بن معاوية بن ضيَاب بن جَنَاب^(٢) بن يَرْبُوع ، وأمه عاتكة بنت
أنيس من بنى أشجع الذبىانيين ، فهو ذبيانى أباً وأماً ، وكان يكنى بأبى أمانة
وأبى ثَمَامَة^(٣) ، وهما ابتاه ، كما كان يلقب بالنابغة ، وبهذا اللقب اشتهر . واختلف
الرواة فى سبب تلقيبه به ، فقيل لقوله فى بعض شعره : (فقد نبغت لنا منهم شئون)
وقيل لأنه قال الشعر بعد أن كبرت سنه ومات قبل أن يهتتر ويذهب عقله^(٤) .

(٣) انظر الأغاني ٣/١١ وترجمته فى
الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٨/١ وما بعدها .
(٤) الأغاني ٤/١١ وراجع الشعر والشعراء .
١٠٨/١ وشرح المعلقات الشعر للتبريزي .

(١) ضنة : عشيرة من عُدْرة .
(٢) هكذا فى ترجمته بالأغاني (طبعة دار
الكتب) ٣/١١ وفى شرح التبريزي للمعلقات
المشرقا بن يربوع بدلان جناب بن يربوع .

ونظن ظناً أنه سمي بذلك لنبوغه في شعره وتفوقه فيه ، ومن أكبر الدلالة على ذلك أننا نجد مجموعة من الشعراء المخضرمين والإسلاميين تلقَّب بنفس اللقب مثل النابغة الجعدى والنابغة الشيباني والنابغة التغلبي ، ويميّز هو منهم باسم النابغة الذبياني .

ولسنا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولا عن شبابه ، وكل ما يحرص الرواة على قوله هو أنه كان من أشرف ذبيان وبيوتاتهم ، وقد يكون في مصاهرة يزيد أخى هرم ابن سنان له وهو من أشرف ذبيان ما يقطع بذلك . وإذا كنا نجهل نشأته وشبابه فإن في شعره وأخباره ما يصور لنا الشطر الثاني من حياته ، وهو شطر بدأه بالتزول على النعمان بن المنذر أمير الحيرة^(١) ولزومه له يملحه ويتغنى بمناقبه . ومعروف أن قبائل نجد كانت تدين بالولاء للمناذرة منذ قضاوا على دولة كندة ، وكانت تدخل ذبيان في هذا الولاء ، فطبيعي أن يقصد شاعرها النابغة النعمان بن المنذر وأن يُضقى عليه مدائحه . وسرّ النعمان بوفوده عليه ، فقربه منه وناداه ، وأجزل له في العطايا والصلوات ، حتى أصبح شاعره الفدّ ، وكان بلاطه يموج بالشعراء من أمثال أوس ابن حجر التميمي والمثقب العبدى ولبيد العامري ولكن أحداً منهم لم يكرمه إكرام النابغة ، وقد صور ذلك في معلقته ، إذ يقول :

الواهب المائة المعكاء زينها سعدانٌ توضيحٌ في أوبارها اللبد^(٢)
والأذم قد خيست فتلا مرافقها مشدودةً برحال الحيرة الجد^(٣)
والراكضات ذبول الريط فائقها برؤ الهواجر كالغزلان بالجر^(٤)
والخيل تمزج غرباً في أعنتها كالطير تنجو من الشؤبوب ذى البر^(٥)

(٢) المعكاء : الغلاظ القوية ، ويريد الإبل . توضيح : موضع . السعدان : مراع . لبد الشعر : ما تلبس منه .

(٣) الأدم : النوق البيض . خيست : ذلت . فتلا مرافقها : كناية عن قوة خلقها ومثانتها .

(٤) الراكضات : الساحيات . الريط : ثوب طويل . فائقها : نعمها . الجرد : موضع .

(٥) تمزج غرباً : تسح سما شديداً . الشؤبوب : السحاب أو دقعات مطره .

(١) واضح أننا لم نعتد بما ذهب إليه بعض الرواة من أن النابغة لحق عمرو بن هند وملحه بقصيدة مطلعها :

أثاركة تدلها قطام وضنا بالتحية والكلام

وأغلب الظن أنها متحلة عليه ، وهي ليست

على كل حال في رواية الأصمعي للديوان ،

وروى الشنمري عن أبي عبيدة أنه ملح بها

عمرو بن الحارث النساني .

فقد كان يعطيه المائة من الإبل الموثقة الخلق المذللة كما كان يعطيه القطيع من الخيل ، غير الجوارى المنعمات . على أن حادثاً حدث اضطره إلى مغادرة بلاط المناذرة والتوجه تَوّاً إلى بلاط الغساسنة ، إذ أوقعوا بذبيان وأحلافهم من بني أسد وقعة منكرة على أثر تعديهم على وادي أقر الحصيب ، وكانوا قد حموه ومنعوا أن ترتاده القبائل ، وارتادته ذبيان وأسد ، فنكلوا بهما تنكيلاً فظيماً ، وسبوا كثيراً منهما ومن نسائهما . فألم النابغة ألماً شديداً صورّه في قوله :

لقد نهيْتُ بني ذبيانَ عن أَقْرِ وعن تربُعِهِم في كل أَصْفار^(١)

وقلتُ يا قوم إن اللَّيْثَ مُنْقَبِضٌ على برائته لوثْبَةُ الضَّارِي^(٢)

لا أَعْرِفَنَّ رَبِّراً حُوراً مدامعُها كَأَنَّ أَبكارها نِعاَجُ دُؤارٍ^(٣)

ينظرُنْ شَرْراً إلى من جاء عن عُرْضٍ بأوجهٍ منكرات الرِّقِّ أَحرارٍ^(٤)

يَنزُرِينَ دَمْعاً على الأَشْفارِ منحدراً يَأْمُلْنَ رِحْلَةَ حِصْنٍ وابنِ سَيَّارٍ^(٥)

وواضح أنه يصور نساء ذبيان وقد أُسرن ، وهن يذرفن الدموع ويتلفتن يميناً وشمالاً ، لعل بطلٍ قومهما حِصْنِ بن عيينة وزَيْبَانِ بن سيار يقلعمان بالحيوش ، فيخلصانهم من ذل الأسر والعار ، وفي بعض الروايات أنه كان بينهما إحدى بناته . وعرض لما صنعت جيوش الغساسنة ببني أسد ، فقال في قصيدة أخرى مصوراً ما أصابهم من الجهد والبلاء :

لم يبقَ غيرُ طريدٍ غيرِ مُنْفَلِتٍ وموثقٍ في جبال القِدِّ مسلوبٍ^(٦)

أو حُرَّةٌ كمهاة الرَّمْلِ قد كُيِّلَتْ فوق المعاصم منها والعراقيب^(٧)

به في الجاهلية .

(٤) النظر الشذر : النظر بمؤخر العين . عرض : جانب .

(٥) الأشفار : جمع شفر ، وهو هذب العين .

(٦) القد : شراك كانوا يشدون به الأسير .

(٧) المهاة : البقرة الوحشية . المعصم : موضع السوار .

(١) أقر : واد . تربعهم : إقامتهم وقت الربيع . أصفار : شهور الربيع جمع صفر .

(٢) البرائن : الأظفار . الضاري : متعود الافراس .

(٣) الربوب : القطيع من بقر الوحش تشبه النساء به . حورا : جمع حوراء ، وهي العين الجميلة واضحة البياض والسواد . النعاج : إناث البقر . دوار : اسم صنم كن يطقن

تدعوقعيناً وقد عَصَّ الحديدُ بها عَصَّ الثقافِ على صُمِّ الأنايبِ^(١)

ولم يجد النابغة بدءاً من أن يسعى إلى الغساسنة وأن يملحهم ، حتى يكفوا عن قومه ، ويردوا الحرية إلى من سبوه منهم ، فنزل بعمر بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن جبلة ، ومدحه مدحاً رائعاً كما مدح أخاه النعمان . وأكبرا سفارته لديهما ، ففجوا عن أسراه ، وكان جزاؤهما من النابغة مديحه الرائع لهما ، وظل عندهما يببالغان في إكرامه ويبالغ في مديحهما ، محاولاً بكل ما استطاع أن لا يعودا إلى حرب قومه أو حرب أحلافهم . وقد مر بنا أن عشيرته يربوع كانت تنزل أحياناً في بني ضنة العذريين وعشائرها من بني حُنَّ ، فتوسع لهم في ديارها ومراعيا ، وحدثت النعمان نفسه بغزوهم ، فتعرض له النابغة يخوفه منعتهم ومنعة ديارهم ، ولما رأى منه إصراراً شديداً أرسل إلى عشيرته بدعوها أن تعين بني حُنَّ ، فأعانتها ومُنيت جيوش الغساسنة بالهزيمة ، وفي ذلك يقول :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته يريد بني حُنَّ ببرقةٍ صادرٍ^(٢)
تجنبْ بني حُنَّ فإن لقاءهم كريةٌ وإن لم تلقَ إلا بصابرٍ^(٣)
عظامُ اللهى أولادُ عُدرةٍ إنهم لهميمٌ يستلونها بالحناجرِ^(٤)
وهم منعوا وادى القرى من عدوهم بجمعٍ مُبِيرٍ للعدوِّ المُكاثِرِ^(٥)

وعلى هذا النحو كانت سفارته لدى الغساسنة ذات فوائد جليلة لقومه وأحلافهم ، وما زال يرمى مصالحهم عندهم حتى توفي عمرو ثم أخوه النعمان ، فرأى أن يعود إلى النعمان بن المنذر ، وكان قد غضب عليه غضباً شديداً ، إذ كان يتخذ داعية له في قومه ، وكان يرى في نزوله بالغساسنة ما يدفع ذبيان إلى أن تخرج على ولائها له ، فهذا شاعرها وشريفها النابغة يلج في مديح خصومه . وكأنه يعلن بذلك ولاء قبيلته لهم .

- (١) قعين : عشيرة من أمد . الثقاف : الرماح . الأنايب : كعوب الرماح .
(٢) برقة صادر : موضع .
(٣) صابر : شجاع في الحرب .
(٤) اللهى هنا : المال . لهميم : جمع لهموم وهو الضخم العظيم . يستلونها : يتتلونها ، يصفهم بعظم الخلق وكثرة الأكل وضخم الأجسام .
(٥) مبير : مهلك .

وبذلك كان ذنب النابغة عظيماً ، وقد أخذ يدفع عن نفسه في اعتذاراته المشهورة التي قدمها إلى النعمان ، فعفا عنه ، وعاد إلى بلاطه من جديد ، وحظى برضاه ونائله الغمّس إلا أن كسرى لم يلبث أن غضب على النعمان ، فاستدعاه سنة ٦٠٢ للميلاد ، وألقى به في غياهب السجن حتى مات ، ويقال بل ألقى به تحت أرجل القيلة . وواضح أننا لم تأخذ بالروايات ^(١) التي رواها القدماء في سبب مفارقة النابغة لبلاط النعمان بن المنذر ووفوده على الغساسنة ، فقد زعموا أنه إنما فارق النعمان خوفاً على حياته ، فإن بعض الشعراء الذين نفسوا عليه مكانته عنده صنعوا على لسانه شعراً هجاء به هجاء مقذماً ، وفي بعض الروايات أنه كان لأحدهم سيف قاطع كثير القرنند والجوهر ، فذكر النابغة ذلك للنعمان فأخذه ، واضطغن صاحبه على النابغة فوشى به إلى النعمان وحرّضه عليه . وفي رواية أن النابغة وصف زوج النعمان المتجردة وصفاً استقصى فيه أعضائها ، فغار منه المنخل الشكري وكان يهواها ، فوسوس إلى الأمير أن هذا الوصف لا يقوله إلا من جرّب ، فغضب النعمان ، وعلم النابغة فهرب إلى الغساسنة . وسرى فيما بعد أن قصيدته في المتجردة موضوعة . وفي الحق أن كل هذه الروايات وما تضم من أشعار مخترعة ، اخترعها الرواة ليفسروا اعتذارات النابغة التي تنبئ بأنه جنى جناية عظيمة ، وأن هناك وشاة أوقعوا بيته وبين النعمان بن المنذر ، ولم تكن هذه الوشاية إلا وفوده على الغساسنة أعداء النعمان وما صاغه من المديح فيهم ، وقد كان يهيم النعمان أن لا تضع الحرب أوزارها بينهم وبين ذبيان وقبائل نجد الغربية . فلم يكن ذنب النابغة عند النعمان ذنباً شخصياً ، وإنما كان ذنباً سياسياً . وقد عاد إليه يطلب الصفح والعفو ، لا لأنه بلغه أنه عليل كما تزعم بعض الروايات ^(٢) .

ونعتقد أن سفارته لقومه في بلاطى المناذرة والغساسنة هي التي أقلت الإشارات في شعره إلى حروب داحس والغبراء ، إذ لم يشترك في وقائعها . ومع ذلك نراه في بعض شعره يأسى لتحول عبس إلى عامر ومفارقها لديار أبناء عمومتها من ذبيان ، يقول :

أبلغ بنى ذبيان أن لا أخاً لهم بعبس إذا حلّوا الدماخ فآظلماً ^(٣)

(٣) الدماخ : جبال . أظلم : موضع .
يشير بهما إلى منازل بنى عامر .

(١) الأغاني ١٢/١١ وما بعدها وانظر ترجمته في الشعر والشعراء .
(٢) أغاني ٢٩/١١ .

هم يَرُدون الموتَ عند لقائه إذا كان وِرْد الموت لا بُدَّ أَكْرَمَا
 وكأنه يَحْرَضُ قومه أن يعودوا إلى السِّلْم مع عيس مستنصرين بها ضد أعدائهم ،
 ففيها شجاعة وجرأة وإقدام وعتاء في الحروب . وليس في شعره أى إشارة لوعيد
 أو تهديد لعبس ، وكأنه كان يبق على القربى والرحم بينه وبينها ، فهو لا يتوعدها غارة
 ولا يندد بالوقائع التى انتصرت فيها قبيلته . ولكن إذا كان قد ترك عيساً فقد تعرض
 لعامر حليفها يهددها ويهدد سادتها وأبطالها من مثل زُرْعَة بن عمرو وعامر بن الطفيل
 بغارات شعواء لقومهما تُسبى فيها الأطفال والنساء . وحاول زرعة وبعض بنى عامر
 أن يدفعوا ذبيان لنقض ما بينها وبين أسد من حلف وعقد حتى تُحَقِّقَ الدماء ،
 وعلم النابغة بذلك وأن عَيْسِيَّة بن حِصْن وبعض الذبيانين يفكرون فى الأمر ، فتولى
 غضباً ينشد القصائد مسفها بنى عامر وعيينة وداعياً قومه إلى الوفاء بما بينهم وبين أسد
 من العهود والعقود ، وفى ذلك يقول قصيدته :

قالت بنو عامر خالوا بنى أسد يا بُؤْسَ للجهل ضَرَّاراً لأقوام^(١)
 يَأْبَى البلاء فلا نَبْغى بهم بدلا ولا نريد خلا^(٢) بعد لإحكام

وتوجه إلى عيينة يعنفه تعنيفاً شديداً فى قصيدة أخرى ، يقول فى تضاعفها :

إذا حاولت فى أسد فجوراً فلانى لست منك ولست منى
 وهو موقف يدل على نبلة وحرصه على الوفاء ، ويلخُل فى ذلك مدحه لبنى أسد
 وإشادته بشجاعتهم وبلائهم فى الحروب .

وجميع أخباره وأشعاره الصحيحة تدل على أنه كان سيداً شريفاً من سادات
 قومه ، فهو لا يَتَفَتَّى تَفَتَّى امرئ القيس وطرفة وأضرابهما ، بل يترأى سيداً وقوراً
 ذا خلق وشيم كريمة ، فهو لا يتدنى فى سفاهة ولا يتبدل فى مجون . وفى أشعاره بعض
 إشارات مسيحية ، وقد جاءه ذلك من إقامته الطويلة فى الحيرة ولدى الغساسنة وكأنه
 استمع إلى بعض ما يقوله الأجبار والرهبان ، ولكن لا شك فى أنه كان على دين

الخلا : نقض العهد كالتحالة .

(١) خالوا : من التحالة وهى نقض العهد .

(٢) البلاء : يقصد بلامم معهم فى الحرب .

آبائه يتعبَّد العزَّى وغيرها من آلهتهم الوثنية، ويختلف معهم إلى الحج بمكة ،
وفي معلقته :

فلا لعمرُ الذي مسَّختُ كعبته وما هُرِّيقَ على الأنصاب من جسدٍ
فهو يقدس الدماء التي كانت تُصبُّ على الأنصاب .

وكان فيه حكمة ، وهي مبثوثة في شعره ، ويقول ابن حبيب إنه ممن حرمَّ
الخمر والأزلام في الجاهلية^(١) . وهو بذلك كله يبدو سيداً وقوراً . ويظهر أنه نال
شهرة واسعة في عصره لا عند أمراء الحيرة والغساسنة فحسب بل أيضاً في داخل
الجزيرة وبين الشعراء ، إذ كانوا يعرضون عليه في المواسم والأسواق أشعارهم .
قال صاحب الأغاني : « كان يُضْرَبُ للنابعة قُبَّةٌ من أدمٍ بسوق عكاظ ، فتأتيه
الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها . وحدث ذات مرة أن أنشدته الأعشى أبو بصير ،
ثم حسان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد :
وإن صَخْرًا لتَأْتُمُّ الهداةُ بهِ كأنه علمٌ في رأسه نارُ^(٢) »

فقال : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس ،
فقام حسان فقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابعة : يا بن أخي
أنت لا تحسن أن تقول :

فلَمَنك كالليل الذي هو مُدْرَكِي وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسعُ
خطاطيفُ حُجْنٍ في حِبالٍ متينَةٍ تَعُدُّ بها أيدٍ إليك نوازِعُ^(٣)
فحنَّس حسان لقوله^(٤) . وفي رواية أخرى أنه لما غضب حسان وقال له
أنا أشعر منك ومن أبيك قال له حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجَفَنَاتُ الغُرِّيْلَمَعَنُ بالضحي وأسياقنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دما

(١) المحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد)

حجناء تستخرج بها الدلاء من البئر، حجن :

ص ٢٣٨ .

جمع حجناء وهي الموعة . نوازع : جوازب .

(٢) العلم هنا : الجبل .

ويقصد قصائده التي يستعطفه بها .

(٤) أغاني ٦/١١ .

(٣) خطاطيف : جمع خطاف وهو حديدة

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابناً^(١)

فقال له النابغة : أنت شاعر ولكنك أقللت أجفانك وأسيافك وفخرت بن ولدت ولم تفخر بمن ولدك^(٢) . وأكبر الظن أن هذه الزيادة في تلك الرواية من عمل بعض اللغويين الذين يذهبون إلى أن جمع المؤنث السالم ووزن أفعال في جمع التكسير يدلان على القلة . وفي الحقيقة لم يفخر حسان بالأبناء دون الآباء ، بل لقد افتخر بالآباء ، وإن كان عبّر بكلمة ولدنا ، فهي مماحكة لفظية ، وما كان النابغة ليعتمد إلى مثل هذه المماحكة والمغالطة . والمهم في الخبر أنه كان يحكم بين الشعراء فمن أشاد به تألق نجمه ومن أزرى به خمل ذكره .

وقد رجع إلى قبيلته بعد موت النعمان بن المنذر سنة ٦٠٢ وأمضى فيها بقية حياته ، ويظهر أنه لم يعيش طويلاً ، فليس في أشعاره أى شيء يتصل بانتهاء حروب داحس والغبراء سنة ٦٠٨ ولو أنه حضر نهايتها لأشاد بموقف سيدى قبيلته : هرم بن سنان والحارث بن عوف في حقن الدماء بما تحملاً من ديات ، ومن ثم كان لا يبعد عن الصواب ما زعمه لويس شيخو من أنه توفي سنة ٦٠٤^(٣) .

٣

ديوانه

لعل أقدم نشرة لديوان النابغة نشرة ديرنبورج له في المحلة الآسيوية (١٨٦٨ — ١٨٦٩) وقد استخرجها من شرح الشتمرى للدواوين الستة ، وهى دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة . وسبق أن قلنا في حديثنا عن ديوان امرئ القيس إن هذا الشرح يحتفظ برواية الأصمعى لتلك الدواوين ، وبعد أن يفرغ منها يضيف إليها بعض قصائد من رواية الكوفيين . وقد اعتمد ديرنبورج في نشرته لديوان النابغة على مخطوطتين من شرح الشتمرى وجدهما في

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٤٠/٩

والموشع للرزباني ص ٦٠ .

(٣) شعراء النصرانية ص ٦٤٠ .

(١) العنقاء : جد الخزرج الأول . محرق : هو الحارث بن جبلة القسافي ، ومعلوم أن الفساسة كالحزرج من الأزد ، ولذلك يفخر بهم كما يفخر بقبومه .

باريس ومخطوطة ثالثة وجدها في فينا وهي بشرح البطليوسى . وقد نُشر في سنة ١٨٩٩ ملحقاً للديوان في المجلة الآسيوية نقله عن مخطوطة في مجموعة شيفر وجد بها زيادات جديدة .

ونشر الديوان ألورد في مجموعة الدواوين الستة التي عُنِي بها الشتمرى، سنة ١٨٧٠ واستخرج نشرته من عدة مخطوطات إلا أنه لم يكتف بما جاء عند الشتمرى ، فقد أُلحق بتلك الدواوين الستة زيادات وإضافات مما وجده منسوبة في كتب الأدب إلى كل منهم ، وقد نُشر الديوان في القاهرة مع هذه الدواوين ، ولكن لا بشرح الشتمرى وإنما بشرح البطليوسى . ونشر نشرة أخرى باسم «التوضيح والبيان عن شعر نابغة بنى ذبيان» وقام على هذه النشرة مصطفى أدهم سنة ١٩١٠ . ونُشر في بيروت مع مجموعة دواوين أخرى باسم خمسة دواوين العرب ، وهي دواوين النابغة وعروة ابن الورد والفرزدق وسحاتم الطائي وعلقمة الفحل . وقد نشره لويس شيخو في مجموعته «شعراء النصرانية» معتمداً على نشرة ألوارد . ونشره مصطفى السقا في مجموعته «مختار الشعر الجاهلى» وهذه المجموعة كما مر بنا هي نفسها مجموعة الدواوين الستة التي عُنِي بها الشتمرى ، وإن كان الناشر لم ينقل معها شرحه ، فقد اختصره ، غير أنه احتفظ بكثير من الإشارات والتعليقات التي بثها الشتمرى فيه . وفي دار الكتب المصرية غير مخطوطة من هذا الشرح . وفي مكتبة أحمد الثالث بإستانبول مخطوطة للديوان بشرح ابن السكيت وكذلك في مكتبة فيض الله مخطوطة أخرى له بشرح الخطيب التبريزى . والمخطوطتان جميعاً مصورتان بمعهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية .

وسنعمد في دراستنا للشاعر على شرح الشتمرى ، لأنه يحتفظ لنا برواية الأصمعى أو ثقي رواية الشعر الجاهلى ، وهي تنتهى عنده بالقصيدة رقم ٢٢ إذ يقول الشتمرى بعقبها : «كُلّ جميع ما رواه الأصمعى من شعر النابغة ، ونصل به قصائد متخيرة مما رواه غير الأصمعى إن شاء الله تعالى» وهي سبع قصائد رواها عن الطوسى ، وهو إنما يروى عن ابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى ، ومعنى ذلك أن هذه القصائد مما أضافه الكوفيون إلى رواية الأصمعى أستاذ البصرة والبصريين . وكان الأصمعى كان يشك فيها أو كان ينكرها ، ولذلك لم يثبتها في روايته ، ومن ثمَّ

لا نستطيع أن نعتمد عليها في دراسة النابغة ، إنما نعتمد على ما رواه الأصمعي ،
ونتخذُه أساساً لبحث الشاعر وشعره .

على أننا لا نكاد نمضي في رواية الأصمعي حتى نجدُها في حاجة إلى مناقشة ،
فإن الأصمعي احتفظ فيها بقصيدته في المتجردة : (أمن آل مئة رائج أو مقتد)
مع أنه كان لا يسندُها كما يقول الشنمري . ومعنى ذلك أنها ضعيفة الرواية . ونحن
لا نقرؤها حتى نجدُها تتضمن غزلاً مفحشاً ، وهو غزل لا يتفق رخصية النابغة
الوقور . ولو أن هذا اللون من الغزل كان دائراً في شعر النابغة لأمكن أن نقبلها ،
ولكنه يأتى شذوذاً في هذه القصيدة ، ليدل — كما مر في غير هذا الموضع — على
خبر مصنوع ، وضعه الرواة ليفسروا به السبب في غضب النعمان بن المنذر على
النابغة ، إذ جعلوه يتغزل بزوجه هذا الغزل الماجن الذى يندى له الجبين ، وكأنما
ضاعت الدنيا على النابغة فلم يجد امرأة يتغزل بها هذا الغزل المفحش سوى زوج
النعمان . ولو أن الرواة كانوا متعمقين في فهم العصر الجاهلى وما كان فيه من
منافسة شديدة بين المناذرة والغساسنة ، بل لو أنهم تعمقوا في درس شعر النابغة
لعرفوا أنه اضطر اضطراراً إلى مغادرة بلاط النعمان والتوجه إلى الغساسنة حتى يفك
أسرى قومه عندهم عقب معارك رجحت فيها كفة الغساسنة ، بل لقد هزمهم هزيمة
منكرة . وبذلك فقد النعمان داعيته في ذبيان ، وغضب عليه غضباً شديداً . وما زال
النابغة عندهم ، ليرد كيدهم عن قومه ، حتى إذا دار الزمن وتوفى خصماً ذبيان من
الغساسنة ، وهما عمرو وأخوه النعمان ، رأى النابغة أن يعود إلى بلاط النعمان بن
المنذر ، لا خوفاً على نفسه كما يقول الرواة ، بل خوفاً من تأليه القبائل على قبيلته .
فالوقوف كله كان موقفاً سياسياً ، ولم يكن موقفاً شخصياً ، ولذلك كنا نرد قصيدة
المتجردة ، كما نرد كل ما يتصل بقصة هرب النابغة من النعمان ورجوعه إليه حين
علم بمرضه ، ومن ثمَّ كنا نشك في قصيدته الرائية التي يقول فيها :

ألم تر خير الناس أصبح نَعْسُهُ على فتية قد جاوز الحى سائرا
ونحن لديه نسأل الله خُلده يردُّ لنا مَلَكًا وللأرض عامرا

فإن الرواة وضعوها وضعاً ، ليصوروا لنا النعمان عليلاً ، ونفس أسلوبها وما في
نهايتها من دعاء يدلان على أنها إسلامية ، ومن ثمَّ ننكرها كما ننكر مقطوعته التي

تتصل بمرض النعمان والتي يتوجه فيها إلى حاجبه عصام قائلاً في مطلعها :

ألم أقسم عليك لتخبرني أمحمولُ على النعش الهمامُ
وأيضاً فإننا نشك في قصيدته :

لعمرك ما خشيتُ على يزيدٍ من الفخر المضلل ما أتاني

لأن الرواة يقولون إنه هجا بها يزيد بن عمرو بن الصق الكلابي حين أصاب
إيلاً للنعمان ، وكلاب عشيرة من عشائر بني عامر ، وهي قيسية مضرية ، ومع
ذلك نجد النابغة يدعوها فيها يميناً إذ يقول في نهايتها : (ولكن لا أمانة لليمان)
وما كان ليضل عنه أنه مضرى لا يميني ، وكأنما القافية أعوزت في البيت منتحله ،
بل متحل القصيدة فدعاه يميناً ونسبه إلى اليمن . ومن القصائد التي جاءت في
رواية الأصمعي وعلو الشك فيها قصيدته :

بانث سعاد وأمسى حبلاًها انجذماً واحتلت الشرع فالأجراع من إضما

لأنها نسب خالص ، ولأن بها روحاً إسلامية تتضح في قوله مخاطباً صاحبه :

حيّاك ربى فإننا لا يحلُّ لنا لهو النساء وإن الدين قد عزمنا^(١)

مُشرّين على خوص مزمنة نرجو الإله ونرجو البر والطعما^(٢)

وإذن فنحن ننكر خمس قصائد في رواية الأصمعي وبقى على سبع عشرة ، ومع
إبقائنا عليها لا نُخلّيها من بعض أبيات أدخلت في روايتها ، فمن ذلك قصيدته العينية
التي يعتزرفها للنعمان ، فإن الرواة أدخلوا فيها خمسة أبيات تمضى على هذا النحو :

لعمري وما عمري على بهينٍ لقد نطقت بطلاً على الأقارع^(٣)

أقارعُ عوفٍ لا أحاول غيرها وجوه قروء تبتغي من تجادع^(٤)

أتاك امرؤ مستبطن لي بغضة له من عدوٍّ مثل ذلك شافع

(١) الدين هنا : الحج . يريد أنهم عزموا عليه . فهو من باب القلب في التعبير .

(٢) مشرّين : جادين . الخوص : الإبل غائرة العينين . مزمنة : مشدودة بأزمته

ورحالها . الطعم هنا : الرزق .
(٣) الأقارع : بنو قريع بن عوف .
(٤) تجادع : تشام . ولفظ وجوه منصوب على اللّم .

أتاك بقولٍ هذَّله النِّسجِ كاذبٍ ولم يأتِ بالحق الذي هو ناصعٌ
أتاك بقولٍ لم أكن لأقوله ولو كُلبت في ساعدى الجوامع^(١)

ولمَّا أدخلوا هذه الأبيات ليشيروا بها إلى ما قالوه من أن السبب في هربه من النعمان أن مرة بن سعد بن قريع وعبد قيس بن خُفَّاف نظما هجاء في النعمان على لسانه ، فلما علم به فرَّ على وجهه . ونحن ننفي هذه الأبيات عن القصيدة وننفي على ما عداها ونعده صحيحاً . ونقف نفس الموقف من هذه الأبيات التي جاءت في معاقته والتي يقول فيها عن النعمان بن المنذر :

ولا أرى فاعلاً في الناس يُشبهه ولا أحاشى من الأقوام من أحدٍ
إلا سليمانَ إذ قال الإله له قم في البرية فاحدِّثها عن الفند^(٢)
وحَيِّسَ الجنِّ إني قد أذنتُ لهم يَبْنُونَ تَدْمُرُ بالصَّفاحِ والعَمَدِ^(٣)
فمن أطاعك فأنفعه بطاعته كما أطاعك واذلُّه على الرُّدِّ
ومن عصاك فعاقبه معاقبةً تنهى الظلومَ ولا تقعد على ضَمَدٍ^(٤)
إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبقَ الجواد إذا استولى على الأمدِ^(٥)

وواضح أنه يسترسل في الحديث عن سليمان كأنه من أهل الكتب السماوية ، وقد كان وثنيّاً على مذهب قومه ، وبحق رأى طه حسين أن الأبيات أُقحمت على المعلقة إقحاماً^(٦) . وقد نسبت إلى النابغة أبيات في غير رواية الأصمعي يقول فيها معتزلاً إلى النعمان :

أتيتك عارياً خلقاً ثيابي على خوفٍ تُظَنُّ بِي الظنونُ
فألفيتُ الأمانة لم تحنّها كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

(٤) الضمد : الغيظ وشدة الغضب .
(٥) الأمد : الغاية التي تجري إليها الحيل .
والبيت معلق بما قبله أي لا تقعد على غيظ إلا لمن هو مثلك في الناس أو قريب منك .
(٦) في الأدب الجاهل ص ٣٣٧ وما بعدها .

(١) كلبت : وضعت . الجوامع : الأغلال .
(٢) احدها : امنها . الفند : الخطأ في القول والفعل .
(٣) غيس : ذلل . تدمر : مدينة الزباء في بادية الشام . الصفاح : حجارة عراض . العمدة : أساطين الرخام .

ونفى الجاحظ^(١) وابن سلام^(٢) أن يكون النابغة قد قال هذا الشعر ، وكأنهما أحسّا ما أحسه طه حسين لإزاء الأبيات السالفة وأنها خليقة بأن تكون مصنوعة . ومثلها في المعلقة الأبيات التالية التي تصوّر فطنة الإمامة وعدّها الدقيق لحمام طائر في مضيق من الهواء يجعله يشتد في طيرانه ويسرع لإسراعاً :

أَحْكُمُ كَحَكْمِ فَتَاةِ الْحَيِّ إِذْ نَظَرْتُ	إِلَى حَمَامٍ شِرَاعٍ وَارِدِ الشَّمَدِ ^(٣)
يَحْفُهُ جَانِبًا نَيْقٍ وَتَتَبِعُهُ	مِثْلَ الزَّجَاجَةِ لَمْ تُكْحَلْ مِنَ الرَّمَدِ ^(٤)
قَالَتْ أَلَا لَيْتَا هَذَا الْحَمَامُ لَنَا	إِلَى حَمَامَتِنَا وَنِصْفُهُ فَقَدِ ^(٥)
فَحَسْبُوهُ فَأَلْفُوهُ كَمَا حَسِبْتُ	تَسْعًا وَتَسْعِينَ لَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدْ
فَكَمَلْتُ مَائَةً فِيهَا حَمَامَتُهَا	وَأَسْرَعْتُ حِسْبَةً فِي ذَلِكَ الْعَدَدِ

وهي أبيات واضحة الانتحال . ونحن بعد ذلك نصصح بقية المعلقة ، كما نصصح قصائده ومقطوعاته الأخرى التي جاءت في رواية الأصمعي باستثناء ما أتهمناه .

٤

شعره

قرن ابن سلام النابغة إلى امرئ القيس وزهير والأعشى ، فهؤلاء الأربعة في رأيهم المقلدون على سائر الشعراء في الجاهلية^(٦) ، وتبعه الرواة والنقاد يؤمنون بهذا الحكم ، وأن الأربعة حقاً هم المجلّون السابقون في اقتدارهم على تصريف الشعر والنظم في فنونه المختلفة .

في مضيق من الهواء كان أسرع منه إذا اتسع عليه الفضاء . وشبه عين زرقاء الإمامة بالزجاجة في صفتها . لم تكحل من الرمذ : لم يصيبها رمذ فتكحل منه .
(٥) قد : حسب .
(٦) انظر طبقات فحول الشعراء ص ٤٣ وما بعدها .

(١) الحيوان ٢/٢٤٦ .
(٢) طبقات فحول الشعراء (طبع دار المعارف) ص ٤٩ - ٥٠ .
(٣) فتاة الحى : زرقاء الإمامة . شرع : مجتمعة . النمد : الماء القليل .
(٤) يحفه : يحيط به . نيق : جبل .
وجعل الحمام يمر في جانبي نيق لأنه إذا مر

وإذا استعرضنا دواوينهم جميعاً وجدنا النابغة يقرب في ذوقه من أوس بن حجر وزهير ومدرستهما التي اشتهرت عند القدماء بالتجويد والتنقيح ، فهو لا يقبل كل ما يفد على خاطره ، بل لا يزال يثقفه ويصقل فيه حتى يستوى له اللفظ المونق والديباجة الجزلة . وقد أتيج له أن يعيش في بيتين متحضرين هما الحيرة وبلاط الغساسنة ، فرق ذوقه وسهل منطقته ولفظه ، وإن كان لم ينس البادية ولغتها وغرابة هذه اللغة .

وقد وقف القدماء طويلاً عند إجادته لفنى المديح والاعتذار ، غير أنهم عادوا فقالوا إنه أحد الأشراف الذين غصّ الشعر منهم ، فإنه مدح الملوك وقبل صلهم ونواهم ، وكان في غنى عن هذا القول . « قيل لأبي عمرو بن العلاء : أفن مخافة النعمان بن المنذر امتدحه النابغة وأتاه بعد هربه منه أم لغير ذلك؟ فقال : لا ، لعمر الله ما لمخافته فعل ، إن كان لآمننا من أن يوجه النعمان له جيشاً ، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة ، ولكنه رغب في عطاياه وعصافيره (إبله) وكان النابغة يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده ، لا يستعمل غير ذلك^(١) » .

ويبعد في رأينا أن يكون قد وفد على أبي النعمان وجده كما يقول أبو عمرو بن العلاء وغيره من الرواة فإن ديوانه برواية الأصمعي يخلو من مديحهما . أما أن تكسبه بالشعر وأخذة نوال المناذرة وكذلك الغساسنة قد غصّ منه وأنزله من مرتبة شرفه بغير صحيح ، لأن وفوده عليهما لم يكن القصد منه التكبس ، وإنما كان القصد رعاية مصالح قبيلته عندهما كما قدمنا ، فقد كان سفيرها في بلاطهما . وحقاً إنه يبالغ في مديحه واعتذاره ، ولكنها مبالغة لا تنهى إلى ذلة نفس ، بل هي المبالغة التي تأتي من أنه يتحدث إلى أمراء كان لهم سلطان كبير على القبائل العربية ، ويريد أن يصلح ما فسد من قلوبهم عليه وعلى قبيلته .

وليس شعره جميعه مديحاً واعتذاراً فقد رثى النعمان الغساني ، وهو يقدم لراثته ومديحه واعتذاراته بالنسيب ووصف ناقته ، وقد يخرج من ذلك إلى وصف الحيوان في الصحراء وصيده . وأيضاً ففي شعره قصائد ومقطوعات تتصل بأحداث قبيلته

وأحلافها من بنى أسد وأعدائها من بنى عامر ، وبعبارة أخرى فى شعره فخر وهجاء ، وفى تضاعيف ذلك كله نرى عنده أسراباً من الحكمة والتجربة الصادقة ، وما يدل على وفائه وصدق مودته .

ونحن لا نلمّ بمدححه للغساسة حتى نؤمن حقاً بأنه كان شاعراً بارعاً ، يعرف كيف يتخير ألفاظه وكيف ينوع فى معانيه وكيف يستمّ صوره . وخير مدائحهم فيهم قصيدته البائية ، وهو يستهلها بوصف طول الليل وما تجمع عليه فيه من الهموم ، يقول :

كَلَيْنى لَهُمَّ يا أُمَيْمَةُ ناصِبٍ ولَيْلى أَقامِيه بَطْىء الكواكِبِ^(١)
تَطاولَ حَتّى قَلت لَيْسَ بِمَنْقُضٍ وَلَيْسَ الَّذى يَرعى النَجمَ بِآيِبِ^(٢)
وَصَدُرَ أَراحَ اللَّيْلِ عازِبَ هَمٍّ تَضاعَفَ فيه الحَزنُ من كُلِّ جانبِ^(٣)

فهو محزون فى أول القصيدة يخاطب بنته أمامة ويشكو لها همومه وأشجانه لما وقع فى قبضة الغساسة من أسرى قومه ، ونراه يصور طول الليل وهمّه فيه تصويراً بديعاً ، فالكواكب بطيئة لا تجرى ، حتى ليظن أن الصبح الذى يرعى النجوم بأضوائه ويحصدّها حصداً لن يؤوب ، والليل يثقل على صدره بما يردّ عليه من موجات الهم والحزن . وهى براعة استهلال رائعة تدل دلالة بيّنة على أننا بإزاء شاعر يعرف كيف يحسّم معانيه وكيف يعبر عنها تعبيراً واضحاً مستقيماً بالصور . وقد خرج من ذلك تَوْأماً إلى ملح عمرو بن الحارث الغساني وآبائه وعشيرته ، ووقف طويلاً عند تصوير جيوشه وما تحقق من انتصارات مدوية ، وأطال فى هذا التصوير قائلاً :

إِذا ما غَزَوْا بالجِيشِ حَلَقَ فوقَهُم عَصائِبُ طَيرٍ تَهتَدى بِعَصائِبِ^(٤)
يُصاحِبُهُم حَتّى يُغَرْنَ مُغارَهُم مِنَ الضَّارياتِ بِالدِّماءِ الدَّوارِبِ^(٥)

(٣) أراح : رد . المازب : البعيد .

(٤) عصائب : جماعات .

(٥) الضاريات : المتعدّات . الدوارب :

المدوية .

(١) كَلَيْنى : دعنى . ناصب : متعب .

بطيء الكواكب : كناية عن أنها لا تغور ولا تمضى .

(٢) آيب : راجع . وأراد براعى النجوم الصباح .

- تراهن خَلَفَ القوم خُزْرًا عَیُونُهَا
جوانحَ قد أیقَنَ أَنَّ قبیلَه
لهنَّ علیهم عادةٌ قد عرفَناها
على عارفاتٍ للطعانِ عوابِسِ
إذا استَنَزَلوا عنهنَّ للطَّعنِ أَرَقَلُوا
فهم يتساقون المنیة بينهم
یَطْیِرُ فُضاضاً بینها کلُّ قَوْنَسِ
ولا عَیْبَ فیهم غیر أن سیوفهم
تُورِثُنَّ من أزمانِ یومِ حلیمةٍ
تَقْدُ السُّلوقُ المضاعَفَ نَسْجُهُ
بضرب یُزِيلُ الهام عن سَکَناته
- جلوسُ الشیوخ فی ثیاب المَرانِبِ (١)
إذا ما التقی الجمعان أولُ غالبِ (٢)
إذا عُرِضَ الخَطیُّ فوقِ الکوائِبِ (٣)
بهنَّ کلومٌ بین دَامٍ وجالبِ (٤)
إلى الموتِ إِرْقالَ الجمالِ المِصاعِبِ (٥)
بأیدیهم بیضُ رِقاقِ المضاربِ (٦)
ويتبعها منهم فَرَّاشُ الحواجِبِ (٧)
بهنَّ فلولٌ من قِراعِ الکتابِ (٨)
إلى الیومِ قد جَرَّبَنَ کلَّ التجاربِ (٩)
وتوقدُ بالصَّفاحِ نارَ الحُبابِ (١٠)
وطَعَنَ کِلِیزاغِ المخاضِ الضواری (١١)

وهو یبدأ تصویره بأن جماعات الطیر من النُور والعقبان تتبع جيش الغساسنة ،
تنتظر زادها من أشلاء قتلاهم وربما سبقه الأفوه بقوله :

وترى الطیر على آثارنا رأىَ عینِ ثِقَّةٍ أَن سَتَمَارُ (١٢)

- (١) خزر العیون : جمع أخزر وهو الذى
ینظر بمؤخر عینه . المranب : ثیاب سوداء .
(٢) جوانح : مائلات للوقوع .
(٣) الخطی : الریاح . الکوائِب : القریوس .
(٤) عارفات : صابرات . کلوم : جروح .
دَام وجالب : مدم ومتجدد علیه الدم .
(٥) أَرَقَلُوا : أسرعوا . المِصاعِب : النافرة .
(٦) بیض : سیوف .
(٧) فُضاضاً : یَتَفَرَّقُ . القونس : أعلى
الرأس . فَرَّاش الحواجِب : عظامها .
(٨) فلول : ثلوم . قِراع : مضاربة .
(٩) یوم حلیمة : معركة مشهورة انتصر
فیها الحارث بن جبلة الفسانی على المنذر بن
ماء السماء .
(١٠) السُّلوق : الدرع المنسوبة إلى سلوق
من أرض اليمن . تقد : تشق . الصَّفاح : الحجارة
ویرید خوذ الجنود . الحُباب : ذباب له
شعاع باللیل .
(١١) الهام : جمع هامة وهى الرأس .
سَکَناته : حیث یسکن ویستقر . الإیزاغ :
دفع الناقة بولها . المخاض : الحوامل .
(١٢) انظر دیوان الأفوه ص ١٣ . تَمَار :

غير أن النابغة فصلَّ الصورة حتى يحكم المعنى ويكشفه كشفاً دقيقاً ، فالنسور والعقبان خزر العيون ، وهى تشبه فى ألوانها ثياب المراتب السوداء التى يلبسها الشيوخ ، وهى تسير خلفهم موقنة بأنها لا بد أن تجد زادها من أعدائهم ، وأنها على وشك الوقوع على ما تريد من هذا الزاد ، وهى لذلك لا تزال جانحة ، عادة عرفتها فيهم لا يخلفونها ولا يطلونها . وقد أعجب القدماء طويلاً بهذه الصورة عند النابغة ، فتعاور عليها الشعراء ، وكل منهم يحاول أن يشبث مهارته وقدرته ^(١) . ويمضى النابغة فيصور شجاعة الجيش ، وما على خيله من أثر للطعان وجروح بين مدم ومتجمد عليه الدم . ونلاحظ هنا الدقة فى الوصف ، وهى دقة استتبع ضرباً من الطباق . وقد صورهم يتساقون كتوس المنية ، كناية عن جرأتهم فى الحرب واقتحامهم لأهوالها ، ثم صور كيف يشخون فى أعدائهم ، ولم يلبث أن جاء بصورة طريقة ظاهرها ذم وباطنها مدح شديد ، فالغساسة لا عيب فيهم إلا عيب واحد ، وهو ليس فى حقيقته عيباً ، بل هو مفخرة من مفاخرهم ، فسيوفهم مفلة من طول قراعتها ومضاربها للكتائب . ومثل هذا التعبير الذى سبق إليه يدل على أنه كان يدقق فى معانيه وألفاظه جميعاً . ولم ينس أن يشير إلى نصرهم القديم فى يوم حكيمة الذى هُزم فيه المناذرة شر هزيمة ، حتى لقد قُتل المنذر بن ماء السماء فى ساحة المعركة . وقد جعل سيوفهم المفلة تشق الدروع المتينة وتمزق أصحابها تمزيقاً مطيحة برءوسهم ومرسله شرراً لا ينقطع ضياؤه حتى وكأنه أشعة الحجاب ، وسيولا من الدماء كأنها إيزاغ المخاض . حتى إذا استوفى كل ما أراد من تصويرهم بالشجاعة فى ميادين الحروب انتقل يصورهم فى سلمهم متحدثاً عن شيمهم وشائلكم ودينهم ونعيمهم ، يقول :

لهم شيمَةٌ لم يُعْطِها اللهُ غيرهم
محلَّتْهم ذاتُ الإله ، ودينُهم
من الجود ، والأحلامُ غَيْرُ عَوَازِبٍ ^(٢)
قويمٌ فما يرجون غيرَ العواقب ^(٣)

عازب وهو الغائب .

(٣) محلَّتْهم : منزلتهم ، ذات الإله : يقصد كنانتهم .

(١) انظر الصناعتين للعسكري (طبعة

الحلبى) ص ٢٢٥ والوساطة للجرجاني (طبعة

الحلبى) ص ٢٧٤ .

(٢) الأحلام : العقول . عوازب : جمع

رَقَاقُ النَّعَالِ طِيبٌ حُجْرَاتُهُمْ يُحْيَوْنَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِ^(١)
 تَحْيِيهِمْ بَيْضُ الْوَلَاتِدِ بَيْنَهُمْ وَأَكْسِيَةُ الْإِضْرِيحِ فَوْقَ الْمَشَاجِبِ^(٢)
 يَصُونُونَ أَجْسَادًا قَدِيمًا نَعِيمُهَا بِخَالِصَةِ الْأَرْدَانِ خُضِرِ الْمَنَاقِبِ^(٣)
 وَلَا يَحْسِبُونَ الْخَيْرَ لَا شَرًّا بَعْدَهُ وَلَا يَحْسِبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةً لَا زَبَ^(٤)
 حَبَوْتُ بِهَا غَسَّانَ إِذْ كُنْتُ لَاحِقًا بِقَوْمِي وَإِذْ أُعْيِتَ عَلَى مَذَاهِبِي^(٥)

وهو في أول الأبيات يصفهم بالحدود ورجاحة الأحلام والعقول ، ثم يأخذ في وصفهم بأنهم متدينون بدين قويم ، وكان الغساسنة نصارى كما مر بنا في غير هذا الموضع . ويقول إن منازلهم تحل بأمكنة مقلسة ، ولعله يريد كنائسهم ، ولا يلبث أن يقول إنهم يخشون العواقب ، وكأنه يستحثهم على أن يفكروا أسرى قبيلته من أغلالهم . وتحول يصفهم بالترف وما كانوا فيه من رفاة العيش ، فهم رقاق النعال ، وهم أعفاء ، يحيون بالأزهار في عيد السباسب أو يوم الشعانين ، وهو من أعياد النصارى ، وهم منعمون يلبسون ثياباً بيض المناكب خضر الأكمام . وعاد يستعطفهم على قومه وأنهم إذا كانوا أهاجهم واستتبع ذلك شراً وبلاء فلن في الغساسنة خيراً كثيراً . ولم يلبث أن صرح بما جاء من أجله ، فهو إنما يمدح الغساسنة باسم قومه ، وقد ضاقت عليه الدنيا بما رحبت بسبب من أُمير منهم عند ممدوحه ، وكأنه يهيب بهم أن يردوا إليهم حريتهم ، وردوها فعلاً لما بهرهم به التابعة من هذا المديح الرائع . وواضح أن روعة هذا المديح ترجع إلى استيفاء التابعة لمعانيه وعرضها في معارض بديعة من اللفظ الواضح الجزل ومن الصور المونقة الدقيقة . وقد نفذ في أثناء ذلك إلى معان حضرية جديدة ، إذ صور دينهم وترفعهم وما هم فيه من نعيم . وهو في ذلك يختلف عن شعراء البادية أمثال زهير في مديحه ، إذ كانوا لا يعرفون هذه المعاني ولا تلم بنحواطهم ، أما هو فعاش أغلب أيامه في الحيرة وفي بلاط الغساسنة ،

(١) الحجزات : معاهد الخلاب . طيب

(٢) حجزاتهم : كناية عن عفتهم .
 (٣) الولائد : الجوارى والإماء . الإضريح :

(٤) لازب : لازم .

الحرير الأحمر . المشاجب : جمع مشجب وهو أعواد تعلق عليها الثياب .

(٥) بها : يريد قصيدته . أعيت مذاهبي

عليه : ضاقت ومدت .

فكان طبيعياً أن يختلف ذوقه عن ذوق البدو وأن يأتي بمثل هذه المعاني التي تروق ممدوحيه من الأمراء .

وإذا كان النابغة يتفوق في المديح تفوقاً ظاهراً فإنه كذلك يتفوق في الاعتذار ، وكان ذوقه الحضري هو الذي أعدّه لهذا التفوق ، إذ نحس فيه رقة في اللهجة وإلحاحاً في التلطف محاولاً أن يزيل من نفس النعمان بن المنذر ظنه السيئ فيه . وقد استعان بموهبته في اختراع الصور والمعاني والتدقيق فيها ، مدحياً في ذلك قصائد طوالاً تُعَدُّ من أروع ما خلفه العصر الجاهلي لا لطولها فحسب ، بل لما فيها من صدق اللهجة وسهولة اللفظ وحسن ديباجته . وقد أسعفه في ذلك ذوقه الحضري الذي خلصه من خشونة البدو ومن الأنفة الجاحمة ، فإذا ذنبه يكبر في نفسه ، وإذا هو يحس كأنه أتى جريرة لا تغفر ، فإني يقدّم للنعمان المعاذير متخذاً إليه كل ما يستطيع من البراهين ومن سبل التلطف والملاينة . وقد يؤديه ذلك إلى غير قليل من التذلل والاسترحام ، حفاظاً على صداقته القديمة له واستبقاء لوده ، وهو حسن تأتٍ لا صغار نفس ولا مهانة ، ولا طلباً لعصافير النعمان كما قال أبو عمرو بن العلاء ، وإنما هو الذوق الحضري الذي اكتسبه النابغة والذي جعله يختلف عن معاصريه ويقرب من ذوق العباسيين المتحضرين ، حين يشعرون بضخم ذنبهم لدى الممدوحين ويأخذون في التنصل منه ، وتقديم شتى المعاذير . وهو يخلط اعتذاره بمديح النعمان والثناء عليه ، وارجع إلى المعلقة فستراه يستهلها بوصف أطلال دارمية ، ثم وصف ناقته التي قطع بها الصحراء إلى مقصده مفتشاً في تصويرها ، ومشبهاً لها بثور تناضله كلاب الصيد ، حتى إذا انتهت به إلى النعمان أخذ يمدحه بكرمه الفياض وما وهبه من قطعان الإبل والخيل ومن الجوارى المنعمات ، ثم مضى يستعطفه قائلاً :

فلا لعمرُ الذي مسحتُ كعبتهُ وما هُريقُ على الأنصابِ من حسدٍ^(١)
والمؤمنُ العائذاتِ الطير تمسحها رُكبانُ مكةَ بين الغيل والسعدِ^(٢)

العائذات : اللاجئات إلى الحرم . تمسحها
الركبان : يريد أنها تمسح عليها ولا تهبها
بصيد . الغيل والسعد : أجمتان بين مكة ومنى .

(١) مسحت : لمست أتمس البركة . هريق :
سال . الجسد : الدم . الأنصاب : الحجارة
التي كانوا يذبحون عليها قرابينهم للالهة .
(٢) المؤمن : الذي آمنها من الخوف .

ما قلتُ من سيِّءٍ مما أتيتَ بهِ إذنُ فلا رفعتُ سوطي إلى يدي
إلا مقالةَ أقوامٍ شقيتُ بها كانت مقالتهم قرعاً على الكبدِ^(١)
إذنُ فعاقبني ربي معاقبةً قرَّتْ بها عينُ من يأتيك بالفندِ^(٢)
أنبتُ أن أبا قابوسٍ أو عدني ولا قرارٍ على زأرٍ من الأمدِ^(٣)
مهلاً فداءً لك الأقوامُ كلُّهم وما أثمرُ من مالٍ ومن ولدِ^(٤)
لا تقلِّفني برُكنٍ لا كِفَاءَ له وإنْ تَأَثَّفَكَ الأعداءُ بالرفدِ^(٥)
وواضح أنه يقسم له بأيمانه الوثنية المغلظة أنه برىء مما يتهم به من غدر ،
ويستنزل غضب ربه عليه إن كان غير صادق ، ولتشلَّ يده إن كان ما يقول الوشاة
صحيحاً . ولا يلبث أن يصور نفسه ضعيفاً أمام النعمان وقرته وبطشه ، ويمثله أسداً
جائعاً يزأر ، وقد وقع منه موقع الفريسة . وسرعان ما يعود إلى الاستعطاف ،
فالناس جميعاً من غساسنة وغير غساسنة فداء النعمان ، بل إنه ليفديه بماله
وولده ، ويقول له لا ترمني بما لا أطيق منك ، وأنت الذي لا يستطيع الأعداء
مهما تآزروا أن يثبتوا له . ويخرج من ذلك إلى مديحه ، ثم يعود إلى استعطافه
فيقول :

فما الفُراتُ إذا هبَّ الرياحُ له تَرْمِي أَوَاذِيهِ الْعَبْرَيْنِ بِالزَّبْدِ^(٦)
يَمْدُهُ كُلُّ وَادٍ مُتَرَعٍ لَجِبٍ فِيهِ رُكَامٌ مِنَ الْيَنْبُوتِ وَالْخَضَدِ^(٧)
يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ الْمَلَّاحُ مُعْتَصِماً بِالْخَيْزُرَانَةِ بَعْدَ الْآثِنِ وَالنَّجْدِ^(٨)
يوماً بَأَجُودٍ مِنْهُ سَيِّبَ نَافِلَةٍ وَلَا يَحُولُ عَطَاءُ الْيَوْمِ دُونَ غَدِ^(٩)

(٦) القرع : الضرب .

(٧) الفند : الكذب .

(٨) أبو قابوس : النعمان بن المنذر .

(٩) أثمر : أنمى وأجمع .

(١٠) الكفاء : النظير والمثل . تأثف :

تجمع . الرفد : الجماعات من الناس .

(١١) أواذيه : أمواجه . العبرين : الشاطئين .

(١٢) الخيزرانة : سكان السفينة . الآثين :

التعب . النجد : الكرب .

(١٣) سيب : عطاء . نافلة : زيادة .

(١٤) يريد أن عطاه وفر .

هذا الثناء فلإن تسمع به حسناً فلم أعرض-أبيت اللعن-بالصفد^(١)
ها إن ذى عذرة إلا تكن نفعت^(٢) فلإن صاحبها مشارك النكد^(٣)

وقد بدأ فشبّه بالفرات في كرمه ، ثم أخذ يصف الفرات في ارتفاع فيضانه ،
وعمد إلى تفصيل الصورة ، حتى يبرزها وحتى يظهر مقدرته الفنية في دقة التصوير ،
فهو قد علت أمواجه ورمت شاطئيه بالزبد ، وهو ينساب حاملاً ما يقتلعه من
الأشجار والنباتات ، وإنه ليعصف بكل ما عليه حتى لنرى الملاح معتصماً في مركبه
بسكّانها يخشى الفرق . وقد نبي أن يكون الفرات في فيضانه أكرم من النعمان وأكثر
سبباً . ودائماً يحاول النابغة أن يخترع مثل هذه الصورة ، ليدل على براعته . ونراه
يعود إلى استعطاف النعمان ، وأنه قدم له هذا الثناء لا يبغي به نواله ، وإنما يبغي
رضاه ، وأنه إن لم يقبل اعتذاره ألقى به في مهاوى النكد والحلم . ومن بديع اعتذاراته
قصيدته العينية ، وفيها يقول :

وعيدٌ أبى قابوس في غير كُنْهه
فبت كائى ساورتني ضئيلة
يسهد من ليل التمام سَليْمُها
تَنادِرها الرّاقون من سوء سَمُها
أتانى - أبيت اللعن - أنك لُمْتَنى
أتانى ودونى راکس فالضواجع^(٤)
من الرّقش فى أنيابها السم نافع^(٥)
لحلى النساء فى يديه قعاقع^(٦)
تُطلّقه طوراً ، وطوراً تُراجع^(٧)
وتلك التى تَسْتَكُ منها المسامع^(٨)

المنقطة قطعاً بيضاء وسوداء . نافع : قاتل .

(٥) يسهد : يمنع من النوم . ليل التمام :
أطول ليالى الشتاء . السليم : المملوغ . قعاقع :
أصوات . كانوا يحملون الحلى فى يد المملوغ
اعتقاداً منهم بأنها تشفيه .

(٦) يقول من خبثها لا تجيب الرّاقى . بل
مرة تجيب ومرة لا تجيب . تنادىها الرّاقون :
خوف بعضهم بعضاً منها .

(٧) تستك : تصيق .

(١) الصفد : المطاء . أبيت اللعن : تحية
كانوا يحين بها ملوكهم .

(٢) عذرة : اعتذار . مشارك النكد :
حليف نكد وهم .

(٣) فى غير - كنهه : كنهه : حقيقته ،
يريد على غير ذنب منه . راکس : واد فى
منازل بنى أسد . الضواجع : منحى الودى .

(٤) ساورتنى : لدغنى . ضئيلة : أفى
دقيقة الجسم . الرّقش : جمع رقشاء ، وهى

وذلك من تلقاء مثلك رائع
 وهل يَأْتَمَنُ ذو أُمَّةٍ وهو طائع^(١)
 يَزُنُّ إِلَّا لَأَ، سَيْرُهُنَّ التَّدَافُعُ^(٢)
 لهن رذايا بالطريق ودائع^(٣)
 فهنَّ كأطراف الحنَى خَوَاضِعُ^(٤)
 كذى العُرِّ يُكْوَى غيره وهو رائع^(٥)
 ولا حَلِيٍّ على البراة نافع
 وأنت بأمرٍ لا محالة واقع
 وإن خِلْتُ أن المُنْتَأَى عنك واسع^(٦)
 مَدُّ بها أَيْدٍ إِلَيْكَ نَوَازِعُ^(٧)
 وتترك عبداً ظالماً وهو ضالع^(٨)
 وسيفُ أَعْبَرْتَهُ المنبئة قاطع^(٩)
 فلا النكرُ معروفٌ ولا العرفُ ضائع^(١٠)

مقالة أن قد قلت سوف أناله
 حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
 بمصطحباتٍ من لَهَافٍ وثَبَرَةٍ
 سَمَاماً تُبَارَى الرِّيحُ خُوصاً عيونها
 عليهنَّ شُمَعْتُ عامدون لِحَجَّهِمْ
 لكلفتني ذنب امرئ وتركتهُ
 فإن كنت لأذو الضَّغْنِ عني مكذِّبٌ
 ولا أنا مأمونٌ بشيءٍ أقولهُ
 فإنك كالليل الذى هو مدركى
 خطاطيفُ حُجْنٍ فى جبالٍ متبينة
 أتوعد عبداً لم يَحْنُكَ أمانة
 وأنت ربيعٌ يُنْعِشُ النَّاسَ سَيِّبُهُ
 أبى الله إلا عدله ووفاءه

(١) طول السفر . الحنى : القسى . الخواضع :
 المتطامنة رويها من الأرض .

(٥) العر : الجرب . وكانوا يداون الإبل
 منه بكبها .

(٦) المنتأى : المكان الثانى البعيد .

(٧) مر شرحه .

(٨) ضالع : مائل عن الحق ، ويروى
 ظالع وهو الجائر المذنب .

(٩) الربيع هنا : الغيث . السيب :
 المطاء .

(١٠) النكر : المنكر . العرف : المعروف .

(١) أمة هنا : دين .

(٢) بمصطحبات : أقسم بالإبل التى
 تصطبغ فى المسير إلى الحج . لصف وثيرة :
 موضعان فى ديار تميم . إلال : جبل بقرقة .
 التدافع : العجلة .

(٣) ساما : طائر شديد الطيران شبه به
 الإبل فى سرعتها . خوصاً : غائرات من شدة
 السير وإجهاده . رذايا : جمع رذية وهى
 الساقطة إعياء من الإبل . ودائع : مستودعات
 فى الطريق . يريد ما سقط منهن إعياء فترك .

(٤) شمت : جمع أشمت وهو المنبر من

وَتُسْقَى إِذَا مَا شِئْتَ غَيْرَ مُصَرَّدٍ بزوراء في حافاتها المسك كانع^(١)
وهو في أول هذه الآيات يقول له : إن وعيلك أتانى وأنا آمن في قومي وبنى
وبينك منازل بنى أسد ومن وراءهم ، فأملت حفظاً للعهد وبت مسهداً ، كأنما
للدغنى أفعى ، وهى صورة بارعة ، وقد أخذ يدقق فيها حتى يجسم ألمه ، فهى أفعى
من الرقش تستودع السم فى أنيابها الحادة ، فمن عضته لم يطف به النوم من شدة
الألم ، وعلق عليه أهله الحلى والحلاخيل حتى يفيق ويبرأ . وهى من الأفاعى الحبيشة
التي قلما أجابت الرق ، وإن الرقاة والحاوين ليرهبونها ويتخوفون من أن يطلوا
حماها . ويصور النابغة للنعمان فزعه حين أتاه أنه يلومه ، ويخلف له بأيمانه
الوثنية ، ويختار هنا الحلف بالإبل التي كانوا يندرونها لآلهم ، ويقف ليعطينا
صورة عن هذه الإبل ، فهى تقبل على مكة مسرعة سرعة السهام ، حتى لكأنها
تبارى الريح ، وقد أجهدت من السير وطول السفر ، حتى إن بعضها سقط فى
الطريق لإعياء ، فلم ينبعث ولم يستطع براحاً . وقد بقيت منها بقية عليها شعث مغبرون
يقصدون الحج ، وقد أخذها التحول حتى لكأنها القسى الضامرة . وهذا اليمين
العظيم يقسم به متصلاً مما سمع عنه من بعض الوشاة أنه انصرف إلى الغساسنة
بمدحهم وبهجوه ، وكان حريماً به أن ينزل سخطه لا عليه ، وإنما على هذا الواشى
وإلا فقله ومثل من وسوس للنعمان مثل البعير السليم يكوى من الحرب ، والأجرب
راتع بجانبه لا يصيبه كى ولا أذى . وهى صورة أخرى بارعة . ويقول إن كنت
لا تكذب من يضطغن على ولا تصدق يميني ولا حلقي فما أحراني بالرهبة منك
والخوف من بطشك ، ويودع ذلك صورة رائعة ، إذ يتخيل النعمان كالليل ،
لا مفر لشخص من أن يطبق عليه . وعاد إلى الاستعطاف فصور قصائده
التي يرسل بها إليه ليلين قلبه عليه كأنها خطاطيف معوجة ثبَّتت فى جبال متينة ،
وأيدى النابغة تمد بها إليه ، تريد أن تظفر بعطفه ورضاه . ويصور له أمانته وأنه
لا يخون عهده ، بينا من يختانون هذا العهد يقرَّبهم ويرعاهم ، ويحتم اعتذاره إليه
بمدحهم والثناء عليه ، فهو غيث منعش لأوليائه وسيف مصلت على أعدائه ، وقد

النعمان يشرب فيها . كانع : لاصق .

(١) مصدر : من التصريد وهو الشرب دون
الرى : زوراء : كأس طويلة من فضة كان

براه الله لرعيته عادلاً وفيئاً ، لا يلقى المنكر بالمعروف ولا المعروف بالمنكر ، يجزى على الإساءة إساءة وعلى الإحسان إحساناً ، وانتهى بتمثيل ما هو فيه من نعم ، فهو يشرب في كأس مفضضة مُزَج ما فيها بالمسك والطيب . ومن رائع اعتذاراته إليه قوله :

أَتَانِي - أَبَيْتَ اللَّعْنَ - أَنْكَ لُمْتَنِي
فَبِتُ كَانَ الْعَائِدَاتِ فَرَشَنِي
حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكَ لِنَفْسِكَ رِبِيَّةً
لَئِنْ كُنْتُ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً
وَلَكِنِّي كُنْتُ أَمْرًا لِي جَانِبُ
مُلُوكٌ وَإِخْوَانُ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ
كَعَمَلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَنَعْتَهُمْ
وَلِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ
فَلَا تَتْرَكْنِي بِالْوَعِيدِ كَأَنِّي
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً
وَلَسْتَ بِمُسْتَبَقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ
فَإِنْ أَكْ مَظْلُومًا فَعَبْدًا ظَلَمْتَهُ

وتلك التي أهتم منها وأنصب^(١)
هراساً به يُغَلِّي فراشي ويُقَشِّبُ^(٢)
وليس وراء الله للمرء مذهب
لمبلغك الواشي أغش وأكذب
من الأرض فيه مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ^(٣)
أحكم في أموالهم وأقرب
فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
إلى الناس مَطْلِي به القارُ أجربُ^(٤)
تري كل مَلِكٍ دونها يَتَذَبَّذُ^(٥)
على شعثٍ ، أي الرجال المهذب^(٦)
وإن تك ذا عُتْبَى فمثلك يُعْتَبُ^(٧)

وواضح أنه يصور نفسه في أول هذه الأبيات حين بلغه لوم النعمان بمرضى ،

-
- (١) أنصب : أجهد جهداً شديداً .
(٢) الهراس : شجر كثير الشوك .
العائدات : الزائرات في المرض . فرشني : بسطن لي . يقش : يحدد .
(٣) جانب من الأرض : متع . مستراد : يذهب فيه الإنسان كما يريد . كناية عن إكرام الغسانة له في ديارهم .
(٤) القار : القطران ، وكانوا يداوون به الإبل الجربي .
(٥) السورة : المنزل . يتذبذب : يضطرب ولا يصل إليها .
(٦) شعث : فساد . تلمه : تجمعه وتضمه .
(٧) عتبى : رضا . يعتب : يعطى العتبى والرضا .

قد أخذته آلام المرض وأهله يسوون له فراشه رحمة به وعطفاً عليه . ويخلف له بأنه يرى ما آتاه به الواشى ، إذ لا يزال يرمى أمانة عهده ، وكل ما هناك أنه ألم بديار الغساسة ، فأكرموه وحكّموه فى أموالهم ، فوجب عليه أن يشكر لهم يدهم وصنيعهم كما يشكر النعمان من يرعاهم من الشعراء ويغدق عليهم من نواله . وهو بذلك يقيم الحجة على النعمان ، فليس هناك كفران لنعمته عليه ولا جحود لولائه ، وما يلبث أن يرفعه على جميع الملوك من غساسة وغير غساسة ، فهو كالشمس الساطعة وغيره من الملوك كالنجوم ، يتوارون فى ضيائه ومجده ، وهى صورة باهرة لاشك أنها تركت أثراً بليغاً فى نفس النعمان . وقد تلاها باستعطافه ، فصور له ما صبه عليه من غضب بالقار يُصبُّ على الأجرى فيتحاماه الناس . ويعود إلى بيان منزلة صاحبه وأن غيره من الملوك لا يرتقون إلى مكانته ، بل يضطربون دون سمائه . ويقول له : هب أن مديحى للغساسة هفوة واعف عني ، فإن لكل شخص هفوة ، وأين الأخ الذى لا يهفو ولا يعثر ؟ ومثلك حرى بأن لا يظلم أصفياه ومن يخلصون له الولاء ، فإن ظلمتنى قبلت ظلمك ، وإن أسدلت على عقوقك ورضاك فليس غريباً منك ، فثلك يعتب ويصفح الصفح الجميل .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة بينة على براعة النابغة فى اعتذاره ومديحه جميعاً ، فقد كان يعرف كيف ينوع معانيه وكيف يسلك إليها شعباً لم يسلكها أحد من قبله . والذى لا ريب فيه أن باب الاعتذار والاستعطاف ضيق ، ولكنه عرف بمقدرته الخيالية كيف ينفذ منه إلى صور طريفة ومعان دقيقة ، يقوده فى ذلك ذوقه الحضرى الذى نصب أمام عينه اتصاله بالغساسة ذنباً كبيراً وجرمًا لا يغتفر فى حق النعمان بن المنذر ، وقد أخذ يتنصل من هذا الجرم تارة ويعظم فضيلة العفو عن المذنب تارة ثانية . وبذلك كان فاتحاً لباب الاعتذار على مصراعيه ، وعلى هدّيه تبعه الشعراء فى العصور الإسلامية متخذين منه قدوتهم .

وإذا كنا أعجبنا باعتذارات النابغة ومديحه فإننا نعجب أيضاً براثته للنعمان بن الحارث الأصغر الغساني ، وهو يستهله بالنسيب ثم يصف ناقته مشبهاً لها بحمار وحشى ، ويخرج من ذلك إلى الرثاء ، فيقول إنه أحزنه نعي النعمان وإن كان سرّاً قيساً لما أثنى فيها بحروبه . وهو يعبر بذلك عن وفاته واعترافه بالجميل ،

ومن ثمَّ لا يشمت بموت النعمان كما شمت ذبيان وغيرها من قبائل قيس ، بل إنه ليدعو على أعدائه أن لا يهتوا بمصرعه ، ويحدثنا عن جيوشه وانتصاراتها في القبائل . ويقف ليرد على من جهلوا شيمته من الحفاظ على العهد والضم بسابق الود ، فقد ظنوا أنه لن يرثي النعمان ولن يذكره ، ويقول كيف لا يذكره ، وقد حرك موته ما يشبه الداء العضال في فؤاده ، ونحس أنه سَعَرَ قلبه وأشعل صدره بشعلة من الحزن لا تخبو . وما زال يبكيه متعزياً بأن الموت سنة الأحياء وأنه كأس دائر على الجميع ، حتى قال داعياً له ومترحماً عليه :

سَقَى الْغَيْثُ قَبْرًا بَيْنَ بُصْرَى وَجَارِمٍ بَغِيْثٍ مِنَ الْوَسْمِيِّ قَطْرٌ وَوَابِلٌ^(١)
ولا زال ريحانٌ ومسكٌ وَعَنْبَرٌ على منتهاه دِيمَةٌ ثم هَاطِلٌ^(٢)
وَيُنْبِتُ حَوْذَانًا وَعَوْفًا مُنَوَّرًا سَائِبَةٌ مِنْ خَيْرِ مَا قَالَ قَائِلٌ^(٣)

وهو يستمطر على قبره شآبيب الغيث ، ولا يكتفى بذلك بل يدعو له أن يظل قبره معطراً بالريحان والمسك والعنبر ، ولا تزال تمدّه الأمطار بما يُنْبِتُ عنده النباتات العاطرة من مثل الحوذان والعرف . وحقاً كان الشعراء حوله ومن قبله يستسقون السحاب لقبور من يفقدونهم ، ولكنه مدَّ أطناب الصورة بذوقه الحضري وأضاف إليها الريحان والمسك والعنبر ، ودعا للأرض أن تُنْبِتَ من حول النعمان الأزهار والرياض . وهي صورة حضارية تقابل أختها التي مرت في مديحه لأخيه عمرو .

وقد قدّم لهذه المراثية كما قلنا بالنسب ، وهو يقدم به لبعض اعتذاراته مؤتسماً بمن حوله من شعراء الجاهلية إذ كانوا يضعونه غالباً في مقدمات قصائدهم ، وكأنهم يريدون أن يستوحوا المرأة شعرهم وقصيدهم . ومن نسيبه قوله في فاتحة معلقته التي أودعها إحدى اعتذاراته :

يا دار مَيَّةَ بالعُلياء فالسَّنْدِ أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأَبَدِ^(٤)
وقفتُ فيها أَصِيلَانًا أُسَائِلُهَا عَيْتٌ جَوَاباً وما بالرَّيْعِ من أَحَدِ^(٥)

(٤) العلياء والسند : موصمان . أقوت : خلت . الأبد : الزمن .

(٥) أصيلان : تصغير أصلان جمع أصيل أو لعله مصدر من أصيل على وزن غفران . عيت : عجزت .

(١) بصرى وجاسم : موصمان بالشام .

الوسمي : أول المطر . وابل : غزير .

(٢) منتهاء : قبره . الديمة : المطر ليس فيه برق ولا رعد . الهاطل : المطر المتتابع .

(٣) الحوذان والعوف : نباتان طيبا الرائحة .

إِلا الأَوَارِيَّ لَأَيًّا مَا أُبَيِّنُهَا والنُّؤْيَى كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَلَدِ^(١)
 رُدَّتْ عَلَيْهِ أَقَاصِيهِ وَلَبَّدَهُ ضَرَبُ الْوَلِيدَةِ بِالْمِسْحَةِ فِي الثَّأْدِ^(٢)
 خَلَّتْ سَبِيلَ أَنِيٍّ كَانَ يَعْبِسُهُ وَرَفَعَتْهُ إِلَى السَّجْفَيْنِ فَالْتَضَدِ^(٣)
 أَمَسْتُ خَلَاةً وَأَمْسَى أَهْلُهَا اخْتَمَلُوا أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبْدِ^(٤)

وهو يستهلها ببناء دار مية ولا يسمع رجعا لندائه ولا ردّا عليه ، فقد خلت من سكانها وبارحوها منذ أمد طويل . ويقول إنه وقف بها وقت الأصيل يسألها ولا من مجيب ، ويصف آثارها وما أبقي الزمن منها ، ويقول لم يبق منها إلا الأوتاد وإلا النؤى . ويطيل في وصفه ليظهر قدرته الخيالية ، فقد حفرت جارية في أرض صلبة ، وما زالت ترد أثر بته على حوافيه ، باسطة طريقه إلى الخيام ليرد عنها سيول المطر . وقد أبدع في تسمية الأرض التي لم تحفر بالمظلومة ، وهو أول من أعطاها هذا الاسم ، كأنه أحس لإزاء الصخر الذي لا يُحَرِّثُ ولا يزرع بضرب من الظلم . وقد ختم نسيبه بإظهار هذه الدار التي رحل عنها أهلها بمظهر بال ، فقد جرت الأيام عليها أذيال البيل والعفاء ، كما جرت من قبل على لُبْدِ نَسْرٍ لقمان المشهور بطول عمره وطول سلامته .

وواضح أن هذا النسيب فيه قدرة بارعة على الوصف ، ولكن ليس فيه عاطفة قوية ، وربما رجع ذلك إلى وقار النابغة ، فهو ينسب بالمرأة لالصور حباً ، وإنما ليمسك بهذا التقليد الثابت عند الجاهليين من افتتاح قصائدهم بوصف آثار الديار وما صنعت بها الأحداث . وقد أوشك في مقدمته لاعتذار بته العينية أن يصور عواطفه وجه ولكنه لم يكده يقول :

فَكَفَكَفْتُ مَنِي عِبْرَةً فَردَدْتُهَا عَلَى النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهْلٌ وَدَامِعُ^(٥)

رفته : أعلته . السفنان : مصراعاً السر في الخيمة . التضد : المتاع .
 (٤) أخنى عليها : أصابها بأفات الدهر .
 لبْد : نمر اللقمان يقولون إنه عمر طويل .
 (٥) كفكف الدمع : مسحه . المستهل : السائل . الدامع : الذي يترقق في العين قبل أن يسقط .

(١) الأوارى : الأوتاد وما يربط بها من حبال . النؤى : حفرة حول الخيام تمنع عنها السيول . المظلومة : الأرض صعبة الحفر .
 الجلد : الصلبة .
 (٢) لبده : جمعه . الوليدة : الأمة .
 الثأد : الثرى الندى .
 (٣) خلت : شقت . الآنى : السيل .

حتى أمسك نفسه ، وعاتها على الصبوة وقد علا رأسه الشيب . وزراه في معلقته
يخرج من الغزل إلى وصف ناقته على عادة الشعراء من حوله ، فيصور قوة متنها
وسرعة سيرها ومضائها ، ثم يأخذ في تشبيهها بشور وحشى ، ويدفعه ذلك إلى وصف
صائد وأكله وما نشب بينها وبين هذا الثور من عراك ، يقول :

- مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مَوْشَى أَكَارِعُهُ طَاوَى الْمَصِيرِ كَسِيفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ (١)
أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوَازِ سَارِيَّةٌ تُزْجَى الشِّمَالُ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرْدِ (٢)
فَارْتَاعَ مِنْ صَوْتِ كَلَّابٍ فَبَاتَ ، لَهُ طَوْعُ الشَّوَامِتِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرَدِ (٣)
فَبَشَّهْنَ عَلَيْهِ وَاسْتَمَرَ بِهِ صُمْعَ الْكَعُوبِ بَرِّيَّاتٍ مِنَ الْحَرْدِ (٤)
وَكَانَ ضُمْرَانُ مِنْهُ حَيْثُ يُوزَعُهُ طَعْنَ الْمُعَارِكِ عِنْدَ الْمُخْجَرِ النَّجْدِ (٥)
ثَلَكُ الْفَرِيصَةِ بِالْمِدْرَى فَأَنْفَذَهَا طَعْنَ الْمُبْطِرِ إِذْ يَشْفَى مِنَ الْعَصْدِ (٦)
كَأَنَّهُ خَارِجاً مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ سَفُودٌ شَرِبَ نَسْوَهُ عِنْدَ مُفْتَادِ (٧)
فَظَلَّ يَعْجَمُ أَعْلَى الرُّوقِ مُنْقَبِضاً فِي حَالِكِ اللَّوْنِ صَدَقٍ غَيْرِ ذِي أَوْدِ (٨)
لَا رَأَى وَاشْتَقُّ إِقْعَاصَ صَاحِبِهِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى عَقْلٍ وَلَا قَوْدِ (٩)
قَالَتْ لَهُ النَّفْسُ إِنِّي لَا أَرَى طَمَعاً وَإِنَّ مَوْلَاكَ لَمْ يَسْلَمْ وَلَمْ يَصِدِ (١٠)

(١) وجرة : موضع بنجد . موشى أكارعه : مزينة قوائمها بالنقط . طاوى المصير : ضامر البطن . الصيقل : الحداد . الفرد : المسلول .

(٢) أسرت : جاءت ليلا . الجوزاء : برج في السماء . سارية : سحابة . تزجى : تدفع . الشمال : ريح الشمال .

(٣) الشوامت : القوائم ويريد بطوعها لإسراعها به . والصرد : البرد .

(٤) استمر به : اشتد به وقوى . صمع : ضوامر . برييات : بريئات . الحرد : المرج .

(٥) ضمران : اسم كلب للصائد . يوزعه : يفرقه . المخجر : حمى القيلة .

(٦) النجد : الشجاع .

(٧) سفود : اللحم . نسوة : تركوه . مفتاد : موضع النار الذي يشوى فيه .

(٨) يعجم : يملك . صدق : صادق في الطعن . أود : عوج .

(٩) واشق : اسم كلب آخر للصائد . الإقعاص : القصاص .

(١٠) المولى : الناصر . يسل هنا : يأسر .

وهو يبدأ برسم صورة هذا الثور ، فقوائمه مزينة بما فيها من نقط ، وهو ضامر كالسيف المسلول ، يجرى في الصحراء خائفاً متوجساً لما تسقط عليه السماء من بَرَدٍ لا ينقطع . ولم يلبث أن دُعر دُعرأ شديداً إذ سمع صوت قانص يهتف بكلابه ، فأسرع في جريته ، ولحقه القانص فبعث عليه كلابه ، فاشتدت قوائمه وكعوبه مستخرجاً منها كل ما يبتغي من سرعة ، ولكن الكلاب لحقت به ، وكان أول ما لقيه منها ضمران ، ونشب بينهما صراع عنيف ، أهوى فيه الثور على خصمه بقرنيه ، ولم يلبث أن طعنه بأحدهما طعنة نجلاء ، نفذت إلى ظاهر صدره ، فكنت ترى الكلب من وهلته يعلك أعلى القرن وما خرج منه متقبضاً متألماً إلى أن لفظ أنفاسه . ولما رأى واشق ما أصاب أخاه وأنه لن يستطيع أن يعينه ولا أن يدرك بثأره أحجم عن لقاء الثور لإبقاء على نفسه ، وقد أخذه اليأس من أن يصيد صاحبه كما كان ينبغي ، فدون بغيته الموت والهلاك .

وهذا الوصف أكثر حيوية من النسب السابق ، لما بثَّ النابغة في الحيوان من حياة الإنسان وعواطفه وقلقه وطمعه ويأسه ، فالثور خائف يترقب ، والكلاب طامعة ترَبص . وتنشب المعركة وكأنها معركة آدمية ، فالثور يطعن طعن الرجل المدافع عن عرينه وحماه . ويُقتل ضمران . وينظر أخوه واشق فيرى أن القصاص غير ممكن ، وتحذنه نفسه بأنه يطمع في غير طائل ، وما يلبث أن ينصرف عن المعركة ، وقد قذفت به في مهاوى اليأس والقنوط . ولا ينسى النابغة مهارته في التصوير سواء من حيث تمثيل المنظر وتجسيمه أو من حيث التشبيهات وإدخالها في نسيج الأبيات .

وفي ديوانه فخر وهجاء يتصل بشئون قبيلته البدوية وما كان بينها وبين بني أسد من حِلْفٍ وبينها وبين بني عامر من حرب ، وهو في هذا القسم من شعره لا يتوفر على إحكامه وإظهار مهارته فيه شأنه في المديح والاعتذار والثناء ، وكأنه كان يمنعه وقاره أن يتهادى فيه ، وخاصة في الهجاء ، وأقرأ له هذه الأبيات في عامر بن الطفيل وقد بلغه أنه يهجوهُ :

فإن يك عامرٌ قد قال جهلاً فإن مَطِبةَ الجهل السَّبَابُ

فَكُنْ كَأَبِيكَ أَوْ كَأَبِي بَرَاءٍ تَوَافَقْتُ الْحَكُومَةَ وَالصَّوَابُ^(١)
 وَلَا تَذْهَبْ بِحُلْمِكَ طَامِيَاتٌ مِنَ الْخِيَلَاءِ لَيْسَ لَهُنَّ بَابٌ^(٢)
 وَإِنْكَ سَوْفَ تَحْلُمُ أَوْ تَنْهَى إِذَا مَا شِئْتَ أَوْ شَابَ الْغُرَابُ^(٣)

وهي أبيات تخلو من الإقذاع في الهجاء المعروف عند الجاهليين ، وهو يعتمد فيها بذوقه الحضري إلى التهكم به والسخرية منه ، فيصفه بالحق ، ويصغر إليه نفسه بتفضيل أبيه وعمه عليه ، وينهاه عن الخيلاء ، ويؤمله في أنه سوف يحلم حين تتقدم به السن أو لعله لا يحلم أبداً . وواضح أن الشطر الثاني في البيت الأول حكمة سائرة ، وتكثر هذه الحكم عند النابغة يأتي بها في ثنايا شعره وقصيده ، فتكون شطراً كهذا الشطر ، وقد تكون بيتاً كالبيت الأخير من هذه الأبيات ، وفيما تمثلنا من شعره كثير منها ، ومن رائعها قوله :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبَقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعْبٍ ، أَيْ الرِّجَالِ الْمَهْذَبِ

وما لا شك فيه أنه يدل بهذه الحكم على صدق نظرته ودقة حسه .

وجوانب كثيرة في شعر النابغة تفصح عن مهارته في صوغ القصيدة ونظمها ، سواء من حيث ألفاظه أو من حيث صوره ومعانيه ، أما من حيث الألفاظ فلأنك لا تقع منها على لفظة نابية ، إنما تقع على الألفاظ المحكمة المستخدمة في دلالاتها الدقيقة ، ولعل ذلك ما جعله يلتزم الألفاظ البدوية الغربية حين يصف الديار والصحراء والحيوان الوحشي ، أما حين يمدح الملوك أو يرثيهم أو يعتذر إليهم فإنه يستخدم الألفاظ المأنوسة الجزلة الناعمة . وهذه البراعة عنده جعلت نقاد العصر العباسي يقولون : إنه « كان أحسن الجاهليين ديباجة شعر وأكثرهم روتق كلام وأجزلم بيتاً^(٤) » . على أنهم لم يلبثوا أن ادعوا عليه أنه كان يُقَوَّى في شعره محتجين على ذلك ببيت في قصيدة المتجردة التي وضعت عليه ، فقد جاء فيها بيت مرفوع الروي ، بينما رويها المطرود مكسور ، ورووا في ذلك قصة ، هي أن النابغة قدم

(٣) أو شاب الغراب : ضرب النابغة ذلك

مثلاً لعامر وأنه لن يحلم أبداً .

(٤) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص

٤٦ وأنظر الشعر والشعراء ١٠٨/١ .

(١) أبو براء : عامر بن مالك ملاعب

الأسنة وهو عم عامر بن الطفيل .

(٢) طاميات : فائضات ومرتفعات . ليس

لهن باب : لا يخرج منهن .

يُرب ، فعاب عليه أهلها ذلك في قصيدته المذكورة ، فلم يأبه لهم حتى أسمعوه إياه في غناء ، ففطن إلى ما قالوا ولم يعد إلى ذلك^(٢) . ولكن القصيدة كما قدمنا مما نُحل على النابغة ، فحرى أن تكون القصيدة مثلها منحولة .

وإذا كان النابغة يُعنى بالفاظه عناية راعت السابقين فإنه يعنى كذلك بمعانيه ، وهى عناية أتاحت له كثرة الخواطر في اعتذارياته على الرغم من ضيق هذا الموضوع ، وأيضاً فإنها أتاحت له ضرباً من ترتيب أفكاره ، ويتضح ذلك في تنسيق الموضوعات بعض قصائده ، إذ نراه يحسن التخلص من موضوع إلى موضوع ، وارجع إلى معلقته فإنك تراه يخرج من النسيب إلى وصف ناقته خروجاً تسنده المناسبة ، حتى إذا أتم هذا الوصف قال :

فتلك تبلغنى النعمان إن له فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعد

وكذلك صنع في اعتذاريته العينية فإنه خرج من النسيب إلى الاعتذار خروجاً متصلاً ، إذ قال إنه كفَّ عن التشبيب والحب لشبهه ولما يشغله من هم ، هو غضب النعمان ، على هذه الشاكلة :

وقد حال همٌ دون ذلك شاغلٌ مكان الشَّغاف تبتغيه الأصابع^(٣)

وعيدٌ أبى قابوس في غير كُنْهِه أنانى ودونى راكس فالضَّوابع

وهذه العناية البالغة بالمعاني والألفاظ كان يؤازرها عنده عناية بالصور وما يطوى فيها من تشبيهات واستعارات ؛ ولا نلاحظ عنده الكثرة من الصور فحسب ، بل نلاحظ أيضاً القدرة على الابتكار ومفاجأة السامع بالأخيلة التى تخلب لبَّه ، وخاصة حين يتصل للنعمان بن المنذر من ذنبه ، وحين يصور بطشه بمن يغضب عليهم مستعظفاً مسترحماً . وكان له ذوق جيد في اختيار صوره ومعانيه جميعاً ، وهو ذوق هذبته الحضارة التى نعيمَ بها في الحيرة وبلاط الفساسة ، فإذا هو رقيق الحس رقة شديدة ، وإذا هو يأتى في مديحه وراثته بمعان حضارية غير مألوقة للجاهليين . وليس ذلك فحسب ، فإنه يفتح صفحة جديدة هي صفحة

(١) ابن سلام ص ٥٥ وما بعدها والأغاني (٢) الشفاف : حجاب القلب .

(طبعة دار الكتب) ١٠/١١ .

الاعتذاريات والاستعطافات وما يجري فيها من الحس المرهف والشعور الدقيق ،
وتسربت من ذلك أسراب في جميع موضوعات شعره ، حتى الهجاء .

وإذا أضفنا إلى كل ذلك عند النابغة أخلاقه الرفيعة التي تتحلل في وقاره
وارتفاعه عن الدنياه ووفائه للأصدقاء والأحلاف وحفاظه الشديد على العهد
وسابق الود أمكننا أن نفهم منزلته التي احتلها في العصر الجاهلي وأسبابها ،
إذ جعلوه محكماً بين الشعراء في عكاظ كما قدمنا ، وكأنه في رأيهم الشاعر الفذ
الذي لا يُشَقُّ غباره والذي لا ينطق عن هوى أو عصبية ، ومن ثمَّ كان حكمه
قاطعاً لا يقبل طعناً ولا نقضاً .

الفصل التاسع

زهير بن أبي سلمى

١

قبيلته

هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المُرَنيّ ، فأبوه من قبيلة مُزَيْنَة ، وكانت تجاور في الجاهلية بني عبد الله بن غطفان حيث كانوا ينزلون في الحاجر بينجد شرق المدينة وينزل معهم بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان أخوال أبيه ربيعة . ويحدثنا الرواة أنه أقام فيهم زمناً مع أمه ، وحدث أن أغار مع قوم منهم على طيء وأصابوا نعمة كثيراً وأموالاً ، ولما رجعوا لم يفرّدوا له سهماً في غنائمهم ، فغاضبهم وانطلق بأمه إلى قبيلته مزينة ، ثم لم يلبث أن أقبل في جماعة منها مغيراً على عشيرة أخواله ، ولم يكادوا يتوسطون ديارها حتى تطايروا راجعين وتركوه وحده ، فأقبل حتى دخل في أخواله ، ولم يزل فيهم حتى توفى ومن ثمّ وُلد له زهير وأولاده في منازل بني مرة وبني عبد الله بن غطفان^(١) . وكان ذلك سبباً في أن يضطرب الرواة وأن يظن بعضهم أن زهيراً غطفاني القبيلة^(٢) ، وهو في الحقيقة منى النسب غطفاني النشأة والمُرَنيّ ، وقد صرّح ابنه كعب بهذا النسب إذ يقول في بعض شعره ردّاً على مزرد بن ضِرار وقد عزّاه إلى مزينة^(٣) :

همُ الأَصْل مني حيث كنتُ وإنني من المُرَنيّين المصَفّيّين بالكرم
ويظهر أن ربيعة لم يعيش طويلاً في عشيرة أخواله ، ويقول الرواة إن امرأته تزوجت من بعده أوس بن حَسَجَر الشاعر التيمي المشهور . وهنا يلمع في حياة زهير اسم خاله بِشامة بن الغدير ، فقد كفله هو وإخوته ، ونعرف منهم سلمى كما نعرف أخرى تسمى الخنساء .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٩١/١٠

لاين قتيبة ٨٦/١ .

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٨٨

وما بعدها .

(٢) انظر ترجمة زهير في الشعر والشعراء

وقد عاش زهير في خلال هذه الحروب التي نشبت بين عبّس وذُبيان، حروب داحس والغبراء التي سبق أن تحدثنا عنها في غير هذا الموضع ، وقد أسهمت عشيرة أخواله ، في تلك الحروب وصليت نارها . وأيضاً فلأنها صليت نيران حروب أخرى كانت تنشب بينها وبين بعض العشائر الذيبانية ، وفي شعر خاله بَشامة ما يصور تلك الحروب الأخيرة ، فقد رَوَى له صاحب المفضليات قصيدتين يحرض فيهما عشيرته أن لا يتخذلوا حلفاءهم «الحُرقة» وأن يقفوا معهم ضد بعض العشائر من بني سعد بن ذبيان . ومعنى ذلك أن الأيام التي عاشها زهير في عشيرة أخواله الذيبانيين لم تكن أيام استقرار وأمن ، إنما كانت أيام حروب وسفك للدماء، فداًئماً تُسَنُّ الغارات، وداًئماً تجيش القلوب بالأضغان، فتُسَلُّ السيوف وتُقَطَّع الرقاب. ويعودون من حروبهم دائماً إلى رعى الإبل والأغنام، وإلى صيد بعض الحيوان ، شأن القبائل النجدية في العصر الجاهلي .

وكانت ذبيان وغيرها من قبائل غطفان تتعبّد في الجاهلية العُزْى، ويقال إنها كانت شجرة أقامت حولها كعبة كانت تحج إليها ، وتُهدى القرابين ، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وربما قال الرواة إنها شجرات ثلاث ، وقد يقولون إنه كان في الكعبة وثن . وأكبر الظن أن هذا هو الصحيح فقد كان فيها وثن العُزْى ، وكان من حوله شجرات يقدسونها^(١) . ومهما يكن فقد كانوا وثنيين ، وظلوا على وثنتهم إلى ظهور الدين الخفيف .

٢

حياته

ليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأة زهير سوى أنه عاش في منازل بني عبد الله ابن غطفان وأخواله من بني مرة الذيبانيين ، وفي كنف خاله بَشامة بن الغدير ، وكان شاعراً مجيداً كما كان سيداً شريفاً ثرياً ، يقول ابن سلام : « وكان كثير المال ، وكان

(١) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد
عل ٩٧/٥ وما بعدها .

من فقاً عَيْنَ بَعِيرٍ في الجاهلية، وكان الرجل إذا ملك ألف بَعِيرٍ فقاً عَيْنَ فَحْلُهَا^(١)». وكان بِشَامَةٌ من أَحْزَمِ النَّاسِ رَأْيًا فكان قومه يَسْتَشِيرُونَهُ وَيَصْدُرُونَ عَنْ رَأْيِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ جَعَلَ يَقْسِمُ مَالَهُ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَعْطَى زَهِيرًا نَصِيبًا مِنْهُ، وَيُرْوَى أَنَّهُ قَالَ لَهُ إِنِّي أَعْطَيْتُكَ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَالِ، فَقَالَ زَهِيرٌ: مَا هُوَ؟ فَقَالَ لَهُ: شَعْرِي^(٢)، وَهُوَ لَمْ يَرِثْ عَنْهُ شَعْرَهُ وَمَالَهُ فَقَطْ، بَلْ وَرِثَ عَنْهُ أَيْضًا خَلْقَهُ الْكَرِيمَ. وَفِي أَخْبَارِهِ أَنَّهُ تَزَوَّجَ مِنْ امْرَأَتَيْنِ: أُمَ أَوْفَى وَهِيَ الَّتِي يَذْكُرُهَا كَثِيرًا فِي شَعْرِهِ، وَيُظْهَرُ أَنَّ الْمَعِيشَةَ لَمْ تَسْتَقِمْ بَيْنَهُمَا، فَطَلَّقَهَا بَعْدَ أَنْ وَلَدَتْ مِنْهُ أَوْلَادًا مَاتُوا جَمِيعًا. وَالثَّانِيَةُ الَّتِي تَزَوَّجَهَا مِنْ بَعْدِهَا هِيَ كَبْشَةُ بِنْتُ عِمَارِ الْغُطْفَانِيَّةِ، وَهِيَ أُمُّ أَوْلَادِهِ: كَعْبٌ وَبُجَيْرٌ وَسَلْمٌ، وَمَاتَ سَلْمٌ فِي حَيَاتِهِ وَرِثَاهُ بَعْضُ شَعْرِهِ^(٣).

وهو يتحدث في شعره طويلاً عن حروب داحس والغبراء مشيداً بهرم بن سنان والحارث بن عَوْفٍ سَيِّدِي بَنِي مَرَّةَ اللَّذِينَ حَقَّقْنَا دِمَاءَ عَبَسَ وَذِيَّانَ بَعْدَ أَنْ طَالَ عَلَيْهِمَا الْأَمَدُ فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ، إِذْ تَحَمَّلَا دِيَاتَ الْقَتْلِ، وَيُقَالُ لَهَا كَانَتْ ثَلَاثَةَ آلَافٍ بَعِيرٍ أَدْيَاهَا فِي ثَلَاثِ سِنِينَ^(٤). وَاعْتَدَّ زَهِيرٌ بِهَذِهِ الْمُنَّةِ الْجَلِيلَةِ فَأَشَادَ بِهَا فِي مَعْلَقَتِهِ، وَظَلَّ طَوَالَ حَيَاتِهِ يَمْدَحُ هَرْمًا وَبِمَجْدِهِ، وَهَرْمٌ يُغْدِقُ عَلَيْهِ^(٥). وَبِذَلِكَ أَعْطَى كُلَّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ خَيْرَ مَا يَمْلِكُ، وَقَدْ ذَهَبَ مَا أَعْطَاهُ هَرْمٌ لَزَهِيرٍ مَعَ الزَّمَنِ، أَمَّا مَا أَعْطَاهُ زَهِيرٌ هَرْمًا فَخَلَّدَ عَلَى الْأَيَّامِ. وَمِنْ طَرِيفٍ مَا يُرْوَى فِي هَذَا الصَّدَدِ أَنَّ هَرْمًا «حَلَفَ أَنْ لَا يَمْدَحُهُ زَهِيرٌ إِلَّا أَعْطَاهُ وَلَا يَسْأَلُهُ إِلَّا أَعْطَاهُ وَلَا يَسْلَمُ عَلَيْهِ إِلَّا أَعْطَاهُ: عَبْدًا أَوْ وَلِيدَةً أَوْ فَرَسًا، فَاسْتَحْيَا زَهِيرٌ مِمَّا كَانَ يَقْبَلُ مِنْهُ، فَكَانَ إِذَا رَأَاهُ فِي مَلَأٍ قَالَ: عَمَّوْا صَبَاحًا غَيْرَ هَرْمٍ، وَخَيْرِكُمْ اسْتَشْنَيْتَ^(٦)». وَنَرَاهُ يَشِيدُ بِجَحْصِ بْنِ حَذِيفَةَ سَيِّدِ بَنِي فِزَارَةِ الْغُطْفَانِيِّينَ، وَخَاصَّةً بِحُرُوبِهِ مَعَ أَحْلَافِهِ بَنِي أَسَدٍ ضِدَّ النُّعْمَانِ بْنِ الْحَارِثِ الْغَسَّانِيِّ وَمَا أَنْزَلُوا بِجَيُوشِهِ مِنْ هَزَائِمٍ مُنْكَرَةٍ^(٧). وَلَيْسَ فِي دِيْوَانِهِ وَرَاءَ حُرُوبِ حِصْنٍ وَحُرُوبِ دَاحِسٍ وَالْغَبْرَاءِ إِشَارَةٌ إِلَى غَارَاتٍ سِوَى مَا كَانَ مِنْ غَارَةِ الْحَارِثِ بْنِ وَرَقَاءِ الْأَسَدِيِّ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى عَشِيرَتِهِ، وَقَدْ أَخَذَ فِيمَا أَخَذَ

(٥) أغاني ٣٠٥/١٠.

(٦) أغاني ٣٠٥/١٠.

(٧) انظر ديوان زهير (طبعة دار الكتب)

ص ١٤٣ ونختار الشعر الجاهل للسقا ص ٢٤٥.

(١) ابن سلام ص ٥٦٣.

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٣١٢/١٠.

(٣) أغاني ٣١٢/١٠.

(٤) أغاني ٢٩٧/١٠.

إبلًا وغلًا من زهير يسمى يسارًا . وغضب زهير غضبًا شديدًا ، وهدده إن لم يرد عليه إبله أن يهجو هجاء مقذعًا ، مذكراً له بما بين عشيرتهما من موثيق وعهود نقضها نقضاً ، وخشى الحارث مرة لسانه وما يصب عليه من لعنات فرد عليه ماله وغلًا^(١) .

وتدل الدلائل على أنه عاش في سعة من المال مما ورثه عن خاله وما كان يقدر له هرم وغيره من أشراف قبيلته من أموال . وكان فيه توقر ونبل ، ولعل ذلك ما جعل شعره يخلو من الفحش والعهر ، فهو من ذوق آخر غير ذوق امرئ القيس المفتون بالنساء وتصوير مغامراته القصصية معهن . ومن غير شك كان وثيقاً ، مثله مثل قومه ، وإن كنا نلاحظ عنده بعض أبيات يؤمن فيها باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب ، يقول في معلقته :

فلا تَكْتُمَنَّ الله ما في نفوسكم ليخفي ومهما يُكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيُدَّخَر ليوم الحساب أو يعجل فيُنْقَم

وإذا صحت نسبة البيتين إليه كان ذلك دليلاً على أنه أحد من تحنفوا في الجاهلية وشكوا في دينهم الوثني^(٢) وأغلب الظن أنه لم يفارق دين قومه ، إنما هي خطرات كانت تمر به .

وحياة زهير* من الوجهة الأدبية طريفة ، فقد كان أبوه شاعراً ، وكذلك كان خاله كما قدمنا ، وأختاه سلمى والخنساء ، وورث عنه الشعر ابناه كعب وبُجَيْر ، واستمر الشعر في بيته أجيالا ، فقد كان عقبة بن كعب شاعراً ، وكان العوام ابن عقبة شاعراً أيضاً^(٣) ويقولون إنه رحل عن البادية وأقام في البصرة .

فنحن بلازء شاعر اتصل الشعر في بيته اتصالاً لم يعرف لشاعر جاهلي ممن عاصروه ، وليس هذا فحسب ، فإنه عاش للشعر يعلمه ابنه بُجَيْراً وكعباً من جهة ، وأناساً آخرين من غير بيته أشهرهم الحطيئة ، فهو تلميذه وخريجه .

(٣) مقدمة ديوان زهير (طبعة دار الكتب)

ص ٩ وقارن بالأغاني ٣١٤/١٠ والشعر والشعراء ٩٢/١ .

(١) أغاني ٣٠٧/١٠ وما بعدها .

(٢) انظر في ذلك المخبر لابن حبيب

ص ٢٣٨ حيث يذكر أنه كان من حرموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام .

وفي أخباره مع ابنه كعب ما يدل على الطريقة التي كان يُخرج بها الشعراء، فقد كان يلتقطهم شعره ويروونه عنه ، وما يزالون يتلقونونه ، حتى تنطبع في أنفسهم طريقة نظم الشعر وصوغه ، وهو في أثناء ذلك يمتحن قدرتهم ، بما يلقي عليهم من أبيات يطلب إليهم أن يجيزوها ، بنظم بيت على غرار البيت الذي ينشده في الوزن والقافية^(١). ويظهر أنه عُمِّر طويلاً إذ يقال في بعض الروايات إنه أدرك الإسلام وله مائة سنة ولم يسلم^(٢) ، ولكن إدراكه الإسلام غير صحيح ، إنما الصحيح أنه مات قبيل الإسلام بمدة قليلة ، والذي أدرك الإسلام حقاً ابنه بجير وكعب ، وقد أسلما وحسن إسلامهما ، ولكعب قصيدة معروفة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي ذاتة مشهورة .

٣

ديوانه

طُبِعَ ديوان زهير طبعات مختلفة، لعل أقدمها طبعة ألوارد في مجموعة العقد الثين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين ومرّ بنا — في حديثنا عن ديوان امرئ القيس — أنه استخرجها من شرح الشنتمري للدواوين الستة: دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنترة ، وهي برواية الأصمعي غير أنه جردها من الشرح وأضاف إلى تلك الدواوين أشعاراً أخرى مما وجدها في كتب الأدب والتاريخ . ونشر الديوان لندبرج السويدي بشرح الشنتمري سنة ١٨٨٩ في سلسلته التي سماها « طرفا عربية » ، ومكانه فيها الطرفة الثانية ، وطُبِعَ بعد ذلك في مصر وغيرها طبعات تعتمد على نشرة لندبرج ، ونشره مصطفى السقا في مجموعته مختار الشعر الجاهلي ، وهي تتضمن كما مرّ بنا نفس الدواوين الستة التي شرحها الشنتمري ، وقد أضاف إليها شرحاً مختصراً من شرح الشنتمري . ونُشرت هذه الدواوين برواية الأعلام البطليوسي ، وهي تلتقي برواية الشنتمري عنده ، وكأنه هو الآخر عُنِيَ في عمله برواية الأصمعي .

وواضح أن هذه الطبعات تعتمد على رواية الأصمعي البصرية ، وكانت هناك مخطوطات عدة لرواية ثعلب الكوفية بدار الكتب المصرية ، ورأى القائمون فيها أن ينشروا هذه الرواية ، مستعينين بنسخة منها قديمة تملكها مكتبة الجمعية الألمانية الشرقية في هلة ، وظهر الديوان بهذه الرواية في سنة ١٩٤٤ للميلاد .

وإذن فعندنا لديوان زهير روايتان مطبوعتان : رواية الأصمعي البصرية ورواية ثعلب الكوفية ، وتمتاز الأولى بالتشدد ، فهي لا تروى سوى ثمانى عشرة قصيدة ومقطوعة ينهيا الشتتمرى بقوله : « كل جميع ما رواه الأصمعي من شعر زهير ونصل به بعض الروايات » ويضيف من رواية الكوفيين قصيدتين شك الرواة في ثانيتهما^(١) . وإذا نظرنا في رواية ثعلب الكوفية وجدناها تضيف عشرات القصائد والمقطوعات ، ومن حين إلى حين تنص على أن هذه القصيدة وتلك المقطوعة من رواية حماد أو ابن الكلبي المعروفين بكثرة الوضع . ومن ثم كنا لا نستطيع أن نتخذ من الرواية الكوفية أساساً وثيقاً لدراسة زهير ، فنحن نرفضها رفضاً ، متخذين من رواية الشتتمرى أو بعبارة أخرى رواية الأصمعي أساساً لبحثنا في زهير وشعره ، وإذا كان هناك قصيدة يمكن أن تضاف إلى هذه المجموعة فهي القصيدة التي تليها في رواية الشتتمرى ، إذ يظهر أنها صحيحة النسب إلى زهير^(٢) . وقد يكون مما يؤكد صحة شعر زهير برواية الأصمعي أن الشعر كما قدمنا اتصل في ولده أجيالا ، وأن آخرهم العوام نزل البصرة وأقام فيها ، وأكبر الظن أن أبنائه ظلوا يروون شعره حتى أسلموه أو أسلمه العوام إلى رواة البصرة وعلمائها .

وإذا أخذنا نفحص رواية الأصمعي التي تحتفظ بثمانى عشرة قصيدة ومقطوعة وجدنا الشتتمرى^(٣) ينقل عنه أنه كان ينكر ثلاثاً منها ، هي : (أبلغ بنى نوفل عني وقد بلغوا) و (أبلغ لديك بنى الصيِّداء كلهم) و (ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى) وكان أبو عبيدة ينكر مقطوعته : (إن الرزية لا رزية مثلها)

المصرية رقم ٨١ أدب ش وفي الخزانة التيمورية
بدار الكتب نسخة ثانية برقم ٤٥٠ أدب
- شعر تيمور .

(١) انظر الديوان (طبعة دار الكتب) ص ١٩٣ .

(٢) أغاني ٢٨٩/١٠ وفي الديوان ص ٢١٩
أن المفضل الضبي كان يروها .

(٣) راجع مخطوطة الشتتمرى بدار الكتب

ويقول إنها لقُرَاد بن حَنْش من شعراء غطفان^(١). ولا يبقى لزهير بعد ذلك من رواية الأصمعي سوى أربع عشرة قصيدة ومقطوعة ، تضاف إليها القصيدة التي رواها المفضل واحتفظ بها الشنتمري ، وهي : (عَشَيْتُ دُبَاراً بِالْبَقِيعِ وَتَهَمَدُ). على أنه ينبغي أن نسقط من قصيدته (لمن الديار بقُتْنَةَ الْحَجَرِ) الأبيات الثلاثة الأولى لأن حماداً زادها فيها كما مر بنا في حديثنا عن الانتحال . وقد شك الأصمعي في الْحِكَمِ الملحقة بالمعلقة وقال إنها لِصُرْمَةَ بن أبي أنس^(٢) الأنصاري ، ويمكن أن يكون لزهير طائفة منها اختلطت على الرواة بطائفة أخرى تماثلها ، نَظْمُها صرمة ، وسنرى أن زهيراً كان يكثر من الْحِكَمِ في شعره .

٤

شعره

لعل الشعر الجاهلي لم يعرف شاعراً عُنِيَ بتتبعه عناية زهير ، وقد ذهب القدماء يقولون إنه كان يَرَوِي شعر زوج أمه أوس بن حَجَر الشاعر التيمي المشهور ، كما كان يروي شعر طُفَيْل الغنوي^(٣) المعروف ببراعته في وصف الخيل والصيد ، وأيضاً فإنه كان يروي شعر خاله بَشَامَةَ بن الغدير^(٤) . وهم لا يقفون بملاحظاتهم عند ذلك ، إذ يقولون إنه خَرَجَ ابنه كعباً في الشعر كما خرج الخطيئة^(٥) .

فنحن إذن بإزاء شاعر ممتاز ، عاش للشعر يرويه ويعلمه ، أو بعبارة أخرى نحن بإزاء مدرسة يتضح فيها زهير وتلميذاه كعب والخطيئة ، وإذا أردنا أن نبحث لزهير عن أستاذ حقيقي تأثره في شعره من بين الثلاثة الذين ذكرهم وجدنا أقربهم إلى شعره أوس بن حجر زوج أمه ، فإنه يتأثره في جميع جوانب فنّه ، يتأثره في الموضوعات التي عالجها وفي طريقة معالجته لها ، وفيما يصوغه من معانٍ وصور ، وسنشير إلى مواضع ذلك عما قليل .

(٤) أغاني ٣١٢/١٠ .

(٥) أغاني (طبع دار الكتب) ١٦٥/٢ .

٩١/٨ والشعر والشعراء ٩٣/١ .

(١) ابن سلام ص ٥٦٨ .

(٢) المعمرين للسجستاني ص ٦٦ .

(٣) العمدة لابن رثيق (طبعة أمين هندية)

١٣٢/١ وانظر الشعر والشعراء ٨٦/١ .

وإذا أخذنا نستعرض شعر زهير وجدناه يَسْتَظِمُّ في المديح والغزل ووصف الصيد والهجاء ، وفي تضاعيف ذلك ينجح إلى الحكمة ووصف مكارم الأخلاق . وإذا أبدلنا المديح بالتأبين كانت هذه الموضوعات هي نفسها التي يدور فيها شعر أوس ، فإنه لم يؤثر عنه مديح إلا أبياتاً متفرقة ، وإذا كان مديحه فُقد فإن تأبينه خلد على الزمن ، وقد أنشدنا منه قطعة في غير هذا الموضع ، وهو يلتقي فيه بزهير حين يشيد بفصائل فضالة بن كسلة ومناقبه ، التي يعود بها إلى المثل العربي الكريم للمروءة .

وتلمع بين مدائح زهير معلقته ، وقد نظمها مشيداً بهـَرَمَ بن سنان والحارث بن عوف حين سعي بالصلح بين ذبيان وعبس فأعلنا أنهما يتحلمان ديات القتلى حتى تضع الحرب أوزارها بين القبيلتين المتناحرتين ، وتصادف في أثناء ذلك أن قَتَلَ الحُصَيْن بن ضَمْضَم عَبيساً ثاراً لأخيه هـَرَمَ بن ضَمْضَم ، وكان قتله وَرَدَ بن حابس العبسي ، فثار عبس وشهرت سيوفها تريد أن تعيد الحرب جَدَّةً ، وسرعان ما تقدم الحارث لهم بمائة من الإبل وبابنه ليختاروا إما الدية وإما قتل فلذة كبده ، فقبلوا الدية ودخلوا في الصلح ، وانتهت الحرب الدامية . وهنا نرى زهيراً يشيد بهذه المكرمة الجليلة ناعياً على حُصَيْن فعلته التي كادت تودي بفكرة الصلح ، لاهجاً بالثناء على السديين وما قدما للقبيلتين من ديات حقنت الدماء ، يقول :

يَمِيناً لِنَعْمَ السَّيْدَانِ وَجِدْتُمَا	على كل حالٍ من سَحِيلٍ ومُبرَمٍ ^(١)
تَدَارَكْتُمَا عَبْساً وَذُبْيَانَ بَعْدَمَا	تَفَانُوا وَذُقُّوا بَيْنَهُم عِطْرَ مَنْشِمٍ ^(٢)
وَقَدْ قَلَّمَا إِنْ نَذَرَكِ السَّلَمَ وَاسْعَا	بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْأَمْرِ نَسَلَمَ
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ	بَعِيدِينَ فِيهَا مِنْ عُقُوقٍ وَمَائِمٍ ^(٣)
عَظِيمِينَ فِي عُلْيَا مَعَدٍّ وَغَيْرِهَا	وَمَنْ يَسْتَسَبِّحُ كَنْزاً مِنَ الْمَجْدِ يَعْظُمُ ^(٤)

٣٣٠ .
(١) يريد أنهما لم يشتركا في تلك الحروب ،
فهما يؤديان عن غيرها الديات .
(٢) يريد عليا معد رؤساء وأشرفها .
يعظم : يصبح عظيماً .

(١) السحيل : غير المبرم . يريد أنهما خير
عشيرتهما في كل أمر ، أبراه أو لم يبراه .
(٢) منشم : امرأة عطارة كانت في مكة ،
غس قوم أيديهم في عطرها وتماهدوا على الحرب
حتى فنوا عن آخرهم . يشبه قبيلتي عبس وذبيان

وجعلته هذه المأثرة يشيد بالسلم والسلام ، فكان بذلك شذوذاً على ذوق
الجاهليين وأشعارهم التي تدوى بفكرة الأخذ بالثأر والرامي على الحرب ترمى القراش
على النار . وقد مضى يصور الحرب في صورة بشعة ، فيقول :

وما الحرب إلا ما علمتم ودقّم^(١) وما هو عنها بالحديث المرجّم^(٢)
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة^(٣) وتضر إذا أضريتموها فتضرم^(٤)
فتعرككم عرك الرّحى بثفالها^(٥) وتلقح كشاً فائم تحمّل فتثم^(٦)
فتنتج لكم غلماناً أشام^(٧) ، كلهم كآحمر عاد ثم ترضع فتفطم^(٨)
فتغلّل لكم ما لا تغلّل لأهلها^(٩) قرى بالعراق من قفيز ودرهم^(١٠)

وأنت تراه يصور الحرب في صور مخيفة قبيحة ، فهي تارة أسد ضار ، وتارة
ثانية نار مشتعلة ، وتارة ثالثة رّحى تطحن الناس ، وتارة رابعة تلد ، ولكنها لا تلد
إلا ذراري شوم . ووسع التهكم ، فقال إنهم يربحون منها ما لا يربح أهل العراق من
الغلال والدرهم ، وهو بذلك يدعو إلى السلام وأن يتحول العرب من هذه الحروب
والمعارك الطاحنة إلى حياة السلم الوادعة الآمنة التي تنتشر فيها الأخوة والمحبة والرحمة .
ونراه يصور ما هم فيه من بوار تصويراً بديعاً ، فيقول :

رَعَوْا ما رَعَوْا من ظمّهم ثم أوردوا^(١) غماراً تسيل بالرماح وبالدم^(٢)
فققصّوا مناياب بينهم ثم أصدروا^(٣) إلى كلالٍ مُستوبلٍ مُتَوخّم^(٤)

فهم مجروهم المستعرة كأنهم يرعون مراعى وخيمة وبيلة في سلمهم . وسرعان
ما يردون موارد لا تشفى غليلهم ، موارد تزخر بالرماح والدماء .

(١) المرجم : المظنون .
(٢) تبعثوها : تهييجها ، تضر : من ضرى
الأسد إذا تهاى للفرسة ، وأضرى : درب وعود ،
وتضرم : تشتعل .
(٣) تعرككم : تطحنكم ؛ الثفال : جلد
يجعل تحت الرّحى حين تطحن ، ومن أجل
ذلك ذكره ، يريد أنها طاحنة . وتلقح كشافاً :
تحمل كل عام ، وذلك أردأ النتائج . تثم :
تلد توماً .
(٤) القفيز : مكيا في العراق .
(٥) الظما : ما بين الوردتين أو الشريبتين ،
والغمار : المياه الكثيرة .
(٦) أصدروا : رجعوا ضد أوردوا ،
مستوبل : مستثقل ، ومثلها متوخّم أى إنه
كثيره تعافه الإبل .

(١) المرجم : المظنون .
(٢) تبعثوها : تهييجها ، تضر : من ضرى
الأسد إذا تهاى للفرسة ، وأضرى : درب وعود ،
وتضرم : تشتعل .
(٣) تعرككم : تطحنكم ؛ الثفال : جلد
يجعل تحت الرّحى حين تطحن ، ومن أجل
ذلك ذكره ، يريد أنها طاحنة . وتلقح كشافاً :
تحمل كل عام ، وذلك أردأ النتائج . تثم :
تلد توماً .

نحن إذن بإزاء شخصية ممتازة من شخصيات الشعر الجاهلي شخصية فيها برٌّ ورحمة وفيها نزعة قوية إلى الخير . وليس معنى ذلك أنه تخلص في مديحه لهرم ابن سنان وابن عمه الحارث بن عوف من الصورة الجاهلية التي تشيد بالشجاعة والكرم المتهور ، فنحن نراه في قصيدة ثانية يتحدث عنهما وعن عشيرتهما على هذه الشاكلة :

إذا فَرَعُوا طاروا إلى مُسْتَغِيثِهِمْ	طوالَ الرِّمَاحِ لاضِعافٍ وَلَا عَزْلُ ^(١)
يُخِيلُ عَلَيْهَا جَنَّةٌ عِبْقَرِيَّةٌ	جديرون يوماً أَنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعْلُوا
وإنْ يَقْتُلُوا فَيُسْتَقْتَى بِدَمَائِهِمْ	وكانوا قديماً من منايهم القتلُ
عليها أَسودُّ ضارياتٌ لَبُوسِهِمْ	سَوَابِغُ بَيْضٍ لَا تُحَرِّقُهَا النَّبْلُ ^(٢)
إذا لَقِحتْ حربٌ عَوانٌ مُضِرَّةٌ	ضَرُوسٌ تُهَرُّ النَّاسُ أَنْيَابُهَا عُصْلُ ^(٣)
قُضَاعِيَّةٌ أَوْ أُخْتُهَا مُضِرِّيَّةٌ	يُحَرِّقُ فِي حَافَاتِهَا الْحَطَبُ الْجَزْلُ ^(٤)
هَمْ خَيْرٌ حَىَّ مِنْ مَعَدٍّ عِلْمَتُهُمْ	لَهُمْ نَائِلٌ فِي قَوْمِهِمْ وَلَهُمْ فَضْلُ ^(٥)

وهو يصف سيدي بني مرة وعشيرتهما بالشجاعة ونجدة من يستغيث بهم ، حتى ليكادون يطيطون إليه طيراناً بسوا بقهم وخيلهم وكأنهم جنة . وانظر إليهم حين تدور المعارك فستراهم أسوداً ضارية ، لا يرهبون الموت ، حين تشتد الحرب وتعص الناس بأنبياءهم وتحرقهم بنيرانها . وهم يحاربون في كل مكان ، لا يخشون أحداً ، يحاربون قضاة ومضراً . وهم يضيفون إلى هذه الشجاعة كرمًا مفرطاً ، وفي كل قبيل منهم ثار ، ومن ثم كانوا يُسْتَقْتَى بِدَمَائِهِمْ ، إنهم خير معد شجاعة وكرماً فياضاً . ولا يلبث زهير أن يقول :

(١) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .
 (٢) لبوسهم سوابغ : لبسهم دروع قامة .
 (٣) لقيحت : حملت ، يريد اشتدت . حرب
 عوان : مكررة قوتل فيها مرة بعد مرة . ضروس :
 شديدة . تهـر الناس : تخيفهم . عصل : قوية
 تطحن طحناً .
 (٤) الجزل : الغليظ ضد الرقيق .
 (٥) النائل : العطاء .

إذا السَّنةُ الشَّهْبَاءُ بالنَّاسِ أَجْحَفَتْ
رَأَيْتَ ذَوِي الْحَاجَاتِ حَوْلَ بَيْتِهِمْ
هَنَالِكَ إِنْ يُسْتَخْبَلُوا الْمَالَ يُخْبِلُوا
وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حَسَانٌ وَجُوهُهُمْ
عَلَى مُكْثَرِهِمْ رِزْقٌ مِنْ يَغْتَرِيهِمْ
وَلِنْ جِثَّتْهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بَيْتِهِمْ
وَلِنْ قَامَ فِيهِمْ حَامِلٌ قَالَ قَاعِدٌ
وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا
وَهْلٌ يُنْبِتُ الْخَطِيئَ إِلَّا وَشِيجُهُ

ونال كرامَ المال في الحَجَرَةَ الْأَكْلُ^(١)
قَطِينًا بِهَا حَتَّى إِذَا نَبَتَ الْبَقْلُ^(٢)
وَلِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَلِنْ يَسِيرُوا يُغْلُوا^(٣)
وَأَنْدِيَّةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفَعْلُ^(٤)
وَعِنْدَ الْمُقْلِينَ السَّاحَةُ وَالْبَذْلُ^(٥)
مَجَالَسٌ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا الْجَهْلُ^(٦)
رَشَدَتْ ؛ فَلَا غُرْمَ عَلَيْكَ وَلَا خَذْلُ^(٧)
تَوَارَثَ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنْابِتِهَا النَّخْلُ^(٨)

وهو يستمر هنا في مديحه لهم بالكرم في السنين المجيدة ، حتى إن الناس ليرحلون إليهم ويقطنون حول خيامهم ، وكلما سألوهم شيئاً وهبوه لهم ، وهم في أثناء ذلك يقامرون بخير إبلهم ، حتى يطعموها السائلين والمحتاجين . ولما استتم هذه الصورة وصفهم بجمال الوجوه وجمال الكلام في مجالسهم ، ولم يُخجل مكثرأ ولا مقلأ منهم من سماحة وفضل وبر . وأشاد بمجالسهم ، وأنهم عقلاء حلماء يشفون بآرائهم الصائبة جهل الجُهلاء . وهم متعاونون ، إن حمل منهم أحد حمالة لم يخذلوه ، بل أعانوه . وذكر فضل آبائهم ، وأحسابهم ، فقال لإنهم ورثة مجد قديم توارثه الأبناء عن الآباء ، وساق دليلاً على ذكاء الفروع بذكاء الأصول من الرماح والنخيل ، فلا يولد الكريم إلا في البيت الكريم .

وظل زهير على شاكلة هذه القصيدة وسابقتها يدبج مدائح في هرم بن سنان ،

- (١) السنة الشهباء : المجيدة ، الحجرة : السنة شديدة البرد .
(٢) قطيناً : ساكنين .
(٣) استخبال المال : أن يسألهم شيئاً فيعطوهم إياه . يسروا : يتقامروا . يغلوا : يختاروا سنان الإبل :
(٤) المقامات والأندية : المجالس .
(٥) يغتر بهم : يتزل بهم .
(٦) الجهل : الحق .
(٧) الحامل : الذي يحمل الحمالة ، وهي الدية ، ويريد أي مغرم .
(٨) الخطى : الرماح ، وشيجه : أغصانه .

ومن أروعها داليتها التي رواها المفضل الضبي والتي يقول فيها مصوراً كرمه وشجاعته
وفصاحته وسبقه إلى المآثر الحمودة :

سواءً عليه أي حين أتته أساعة نحس تُتقى أم بأُسعد^(١)
ومدرة حَرْبٍ حَمِيها يُتقى به شديدُ الرِّجَامِ باللسان وباليَدِ^(٢)
إذا ابتدرت قَيْسُ بن عِيْلانَ غَاية من المجد مَنْ يَسْبِقُ إليها يُسَوِّدُ
سبقت إليها كل طَلَقٍ مُبرِّزٍ سبوقٍ إلى الغايات غير مُجَلِّدٍ^(٣)
فلو كان حَمْدُ يَخْلِدُ النَّاسَ لم تُمتْ ولكنَّ حَمْدَ النَّاسِ ليس بِمُخْلِدٍ

فهو يعطي في السعة وفي القلة ، ويدفع عن قومه بلسانه وبيده وسلاحه ، وإذا
تسابق الناس إلى غاية من غايات المجد كان السابق المحلى ، ولو أن حمداً يخلد به
مستحقه لكان هرم أول خالده لكثرة مناقبه ومكارمه . وله فيه قصيدة رائعة بديعة
يقول في تضاعيفها :

دَعُ ذَا وَعْدَ القولِ في هَرَمٍ خَيْرِ الْبُدَاةِ وَسَيِّدِ الْحَضَرِ
ولِنِعَمَ حَشَوِ الدَّرْعِ أَنْتَ إِذَا دُعِيتَ نَزَالَ وَلَجٌ فِي الدُّعْرِ^(٤)
حَدِبٌ عَلَى الْمَوْتِ الضَّرِيكِ إِذَا نَابَتْ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدَّهْرِ^(٥)
وَيَقِيكَ مَاوَيْ الأَكْرَامِ مِنْ حُوبٍ تُسَبُّ بِهِ وَمِنْ غَدْرِ^(٦)
وَلَأَنْتَ تَفْرِى مَا خَلَقْتَ وَبِعَضْ القومِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِى^(٧)
وَالسُّرُّ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَمَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سِثْرِ
أَثْنِي عَلَيْكَ بِمَا عَلِمْتُ وَمَا سَلَفَتْ فِي النَّجْدَاتِ وَالذُّكْرِ

(٤) الدعاء في الحرب نزال : حين تشتد
فيتداعى الفرسان بالزول عن الخيل والتقارع
بالسيوف . ولج في الذعر : اشتد الخوف .
(٥) الضريك : الفقير المجهد .
(٦) الحوب : الإثم .
(٧) تفرى : تقطع . يخلق : يقدر .
يريد أنه إذا عزم على أمر أنفذه .

(١) يريد بساعى النحس والسعد أوقات
القلة والكثرة في المال .
(٢) المدرة : المدافع عن قومه . وحى الحرب :
شدتها . والرجم : المرامة في الحرب وفي الخطب
والكلام .
(٣) الطلاق هنا : المعطاء ، وأصله الفرس
السابق الذي لا يلوى على شيء . المجلد :
الذي يضرب ويجلد . والتشبيه واضح .

وعلى هذا النحو يبدي ويعد في هَرَم ، وقد تراءى له في الصورة المثالية للسيد
البدوي الجاهلي ، فهو شجاع في معترك الحرب وهو كريم في معترك المسغبة
والجوع ، وليس بفحاش ولا غادر ، وإذا صمم اندفع يُمنضى ما صمم عليه ،
لا يستره عن الخير ستر ، بينما تقوم الأستار بينه وبين كل فاحشة . وشاعرنا يثني
عليه بما عرف من فضله وبما قدم من مآثر النجدة وإغاثة الضعفاء واحتمال كل بلاء .
ودائماً تلقانا في مدائحهم هذه المثالية الرائعة ، بل هذه القطع المتوهجة ، ومن
رائع ما قاله فيه :

قد جعل المبتغون الخير في هَرَم والسائلون إلى أبوابه طُرُقاً
إن تلقَ يوماً على عِلاته هَرماً تلقَ الساحة منه والندى خلُقاً
ليثٌ بعثَرُ يصطادُ الرجالَ إذا ما كذَّب الليثُ عن أقرانه صدقاً^(١)
يطعنهم ما ارتَمَوْا حتى إذا اطعنوا ضاربٌ حتى إذا ما ضاربوا اغتنقاً^(٢)
هذا وليس كمن يعبأ بخطئه وسَطَ الندى إذا ما ناطقٌ نطقاً

فهو لكرمه الفياض يسعى إليه الناس من كل حدبٍ ، ويسلكون إلى أبوابه
كل طريق ، حتى لقد أصبحت الطرق إليه مثلة مهيمة ، وهو يجزل لهم في العطاء
حتى حين تضيق ذات يده . وهو يجمع إلى الكرم المفرط الشجاعة المفرطة ،
حتى ليتفوق على الليث في جرأته وطلبه لفريسته ، إنه يطعن الطعنات النجلاء ،
وما يزال على ذلك حتى تنحسر غمرة الحرب ، فإذا كان السلم رأيته وسط الندى^{*}
يهرك بمقوله كما يهرك بيده وسلاحه وطعانه ونزاهه .

وقد أضنى حُللاً من هذا المديح الرائع على سيد بني فزارة حصن بن حُدَيْفَة ،
وكانت له مواقع مأثورة في حروب قومه مع عبَّس وغيرها من القبائل ، وفيه يقول :

المتحاربون بالنبال أبي هَرَم إلا أن يطعن
يسيفه ، وإذا تطاعنوا ضرب يسيفه ضربات
مميته وإذا ما تضاربوا صرع خصومه . فهو
سابق في كل حال .

(١) عثر : موضع . كذب الليث : تكل
عن لقاء أقرانه .
(٢) ارتَمَوْا : تراموا بالنبل ، اطعنوا :
تطاعنوا بالسيف . اعتنق قرنه في الحرب :
أخذ بعنقه ، كناية عن قتله . يقول إذا تراءى

وَأَبْيَضَ فَيَاضَ يَدَاهُ غَمَامَةٌ عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تُغِبُّ فَوَاضِلُهُ (١)
 بَكَرَتْ عَلَيْهِ غُدُوَّةٌ فَرَأَيْتُهُ قُعُودًا لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَازِلُهُ (٢)
 فَأَقْصَرَنَ مِنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مَرْزَأٍ عَزُومٍ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُهُ (٣)
 أَخِي ثَقَةٍ لَا تُتْلِفُ الْخَمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالُ نَائِلُهُ (٤)
 تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مَتَهَلَّلًا كَأَنَّكَ تَعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ (٥)

وهو يمدحه بنقائه من العيوب وأنه كريم مفرط في كرمه حتى لتشبه يده
 سحابة ، فما تزالان تهطلان على قاصديه بالعطايا ، وعبثاً يهتف به العواذل أن يكف
 عن كثرة نواله . إنه مثال للرجل الفاضل الذي لا ينفق أمواله في هوانها ينفقها في
 الصنيع الجميل . وإنه ليقبل على معتيه بالبشر والطلاقة ، حتى ليكادون يظنون
 أنهم المسئولون لا السائلون . وظل بعد ذلك يمدحه بحسن جداله للخصوم ومنطقه
 الصائب وكياسته وحلمه ، وأشار إلى وراثته الطيبة عن آبائه فهو شريف حبيب ،
 كما أشار إلى بلائه في حروبه مع الغساسنة .

وهذه القطع المختلفة التي أنشدناها من مديحه تدل على براعة واضحة ، فقد
 كان يحسن التعبير عما في نفسه ، وكان يحرص على الاقتصاد في القول فلا يسرف
 ولا يغلو ، بل يمثل ممدوحه بخصاله التي كان يشغف بها الجاهليون ويرونها أمانة
 السيادة والشرف . ولأحظ ذلك قديماً عمر بن الخطاب ، فقال : « كان لا يمتدح
 الرجل إلا بما يكون فيه » (٦) فهو يعتدل في الثناء ، وهو يمثل شخصية البدوي
 الحقيقي الذي يحيط كلامه بالصدق والبساطة ، وإذا أحسن إزاء صفة من الصفات
 أو معنى من المعاني بأنه يكاد يخرج عن حده أحاطه بما يجعل قوله مقبولا فيقدم
 لفظة « لو » ونحوها حتى لا يتجاوز القصد ، كما نرى في قوله يصف هрма
 وأجاده :

- (١) المفضلون : السائلون . الفواضل :
 العطايا . وأبيض كناية عن نقائه من المساوئ .
 وتغيب : تنقطع .
 (٢) الصريم : الصباح . عواذله : لأمهوه .
 (٣) أقصرن : كففن . مرزأ : مصاب في
 ما له لكثرة ما يبذل منه .
 (٤) النائل : المطاء .
 (٥) مهللا : طلق الوجه .
 (٦) أغاني ٢٩٠/١٠

لو نال حَيٍّ من الدنيا بِمَكْرُمَةٍ أَفْقَ السَّماءِ لَنالَتْ كَفَّهُ الْأَفْقَا
وقوله :

لو كُنْتَ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَرٍ كُنْتَ الْمُنَوَّرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ
فهو لا يطلق القول في مثل هذين المعنيين إطلاقاً ، بل يجعلهما في حيز
« لو » حتى يخرج من باب المبالغة الذى أوشك على الدخول فيه .
وكان يقدم لقصائده بالغزل والتشبيب ، متبعاً سنة الجاهليين في الوقوف
بالأطلال وذكر الديار ، ونحس عنده إحساساً واضحاً بأنه لم يكن ممن شغف
الحب قلوبهم ، فهو يتغزل ، كى يرضى سامعيه ، لا لكى يرضى نفسه ، وبعبارة
أخرى هو يتغزل أخذاً بتقليد متبع ، ولذلك نراه يتم غزله أحياناً بقوله : « فعد عما ترى »
أو « دع ذا » كأنه يريد أن يكف قلبه عن مثل هذا الحب الذى لا يتلاءم مع
وقاره . وقد يعلن في أول قصيدته إعلاناً أن قلبه قد انصرف عن صاحبه على
شاكلة قوله :

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَقَدْ كَادَ لَا يَسْلُو وَأَقْفَرَ مِنْ سَلْمَى التَّعَانِيقُ فَالْتَقَلُّ^(١)
ولعل من الطريف أن أستاذه أوس بن حجر كان يشركه في هذا الجانب ،
فهما جميعاً لا يتغزلان للغزل ، وإنما يتغزلان جرياً على التنايلد . وقد يلم زهير
بأثر الحب في النفس فيبدع في تصويره ، وهو في هذا التصوير لا يمثل عاطفة
ولا مشاعر حقيقية ، وإنما يمثل قدرته الفنية كقوله في وصف دموعه :

كَأَنَّ عَيْنِي وَقَدْ مَالَ السَّلِيلُ بِهِمْ وَجِيرَةٌ مَا هُمْ لَوْ أَنَّهُمْ أَمَمُ^(٢)
غَرْبٌ عَلَى بَكْرَةٍ أَوْ لَوْلُو قَلِقُ فِي السَّلَكِ خَانَ بِهِ رَبَّاتِهِ النَّظْمُ^(٣)

فهم قد ساروا سيراً سريعاً ، فأبعدوا ولو كانوا جيرة لقصدتهم بالزيارة ، وإن
دموعه لتساقط من عينه تساقط الماء من الغرب أو الدلو ، أو تساقط اللؤلؤ من

(١) التنايق والتقل : موضحان .
(٢) سال السليل بهم : السليل : راد .
(٣) الغرب : الدلو . قلق : لا يستقر
لاتقطاع الخيط . رباته : صواحه . النظم :
جمع نظام وهو الخيط أو السلك .

(١) التنايق والتقل : موضحان .
(٢) سال السليل بهم : السليل : راد .
(٣) سال بهم : ساروا سيراً سريعاً . وما في قوله
ما هم زائدة . وأم : قريون يزارون .

عقد انقطع سلكه . وبهاتين الصورتين البديعتين صورَّ زهير الدموع ، وهى ليست دموع حب ، وإنما كل مافى الأمر أنه شاعر يعرف كيف يصور دموع الحب . وبهذا القياس نفسه تصويره لأسماء فى قوله :

قامتُ تَرَاى بِذى ضالٍ لتحزُننى ولا محالةً أن يشتاق من عَشيقا^(١)
 بجيد مُغزلةً أدماء خاذلةً من الظباء تُراعى شادنا خرقا^(٢)
 كأن ريقَتها بعد الكرى اغتبتُ من طيبِّ الرّاح لما يَعدُّ أن عتقا^(٣)
 شجَّ السَّقاةُ على ناجودها شبيماً من ماء لينّة لا طَرَقاً ولا رَنقا^(٤)

فهو يصور جيدها بجيد ظبية بيضاء ، امتلأ قلبها بحب ابنها ، فهى عاكفة عليه ، كما يصور ريقها بخمر معتقة مزجت بالماء لشدتها وحدتها . وهما صورتان أريدتا لأنفسهما ، أو بعبارة أخرى رسمهما زهير ليدل سامعيه على قدرته فى التصوير ، أما بعد ذلك فلا عاطفة ولا حبّ حقيقى ، ولذلك يكرر دائماً أن قلبه صحا عن حبه ، وأنه راجع نفسه فكفّت عن الهوى وما يتبع الهوى ، على شاكلة قوله :

لقد طالبتُها ولكل شيء وإن طالتُ لجأجتُه انتهاءً

فهو ليس من العشاق ولا ممن يشغلون أنفسهم بالغزل وبيان لوعة الحب ، وإنما هو يتحدث فى ذلك مترسماً سنناً موضوعة كى يظهر قدرته على التصوير الفنى . ولعله من أجل ذلك ملأ مقدماته الغزلية بوصف الظعن ، وكأنه يريد بها أن يتلافى ما يفوته من وصف الحب والصباغة على نحو ما رأينا عند امرئ القيس ، وفى الوقت نفسه يريد أن يدلّ على براعته فى الوصف الدقيق ، فهو يستقصى ويدقق ، وما يزال يتبع صاحبته وصواحبها وهن راحلات فى نجد مع عشيرتهن من واد إلى

(٣) الكرى : النوم . اغتبت : من العبث وهو شرب الليل ، لما يعدن عتقا . يريد أن الخمر معتقة ولم تفسد .

(٤) شج : صب . الناجود : أول ما يخرج من الخمر أو إناؤها . الشيم : الماء البارد . لينّة : اسم بئر . الطرق والرّفق : الكدر .

(١) تراى : تتبدى وتظهر . وذو ضال : موضع به الضال وهو السدر .

(٢) الحيد : العتق ، مغزلة : الظبية التى معها غزال . أدماء : بيضاء . خاذلة : مقيمة على ولدها لا تتبع الظباء . الشادن : الذى شذن أى تحرك ولم يقو بمد . الخرق : الضعيف .

واد ، محاولاً أن يخفر الصورة في أذهاننا حقراً على نحو ما نجد في معلقته
إذ يقول :

تبصّر خَليلي هل ترى من ظَعائن
علون بأنماطٍ عِتاقٍ وكِلَّةٍ
ووركنٍ في السُوبانِ يعلون مَتْنَهُ
وفيهن ملهى للصديق ومنظرٌ
بكرنَ بكوراً واشتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ
جعلنَ القنّانَ عن يمينٍ وحَزَنَهُ
ظَهَرْنَ من السُوبانِ ثم جَزَعْنَهُ
كَأَن فُتَّتَ العِهنِ في كل منزلٍ
فلما وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ
تَحْمِلْنَ بِالْعَلْيَاءِ من فوق جُرْثُمٍ^(١)
وِرَادٍ حواشيها مشاكهة الدّم^(٢)
عليهن دُلُ النّاعِمِ المتنعّمِ^(٣)
أَنيقُ لَعَيْنِ الناظر المتوسّمِ^(٤)
فهنَ لوادى الرّس كاليَدِ للقمِ^(٥)
ومَن بالقنّانِ من مُجِلٍّ ومُحَرَّمِ^(٦)
على كل قَيْنِيٍّ قَشِيبٍ ومُقَامِ^(٧)
نزلنَ به حَبُّ القنّا لم يُحْطَمِ^(٨)
وَصَعْنِ عِصِيّ الحاضر المتخيّمِ^(٩)

وواضح أنه يصور الرحلة التي سلكها ظعن صاحبه ، وهن يعلون الروابي
ويهبطن الوديان ، وعلى هوداجهن الكلال والستائر الحمراء وعلى وجوههن دلال
النعمة ، والأصدقاء من الشباب يطلبونهن ليمثلوا النظر بحسنهن ويتمتعوا برؤيتهن ،
وهن يقطعن وادياً إثر واد ، ويمررن على منازل الأحلاف والأعداء ، يأخذن في
طريق ويعدلن عن طريق ، وفي أثناء ذلك ينزلن ثم يرحلن وقد خلفن وراءهن فُتات

رحلن سحراً . كاليَدِ للقم أى إن ما يقصدنه
لا يخطئه كما لا تخطئ اليد القم .
(٦) القنّان : جبل لبنى أسد . حزنه : أرضه .
الصعبة الغليظة . الحُل : الحليف ضد المحرم .
(٧) جزعته : قطعته . القيني : الرجل .
قشيب : جديد . مقام : واسع رحب .
(٨) الهن : الصوف . حب القنّا :
عنب الثعلب .
(٩) جمامه : سطحه ومجتمعه . ووضع
المعنى كناية عن الإقامة .

(١) الظعائن : النساء الراحلات في الهوداج .
العلياء : اسم موضع . جرثم : ماء لبنى أسد
أحلاف ذبيان .
(٢) الأنماط : الستائر على الهوداج .
وراد : حمراء . مشاكهة : مشابة .
(٣) وركن : ثنين أرجلهن للراحة . السوبان :
واد في ديار بني تميم . متنه : ظهوره . دل
الناعم : أثر النعمة .
(٤) المتوسّم : المتفرس في الوجه .
(٥) بكرن : رحلن صباحاً . اشتحرن :

الصوف المتساقط من هودجهن ورحلن كأنه حبُّ الفنا ، حتى إذا انتهين إلى الماء الذى يطلبنه والمرعى الذى يلتمسنه ألقين مع عشائرهن عصا الترحال . وكان زهير يبدع فى مثل هذا التصوير الذى يعرض به عرضاً حياً مليئاً بالحركة ظُعن صواحبه ، وهى ترحل فى الصحراء تلك الرحلة الدائبة ، ومعها العشائر ، طلباً للآبار ومساقط الغيث والكلأ . وهو تصوير للتصوير فحسب ، فليس فيه وصف حب ، إلا ما قد يأتى عفواً أو عرضاً كالبيت الرابع من هذه القطعة ، وكان حريّاً به أن يقف ليصور جمال هؤلاء النساء وأثره فى نفسه وفى الشباب من حوله غير أن ذلك لم يكن يعنيه ، إنما كان يعنيه الوصف للوصف ، فهو يصور قدرته الفنية لا عواطفه ولا مشاعره ، ومن غير شك كان يحسن الوصف والتصوير لا بما يسوقه من صور بيانية فحسب ، بل بما يعمد إليه من رسم دقائق المنظر الذى يصفه وبما يبت فيه من حياة وحركة .

ولزهير هجاء فى بعض القبائل التى كانت تُغير على عشيرته ، وخاصة فى الحارث بن ورفاء أحد بنى أسد الذى أغار على قبيلته ونهب غلامه يَسَاراً وبعض أمواله ، وهو فيما صحَّ من هذا الهجاء لا يوغل فى الإقذاع وهتك الأعراض إيفال أستاذه أوس والجاهليين من حوله ، بل يُبقي على مهجوة وعلى نفسه، عامداً إلى السخرية كقوله فى عشيرة حِصْن من بنى عُلَيْم الكلبين :

وما أدرى وسوف إخالُ أدرى أقومُ آلُ حِصْنٍ أم نساء
فإن تُكُنَّ النساءُ مَحْبَبَاتٍ فحقُّ لكلِّ مُحْصَنَةٍ هَذَا^(١)

فهن نساء خُبُتْنَ فى الخلدور ، وينبغى أن يزوّجن . وهى سخرية مرة ، تحمل كل ما يريد من وصفهم بالجن . وكان يجد فى مثلها ما يكفيه عن الإقذاع المفحش . وكأنما كان الإقذاع لا يتفق ووقاره ، فتحاشاه ، بينما كان أستاذه أوس من جهة وتلميذه الخطيئة من جهة ثانية يقذعان فيه ، وقد استعار منه تلميذه هذه الأداة أداة السخرية فأشاعها فى أهاجيه على شاكلة قوله المشهور فى الزبرقان ابن بلر :

دَعِ المَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا واقعدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي
فجعل مروهته لا تبلغ به إلا أن يأكل ويلبس . وليس بين أيدينا رثاء مأثور
صحيح لزهير .

ولم نتحدث حتى الآن عن أهم الموضوعات التي تتجلى فيها براعة زهير ودقة فنه
في التصوير ، ونقصه وصف الوحش والصيد ، وقد أشاد القدماء كثيراً ببراعة
أستاذه أوس في هذا الباب^(١) ، ووقفوا عند معان وصور اقتبسها منه زهير ، ولكن
من الحق أنه نَمَى هذا الموضوع ، بحيث يعد في الطليعة من شعراء الجاهلية في
وصف الوحش والصيد . وكأني به كان يخبرُ اللغة خبرة أوسع من خبرة أستاذه ، وكان
له خيال دقيق ساعده على تجسيم الصور وتمثيل الحيوان بكل ما يتصل به من منظر
وهيئة وحركة ، وهو يعرض علينا ذلك تارة في بيت أو أبيات قليلة ، وتارة في قطع
كبيرة ، وكأننا إزاء شريط يُعرَض في دار من دور الخيالة ، واقرأ له هذا البيت
في معلقته يصف رسوم دار صاحبه ، وقد ألمَّ بها بعد عشرين عاماً ، فلم يجد بها
إلا بقر الوحش والظباء ، يقول :

بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً وَأَطْلَاوُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْتَمٍ^(٢)
وهو بيت واحد ، ولكنه عرف كيف يعرض علينا منظر البقر والظباء في
بعض مواضع البادية عرضاً كاملاً إذ نتمثلها وهي تمشي في جهات متضادة ،
وأطلاؤها أو أولادها تنتثر هنا وهناك ، ناهضة من كل موضع . وانظر إليه يصور
ناقته بظلم في بيتين ، يودعهما وصفاً دقيقاً له إذ يعرض هيئته وسرعة حركته وذعره
الدائم وانطلاقه المستمر في الصحراء كأنه مجنون لا يلقى على شيء ، يقول :

كَانَ الرَّحْلَ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ مِنَ الظَّلْمَانِ جُوجُوهُ هَوَاءٍ^(٣)
أَصْلَكَ مُصْلَمَ الْأُذُنَيْنِ أَجْنَى لَهُ بِالسَّيِّ تَنُومٌ وَأَاءٍ^(٤)

جمع ظلم . الجوجو : الصدر . هواء : فارغ .
(٤) أصك : مقارب المرقوين . مصلم :
مقطوع . أجنى من الجنا ، وهو إدراك الثَّارِ
ونفضها . السى : موضع . التنوم والآء :
أشجار البادية .

(١) خزافة الأدب للبغدادى ٢/٢٣٥ .
(٢) العين : بقر الوحش ، والأرام : الظباء
البيضاء . خلفة : من جهات متضادة . الأطلاء :
أولاد الوحش . مجتم : مريض .
(٣) الصعل : صغير الرأس . الظلمان :

وتلك صورة كاملة للظلم أو ذكر النعام فهو صغير الرأس متقارب العرقوين ليس لأذنيه حجم . وهو ليس ظليماً صغيراً فقد أدرك ، وهو هناك يرمى في السَّيِّء بعض أشجار البادية . وماذا بقى من هيئة الظلم ؟ إنه لم يبق شيء إلا سرعته وحركته الدائبة ، وهو بصورها تصويراً دقيقاً في قوله « جَوْجُوهُ هَوَاء » فصلده فارغ كأنما لا قلب أو لا عقل له ، فهو يعتسف الصحراء اعتساف مجنون يسرع في العدو هرباً من كل شبح ، فلا يكاد يقف . ولما تمت له هذه الصورة بتفاصيلها الدقيقة الجسمية والنفسية انتقل يصور ناقته في سرعتها بحمار وحش يسوق أنه سوفاً عنيفاً ليرد بها ماء ، وهو لا يغفل عنها ، وهي خاضعة لمشيئته ، يدعوها في كل فجر فتجيب ، وصَوَّرَ هذا الدعاء تصويراً بديعاً ، فقال :

كَأَنَّ سَجِيلَهُ فِي كُلِّ فَجْرِ عَلَى أَحْسَاءٍ يَمْشُودُ دُعَاءُ^(١)
فهو ينادى أنه كل صباح كى يرد بها الحياض والمناهل ، وهى تلبّيه . وكأنه يرسم بذلك صورة عشيرة تتبع شيخها حين يدعوها . وقرأ له هذه القطعة الطويلة في وصف النبات والمطر والفرس والصيد فستلقاتك خصائصه في التصوير مجمعة :

وغيثٌ من الوسميِّ حَوْ تِلَاعُهُ
هبطتُ بَمَمْسُودِ النواشِرِ سابِحِ
تَمِيمِ فَلَوْنَاهُ فَأَكْمَلِ صُنْعُهُ
أَمِينِ شَطَاهُ لَمْ يُخْرِقْ صِفَاقُهُ
إِذَا مَا غَدُونَا نَبْتَغِي الصَّيْدَ مَرَّةً
أَجَابَتْ رَوَابِيهِ النَّجَاءَ هَوَاطِلُهُ^(٢)
مَمْرٌ أَسِيلِ الْخَدِّ نَهْدٍ مَرَاكِلُهُ^(٣)
فَتَمَّ وَعَزَّتْهُ يَدَاهُ وَكَاهَلُهُ^(٤)
يَمْنَقِبُهُ وَلَمْ تَقْطَعْ أَبَاجِلُهُ^(٥)
مَتَى نَرُهُ فَلِنَا لَا نُخَاتِلُهُ^(٦)

يريد أنه غشم الجوف .
(٤) تميم : تام الحلقة . فلوناه : فطنناه .
عزته : قوته .
(٥) أمين : قوى . شطاه : عظامه اللاصقة بالذراع . الصفاق : الحلدة الباطنة وراء البشرة ، لم يخرق بمنقبة : لم يداو بآلة يطار . الأباجل : عروق في اليد .
(٦) لا نخاتله : لا نأخذه بالخديعة .

(١) السجيل : نهيق الحمار . يمشود : موضع . الأحساء : جمع حصى ، وهو الموضع كثير المياه .
(٢) الغيث : المطر . الوسمي : أول الغيث . حو : سوداء . تلاحه : مسايله ، وهى سوداء لسواد أطراف النبات . النجاء : المرتفعة .
(٣) النواشر : حصب الذراع . ممسود : مفتول : مم : يحكم الخلق . أسيل : ناهم . نهدي : غشم . المراكل : مواضع ركل الفارس من الفرس

فبينما نَبَغَى الصَّيْدَ جَاءَ غلامنا
فقال : شِيبَاهُ راتعاتُ بِقَفْرَةٍ
ثلاثُ كَأَقْوَاسِ السَّراءِ وَمَسْحَلُ
وقد خَرَمَ الطُّرَّادُ عَنْهُ جِحَاشُهُ
فقال : أَمِيرِي مَا تَرَى رَأَى مَا نَرَى
فَبِتْنَا عُرَاةً عِنْدَ رَأْسِ جَوادنا
وَنَضْرِبُهُ حَتَّى اطمأنَّ قَدَّالُهُ
وَمُلْجِمُنَا مَا إِنْ يَنَالُ قَدَّالُهُ
فَلَأَيًّا بِلأَيِّ مَا حَمَلْنَا وَلِيدنا
فقلت له : سَدِّذْ وَأَبْصِرْ طَرِيقَهُ
وقلت : تَعَلَّمْ أَنْ لِلصَّيْدِ غِرَّةً
فَتَبِعَ آثَارَ الشَّيْءِ وَلَيْسَ دُنَا
نَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةً فَرَأَيْتُهُ
يُثْرِنُ الحَصَا فِي وَجْهِهِ وَهُوَ لَاحِقُ

يَدِبُ وَيُخْفِي شَخْصَهُ وَيُضَائِلُهُ (١)
بِمُسْتَأْسِدِ الْقُرْيَانِ حَوْ مَسَائِلُهُ (٢)
قد اخضرَّ من لَسِّ الغَمِيرِ جَحَافِلُهُ (٣)
فلم تَبَقْ إِلَّا نَفْسُهُ وَحَلَالَتُهُ (٤)
أَنخَلَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ أَمْ نُصَاوَلُهُ (٥)
يُزَاوِلُنَا عَنْ نَفْسِهِ وَنَزَاوَلُهُ (٦)
ولم يطمئنَّ قَلْبُهُ وَخَصَائِلُهُ (٧)
ولا قَدَمَاهُ الْأَرْضَ إِلَّا أَنَامَلُهُ
على ظَهْرِ مَحْبُوكٍ ظِمَاءُ مَفَاصِلُهُ (٨)
وما هُوَ فِيهِ عَنْ وَصَائِي شَاغِلُهُ
وَالْأُتُصِيْعُهَا فَإِنَّكَ قَاتِلُهُ (٩)
كَشُوبُوبٍ غَيْثٍ يَحْفَشُ الْأَكْمَ وَابِلُهُ (١٠)
على كُلِّ حَالٍ مَرَّةً هُوَ حَامِلُهُ (١١)
سِرَاعُ تَوَالِيهِ صِيَابُ أَوَائِلُهُ (١٢)

- (١) نَبَغَى : تَبَغَى وَنَطَلَبَ . يَدِبُ : يَمْشِي
رَاجِلًا بَهِيمَةً . يَضَائِلُ : يَصْنُرُ .
(٢) الشَّيْءُ هُنَا : الْأَتْنُ . الْقُرْيَانُ : مَجَارَى
الْمَاءِ . مُسْتَأْسِدُ النَّبْتِ : مَا طَالَ مِنْهُ . حَوْ :
سِوَاهُ .
(٣) السَّراءُ : شَجَرٌ تَصْنَعُ مِنْهُ الْقَمِي .
الْمَسْحَلُ : حِمَارُ الرَّحْشِ . جَحَافِلُهُ : شِفَاهُهُ .
الْغَمِيرُ : نَبْتٌ . لَهُ : أَكَلَهُ .
(٤) خَرَمَ : فَقَرَ وَأَبْعَدَ . حَلَالَتُهُ :
زَوْجَاتُهُ مِنَ الْأَتْنِ .
(٥) نَخَلَتُهُ : نَخَذَعَهُ . نُصَاوَلُهُ : نَجَاهَرَهُ .
(٦) عُرَاةٌ : فِي أَرْضٍ عَارِيَةٍ مِنَ الشَّجَرِ .
وَقِيلَ عُرَاةٌ مِنَ الْعُرُورَاءِ : وَهِيَ الرِّعْدَةُ عِنْدَ الْحَرَصِ .

- يَزَاوِلُنَا : يَدْقُمُنَا لَشِدَّةِ نَشَاطِهِ .
(٧) الْقَدَّالُ : مُؤَخِّرُ الرَّأْسِ . خَصَائِلُهُ :
لَحْمُ النَّصَبِ .
(٨) مَحْبُوكٌ : مَتْنٌ . ظِمَاءُ مَفَاصِلِهِ : قَلِيلَةُ
الْحَلِيمِ لَا تَرْتَهِّلُ .
(٩) الْغِرَّةُ : الْغَفْلَةُ .
(١٠) الشُّوبُوبُ : الْدَفْعَةُ مِنَ الْمَطَرِ . يَحْفَشُ
يَمْلَأُ .
(١١) يَقُولُ إِنْ الْفَرَسَ كَانَ يَحْمِلُ فِي كُلِّ
حَالٍ الْغَلَامَ ، يَحْمِلُهُ عَلَى الطَّمَعِ وَعَلَى الْيَأْسِ .
(١٢) التَّوَالِي : الْأَوَاخِرُ يَرِيدُ الرَّجُلَيْنِ وَالْعَجْزِ .
وَيَقْصِدُ بِأَوَائِلِهِ يَدِيهِ وَصَدْرَهُ . وَصِيَابُ : سِرَاعُ .

فرد علينا العير من دون إلفه على رَغْمه يَدْنَى نَسَاهُ وفائله^(١) وهو في مسهل هذه الأبيات يصف مطراً يتساقط على بعض المرتفعات والوهاد ، وقد انتشر فيها النبات الضارب إلى السواد ، وهو يقبل مع بعض رفاقه على فرس محكم الخلق ، فُطِمَ منذ عهد قريب ، فهو أشد ما يكون قوة ، لم يصبه مرض ولا علة . ويعرض علينا هيئته وخلقه كاملة . وسنراه بعد قليل بصور أحاسيسه وهواجسه ، فتكتمل صورتيه الجسدية والنفسية . ويستطرد إلى وصف الصيد فيذكر أن غلامه الذي ذهب يستطلع الحيوانات الوحشية في الصحراء جاء يلبّ ويخفي شخصه ويضائله . وبهذه العبارة الموجزة رسمه لنا رسماً دقيقاً ، رسم حركته وسيره وأنه كان يحاول أن يخفي شخصه حتى لا تفرح الوحوش . وأخبرهم أنه رأى غير بعيد ثلاث أتنٍ وحشية ، وهي ضامرة كأقواس السَّراء ، ومعها حمارها وقد أقبل على الطعام من النبات حتى اخضرت مشافره . واخضرار المشافر لمسة من لمسات زهير الذي كان يبتغي الدقة في التصوير بما يعطى من ألوان الأشياء وما يذكر من تفاصيلها . وينتقل فيحدثنا أنهم باتوا يروضون الجواد ، حتى كان الصباح ، فألجمه الغلام ، وهو لا يكاد يطوله لضخامته . وزهير يوصيه كيف يتبع فريسته . ويبدع زهير في هذا الجزء من وصفه ، فهم منذ أخبرهم الغلام بخبر الصيد مفزعون لشدة ما هم فيه من حرص على طلب الصيد والحصول عليه ، وقد أحس الجواد ما هم فيه وما ينتظره في الصباح الباكر ، فأخذته الخوف من جميع أطرافه ، فهو يجاهدهم وهم يجاهدونه ويضربونه ، حتى اطمأن وأمكنهم منه ، غير أن قلبه وأعصابه لم تطمئن ، فلا يزال يستحوذ عليه الفزع والخوف الشديد . ولم يكن الغلام من هذه الحالة النفسية غير بعيد ، فقد كان زهير يوصيه كيف يطارد الصيد وهو في شغل عنه بمخاوفه وما ينتظره في تلك المعركة . وزهير بهذا كله يعد مصوراً بازعاً ، إذ يصور الهيئات الجسدية والأحوال النفسية فيما يصفه ، وكأنما كانت له عين كبيرة تعرف كيف تلتقط قسما الجسد وسرائر النفس ، لانفس الإنسان وحده بل أيضاً نفس الحيوان وما يلم بهما جميعاً من وساوس وهواجس . وقد مضى يصور مطاردة الغلام — ولعله غلامه يسار — للآتن وحمارها وكيف انصب عليها كأنه شروب

(١) العير : حمار الوحش . والنسا والقاتل : عوقان .

أو صاعقة من السماء ، وهي تثير الحصى في وجه فرسه ، والفرس لا يثنى عنها حتى أفرد الحمار من دون صواحبه وصاده الغلام ، وجاء به جريحاً تنزف دماؤه .

وواضح أن زهيراً استم في هذا الوصف الدقيق كل براعته سواء من حيث توشيته بالتشبيهات ، أو من حيث ملؤه بالحياة والحركة الجسدية والنفسية . وله قطعة لا تقل عن هذه القطعة جمالاً وروعة في قصيدته الدالية التي رواها المفضل الضبي ، وفيها يصف بقرة وحشية شبه بها ناقته في سرعتها ، ومضى يستكمل وصفها مستطرداً إلى مطاردة الصائد لها بينما تفرس السباع أحد أفلاذ كبدها ، يقول :

كَخَنَسَاءِ سَفْعَاءِ الْمَلَاطِمِ حُرَّةٌ مُسَافِرَةٌ مَزْمُودَةٌ أُمَّ فَرْقَدٍ (١)
غَدَتْ بِسِلَاحٍ مِثْلُهُ يُتَّقَى بِهِ وَيُؤْمِنُ جَأَشُ الْخَائِفِ الْمُتَوَحِّدِ (٢)
وَسَامِعَتَيْنِ تَعْرِفُ الْعِتْقَ فِيهِمَا إِلَى جِذْرِ مَذْلُوكِ الْكَعُوبِ مَحْدَدِ (٣)
وَنَاطِرَتَيْنِ تَطْحَرَانِ قَذَاهُمَا كَأَنَّهُمَا مَكْحُولَتَانِ بِإِثْمِدِ (٤)
طَبَاها ضَحَاءٌ أَوْ خَلَاءٌ فَخَالَفَتْ إِلَيْهِ السَّبَاعُ فِي كِنَاسٍ وَمَرْقَدِ (٥)
أَضَاعَتْ فَلَمْ تُغْفَرْ لَهَا غَفْلَاتُهَا فَلَاقَتْ بَيَاناً عِنْدَ آخِرِ مَعْهَدِ (٦)
دَمًا عِنْدَ شِلْوٍ تَحْجِلُ الطَّيْرُ حَوْلَهُ وَبَضْعَ لِحَامٍ فِي إِهَابٍ مَقْسَدِ (٧)

(٤) ناظرَتَيْنِ : عينين . تطحران قذاهما : نرمان به وتغنيانه . الإثمِد : كحل أسود .

(٥) طباهها : دعاها . ضحاه : رعى الضحى . خلأه : خلوا المكان . فخالفت إليه السباع : أي اختلفت إلى ولد البقرة . الكناس : بيت في الشجر تستتر فيه البقر أو تستر أولادها من الحر والبرد .

(٦) أضاعت : تركت ولدها وغفلت عنه . البيان : ما امتنائه عند ما رجعت ووجدت يقايا ولدها من بعض الجلود والحم والدماء . آخر معهد : آخر موضع تركته فيه .

(٧) الشلو : بقية الجسد . البضع : جمع بضعة وهي القطعة . الإهاب : الجلد . المقدد : المشقق المخرق .

(١) الخنساء : بقرة الوحش سميت بذلك لتأخر أنفها ومثلها الظباء لأنها جميعاً فطس خنس . سفعاء الملاطم : السفع سواد في حمرة . والملاطم : الخدان . مزمودة : مذعورة ، مسافرة : ترحل من موضع إلى موضع . الفرقد : ولد البقرة .

(٢) يريد زهير بالسلاح قرني البقرة . الجأش : الصدر . المتوحد : الوحيد المنفرد .

(٣) سامعتين : أذنين . العتق : الأصالة . ومعرفة العتق كناية عن أنهما محدثتان متصبتان . إلى جذر : إلى هنا بمعنى مع ، والجذر : الأصل . مذكوك : أملتس . والكعوب : جمع كعب وهو ما بين المقدتين في القرن . وزهير يريد بالشرط الثاني وصف قرننها بأنها أملتسان محدد الرأس .

وتنفض عنها غيب كل خميلة
فجالت على وحشيها وكأنها
ولم تدر وشك البين حتى رأتهم
وثاروا بها من جانبيها كليهما
تبدأ الألى يأتينها من ورائها
فأنقذها من غمرة الموت أنها
نجاء مجد ليس فيه وتيرة
وجدت فألقت بينهن وبينها
بملثمات كالخذاريق قوبلت
وزهير يستهل حديثه عن البقرة بوصفها الجسد والنفسى فى خنساء فى
خروجها حمرة مشربة بسواد ، وهى طليقة فى الصحراء ترحل من موضع إلى موضع مذعورة
فقد خلفت ولدا لها فى كناس ، وهى تخشى عليه من السبع والإنسان . ولأنها لشاكية
السلاح ، كأنها معدة خلقة لكفاح أعدائها ونزالهم ، فقد برز لها قرنان وإنهما حريان
بأن يقياها الخطر ويؤمننا وحدتها وخوفها ، إذ هما محددان ألسان كأنهما السيوف
القاطعة ، ومن ورائها أذنان ترهف بهما السمع خشية العدو المفاجئ وباصرتان

- (١) تنفض : تنظر هل ترى ما تكره .
الخميعة : الرملة بها شجر . الفوث : قبيلة
من طي تشهر برماها وقناصها .
(٢) جالت : ذهبت وجاءت . الوحشى :
الحانب الذى لا يركب منه وهو الأيمن يريد
أنها مالت على عطفها الأيمن . مسربة :
لايسة سربالا وهو القميص . الرازق : ثوب
أبيض . معضد : مخطط .
(٣) وشك البين : سرعتة ، والبين هنا :
فقدنا لولدها . الأنفاق : الطرق والمساك .
(٤) يحشمنها الشد : يكلفنها العدو ويحملنها
عليه . تجهد : تسرع وتجهد .
- (٥) تبد : تسبق . تصطد : تضرب بقرنها
ما يتقدمها من الكلاب .
(٦) تنظر النبل : يريد زهير تنتظر
أصحابها وهم الرماة . تقصد : تقتل .
(٧) النجاء : سرعة العدو . الوتيرة :
التلبث والانتظار . تذيبها : دقاعها . الأعم :
الأسود . المود : قرنها الذى تلود به عن نفسها .
(٨) جدت : أسرع فى العدو . البواخن :
جمع دخان . الفرق : شجر .
(٩) الملتثمات هنا : القوائم شبيها بالخذاريق .
إلى جوشن : مع صدر . خاظى الطريقة :
مكتنز العلم فى أعلى الصدر . مست : مرتفع .

سوداوان كأنهما مكحولتان تحدُّ بهما النظر إلى ما حولهما .

وعلى هذا النحو يعرض علينا زهير تلك البقرة بهيئة جسدها وهيئة نفسها ،
لنستعد إلى ماسيفجؤها من كوارث . وهو يثبت هيئتها في نفوسنا بما يصوره من
تفاصيل جسدها ولون خديها وعينيها . ولا يلبث أن يصور لنا فاجعها في ولدها ،
وقد أعدنا لذلك منذ البيت الأول ، فهي مسافرة ، مسرعة في العودة ، وقد أخذها
الذعر . لقد خرجت تطلب الرى والرعى ، وعادوها الحنين إلى ولدها ، بل عادوها
الخوف الشديد ، وكأنها تعرف أنها تركته وراءها للسباع ، وعادت وبالهول ما رأت ،
لقد رأت بقايا ابنها من أشلاء وجلود ودماء ، والطير تحجل حوله ، فأخذها الحزن
الشديد . إن أملها في الحياة فقدته . وقد عادت تجرى في الصحراء مذعورة تتلفت
يميناً وشمالاً تنظر هل هناك ما تخشاه ، وإنها لتخشى رماة عشيرة الغوث الذين
تعودوا أن يطاردوها بسهامهم وكلابهم من كل مرصد ، ومرت على جانبيها الأيمن ،
كأنها تظنه أكثر أمناً ، وهى تراءى في لونها الأبيض وقوائمها المخططة كأنها الثوب
الناصع الجميل ، ولم تكن تدرى أن الموت يرصدها ، حتى رأت رأى العين رماة
الغوث ، وقد أخذوا عليها جميع الطرق والمسالك ، وأرسلوا عليها كلاب الصيد ،
فولت مسرعة ، والكلاب تلاحقها وهى تارة تسبق أوائلها ، وتارة تلاحقها الكلاب
فتنوشها بقربنها ، وما زالت تعدو حتى أفلتت من غمرة الموت يسعفها قرنبا الأسود
وما أثارته بينها وبين الكلاب من غبار كأنه الدخان . ويصور زهير سرعة قوائمها
وخفة حركتها بخذاريص الصبيان التى يديرونها دوراناً سريعاً بخيوط يشدونها إلى
أيديهم ، وقد سبقه امرؤ القيس إلى هذه الصورة فى وصف سرعة فرسه ، إذ قال
فيه كما مرَّ فى غير هذا الموضع :

دريـر كـخـذروـف الوليد أمره تقلُّب كـفِّه بخيـط مُوصِّل
وقد حاول زهير أن يضيف زيادة جديدة فجعل القوائم ملتئات متناسقات
كما جعلها متقابلات ، فهى كخذاريص لا كخذروف واحد ، يقابل بعضها بعضاً .
والحق أننا نحس إزاء زهير أنه استوفى كل ما كان ينتظر الشاعر الجاهلى من
براعة فى التصوير . وكان يحفّ هذه البراعة بضروب من الوقار تتضح فى مدائحه
وأهاجيه وغزلياته جميعاً ، فهو يحتفظ بكرامته دائماً ، ولعل ذلك ما جعله ينفر من

الخمر والميسر كما قلنا في غير هذا الموضع . وقرأ مدائح وأنعى النظر فيها فستراه
يمثل لك في هَرَمٍ والحارث بن أبي عَوْفٍ وحِصْن بن حذيفة صورة السيد الفاضل ،
لا من حيث الشجاعة والكرم فحسب ، بل أيضاً من حيث الحلم والعفو عن المسيء
في العشيرة والدفع بالمعروف من القول والحذب على الفقراء وتجنب الفواحش والآثام .
واقترنت هذه الصورة المثالية للسيد الفاضل في شعره بكثير من الحكم والدعوة إلى
مكارم الأخلاق . وقد ذيل المعلقة بطائفة من الأبيات التي تذهب هذا المذهب ،
وقدنا أن الأصمعي كان يشك فيها ويقول إنها لشاعر أنصاري يسمى صِرْمَة ،
ويظهر أن حِكْمًا له اختلطت بحكم لهذا الشاعر ، ونستطيع أن نفرد منها له مثل قوله :
وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزُّجَاجِ فَإِنَّهُ يَطِيعُ الْعَوَالِي رُكِبَتْ كُلُّ لَهْدَمٍ (١)

فإن هذا البيت يتفق وما لاحظناه عنده من ميله إلى إخراج أفكاره ومعانيه في
صور متلاحقة . فقد أراد أن يقول من أبي الصلح لم يكن له بد من الحرب ، فلم
يقبل ذلك مباشرة ، بل ذهب يبحث عن صورة تمثل الصلح عندهم ، وسرعان
ما لمعت في خياله عادة كانت معروفة لديهم ، وهي أن يستقبلوا أعداءهم إذا أرادوا
الصلح بأزجة الرماح ، ومن ثم قال « ومن يعص أطراف الزجاج » يريد « ومن لا يطع
الدعوة إلى الصلح والسلام » ومضى يمثل الدخول في الحرب بإطاعة أسنة الرماح
والسيوف . وفكرة البيت متصلة بالمعلقة وما تدعو إليه من السلام والاستجابة
إلى الصلح . وقد تكون الأبيات التي تتصل بفكرة الحياة والموت صحيحة النسبة إلى
زهير لأنها تتصل كالبيت السابق بموضوع القصيدة ، كقوله :

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشَوَاءَ مِنْ تُصِبُّ تُمِتُّهُ وَمَنْ تُخْطِي يُعَمَّرُ فِيهِمْ

وفي البيت أيضاً صورة بديعة ، إذ يشبه الموت بناقة عشواء لا تبصر طريقها ،
فهى تخبط الطريق خبطاً أعمى ليس له نظام ولا قياس . والتفكير في الحياة والموت
يكثر عند زهير كقوله في إحدى قصائده لهرم :

رفع كموب الرماح كناية عن الصلح والمسألة
إذ كانت تلك عاداتهم في الجاهلية .

(١) الزجاج : جمع زج وهو الحديدية في
أسفل الرمح . والعوالى : سنان السيوف والرماح .
اللهزم : السنان القاطع . وواضح أنه جمل

تزوّد إلى يوم المماتِ فإنه ولو كرهته النفس آخرُ موعدٍ
وإذا أخذنا نقرأ في أشعاره لقيتنا فيها حِكَم كثيرة ، وهو ينثرها نثراً خلال
الموضوعات المختلفة التي يلم بها ، فمن ذلك قوله :

وكنْتُ إذا ما جئت يوماً لحاجةٍ مضت وأجمتُ ، حاجةُ الغدِ ما تخلو^(١)
وقوله الذي أنشدناه :

وهل يُنبِت الخطيَّ إلا وشيجهُ وتغرُس إلا في منابتها النخلُ
وقوله :

كذلك خيمهم ، ولكل قومٍ إذا مسّهم الضراءُ خيم^(٢)
وقوله الذي أنشدناه :

فلو كان حمدٌ يخلد الناس لم تمّت ولكنّ حمدَ الناس ليس بمخلدٍ
وقوله :

فإن الحقَّ مقطّعه ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جلاء^(٣)
وكان عمر بن الخطاب يُعجّب بهذا البيت ويتعجب من صحة القسمة فيه ،
ويقول : لو أدركته لوليته القضاء لحسن معرفته ودقة حكمه^(٤) .

ولعل في كل ما قلنا ما يوضح مكانة زهير في الشعر الجاهلي ، فقد كان
شاعراً من طراز ممتاز ، شاعراً له نظراته في الحياة والأخلاق ، وهو إلى ذلك شاعر
مصور يحسن أدوات صناعته من جميع وجوهها ، فقد تمرّس بنماذج أوُس وغيره
من فحول الجاهلية ، ولم يكد ينظم أشعاره حتى ذاع اسمه في القبائل ، فالتسه
بعض الشبان يتعلمون عليه هذه الصناعة الدقيقة التي يحسنها إلى أبعد حدٍّ ، ونبيغ

(٣) النِفار : المنافرة إلى شيوخ القبائل
الحكم . الجلاء : انكشاف الأمر .

(٤) الصناعتين للمسكّر (طبعة عيسى
الحلبي) ص ٣٤٢ .

(١) مضت وأجمت : مضت حاجة الأُمس
ودنت حاجة الغد . ما تخلو : يريد : لا يخلو
المروء من حاجة ، فحاجة من عاش لا تنقضي .
(٢) الخيم : الشيمة والخلق .

منهم الخطيئة ، ولقّن الشعر ولديه بُعْجِيْرًا وكعبًا ، وطار صيت الأخير في العصر
التالى عصر المخضرمين .

نحن إذن بإزاء شاعر ممتاز خبّر صناعة الشعر الجاهلى وعرف أساليبها ، واستطاع
أن يؤدّى أجمل صورة لها فى لفظه وقواله وصيغه ، وقد لاحظ القدماء ذلك وعبروا
عنه عبارات مختلفة ، فقالوا إنه كان يصنع قصائده الطويلة فى حول كامل وإنه
صنع سبع حَوَلِيَّات^(١) ، وَيَنْسَبُ الجاحظ هذا القول إلى زهير نفسه ، فيقول :
« كان زهير بن أبى سلمى يسمى كبار قصائده الحوليات ، ولذلك قال الخطيئة :
خير الشعر الحولى المحكك (يقصد شعر أستاذه وشعره) وقال الأصمعى : زهير بن
أبى سلمى والخطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، وكذلك كل من جود فى شعره ووقف
عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يُخْرِجَ أبيات القصيدة كلها مستوية فى
الجودة^(٢) » . وعلق الجاحظ على صنعة زهير وشعره فى موضع آخر ، فيقول :
« من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا (كاملا)
وزمنا طويلا يردّد فيها نظره ويحيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه ، إنهما لعقله وتبعاً على
نفسه ، فيجعل عقله زمناً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفافاً على أدبه ،
وإحرازاً لما خوّله الله من نعمته ، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات
والمُنْقَحَات والمحكمات ، ليصير قائلها فحلاً حينئذٍ (تاماً) وشاعراً مقلداً^(٣) » .

وسواء سمى زهير قصائده الطويلة بالحوليات أو سماها الرواة بهذا الاسم فإن
هذه التسمية تدل على مدى ما أحس به القدماء تلقاء مطولاته ، فقد أحسوا فيها
بجهد شديد ، وتصوروا أن هذا الجهد يستنفد آماداً بعيدة من الزمن ، وتخليوها
حولاً كاملاً ، ومضوا يسمون زهيراً والخطيئة وأضرابهما عبيد الشعر لما شعروا عندهم من
طول الثِّقَاف والتنقيح والتجويد والتجبير ، وكأنهم يُلغون حريتهم وإرادتهم ، فهم
عبيد فن الشعر ، يخضعون لإرادته الفنية وما يُطَوّى فى هذه الإرادة من تنسيق محكم
للألفاظ والصّيغ . ويظهر أن زهيراً كان يُعرَفُ بذلك من قديم ، فهم يروون عن
عمر بن الخطّاب أنه كان يقول : « زهير شاعر الشعراء لأنه كان لا يعاظم فى

والترجمة والنشر (١٣/٢) .

(٣) المصدر نفسه ٩/٢ .

(١) الخصائص لابن جنى (طبع دار الكتب

المصرية) ١/٣٢٤ .

(٢) البيان والتبيين (طبع لجنة التأليف

الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه^(١). والمعاظلة بين الكلام المداخلة فيه بحيث لا ينضد نضداً مستوياً. والحق أن صياغة زهير تستوفى حظوظاً بديعة من صفاء التعبير ونقائه وخلوصه من الأدران التي قد تؤذيه، وارجع إلى القطع التي أنشدناها له في المديح، فإنك ستجدها متوهجة، وما ذلك إلا من دقة التعبير وصقله إلى أبعد غاية وصل إليها شاعر جاهلي، والذي لا ريب فيه أنه كان يستولى على لغته ويسيطر عليها ويجمع منها خير ما فيها من ألفاظ وكلمات، وما يزال ينسّقها حتى تترأى كأنها عقود من الجواهر. وعلى نحو ما كان يستوفى حظوظاً مختلفة من الجمال في عباراته وصيغته كان يستوفى ضرورياً من الإتقان والكمال في موسيقاه، فليس فيها نشاز من إقواء وليس فيها اجتلاب قافية وإكراهها على إحلالها في أماكنها، فقوافيه تتمكن في مواضعها، ومهما ضاق عليه هذا الموضع نفذ منه على أجمل صورة، وانظر إلى قوله في معلقته:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عمي
فقد وصل إلى القافية، فوجد نفسه مضيقاً عليه، ولم يلبث أن نفذ إلى كلمة «عمي» فتمم البيت في غير عسر ولا مشقة. ومن ذلك قوله:

هم يضرّبون حبّيك البيّض إذ لحقوا لا ينكصون إذا ما استلجموا وحموا^(٢)
فقد نفذ من الدرب الضيق في القافية، بما جاء به من كلمة «حموا» ولم ينفذ فحسب، فقد استخدم كلمة تتناسق في حروفها مع الفعل السابق لها، فهي كلمة من نفس أسرتها، وهو ما يعبر عنه علماء البيان العربي باسم الجناس، وله أمثلة مختلفة في شعره كقوله الذي أنشدناه:

كأن عيني وقد سال السليل بهم وجيرة ما هم لو أنهم أمم
فقد جانس بين سال والليل، وتعلق بحرف الميم في ألفاظ الشطر الثاني، فأحدث بينها تلاوفاً واضحاً. ومن أمثلة الجناس عنده:

وقد قلنا إن نذكرك السّلم واسعاً بمالٍ ومعروف من القول نسلم

(١) أغاني ٢٨٩/١٠. عوذهم في الحرب. استلجموا: من التلاصق والخالطة في القتال. حموا: اشتد غضبهم.
(٢) حبّيك البيّض: طرائقه. البيّض:

وقوله :

تَقِيُّ نَقِيٍّ لَمْ يُكْثَرْ غَنِيمَةً بنهكة ذى القُرْبَى ولا يَحْقَلِدُ^(١)
وعلى نحو ما كان يستخدم الجناس كان يستخدم الطباق ، وله أمثلة كثيرة
عنده كقوله الذى أنشدناه فى وصفه للظعن :

جَعَلَ الْقَنَانَ عَنْ يَمِينٍ وَحَزَنَهُ وَمَنْ بِالْقَنَانِ مِنْ مُجِلٍّ وَمُخْرِمٍ

وقوله :

يَمِينَا لَنَعْمَ السَّيْدَانِ وَجَدْتُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمٍ

وقوله :

وَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَلَمَى سَيْنِيًّا ثَمَانِيًّا عَلَى صَبْرٍ أَمْرٍ مَا يَمُرُّ وَمَا يَحْلُو^(٢)

وقوله الذى أنشدناه :

لَيْثٌ بَعَثَ بِصَطَادِ الرِّجَالِ إِذَا مَا كَذَّبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا

على أن زهيراً إنما كان يستخدم الطباق والجناس من حين إلى حين فهما ليسا
لونين فاقعين فى شعره ، إنما اللون الفاقع فى شعره هو التصوير ، إذ كان يودعه كل
مهارته ، وكان يأبى أن يُخرج كثيراً من أبياته إلا وروشيها به ، بحيث لا نبعد إذا
قلنا إنه شاعر التصوير فى الجاهلية ، ومن ثمَّ كثرت عنده التشبيهات والاستعارات
كثرة مفرطة ، وكان يسغف به خيال متوثب متبهي ليخرج من جديد ما سمعه من
أستاذه أوس وغيره ، وليضيف إلى ذلك ثروة من عنده . ثروة خيالية تنعقد
فيها مشابهاة كثيرة بين الأشياء ، وهى مشابهاة من شأنها أن تجعلنا نحس بأننا
ندخل معه فى عالم خيالى حالم ، وخاصة حين تلقانا استعاراته وما يملؤها به من
أشباح وأرواح ، فإننا نستشف معه كثيراً من الأشياء وعلاقاتها بعضها ببعض ، كما
نستشف الجمال فى داخلها ونشعر بغير قليل من المتاع .

أقربائه ، وليس ببخيل لثم .
(٢) صبر أمر : منتهاه وما يصير إليه .

(١) النهكة : الإصرار . الحقلد : البخيل
السيء الخلق ، يقول إنه لا يكثر ماله بظلم

وارجع إلى ما عرضناه من أشعاره فستجد التشبيهات تراكم فيها ، وستراه دائماً حين يفكر في شيء يلعب في ذهنه نظيره ، محاولاً أن يربط بين الشبيه والشبيه بعلاقة لا تنفصم . وهى علاقات تنتقل بينها معجبين ، بل هى مشاهد تجلب لنا البهجة والمسرة ، إذ كان يعرف كيف يأتى منها بالنادر الطريف على شاكلة قوله الذى أنشدناه فى وصفه للظعن وقصدها إلى غايتها :

بُكَرْنَ بُكُوراً وَاسْتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ فَمَنْ لَوَادَى الرَّسَّ كَالِيدِ لِلْفَمِ

وليس كل ما يلاحظ عنده كثرة التشبيهات ولا وقوعه على نوادرها ، بل لعل أهم ما يلاحظ أنه يعنى بتفصيل التشبيه إذ لا يزال يلج على الصورة التى يعرضها ، وكأنه يريد أن يستوفىها بجميع دقائقها وتفصيلها استيفاءً ، كقوله فى وصف بعض صواحيبه :

تَنَازَعَهَا الْمَهَا شَبَهَا وَدُرُّ الدُّ حُورٍ وَشَاكَهَتْ فِيهَا الظُّبَاءُ^(١)

فَأَمَّا مَا قُوِيَ الْعِقْدُ مِنْهَا فَمَنْ أَدْمَاءُ ، مَرْتَعُهَا الْخَلَاءُ^(٢)

وَأَمَّا الْمُقْلَتَانِ فَمِنْ مَهَا وَلِلدَّرِّ الْمَلَاةُ وَالصَّفَاءُ

فهو لا يشبه صاحبه ببقر الوحش والدر والظباء تشبيهاً عاماً ويمضى ، بل يعود إلى تفصيل تشبيهه ، فهى تشبه الظباء فى جيدها الطويل الجميل وبقر الوحش فى سواد عينيها الفاتنتين والدر فى ملاحته وصفائه وإمانته وبهائه .

وإذا كان زهير أتقن لون التشبيه من حيث كثرة الصور والتعمق فيها والإلحاح عليها بالتفاصيل فإنه أتقن لون الاستعارة إتقاناً لعل شاعراً جاهلياً لم يبلغ مبلغه فيه ، وارجع إلى معلقته وإلى صور الحرب التى أنشدناها فإنك تجد الاستعارات فيها تتلاحق ، فالجرب أسد ضار ، بل هى نار مشتعلة ، بل هى رحي تطحن الناس ، بل هى ناقة تنتج غلمان شؤم ، بل هى أرض مغلّة غلة قبيحة ليس فيها منافع للناس إنما فيها الموت الزؤام . وقد مثل - كما مرّ بنا - حياة العرب فى حروبهم الدائرة وما يتخللها من فترات راحة بصورة قوم يرعون مراعى وخيمة ، حتى

(١) المها : بقر الوحش . شاكته :

(٢) الأدماء : الظبية البيضاء . الخلاه :

الموضع الخالى .

إذا أخذهم الظمأ الشديد وردوا على مياه وخيمة ، بل على دماء مسفوحة . ونراه في نفس المعلقة يصف شجاعاً ويصوره في صورة أسد فيقول :

لدى أسدٍ شاكى السلاحِ مقْدَفٍ له لِيَدٌ أظْفارُهُ لم تُقَلِّمْ^(١)
وواضح أنه استم في استعارته صورة الأسد بشعره المسترسل على منكبيه وأظفاره المسنونة التي لم تقلِّمْ يوماً والتي إن نشبت في شيء أتت عليه .

ولم يكن زهير يكثر من الاستعارة في شعره فحسب ، بل كان أيضاً يحاول أن يأتي فيها بالصور النادرة الغريبة كقوله في أحد مطالعه :

صَحَا القلبُ عن سَلَمَى وأَقْصَرَ باطِلُهُ وعُرِّيَ أفراسُ الصِّبَا ورَوَّاحِلُهُ^(٢)

وهو في الشطر الأول يقول إن قلبه كفَّ عن حب سلمى ، وقد أراد على طريقته أن يعبر عن هذا المعنى بصورة ، فذهب يتخيل ، وبعد به خياله ، فإذا هو يتصور أسباب حبه وصبوته التي كان دائماً يلزمها أفراساً ورواحل يركبها إلى صاحبته ، وكان طريقه إليها مشغولاً دائماً بهذه الرواحل والأفراس . وقد انتهى اليوم كل شيء ، فقد انصرف عن سلمى وحبا ، ولم تعد تشغله أسباب صبوته القديمة . وهي صورة بعيدة لا تقع إلا في ذهن يكثر من التخيل والإغراق في التصور ، ذهن يتعمق في الأشياء والمعاني ، حتى يتخيلها أحياء حقيقية .

وأكبر الظن أننا لا نغلو إذا قلنا إن زهيراً كان شاعراً مصوراً ، فالتصوير أساس فنه ، وكأنما تحول عقله إلى آلة لاقطة ، وهي ليست آلة فوتوغرافية ، بل هي آلة خالقة ، آلة تفكر في الأشياء من خلال أشياء أخرى فتعقد ما لا يحصى من مشابهات ومشاكلات ، وما تلبث أن تتمثل فيما يقع تحت حسها أشباحاً وأطياناً تراعى لها واضحة تمام الوضوح .

ومهما تحدثنا في هذا الجانب فلن نستطيع أن نوفى زهيراً حقه من بيان مقدراته التصويرية ، وكأنى به كان الثمرة النهائية للجهود الفنية التي أودعها الجاهليون أشعارهم ، فهو من جهة قد صقل أسلوبه إلى أبعد غاية من الصقل ، ومن جهة ثانية

(٢) أقصر : كف . الأفراس : جمع فرس . الرواحل : الإبل .

(١) شاكى السلاح : تام السلاح . مقْدَفٍ : غليظ اللحم . ليد الأسد : ما تلبذ على كتفيه من شعر .

عُتِيَ بموسيقاه وألحانه عناية واسعة بحيث لا يبدو فيها أى شذوذ ، ومن جهة ثالثة استتمَّ فن التصوير بفرعيه من التشبيه والاستعارة .

وكل هذه ألوان جمال تُعْجَبُ بها عند زهير ، فهو شاعر الجمال ، وهو شاعر الحقيقة بحكمه ، وهو شاعر الخير بدعوته إلى السلام وبما رسمه للفضيلة من مُثل فيمن ملّحهم ، حتى ليُرَوَى أن عمر بن الخطاب استمع إلى بعض قطعه المتألقة في مديح هرم ، فقال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١)

والحق أنه يصور مثلاً جيداً من أمثلة الشعر الجاهلي ، فقد انتهى عنده هذا الشعر إلى صورة رفيعة للخير والحق والجمال ، وكان ما يزال يجهد نفسه في رسم خطوط هذه الصورة لإجهاداً عبّر عنه القدماء بأنه حَوَلِيّ صاحب حويلات ، وهل يمكن أن نتصوره محققاً لهذه البراعة التي وصفناها بدون جهد عنيف كان يستنفد منه آماداً طويلة من الزمن ؟ إن كل جانب في شعره يدفعنا دفْعاً إلى الإيمان بأنه كان يعاني طويلاً في صنع قصائده وما يتخلده لها من هذا الإطار الفني الدقيق .

الفصل العاشر

الأعشى

١

قبيلته

ينتسب الأعشى إلى قبيلة بكر بن وائل الكبيرة التي كانت تمتد فروعها وبطونها في شرق الجزيرة من وادي الفرات إلى اليمامة . ومن أهم هذه الفروع والبطون شيبان ويشكر وجشم وعجل ، ثم حنيفة وقيس بن ثعلبة وكانتا تنزلان في اليمامة ، وتنشعب قيس شعباً أهمها مالك بن ضبيصة ومن عشائرهم بنو عبّيدان وبنو كعب ، وربيعة ابن ضبيصة ومن بيوتاتهم بنو جحشدر ، وسعد بن ضبيصة وإليهم ينتمى الأعشى .

وتاريخ عشيرة بني سعد بن ضبيصة في العصر الجاهلي يندمج في تاريخ قبيلتها الكبيرة ، فقد وقفت معها في حروب البسوس التي ظلت أربعين عاماً ، كما وقفت معها في يوم الكلاب ، ودخلت معها بعد هذا اليوم فيما دخلت فيه من الولاء للمناذرة وطالما نصرتهم في حروبهم مع الغساسنة . ولما طلب كسرى أبرويز النعمان بن المنذر احتجى هو وأسرته ببني شيبان إحدى قبائل بكر وخلف عند سيدهم هاني بن قبيصة الشيباني أولاده وسلاحه الذي يقال إنه بلغ نحو ألف درع . وقتل كسرى النعمان كما مرّ في غير هذا الموضع وولى على الخيرة إياس بن قبيصة الطائي ، فثارت شيبان وقبائل بكر ضده وأخذت جموعهما تغير على سواد العراق ، فاضطر كسرى أن ينازلها ، ودارت على جيوشه الدوائر في يوم ذي قار المشهور الذي انتصر فيه العرب على الفرس ، وقد اختلف المؤرخون في توقيت تاريخه ^(١) .

ولم تشترك قيس بن ثعلبة في هذه الحروب وحدها ، فقد أسهمت مع بني حنيفة

الأثير ٢٩٠/١ والمقد الفريد ١١١/٦ .
وراجع معجم ما استعجم للبكري ومعجم البلدان
لياقوت في « ذي قار » .

(١) انظر في يوم ذي قار الأغاني (طبعة
السامي) ١٣٢/٢٠ والطبري (طبعة دي غويه)
١٠١٥/١ ، ١٠٢٨/١ وما بعدها ، وابن

وغيرها من البكرين في حروب ضد تميم وغيرها من القبائل . وقد تقع حروب ومناوشات داخلية بين عشائرها ، مثلها مثل بقية العشائر في الجاهلية إذ كانت كثيراً ما تنشب بينها خلافات تؤدي إلى بعض الدماء . ويظهر أنها على الرغم من استقرارها في اليمامة وسكنائها بعض القرى مثل « منقوحة » كانت تنزع إلى حياة البداوة وما يتصل بها من رعى الإبل والغنم ، ولعل ذلك ما جعل الأعشى يهجو إباداً في بعض شعره بأنها تعتمد على الزراعة يقول (١) :

لسنا كمن جعلت إباد دارها تكررت تنظر حبها أن يُحصداً
جعل الإله طعامنا في مالنا رزقاً تضمته لنا لن ينفداً (٢)
مثل الهضاب جزارةً لسيوفنا فإذا تراع فإنها لن تطرداً (٣)
صميت لنا أعجازهن قدورنا وضروعن لنا الصريح الأجرداً (٤)

وواضح أنه يصرح بأن إباد تعتمد على الزراعة والحصاد ، أما هم فما لهم الإبل التي لا تنفد ، وهي إبل ضخمة كالهضاب ، يعقرونها لضيوفهم ، ولا يلم بها من يروعها أو يغير عليها خوفاً من بسالتهم ، وهي تملأ قدورهم بلحمها وبيوتهم باللبانها .

وعلى العكس كان أبناء عمومته من بني حنيفة أكثر استقراراً ، وقد اتخلوا الحجر قصبة لهم ، وكان سيدهم في أواخر العصر الجاهلي هوذة بن علي ، وكان يحمي القوافل الفارسية في طريقها إلى اليمن ، ولعله من أجل ذلك وقف بعيداً بقبيلته عن يوم ذي قار ، فلم تشرك فيها . وأغلب الظن أن هذه القبيلة لم تعتمد على الرعي وحده شأن قبيلة الأعشى ، بل كانت تعتمد أيضاً على الزراعة ، فكانت نصف حضرية . وقد شاعت فيها النصرانية ، أما قيس بن ثعلبة فظلت في جبلتها وثنية تعبد الأصنام . وليس هذا كله ما بينهما من خلاف ، فبينما حنيفة لا يُعرفُ

(١) ديوان الأعشى طيبة جابر . القصيدة

رقم ٣٤ ، الأبيات : ٣٣ وما بعده .

(٢) المال هنا : الإبل .

(٣) جزارة : مصدر جزره أى ذبحه ومنه

يسمى البعير جزوراً .

(٤) الصريح : الابن الخالص . الأجر :

الصافي .

لها شاعر مذكور في الجاهلية^(١) إذا قيس كثيرة الشعر والشعراء ، وقد يكون ذلك بسبب بدواة قيس وكثرة الحروب التي عانتها ، يقول ابن سلام : « وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء . والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عُمان^(٢) » ونقول أيضاً إنه الذي قلل شعر حنيفة في الإمامة .

أما قيس بن ثعلبة فقد كانت كثيرة الحروب ، فكانت تغير ويُنْغَار عليها ، وفي أثناء ذلك ينشد لها شعراؤها القصائد والأناشيد الحمّسة ، فما الشعر فيها وازدهر ، وقد اشتهر فيها غير شاعر من مثل المرقش الأكبر والمرقش الأصغر والمتلمّس وابن أخته طرفة والمسيّب بن عكس . وقد أنشدنا في غير هذا الموضع قطعة طرفة في المعلقة التي يصور فيها فتوته وأنه ينفق حياته في الكرم والحرب والنساء والخمر . ونجد هذه الروح في شعر المرقشين ، كما نجد عندهما غزلا خفيفاً رقيقاً ، ولكل منهما قصة عشق مأثورة .

٢

حياته

عاش الأعشى في أواخر العصر الجاهلي ، وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته ، وكل ما يقوله الرواة أنه وُلد بمنفوحة في الإمامة وأن أباه كان يلقب بقتيل الجوع « لأنه دخل غاراً يستظل فيه من الحرّ ، ف وقعت صخرة عظيمة من الجبل ، فسدت فم الغار ، فمات فيه جوعاً ، وفي ذلك يقول جُهْنَام يهجو ، وكانا يتهاجيان :

أَبُوكَ قَتِيلُ الْجُوعِ قَيْسُ بْنُ جَنْدَلٍ وَخَالَكَ عَبْدٌ مِنْ خُمَاعَةَ رَاضِعٌ^(٣)

وخُمَاعَةُ — فيما يظهر — جدُّ بعيد لأمه ، وهي أخت المسيّب بن عكس ، وعنه حَمَل الشعر الأعشى ، إذ كان راويته ، ولا شك في أنه روى لغيره من شعراء قبيلته ، فهو امتداد لهم جميعاً .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٠٨/٩ .

(١) ابن سلام ص ٢٣٤ .

(٢) ابن سلام ص ٢١٧ .

واسم الأعشى ميمون ، وإنما سمي الأعشى لضعف بصره ، ومن أجل ذلك كان يكنى بأبي بصير^(١) . وإذا كنا لا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته فإنه يتبين لنا من أخباره ومن اسمه « صَنَاجَة »^(٢) العرب أنه انتقل بالشعر الجاهلي نقلة ، فإن كلمة صَنَاجَة تعني أنه كان يتغنى بشعره ، ويبالغون في ذلك حتى يجعلوا كسرى يستمع لبعض غنائه فيه^(٣) ! !

وتدلّ أخباره وأشعاره على أنه كان كثير التنقل والأسفار البعيدة في أنحاء الجزيرة يمدح سادتها وأشرفها ، وفي ديوانه مديح للأسود بن المنذر وأخيه النعمان وإياس بن قبيصة الطائي وإلى الحيرة من بعده ، ويظهر أنه كان يقيم بها كثيراً . وفيه أيضاً مديح لقيس بن معديكرب الكندي ولسلامة ذى فائش أحد أمراء اليمن ولبنى عبد المطلب بن الديان سادة نجران وطوذة بن علي سيد بني حنيفة . وكان يقد على سوق عكاظ ، ويمدح من يمرّ به في طريقه إليها من شيوخ العرب وأشرفهم^(٤) .

ولا يكتفى الرواة بما يدل عليه شعره من الرحلة إلى الحيرة واليمن وديار كندة في حضرموت ونَجْرَان وعكاظ بل يذهبون به إلى الفرس وُثْمَان وبلاد الشام متغلغلا فيها إلى حمص وأورشليم (بيت المقدس) ويجتازون به البحر إلى نجاشي الحبشة ، ويُجْرُونَ على لسانه شعراً يتحدث فيه عن هذه الرحلات البعيدة ، فيقول^(٥) :

وَقَدْ طُفْتُ لِلْمَالِ آفَاقَهُ عُمَانَ فَحِمَصَ فَأُورِشَلِيمَ
أَتَيْتُ النَجَاشِيَّ فِي أَرْضِهِ وَأَرْضَ النَّبِيطِ وَأَرْضَ الْعَجَمِ

وأكبر الظن أنه لم يصنع شيئاً من ذلك وأنه إنما اقتصر في أسفاره ورحلاته على أطراف اليمن ونجد والحيرة يمدح شيوخ العرب وسادتهم . ووقع — كما يقول الرواة — في بعض رحلاته بديار بني عامر ومعه هداياه من بعض ممدوحيه ، فخشي على نفسه وعلى هداياه ، فاستجار بعلقمة بن علاتة ، فقال له قد أجرتك ، فقال له الأعشى من الجن والإنس ؟ قال : نعم ، قال الأعشى : ومن الموت ،

(١) ذهب ابن قتيبة إلى أنه كان أعمى .

انظر الشعر والشعراء (طبع دار المعارف) ٢١٢/١ .

(٢) أغاني ١٠٩/٩ .

(٣) أغاني ١١٥/٩ والشعر والشعراء ٢١٤/١ .

(٤) أغاني ١١٣/٩ وما بعدها .

(٥) ديوانه القصيدة رقم ٤ وقارن بالقصيدة

رقم ٦٣ .

فقال : لا . وتمضى القصة فتذكر أن علقمة كان قد اختلف مع ابن عمه عامر ابن الطَّمَيْل على سيادة القبيلة ، وتنافرا منافرة حادة ، اشترك فيها كثير من الشعراء ، فكان مع علقمة مروان بن سُرَاقَة والحطيئة ومع عامر لبيد الشاعر المشهور . ولما لم يُجِزْ علقمة الأعشى من الموت أتى عامر بن الطفيل فقال له : أجزيتني قال : قد أجزرتك ، قال : من الجن والإنس ؟ قال : نعم . قال : ومن الموت قال : نعم . قال : وكيف تجبرني من الموت ؟ قال : إن مت وأنت في جوارى بعثت إلى أهلك الدية ، فقال : الآن علمت أنك قد أجزيتني من الموت . فمدح عامراً وهجا علقمة^(١) .

والأعشى في شعره لا يعيش لمديح السادة والأشراف وأخذ نواهم فحسب ، بل هو يعيش أيضاً لقبيلته ومنازعاتها الكثيرة مع بكر ضد الفرس ، ففي ديوانه مطولة يهددهم فيها ويتوعدهم كما يتوعد من يقف معهم من العرب مثل إياد^(٢) ، وهو يعيش كذلك في منازعات قبيلته مع بني شيبان ، فيتعرض بالوعيد والتهديد ليزيد بن مُسَهَّر الشيباني ، على نحو ما تصور ذلك معلقته . فلماذا حدثت منازعات صغرى بين عشيرته وأبناء عمومته من عشائر قيس بن ثعلبة ناصرها ذاكراً ما بينهم وبينها من أواصر الرحم ، على نحو ما نرى في قصائده التي وجهها إلى بني جَحْدَر وبني عَبْدَان . وقد اصطدم عند الأخيرين بشاعرهم جُهْنَم ، فهاجبا طويلاً .

ويقال إنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم وانتصاراته وانتشار دعوته رغب في الوفود عليه ومديحه ، وعلمت قريش بذلك فتعرضت له تمنعه ، وكان مما قاله له أبو سفيان بن حَرْب : إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك ، وكلُّها بك رافق ولك موافق ، قال : وما هن ؟ فقال أبو سفيان : الزنا والقمار والرِّبَا والخمر . فعدل عن وجهته ، وأهدته قريش مائة من الإبل ، فأخذها وانطلق إلى بلده معرضاً عن الرسول ودعوته ، فلما كان بقاع منفوحة رى به بعيره ، فقتله^(٣) سنة ٦٢٩ للميلاد . وهذه الخلال التي ذكرها أبو سفيان والتي جعلته يصدّ عن لقاء الرسول الكريم تدل على أنه كان وثيقاً مغرماً في وثنيته ، وفي شعره نفسه ما يصور معالم هذه الوثنية ،

(٢) الديوان ، القصيدة رقم ٣٤ .
(٣) أغاني ١٢٥/٩ وما بعدها والشعر والشعراء ٢١٢/١ .

(١) انظر في هذه المنافرة وصلة الأعشى بها الأغاني (طبعة السامي) ٥٥/١٥ وديوان الأعشى ص ١٦٥ .

إذ نراه كثير الحديث عن القيان مثل هُرَيْرَة وَقُتَيْبَة وَجُبَيْرَة ، بل إنه ليتحدث عن البغايا اللاتي يبعن أعراضهن^(١) ، ويقرنه ابن سلام في هذا الصدد بامرئ القيس فيقول : « وكان من الشعراء من يتأله في جاهليته ويتعفف في شعره ولا يستهر بالفواحش . . ومنهم من كان يتعهر ولا يبقى على نفسه ولا يتستر ، منهم امرؤ القيس ومنهم الأعشى^(٢) » . وقد تمدح في شعره كثيراً بالقمار كقوله مفتخراً بعشيرته^(٣) :

من شبابٍ تراهُم غير ميلٍ وكهولاً مرَّاجِحاً أخلاماً^(٤)

ولقد تُصَلِّقُ القِدَاحُ على الذَّنْبِ يب إذا كان يَسْرُهُنَّ غَرَاماً^(٥)

فهم يضربون قداح الميسر على النوق الضخمة التي يتأبى غيرهم أن يضربها عليها اعتزازاً بها . أما الخمر فهو أكبر شاعر تغنى بها في الجاهلية .

وطبيعي لمن تكون حياته على هذا النحو من المحن والإثم فيه أن يكون وثيقاً متعمقاً في وثنيته وأن لا يعتنق الإسلام ولا غير الإسلام من الأديان السماوية ، وقد زعم لويس شيخوانه كان نصرانياً ، وشاركه في هذا الزعم بعض المستشرقين مستدلين على ذلك بأنه كان يمدح أساقفة نجران ويتصل بالبيثات المسيحية في الحيرة ويمثل قوله في القصيدة رقم أربع وثلاثين :

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يَكْدُرُ نِعْمَةً وَإِذَا يَنَاشِدُ بِالْمَهَارِقِ أَنْشَدَا

والمهاري هنا الصحف الدينية . فكأنه يعترف بأنه نصراني ، ترتل لربه الأناشيد الكنسية ، غير أن هذا ليس حتماً ، فقد تكون لدى الوثنيين من الجاهليين مهاري كانوا يتلون فيها بعض أدعيتهم ، وقد يكون البيت دخيلاً على القصيدة ، وسنعرف بعد قليل أن راوي ديوانه كان مسيحياً ، وأغلب الظن أنه هو الذي أدخل هذا البيت في القصيدة ، كما أدخل في قصيدة أخرى قسّمه بالمسيح في قوله^(٦) :

راجعى العقول .

(٥) تصلق: تضرب. النيب: الإبل الكبيرة.

الميسر: القمار.

(٦) انظر الديوان ، القصيدة رقم ٢٣

البيت ١٦ .

(١) الديوان ، القصيدة رقم ٢٢ .

(٢) ابن سلام ص ٣٤ ويستهر في الفواحش :

يتبيح بذكرها ويفصح عما حقه أن يكتم .

(٣) الديوان ، القصيدة رقم ٣٨ .

(٤) ميل : جمع أميل وهو الجبان . مراجحاً :

وإني ورب الساجدين عَشِيَّةً وما صَكَ ناقوس النصرى أبيلها^(١)

وقد جعله في قصيدة ثالثة يقسم براهب اللج ، بل بثوبه^(٢) . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن القصيدتين جميعاً موضوعتان فقد كان الأعشى وثنياً غالباً في وثنيته ، كما تدل على ذلك خلاله التي وصفناها في شعره ، وأيضاً أقسامه الوثنية التي رواها نفس هذا الراوى المسيحى ، إذ نراه يقسم بالكواكب والنجوم^(٣) ، كما يقسم بالكعبة التي يحج إليها العرب وبما يهدون إليها من القرابين في مثل قوله^(٤) :

إني لعمر الذى خطت مناسمها تخلى ويسيق إليه الباقر الغيل^(٥)

والحق أنه لم يكن نصرانياً ، إنما كان وثنياً على دين آبائه ، وقد احتفظ في وثنيته بكل ما كان فيها من لثم وفجور .

٣

ديوانه

للأعشى ديوان كبير نشره جابر في لندن^(٦) سنة ١٩٢٨ وقد اعتمد في نشره على مخطوطة في الإسكوريال برواية ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ للهجرة ثم مخطوطة دار الكتب المصرية ونسختين نقلتا عنها في استراسبورج وزاخو ، ومخطوطة في باريس وأخرى في لندن . وأضاف إلى الديوان ملحقين بما وجده من شعر الأعشى في كتب الأدب وما وجده من أشعار لمن لقبوا بالأعشى وهم كثيرون .

وكان اعتماده الأساسى على مخطوطة الإسكوريال ، لأنها برواية ثعلب ، وعلى الرغم من أنها تنقص أوراقاً من نهايتها تحتفظ للأعشى بسبع وسبعين قصيدة ومقطوعة . وقد أضاف إليها خمس قصائد من المخطوطات الخمس الأخرى ، وجميعها تتفق في رواية خمس عشرة قصيدة له . كما تتفق في أنها مجهولة النسب . ولذلك لا يمكن الاعتماد

جمع منم وهو طرف الحف . تخلى :
تسرع في السير مع اضطراب . الباقر : اسم
جمع البقر . الغيل : جمع غويل وهو الكثير .
(٦) شرح محمد حسين هذا الديوان ونشره
بمكتبة الآداب بالقاهرة سنة ١٩٥٠ .

(١) صك : ضرب . الأيل : الراهب .

(٢) القصيدة رقم ١٥ البيت ٤٤ .

(٣) القصيدة رقم ٢٧ البيت ١٨ .

(٤) القصيدة رقم ٦ البيت ٦٢ .

(٥) خطت : شقت التراب . المتاسم :

على هذه المخطوطات وأغلب الظن أنها مختارات جُمعت من نسخة ثعلب ، وليس رواية مقابلة لها . وقد صورت دار الكتب المصرية مخطوطة من المكتبة المتوكلية اليمنية بها ست وأربعون قصيدة ومقطوعة للأعشى ، ويفجؤنا كاتبها في فاتحتها بأن هذا كتاب فيه من شعر الأعشى ، فهي لا تتضمن ديوانه إنما تتضمن مختارات منه ، وهي مختارات تدل على أنها جُمعت من نفس الرواية الكوفية ، وإن كنا نجد فيها قصائد غير مثبتة في رواية ثعلب ، ولكن هذا لا يقوم دليلاً على أنها لم تشتق من روايته ، فروايتة التي نشرها جابر كما قدمنا غير كاملة ، إذ تنقص بعض أوراق . ومعنى ذلك أننا نفتقد في شعر الأعشى الرواية البصرية ، فما عدا القصيدتين رقم ١١٦ ، فقد نصَّ شارح الديوان على أن أبا عبيدة قرأ الأولى على أبي عمرو بن العلاء وأن الأصمعي سمع أبا عمرو ينشد الثانية حفظاً ، ونصَّ الشارح أيضاً على أن القصائد ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٦ برواية أبي عمرو ، وظن جابر — كما ذكر في مقدمته — أنه أبو عمرو بن العلاء ، وليس بصحيح إنما هو أبو عمرو الشيباني ، فهو الذي كانت تُروى عنه الدواوين ، وهو رواية كوفي ينقل عنه السكري وثعلب وأصراهما من رواة الدواوين . على أن الشارح نصَّ في القصائد ١ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ أنها من رواية أبي عبيدة البصري ، وإن كنا نلاحظ أن القدماء شكوا في القصيدة رقم ٦٠ وقالوا إنها لابن دأب^(١) . على كل حال ليس بين أيدينا رواية بصرية كاملة للديوان ، إنما بين أيدينا رواية كوفية فيها إشارات إلى بعض ما تضمنته الرواية البصرية .

فإذا لاحظنا أن الرواية الكوفية للشعر الجاهلي غير دقيقة وأنها تزيد فيه كما لاحظنا سابقاً في دواوين امرئ القيس والنابعة وزهير كان من الواجب ألا نقبل روايتها للديوان الأعشى دون احتياط واحتراس شديد ، وقد تصادف أن روايته الذي حملته عنه وأذاعه في الناس كان نصرانياً معمرًا هو يحيى^(٢) أويونس بن متى وأن هذا الراوي من الممكن أن يكون قد عبث بالديوان فأدخل فيه ما ليس منه ، ليزيد بعض المعاني المسيحية ، وقد روي عنه أنه كان يقول : « كان الأعشى قنَدَرِيًّا إذ يقول :

استأثرَ اللهُ بالوفاء وبإل عَدَل ووَلَّى الملامةَ الرُّجُلَا

(٢) الأغاني ١١٢/٩ ومصادر الشعر الجاهلي ص ٢٣٨ .

(١) الديوان ص ٢٠٧ .

فسأله سائل : من أين أخذ الأعشى قوله ومذهبه فأجاب : « من قبيل العباديين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشتري منهم الخمر ، فلقنوه ذلك ^(١) » .
 وبيعد أن يكون الأعشى حقاً قد تغلغل نظره كل هذا التغلغل ، فإذا هو يقول بالقدر وأن الإنسان حُرٌّ في تصرفاته ، ولا يكتفى بذلك ، بل يقول بالعدل على الله كما تقول المعتزلة ، والمعقول أن يكون يحجي هو الذى وضع البيت ، بل لقد شك ابن قتيبة في القصيدة جميعها ، وقال بعد أن روى طائفة من أبياتها هذا شعر منحول ^(٢) . وينبغى أن نشك كما شك ابن قتيبة في قصائد الأعشى الأخرى التى تصور أفكاراً مسيحية أو أفكاراً إسلامية ، أما الأفكار المسيحية فلأن راويه الذى نشره نصراني ، وأما الثانية فلأنها معان جديدة لم تعرفها الجاهلية ، لا هى ولا كل ما يتصل بها من ألفاظ القرآن وأساليبه . ويصور ذلك تصويراً واضحاً قصيدته رقم ١٧ التى قالوا إنه مدح بها الرسول صلوات الله عليه ، مع أنه — كما قدمنا — لم يلقه وصدته قريش عن لقائه ، وبمجرد أن نقرأ القصيدة وقوله فيها :

إذا أنت لم تَرَحَّلْ بزادٍ من التَّقَى	ولا قَبِيتَ بعد الموت من قد تزودا
نَدِمْتَ على أن لا تكون كمثلِهِ	وأنت لم تُرْصِدْ لما كان أرْصِداً ^(٣)
فإياك والْمِثْنَاتِ لا تأْكُلْنَهَا	ولا تأخِذْنَ سهماً حليداً لِتَفْصِداً ^(٤)
وذا النُّصْبِ المنصوبِ لا تَنْسُكُنْهُ	ولا تَعْبُدِ الأوثانَ والله فاعْبُدَا ^(٥)
وَصَلِّ على حَبِيبِ العشِيَّاتِ والضُّحَى	ولا تحمِدِ الشَّيْطَانَ والله فاحمِداً
ولا السائلَ المحرومَ لا تتركْنَهُ	لعاقبةٍ ولا الأسيرَ المقيداً
ولا تَسْخَرَنَّ من بائِسٍ ذى ضِراةٍ	ولا تحسبنَ المرءَ يوماً مَخْلُداً ^(٦)
ولا تقربنَ جارةً إنَّ سِرَّها	عليك حرامٌ فانكِحْنَ أوتابداً ^(٧)

الكعبة ويقدمونها أو هى الأوثان .
 (٦) الضراة : ذهاب البصر أو النقص فى النفس والأموال .
 (٧) السرهنا : البقع . النكاح : الزواج .
 التأبد : البعد عن النساء والتعزب .

(١) الأغاني ١١٣/٩ وما بعدها .
 (٢) الشعر والشعراء (طبعة دارالمعارف) ص ١٤ .
 (٣) أرصد : أعد وهباً .
 (٤) يشير إلى أنه لا بد من الذبح كما تقضى تعاليم الإسلام .
 (٥) النصب : حجارة كانوا ينصبونها حول

نعرف نواً أنها موضوعة ، لا لأنه فيها يدعو إلى تعاليم إسلامية فحسب ، بل لأنه ينظم فيها آيات قرآنية من مثل قوله تعالى : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وقد نظم في البيتين الثالث والرابع قوله تعالى : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ المَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) أما في البيت الخامس فنظم قوله تبارك وتعالى : (واذكر ربك كثيراً وَسَبِّحْ بِالْعُشَى وَالْإِبْكَارِ) . ونظم في البيت السادس قوله جلَّ وعز : (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . وفي البيت السابع نظم قوله جلَّ ذكره : (يا أيها الذين آمنوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ) أما البيت الثامن فنظم فيه مثل قوله تعالى : (وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) وقوله : (وَلَيْسَتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ لَا يَحْلِلُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) .

وواضح من هذا كله أن القصيدة منتحلة ، وهي لا تتفق في شيء ونفسية الأعشى ، وما كان لسمع القرآن ويؤمن بتعاليمه على هذا النحو ، ثم ينصرف عن رسوله الكريم وهديه . ونحن لا نشك فقط في هذه القصيدة ، بل نشك كذلك في القصائد الأخرى التي تردّد معاني الإسلام ومثاليته الخلقية أو تردد بعض المعاني المسيحية . وبهذا القياس نهم قصيدته رقم ٥ لقوله فيها يمدح قيس بن معد يكرب الكندي :

وما أَيْبُلُ عَلَى هَيْكَلٍ بَنَاهُ وَصَلَّبَ فِيهِ وَصَارَا^(١)
يُرَاوِجُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِكِ طَوْرًا سَجُودًا وَطَوْرًا جُورًا^(٢)
بِأَعْظَمِ مِنْهُ تُقَى فِي الْحِسَابِ إِذَا النَّسَمَاتُ نَفَضْنَ الْغُبَارَا

وواضح أنه يصفه بالتقوى وأنه يراقب ربه ، ويقول إن الراهب الذي يصلب له في هيكله ويصلي له ساجداً ويتضرع ليس أعظم منه تقوى وخشية ، حين تهب الريح اللينة نافضة للغبار . وقد نظم منتحلها قوله تعالى : « فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » فقال :

عطاء الإله فإن الإله يسمع في الغامضات السرا

صور الصليب بيده . صار : سكن .
(٢) الجوار : التضرع بالدعاء .

(١) أيبيل : راهب . الهيكل : موضع في
صدر الكنيسة توضع فيه القرابين . صلب :

ومثلها القصيدة رقم ١٥ التي أنشد فيها منتحلها قسمة بثوبى راهب اللج فقال :

وإني وثوبى راهب اللج والتي بناها قُصَى والمُضاض بن جُرهم^(١)
 وحققاً أنه أضاف إلى ثياب الراهب القسم بالكعبة ، ولكن مما يزيد الشبهة في
 القصيدة أننا نجد فيها هذا البيت ، يهجو به خصمه :

وما جعل الرحمن بيتك في العُلا بأجساد غربي الفناء المحرم^(٢)
 ولم تشع كلمة الرحمن بين الشعراء إلا في الإسلام أخذاً من قوله تعالى :
 (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وقد دارت في القرآن الكريم . ونقف نفس الموقف من
 القصيدة رقم ٢٣ للبيت الذي مر بنا والذي يقسم فيه بالمسيح وضرب الراهب
 للناقوس ، ومما لا شك فيه أن قوله في قصيدة النعمان رقم ٢٨ :

فلا تحسبني كافراً لك نعمة على شهيد شاهد الله فاشهد
 مما يضعفها ، لأنه يلخص فكرة الملائكة الشاهدين المعروفة في الإسلام .
 وقد شك ابن قتيبة في القصيدة رقم ٣٥ وبها بيت القدر الذي أنشده يحيى بن متى
 فيما أسلفنا . وتكاد تكون القصيدة رقم ٦٦ في كثير من أبياتها نظماً لمواد قرآنية على
 هذه الشاكلة :

وربك لا تشرك به إن شركه يحط من الخيرات تلك البواقيا
 بل الله فاعبد لا شريك لوجهه يكن لك فيما تكدح اليوم راعيا
 وقد مضى واضعها يدعو إلى تقوى الله وصلة الرحم وردّ الأمانات إلى أهلها
 والتعفف عن الجارة ، ويقول محمداً من معصية الله : « فإنك لا تخفى على الله
 خافياً » ويقول أيضاً : « كفى بكلام الله عن ذاك ناهياً » . فلاشك في أن هذه القصيدة
 إسلامية . على أنها تلفتتنا إلى شيء مهم ، وهو أن الأعشى أضيفت إليه أشعار
 تذهب مذهب العظة والاعتبار ، ولا نرتاب في أن يحيى بن متى لعب في ذلك

(٢) أجياد : موضع في بطحاء مكة ، والفناء
 المحرم : حرم مكة .

(١) اللج : غدير عند دير هند . ويريد
 بثوبيه أعماله الصالحة . ومعروف أن أمر الكعبة
 كان إلى جرهم ثم صار إلى قصي .

دوراً كبيراً ، وقد تبعه القصاص والوعاظ المسلمون يزيدون في النسيج خيوطاً ، فإذا الأعشى كأنه واعظ من وعاظ الكوفة ، يتحدث إلى الناس حديث عظة عن الدهر وتقلباته والموت وما طوى من الملوك وأسباب ترفهم ونعيمهم ، وكيف يأتي على الناس ، فالكل إلى فناء ، ولا يبقى سوى وجه ربك ذي الجلال والإكرام . ولا يبدو ذلك في قصيدة من ديوانه أو قصيدتين ، بل إنه يجرى في قصائد كثيرة ، وأقرأ قصيدته ذات الرقم ٢ فلأنك ستراه يستلها بالحديث عن حياة الإنسان وما يلقي فيها من العناء والشقاء بالموت وما ينزل به من الأمراض والأحزان ، وكيف أن أحداً لا يستطيع الفرار من المنية ، ويستمر في الحديث عن مات من الملوك الأولين . وفجأة يخرج إلى الحديث عن لذاته . ولعل من الطريف أن القدماء أنكروا القصيدة^(١) . ومثلها القصيدة رقم ٤ وفيها يتحدث عن طوافه في البلاد ، وقد أنشدنا منها فيما مر البيتين اللذين يذكر فيهما أنه زار أورشليم والنجاشي في أرضه ، ولكن ليس هذا هو الذي نقف عنده فحسب ، فقد مضى يتحدث عن قصة حصن الحضرم وتخریب سابور له بجنوده ، ويُنهي قصته تلك بقوله

وفي ذاك للموتى أسوة . ومأرب قفى عليها رَمٌ^(٢)

ويعضى في هذه القصة قصة سد مأرب وخرابه وتشتت حمير في البلاد ، متخذاً من ذلك عظة جديدة . وعلى هذا المثال قصيدته رقم ١٣ وفيها يحدثنا عن زرقاء اليمامة وكيف عصاها أهلها ولم يأتروا بأمرها حين خوفهم جيوشاً قادمة ، هي جيوش حسان تُبْع ، وقدمت الجيوش فجعلت عاليها سافلها وحطمتهم حطماً ، وقد شك القدماء في القصيدة وأنكروها^(٣) . وليس في القصيدة رقم ١٤ ذكر للملوك الأولين ، ولكنها تحمل وصية خلقية بها كثير من الخيوط الإسلامية تجعلها أشبه بموعظة ، إذ لا يعد القريب قريب النسب ، وإنما هو قريب الود والبر ، ويقول إنه ليس عاقباً ولا ذا نعمة ، وإنه لا ينتظر من الناس جزاءه وإنما ينتظره من ربه . ومثل هذه المعاني تجعلنا نشك فيها كما نشك في القصيدة رقم ٣٣ وفيها حديث طويل عن فناء الحياة وأن كل شيء فيها إلى زوال ، فالكل هالك كما هلك ساسان

(٢) الموضع ص ٤٩ .

(١) انظر الموضع للرزباني ص ٤٩ .

(٢) العرم : سيل مشهور .

ملك الفرس ومورق ملك الروم وكسرى شاهنشاه ، وهذا عادياً لم يغنه حصنه بتياء
الذى بناه سليمان ، ويسهب في وصف الحصن ، وكذلك كان أمر النعمان إذ لم
تنفعه أمواله ولا ما كان يُحِبِّي إليه ، فلم يَسْجُجْ من القضاء . ومن هذا النمط نفسه
قصيدته رقم ٣٦ التى يقول فيها :

إِنَّمَا نَحْنُ كَشْيٌ فَاسِدٌ فَإِذَا أَصْلَحَهُ اللَّهُ صَلَحَ

ويحدثنا عن هلاك الملوك الأولين مثل عمرو بن هند حديثاً كله عظة واعتبار ،
فإن الناس هالكون لا محالة ، وكذلك يصنع في قصيدته رقم ٣٩ ، ومثلها رقم ٥٣
أما القصيدة رقم ٥٤ فإنه يتحدث فيها عن قصر ريمان قصر الحميريين الذى تداوله الحبش
والفرس وما أصابه من البلى والخراب . وقد أنكر القدماء نسبة المقطوعة رقم ٥٦^(١)
إليه كما أنكروا أنها رقم ٦٠ وأشارنا إلى ذلك فيما أسلفنا ، وأبيات الأخيرة تختلط
بأبيات القصيدة رقم ٧٢ ولذلك كنا نتهمها هي الأخرى ، وأنكر القدماء القصيدة
رقم ٦٢ وقالوا إنها تختلط بشعر لنايفة بنى شيبان^(٢) . ونراه في القصيدة رقم ٧٩
يدعو لإيباس بن قبيصة أن يعزيه الله جزاء نوح إذ أوحى إليه أن يصنع الفلك
ليعصمه من الطوفان . ونلتقى في نهاية الديوان بالقصيدة رقم ٨٢ وهى تلتقى في بعض
أبياتها بقصيدة رواها المفضل الضبي في المفضليات لعوف بن الأحوص وهى فيها ذات
الرقم ٣٦ ونسب الجاحظ بعض أبياتها في الحيوان إلى مضر^(٣) بن زرة
ابن لقيط .

وليست هذه القصائد وحدها في الديوان هى التى ينبغى أن لا نطمئن إليها ، لما
يدخلها من الوعظ والمعاني الإسلامية والمسيحية ، فقد أضاف إليه الرواة الوضائع
غير قليل من القصائد والأشعار ، ويمكننا معرفة وضعها من عرضها على تقاليد
الشعر الجاهلى وأسلوب الأعشى نفسه في مطولاته التى لا يعثرها الشك . وقد تأخذ
القصيدة شكلاً قصصياً غير مألوف لدى الشعراء الجاهليين . وإذا أخذنا نقرأ في
الديوان على هذه الأسس وجدنا غير قليل من القصائد يستوقفنا ، من ذلك القصيدة
رقم ١٢ لما يصور فيها من قصة عماء وقائده ، وتدل رحلاته الكثيرة أنه كان ضعيف

(٢) الديوان ص ٢٠٨ .

(٣) الحيوان ٧٨/٥ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٦٦/١ وانظر

الديوان ص ٢٠٤ .

البصر ولم يكن مكفوفاً ، ومثلها القصيدة رقم ٢٠ للين أسلوبها وضعفه ، وهو أشبه بأساليب العباسيين . ونراه في القصيدة رقم ٢٥ يسوق في تفصيل قصة السموأل وما كان من إيداع امرئ القيس عنده مائة درع قبل رحيله إلى قبصر وحصار الحارث بن ظالم أو الحارث الغساني له حتى يأخذها وتحصنه منه بحصنه ، ومفاجأته له بأحد أبنائه ، وكان يصطاد ، وقوله له إما أن تسلم الأدرع إلى وإما أن أقتل ابنك ، وأبي السموأل أن يسلم الأمانة وفاءً ، وقتل الحارث ابنه تحت عينه . وهي قصة مشكوك في أصلها ، ويزيدها شكاً في قصيدة الأعشى أنه رواها مفصاة بصورة تدل على أنها موضوعة ، وربما وضعها أحد أولاد السموأل في الإسلام ، ومن أجل ذلك نشك في القطعة رقم ٢٤ التي تقدم لها . وإذا تقدمنا في الديوان وأعدنا النظر في القصيدة رقم ٣٩ التي اتهمناها لما فيها من حديث عن هلاك القرى والأمم لاحظنا أنها تتضمن في نحو عشرين بيتاً قصة غزلية ، يصور لنا فيها كيف بعث لصاحبه رسولا شيطانياً لا يخشى الرقباء ، وكيف تخلص إليها هذا الرسول فتنازعها الحديث مخافتاً ، حتى إذا أنكرته ظل يغويها حتى أسلس له قيادها ، فشاورها متى يأتيها الأعشى وكيف يدخل إليها ، ويحدثنا أنه ألم بها وقد غفل الرقباء ، وبات إلى جنبها لا يفصلهما حجاب ، ويمضى فيصف مبيته عندها وصفاً صريحاً . وليس من ريب في أن هذه القصة تعلن بدورها عن انتحال القصيدة وأنها موضوعة ، ولكن ليس هذا ما نريده ، إنما نريد أن نقول إنه ينبغي أن نشك فيما يجري مجرى هذه القصيدة المتشكلة وقصتها الغزلية . ومن أجل ذلك كنا نشك في القصيدة رقم ٥٢ وخاصة أنها غزل ووصف خالص ، وليس لها موضوع من مديح أو فخر أو هجاء كما تعودنا عنده ، وما يزيدها شكاً فيها استرساله في الخيال مع كل ما يشبه صاحبه به ، وخاصة حين شبه مذاق ريقها بطعم الزنجبيل والتفاح ممزوجين بعسل النحل ، فقد أخذ في وصف من يشتر العسل ويحنيه ، ولم يكن العسل واشتياؤه مما تُعرَفُ به قيس بن ثعلبة في الجاهلية ، إنما كانت تعرف به هذيل . ونقف نفس الموقف من القصيدة رقم ٥٥ لكثرة ما فيها من ألفاظ فارسية ، وكذلك القصيدة رقم ٦٣ لأنها تفتقد الغرض الواضح ، وكأن من نحلوها الأعشى أرادوا بها أن يجرؤوا على لسانه حديثه عن أسفاره البعيدة إلى الغساسنة في الشام وبنى الجلسنداء

في ثمان وغيرهم . وليس في القصيدتين رقمى ٦٤ و ٦٥ غرض واضح إنما فيهما غزل
وخر أو غزل ووصف ، ولذلك كنا نشك فيهما كما نشك في القصيدة رقم ٧٦ ؛
لأنها كما يقول رواها في مديح قيس بن معد يكرب ، وليس له فيها سوى ثلاثة
أبيات في مطلعها ثم تمضى القصيدة في الغزل والخمر ، وهى صورة معكوسة للصورة
الطبيعية عنده ، إذ يبدأ بالغزل ، ثم يطيل في المدح . ونحن نشك أيضاً في
القصيدة التى تليها برقم ٧٧ لا لغزلها الماجن فحسب ، بل لأن هذا الغزل يستنفد منها
٢٤ بيتاً ، ويليه وصف للناقة في ٣ أبيات وفخر لا يتجاوز ٥ أبيات . ومثلها
القصيدة رقم ٧٨ إذ نراه يصور فيها لهوه ومجونه في ٢٢ بيتاً ، ثم يترك للمدح ٥ أبيات .
ومثلهما القصيدة رقم ٨٠ وهى غزل خالص أُودع في أسلوب ركيك . أما القصيدة
رقم ٨١ فاعتذار لعليمة بن عُلانة أجراه الوضعاء على لسانه حتى يمحوا هجاءه
المقذع فيه ، وما كان ليهجوه في قصيدتين مطولتين ويدور هجاؤه له في العرب
ثم يعتذر له بستة أبيات .

وإذا أضفنا إلى هذه القصائد التى شككنا فيها مقطوعاته القصيرة التى لا تتجاوز
أحياناً بيتاً والتى لا نستطيع أن نقيم عليها مراصد نمتحنها بها لقصرها وهى ذوات
الأرقام ٣١ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
٥٠ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ استطعنا
أن ندرس ما بقى له دراسة نظمئن إليها على الأقل بعض الاطمئنان . ولم يبق له
قليل بعد هذا الفحص للديوان ، بل إنه كثير ، إذ يتضمن القصائد ذوات
الأرقام : ١ ، ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ،
٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣ .
على أن أعلاها ثقة هى القصائد ذوات الأرقام ١ ، ٦ ، ١١ ، ٢٩ ، ٣٤ ؛
لأن الشارح أسند الأولى والاثنين الأخيرتين إلى أبى عبيدة كما أسند الثانية والثالثة
إلى أبى عمرو بن العلاء ، فذلك القصائد إذن من رواية البصرة التى نرفعها على
رواية الكوفة في التوثيق . على أننا نقرب صفحاً عما ألحقه جابر ناشر الديوان به من
أبيات وأشعار وجدها تنسب للأعشى في بعض الكتب ، إذ بمجرد النظر فيها
نعرف خطأ نسبتها إليه أو على الأقل خطأ نسبة الكثير الأكثر منها .

شعره

يمتاز الأعشى بكثرة قصائده الطويلة ، كما يمتاز بكثرة تصرفه في فنون الشعر من مديح وهجاء وفخر ووصف وخر وغزل . أما المديح فقد قالوا إنه أول من سأل بالشعر واستجدى بالقريض^(١) واتخذهُ مَسْتَجْسِرًا يطوف به البلاد^(٢) ، وحقاً سبقه غير شاعر إلى المديح كزهير والنابعة ، ولكن أحداً منهم لم يحرص على الاستعطاء وطلب النوال كما حرص الأعشى فقد طاف في أطراف الجزيرة العربية يمدح السادة والأمراء ، ذاكرًا ما يفيضون عليه من الإبل والحياد والإماء وصحاف الفضة وثياب الخز والديباج ، منوهاً في أثناء ذلك بسؤاله لهم ، غير مُسَبِّقٍ على شيء من نفسه . ومعاني المديح عنده لا تفرق عن الملعاني العامة في مدائح الجاهليين ، فهو ما ينسب يمدح بالكرم والشجاعة والوفاء وعَوْنُ الضعفاء في القبيلة ، وكثيراً ما يعرض لجيوش ممدوحه إذا كان أميراً أو شيخاً لقبيلته مصوراً ما تنزله على الأعداء من التقتيل والنكال ، وقد يطيل في وصف ما تشنه من غارات على الأعداء ، وفي تضاعيف ذلك يورد على ممدوحه ثناء مفرطاً .

ومن أهم ما يميز مديحه بالقياس إلى الجاهليين كثرة إسرافه فيه ، ولا نقصد الإسراف في الأوصاف من حيث هي وإنما نقصد الغلو فيها والإفراط ، بحيث يُعَدُّ مقدمة لمبالغات العباسيين في مدائحهم ، وقد يكون ذلك من أثر رغبته الشديدة في العطاء ، وقد يكون من أثر الحضارات التي ألمَّ بها في طوائفه ، وهذا هو معنى ما نقوله من أنه يشبه العباسيين ، فذوقه في المديح يقترب من ذوقهم وما نعرفه عندهم من غلو دفعهم إليه ملق الخلفاء والوزراء بنفس الباحث الذي بعث الأعشى على إفراطه في مديحه ، ونقصه طلب النوال والعطاء الجزيل . وقرأ له هذه القطعة من مديحه لقيس بن معديكرب إذ يقول :

وَسَعَى لِكُنْدَةٍ سَعَى غَيْرِ مُوَاعِلٍ قَيْسُ قَضَرَ عَدُوَهَا وَبَنَى لَهَا

وأهـان صالح ماله لفقيرها وأسى وأصلح بينها وسعى لها^(١)
 ففترى له ضراً على أعدائه وترى لنعمته على من نالها
 أثراً من الخير المزين أهله كالغيث صاب ببلدة فأسالها^(٢)
 وإذا تجيء كتيبة ملمومة خرّساء بخشى الدار عون نزالها^(٣)
 كنتَ المقدم غير لابس جنة بالسيف تضرب معلماً أبطالها^(٤)
 وعلمت أن النفس تلقى حتفها ما كان خالقها الملك قضي لها

فلأنك تحس فيه روح العصر العباسي ، لا من حيث سهولة اللفظ فحسب ،
 ولا من حيث المقابلة بين المعاني فحسب ، بل من حيث ما يجري في ذلك من أثر
 رقة الذوق بتأثير الحضارة ، وهي رقة دفعته إلى الغلو في وصف شجاعة ممدوحه ،
 فإذا هو لجرأته وبسالته يقتحم ميادين الحرب بدون ترسٍ يحميه ، وييده سيفه
 يضرب به في الأقران تاركاً فيهم آثاره ، وقد آمن بينه وبين نفسه بأن الإنسان لا بد
 أن يسيبوت ، فلا داعي للخوف ، فلكل امرئ أجل مضروب ، لا يتأخر عنه
 ولا يتقدم . وقرأ له هذه القطعة في مديحه لهوذة بن علي سيد بني حنيفة :

إلى هوذة الوهاب أهديت مديحتي أرجى نوالاً فاضلاً من عطائك
 سمعتُ برحبِ الباع والجود والندي فأذليتُ ذلوى فاستقتُ برشائك^(٥)
 فتى يحمل الأعباء لو كان غيره من الناس لم ينهض بها متماسكا
 وأنت الذي عودتني أن تريشني وأنت الذي آويتني في ظلالكا^(٦)
 وإنك فيما نابني بي موزع بخير وإني مولعُ بشنائكا^(٧)

(٥) الباع : الكرم وكذلك الندي . الرشاء :

جبل الدلو .

(٦) تريشي : تميني وتغنني .

(٧) هكذا رواية البيت في المخطوطة اليمنية

وهو مضطرب في الديوان . موزع : مولع .

(١) أسى : داوى .

(٢) صاب المطر : سقط وانصب .

(٣) ملمومة : مجتمعة . خرّساء : لا يسمع

لها صوت من كثرة الدروع أى ليس لها

قعدة .

(٤) الجنة : الترس .

وجدت علياً بانياً فورثته وطلقاً وشيئان الجواد ومالكاً^(١)
بحور تقوت الناس في كل لزبة أبوك وأعمامهم هؤلثكا^(٢)
وما ذاك إلا أن كفيك بالندى تجودان بالإعطاء قبل سؤالكا
يقولون في الأكفاء أكبرهمه ألا رب منهم من يعيش بمالكاً^(٣)
وجدت انهدام ثلثة فبنيتها فأنعمت إذ ألحقته ببنائكا^(٤)
وربيت أيتاماً وأنعشت صبية وأذركت شأو السبق دون عنائكا^(٥)
ولم يسع في العلياء سعيك ماجد ولا ذو إني في الحي مثل إنائكا^(٦)

فإنك تحس المبالغة في المديح واضحة ، وهو يمزجها بالتبذل في السؤال تبذلاً
لم يعرف في عصره ، وكل ذلك واضح فيه رقة اللهجة وأن الأعشى من ذوق يخالف
ذوق الجاهليين ، وهو ذوق جاءه من طول اختلاطه بأهل الحضر .

ولا نشك في أن هذا الذوق هو الذي جعله في أهاجيه ينحو نحو السخرية
من مهجوه في كثير من شعره ، وكأنما يجد فيه مرارة أشد وألذع من مرارة الهجاء
المقذع ، وقرأ معلقته أو قصيدته السادسة في الديوان التي وجه بها إلى يزيد بن مسهر
الشياني ، وكان قد قتل أحد بني قيس بن ثعلبة رجلاً من قومه ، فحمسهم للشار
لقتيلهم ، فتعرض له الأعشى يهدده ويهجوهم مستهلاً تهديده وهجاءه بقوله :

أبلغ يزيد بن شيان مألثة أبا ثبيت أما تنفك تأتكل^(٧)
ألسنت منتها عن نحت أثلتنا ولست ضائرهما ما أطت الإبل^(٨)

- (١) وأضح من الشطر الثاني أن مالكا وشيئان وطلقاً أعمام هؤلة .
(٢) لزبة : شدة وأزبة .
(٣) يريد بالشطر الأول أن بمدوحه يهتم بأنه يظل أكفاء .
(٤) الثلثة : فرجة المهدم أو ما فيه من شقوق .
(٥) هكذا رواية البيت في المخطوطة اليمنية وبه
بعض الاضطراب في الديوان .
(٦) إني : مقصور إناه .
(٧) مألثة : رسالة . تأتكل : تسمى بالشر أو تغضب وتقل حتى لكأنك تأكل نفسك .
(٨) الأثلة : شجرة . ونحت أثلة : تنقصه وعابه . أطت : أنت . ويريد بقوله ما أطت الإبل التأييد .

كناطحِ صخرةً يوماً لِيُوهِنَهَا فلم يَضِرُّها وأوهى قَرْنُهُ الوَعْلُ^(١)
 وواضح أنه يوبِّخه ساخرًا منه مزدريًا له، إذ يقول: يا أبا تُبَيِّت أما تنفك
 تسعى بالشر والفساد وتقع في أعراضنا بالذم والقدح ؟ أَلست منهيًا عن ذمنا
 وتنقصنا ؟ وإنك مهما أتيت من قوارع الطعن لن نضر أصلنا الشامخ مدى الدهر ،
 وما مثلك إلا كمثل وَعَلٍ ينطح صخرة ليضعفها ، فاستعصت عليه ولم يضرها ولم
 يوهنها إنما ضر قرنه وأوهنه . وارجع إلى قصيدتيه اللتين يهجو بهما علقمة بن عُلَالة ،
 فستجده يعتمد إلى هذا اللون من السخرية المرة بعلقمة ، إذ يقول له في أولاهما
 موازنًا بينه وبين خصمه ومانفقه عامر بن الطفيل :

علقمَ ما أنبت إلى عامرٍ الناقض الأوتارَ والواتر^(٢)
 يا عَجَبَ الدهرِ متى سويًا كم ضاحكٍ من ذا وكم ساخرٍ
 ولستَ بالأكثر منهم حصيٌ وإنما العِزَّةُ للكاثِرِ^(٣)
 علقمَ لا تَسْفَه ولا تجعلنْ عِرْضك للوارد والصادر
 ولستَ في السُّلَمِ بذى نائلٍ ولستَ في الهيجاء بالجاسِرِ^(٤)

وهذا من أشد الهجاء وأمضه ، ولو أنه شتم وأفحش لعُدَّ سفيهاً، أما أن يهجو
 على هذا النحو من التعريض فإنه يجعل الظنون تتسع كما يجعل النفوس تتعلق بمعنى
 كلامه وتكثر من تأويله . وهو يشير في الأبيات إلى حكم هرم بن قُطَيْبة حين تنافر
 إليه علقمة وعامر ، فسوى بينهما في عبارته الماثورة : « إنكما كَرُّكَبَتَي البعير
 الأدرَم (الفحل) تقعان على الأرض معاً » والأعشى يردّ هذا الحكم وينقضه
 قائلاً: أين الثَّرَى من الثَّرِيّا . وقد مضى في القصيدة الثانية يذمه ، ولم يكن من
 أبياتها بيت أشد إيلاماً لعلقمة من قوله :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا^(٥)

(٣) الحمى هنا : العدد .
 (٤) النائل : العطاء . الجاسر : الجريء .
 (٥) المشتى : زمن الشتاء . غرثى : جائعة .
 خمائص : ضامرات البطون .

(١) الوعل : ضرب من الماعز الجبل .
 (٢) الأوتار : جمع وتر وهو الثار .
 وناقضها : الأخذ بثأره . الواتر : الذى
 يترك ثأره فى الأعداء فلا يستطيعون نقضه .

حتى لقد زعم الرواة أنه بكى حين سمعه . وواضح أنه لم يجعله بخيلاً فحسب ، بل جعله هو وعشيرته يملأون بطونهم ويُسَخِّمُونَ في ليالى الشتاء الباردة على حين يشتد كَلْبُ الجوع والمُسْغِبَة على جاراتهم . واختار النساء ليتزع من قلوبهم كل عطف ورحمة ، فهم ليسوا بخلاء فحسب ، بل إن قلوبهم لأشد قسوة من الحجارة . واستمع إليه يسخر من كسرى قبل وقعة ذى قار :

واقعدُ عليك التاجُ مُعْتَصِباً به لا تطلبين سَوامَنَا فتُعَبِّدُ^(١)

وفى كلمة «اقعد» من الهجاء ما يفوق كل إقذاع ، إذ يستخف به وبجوشه التي يعدّها لقتالهم وقاتل شيبان ، وكأنه يلوح له أنه إن هاجمهم مُسْنِيَ بهزيمة تطيح بتاجه . ولعلنا الآن نفهم ما كان يقال عن الأعشى من أنه « إذا مدح رفع وإذا هجا وضع » ، فهو إذا مدح غالى في مدحه حتى رفع ممدوحه على جميع الناس ، وإذا هجا أوجع لا بالشم والهجاء المقلدع وإنما بالتهكم والسخرية والاستهزاء .

والأعشى كثير الفخر في شعره بقبيلته وعشيرته ، وهو يجمع لهما ضروب المفاخر والمناقب التي كانوا يعتزون بها في الجاهلية من الجود في الجذب والشجاعة في الحرب والرعى في المكان المخوف وإغاثة المستصرخ . وكثيراً ما يضمن هجاء لمن يختلف معهم من قبيلته الكبرى بكر وقبيلته الصغرى قيس بن ثعلبة فخراً مدوياً ، كقوله في معلقته التي أشرنا إليها آنفاً متوعداً يزيد بن مُسْهِر الشيباني ومفتخراً بشجاعة قبيلته وما أُنخنت في القبائل من جراح :

سائلُ بنى أسدٍ عَنَّا فقد علموا
واسألُ قُشَيْرًا وعبد الله كلَّهُم
إنا نقاتلهم حتى نقتلهم
لئن مُنِيت بنا عن غِبٍّ معركة

أَنْ سَوف يَأْتِيكَ مِنْ أَنْبَاءِنَا شَكْلُ^(٢)
واسألُ ربيعةَ عَنَّا كيف نَفْتَعِلُ^(٣)
عند اللقاء وهم جاروا وهم جَهلُوا
لم تُلفنا من دِماءِ القوم نَتْتَفِلُ^(٤)

(٢) نقتل هنا : نفعل المظائم .
(٤) غِب : عقب ، يقصد أنهم لا يتمون من لقاء الأعداء ، فإن لقيهم بعد معركة فسيجدم على أتم استعداد للقاء . نتتفل : نتنفى ، ويرى نتفل .

(١) السوام : الإبل الراعية ويقصد بها الأعشى ديار العرب . تعبد : تصبح كالعبد ، يريد أنه يهزم ويقهر .
(٢) شكل : أزواج مختلفة يريد خبراً من بعد خبر .

قَدْ نَخْضِبُ الْعَيْرَ مِنْ مَكْنُونٍ فَائِلِهِ وَقَدْ يَشِيْطُ عَلَى أَرْمَاحِنَا الْبَطْلُ^(١)
 نَحْنُ الْفَوَارِسُ يَوْمَ الْعَيْنِ ضَاحِيَةٌ جَنْبِيْ فُطَيْمَةٌ لَا مِيلَ وَلَا عَزْلُ^(٢)
 قَالُوا الرُّكُوبَ فَقَلْنَا تِلْكَ عَادَتْنَا أَوْ تَنْزِلُونَ فَإِنَّا مَعَشَرُ نَزْلُ^(٣)

وقد ذهب بعض القدماء إلى أن البيت الأخير أشجعُ بيتٍ لما صور فيه
 الأعشى قومه وأنهم يحسنون الطعان فرساناً كما يحسنون الضراب راجلين منوهاً بأن
 تلك سجية لهم درج عليها شيوخهم وشبابهم .

✍ وزناه يكثر من وصف الصحراء وناقته ، وهذا طبعى لكثرة رحلاته وأسفاره ،
 وهو في هذا الموضوع يجرى على عادة الجاهليين ، فيصور الأودية وما يجري فيها من
 ظلام أو سموم أو مياه أمطار كما يصور طرقها الوعثة ورمالها ومناهلها وحشها
 وعزيف الجن ليلا بها ، يقول في معلقته :

وَبَلَدَةٍ مِثْلِ ظَهْرِ الثُّرْسِ مَوْحِشَةٍ لِلْجِنِّ بِاللَّيْلِ فِي حَافَاتِهَا زَجْلُ^(٤)
 لَا يَتَنَمَّى لَهَا بِالْقَيْظِ يَرْكُبُهَا إِلَّا الَّذِينَ لَهُمْ فِيهَا أَتَوْا مَهْلُ^(٥)
 جَاوَزْتُهَا بِطَلِيحٍ جَسْرَةٍ سُرْحٍ فِي مِرْفَقَيْهَا إِذَا اسْتَعْرَضَتْهَا قَتْلُ^(٦)

وواضح أنه في هذه الأبيات يفخر بتحملة لمشقات السفر في مثل هذه الأرض
 الوعرة الصلبة الموحشة التي لا يسمع فيها صوت سوى صوت الجن والتي لا يركبها
 في حمارة القيظ واشتعال الرمال إلا من تعود الصبر واحتمال المكارة ، ويقول إنه
 يقطع مثل هذه الأرض بناقة نضو أسفار ضامرة موثقة الخلق صلبة قوية . وهو

بالترس ليان أنها غليظة وصعبة على من ينفذ
 فيها . موحشة : كثيرة الوحش . زجل : صوت .
 حافاتهما : فواحها .
 (٥) يتنمى : يرتفع . القَيْظ : شدة الصيف .
 مهل : أناة وصبر .
 (٦) طليح : مهزولة لكثرة أسفارها .
 جسر : ضخمة . سرح : سريعة . قتل :
 قوة وصلابة .

(١) العير : حمار الوحش استمارة للفارس
 لأن العير يتقدم الآن : الفائل : القناة الدموية
 كالشریان . يشيط : يهلك .
 (٢) يوم العين : يوم كان بين بني قيس بن
 ثعلبة وشيبان بحجب موضع في البحرين يسمى
 فطيمة . ميل : جمع أميل وهو الجبان .
 عزل : جمع أعزل : من لا صلاح له .
 (٣) يريد بالنزول التضارب بالسيوف .
 (٤) البلدة : القطعة من الأرض . وشهها

لا يبطئ في وصف أعضاء الناقة صنيع طرفه ، بل يقتضب الحديث عنها غالباً ،
ويكثر حين يلم ببيان سرعتها أن يشبها بحمار وحش أو ثور أو نعامة ، ويطيل
في وصف ما يلم به منها على عادة الجاهليين . وقرأ هذه القطعة :

وفلاة كأنها ظهْرُ ثُرَيْسٍ ليس إلا الرجيعَ فيها عَلاقُ^(١)
قد تجاوزتها وتَحَتَّى مَرُوحُ عنتريسُ نَعَابَةٌ مِغْناقُ^(٢)
عِزْمِسُ تَرْجُمُ الإِكَامَ بِأَخْفَا في صِلابِ منها الحصى أَفلاقُ^(٣)
وكانَ القَتودَ والعِجْلَةَ الوَفْ راءَ لَمَّا تَوَاحَقَ السُّواقُ^(٤)
فوق مُسْتَبَقِلٍ أَضْرَبَ به الصَّيْ فُ وَزَرَ الفُحولِ والتَّنْهاقُ^(٥)
أو فريدٍ طاوٍ تَصَيَّفَ أَرْطَا ةٌ عليه من الغصونِ رُواقُ^(٦)
أَخْرَجَتْهُ شَهْبَاءُ مُسْبِلَةَ الوَذِ قِ رَجوسُ قُدَّامَها فُراقُ^(٧)
وتعادَى عنه النهارُ تُوارِبِ عِراضُ الرِّمالِ والدَّرْداقُ^(٨)
وتَلَّتْهُ غُضْفُ طَوَارِدُ كالنَّحْ ل مغاريثُ هُمَهِمُ اللَّحاقُ^(٩)

وهو يصور فيها فلاة مقفرة ، لا تجد فيها الإبل ما تأكله سوى الاجترار ،
ويقول إنه تجاوزها بناقة نشيطة قوية مسرعة سرعة شديدة ، كانت ترحم
المرتفعات بأخفافها الصلبة ، فتشق ما فيها من حصي شتاً وسرعان ما يشبها
في سرعتها بحمار وحش ، يقاسى من لظى الصيف وعُضَّ أمثاله وتنهاقها عليه ،

- (١) الرجيع : ما تجتره من طعامها . العلاق :
ما تلعمه الإبل من الشجر .
(٢) مروح : نشيطة . عنتريس : صلبة .
نعابة : تمد عنقها في سيرها . مغناق : من العنق
وهو سير واسع للإبل .
(٣) عزمس : صلبة . الإكام : المرتفعات .
(٤) القتود : الرجل بأدواته . العجلة :
المزادة ، وهي قرية الماء . الوفراء : كثيرة
المياه . السواق : طويل الساق . تَوَاحَقَ :
مد عنقه في السير . وتلك رواية المخطوطة اليمنية ،
والبيت في الديوان مضطرب .
(٥) مستبقل : حمار وحش يأكل البقل ،
- زر : طرد وعض .
(٦) فريد : منفرد ، ويقصد ثور الوحش .
طاو : جائع . الأراطا : من أشجار البادية .
رواق البيت : شقته التي دون شقته العليا .
وتلك رواية المخطوطة اليمنية .
(٧) شهباء : سحابة بيضاء يصدها سواد .
مسبلة : مرسلة . الودق : المطر . رجوس :
مرعدة . فراق : جمع فارق وهي السحابة المنفردة .
(٨) تمادى : تباعد . الدرداق : ذلك متلبد
من الرمال .
(٩) الغضف : كلاب الصيد مسترخية
الأذان . مغاريث : جائعة .

فهو يسرع لا يلبى . ولا يمضى طويلاً مع هذا الحمار ، بل يركه إلى ثور وحش يشبهه به ناقته ، ويصوره طاوياً في ليلة من ليالي الشتاء القاسية ، وقد بات مستظلاً بأغصان أرتاة ، والمطر يسقط من حوله والفرع يأخذه من كل جانب ، ولم تلبث نفسه أن راودته على الخروج من كناسه ، فخرج يتوارى في عراض الرمال وكتبانها ، ولم تلبث كلاب الصيد أن رأته فأسرعت تحاول اللحاق به ، وأسرع يحاول فتوتها . والأعشى يشبه ناقته به وهى تترامى فوق الرمال مسرعة كأنما شيء يطلبها .

وتتكرر مثل هذه الصورة لا عند الأعشى وحده ، بل عند جميع شعراء الجاهلية ، إذ يشبهون الناقة بوحش الفلاة ، وخاصة حين يناضل كلاب الصيد ، وإن كنا نلاحظ أن الأعشى لا يطبل في تصوير ذلك إطالة النابغة أو ليبد أو غيرهما من الجاهليين ، وربما جاء ذلك من ذوقه المتحضر ، فكان يوجز في وصف الصحراء والناقة والحيوانات الوحشية ، على حين كان يتسع في الحديث عن الخمر والغزل .

وحقاً نجد عند الجاهليين تعرضاً كثيراً للخمر ، ولكنهم عادة يسوقونها مع الحديث عن فتوتهم وكرمهم وبذلهم ، على نحو ما نرى في معلقة طرفة ، أما عند الأعشى فإننا نجدها في فاتحة كثير من قصائده تالية لبعض غزله ، ونحس كأنها لذته من الدنيا ، فهو يطبل الحديث عنها وعن تأثيرها في نفوس شاربها ، وكأنه يقدسها تقدساً ، فهي وثنة وصنمه ، ولذلك لم يكده يسمع من قریش - كما أسلفنا - أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحرمها حتى كف عن لقاءه وانصرف لساعته .

وهو يجيد وصفها لإجادة لفتت القدماء إليه ، فقالوا إنه أشعر الجاهليين إذا طرب^(١) ، يقصدون إذا شرب الخمر ووصفها ، وهو وصف يفيض بالحيوية ، إذ يجسم فيه بيتها ومجالسها وما يُنشَرُّ فيها من الورد والرياحين وما يقوم فيها من السقا والمغنين والإماء الخليعات اللاتي يلبسن الشفوف الرقيقة وما يضرب عليه الغازفون من آلات طرب كالصنج والعود ، واستمع إليه يقول في معلقته :

وقد غدوتُ إلى الحانوت يتبعني
 في فتية كسيوف الهند قد علموا
 نازعتهم قُضْبَ الرِّيحان مُتَكثاً
 لا يَسْتَفِيقون منها وهي راهنةٌ
 يَسْمَعِي بها ذو زُجاجاتٍ له نُطْفُ
 ومستجيبٌ تخال الصَّنَج يَسْمَعُهُ
 والساجباتِ ذبولَ الخَزْ آوَنَ
 من كل ذلك يومٌ قد لهوتُ بهِ
 شاوٍ مِثْلَ شُلُولٍ شُلْشُلٍ شَوْلٍ^(١)
 أن ليس يَذْفَعُ عن ذى الحيلةِ الحِجَلِ
 وقهوةٌ مُزَّةٌ راوُوقها خَضِلُ^(٢)
 إلا بهاتٍ وإن عَلَّوا وإن نَهَلُوا^(٣)
 مُقْلَصُ أسفلَ السَّرْبَالِ مُعْتَمِلُ^(٤)
 إذا تُرْجِعُ فيه القَيْنَةُ الفُضْلُ^(٥)
 والرافلاتِ على أعجازها العِجَلُ^(٦)
 وفي التجاربِ طولُ اللَهْوِ والغَزَلُ

وهو يصف في الأبيات يوماً من أيام لوه غدا فيه إلى خمار مع رفيق ناشطٍ خفيف الحركة طيب النفس في فتية كسيوف الهند مضاء وقوة ورونقاً . ويقول إنهم تجاذبوا أغصان الريحان وخمرة مزة ما زالوا يتعاطونها ، فراووقها لا يحف ، وهم لا يسأمون من تعاطيها ولا يفيقون من شربها إلا ليقولوا للساق : هات ، ويكررون هذه اللفظة مهما شربوا . ويصف الساق بأنه غلام أو شاب حدث ، كان يعلّق في أذنه قرطاً ويلبس قميصاً قصيراً ، وقد طُبع على العمل بجد ونشاط . ويضيف إلى ذلك وصف عود كانت ألحانه تنسق مع صنج كانت تعزف عليه وتغني قينة في ثوب واحد رقيق ، ومن ورأها نساء ترفل في ثياب الخبز والحريز ، وقد علت أعجازهن كأنها قرب ممتلئة ، فهي تهتز وترتج . ويختم أبياته بأنه تمتع بكل ذلك

(١) غدوت : ذهبت . شاو : يشوى اللحم . ومعنى مثل شلول شلشُل شول أنه خفيف الحركة نشيط .

(٢) قُضْب : جمع قضيب وهو الفصن ، القهوة : الخمر . الراووق : الوعاء الذي تروق فيه الخمر . خَضِل : ندى ، كنى بذلك عن اتصال شربهم .

(٣) عَلَّوا : من العلل وهو الشرب بعد الشرب ثباعاً ، نَهَلُوا : من النهل ، وهو أول الشرب . إلا بهات : إلا بمقدار قولهم هات .

(٤) ذو زجاجات : يريد الساق .

نطف : جمع نطفة وهي القرط به لؤلؤة صافية . مقْلَصُ أسفل السربال : قصير القميص . معتمِل : مطبوع على العمل والنشاط .

(٥) المستجيب : العود ذو الأوتار لأنه يجيب صاحبه كما يجيب الصنج وهو الآخر من آلات الطرب . وجعل الصنج يسمعه كناية بذلك عن اتساق ألحانها . القينة : الأمة المغنية . الفضل : اللابسة ثوباً واحداً .

(٦) العِجَل : جمع عجلة بكسر العين وسكون الجيم وهي قربة الماء .

ولها به وجربه مراراً وتكراراً .

والأعشى لا يصف مجالس الخمر فحسب ، بل يصف وصفاً دقيقاً أوانها وألوانها وما تفعله بعقول شاربها وما تُحدث في قلوبهم من نشوة ، مما يدل على أنه كان مشغولاً بها مفتوناً ، بل سكيراً مغرقاً في السكر ، وهو في ذلك يقترب من ذوق جماعة المجان في العصر العباسي أمثال أبي نواس ، وفي الوقت نفسه يفترق من ذوق معاصريه الذين لم يكونوا يسرفون على أنفسهم لإسرافه في اللهو والمجون . ولا نشك في أن هذا جاءه من أثر الحضارات التي ألمَّ بها في الحيرة وغير الحيرة ، بحيث تحوّل مدمناً لها ، يلزم حوانيتها ، فإن ولّى وجهه نحو منازل قومه حمل منها ما يكفيه هو ورفاقه هناك ، فيهلون ويعلمون ولا يفيقون ، وهو في أثناء ذلك ينشدهم ما ينظمه فيها ، وهم يصفقون استحساناً . ولم يكن يحسن وصفها فحسب ، بل كان يُضني عليه حيوية بما يمزجه به من قصص على شاكلة قوله :

أَتَانِي يَوْمَئِذِي فِي الشَّمْرِ	ل لَيْلَا فَقُلْتُ لَهُ : غَادِهَا ^(١)
أَرَحْنَا نَبَاكَرُ جِدِّ الصُّبُو	ح قَبْلَ النُّفُوسِ وَحُسَادِهَا ^(٢)
فَقُمْنَا وَلَا يَبْصَحُ دَيْكُنَا	إِلَى جَوْنَةٍ عِنْدَ حَدَادِهَا ^(٣)
تَنْخُلُهَا مِنْ بَكَارِ الْقَطَافِ	أَزِيرُ قُ آمِنُ إِكْسَادِهَا ^(٤)
فَقُلْتُ لَهُ : هَذِهِ هَاتِهَا	بِأَدْمَاءَ فِي حَبْلِ مُقْتَادِهَا ^(٥)
فَقَالَ : تَزِيدُونِي تِسْعَةً	وَمَا ذَاكَ عَدْلًا لِأَنْدَادِهَا ^(٦)
فَقُلْتُ لِمَنْصَفِنَا : أَعْطِهِ	فَلَمَّا رَأَى حَضَرَ شُهَادِهَا ^(٧)
أَضَاءَ مِظْلَتَهُ بِالسَّرَا	ج : وَاللَّيْلُ غَامِرٌ جُدَادِهَا ^(٨)

(٥) أدماء : ناقة بيضاء . مقتادها : غلامها الذي يرعاها .
(٦) أندادها : أمثالها .
(٧) منصف : خادم . حضر : حضور .
شهادها هنا : الدرام .
(٨) مظلة : حانوته أو غيابه . الجداد : الأهداب والأستار .

(١) يؤامري : يشاورني . الشمول : الخمر .
غادها : انطلق بنا إليها .
(٢) جد : نشاط . الصبوح : غمرة الصباح .
(٣) جونة : جرة وغابية . حدادها : غمارها .
(٤) تنخلها : تخيرها . بكار القطاف : أول ما يقطف . أزرق العينين : آمن إكسادها : آمن من كسادها لا يخاف .

- دَرَاهِمُنَا كُلُّهَا جَيِّدٌ فَلَا تَحْسِبْنَا يَتَنَقَّادِهَا (١)
 فِقَامُ فَصْبٍ لَنَا قَهْوَةٌ تُسَكِّنُنَا بَعْدَ إِزْعَادِهَا (٢)
 كُمَيْتًا تَكْشِفُ عَنْ حُمْرَةٍ إِذَا صَرَّحَتْ بَعْدَ إِزْبَادِهَا (٣)
 كَحَوْصَلَةِ الرَّأْلِ فِي جَرِيهَا إِذَا جُلِيَتْ بَعْدَ إِقْعَادِهَا (٤)
 وَجَالٍ عَلَيْنَا بِإِبْرِيْقِهِ مَخْضَبُ كَفٍّ بِفِرْصَادِهَا (٥)
 فَبَاتَتْ رِكَابُ بَاكُوَارِهَا لَدَيْنَا وَخَيْلُ بَالْبَادِهَا (٦)
 وَرُخْنَا تَنْعَمْنَا نَشْوَةً تَجَوَّرُ بِنَا بَعْدَ إِقْصَادِهَا (٧)

ولا تختلف هذه الأبيات المنتزعة من القصيدة الثامنة في الديوان عن خمريات
 أئى نواس وأضرابه في شيء ، لولا ذكره للأكوار والألباد في نهايتها ، ولوحذفنا بينهما
 لأصبحنا إزاء خمرية عباسية تعتمد على القصص والإطراف به . وهو في أولها يذكر
 أن فتي طرده قبل أن يسفر الصباح يدعوه أن يذهب معه لتناول الخمر . وذهباً في
 هزيع الليل الأخير - قبل أن تصبح الديكة وقبل أن يسبقهما أى كاشح حسود - إلى
 حانوت خمار أعجمي ، كنى عنه بزرقة العين ، وهو خمار حاذق لصنعتة ،
 استخلص خمره من بكار القطاف ، وهي خمر معتقة ومثلها لا يكسند ولا يبور .
 وطلباً إليه أن يسقيهما بناقاة قاداها إليه ، وهي واقفة ببابه مزمومة بحبل غلامها ،
 فلم تكفه وطلب فوقها تسعة دراهم ، مشيداً بخمره وأن هذا الثمن ليس كفوّاً لها ،
 ويقول الأعشى إنه قال لصاحبه : اعطه ما يريد . ويضئ الخمار خبائه
 أو حانوته ، وبعد الدراهم ويتبينها خشية زيفها ، حتى إذا اطمأن لها وللأعشى ورفيقه
 أو رفاقه قام ، فناولهم خمرًا تمشت في أجسادهم ، فسكنوا إليها ، وهي خمر حمراء

(١) تنقادها : نقدها وعدها حتى يتبين

زائفها من صحيحها .

(٢) تسكننا : نسكن إليها .

(٣) كيتاً : حمراء . صرحت : ذهب

زبدتها .

(٤) الرأل : فرخ النعام . شبه الخمر

بحوصلة في الحمرة . جليت : أخرجت ، مأخوذ

من جلوة العروس . القاعدة ، إذا قعدت عن

الطلب . وانظر الحيوان ١٤/٤ .

(٥) الفرصاد : التوت الأحمر .

(٦) الأكوار : الرجال . الألباد :

جمع لبد وهو قطعة الصوف توضع تحت السرج

(٧) إقتصاد : قصد واعتدال .

فاقعة كأنها الفرصاد أو التوت الأحمر ، وما يزال صاحبها يستقيم ، وهم بها مشغوفون ، حتى انبثقت أضواء الصباح ، فنهضوا بركابهم وخيلهم ، تستخفهم النشوة استخفافاً خرجوا به عن أطوارهم وما تعودوه في صحوهم من قصد واعتدال .

وأنت تراه قد وصف الخمر ودنّها ولونها وخآرها وحانوتها وتعرض لصباح الديكة في السحر ومساومة صاحبها في ثمنها وأثرها في النفس وما تصيب به شاربها من انتشاء يتمشى في المفاصل . وهذه المعاني جميعها تدور فيها وفي أفلاكها خمريات العباسيين . واستمع إليه يقول :

وَأَذْكُنَّ عَاتِقِي جَحْلِي سِبْخِي	صَبَحْتُ بِرَاحِي شَرِبًا كِرَامًا ^(١)
مِنَ اللَّاتِي حُمِلْنِ عَلَى الرَّوَايَا	كِرِيحِ الْمِسْكِ تَسْتَلُّ الزُّكَامَا ^(٢)
مُشْغَعَةً كَأَنَّ عَلَى قَرَاهَا	إِذَا مَا صَرَحْتُ قِطْعًا سَهَامَا ^(٣)
تَخَيَّرَهَا أَخُو عَانَاتٍ شَهْرًا	وَرَجَى أَوْلَهَا عَامًا فَعَامَا ^(٤)
يُؤْمَلُ أَنْ تَكُونَ لَهُ ثَرَاءً	فَأَغْلَقَ دُونَهَا وَغَلًا سِوَامَا ^(٥)
فَأَعْطَيْنَا الْوَفَاءَ بِهَا وَكُنَّا	نُهَيِّنُ لِمَثَلِهَا فِينَا السُّوَامَا ^(٦)
كَأَنَّ شُعَاعَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِيهَا	إِذَا مَا قُتَّ عَنْ فِيهَا الْخَتَامَا ^(٧)

وواضح أنه يتحدث عن دن من دنان الخمر أسود عتيق ، صبح به رفاقه ، ويقول إنه من نادر الدنان التي تجتلب من البلاد البعيدة والتي تنفذ رائحة خمرها بطبيها إلى الأنف ، فتستل منه الزكام . ويصف هذه الخمر فيقول إنها مروقة ، صافية كأنها بياض الحرّ أوسرا به اللامع ، وقد انتقاها صاحبها في «عانات» ، وظل

- (١) أذكر : هو الدن لأنه يطل بالقطران .
 عاتق : قديم . الجعل : السقاء الكبير أو
 القرية الكبيرة . سبخ : ضخم . الشرب :
 جماعة الشاربين . صبحت : تناولت ، وهو خمر
 الصباح .
 (٢) الروايا : جمع راوية وهو البير .
 (٣) مشعشة : مروقة . قراها : ظهرها .
 صرحت : صفت . السهام : وهج الصيف
 وما يكون معه من البياض .
 (٤) عانات : بلد بالشام . أولها : ما تقول
 إليه من ثمن غال .
 (٥) السوام : بكسر السين المساومة في
 البيع والمقالة .
 (٦) السوام : يفتح السين الإبل الرابعة .
 (٧) قرن الشمس : أول ما يبدو منها في
 الصباح . الختام : السداد .

يعلق عليها الآمال عاماً بعد عام ، مغالياً في ثمنها ، حتى اشتريناها منه ، ويصورها
وهي تستقط من دَنِّها بشعاع الشمس الوهاج ، وهي من الصور التي أكثر العباسيون
من تداولها ، كما أكثروا من الحديث عن رائحتها ووصف دَنِّها ، ومن قوله في
كأس من كثوسها :

وكأس كَعَيْنِ الديكِ باكرتُ حَدَّها بفتيانِ صِدْقِ والنواقيسِ تضربُ^(١)
سُلافِ كأنَّ الزعفرانَ وعندماً يصفقُ في ناجودها ثم تُقَطَّبُ^(٢)

وهو يشبهها بعين الديك في صفائها ، ويقول إنه باكرها أو باكر سورتها
برفاق مخلصين ، يشربونها معه في الأدبرة على قرع النواقيس ، ويحدثنا عن رائحتها
وأثرها في نفسه ، حتى ليتصورها زعفراناً أحمر خُساط بصبغ العندم ، وقد
سطعت منه رائحة زكية . وعلى هذا النحو ما يزال يصف الخمر وصف مفتون بها ،
معلناً أنه لا يستطيع عنها انصرافاً ، فهي كل لذته ومتاعه ، يقول :

وكأس شربتُ على لَذَّةٍ وأخرى تداولتُ منها بها
لكي يعلم الناسُ أني امرؤٌ أتيتُ المعيشةَ من بابها

وما نبي يتحدث عن مجالسها وما ينثر فيها من ورود وما يكون فيها من قيان
وآلات طرب ، بنفس الصورة التي تلقانا عند أصحاب الخمر والمجون في العصر
العباسي . ونحن إنما سقنا ما وثَّقناه من أشعاره ، ومن يرجع إلى ديوانه وما رفضناه من
قصائده يستطيع أن يلاحظ عبث الرواة بشعره ، فقد أجروا على لسانه خمرية تزخر
بالألفاظ الفارسية ، وكأنه فارسي أباً وأماً ممن أتقنوا الشعر العربي في العصر العباسي
وأَتَقَنُوا فن الخمرية بنوع خاص ، وهل تفرق قصيدته رقم ٥٥ من قصائد أبي نواس
وأضرابه في شيء ؟ إنها تكتظ بأسماء الرياحين والأزهار وآلات الطرب الفارسية ،
ولا ييخل عليه واضعها بذكره لنيل مصر في تضاعيفها وإجرائه على لسان الأعشى
بعض ما كان يجري على لسان أبي نواس ونظرائه من أن صاحبها مجوسى يصلى عليها

(١) باكر : شربها في الصباح الباكر . شجر عروقه حمراء يصيب به . يصفق :
حدها : سورتها وحدتها . يروق : ناجودها : جرتها . تقطب : تخرج .
(٢) السلاف : أجود الخمر . المتتم :

ويزمزم . فإذا بقى لحجان الفرس في العصر العباسي . وقبل ذلك نفسه في قصيدته رقم ٣٦ وقد رفضناها لما فيها من حديث عن هلاك الملوك الأولين ، وهي ترفض أيضاً لما فيها من صور خمرية تنبؤ على ذوق الجاهليين ، إذ يوصف زقها الأسود وقد طلى بالقار وطُرح على الثرى بجبشى نام وانبطح ، كما يوصف السكرارى وقد تمددوا على الأرض وخذلهم أرجلهم من غير كسحٍ فلا يستطيعون حراكاً بالحبال الممدودة لصيد بعض الطير .

وإذا تركنا خمره إلى غزله لاحظنا أنه لا يقف طويلاً عند الأطلال صنيع غيره من الجاهليين ، بل يأخذ في وصف صاحبه ووصف عواطفه نحوها ، وقد يعتمد إلى نفس الصورة القصصية المبنوثة في معلقة امرئ القيس ، فيتحدث عن مغامراته ووصوله إلى محبوباته من المتزوجات على شاكلة قوله :

فَظَلَلْتُ أَرَاها وظلَّ يَحُوطُها حَتَّى دَنَوْتُ إِذَا الظَّلَامُ دَنَا لَهَا
فَرَمَيْتُ غَفْلَةً عَيْنِي عَنْ شَاتِهِ فَأَصَبْتُ حَبَّةً قَلْبِهِ وَطَحَالَهَا^(١)
حَفِظَ النَّهَارَ وَبَاتَ عَنْهَا غَافِلًا فَخَلْتُ لِصَاحِبِ لَذَّةٍ وَخَلَا لَهَا

فهو يخالس الزوج ويخاله ، حتى يظفر ببغيته . وطبيعي أن يكون غزله مادياً صريحاً لما رأينا من لهو وخمره ، غير أننا نلاحظ عنده رقة في الغزل وشدة في الوله والتعلق بالمحوبة ، حتى إن روحه لتكاد تسقط من بين جنبيه جزعاً وصبابة ، وخاصة حين الوداع . واستمع إليه يقول في فاتحة معلقته :

وَدَّعْ هُرَيْرَةً إِنْ الرَّكْبَ مُرْتَجِلٌ وَهَلْ تَطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ

فهو يأمر قلبه أن يودعها قبل الرحيل ، وسرعان ما يرجع إلى نفسه ينكر ما ظنه فيها من الصبر على الوداع . وهي صبابة لا نعرفها عند الجاهليين ، إنما نعرفها عند الأعشى صاحب الذوق الرقيق الذي أثرت فيه الحضارة ، وحوالته دقيقة الحس دقة شديدة فإذا هو يتذلل في حبه ويخضع ، وامتنص معه في المعلقة فستجده يشبب بصاحبه منحرفاً عن طريقة الجاهليين في بكاء آثار الديار والأطلال ، فهي موضوع حبه وغزله ، ولا داعي لأن يذهب بعيداً مع الذكريات ، وإذن

(١) الشاة هنا : كناية عن المرأة .

فليأخذ في وصفها مفتتاً في ذلك افتناناً ، فتارة يصف بشرتها وشعرها وعوارضها
وتارة يصف مشيتها الوانية وحليها ، وتارة يصف تعلق الناس بطلعتها الفاتنة وما تغرق
فيه من ترف ونعيم وعطور ، ولا يلبث أن يُورد علينا هذا البيت الغريب :

عُلِّقَتْهَا عَرَضاً وَعُلِّقَتْ رَجُلَا غَيْرِي وَعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ

وهو يصور فيه شقاءه بحبها ، فهو يحبها ، وهي تعرض عنه ، وتحب رجلاً
آخر ، والرجل يعرض عنها ويحب فتاة أو امرأة ثانية . وسرعان ما يعود ،
فيتذكر كيف كانت تشفق عليه وعلى نفسها حين زارها ذات مرة ، فقال :

قَالَتْ هُرَيْرَةٌ لَمَّا جِئْتُ زَائِرَهَا وَيْلِي عَلَيْكَ وَيْلِي مِنْكَ يَا رَجُلُ

فقد بالغ في وصف ارتياعها وخوفها على نفسها وعليه ، حتى إنها لتتفجع
وتتوجع إشفاقاً وضعفاً . ولعل في هذا كله ما يوضح غزل الأعشى وأنه يمتاز
من ناحية بأنه حسی مادی ومن ناحية أخرى برقته المفرطة وتصويره لعواطف
الحبين وأحاسيسهم التي ييuchون بها ولا يستطيعون كظمها ولا كتمها ، بل يندفعون
في تصويرها معبرين عن ولهم وعشقتهم .

والحق أن الأعشى في شعره جميعه يعد تمهيداً للشعر الحضري الذي ظهر
من بعده ، سواء في غزله وخمره أو في هجائه ومدحيه ، فهو في هذه الموضوعات
جميعاً يفصح عن ذوق متحضر ، سواء في خطاب الأمراء والأشراف والخضوع لهم
أو في خطاب النساء والتذلل لهن أو في اللعب بمهجويته والاستهزاء بهن والاستخفاف ،
أو في وصف الخمر ومجالسها ودنانها وكثومها .

ولعلنا بعد ذلك لا نعجب إذا رأيناه يشبه العباسيين في مبالغاتهم ، فقد كان
يسرف على نفسه مثلهم في تصور ممدوحيه ، فإذا هو يقول في هُوَذَة بن علي الحنفي :

فَتَى لَوِيبَارَى الشَّمْسِ أَلْقَتْ قَنَاعَهَا أَوَ الْقَمَرِ السَّارَى لَأَلْقَى الْمَقَالِدَا^(١)

فهو لو يبارى الشمس لألقت قناعها خجلاً ولو بارى القمر لذل له وانقاد
صغاراً . وهي مبالغة مفرطة ، ومثلها قوله متغزلاً :

(١) ألقى المقالدا : ذل وانقاد ، وفي رواية ينادى
بدلاً من يبارى بمعنى يجالس

لو أسندت مَيْتاً إلى نَحْرِهَا عاش ولم يُنْقَلْ إلى قَابِرٍ
حتى يقولَ النَّاسُ مما رأوا يا عجباً لِلْمَيْتِ النَّاشِرِ^(١)

فلو ضمت مَيْتاً إلى نَحْرِهَا لدبت فيه الحياة من جديد ، وعجب الناس لما يرون
من هذا الميت المبعوث . ويبالغ الأعشى أو قل يزيد مبالغته إفراطاً ، فيقول إن
هذا الميت حين يبعث إلى دنياه يخلد فيها ولا ينقل إلى مقبرة من المقابر .

ولا يلاحظ عنده إطرافه بمثل هذه المبالغات فحسب ، بل يلاحظ أيضاً
تعمقه في صنع الأخيصة والصور ، فإذا هو يقع منها على مبتكرات كثيرة ، نلاحظها
لا في موضوعه الحديد فحسب ، ونقصد الخمر ، وإنما في أقدم الموضوعات وأكثرها
دخولاً في البداوة ، ونقصد وصف الناقة ، إذ يقول في بعض شعره إنها تجترع
الأكام اجترعاً ، لما تطوى منها ، يقول :

إذا ما الآثامُ وَتَيْنَ حَطَّتْ عَلَى الْعِلَاتِ تَجْتَرِعُ الْإِكَامُ^(٢)

ويقول مصوراً سرعة ناqqته في الهاجرة :

بِجَلَالَةٍ سُرُحٍ كَأَنَّ بَذْفَهَا هِرّاً إِذَا انْتَعَلَ الْمَطِيُّ ظِلَالَهَا^(٣)

فهى تجرى مذعورة كأن هِرّاً يندشها ، وليس ذلك الذى يلفتنا عنده ، إنما
يلفتنا أنه عبر عن تقلص الظلال في الهاجرة بأنه لم يبق لناqqته إلا ظل أخفافها ،
وهى تتعله في خُطأها . وتكثر عنده الصور المخترعة في الخمر ، وهى مبثوثة فيما أنشدناه
من شعره .

ومن أهم ما يلاحظ عنده سهولة لفظه بالقياس إلى معاصريه وسابقيه من قبيلته
أمثال طرفه ، وما نشك في أن هذا يرجع إلى أنه تأثر بالحضارة ، فرقت معانيه ،
ورقت ألفاظه رقة لم تعرف لشاعر جاهلي ، وليس لفظه وحده الذى رقى ، بل إن
نفسه رقت هى الأخرى ولانت ، فإذا هو يأتى بخمريات وغزلياته السابقة . وحقاً
تأثر النابغة مثله بالحضارة ، ولكننا نحس عنده أنه يبتقى على كثير من بداوته ، ولذلك

الإكام : المرتفعات .

(١) الناشر : المنشور أو المبعوث .

(٢) جلالة : ناقة ضخمة . سرح :

(٢) الآثام هنا : الرانيات . العلات :

سهلة . الدف : الجانب .

الحالات المختلفة . حطت : أسرع .

لم يرق غزله ولا خاض في الخمر ، أما الأعشى فأقبل على اللهو والطرب والعكوف على الخمر والاستماع إلى القيان . فكان طبيعياً أن يسهل الشعر عنده بأكثر مما يسهل عند النابغة ، وأن تظهر فيه رقة الحضارة ونعومتها .

ولا يظهر تأثير الحضارة في سهولة ألفاظه فحسب ، بل يظهر أيضاً في خفة أوزانه وجمال موسيقاها ، وكأنما أثر فيه كثرة استماعه للمغنيات والغناء ، فإذا هو يُحِيل شعره أحياناً وأنغاماً خالصة . وهو كثير التنوع في أوزانه يستخدم منها التام والمجزوء ، ويُحسن هذا الاستخدام إلى أقصى الحدود ، إذ كان يقتدر على الإتيان بالألفاظ العذبة والكلمات الرشيقة والقوافي المتمكنة .

على أنه ينبغي أن نلاحظ شيئين ، هما كثرة ما نُحِلّ عليه ، وقد أدّى ذلك إلى دخول ألفاظ فارسية في بعض قصائده ، حَمَلَ عليه من أجلها المرزباني في كتاب الموشح ، والذي لا شك فيه أن هذا من صُنْع المتحليين ، ولا يصح أن نحمل على الأعشى بسببه بل ننحى عنه هذا الشعر على نحو ما نحينا عنه القصيدة رقم ٥٥ . أما الشيء الثاني فهو أن الأسلوب عند الأعشى ينفك قليلاً عن صورة الأسلوب الجاهلي ، ولذلك مظهر واضح هو أننا نفتقد عنده الأبيات المفردة التي تدور في الحكم والأمثال ، وكأنما لم تكن لديه مقدرة زهير والنابغة في التركيز وحشد المعاني في الألفاظ القليلة . وربما كان هذا هو سبب كثرة التضمين في أشعاره كقوله في مطلع قصيدته الأولى في ديوانه :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي فهل تردُّ سؤالي
دُمْنَةٌ قَفْرَةٌ تعاورها الصَّيَّةُ فُ بريحين من صَباً وشَمالاً^(١)

فقد جاء بفاعل تردّ في أول البيت الثاني ، ومن ذلك قوله في قصيدته التي يفخر فيها بتغلُّب شيبان على الفرس في يوم ذي قار :

ولله عَيْنَا مَنْ رَأَى مِنْ عِصَابَةٍ أَشَدَّ عَلَى أَيْدِي السَّعَاةِ مِنَ الَّتِي^(٢)

(١) - الدمنة : آثار الدار . الصبا : ريح جنوبية
لينة . تعاورها : تتداولها .
(٢) السعاة : الذين يسمون في الحرب ويهيجونها .

أَتَتْنَا مِنَ الْبَطْحَاءِ يَبْرِقُ بَيِّضُهَا وَقَدْ رُفِعَتْ رَايَاتُهَا فَاسْتَقَلَّتْ^(١)

وهو يوازن في البيتين بين بنى شيبان وجيوش الفرس ، فيقول ألا سلمت عينا من رأى عصابة بنى شيبان وإنما لأشد على من يثيرون الحروب من تلك التي أتتنا من البطحاء تبرق خوذاتها وتخفق راياتها . وواضح أنه فصل بين الصلة والموصول في البيتين ، وكأنه لم يعرف بأن البيت الأول نهاية يقف عندها . وهذا التضمن في شعره أكثر من أن نمثل له ، فليرجع إليه من أراد ، والمهم أنه يدل على انفكاك التعبير عنده ، فهو لا يتم في البيت ، بل يتم في بيت ثان أو أبيات ، ولعل ذلك هو سبب كثرة صيغة التفضيل التي اشتهر بها في شعره ، وذلك أنه حين يبتغي تفضيل شيء على شيء يجعل المفضل عليه مبتدأ منفياً بما ، ثم يترسل في وصفه ، حتى إذا استوفى ما أراد من هذا الوصف جاء بنجر المبتدأ ، على شاكلة قوله في المعلقة يصف صاحبه وما ينتشر من طيبها :

ماروضةٌ من رياضِ الحَزَنِ مُعْشَبَةٌ خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَظْلٌ^(٢)

يُبْضَا حَكِ الشَّمْسِ مِنْهَا كَوْكَبٌ شَرِيقٌ مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلٌ^(٣)

يَوْمًا بِأَطِيبَ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَةٍ وَلَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذْ دَنَا الْأُصْلُ^(٤)

فقد بدأ بالمبتدأ وهو الروضة ، ووصفها في بيتين مادحاً جمالها وما تمدها به الأمطار وكيف تضاحك الشمس أزهارها ونباتاتها ، ثم قال إن هذه الروضة على حسنها وشذاها العطر ليست أطيب من صاحبه شذى ولا أبهى منظرًا .

وواضح من كل ما قدمنا أن الأعشى يُعَدُّ حلقة مهمة من حلقات الشعر الجاهلي ، وهي حلقة تضيف جديداً واضحاً إلى هذا الشعر سواء في موضوعاته أو في معانيه أو في أحاسيسه أو في سهولة ألفاظه أو في خفة أوزانه وجمال أنغامه وألحانه .

(٣) كوكب : أراد به ما طال من النبات .

شرق : ريان من الماء . وأراد بالمضاحكة

تفتح الأزهار . مؤزر : لايس إزارا . عيم

النبت : ما اجتمع منه وتكاثر . مكتهل : تام .

(٤) الأصل : جمع أصيل وهو الوقت

قبل الغروب .

(١) البطحاء : موضع بقرب ذي قار .

اليبيض : الخوذ . استقلت : ارتفعت

وطلت .

(٢) الحزن : ما غلظ من الأرض وارتفع .

وعندم رياض الحزن أجود وأنقى من رياض

المنخفضات . مسبل هطل : كثير الأمطار .

الفصل الحادى عشر طوائف من الشعراء

١

الفرسان

رأينا القبائل فى الجاهلية تعيش معيشة حربية ، فهى كتاب تنزل للرعى ، وفى الوقت نفسه تجهز بالأسلحة كى تدفع خصومها عن مراعيها ، أو تغير عليهم وتسبى نساءهم وتنبأ أموالهم من الإبل وغير الإبل . وكانوا يحاربون راجلين وركباناً على الإبل والخيل ، وكانوا يرون فى الثانية مزية على الأولى لسرعتها فى الطراد والإغارة ، فأحبوها وعصنوا بها وبتربيتها وصيانتها واستنتاج كرائمتها وترويضها للحروب والسباق . وقد دارت أوصافهم لها فى شعرهم الجاهلى ، فلم يكادوا يتركون عضواً من أعضائها إلا وصفوه ، ولا خصلة ولا عيباً إلا ذكروهما ، وفى معلقة امرئ القيس صورة من وصفهم لخيلهم ، ومن اشهر بوصفها أبو ذؤاد الإيادى وطُفيل الغنوى وسلامة بن جندل التميمى .

واشهر كذلك جماعة من الفرسان الذين أظهروا بطولة نادرة فى حربهم عليها لخصومهم وأقرانهم ، وهم كثيرون ، فقد كان لكل قبيلة فارسها أو فرسانها الذين يتدربون على ركوب الخيل طويلاً وكيف يقفزون عليها ويشهرون سيوفهم ويلوحون برماحهم وكيف يسددون ضرباتهم إلى أعدائهم . وتلقانا دائماً أسماءهم وخاصة فى حروبهم الطويلة مثل حرب البسوس وفارسها المهلهل التغلبى ، وهو الذى أشعل نيرانها ناراً لأخيه كليب ، ويقال إنه أول من هلهل الشعر وأرقه^(١) . وشعره يدور فى رثاء أخيه وتوعده قبيلة بكر بما سينزله بها من هزائم لا تقل شدة ولا فتكاً عن هزائمها السابقة ، وكانت الحرب كما قدمنا فى غير هذا الموضع بين بكر وقبيلته تغلب

وخزاة الأدب البغدادى ٣٠٢/١ .

(١) انظر أخباره فى الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٤/٥ والشعر والشعراء ٢٥٦/١ .

سجّالا ، تارة تنتصر هذه وتارة تنتصر تلك . وكان لا ينّى يحسّس قومه ويدعوهم إلى مواصلة القتال ، مفصحاً في أثناء ذلك عن رغبة حارة في الانتقام ، واسمعه يقول : (١)

وإني قد تركتُ بوارداتٍ بُجَيْرًا في دَمٍ مثلِ العَبِيرِ (٢)
 وهَمَامٌ بنَ مرّةٍ قد تركنا عليه القَشَمَعانُ من النُّسُورِ (٣)
 وصَبَحْنَا الوُخُومَ بيومٍ سَوٍّ يُدافِعُنَ الأَسِنَّةَ بالثُّحُورِ (٤)
 كَأَنَّا غُدُوَّةٌ وَبَنَى أبينا بِجَوْفِ عُنَيْزَةٍ رَحِيًّا مُدِيرِ (٥)
 فلولاً الرِّيحُ أُسْمِيعُ أَهْلُ حِجْرٍ صَلِيلَ البَيْضِ يُقَرِّعُ بالذِّكُورِ (٦)

وواضح أنه يفخر بانتصاراته على بكر في موقعة واردة وموقعة عنيزة ، وقد قَتَلَ في الأولى بجير بن الحارث بن عُبَّاد أحد فرسان بكر كما قتل همام بن مرة أخا جساس ، وكَم قتلوا من عشيرة الوخوم ، ولم يكن يوم عنيزة بأقل من يوم واردة فيها اصطَلتْه بكر من حَرِّ اللقاء .

ومن فرسانهم المشهورين عامر بن الطَّقْفِيل (٧) فارس بني عامر بن صعصعة أقوى عشائر هوازن وأشدّها بأساً ، وكان بنو عامر ينتشرون في أواسط نجد شرق الحجاز ، وجنوبي منازل عبس وذبيان ، وغربي منازل بني تميم ، وكانت مراعيهم تمتد جنوباً حتى بني حنيفة في اليمامة وبني الحارث بن كعب في نجران ومذحج في شمالي اليمن . ولما نشبت الحروب بين عبس وذبيان أخذوا صف عبس ، فاصطدمت بذبيان وأحلافها ، وقد جعلهم انتشارهم في أواسط نجد يحاربون

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ١٧٤ والأغاني ٥٣/٥ .

(٢) واردة : موضع سميت به موقعة حدثت فيه بين بكر وتغلب في حرب البسوس . العبير : الزعفران .

(٣) القشَم من النُور : الضخم ، وهَمَام : أخو جساس قاتل كليب .

(٤) الوخوم : عشيرة من بكر .

(٥) عنيزة : موضع سميت به إحدى وقائع حرب البسوس . والرحيان إذا أدارهما مدير أثرت كل منهما في الأخرى ، والصورة واضحة .

(٦) حجر : قرية باليمامة . البيض : نخود الحرب . يقرع : يضرب . والذكور : أجود السيوف وأينسها وأشدّها .

(٧) انظر أخبار عامر في الأغاني (طبعة الساسي) ٥٠/١٥ ، وراجع ترجمته الشعر والشعراء ٢٩٣/١ والخزائن ٤٧٣/٣ ، والمعمرين ص ٦٠ وشرح النقاظ في يوم فيف الريح ص ٤٦٩ وشعب جيلة ص ٦٥٤ وتاريخ ابن كثير ٥٦/٥ والسيرة النبوية ٢١٣/٤ .

قبائل كثيرة مضرية ويمنية .

ولعامر بن الطفيل ديوان نشره لایل مع ديوان عبيد بن الأبرص في سلسلة جب التذكارية ، وهو فيه دائم الحديث عن فروسيته وحسن بلائه في حروب قومه مع ذبيان في يوم الرقم ويوم ساحوق وغيرها من الأيام . وقد أظهر بطولة نادرة في يوم فيف الريح وكان لقومه على بني الحارث بن كعب النجرانيين وعشائر مذحج ، وتغنى به طويلا في شعره على شاكلة قوله ^(١) :

لقد علمتُ عليا هوازنَ أننى	أنا الفارسُ الحامى حقيقة جعفر ^(٢)
وقد علم المزنوقُ أنى أكره	على جمعهم كَرَّ المنيجِ المشهر ^(٣)
إذا ازورَّ من وقع الرماح زجرته	وقلتُ له : ارجع مقبلاً غير مُذبر ^(٤)
وأنبأته أن الفرار خزاية	على المرء ما لم يُبَلِّ جهداً ويُغذِر ^(٥)
ألست ترى أرماحهم فى شرعا	وأنت حصانُ ماجد العرق فاصبر ^(٦)
وقد علموا أنى أكرُّ عليهم	عشية فيفِ الريح كَرَّ المدور ^(٧)
ومارمتُ حتى بلَّ نحرى وصدرة	نَجِيعُ كهذابِ الدَّمَقِيسِ المسير ^(٨)

وهو يصور في هذه القطعة اقتحامه للحروب ، وكيف أنه لا يتسخطى عن بسالته الحربية ، حتى يحصى عشيرته وضعفاءها ونساءها ، ويقول إنه لا يزال يرد إلى الحرب فرسه المزنوق كلما خرج منها ، وإن ازورَّ عنها أو انحرف دفعه فيها دفعا ، أما الفرار وعاره فدونه الموت ، ويدعو فرسه إلى التأسى به ، فالرماح تنوشه من كل جانب وهو يهجم على أعدائه غير مبال ، ويدعو فرسه إلى الصبر معه ، حتى

(١) المفضليات ص ٣٦١ .

(٢) عليا هوازن : مجموعة من قبائلها هي سعد وجشم ونصر وثقيف . وحقيقة : حمى . جعفر : عشيرة عامر ، وهى جعفر بن كلاب ابن ربيعة بن عامر .

(٣) المزنوق : اسم فرسه . المنيج : من قذاح المسر ويكثر جولانه فى القذاح . فكلما يخرج منها رد فيها .

(٤) ازور : مال وانحرف .

(٥) خزاية : خزى . يعذر : يأتي بعذر .

(٦) شرعا : مسددة .

(٧) المدور : الذى يطوف بالدوار وهو من أصنامهم .

(٨) مارمت : ما برحت . النجيع : الدم .

الدقميس : الحرير . المسير : برود من اليمن

ها خطوط .

ينالا شرف النصر جميعاً ، ويلمع أمام عينيه يوم فيف الريح وما أظهر فيه من بسالة ، ويقول إنه لم يبرح موضعه في ميدان القتال ، حتى غرق نحره وصدر فرسه بالدماء .

واشتهر عامر كما مر بنا بمنافرتة لعلقة بن عُلانة ابن عمه ، بسبب منافستهما على سيادة عشيرتهما ، وقد احتكما إلى هيرم بن قُطبة الفزاري ، فسوّى بينهما - كما مر بنا - في عبارته المأثورة إذ قال لهما : « أنما كركبتي البعير الأدْرَم (الفحل) تنعان إلى الأرض معاً » . وقد تقدم أن الأعشى كان ممن وقفوا في صف عامر ضد لعلقة . وقد وفد عامر على الرسول صلى الله عليه وسلم سنة تسع للهجرة ، غير أن الله لم يوفقه للإسلام ، ففضى على وجهه ، والرسول غضبان عليه ، ولم يلبث أن مات بالطاعون عن اثنتين وستين سنة .

ولا نغلو إذا قلنا إن أهم فارس احتفظت به ذاكرة العرب في أجيالهم التالية إلى يومنا الحاضر هو عنتر بن شداد ^(١) (وقيل ابن عمرو بن شداد) العَبَسِيّ ، وكان أبوه من أشراف عبس ، أما أمه فكانت حبشية يقال لها زبيبة ، وقد ورث عنها سواده ، ولذلك كان يعد من أغربة العرب ، كما ورث عنها تشقق شفثيه ، ولذلك كان يقال له عنتر الفلّحاء . وكان من عادة العرب في الجاهلية إذا استولدوا الإماء أن يسترقوا أبناءهم ولا يلحقوهم بأنسابهم إلا إذا أظهروا نجابة وشجاعة . ومن ثم لم يعترف شداد بعنتره ابناً له إلا بعد ما أبداه من بسالة في حروب داحس والغبراء ، وقد ظل يذكر هذا الجرح الذي أصابه في الصميم ، وفي ذلك يقول ^(٢) :

إني امرؤ من خير عبس منصباً شطري ، وأخمي سائري بالمنصل ^(٣)
ولذا الكتبية أحجمت وتلاحظت ألفت خيراً من معمم مخول ^(٤)

وواضح أنه يشير إلى كرم أصله الأبوي أو شطره الأول ، أما شطره الثاني من جهة أمه فتنوب عنه شجاعته واقتحامه للحروب ، حتى غدا في قومه خيراً ممن

مجموعة « مختار الشعر الجاهل » . وطبع الديوان طبعات أخرى في بيروت والقاهرة وليدن .

(٢) مختار الشعر الجاهل ص ٣٨٨ .

(٣) منصبا : أصلاً . المنصل : السيف .

(٤) تلاحظت : نظرت من يقدم على العدو .

(١) انظر في عنتر الأغاني (طبعة دار الكتب) ٢٣٧/٨ والشعر والشعراء ٢٠٤/١ وما بعدها والخزانة ٥٩/١ وراجع ديوانه برواية الأصمعي ، في مخطوطة الشتمري « شرح الدواوين الستة » بدار الكتب المصرية . وقد طبع مصطلق السقا نص المخطوطة بشرح مختصر في

عنه وخاله من سادتهم ، إذ لا يغنى القبيلة أحد غناه ولا يزود عن حماها
زياده ، ويصور لنا في نفس القصيدة شجاعته وجرأته تصويراً باهراً إذ يقول :

بَكَرْتُ تَخَوُّفِي الْحُتُوفَ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الْحُتُوفِ بِمَغْزَلٍ (١)
فَأَجَبْتُهَا إِنْ الْمَنِيَّةُ مَنَهْلٌ لَا بَدَّ أَنْ أُسْقَى بِكَأْسِ الْمَنَهْلِ (٢)
فَأَقْنَى حَيَاءُكَ لَا أَبَالِكِ وَأَعْلَمِي أَنِّي أَمْرٌ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أَقْتُلْ (٣)
إِنْ الْمَنِيَّةُ لَوْ تَمَثَّلَ مَثَلْتُ مِثْلِي إِذَا نَزَلُوا بِضَنْكِ الْمَنْزَلِ (٤)
وَالْخَيْلُ سَاهِبَةٌ الرَّجُوهُ كَأَنَّمَا تُسْقَى فَوَارِسُهَا نَقِيعَ الْحَنْظَلِ (٥)

فهو لا يستمع إلى تخويف صاحبه له مما قد يلقاه من المكاره والمتالف بسبب
تهافته على الحروب ، بل إنه ليصم أذنيه عن نداءها قائلاً لها إن المنية مورد كل إنسان
ولابد أن أموت ، فليكن موتى شريفاً في ميدان الحروب . ويدعوها أن تصون
حياءها ، فهو ميت على كل حال ، وخير له أن يموت مناضلاً عن قومه مدافعاً
عن نسائهم وأطفالهم وضعفائهم . ولا يلبث إحساسه ببطولته أن يتضخم في نفسه ،
فلذا هو يتصور أن المنية لو خلقت في مثال لكانت في مثل صورته وخلقته ،
وهو يقتحم الصفوف ، والخيـل ساهمة من هول الحرب ، والفرسان كالحية وجوهم
كأنما يشربون من نقيع الحنظل .

وقد طارت شهرة عنتر بالفرسية والشجاعة النادرة منذ الجاهلية ، وما زالت
ذكره عالقة بأذهان العرب إلى اليوم ، فهو مثلهم الأعلى في البسالة والبطولة الحربية ،
وقد اتخذت من أخباره نواةً للملحمة المعروفة باسمه والتي يمكن أن تعد لإيادته
العرب ، وهو فيها يحارب في الجزيرة العربية وخارجها في الحبشة وإيران وبلاد الروم
والفرنج وشمال إفريقيا والأندلس ، وينازل الصليبيين ، وبذلك كانت هذه القصة
أو السيرة تلخص تاريخ العرب وملحمة فروسيته في الجاهلية وفي الفتوح الإسلامية
وبعد الفتوح في حروبهم مع الروم والصليبيين في الشرق والغرب .

ونحن لا نعتي الآن بعنتر الأسطورة ، إنما نعني بعنتر الفارس الجاهلي الذي

(٤) الضنك : الضيق .

(٥) ساهمة : متفيرة .

(١) الحتوف : المتالف .

(٢) منهل : مورد .

(٣) اقنى : احفظى وصوفى .

دَوْخَ الأفران والأبطال في حروب داحس والغبراء ، وبذلك غسل مذمة ولادته ولونه وفسّح شفتيه ، والذي لاشك فيه أنه كان على خلق عظيم وأنه كان يجمع إلى فروسيته المادية فروسية معنوية أو خلقية .

ولا بد أن نلاحظ بصفة عامة أن الفروسية الجاهلية بعثت في نفوس أصحابها ضرباً من التسامى والإحساس بالمرودة الكاملة فإذا هم يتغنون دائماً بمجموعة من الفضائل والحصول الحميدة ، وأقرأ فيهم فستراهم يتحدثون عن كرمهم الفياض وفائهم وحلمهم وأنفتهم وعزتهم وصبرهم على الشدائد وتحمل المشاق وحفاظهم على العهد وحماية الجار . وهو جانب واضح في أشعار عنتره ، ونظن ظناً أنه نمّاه عنده ما قصه الرواة من أنه طلب عسيلة من عمه مالك فأبأها عليه لسواده ، ولأنه ابن أمة ، وقد ظل يتغنى بها طوال حياته تغنى الحب المحروم ، وهو تغنى نستشف فيه غير قليل من الإحساس بالحزن واليأس . ومن ثمّ كان يمكن أن يُعَدَّ أباً لشعر الحب العلوى عند العرب ، كما يعدّ فعلاً أباً للفروسية العربية بخصالها وخلالها النبيلة السامية التي استرعت أنظار الصليبيين ، فاتخذوا منها مثالا لفروسيّتهم وما انطوى فيها من حب عذرى^(١) .

وَرَدَّ البَصَرِ في أشعار عنتره فستجده يأسر لبك بمثله الخلقية الرفيعة ، فهو مع فروسيته وبذله لنفسه في سبيل قومه سمح السجّايا سهل المخالطة والمعاشرة لا يبني على غيره ولا يحتمل البغى ولا يظلم ولكنه لا يستكين للظلم ، فإن ظلم تحول كالإعصار العاصف حتى يأتي على ظالمه . وقد يشرب الخمر ولكنها لا تفسد مروته ، وإذا دعاه داعي المكرمات لبى بأذلا كل ما يملك عن طيب نفس ، يقول - في معلقته - مخاطباً ابنة عمه عيلة التي شغف قلبه بها حباً :

أثني علىّ بما علمتْ فإنني سَمَحُ مُخالقتي إذا لم أظلم .
فإذا ظلمتْ فإن ظلمي باسلٌ مُرٌّ مذاقته كطعم العَلَقَمِ^(٢)

بالفروسية ص ٤٤٦ وما بعدها .

(٢) باسل : كره .

(١) انظر قصة الحضارة لول ديورانت الجزء

الثالث من المجلد الرابع ، الفصل الخامس الخاص

ولإذا شربتُ فإننى مستهلكٌ مالى ، وعِرضى وافِرٌ لم يكَلَمْ^(١) .
ولإذا صحتُ فما أقصّر عن ندى وكما علمتُ شئائى وتكرمى

ويتحدث إليها عن فروسيته وبسالته فى الطعن والتزال وصراع الأقران وكيف
ينصبُّ عليهم كالقضاء النازل أو كشواظ من نار يحرق ويُصمى . ولا يلبث أن يعود
إلى الحديث عن كرم نفسه وشرف طباعه ، فيقول :

يخبرك من شهد الوقائع أننى أغشى الوغى وأعفُ عند المغنم^(٢)

فهو يتقدّم فى أهوال الحروب وخطوبها ، أما عند الأسلاب فيتردد ويحجم
ويتعفف وكأنه ليس صاحبها . إنه لا يحارب من أجل الأسلاب والغنائم ، وإنما
يحارب ليكسب لقومه شرف الانتصار . وما يزال يحدثنا فى شعره عن كرامته ،
وشعوره القوى بعزته وأنه لا يقبل الضيم والهوان ، يقول فى لاميته^(٣) :

ولقد أبيتُ على الطوى وأظله حتى أنال به كريمَ المأكلى

فالجوع حتى الموت خير من الطعام الحبيث الدنى . وعلى هذه الشاكلة ما تزال
تلقانا فى أشعاره معان نبيلة ، وهى معان ارتفعت عنده إلى أروع صورة للنبل
الخلقى ، حتى لنراه يرقُّ لأقرانه الذين يسفك دماءهم ، يقول — فى معلقته —
وقد أخذه التأثر والانفعال الشديد لبطشه بأحدهم :

فشككتُ بالرمح الطويل ثيابه ليس الكريمُ على القنا بمحرّم^(٤)

فهو يرفع من قدر خصمه ، فيدعوه كريماً ، ويقول إنه مات ميتة الأبطال
الشرفاء فى ساحة القتال . وكان يجيش بنفسه لإحساس عميق نحو فرسه الذى يعايشه
ويعاشره حين تنال منه سيوف أعدائه ورماحهم ، يقول مصوراً آلامه وجروحه
الجدسية وقروحه النفسية :

(١) يكلم : يجرح . والطوى : ضمور البطن ، ويريد به الجوع .

(٢) الوغى : الحرب .

(٣) غنار الشعر الجاهل للسقا ص ٣٨٧ .

(٤) يريد بالثياب جسده ويدنه .

فازور^(١) من وَقَعَ القَنَا بِلَبَانِهِ وشكا إلى بَعْبِرَةٍ وَتَحْمُحُم^(٢)
لو كان يَدْرِي ما المحاورَةُ اشتكى ولكن لو عَلِمَ الكلامَ مُكَلِّمِي

وكأنما فرسه بضعة من نفسه . وبهذه الرقة والرحمة كان يعامل النساء سيئات
وغير سيئات ، فإذا سبي امرأة لم يقربها إلا بعد أداء صداقها إلى أهلها . وكما للسبية
حُرْمَتها كذلك لامرأة جاره ، وخاصة إذا كانت زوجة صديق ، فإنه يَغْضُ
طرفه عنها ولا يُتْبِعُها قلبه وهواه ، يقول^(٣) :

ما استمتُ أنثى نفسَهَا في موطنٍ حتى أوفَى مَهْرَهَا مولاهَا^(٤)
أَغْشَى فتاةَ الحَيِّ عند حَلِيلِهَا وإذا غَزَا في الحرب لا أَعْشَاهَا^(٥)
وأغْضُ طَرْفِي ما بدتْ لي جارِي حتى يوارِي جِسانِي مأواها
إني امرؤُ سَمَحُ الخَلِيقَةِ ماجِدٌ لا أَتْبِعُ النفسَ اللّجُوجَ هواها

وعنتره بهذا كله يصور لنا المروءة الجاهلية الكاملة ، وهي مروءة طرّزها حب
عذري عفيف لابنة عمه عبلة ، وحقاً إن هذا الحب إنما شاع في بوادي نجد في أثناء
العصر الأموي ، بسبب المعاني الروحية التي بثّها الإسلام في نفوس العرب ،
وهو لم يشع في الجاهلية ، إنما ظهر عند بعض الأفراد من الفرسان مثل عنتره ،
فقد كان يتسامى لا في خلقه فحسب ، بل أيضاً في حبه ، وقد جعله ذلك يستشعر
غير قلب من الأسى والحزن حين رفض عمه يده ، فلم يزوجه من ابنته . ومضى يحبها
حباً عتيقاً ، أو قل حباً يائساً محروماً فيه طهارة النفس ونقاؤها وفيه الفؤاد الملدّع
الذي يكظم حزنه فتفضحه عبراته ، يقول^(٦) :

أفمن بكاء حمامة في أَيْكَةٍ ذرفت دموعك فوق ظهر المِحْمَلِ^(٧)

(١) ازور : مال وأنحرف . الليان :

الصدر . التحمحم . صهيل فيه شبه الأتین

(٢) مختار الشعر الجاهل ص ٤٠٩ .

(٣) استام المرأة : راودها عن نفسها .

الموطن هنا : موطن القتال .

(٤) أغشى : أزور .

(٥) مختار الشعر الجاهل ٣٨٧ .

(٦) أَيْكَة : شجرة . ذرفت : سالت .

المحمل : علاقة السيف .

فالحمام يهيجه كما يهيجه النسيم الذى يهب من صوبها ، وكما تهيجه الرسوم والأطلال ، إذ يعث الحنين بعقله وبقلبه ، يقول فى معلقته :

حُبَيْتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ^(١)
ولقد نزلت - فلا تَظُنِّي غيره - منى بمنزلة الْمُحَبِّ الْمُكْرَمِ

ودائماً نراه يعبر عن ظمأ شديد إلى رؤيتها ، لا لغاية حسية ، ولكن ليمتع طرفه بجملها . ومن أهم ما يلاحظ عنده أنه يقدم لها فى معلقته وغير معلقته مغامراته الحربية ، فمن أجلها يحارب ويستبسل فى القتال ، ومن أجلها يذود عن قومه ويحمى حمامهم ، ومن أجلها يسوق كل مناقبه وعامده . وكان حين يشتد القتال يلمع خيالها أمام عينيه فيندفع كالثور الهائج ، يقول :

ولقد ذكرتكِ والرَّماحُ نواهلُ منى وبِئْسَ الْهَنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَى
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السِّيفِ لَأَنَّا لمَعَتْ كِبَارِقِ ثَغْرِكَ الْمَتَبَسِّمِ

فهو دائم الذكر لها فى وغى الحرب ، حتى حين تعث به سيوف أعدائه ورماحهم ، إنه من أجلها يحارب ويخطر ويفامر ، فلا غرو أن يذكرها فى ساعات القتال الحرجة ، فإذا هو يتحول إلى أسد ضار لا يعبس ، بل يتبسّم ، لأنها تترامى له من خلال بريق السيوف ، فيؤمن بأنه منتصر .

وعلى هذا النحو تكاملت الفروسية عند عنتره ، فلم تصبح فروسية حربية فجسب ، بل أصبحت فروسية خلقية سامية ، فيها الحب الطاهر العفيف الذى يجعل من المحبوبة مثلاً أعلى والذى يرتفع صاحبه عن الغايات الجسدية الحسية إلى غايات روحية تنم عن صفاء النفس وبقاء القلب ، وفيها التسامى عن الدنيا والنقائص الذى يملأ النفوس بالأئفة والإباء والعزة والكرامة والحس المرهف والشعور الدقيق . ويقال إنه قُتِلَ فى غارة له على بنى تَبَيْهَانَ الطائيين بعد أن تقدمت به السن ، إذ أصابه أحد رماثهم بسهم من سهامه ، ويقال بل مات حتف أنفه^(٢) .

(١) أقوى وأقفر : خلا من كان يسكنه . (٢) انظر الأغاني ٨/ ٢٤٥ .

الصعاليك (١)

الصعلوك في اللغة الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة ، ولم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة ، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق . ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات : مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدي وقيس بن الحذاء أدية وأبي الطمحان القيسني ، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود ، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السلييك بن السلوك وتابط شراً والشنفرى ، وكانوا يشركون أمهاتهم في سوادهم فسمواهم وأضرابهم باسم أغربة العرب ، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات ، غير أنها احترفت الصعلكة احترافاً ، وحينئذ قد تكون أفراداً مثل عروة بن الورد العبسي ، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي .

وتتردد في أشعارهم جميعاً صيحات الفقر والجوع ، كما تموج أنفسهم بشوة عارمة على الأغنياء والأشحاء ، ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العدو حتى ليسمون بالعدائين ، وحتى لتضرب الأمثال بهم في شدة العدو ، فيقال : « أعدى من السلييك » و « أعدى من الشنفرى » وتروى عنهم أقاصيص كثيرة في هذا الجانب ، من ذلك ما يقال عن تابط شراً من أنه « كان أعدي ذى رجلين وذى ساقين وذى عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الطباء ، فينتقى على نظره أسنمها ، ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته ، حتى يأخذه فيذبجه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله » (٢) . وكما كانوا يحسنون العدو كان كثير منهم يحسن ركوب الخيل والإغارة عليها ، ويقال إنه كان للسلييك فرس يسمى النحام (٣) ،

(١) راجع بحثاً في الشعراء الصعاليك ليوسف

(٢) الأغاني ١٨ / ٢١٠ .

(٣) ذيل الأمال للقاتل من ١٨٨ .

خليف (طبع دار المعارف) .

وللشفرى فرس يسمى السَحْمُوم^(١)، أما اسم فرس عروة بن الورد فقَرَمَل^(٢).
وكانوا يغيرون أحياناً فرادى وأحياناً في جماعات .

وكانت أكثر المناطق التي يغيرون عليها مناطق الحصب، وكانوا يرصدون طرق القوافل التجارية وقوافل الحجاج القاصدة إلى مكة ، ومعنى ذلك أنهم كانوا ينتشرون حولها في جبال السَّراة كما كانوا ينتشرون بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية ففي كل هذه الجهات يكثر هؤلاء الذؤبان من قطع الطرق وقراصنة الصحراء . وهم في أشعارهم يتغنون بمغامراتهم ونراهم في أثناء ذلك يتمسحون بالكرم كما نرى فيهم كثيراً من البر بالأقارب والأهل ، وأيضاً فإننا نحس عندهم غير قليل من الترفع والشعور بالكرامة في الحياة ، ويصور لنا ذلك أبو خيرا ش الهذلي فيقول^(٣) :

وإني لأتوَّى الجوعَ حتى يملئني فيذهبَ لم يَدْنَسْ ثيابي ولا جِرْمِي^(٤)
وأغْتَبِقُ الماءَ القراحَ فأنتهى إذا الزادُ أَمْسَى للمزْلَجِ ذا طعمِ^(٥)
أردُّ شجاعَ البطنِ قد تعلمينه وأوشُرُ غيري من عِيالك بالطَّعمِ
مخافة أن أحيَا برغمِ ودلَّةٍ وللموتِ خيرٌ من حياةٍ على رَغْمِ

فهو يفتخر لزوجه بأنه يصبر على الجوع ، حتى ينكشف عنه ، دون أن يلحقه فيه ضيم ، وإنه ليكفيه الماء القراح بيناً يتخم من حوله أشحاء النفوس بالطعام ، أما هو فحتى إن وجد الطعام أثر به عياله وأولاده . وكل ذلك يصنعه حتى لا يوصم بعار الذل . وسنرى عما قليل عروة بن الورد يعبر عن مثالية خلقية رفيعة لا تقل جمالاً عن مثالية عترة . وكأنما تحولت الصعلكة في أواخر العصر الجاهلي إلى نظام يشبه نظام الفروسية ، وهي حقاً تقوم على السلب والنهب ، ولكنهم كانوا لا يسلبون ولا ينهبون ميئاداً كريماً ، وأقرأ في صعاليك هذيل من مثل أبي كبير والأعلم وفي السليك وتأبط شرّاً وغيرهم فستجد للصعلوك مثاليته في الحياة أو على

(١) ديوانه المطبوع في لجنة التأليف والترجمة

والنشر ص ٤٠ .

(٢) ديوانه (طبع الجزائر) ص ١٢٠ .

(٣) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب

المصرية) ١٢٧/٢ والأغاني ٤٢/٢١ .

(٤) أنوى : أحبل حبه .

(٥) أغتبق : أشرب عشاء . القراح :

الصاق . المزلاج : البخيل .

الأهل متجدد من بينهم من يصورون مستوى خلقاً رفيعاً من البير، وإن كان ذلك لا يمنع من أن فريقاً منهم عاش سفاحاً لا يرعى عهداً ولا ذمة . وتقف قليلاً عند أكثرهم دوراناً على الألسنة ، وهم تأبط شرّاً والشنفرى وعروة بن الورد .

أما تأبط شرّاً فمن قبيلة فهم واسمه ثابت ^(١) بن جابر بن سفيان ويعد في أغربة العرب ، إذ كان ابن أمة حبشية سوداء ، فورث عنها سوادها ، وقيل بل أمة حرة من فهم تسمى أميمة . واختلاف القدماء في تعليل لقبه «تأبط شرّاً» فقيل لقبته به أمه إذ تأبط سيفاً وخرج ، فلما سُئِلت عنه قالت : تأبط شرّاً ومضى لوجهه ، وقيل بل سمته أو لقبته بذلك لأنها رأته يتأبط جراباً مليئاً بالأفاعى . وربما كانت قبيلته هي التي لقبته بهذا اللقب لكثرة ما كان يرتكب من جنائيات وجرائم ، أى إنه يحمل دائماً في أطوائه شرّاً يريد أن ينفذه . ويظهر أن أباه مات وهو صغير ، فتنزّجت أمه بأبي كبير الهذلي ، وكان صعلوكاً كبيراً ، فخرّجه على شاكلته ، وربما كان لسواده وتعبير عشيرته له به وبأنه ابن أمة أثر في تصعلوكه . وكان يرافق الشنفرى في كثير من غاراته كما كان يرافقهما صعلوك آخر يسمى عمرو بن براق . وليس له ديوان شعر مطبوع ، غير أن له أشعاراً كثيرة مشورة في كتب الأدب ، وتروى له مغامرات مختلفة ، وهي مطبوعة بطابع القصص الشعبي ، مما أتاح للانتحال أن يلعب دوراً واسعاً فيها نُسب إليه من أشعار ، فمن ذلك لاميته التي أنشدتها أبو تمام في حماسته يرثى بها خاله والتي تسهل بقوله : « إن بالشعب الذي دون سلع » فقد ذكر الرواة أنها لما نحلته إياه خلف الأحمر ^(٢) . ويمكن أن ندخل في هذا الباب من الانتحال ما يروى له من أشعار يقص علينا فيها لقاءه للجنّ أو للقول . وقد روى له صاحب المفضليات قصيدة طويلة جعلها فاتحة كتابه ، وهو يستهلها بالحديث عن الطيف ، ولا يلبث أن يتحدثنا عن إحدى غاراته أو مغامراته الفاشلة مع صديقيه الشنفرى وعمرو بن براق على بجيلة في الطائف ، إذا أرصدوا ولم كيناً على ماء أو ثتهم غير أنه وصاحبه دبروا حيلة بارعة ، نجوا بها عدواً على الأقدام ، ويصور لنا عدوه وشده السريع حيثئذ يقول :

(٢) انظر تعليق التبريزي على القصيدة في

شرحه لديوان الحماسة .

(١) انظر ترجمته في الأغاني ٢٠٩/١٨ والشعر

والشعر ٢٧١/١ . وشرح شواهد المغني للسيوطي

ص ١٩ ، ٤٣ ، والمغازاة ٦٦/١ .

لَيْلَةَ صَاحُوا وَأَغْرَوْا بِي سِرَاعِهِمْ
كَأَنَّمَا حَشَحُوا حُصَا قَوَادِمُهُ
بِالْعَيْكَتَيْنِ لَدَى مَعْدَى ابْنِ بَرَّاقِ^(١)
أَوْ أَمْ خَشَفَ بَذَى شَتِّ وَطْبَاقِ^(٢)
وَذَا جَنَاحٍ بِجَنْبِ الرِّيدِ خَفَّاقِ^(٣)
حَتَّى نَجَوْتُ وَلَا يَنْزِعُوا سَلْبِي
وَوَاضَحَ أَنَّهُ يَذْكَرُ كَيْفَ فَاتَ عَدَّائِي بِجِيلَةِ لَيْلَةٍ صَاحُوا بِهِ وَأَسْرَعُوا مِنْ خَلْفِهِ
هُوَ وَصَاحِبُهُ ابْنُ بَرَّاقِ ، وَيَقُولُ لِنَهْمِ أَثَارِهِ حَتَّى غَدَا أَسْرَعَ مِنَ الظَّلِيمِ وَالظُّلْمَةِ ،
وَحَتَّى أَصْبَحَتْ الْخَلِيلُ الْجِيَادُ لَا تَلْحَقُ شَأْوَهُ ، بَلْ حَتَّى الطَّيْرُ أَصْبَحَتْ تَقْصُرُ
عَنْ عَدْوِهِ ، وَكَأَنَّمَا جُنَّ جَنُونُهُ . وَيَمْضِي فَيَرْسُمُ لَنَا صُورَةَ الصُّعْلُوكِ مِنْ أَمْثَالِهِ الَّذِي
يَقْدِرُهُ وَيَجْلُهُ ، قَائِلًا :

لَكِنَّمَا عَوَّلِي إِنْ كُنْتُ ذَا عَوَّلٍ
سَبَّاقٍ غَايَاتِ مَجْدٍ فِي عَشِيرَتِهِ
عَارِي الظَّنَابِيْبِ مُمْتَدِّ نَوَاشِرُهُ
حَمَالِ أَلْوِيَةِ شَهَادِ أَنْدِيَةِ
فَذَاكَ هَمِّي وَغَزَوِي أَسْتَعِيْثُ بِهِ
عَلَى بَصِيرٍ بِكَسْبِ الْحَمْدِ سَبَّاقِي^(٤)
مُرْجِعِ الصَّوْتِ هَذَا بَيْنَ أَرْفَاقِي^(٥)
مِثْلَاجٍ أَذْهَمَ وَاهِي الْمَاءِ غَسَّاقِي^(٦)
قَوَالٍ مُحْكَمَةٍ جَوَابِ آفَاقِي^(٧)
إِذَا اسْتَغَثْتَ بِضَافِي الرَّأْسِ نَعَّاقِي^(٨)

كالعويل .

- (١) مرجع الصوت : يصيح آمراً ناهياً .
أرفاق : رفاق . أهد : الصوت الغليظ .
(٢) عاري الظنابيب : خفيف اللحم ،
وأصل الظنوب عظم الساق . النواشر : عروق
ظاهر الذراع . تمتد النواشر كناية عن طول
الذراع وإكتمال الخلق . الأدهم : الليل .
واهى الماء : مطره شديد . غساق : شديد الظلمة .
(٣) المحكمة : الكلمة الفاصلة .
(٤) غزوى هنا : مقصدي . ضافي الرأس :
كثير الشعر لا يتماذهد لكثرة غزوه . نعاق :
يكثر من الصياح .

- (١) العيكتان : موضع . معدى : عدو .
(٢) حشحو : حركوا وأثاروا . القوادم :
ما يلي الرأس من ريش الجناحين . الحص :
جمع أحص وهو ما تناثر ريشه وتكرس لسرعته ،
يريد بذلك الظلم . الخشف : ولد الظبية .
الشث والطباق : من نباتات الصحراء .
(٣) ذا العذر : الفرس . والعذر : ما أقبل
من شعر الناصية على الوجه . وذا جناح : يريد
الطير . الريد : حرف الجبل .
(٤) السلب : ما يسلب في الحرب .
الواله : ذاهب العقل . القبيض : السريع .
الشث : العدو . غيداق : واسع .
(٥) العويل : الاستغاثة ، وأصله رفع الصوت

فهو إنما يعول على هذا الصعلوك المثالي الذي يشركه في غزواته والذي يتصف بسبقه إلى المحامد في عشرته ، كما يتصف بجهازة صوته وزعامته بين الرفاق وبضهور جسمه وقوته وصلابته وجرأته في اقتحام الليالي المظلمة الممطرة حتى إذا كانت الحرب كان المقدم فيها الذي يحمل لواءها ، وإذا كانت السلم كان ذا رأى صائب يتردد في مجالس العشيرة وأنديتها . ولا ينسى أن يضيف إلى هذه الخصال خصلة الكرم ، ويجعلها حواراً بينه وبين شخص يعذله على كثرة كرمه وإفراطه فيه ، حتى إنه لا يبقى على شيء لغده ، ويزجره زجراً شديداً ، يقول :

بَلْ مَنْ لَعْدَالَةٍ خَذَالَةٍ أَشْبِ
حَرَقَ بِاللُّومِ جِلْدِي أَيْ تَحْرَاقِ^(١)
يقول أهلك ما لا لو قنعت به من ثوبِ صِدْقٍ ومن بَزٍّ وَأَعْلَاقِ^(٢)
عاذلتني إن بعض اللومِ مَعْنَفَةٌ وهل متاعٌ وإن أبقيته باقِ^(٣)

ولعل في هذه الأبيات وما سبقها ما يدل في وضوح على أن الصعلوك الذي كان يقطع الطريق في الجاهلية كانت تنعكس عليه أحياناً صفاتُ الفروسية وما بعث لعصره من سمو في الأخلاق . وما زال تأبط شرا يقوم بمغامراته حتى قُتل في إحدى غاراته بمنازل هُدَيْل .

أما الشَّنْفَرَى فكان من عشيرة الإواس^(٤) بن الحجر الأزدي اليمنية ، فهو قحطاني النسب ، ويدل اسمه ، ومعناه الغليظ الشفاه^(٥) ، أن دماء حبشية كانت تجرى فيه من قبل أمه ، فهي أمة حبشية ، وقد ورث عنها سوادها ولذلك عُذِّ في أغربة العرب . ولا نراه ينشأ في قبيلة الأزد ، إنما ينشأ في قبيلة فُهَم ، ويضطرب الرواة في سبب نزوله مع أمه وأخ له بها ، وربما كان أقرب ما يروونه من ذلك أن قبيلته قتلت أباه ، فتحولت أمه عنها إلى بني فهم ، وبما يرجح ذلك أننا نجده يخص بغزواته بني سلامان الأزديين معلناً في أشعاره أنه يقتصص لنفسه منهم . ويقال

(٤) انظر في ترجمة الشنفرى الأغاني (طبع الساسي) ٨٧/٢١ وغزاة الأدب ١٤/٢ وما بعدها وشرح المفصليات لابن الأنباري ١٩٥ وما بعدها وذيل الأمالي ص ٢٠٨ وما بعدها ، والشعراء الصاملي ص ٣٢٨ .
(٥) غزاة الأدب ١٦/٢ .

(١) العذالة : كثير العذل . الخزاة : كثير الخللان لصاحبه . أشب : معترض . يريد من يعين على هذا العذالة .
(٢) ثوب صدق : ضد ثوب سوء . البز : الثياب والسلاح . الأعلاق : كرائم المال .
(٣) معنفة : عنف .

إن الذى رَوَّضه على الصعلكة وقطع الطرق تأبط شرا ، فكان يغير معه ، حتى صار لا يُقام لسبيله^(١) . وما زال يغير على الأزد ، وينكل بها ، حتى قَتَلَ ، فيما يقص الرواة ، تسعة وتسعين ، انتقاماً لأبيه ، وأخيراً يرصدون له كميناً ، فيقع فيه ، ويمثلون به تمثيلاً فظيعاً ، يقطعون فيه جسده تقطيعاً ، ويرمون به للسباع ، ويقال إن رجلاً عثر بمجمسته ، فعقرته ، فمات . وبذلك يبلغ قتلاه من الأزد مائة . وخيوط الأسطورة واضحة في مقتل الرجل المكمل للمائة ، وتلعب هذه الخيوط في أخباره جميعاً كما تلعب في أخبار تأبط شرا رفيقه .

وللشفرى ديوان شعر صغير طُبِعَ في لجنة التأليف والترجمة والنشر بمجموعة الطرائف الأدبية ، وما اشتهر له لامية العرب ، وهى مما نُحِلَ عليه ، فقد نصَّ الرواة على أنها من صنع خلف الأحمر^(٢) ، وقد أحكم صناعها وساق فيها اسم موضع في جنوبي اليمن هو إحاظلة ليدل على أن قائلها كان يتجول في هذه الأنحاء ، وحتى يكون ذلك أدعى إلى تصديقها والثقة بها . وهى تصور تصويراً حياً حياة الصعلوك الجاهلى وروحه البدوية الوحشية . ويحانب هذه القصيدة المنتحلة نجد له قصيدته الثائية الطويلة التى رواها المفضل فى مفضلياته ، ثم مجموعة من المقطوعات ، ويبدو فى أشعاره على شاكلة تأبط شرا هزيعاً نحيلاً يلبس ثياباً بالية ونعلاً ممزقة . ولو لم يصلنا إلا تائيته لكان ذلك كافياً فى تصور حياته ومغامراته ، وقد سبق أن تمثلنا بأبيات منها فى وصف زوجته أميمة نعتها فيها بأخلاقية مثالية ممتازة ، ثم مضى يصف غارة أغارها على بنى سلامان فى جمع من رفاقه الصعاليك وعلى رأسهم تأبط شرا ، ونراه فى مسهل وصفه يحدثنا أنه كان يقودهم ويعرفنا بالطريق الذى سلكوه ، وأنهم كانوا راجلين ، يقتحمون الصعاب ، غير هيايين ولا وَّجِلين ، يقول :

وباضعة حُمُرِ الْقَيْسِ بَعَثْتُهَا وَمَنْ يَغْزُ يَغْنَمُ مَرَّةً وَيُشْمَتُ^(٣)
خرجنا من الوادى الذى بين مشعلٍ وبين الجبَّاءِ هيهات ، أنشأتُ سُرْبَتِي^(٤)

تحمّر لقدمها وطول تعرضها للشمس . يشمت : ينجب ويفشل .
(٤) مشعل وألبجا : موضعان . السربة : الجماعة . أنشأت : أظهرت من مكان بعيد .

(١) شرح المفضليات ص ١٩٦ وما بعدها .
(٢) الأمال للقال (الطبعة الأولى) ١٥٧/١ .
(٣) باضة : قاطعة . ويريد بها رفاقه الصعاليك ، بعثها : غزوت بها . حمُر القيس ، يقال إنها

أَمْشَى عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي لَنْ تَضُرَّنِي لِأَنْكَيْ قَوْمًا أَوْ أَصَادِفَ حُمْنِي^(١)
أَمْشَى عَلَى أَيْنِ الْغَزَاةِ وَبُعْدَهَا يَقْرُبُنِي مِنْهَا رَوَاحِي وَغُدُوَّتِي^(٢)

وهو يعترف في البيت الأول بأنهم قد يرجعون خائبين أو مهزومين من غارتهم أو غزوتهم ، ولكن ذلك لا يرددهم عن الغزو ، بل يدفعهم دفعاً إليه ، فهم لا يتهيبون الموت ولا وعشاء الطريق . ويصور لنا كيف كان تأبط شرا يحمل زادهم ويقتصر عليهم في الطعام خيفة أن تطول الغزاة بهم فيموتوا جوعاً ، ويقص علينا ذلك في مداعبة طريفة له ، إذ يدعوه أمهم ، وهو وأصحابه عيالها ، يقول :

وَأُمُّ عِيَالٍ قَدْ شَهِدَتْ تَقَوُّتَهُمْ إِذَا أَطْعَمَتْهُمْ أَوْتَحَتْ وَأَقْلَتِ^(٣)
تَخَافُ عَلَيْنَا الْعِيْلَ إِنْ هِيَ أَكْثَرَتْ وَنَحْنُ جِيَاعٌ ، أَيُّ آلٍ تَأَلَّتِ^(٤)
مُصْعَلِكَةٌ لَا يَقْصُرُ السُّتْرُ دُونَهَا وَلَا تُرْتَجَى لِلْبَيْتِ إِنْ لَمْ تُبَيَّتِ^(٥)
لَهَا وَفْضَةٌ فِيهَا ثَلَاثُونَ سَبْحَةً إِذَا آتَسَتْ أَوَّلِي الْعَدَى اقْتَشَعَتْ^(٦)
وَتَأْتِي الْعَدَى بَارِزًا نِصْفُ سَاقِهَا تَجُولُ كَعَيْرِ الْعَانَةِ الْمُتَلَفِّتِ^(٧)
إِذَا فَزَعُوا طَارَتْ بِأَبْيَضٍ صَارِمٍ وَرَامَتْ بِمَا فِي جَفْرِهَا ثُمَّ سَلَّتِ^(٨)
حُسَامٍ كُلُّونَ الْمِلْحِ صَافٍ حَدِيدُهُ جُرَازٍ كَأَقْطَاعِ الْغَدِيرِ الْمُنْعَتِ^(٩)
تَرَاهَا كَأَذْنَابِ الْحَسِيلِ صَوَادِرًا وَقَدْ نَهَلَتْ مِنَ الدَّمَاءِ وَعَلَّتِ^(١٠)

النصل . العدى : العدائون أو الرجالة .
اقتشعت : تهيأت للقتال .

(٧) بارزاً أنصف ساقها : كناية عن الجد في الأمر .
العير : حمار الوحش . العانة : جماعة أتنه الوحشية .

(٨) فزعوا : دهمهم محاربون وتهيأوا لقتالهم .
أبيض صارم : سيف قاطع . الجفر : الجعبة .
رامت بمافي أي بسهامه . سلت السيف : شهرته .

(٩) جراز : قاطع . أقطاع الغدير : قطع الماء فيه . شبه السيف بها في اللعان والبريق .

(١٠) الحسيل : جمع حيلة . وهي أولاد البقر . والنهل : الشرب الأول والعلل : الشرب المكرر .

(١) لن تضرني : لن يخيفني بها شيء . أنكي العدو : أصيب منه . الحمة : المنية .

(٢) أمشى : إشارة إلى غزوه على رجله . أين : تعب .

(٣) أم عيال هنا : تأبط شراً . تقوتهم : تطلعهم . أوتحت : أقلت وقرت .

(٤) العيل : الفقر وفقد الطعام . أي آل تألت : أي سياسة ساست من آله بمعنى ساسه .

(٥) مصعلكة بكسر اللام : صاحبة صمالك . لا يقصر الستر دونها : لا تغطي أمرها .

(٦) وفضة : جمعة . سيحف : سهم عريض

وواضح أنه ينتقل من تصوير شح هذه الأم بالطعام إلى بيان أنها ليست أمًا حقيقية ، فهي صاحبة صعاليك ، لا تتخذ السر ولا تبيت في الخيام ، ولها جعبة سهام ، تناضل بها عن أصحابها حين يفجؤهم بعض الأعداء ، وما تزال ترعاهم رعاية حمار الوحش لأنه ، حتى إذا دهمهم غزاة أو مغبرون بادرت إلى سهامها ، ثم نازلتهم هي ومن معها بسيوفهم القاطعة اللامعة التي تنهل من دماهم وتعل ، فترى وكأنها أذنان الحسيل ، وهي أولاد البقر المستأنسة . ووقف لایل في ترجمته للمفضليات عند هذا التشبيه واتخذ منه دليلا على أصل الشفري وأنه يبنى حقًا ، لأن البقر المستأنس كما يقول لم يعرف عند العرب قديمًا إلا في بلاد اليمن (١) .

ونغضى مع الشفري في القصيدة فإذا هو يحدثنا عن أهداف غارته وأنه كان يقصد بها بني سلامان ، حتى يأخذ بثأره لأبيه ويشفي حقه وغيله ، يقول :

جَزَيْنَا سَلَامَانَ بْنَ مُفْرِجٍ قَرَضَهَا بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ وَأَزَلْتَ (٢)

وَهُنَّى بِي قَوْمٍ وَمَا لَنْ هَنَأْتَهُمْ وَأَصْبَحْتُ فِي قَوْمٍ وَلَيْسُوا بِمَنْبَتِي (٣)

شفينا بعبء الله بعض غليلنا وعوف لدى المغدَى أو أن استهلَّت (٤)

وإني لحلو إن أريدت حلاؤي ومُرُّ إِذَا نَفْسُ الْعَزُوفِ اسْتَمَرَّتْ (٥)

وهو يصرح بأنه جَزَى بني سلامان بما قدمت أيديهم ، ويأسى أن يكونوا قومه ولا ينتفعوا به وببأسه ، وأن يقعد لهم ويقعدوا له ، لما بينه وبينهم من ثار قديم ، ويحدثنا أنه شفى بعض غليله بقتله لرجلين منهم هما عبد الله وعوف ، ويقول إنه حلوا لأصدقائه مر على أعدائه كأنه الحنظل . وهكذا كانت حياته غارات ومغامرات ، حتى أصاب أعداؤه منه مقتلا فقتلوه .

وثالث صعاليك الجاهلية المشهورين عروة بن الورد العبسي (٦) ، وكان أبوه

والمراد ساحة المعركة ، أو أن استهلَّت : في الوقت الذي ارتفعت فيه الأصوات للحرب .

(٥) العزوف : المنصرف عن الشيء . استمرت : من المراجعة .

(٦) راجع في ترجمة عروة الأغاني (طبعة دار الكتب) ٧٣/٣ والشعر والشعراء ٦٥٧/٢ والخزانة ١٩٤/٤ والشعراء الصعاليك ص ٣٢٠ .

(١) راجع ترجمة المفضليات للايل ٦٨/٢ (٢) أزلت : قدمت .

(٣) معنى الشطر الأول : أن الأزدي هتثون به وبشجاعته لأنه منهم وفي الوقت نفسه هو لا هتثون لأنهم لا ينتفعون به . وهو يشير في وضوح إلى أنه ينزل في بني فهم وليس منهم .

(٤) الغليل في أصله حرارة العطش ، وهو هنا العطش إلى القتل . المغدَى : موضع العدو ،

من شجعان قبيلته وأشرافهم ، ومن ثمَّ كان له دور بارز في حرب داحس والغبراء ^(١) .
أما أمه فكانت من نهْمد من قضاة ، وهي عشيرة وضيفة لم تعرف بشرف ولا خطر ،
فأذى ذلك نفسه ، إذ أحس في أعماقه من قبيلها عار لا يُمحي ، يقول ^(٢) :
وما بي من عارٍ إلخالُ علمته سوى أن أخوالى - إذا نسبوا - نهْمدُ

فهى عاره ، الذى حَكَت البلية عليه منه ، والذى دفعه دفعاً إلى الثورة على
الأغنياء ، وهى ثورة كانت مهذبة ، إذ لم يتحول إلى سافك دماء ولا إلى متشرد
يرود مجاهل الصحراء ، فقبيلته لم تخلعه ، بل ظل ينزل فيها مرموق الجانب لسيرة
كانت تروع معاصريه ومن جاءوا بعدهم ، إذ اتخذ من صعلكته باباً من أبواب
المروعة والتعاون الاجتماعى بينه وبين فقراء قبيلته وضعفائها ، ومن أجل ذلك لُقِّب
عروة الصعاليك بجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم وضائق بهم
الدنيا . وفى الأغاني « كان عروة بن الورد ، إذا أصابت الناس سنة (أزمة جذب)
شديدة وتركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ، يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس
من عشيرته في الشدة ، ثم يحفر لهم الأسراب ، ويكسِّفُ عليهم الكسِّفَ (الحظائر)
ويكسِّبهم . ومن قوى منهم - إما مريض يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته -
خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقيين في ذلك نصيباً . حتى إذا أخصب
الناس وألبسوا وذهبت السنة ألحق كلَّ إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن
كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى ، فلذلك سُمى عروة
الصعاليك ^(٣) » . وفى خبر آخر أن عبساً كانت إذا أجلبت أتى ناس منها ممن
أصابهم جوع شديد ويؤس فجلسوا أمام بيت عروة ، حتى إذا أبصروا به صرخوا ،
وقالوا أيا أبا الصعاليك أغثنا ، فكان يرق لهم ويخرج بهم فيصيب معاشهم ^(٤) .

وعروة بذلك كله يعبر عن نفس كبيرة ، فهو لا يغزو للغزو والنهب والسلب
كالشَّنْفَرى وتأبط شرا ، وإنما يغزو ليعين المَلَأَك والفقراء والمرضى والمستضعفين من
قبيلته ، والطريف أنه لم يكن يُغِير على كريم يبذل ماله للناس ، بل كان يتخير

٦٥٧/٢ .
(٤) أغاني ٨١/٣ .

(١) أغاني ٨٨/٣ .
(٢) ديوانه ص ١٥٧ .
(٣) أغاني ٧٨/٣ وما بعدها والشعر والشعراء

لغارته من عُرِفوا بالشح والبخل ومن لا يمدون يد العون للمحتاج في قبائلهم ، فلا يرعون ضعفاً ولا قرابة ولا حقاً من حقوق أقوامهم^(١) . وبذلك كله تصبح الصعلكة عنده ضرباً من ضروب النبل الخلقى ، وكأنها أصبحت صنواً للروسية ، بل لعلها تتقدمها في هذه الناحية من التضامن الاجتماعى بين الصعلوك والمعوزين في قبيلته . وبلغ عروة من ذلك أنه كان لا يؤثر نفسه بشيء على من يرعاهم من صعاليكه ، فلهم مثل حظله غزوا معه أو قعد بهم المرض أو الضعف . وهو يضرب بذلك مثلاً رفيعاً في الرحمة والشفقة والبذل والإيثار .

ولعروة ديوان برواية ابن السكيت ، طُبع مراراً ، في جوتنجن والجزائر والقاهرة وبيروت ، وتردد أشعاره فيه هذه المعاني الكريمة التى قدمناها ، وهى معان جعلت معاصريه ومن جاءوا بعدهم يعجبون به إعجاباً شديداً ، فقد كانت قبيلته تأتم به في خلالة وخصاله ، وكان معاوية يقول : « لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم^(٢) » أما عبد الملك بن مروان فكان يقول : « من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد »^(٣) وكان يقول أيضاً : ما يسرني أن أحداً من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة بن الورد لقوله :

إني امرؤ عافى إنائي شِرْكَةً وَأنت امرؤ عافى إنائك واحد^(٤)
 أتزأ مني أن سمئت وأن ترى بجسمنى شحوب الحق ، والحق جاهد
 أفرق جسمنى في جسموم كثيرة وأخمسو قراح الماء ، والماء بارد^(٥)

وعروة يعبر عن معنى إنساني رفيع ، إذ تعرض له بعض أصحابه يعيبه بأنه مُضْنَى هزيل شاحب اللون ، فقال له : إننى يشركنى كثيرون من العفاة والسائلين ذوى الحاجة فى إنائى أو طعامى ، أما أنت فلا يشركك أحد ، ولذلك سمئت أما أنا فأصبحت ضامراً نحيلاً ، وما شحوب وجهى إلا أثر من آثار نهوضى بحقوق هؤلاء المحتاجين والمعوزين ، فلست أنا الخليق بالهزؤ والسخرية ، إنما الخليق بذلك السمين

بقوله : عافى إنائك واحد أنه يأكل وحده .
 (٥) حسا الماء : شربه شيئاً بهشياً . القراح : الخالص الذى لا يخالطه لبن ولا غيره .

(١) أغاني ٨١/٣ .

(٢) أغاني ٧٣/٣ .

(٣) أغاني ١٧٤/٣ .

(٤) العافى : طالب المعروف . ويريد

البَطِين . وما لبث أن قال : إنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء أو بعبارة أدق يقسم جسمه في جُسمهم ، بل كثيراً ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه مع جوعه ومسغبته مكتفياً بشرب الماء البارد ، على حين يعصف الشتاء بزمهريره . والذي لا ريب فيه أنه طمّح إلى مثل نبيل في البرِّ والإيثار ودفع غوائل البؤس والشقاء عن البؤساء والضعفاء . ونحن نقف عند قصيدة أنشدها له الأصمعي في أصمعياته ^(١) ، وهي بذلك من أوثق شعره وأصدقه . وهو يستلها بتوجيه الخطاب إلى امرأته سلسى التي تلومه على كثرة مخاطرته ومغامراته في الغزوات والغارات ، وقد ردَّ عليها بأنه ينبغي حسن الأحذوثة وبقاها ، وأنه إنما يرمى بنفسه في المهالك من أجلها ، حتى يغنيها ، وحتى لا تشعر بالحاجة من بعده أو بالذل والهوان ، وهي تماريه شفقة عليه :

تقول : لك الويلات هل أنت تارك ضُبُوًّا بِرَجُلٍ تارة وبِمَنْسِرٍ ^(٢)

فهى تقول له إنك لن تنهى عن غاراتك بالصعاليك من الراجلين تارة ومن الفرسان تارة ثانية ، وحرى بك أن تكف عن ذلك ، حتى لا تلقى حتفك ، ويردَّ عليها :

أَبَى الْخَفْضَ مِنْ يَغْشَاكِ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ وَمِنْ كُلِّ سُودَاءِ الْمَعَاصِمِ تَعْتَرِي ^(٣)
وَمُسْتَهْنِيٍّ ، زَيْدُ أَبِيهِ ، فَلَا أَرَى . لَهُ مَدْفَعًا ، فَاقْنَتِي حَيَاءُكَ وَاضْبَرِي ^(٤)

فهو لا يستطيع القعود عن الغزو كما تريد زوجه ، لما عليه من واجبات وحقوق لأقربائه المحتاجين من قبيلته ، ونسائها المعوزات ، والعفاة ، طلاب العطاء من الضعفاء ، فهو إنما يغزو من أجل الوفاء بحقوق هؤلاء جميعاً . ويعرض عليها صورتين للصعلوك ، صورة رديئة ، وصورة جيدة ، أما الصورة الأولى ففيها يترأى الصعلوك خاملاً ، حسبه أن ينال أكلة من فتات مائدة ، لا يهيمه أهله ولا عياله

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ٣٥ .
تعرى : تقش . بسوداء المعاصم التي أجهدا الجوع والهزال .

(٢) ضُبُو : غزو . رجل : جمع راجل ضد راكب . المنسر كجلس ومنبر : الجماعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين .

(٣) الخفض : الدعة ولين العيش . ويريد

(٤) مستحى : طالب للهنء وهو العطاء ، وزيد من أجداد عروة يريد أنه قريبه . اتقى حياضك : صوته واحفظه .

ولا قوتهم ، يقول :

لَحَى اللَّهُ صُغْلُوكًا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ مُصَافَى الْمُشَاشِ آلِفَاكَلٍ مَجْزَرٍ^(١)
يَعُدُّ الْغِنَى مِنْ دَهْرِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مَيْسَرٍ^(٢)
يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ قَاعِدًا يَحُثُّ الْحَصَا عَنْ جَنْبِهِ الْمُتَعَفِّرِ^(٣)
يُعِينُ نِسَاءَ الْحَيِّ مَا يَسْتَعْنَهُ فَيُضْحِي طَلِيحًا كَالْبَعِيرِ الْمُحْسَرِ^(٤)

وواضح أنه يعتنه بأنه ضعيف الهمة فحسبه لقمة تشبعه ، مما يتساقط من فضلات
الموسرين ، وإنه لينام ملء جفونه فليس هناك ما يشغله ، وحتى هو في النهار
ليس هناك ما يعمل سوى خدمة النساء ، فهو ذليل مهين يعيش عالة على مجتمعه .
ومثل هذا الصعلوك جدير بكل ملامة ، لأنه يحيا حياة وضعية . أما
الصعلوك الآخر الشريف فهو جدير بكل ثناء وتشجيع من الزوجة وغير الزوجة ،
يقول في وصفه :

وَلِلَّهِ صُغْلُوكٌ صَحِيفَةٌ وَجْهُهُ كَضَوْءِ شَهَابٍ الْقَابِسِ الْمُتَنَوِّرِ^(٥)
مُطِلاً عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ الْمَنِيحِ الْمَشْهُرِ^(٦)
وإنْ بَعُدُوا لَا يَأْمُنُونَ اقْتِرَابَهُ تَشَوُّفُ أَهْلِ الْغَائِبِ الْمُتَنَظِّرِ^(٧)
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى الْمَنِيَّةَ يَلْقَاهَا حَمِيدًا ، وَإِنْ يَسْتَغْنِ يَوْمًا فَاجْتَلِرِ

فهذا هو الصعلوك الذي يعجب به عروة ، صعلوك وجهه مشرق بأعماله الحجيذة ،
لا يزال يطل على أعدائه ويشرف عليهم ، فيظفر منهم بكل ما يريد ، على الرغم من
صياحهم به وزجرهم له . وهم مهما بعدوا لا يأمنون غزوه ، بل إنهم لينتظرونه

(١) لحى : قبح ولمن . المشاش : روس
العظام اللينة . المجزر : موضع الجزر .

(٢) قراها : طعامها . ميسر : غنى
كثرت إبله .

(٣) يحث : يحرك .

(٤) الطليح : المعبي ، ومثله المحسر .

(٥) صحيفة الوجه : بشرته . الشهاب : شعلة
ساطعة من النار . القابس : الذي يقيس النار

أو يأخذها . المتنور : المضيء .

(٦) مطلا : مشرقا . يزجرونه : يصيحون

به كما يزجر القدح إذا ضرب . المنيح :

قدح سريع الخروج ولا نصيب له . المشهر :

المشهور .

(٧) تشوف : تطلع . المتنظر : المنتظر

قدمه .

انتظار أهل الغائب له ، علماً منهم بأنه لابد راجع إليهم ومصيب منهم . ويقول إن مثل هذا الصعلوك المغامر الجريء إن يمت تظل ذكره خالدة لحامده ومناقبه . ويمضى فيحدثنا عن غزواته وغاياتها ، يقول :

أهلك مُعْتَمٌ وزيدٌ ولم أقم على نَدَبٍ يوماً ولى نفسٌ مُخْطِرٌ^(١)
 سَتْفِرْغُ بعدَ اليأسِ منْ لا يخافنا كواسِعُ في أُخْرَى السَّوَامِ المُنْفِرِ^(٢)
 نَطَاعِنُ عنها أولَ القومِ بالقنَا وبيضِ خِفَافٍ وَقَعْنُ مُشْهَرٌ^(٣)
 ويوماً على غاراتِ نَجْدٍ وأهلِهِ ويوماً بأَرْضِ ذاتِ شَثٍّ وَعَرَعَرِ^(٤)
 يُرِيحُ على الليلِ أَضْيَافَ ماجِدٍ كريمٍ ومالٍ سارِحاً مالٌ مُقْتَرِ^(٥)

وهو في أول هذه الأبيات يستنكر أن تهلك عشيرتنا معتم وزيد ، وهو قاعد في الحى ، لا يخاطر بنفسه من أجلهما فذلك عار ما بعده عار . لقد خلق لِرعاية الضعفاء والهِلَّالَ من قبيلته ، وهو لذلك لابد مقتحم مع رفاقه من الصعاليك الفرسان حِمَى بعض القبائل ليسوقوا منها ما يشاءون من الإبل السائمة ، وهم يهجمون تارة في الحجاز وتارة في نجد . وكل ذلك حتى يغنم ما يقدّمه لضيفانه ، وكم يغنم ! إلا أنه لا يُبْسَى على شيء في يده ، فإله مال مقتر أو فقير مقل .

والحق أن عروة كان صعلوكاً شريفاً ، وأنه استطاع أن يرفع الصعلكة وأن يجعلها ضرباً من ضروب السيادة والمروءة ، إذ كان يستشعر في قوة فكرة التضامن الاجتماعي وما يطوى فيها من إثثار وبرٍّ بالفقراء ، فهو لا يسعى لنفسه فحسب ، وإنما يسعى قبل كل شيء للمعوزين من عشيرته حتى يدفع عنهم كل ما يجدون من بؤس وشقاء .

ورواية الديوان : ذات لون مشهر ، ولو صحت لم يكن في البيت إقواء .
 (٤) الشث والعرع : من أشجار البادية .
 (٥) يريح : يرد . ويقصد بالماجد الكريم نفسه ، كما يقصد بماله إبله . سارحاً : سائماً في المرعى . مقتر : فقير مقل .

(١) معتم وزيد : بطنان من عيس . ندب : خطر .
 (٢) كواسع : خيل تطرد إبلًا وتكسها .
 السوام : الإبل السائمة . أخرى : آخر .
 المنفر : المنفرد .
 (٣) يقيس : يقيس . وفي البيت إقواء .

شعراء آخرون

مرّ بنا في غير هذا الموضع أن جماعات من اليهود نزلت في أواخر القرن الأول للميلاد وأوائل الثاني بالمدينة والواحات المنتشرة في شمالها بالحجاز مثل فدك وخيبر ووادي القرى وتيسمَاء ، واضطرتهم مواطنهم الجديدة إلى تعلم العربية ، وإن ظلوا على دينهم ، وما يلفت النظر أنهم لم يتركوا أى أثر مكتوب ، وقد عني هؤلاء اليهود بالزراعة والصناعات اليدوية . وأخبارهم في الجاهلية توحى بأن العرب لم يأمنوهم ، إذ كانوا يعدونهم من أعدائهم ، وكانوا يزدرونهم ازدراء شديداً ، ومن يتابع موقفهم من الإسلام وكيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم اضطُرَّ - لكيدهم له ونقصهم لما بينهم وبينه من عهود موثقة مراراً وتكراراً - إلى إجلالهم عن المدينة ، وأتمَّ عمر من بعده هذا الإجلاء عن الجزيرة ، من يتابع ذلك يعرف أن العرب كانوا في الجاهلية يحقونهم وينفرون منهم ومن دينهم ، فلم يؤثروا فيهم شيئاً ، وعلى العكس نجد اليهود يتعلمون العربية ، وينفذ بعضهم إلى النظم بها .

على أنه ينبغي أن نحتاط إزاء ما يحدّثنا الرواة عن شعرائهم وأشعارهم ، فلا نثق بكل ما رووه في هذا الصدد ، فقد يكون بعض أبنائهم ممن أسلموا هم الذين زيفوا هذه الأشعار ووضعوها على ألسنتهم . ويظهر أن هذا الوضع قديم فنحن نجد ابن سلام يفتح لشعرائهم فصلاً^(١) في كتابه « طبقات فحول الشعراء » يسوق فيه ذكر ثمانية من شعرائهم وينشد لكل شاعر بعض ما اشتهر له ، وهم على التوالي السموأل بن الغريض بن عادياء ، والربيع بن أبي الحقيق ، وكعب بن الأشرف ، وشريح بن عمران ، وشعبة بن الغريض أخو السموأل ، وأبو قيس بن رفاعه ، وأبو الذّيال ، ودرهم بن يزيد . ويضيف أبو الفرج في الأغاني^(٢) وابن هشام في السيرة النبوية أسماء أخرى مثل أوس بن دقن وسماك والغريض بن السموأل .

(٢) الأغاني (طبعة السامي) ٩٤/١٩ وما بعدها.

(١) ابن سلام ص ٢٣٥ .

وأشهرهم جميعاً السموأل^(١) صاحب حصن الأبلق بتياء ، وكان معاصراً
لامرئ القيس ، ومرت بنا أسطوره معه وما قالوا من أن امرأ القيس استودعه
سلاحه ، فسار إليه الحارث بن أبي شمر الغساني أو الحارث بن ظالم المرى على
اختلاف الروايات ، فطلب منه سلاح امرئ القيس ، فأغلق حصنه من دونه ،
وتصادف أن كان له ابن خارج الحصن ، فأخذه الحارث ، وهدده إن لم يعطه
السلاح قَتَلَ ابنه ، فقال له : اقتله ، فلن أعطيه لك . وبذلك وقى على غير عادة
قومه ! . وسبق أن قلنا إن هذا من باب الأساطير كما سبق أن اتهمنا قصيدة الأعشى
التي عرضت لهذه القصة في إسهاب . وما نُسب إلى السموأل خطأ القصيدة
المشهورة :

إذا المرء لم يَدَسَّسْ من اللُّؤْمِ عِرْضُهُ فكلُّ رداء يَرْتَدِيهِ جميلٌ

وهي لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي^(٢) ، وهو شاعر إسلامي . وقد نشر
لويس شيخو ديواناً له برواية نفظويه في مجلة المشرق ببيروت سنة ١٩٠٩ وهي
رواية ضعيفة ، إذ تشمل على مقطوعات كثيرة يتضح فيها أنها منحولة . وروى
الأصمعي ثالثة له^(٣) ، لا نكاد نقرأ فيها حتى نحس أثر الصنعة والانتحال ،
وهي تسهل بالحديث عن نشأة الإنسان وحياته وبعثه بعد موته على هذا النمط :

نُطْفَةٌ ما مُنِيَتْ يَوْمَ مُنِيَتْ أُمِرَتْ أَمْرَها وفيها وُبِيَتْ^(٤)

كُنْها الله في مكان خَفِيٍّ وَخَفِيَ مكانُها لو خَفِيَتْ

أنا مَيِّتٌ إذ ذاك ثُمَّتَ حَيٌّ ثُمَّ بَعْدَ الحِياةِ لِلْبُعْثِ مَيِّتٌ

وصلة هذه الأبيات بما جاء في القرآن الكريم عن نشأة الإنسان وأنه من نُطْفَةٍ
يُمْنَى وأنه يحيى ثم يموت ثم يُبْعَثُ؛ فهو ينتقل من موت إلى حياة، وما حياته الثانية
في الآخرة بمستغربة ، إنها تلي موته وحياته الأولى التي تحول إليها من ماء دافق
يخرج من بين الصُّلب والرائب ويتول جلَّ وعز : (أولم يرَ الإنسانُ أنا خلقناه

ص ٨٤ وراجع ابن سلام ص ٢٣٦ .

(٤) ما منيت : ما زائدة . ومنيت : قدرت

وغلقت . وبیت : هيئت .

(١) انظر ترجمته في الأغاني ٩٨/١٩ .

(٢) شرح المزدوق على ديوان الحماة

لأبي تمام (طبع لجنة التأليف) ١١٠/١ .

(٣) الأصمعيات (طبع دار المعارف)

من نُطْقَةٍ فإذا هو خَصِيمٌ مبين، وضرب لنا مثلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قال من يُحْيِي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم). وتردّد هذا المعنى في الذكر الحكيم هو الذي يجعلنا نشك في هذه القصيدة، ونعتقد اعتقاداً أنها نُظمت في العصور الإسلامية على هدى التنزيل العزيز، ويدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نحس إزاء بعض أبياتها أنها نظمٌ مباشر لبعض آي القرآن الكريم مثل:

ليت شعري! وأشعرن إذا ما . قيل إقرأ عُنوانها وقرئت^(١)

وأصل هذا البيت قوله تعالى في سورة الإسراء: (وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » وعلى هذه الشاكلة :

مَيّتَ دَهرٍ قد كنتُ ثم حييتُ وحياتي رَهْنٌ بأن سَأَموتُ
فإن البيت تردّد لمثل قوله سبحانه : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) .

والحق أن الشعر المضاف إلى يهود الجاهلية من أمثال السموأل ينبغي أن نحذر منه ، وخاصة حين يُعَلَى من أخلاقهم ويسمو بها ، أو حين يندمج في بعض ما يردده القرآن الكريم من أفكار ومعان لم تكن معروفة قبله ، ولعله من أجل ذلك لم يرو المفضل الضبي في مفضلياته شعراً ليهودي ، وكأنه لم يثبت عنده شعر لهم .

وإذا كان العرب الشاليون في الجاهلية استشعروا البغضاء لليهود فلم يتهود منهم أحد ، فإنهم لم يحسوا نفس الإحساس إزاء النصرانية والنصارى ، وإن ظلوا في الحملة يحتفظون بدينهم الوثني ويرون فيه رمز استقلالهم وسيادتهم ، وأنه ينبغي أن لا تتخطفهم الديانات من حولهم . وكانت المسيحية أمامهم في الشام ديناً للدولة ، ودخل فيها الغساسنة كما قدمنا في غير هذا الموضع ، وكانت منتشرة بين الآراميين فيما بين النهرين بالعراق ، واعتنقها اللخميون في أواخر القرن

(١) رواية هذا الشطر في ابن سلام: « قريها منشورة فقريت . » وقريت: لغة في قرأت .

السادس للميلاد ، وكانت منتشرة قبل اعتناقهم لها في جمهور عربي من سكان الحيرة سمي بالعباديين ، وتشير الكلمة التي سُموا بها ، إلى أنهم عباد الله ، وكانوا أخلاطاً من قبائل شتى . وقد انتشرت في الجنوب بنجران فكانت مركزاً مهماً من مراكزها ، كما عُرِفَت في بعض القبائل الشمالية والشرقية مثل قضاة وكلب وطي وبكر وتغلب وتنوخ وتيم ، ويزعم اليعقوبي أن نفرأ من مكة تنصروا قبيل الإسلام^(١) . وكل ذلك معناه أن المسيحية كانت منبثة في الجزيرة وأن كثيرين من العرب الجاهليين دخلوا فيها ، ويتردد عند شعرائهم الوثنيين ذكر الراهب المسيحي ، وكأنه كان شخصية شعبية معروفة للجميع .

وأشهر شعراء المسيحية في الجاهلية عدي بن زيد^(٢) شاعر الحيرة المشهور ، وهو من العباديين ومن بيت شريف من بيوتهم النصرانية ، خدم أبوه في دواوين الفرس وفي دواوين المناذرة بالحيرة ، ولما أيفع ابنه عدي عني بربيته وتأديبه على الطريقة الفارسية ، فكان يُحسِّن لغة الفرس كما كان يحسن لغة العرب وتعلَّم الرمي بالنشاب ولعب العجم على الخيل بالصَّوْالِجَة . ولم يلبث أن التحق بدويان كسرى أبرويز بن هرمز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) وعُهِدَ إليه فيه بالشئون العربية ، ويقال إن كسرى أرسله إلى ملك الروم في بيزنطة بهدية ، فلما أتاها بها أكرمه . وفي أثناء عودته مرَّ بدمشق وهناك انطلق لسانه بالشعر . وعاد إلى الحيرة فوجد أباه قد توفى . وظل مدة متنقلاً بين الحيرة والمدائن ، وما نلبث أن نرى الأمور تفسد بينه وبين النعمان أبي قابوس ، مع أنهم يقولون إنه لعب دوراً في توليته على الحيرة بعد أبيه دون بقية إخوته . ويقال إن الذي أفسد ما بينهما بعض بني مَرِينَا ، إذ زعموا للنعمان أنه يقول إنه عامله وإنه هو الذي ولاه ما ولاه . فاضطغن عليه النعمان ، وانهز فرصة مجيئه من لدن كسرى ذات مرة ، وأمر بحبسه ولم يُجِدْه عنده استعظافه ولا ما نظمه من أشعار في مديحه . وعلم كسرى فكتب إلى النعمان يأمره

والشعراء لابن قتيبة ١٧٦/١ وغزاة الأدب ١٨٤/١ وما بعدها والموضع للرزباني ص ٧٢ وكتاب لويس شيخو : « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » .

(١) تاريخ اليعقوبي (طبعة أوربا)

٢٩٨/١ وراجع الخبر لابن حبيب ص ٧١ ، وابن هشام ٢٣٩/١ .

(٢) انظر في عدي بن زيد الأغاني (طبعة

دار الكتب) ٩٧/٢ وما بعدها ، والشعر

بإطلاقه ، غير أن الرسول وجد عدياً قد مات في سجنه مختنقاً . وغضب كسرى حين علم بذلك على النعمان غضباً شديداً ، وربما كان هذا الغضب أهم الأسباب في قضائه عليه كما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

وأهم الموضوعات التي يدور فيها شعر عديّ الخمر ، وذكر الموت والفناء ، وهو في الموضوع الأول يعدّ أباً لشعراء الخمر في الجاهلية من مثل الأعشى ، ثم لمن ظهروا في العصور الإسلامية بعد ذلك من مثل الوليد بن يزيد وأبي نواس . وفي أخبار الوليد أنه كان من ندمائه القاسم بن الطويل العبادي ، وكان أدبياً ظريفاً شاعراً ، وكان لا يصبر عنه ، ونظنّ ظناً أنه هو الذي وصله بشعر عدي ، إذ كان يرويه له ويغنيّ فيه معبد وغيره من المغنين بمثل هذا الصوت ^(١) :

بَكَرَ الْعَاذِلُونَ فِي وَصَحِ الصَّبِّ ح يَقُولُونَ لِي أَلَا تَسْتَفِيقُ
لَسْتُ أَدْرِي وَقَدْ جَفَانِي خَلِيلِي أَعْدُوْ يَأُوْمُنِي أَمْ صَدِيقُ
ثُمَّ قَالُوا أَلَا أَصْبَحُونَا فِقَامْتُ قَبِيْنَةُ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ ^(٢)
قَدَمْتُهُ عَلَى عُقَارٍ كَعَيْنِ الْ لَدَيْكَ صَفَى سُلَافَهَا الرَّأُووقُ ^(٣)

وواضح أن الأبيات من نفس الألحان والأنغام المعروفة للوليد ومنّ جاعوا بعده من شعراء الخمريات ، وكأنّ القاسم العبادي هو الذي وجه الوليد ليحتذى في خرياته على أسلوب عدي وليجري في طريقته .

ويروى الرواة لعدي بجانب شعره في الخمر أشعاراً في الفناء وزوال الحياة ، وهي تجري في أسلوبين : أسلوب يتحدث عن الحياة والموت وأن الدنيا غير باقية ، وأسلوب قصصي يتخذ من التاريخ وهلاك الملوك والأوائل وسيلة إلى العظة والعبرة ، ومن الأسلوب الأول قوله على لسان المقابر ^(٤) :

مَنْ رَأَانَا فَلْيَحْدِثْ نَفْسَهُ أَنَّهُ مَوْفٍ عَلَى قَرْنٍ زَوَالٍ ^(٥)
وَصُرُوفِ الدَّهْرِ لَا يَبْقَى لَهَا وَلِمَا تَأْتِي بِهِ صُومُ الْجِبَالِ

(٤) الأغاني ١٣٤/٢ .

(٥) قرن : طرف .

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٦٥/٧ .

(٢) اصبحونا : اسبقونا خمر الصباح .

(٣) الراووق : الدن .

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِنْدَنَا يشربون الخمرَ بالماءِ الزَّلَالِ^(١)
عَمَرُوا دَهْرًا بَعِيشَ حَسَنِ آمَنَى دَهْرَهُمْ غَيْرَ عِجَالِ
ثُمَّ أَضْحَوْا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ وكذلك الدهرُ يُودَى بالرجالِ
وكذلك الدهرُ يرمى بالفتى فى طِلابِ العيشِ حالا بعد حالِ
فالدنيا إلى زوالٍ وكلُّ من عليها فان، حتى صُمَّ الجبال، ولا يغرنك ما يغرق
فيه بعض الناس من ترفٍ ونعيم، فعمَّا قليل يعصف بهم الدهر كما عصف بمن
قبلهم . ومن الأسلوب الثاني قوله^(٢) :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمَعِيرُ بِاللَّهْ رِ أَنْتَ الْمَبْرَأُ الْمَوْفُورُ
أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَثِيقُ مِنَ الْإِيَّ أَمْ بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورُ
مَنْ رَأَيْتَ الْمَنُونِ خَلَدُنْ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَضَامَ خَفِيرُ^(٣)
أَيْنَ كَسَرَى : كَسَرَى الْمَلُوكُ أَنْوَشِرُ وَأَنْ أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ
وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكَرَامُ مَلُوكُ الْ رُومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكَورُ
ويستمر فى ذكر ملوك مختلفين شيدوا قصوراً شامخة، وانتهى أمرهم إلى الفناء،
وطوتهم الحُفَرُ والتُجُورُ كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، إلى أن يقول :

ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمَلِكِ وَالْإِمَّةِ وَارْتَهُمْ هُنَاكَ الْقُبُورُ^(٤)
ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَ فَفَأَلُوتُ بِهِ الصَّبَا وَالِدُبُورُ^(٥)
ويكثر البحترى فى حماسته من إنشاد مثل هذه الأبيات لعدى بن زيد التى
يتحدث فيها عن الحياة والموت ومصير الملوك السابقين . ونحن لا نطمئن إلى
كل هذه الأشعار ، بل نتف منها موقفنا من نظيرها عند الأعشى ، فإن
القُصَّاصَ والوعاظ على ما يظهر أضافوا إليه أشعاراً كثيرة حتى لم يكن القول
بأن أكثر ما روى له من أشعار منحول عليه ، ولعل ذلك ما جعل اللغويين

(١) الزلال : الصاق العذب .

(٢) الزلال : الصاق العذب .

(٣) الإمّة : النعمة .

(٤) الأغاني ١٣٨/٢ .

(٥) ألوت : ذهبت . الصبا والدبور :

ريحان .

(٦) المنون : الموت ، وأعاد عليه القصير مجموعاً .

يرفضون الاستشهاد بشعره ، ولاحظ ابن سلام كثرة الوضع عليه فقال : « عدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهّل منطقته ، فحُمِل عليه شيء كثير وتخليصه شديد^(١) » وأكبر الظن أن هذا هو السبب في أن المفضل والأصمعي لم يثبتا له في مجموعتيهما شيئاً من شعره . وقد قلنا في غير هذا الموضع إنه لا يفصح في شعره عن فكرة التثليث المسيحية ، وينبغي أن لا تغلوف في فهم مسيحية أمثال عدى في الجاهلية ، فإنها لم تكن تتعمق نفوسهم ، وإن كان من المؤكد أنها أثرت فيهم . بل لقد سقط منها تأثيرات إلى الشعراء الوثنيين فرأيانهم يذكرون أحياناً الرهبان والنواقيس ومحاريب الكنائس وقد يذكرون بعض الأنبياء مما جعل لويس شيخو يسلك أكثر شعراء الجاهلية في النصرانية ، وهو مخطئ في ذلك خطأ بيناً .

وربما كان أهم شاعر جاهلي وثني ظهر عنده واضحاً التأثير بأهل الكتاب أمية^(٢) ابن أبي الصلت الشَّشَقِيّ ، وهو من الطائفة ويقال إنه اتصل بالأخبار وتحنّف ولبس المسوح وتنسك . وكان يزور مكة قبل البعثة ، وله مدائح في سيد من سادات المشهورين هو عبد الله بن جدعان ، الذي يقول له في بعض مديحه^(٣) :

أَذْكُرُ حاجتي أم قد كفاني	حَيَاؤُكَ إِن شِئْتَكَ الحياءُ
كريمٌ لا يغيّره صباحٌ	عن الخلقِ الكريمِ ولا مساءُ
وأرضك كلُّ مكرمةٍ بنتها	بنو تميمٍ وَأَنْتَ لهم سماءُ ^(٤)

ويقول أيضاً^(٥) :

عطاؤك زَيْنٌ لامرئٍ قد حبّوتهُ	بخيرٍ ، وما كل العطاء يَزِينُ
وليس بشَيْنٍ لامرئٍ بَذَلُ وجهه	إليك ، كما بعضُ السؤالِ يشِينُ

ولما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه أضلّه الله فعداه ، وزين له

الأدب ١/ ١٣٠ وحياة الحيوان للمدبري ٢/ ١٥٤
والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٤٢٩ .
(٣) ابن سلام ص ٢٢٢ والأغاني ٨/ ٣٢٨ .
(٤) بنو تميم : عشرة عبد الله بن جدعان .
(٥) ابن سلام ص ٢٢٢ والأغاني ٨/ ٣٢٨ .

(١) ابن سلام ص ١١٧ وانظر الحيوان ١٤٩/٧ والشعر والشعراء ١٧٦/١ .
(٢) انظر في أمية الأغاني (طبعة الساسي) ١٦/٦٩ وطبعة دار الكتب ٨/ ٣٢٧ وما بعدها وابن سلام ص ٢٢٠ وما بعدها وخزانة

الشیطان سوء عمله وأغواه، فلم یُسَلِّمْ، بل أخذ فی معاندة الرسول ومحادّته بلسانه، ولا هُزِمَتْ قریش فی موقعة بدر هزیمتها المشهورة، فقتل كثير من رجالها وسادتها حزراً ذلك فی نفسه، فناح علی قتلها بقصيدة طويلة یقول فیها^(١) :

ماذا یبدر فالعقد قلی من مرّیة ججاج^(٢)
هلاً بکیت علی الکرام م بنی الکرام أولى المادح

وجمع له شولتس Schulthess مجموعة من أبياته ترجمها إلى الألمانية ونشرها فی لیبرج سنة ١٩١١ وفي سنة ١٩٣٦ نشر له بشیر يموت فی بیروت طائفة من أشعاره باسم دیوان أمیة. وتدور هذه الأشعار فی موضوعین أساسیین أما الموضوع الأول فیحدث فیهِ عن خلق السموات والأرض ونشأة الکنون مستدلاً بذلك علی وجود الله، ومتحدثاً عن الموت والفناء والبعث والنشور والعذاب والثواب علی شاکلة قوله^(٣) :

إله العالمین وكل أرض ربّ الراسیات من الجبال
بناها وابتنى سبعا شداداً بلا عمد یرین ولا رحال^(٤)
وسواها وزینها بنور من الشمس المضيئة والهلال
ومن شهب تلالاً فی دجها وشق الأرض فانبعست عیوناً
وكل معمر لا بدّ یوماً وأنهاراً من العذب الزلال^(٥)
ویفنی بعد جدّته ویبلى وذى دنیا یصیر إلى زوال
وسیق المجرمون وهم عراة سوی الباقی المقدّس ذی الجلال
فنادوا ویلنا ویلاً طویلاً وإلى ذات المقامع والنکال^(٦)
وعجوا فی سلاسلها الطوال^(٧)

(٤) السبع الشداد : السموات السبع .
(٥) النصال : جمع نصل وهو حد السیف .
(٦) انبعست : انفجرت .
(٧) المقامع : محاجن من حدید یضرب بها الحيوان الشکس .
(٨) عجوا : صاحوا ورفعوا أصواتهم .

(١) ابن سلام ص ٢٢١ .
(٢) العقنقل : کتیب رمل یدر .
المرّیة : جمع مرزیان وهو رئیس القوم المقدم علیهم . الججاج : جمع ججاج وهو السید الکرم .
(٣) دیوان أمیة (طبعة شولتس) ص ٣٠ .

فليسوا ميتين فيستريحوا وكلهم بحر النار صال
وحلّ المتقون بدار صدق وعيش ناعم تحت الظلال

وهذه المعاني تستمد من القرآن الكريم بصورة واضحة ، وأساوبها ضعيف
واهن ، ولذلك كنا نظن ظناً أنها وما يماثلها مما نُحل على أمية . والموضوع الثاني
الذي يدور فيه شعره ليس أقل من الموضوع الأول اتهاماً ، بل لعل الاتهام فيه
أوضح ، إذ نراه يقص علينا سير الأنبياء ، قصصاً لا يكاد يفترق في شيء عما جاء
في القرآن الكريم كقوله في رؤية إبراهيم أنه يذبح ابنه إسماعيل وما كان من اقتدائه
بذبح عظيم^(١) :

ولإبراهيم الموفى بالنذ
بكركه لم يكن ليضبر عنه
يا بني أننى نذرتك لى
فأجاب الغلام : أن قال فوه
فاقض ما قد نذرت لله واكفف
بينما يخلع السراويل عنه
قال : خذه وأرسل ابنك لئى
ر احتساباً وحامل الأجزاء^(٢)
أو يراه فى معشر أقتال
شحيطاً فاضبر فدى لك حالى^(٣)
كل شيء لله غير انتحال
عن دى أن يمسه سرى^(٤)
فكه ربه بكبش جلال^(٥)
للذى إن فعلما غير قال

وواضح أن هذا شعركيك ساقط الأسلوب نظمه بعض القصاص والوعاظ في
عصور متأخرة عن الجاهلية . وقد ذهب هيار يزعم حين اطلع على شعر
أمية أنه اكتشف فيه مصدراً من مصادر القرآن الكريم^(٦) ، ولو كان له علم
بالعربية وأساليب الجاهليين لعرف أنه وقع على أشعار منتحلة بينة الانتحال ،
ولا تورط في هذا الخطأ البين ، وقد رد عليه غير واحد من المستشرقين^(٧) . ويظهر

(٦) انظر الجزء العاشر من المجلة الآسيوية

قسم ٤ (١٩٠٤) ص ١٢٥ .

(٧) انظر تاريخ الآداب العربية لبروكلمان

١١٣/١ ودائرة المعارف الإسلامية في أمية .

(١) ديوان أمية ص ٣٣ .

(٢) الأجزاء : العظام .

(٣) شحيطاً : ذبيحاً .

(٤) سرى : ثوب .

(٥) جلال : عظيم .

أن الانتحال على أمية قديم ، ففي ابن سلام أن الحسن بن علي بن أبي طالب استنشد النابغة الجعدي بعض شعره ، فأنشده قصيدته :

الحمدُ لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

فقال له : « يا أبا ليلى ما كنا نروى هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي الصلت ، قال : يا بن رسول الله ! والله إنى لأول الناس قلها ^(١) » وكأن اختلاطاً حدث بين شعر النابغة الجعدي وأمية . وما نحلوا أمية من قديم أيضاً أشعار مختلفة في قصص الحيوان والطير وبعض الزواحف كالحيات ، ويشركه عدى في بعض هذه الجوانب ، وكأن القصاص والوعاظ أجروا على لسانهما كثيراً من الشعر الذى أرادوا به إلى العظة والاعتبار ، وإنما نقول إنهم نحلوها ذلك من قديم ، لأننا نجد الجاحظ ينشد لهما أشعاراً كثيرة في هذا الاتجاه ^(٢) .

وواضح مما قدمناه أن ما روى من أشعار على ألسنة اليهود ومن تنصّر من العرب في الجاهلية وكذلك من تحنّف كأمية دخله وضع كثير ، ولذلك ينبغي أن نحترس منه وأن لا نتسع في الحكم عن طريقه على ديانات القوم ومعتقداتهم ، إذ يجرى فيه الانتحال ، وقد دخله كثير من الغثاء والإسفاف في اللفظ والتعبير .

١١١/٢ ، ١٩٦/٤ وما بعدها .

(١) ابن سلام ص ١٠٦ وما بعدها .
(٢) انظر مثلاً الحيوان ٣٢٠/٢ وما بعدها ،

الفصل الثاني عشر

النثر الجاهلي

١

صور النثر الجاهلي

حين نتحدث عن النثر الجاهلي ننحى النثر العادى الذى يتخاطب به الناس فى شئون حياتهم اليومية ، فإن هذا الضرب من النثر لا يعدّ شىء منه أدباً إلا ما قد يجرى فيه من أمثال، إنما الذى يُعدّ أدباً حقاً هو النثر الذى يقصد به صاحبه إلى التأثير فى نفوس السامعين والذى يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء ، وهو أنواع ، منه ما يكون قصصاً وما يكون خطابة وما يكون رسائل أدبية محبرة . ويسمى بعض الباحثين النوع الأخير باسم النثر الفنى .

وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها ، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة ، فقد عرفوها ، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها فى الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية ، ومن ثمّ استخدموها فقط فى الأغراض السياسية والتجارية^(١) . ولا ينقض ذلك ما جاء فى السيرة النبوية من أن سُوَيْد بن الصامت قدم مكة حاجّاً أو معتمراً .. فتصدّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سُوَيْد : ففعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك ؟ قال : مجلّة لقمان ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها علىّ ، فعرضها عليه ؛ فقال له : إن هذا لكلام حسن . والذى معى أفضل من هذا : قرآن أنزله الله علىّ ، هو هُدًى ونور ، فتلا عليه رسول الله القرآن ، ودعاه إلى الإسلام فلم يَبْعدْ منه ، وقال : إن هذا القول حسن^(٢) .. »

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبي)

(١) انظر الفن ومذاهبه فى النثر العربى

وهذا الخبر إنما يفيد أنه كان عندهم صحيفة بها بعض أمثال وحكم مما كانوا ينسبونه إلى لقمان ، ووجود مثل هذه الصحيفة لا يدل على أنهم استخدموا الكتابة في التعبير عن وجدانهم نثراً وشعراً ، فقد كانت محدودة الانتشار بينهم ، ومن التعسف أن نزع ذلك لمجرد الظن ، بينما تنقصنا أو تعوزنا النصوص الحسية . وإذا كنا نفتقد الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية في العصر الجاهلي فمن المحقق أنه وُجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان . ومن المؤكد أنهم كانوا يُشغفون بالقصص شغفاً شديداً . وساعدتهم على ذلك أوقات فراغهم الواسعة في الصحراء، فكانوا حين يُرُخى الليل سُدوله يجتمعون للسمر ، وما يبدأ أحدهم في مضرب من مضارب خيامهم بقوله : كان وكان ، حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه ، وقد يشترك بعضهم معه في الحديث ، وشبابُ الحى وشيوخه ونسأوه وفتياته المخدرات وراء الأخبية كل هؤلاء يتابعون الحديث في شوق وطفة .

ومن غير شك كان يُفيض القصص على قصصه من خياله وفنه ، حتى يبهير سامعيه ، وحتى يملك عليهم قلوبهم فيحولهم من الشفقة إلى محبة الانتقام ومن الضحك إلى الجِدِّ ، وعيونهم تلمع في وجوههم السمر وقلوبهم تخفق من أن إلى آن ، وليس بين أيدينا شيء من أصول هذا القصص الذي كان يدور بينهم ، غير أن اللغويين والرواة في العصر العباسي دونوا لنا ما انتهى إليهم منه ، وطبيعي أن تتغير وتتحرّف أصوله في أثناء هذه الرحلة الطويلة التي قطعها من العصر الجاهلي إلى القرن الثاني الهجري ، وإن كان من الحق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم وظلت تنبض بروحه وحيويته .

ويمكننا بواسطة ما دونه العباسيون أن نعرف ألوان هذا القصص الذي كانوا يتناقلونه بينهم ، وربما كان أكثر هذه الألوان شيوعاً على ألسنتهم أيامهم وحروبهم وما سجله أبطالهم فيها من انتصارات مروعة وما مُنيت به بعض قبائلهم من هزائم منكرة، وقد ظلوا يقصّون هذه الأيام والحروب إلى أن تناولها منهم لغويو القرن الثاني للهجرة ورؤاته ، فلونوها تدويناً منظماً على نحو ما هو معروف عن أبي عبيدة في شرحه لنقائض جرير والفرزدق ، وتوالى من بعده التأليف فيها والعناية بها على نحو ما تقدم في غير هذا الموضع .

وكانوا يقصون كثيراً عن ملوكهم من المناذرة والغساسنة ومن سبقهم أو عاصروهم مثل ملوك الدولة الحميرية ومثل الزبَاء ، مما نجده مبثوثاً في تاريخ الطبرى وفي السيرة النبوية لابن هشام ، وسقط من ذلك كثير إلى أبى الفرج في أغانيه ، ومن المحقق أن كثيراً من هذا القصص يخالف التاريخ الحقيقى لهؤلاء الملوك ، على نحو ما هو معروف عن قصة الزبَاء ، فإنها لا تتفق في شيء ووثائق التاريخ الرومانى الصحيحة^(١) حتى اسمها وهو زنوبيا Zenobia حُرِّف إلى الزبَاء ، وربما جاء هذا التحريف من أن أباهما كان يدعى زباى ، فنسبوا إليه وقالوا بنت زباى ، ومع مر الزمن حذفوا كلمة بنت ، وأبدلوا الياء المتطرفة بعد الألف حسب قواعدهم الصرفية همزة ، وأدخلوا على الاسم أداة التعريف فأصبحت الزبَاء .

وعلى نحو ما كانوا يقصون عن ملوكهم وأبطالهم كانوا يقصون عن ملوك الأمم من حولهم وشجعانهم ، يدل على ذلك ما جاء في السيرة النبوية من أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش ومن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتنصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً ، فذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهل إلى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار^(٢) . . .

ومما لا ريب فيه أنهم كانوا يقصون كثيراً عن كهائنهم وشعرائهم وساداتهم ، وهو قصص استمدت منه كتب التاريخ والشعر والأدب معيناً لا ينضب من الأخبار ، وارجع إلى تراجم صاحب الأغاني فستراها تحفل بمادة غنية من القصص ، وقد بثوا فيها غير قليل من قصص الهوى ، كقصة المرقش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف ، وما كان من عشقه لها وهو غلام ومحاولته خطبتها من أبيها ، واعتذار الأب له بجدائه سنه وأنه لم يعرف بعد بشجاعة ، وما كان من انطلاق المرقش إلى بعض الملوك ومدحجه له وبقائه عنده زمناً ، وفي هذه الأثناء أصاب عَوْفاً زمان شديد ،

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على (٢) السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ٣٢١/١
٩٩/٣ وما بعدها .

فأتاه رجل من مُراد، فأرغبه في المال، فزوجه ابنته على مائة من الإبل، ورحل بها إلى أهله. وقال لإخوة المرقش لا تخبروه بخبرها حين يرجع، بل قولوا له إنها ماتت، وذبحوا لذلك كبشاً، أكلوا لحمه ودفنوا عظامه، فلما قدم المرقش قالوا له إنها ماتت، ولم يلبث أن عرف الحقيقة بعد أن ظل مدة يعود قبر الكبش ويزوره. وخرج المرقش يطلب أسماء، وبعد مغامرات يتعرف على راعي زوجها، ويترسل إليه أن يتحدثها عنه، فيقول له: إني لا أستطيع أن أدنو منها، ولكن تأتيني جارتها كل ليلة، فأحلب لها عسّاً، فتأتيها بلبها، فقال له مرقش: خذ خاتمي هذا، فإذا حلبت فألقه في اللبن، فلئلا ستعرفه، وإنك مصيب بذلك خيراً لم يصبه راع قط إن أنت فعلت ذلك، فأخذ الراعي الخاتم. ولما راحت الجارية بالقدر وحلب لها العسّ طرّح الخاتم فيه، فانطلقت الجارية به وتركته بين يدي أسماء. فلما سكنت الرغوة أخذته فشربه، وكذلك كانت تصنع، ففرع الخاتم ثسبته، فأخذته واستضاءت بالنار، فعرفته، فقالت للجارية: ما هذا الخاتم؟ قالت: مالى به علم. فأرسلتها إلى مولاها وهو بنجران، فأقبل فزعاً، فقال لها: لم دعوتني؟ قالت له: ادعُ عبدك راعي غنمك، فدعاه، فقالت: سكته أين وجد هذا الخاتم، قال: وجدته مع رجل في كهف خبّان، فقال لى: اطرّحه في اللبن الذى تشربه أسماء، فلئنك مصيب به خيراً، وما أخبرني مَنْ هو، ولقد تركته بآخر رمق. فقال له زوجها: وما هذا الخاتم؟ قالت: خاتم مرقش، فأعجل الساعة في طلبه. فركب فرسه وحملها على فرس آخر وسارا حتى طرّقاها من ليلتهما، فاحتملاه إلى أهلها، فأت عند أسماء وقال: قبل أن يموت:

سَرَى لَيْلَا خِيَالٌ مِنْ سُلَيْمَى	فَأَرَقْنِي وَأَصْحَابِي هَجُودٌ
فَيْتُ أَدِيرُ أَمْرِي كُلِّ حَالٍ	وَأَذْكَرُ أَهْلَهَا وَهُمْ بَعِيدٌ
سَكَنَ بَيْلِدَةً وَسَكَنْتُ أُخْرَى	وَقُطِعَتِ الْمَوَاتِقُ وَالْعَهْدُ
فَمَا بَالِي أَفِي وَيُخَانُ عَهْدِي	وَمَا بَالِي أَصَادُ وَلَا أَصِيدُ

ثم مات فدفن في أرض مُراد^(١).

ولم نَسْتَقْ هذه القصة مؤمنين بأنها نفس قصة المرقش التي دارت في الجاهلية بلغتها وبجميع تفاصيلها ، ولكننا سقناها لندل بطوابعها على صورة أمثالها في الجاهلية ، وما كان يتيح القصّاص لمثلها من عناصر التشويق، تارة بما يضيف إلى القصة من خياله، وتارة بما يضيف إليها من أشعار ، وقد يضيف إليها أمثالا، على نحو ما نعرف في قصة الزبّاء، وهي تتضمن عند الضبّي اثني عشر مثلاً^(١) .

وإذا صح ما ذهب إليه بروكلمان من أن تعرف أحد العاشقين على الآخر عن طريق الخاتم شائع في كثير من الحكايات عند أمم غير العرب^(٢) كان معنى ذلك أن قصص الجاهليين حتى في الحب تسربت إليها عناصر من حكايات العشق المماثلة عند الأمم الأجنبية ، ويلخل في هذا الجانب بعض خرافاتهم عن الخيرات التي يلتقون فيها بخرافات الأجانب^(٣)، كخرافة الحية والفأس ، وقد رواها الضبّي على هذه الشاكلة^(٤) :

« زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما ، فأجذبت بلادهما ، وكان قريباً منهما واد فيه حية ، قد حتمته من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أني أتيت هذا الوادي المكائي ، فرعيت فيه إبلتي وأصلحتّها ، فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لم يهبط ذاك الوادي إلا أهلكته ، قال : فوالله لأهبطن . فهبط ذلك الوادي ، فرعا إبله به زماناً ، ثم إن الحية لدغته ، فقتلته . فقال أخوه : ما في الحياة بعد أخي خير ، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعن أخي . فهبط ذلك الوادي ، فطلب الحية ليقتلها ، فقالت : أأنت ترى أني قتلت أخاك ، فهل لك في الصلح ، فأدعك بهذا الوادي ، فتكون به ، وأعطيك ما بقيت ديناراً في كل يوم . قال : أفاعلة أنت ؟ قالت : نعم ، قال : فإني أفعل . فحلف لها وأعطها الموائق ، لا يضيرها . وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثر ماله ونمت إبله ، حتى كان من أحسن الناس حالاً . ثم إنه ذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعني العيش ، وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان ؟ . فعمد إلى فأس ، فأحدها ، ثم قعد لها ، فرت به ، فتبعها ، فضرها فأخطأها ، ودخلت البحر ،

(١) أمثال العرب المفضل الضبّي (الطبعة الأولى بالقاهرة) ص ٨١ وما بعدها .
(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/١٠٢ .
(٣) انظر كتاب الأمثال في النثر العربي القديم لعبد المجيد عابدين ص ٤٢ .
(٤) أمثال العرب للضبّي ص ١٠٦ .

فرمى الفأس بالجبل فوق جحرها، فأثر فيه . فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذى كانت تعطيه ، ولما رأى ذلك تخوف شرها وتدم ، فقال لها : هل لك فى أن نتواثق (نتعاهد) ونعود إلى ما كنا عليه ، فقالت : كيف أعاهدك ؟ وهذا أثر فأسك وأنت فاجر ، لا تبالى العهد . فكان حديث الحية والفأس مثلاً مشهوراً من أمثال العرب ، قال نابغة بنى ذبيان (من قصيدة يعاتب بها بنى مرة) :
 وإني لألقى من ذوى الضغن منهم بلا عثرة ، والنفس لا بد عاثره
 كما لقيت ذات الصفا من حليفها وما انفكت الأمثال فى الناس سائره
 وينشد الضبي بقية القطعة التى يتحدث فيها النابغة عن قصة الحية مع هذا الراعى الذى اختان عهده . ونحن نشك فى الأبيات كما نشك فى أن القصة حافظت على الأصل الجاهلى ، وإن كنا فى الوقت نفسه نظن ظناً أنها تعطينا جانباً من روح القصص الجاهلى ، وأنه كان يلتقى فى بعض جوانبه بقصص الحيوان المعروف عند الهنود ، والذى تسرب منهم إلى الأمم الأخرى على نحو ما نعرف فى قصص لايسوب اليونانى ، وبين قصصه الزارع والحية ^(١) ، وكأنما تسرب هذا النوع من الهند إلى العرب واليونان جميعاً .

وما لا شك فيه أن عرب الجاهلية قصّوا كثيراً عن الجن والعفاريت والشياطين ، وقد زعموا أنها تتحوّل فى أى صورة شاءت إلا الغول فلنأخذ دائماً تبدو فى صورة امرأة عداً رجلها ، فلا بد أن تكونا رجلى حمار . وكثيراً ما تراءى الجن فى صورة الثيران والكلاب والنعام والنسور . وكانوا يزعمون أن أهم منازلها أرض وبار وصحراء الدهناء ويسيرين . ومن غير شك دخل كثير من قصصهم عنها فى كتب الأساطير والعجائب التى ألّفت فى العصر العباسى .

ونحن لم نسق ذلك لتؤكد أنه بقيت لنا من القصص الجاهلى بقية صالحة للدراسة ، فإن شيئاً من هذا القصص الذى يضاف إلى الجاهليين لم يصلنا مدوناً مكتوباً ، ولذلك كنا نهمه جملة ، وإن كنا بعد هذا الاهتمام نعود فنزعم أنه يصور لنا مادة قصصهم وروحه وطبيعته وكثيراً من ملاحظه ، ولكن لا بصورة دقيقة ، وإنما بصورة عامة .

(١) انظر الأمثال فى النثر العربى القديم ص ٤٣ .

الأمثال

إذا كان القصص الذى أضيف إلى الجاهليين لا يحمل لنا صورة دقيقة للنثر الجاهلى بحكم تأخره فى التدوين فإن الأمثال تحمل لنا غير قليل من هذه الصورة ، إذ أن من شأنها أن لا تتغير ، وأن تظل طويلاً بصورتها الأصلية ، بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة . وقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة ، إذ ألف فيها صُحاح العَبْدَى أحد النسايبين فى أيام معاوية بن أبى سفيان (٤١-٦٠ هـ) كتاباً كما ألف فيها عُبَيْد بن شَرِيَّة معاصره كتاباً آخر ، ويقول صاحب الفهرست إنه رآه فى نحو خمسين ورقة ^(١) . وإذا انتقلنا إلى القرن الثانى وجدنا التأليف فى الأمثال يكثر ، إذ أخذ علماء الكوفة والبصرة جميعاً يهتمون بها ويؤلفون فيها ، وقد وصلنا عن هذا القرن كتاب أمثال العرب للمفضل الضبي ، ونمضى إلى القرن الثالث ، فيؤلف أبو عبيد القاسم بن سلام فيها كتاباً يشرحه من بعده أبو عبيد البكرى باسم « فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام » . وما تزال المؤلفات فى الأمثال تتوالى ، حتى يؤلف أبو هلال العسكري كتابه « جمهرة الأمثال » ويخلفه الميدانى ، فيؤلف كتابه « مجمع الأمثال » وهو يقول فى مقدمته إنه رجع فيه إلى ما يروى على خمسين كتاباً . ومن يرجع إلى هذه الكتب يجدهم يسوقون الكلمة الماثرة التى تسمى مثلاً ، ولا يكتفون بذلك ، بل يقفون غالباً لسرد القصة أو الأسطورة التى تمخض عنها المثل ، وقد تتمخض عن أمثال أخرى فتروى فى تضاعيفها . وموقفنا من هذه الأقاصيص والأساطير لا يختلف عن موقفنا من القصص الجاهلى بعامة ، فنحن لا نتخذ منها صورة للنثر الجاهلى وإن اختلجت بروحه وطبيعته وجوهرته ، لنفس السبب الذى ذكرناه ، وهو تأخر تدوينها . أما الأمثال نفسها فنحن نحقق أن طائفة كبيرة مما روته الكتب السالفة يتحتم أن تكون جاهلية ، وخاصة أكثر ما رواه عُبَيْد ابن شَرِيَّة ، ولو أن كتابه لم يسقط من يد الزمن ووصلنا لاطمأننا إلى ما يرويه

(١) الفهرست ص ١٣٢ .

من هذه الأمثال ، غير أنه فُقد . ولم يحاول من جاءوا بعده أن يفرّدوا الأمثال الجاهلية من الإسلامية ، إذ درّج أكثرهم على ترتيب الأمثال حسب الحروف الأولى على نحو ما ترتّب المعاجم ألفاظها ، فهم يرتّبونها أو يؤلفونها في تسعة وعشرين باباً بعدد أبواب الحروف الهجائية . وبذلك أصبح من الصعب تمييز جاهليها من إسلاميها في كثير من الأحيان ، ومع ذلك قد يورد أصحاب هذه الكتب مع ما يروونه من الأمثال إشارات تدل على جاهليتها وقدمها ، وهي تتخذ عندهم طريقين : الطريق الأول أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسره ، أو أن يساق هو في أثناء قصة جاهلية ، كذلك الأمثال التي نقرؤها في قصة الزبّاء من مثل : « لا يطاع لقصير أمر » و « لأمر ما جدّ عَ قصير » أنفه » و « بيدى لا بيد عمرو » وقد بلغت أمثال هذه القصة عند الميداني ثمانية عشر مثلاً . ومن هذا الطريق ما يتصل بأحداث أو أساطير جاهلية كالذي زعموا أن النعمان بن امرئ القيس اللخمي ابتنى قصرأ له يسمى الخورنق ، بناه له رومي يسمى سنمّار ، فلما أتمه قال له سنّار : إني أعرف موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كله ، فقال له النعمان : أيعرفها أحد غيرك ؟ فقال : لا ، فقال : لا جرم لأدعّ عنها وما يعرفها أحد ، ثم أمر به فرُمى من أعلى القصر إلى أسفله فتقطع ، فضرب به الجاهليون المثل فقالوا : جزاء سنمّار .

وأما الطريق الثاني فهو أن ينسبوا المثل إلى جاهليين ، فحينئذ يتعين زمنه وتاريخه ، وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والأمثال السائرة ، ومنهم من يُغرّق في القدم مثل لقمان عاد ، تلك القبيلة الجينية التي كانت تنزل في الأحقاف ، والتي بادت ولم تبق منها باقية في الجاهلية ، وقد ظل اسم لقمان يدور على ألسنة شعرائهم ^(١) وظلوا يذكرونه بالحكمة والبيان والحلم . يقول الجاحظ : « من القدماء ممن كان يُدّ كسرٌ بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والشكرَاء لقمان عاد » وينص على أنه غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن الكريم ^(٢) كما ينص على ذلك المفسرون ^(٣) . ولقدّم لقمان حَفَّت الأسطورة به وبجياته وكل ما يتصل بصلاته مع الناس والنساء . فقال الأخباريون إنه كان عملاقاً كبير الرأس قوياً قوة

(٣) قصص الأنبياء للثعلبي (طبعة القاهرة) ٣٤٠ . وتفسير أبي حيان ١٨٦/٧ وانظر خزائن الأدب لبغدادي ٧٧/٢ .

(١) البيان والتبيين ١٨٣/١ وما بعدها و ٣٠٤/٣ .
(٢) البيان والتبيين ١٨٤/١ .

خارقة حكماً بالغة، وقالوا إنه عاش عمر سبعةِ نُسورٍ وأن كل نسرٍ منها عاش ثمانين سنة وكان لُبْد آخرها، وبه ضربوا المثل في طول العمر فقالوا « طال الأبد على لبد »^(١). ونُسبت إلى لقمان في عصور متأخرة طائفة من الأفاضل أريد بها إلى العظة والاعتبار، وسميت أمثال لقمان، وهي مكتوبة بأسلوب ركيك ضعيف. وقد زعم هالر « Heller » كاتب مادة لقمان في دائرة المعارف الإسلامية أن شخصية لقمان مرت بثلاث مراحل: (أ) مرحلة جاهلية وفيها يتراءى لقمان عاد الأسطوري الذي يقال إنه عاش عمر سبعةِ نُسورٍ وكلما هلك منها نسر خلفه نسر آخر، حتى كان لُبْد الذي ذكره شعراؤهم كثيراً. (ب) مرحلة قرآنية، وفيها نجد للقمان سورة خاصة به في الذكر الحكيم وقد ربط بعض المفسرين بين لقمان هذا وبين بلعام حكيم بني إسرائيل فسردوا له نفس نسيه إذ قالوا إنه لقمان بن باعور^(٢) بن ناحور ابن تارخ. (ج) مرحلة متأخرة، وهي مرحلة نُسج فيها ولفق قصص كثير حول لقمان كما يصور ذلك كتاب « أمثال لقمان ».

ومن المحقق أن « هالر » مخطئ فيما ذهب إليه من هذا التطور لشخصية لقمان، لسبب بسيط، وهو ما قلناه من أن قدماءنا فرقوا بين لقمان عاد ولقمان القرآن الكريم، فهما ليسا بشخص واحد بل هما شخصان. وبينما تُعنى بالأول كتب الأمثال نجد الثاني تُعنى به وبوصاياه كتب الفقه والتفسير مثل موطأ مالك وتفسير أبي حيان، وقد روى الجاحظ طرفاً من تعاليمه، وهي تُطَبَّعُ بطابع ديني^(٣). واشتهر في الجاهلية بينهم كثيرون بهذا اللون من الأمثال وما يتصل بها من حكم، يقول الجاحظ: « ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكرم بن صَيْقِي وربيعة بن حُذَار وهرم بن قُطْبَة وعامر بن الظَّرب وليبدين ربيعة »^(٤) وأحكمهم أكرم بن صَيْقِي التميمي وعامر بن الظَّرب العدواني، فأما أكرم فكان من المعمرين^(٥).

(٤) البيان والتبيين ١/ ٣٦٥.

(٥) انظر في أكرم المعمرين للسجستاني ص ١٠.

والأغاني (طبعة الساسي) ١٥/ ٧٠ وجمع

الأمثال ٢/ ١٤٥ وجمهرة الأمثال للعسكري

على هامشه ١/ ١٢٠.

(١) انظر المعمرين للسجستاني ص ٣

وأخبار عبيد بن شربة ص ٣٥٦ والخزانة

٧٧/ ٢ والميداني ١/ ٣٧٥.

(٢) انظر الثعلبي ٣٤٠ وتفسير أبي حيان

١٨٦/ ٧.

(٣) البيان والتبيين ٢/ ١٤٩.

ويقال إنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه فركب متوجهاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أنه مات في الطريق . وتدور على لسانه حكم وأمثال كثيرة ، وقد ساق السيوطي في الزهر طائفة منها تقلا عن ابن دريد في أماليه ، وهي تجرى على هذا النسق ^(١) :

« رَبِّ عَجَلَةٍ تَهْبِئُنَا ^(٢) . اذْرِعُوا اللَّيْلَ فَإِنَّ اللَّيْلَ أَخْفَى لِلْوَيْلِ . المرء يعجز لا محالة . لا جماعة لمن اختلف . لكل امرئ سلطانٌ على أخيه حتى يأخذ السلاح ، فإنه كفى بالمشرفة واعظاً . أسرع العقوبات عقوبة البغى . شر النصرة التعتى . ألم الأخلاق أضيقتها . أسوأ الآداب سرعة العقاب . رَبِّ قَوْلْ أَنْفَذْ مِنْ صَوْلٍ ^(٣) . الحرُّ حُرٌّ وَإِنْ مَسَّهُ الضَّر . العبد عبد وإن ساعده الجد ^(٤) . إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد . رَبِّ كَلَامٍ لَيْسَ فِيهِ اكْتِتَامٌ . حافظ على الصديق ولو في الحريق . ليس من العدل سرعة العدل . ليس بيسير تقويم العسير . إذا بالغت في النصيحة هجمت بك على الفضيحة . لو أنصف المظلوم لم يبق فينا مَلُومٌ . قد يبلغ الخضمُّ بالقضم ^(٥) . استأن أخاك فإن مع اليوم غدا . كل ذات بَعْلٍ سَتَيْتُم ^(٦) . الحرُّ عزوف . لا تطمع في كل ما تسمع . »

وعامر مثل أكرم يدخل في المعمرين ^(٧) ، ويقال إنه « لما أسنَّ واعتراه النسيان أمرابته أن تَقْرَعَ بالعصا إذا هوفه ^(٨) » عن الحكم وجارٍ عن القصد . وكانت من حكيما العرب حتى تجاوزت في ذلك مقدار صُحْر بنت لقمان وهند بنت الخُسَّ وجمعة بنت حابس . . وقال المتلمس في ذلك :

لدى الحِلْم قبل اليوم ما تُقْرَعُ الْعَصَا وما عُلِمَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِيَعْلَمَا ^(٩) «
وكان مثل أكرم حكماً للعرب تحتكم إليه ، وافتخر بذلك ذو الإصبع العَدُوَانِي في بعض شعره فقال ^(١٠) :

- (١) الزهر للسيوطي (طبعة الحلبي) ١/١
(٢) الريث : البطء أى رب عجلة تفوت على صاحبها حاجته
(٣) الصول : الاستطالة في الحرب .
(٤) الجد : الحظ .
(٥) الخضم : الأكل ملء الفم . القضم : الأكل بأطراف الأسنان .
(٦) تنميم : يهلك عنها الزوج .
(٧) انظر المعمرين ص ٤٤ وأمثال الميداني في المثل : إن العصا قرعت لدى الحلم .
(٨) فه : حاد وجار وانحرف .
(٩) البيان والتبيين ٣/٣٨ .
(١٠) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٩٠/٣ .

ومنا حَكَمٌ يَقْضِي فلا يُنْقَضُ ما يَقْضِي
وتنسب إليه حكم ووصايا كثيرة لقومه^(١) .

وأكثر حكمهم وأمثالهم لا يعيّنون قائلها ، وهذا طبعي لأنها تنبعث غالباً من أناس مجهولين من عامة القبائل ، ممن لا يمجّدون ولا يحفل بهم الناس ، وهم أيضاً لا يحفلون بأنفسهم لأنهم من العامة ، والعامة عادة لا يهتمون بنسبة فضل إليهم . ولا بد أن نلاحظ أن بعض أمثالهم يخفى المعنى المراد منه . ومن أجل ذلك كان لا يفهم إلا بالرجوع إلى كتب الأمثال ، كقولهم : « يَعْيَيْنُ ما أرينك » فإن معناه : أسرع ، وهو معنى لا يتبادر إلى السامع من ظاهر اللفظ ، ومن ثم علق عليه أبو هلال العسكري بقوله : « هو من الكلام الذي قد عُرِفَ معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه^(٢) » . ولا بد أن نلاحظ أيضاً أن الأمثال لا تتغير ، فنقول : « الصيف ضَيَّعَتِ اللَّبَنَ »^(٣) بكسر التاء إذا خاطبت الواحد والواحدة والاثنين والاثنين والجماعة . ومن ثم كانوا يستجيزون في المثل مخالفة النحو وقواعد التصريف والجمع ، . ففي أمثالهم : « أعط القوسَ باريها^(٤) » بتسكين الياء في باريها والقياس فتحها ، وفيها أيضاً : « أجناؤها أبناؤها » جمع جان وبان ، والقياس : « جُنَّاتُها بُنَّاتُها » لأن فاعلاً لا يجمع على أفعال .

وإذا كانت بعض الأمثال تخالف نظام التصريف والنحو فإن الكثرة الكثيرة لا تشذ على هذا النظام ، بل إن طائفة منها تدخل في الصياغة الجاهلية البليغة ، إذ نطق بها بعض بلغاتهم وفصحائهم من أمثال أكرم بن صَيْقِي وعامر بن الظَّرب ، وكان خطباءهم المفوّهون كثيراً ما يعمدون إلى حشدّها في خطابهم ، يقول الجاحظ : « كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع^(٥) » وتبع شعراؤهم خطباءهم يودعونها أشعارهم . ومن ثمّ كنا نجد كثيراً منها يتم له لحنه الموسيقي ، فإذا هو شطر

بعد فوت أولائها .

(١) البيان والتبيين ١/٤٠١ ، ٢/١٩٩ .

(٤) أي استمن على ما تعمل بأهل الحذق

(٢) جمهرة الأمثال للعسكري على هامش

والهارة .

جميع الأمثال للعبداني ١/١٦٨ .

(٥) البيان والتبيين ١/٢٧١ .

(٣) يضرب هذا المثل لمن يطلب حاجته

أو بيت . وكثيراً ما نلاحظ في بعض عباراتها احتفالاً بتوازن الكلمات توازناً ينتهي بها إلى السجع كما نلاحظ في بعض جوانبها اهتماماً بالتصوير ، ومن أجل ذلك يقول النِّظَامُ إنها « نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية ^(١) »

واقراً هذه الأمثال :

تجوع الحرّة ولا تأكل بشدّ يسيها ^(٢) — المقدرة تُذهب الحفيظة — مقتل الرجل بين فكّيه ^(٣) — إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه — من استرعى الذئبَ ظلم — في الجريرة تشترك العشرة ^(٤) — وقد يأتيك بالأخبار من لم تزود ^(٥) — كذى العُرُّ يُكوى غيره وهوراتع ^(٦) — استنوقَ الجمل ^(٧) — كالمستجير من الرمضاء بالنار ^(٨) — حلب الدّهرَ اشطّره ^(٩) — يخبّط خبّط عَشْواء ^(١٠) — المنية ولا الدنية ^(١١) — تحت الرّغوة اللبنُ الصّريح ^(١٢) — هُدنةٌ على دخن ^(١٣) — رمثني بدائها وانسلت .

فإنك تحس جمال الصياغة وأن صاحب المثل قد يعمد إلى ضرب من التّنعيم الموسيقي للفظه ، فإذا هو يسجع فيه أو إذا هو ينظمه شطراً من بيت . وقد يعمد إلى ضرب من الأخیلة ، ليجسّم المعنى ويزيده حدة وقوة . ولحق أن كل شيء يؤكد أن العرب في الجاهلية عُنوا بمنطقهم واستظهار ضروب من الجمال فيه ، سواء ضربوا أمثالهم أو تحدّثوا أو خطبوا ، وقد وصفهم جملٌ وعزّ أو وصف فريقاً منهم بقوله : « ولتعرفنّهم في لَحْنِ القول » وقوله : « ومن الناس من يُعجبك قوله في الحياة الدنيا » . وكأنما أصبحت المقدرة البَيانية عندهم سليقة من سلاتيقهم ، ولذلك لم يكن عجباً أن تكون آية الرسول صلى الله عليه وسلم على صدق رسالته معجزةً بلاغية لا يستطيعون أن يجاروها هي القرآن الكريم . « وإنه لكتابٌ عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

- (١) مجمع الأمثال ٥/١ .
 (٢) يضرب في صيانة الرجل الكريم نفسه عن المكاسب الحسية .
 (٣) بين فكّيه : أي لسانه وما يتكلم به .
 (٤) الجريرة : الجناية .
 (٥) شطر بيت لطفرة .
 (٦) شطر بيت للنابغة .
 (٧) استنوق : أصبح ناقة . يضرب مثلاً لمن يظهر أن عنده رأياً ثم يتضح عجزه .
 (٨) الرمضاء : الأرض شديدة الحرارة .
 (٩) أشطره : الأشطر : أخلاف الناقة ، يضرب مثلاً لمن عرك الدهر .
 (١٠) العشواء : الناقة ضعيفة البصر ، يضرب مثلاً في التعثر .
 (١١) الدنية : العمل الدنيء .
 (١٢) الصريح : الخالص .
 (١٣) دخن : حقد .

الخطابة

ليس بين أيدينا نصوص وثيقة من الخطابة الجاهلية ، لما قلناه من بعد المسافة بين العصر الذي قيلت فيه وعصور تدوينها ، ولذلك كان ينبغي أن نحترس مما رواه منها صاحب الأملاني وصاحب العقد الفريد ، فأكثره أو جمهوره منحول . على أن اتهمنا لنصوصها لا ينتهي بنا إلى إنكارها على الجاهليين ، بل إنه لا ينتهي بنا إلى إنكار ازدهارها كما حاول بعض الباحثين ^(١) ، فقد كان كل شيء عندهم يؤهل لهذا الازدهار ، إذ لم يكن ينقصهم شيء من الحرية ، وكثرت المنازعات والخصومات بينهم والدعوة إلى الحرب مرة وإلى السلم مرة أخرى . وقد اتخذوا من مجالسهم في مضارب خيامهم ومن أسواقهم ومن ساحات الأمراء وفاداتهم عليهم ميادين لإظهار براعتهم وتقنيتهم في المقال وحسب الكلام ، وأسعفتهم في ذلك ملكاتهم البيانية وما فطروا عليه من خلاصة ولحن وبيان وفصاحة وحضور بديهة ، حتى ليقول الجاحظ : « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام . . عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو في حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا (أفواجا) وتنتال عليه الألفاظ انشبالا . . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أوفر ، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع ، وخطبائهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر . . من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب ^(٢) » .

وكل ذلك عمل على ازدهار الخطابة في الجاهلية ، وأن تتناول أغراضاً مختلفة ، فقد استخدموها في منافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب ، كمنافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل إلى هريم بن قطبة الفزاري ^(٣) ومنافرة

(١) في الأدب الجاهل لطلح حسين ص ٣٧٤ . (٢) أغاني (سامي) ٥١/١٥ .

(٣) البيان والتبيين ٢٨/٣ .

الققعقاع بن معبد التميمي وخالد بن مالك النهشلي إلى ربيعة بن حنذار الأسدي^(١). واستخدموها في الحضر على القتال وبعث الموجدة في نفوس قبائلهم ودفعها إلى نيران الحرب وتراميمهم في أوارها كأنهم الفراش ، يقول أبو زُبَيْد الطائي^(٢) :

وخطيب إذا تمعرت الأروجه يوماً في مأقط مشهود^(٣)

ويقول عامر المخاربي في مديح قومه^(٤) :

وهم يدْعُمُونَ القول في كل موطن بكل خطيب يترك القوم كُظْماً^(٥)

يقوم فلا يَغْيَا الكلام خطيبنا إذا الكرب أنسى الجبس أن يتكلما^(٦)

وكما كان يدعو خطباؤهم إلى الحرب وسفك الدماء كانوا يدعون إلى الصلح وإصلاح ذات البين وأن تضع الحرب أوزارها ، يقول ربيعة بن مقروم الضبي^(٧) :

ومنى تَقُمُّ عند اجتماع عشيرة خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَل

وكانوا كثيراً ما يخطبون في وفادتهم على الأمراء ، إذ يقف رئيس الوفد بين يدي

الأمير من الغساسنة أو المناذرة ، فيحياه ، متحدثاً بلسان قومه ، وفي السيرة النبوية

ما يصور جانباً من هذه الوفود ، إذ وفد كثير منها على الرسول منذ السنة الثامنة ، وكان

يقوم خطيب الوفد بين يديه متحدثاً ، ويرد عليه خطيب الرسول على نحو ما هو

معروف عن وفد تميم وخطبة عطار بن حاجب بن زُرارة بين يديه^(٨) . وكان ذلك

سنة شائعة بينهم في الجاهلية حين يفدون على الأمراء أو على من له رياسة وسيادة .

يقول أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كَلْدَة^(٩) :

أبادُلِجَةً مَنْ يَكْنَى العشيرة إذ أمسوا من الخطب في نارٍ وبَلْبَالٍ

أَمْ مِنْ يَكُونُ خطيبَ القوم إذ حَفَلُوا لدى الملوك ذوى أَيْدٍ وَأَفْصَالٍ^(١٠)

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢٧٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٧٦ .

(٣) تمعرت الوجوه : تغيرت واصفرت .

المأقط : موضع القتال .

(٤) المفضليات ، القصيدة ٩١ .

(٥) كُظْماً : جمع كاظم وهو الساكت غيظاً .

(٦) الجبس : اللبم المنقطع .

(٧) أغاني (سأسي) ٩٣١/٩ .

(٨) تاريخ الطبري ، القسم الأول ص ١٧١١ .

والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٤٦/٤ .

(٩) نقد الشعر لقدماء (طبعة الحوالب)

ص ٣٥ وديوان أوس (طبعة بيروت) ص ١٠٣ .

(١٠) أيد : قوة .

وقد يَنبَرون في الأسواق العظام ينصحون قومهم ويرشدونهم ، على نحو ما هو معروف عن قُسٍّ وخطبته بسوق عكاظ ، وربما نصح الخطيب عشيرته وقومه الأقربين ، كـبعض ما يروى عن عامر بن الظرب وأكثم بن صيفي . وكان من عادتهم في الزواج ، وخاصة زواج أشrafهم وأبنائهم أن يتقدم عن الخاطب سيد من عشيرته ، يخطب باسمه الفتاة التي يريد الاقتران بها ، وخطبة أبي طالب السيدة خديجة للرسول صلى الله عليه وسلم مشهورة ، ويقول الجاحظ : « كانت خطبة قريش في الجاهلية — يعنى خطبة النساء — : باسمك اللهم ذُكرتُ فلانة ، وفلان بها مشغوف ، باسمك اللهم ، لك ما سألت ، ولنا ما أعطيت » (١) . ويقول كان من عادة العرب في هذه الخطبة أن يطيل الخاطب ويقصر المحيب (٢) ، ويتحدث عن خطاباتهم عامة فيقول : « اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدَن والوَبَر والبدو والخصر على ضربين منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة ، ومتشاكلاً في استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفقه الحسن والنثف الجياد . . . ووجدنا عددَ القصار أكثر ورواة العلم إلى حفظها أسرع » (٣) .

وليس كل ما يدل على ازدهار الخطابة في الجاهلية ما رأيناه آنفاً من تعدد أنواعها وخصوصها في أغراض مختلفة من المصاهرة أو الوفاة على الأمراء أو النصيح والإرشاد أو الدعوة إلى الحرب أو الكف عن القتال أو في المناقرات والمفاخرات ، فقد استقر في نفوس العباسيين وعلى رأسهم الجاحظ أنهم كانوا يكثر من الخطب وأن قبيلة من القبائل بل عشيرة من العشائر لم تكن تخلو من خطيب ، وهو يسوق في البيان والتبيين أثباتاً طويلة بأسمائهم ومواقفهم مؤرداً من حين إلى حين فقرأ وشظايا من أقوالهم . ولعل من الخير أن نعرض أطرافاً من ذلك ، حتى تتضح لنا هذه النهضة الخطابية عندهم من بعض وجوها ، وخاصة أننا لا نطمئن إلى ما يروى لهم في كتب الأدب والتاريخ من خطب ، ومن ثمَّ سنعتمد عمداً إلى سرد أسماء خطبائهم من جهة وإنشاد بعض الأشعار التي تصور بيانهم وبراعتهم في هذا اللون من ألوان نثرهم ، لما هو معروف من أن الشعر يمكن أن يتقل عن طريق الرواية آماداً من الأزمنة بفضل ما فيه من موسيقى تحفظه من الاضطراب على ألسنة الرواة

(٣) البيان والتبيين ٧/٢ .

(١) البيان والتبيين ٤٠٨/١ .

(٢) البيان والتبيين ١١٦/١ .

وتحولُ بينه وبين دخول خلل واسع في صورَه الأصلية .

وإذا رجعنا نستعرض أسماء خطبائهم وجدنا البيان والتبيين يموج بهم ، من مثل قيس بن شماس في يثرب ، وابنه ثابت وهو خطيب النبي صلى الله عليه وسلم . ومن خطباء الأنصار أيضاً سعد بن الربيع ، وهو الذي اعترضت ابنته النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : من أنت ؟ قالت : ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد ابن الربيع ^(١) . أما مكة فن قدماء خطبائها هاشم وأمية ونُفَيْل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب ، وإليه تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية ^(٢) . ويظهر أنه كان فيها خطباء كثيرون ، وربما كان مما هيأ لكثرتهم وجود دار الندوة بها ، وهي تشبه مجلس شيوخ مصغراً ، كانوا يجتمعون فيها ويخطبون ويتحاورون ^(٣) ، ومن عُرف فيها بالخطابة عتبة بن ربيعة وسُهَيْل بن عمرو الأعلم ، وهو الذي قال فيه عمر للرسول صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله ! انزع ثنيتي » ^(٤) السفليين حتى يذُلَّع ^(٥) لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً » فقال الرسول عليه السلام : « لا أمثل فيمثل الله في ، وإن كنت نبياً ، دعه يا عمر ، فعسى أن يقوم مقاماً تحمده ^(٦) » ومن اشتهروا بالخطابة في القبائل عامر بن الظرب في عدوان وربيعه ^(٧) بن حذار في أسد وحنظلة بن ضرار في ضبة وقد طال عمره حتى أدرك يوم الحمل ^(٨) ، وعمرو ابن كلثوم في تغلب ^(٩) وهاني بن قبيصة في شيبان ، وهو خطيب يوم ذي قار ^(١٠) ، وزهير بن جتناب في كلب وقضاعة ^(١١) ، وابن عمار في طي ، وهو خطيب مذحج كلها ^(١٢) . ومن خطبائهم ليبيد بن ربيعة العامري ، ومن قوله ^(١٣) :

وَأَخْلَفُ قَسًّا لَيْتَنِي وَلَوْ أَنِّي وَأُعْجِي عَلَى لَقْمَانٍ حَكَمَ التَّدْبِيرُ

وهيذان بن شَيْخ الذي قال فيه الرسول صلوات الله عليه : رب خطيب من عبس ^(١٤) ، وخوَيْلِد بن عمرو والعُشْرَاء بن جابر الغطفانيان ^(١٥) ، ومن خطباء

(٨) نفس المصدر ٣٤١/١ .

(٩) نفس المصدر ١٤١/٢ .

(١٠) أغاني (سأى) ١٣٧/٢٠ .

(١١) نفس المصدر ٦٥/٢١ .

(١٢) البيان والتبيين ٣٤٩/١ .

(١٣) البيان والتبيين ١٨٩/١ .

(١٤) البيان والتبيين ٢٧٣/١ .

(١٥) نفس المصدر ٣٥٠/١ .

(١) البيان والتبيين ٣٥٨/١ - ٣٦٠ .

(٢) تاريخ الطبري ، القسم الأول ص ١٠٩١ .

(٣) السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ١٢٤/٢ .

(٤) الثنيتان : الأضراس في مقدم الفم .

(٥) يدلغ : يسترخى ، فلا يحسن النطق .

(٦) البيان والتبيين ٣١٧/١ .

(٧) نفس المصدر ٣٦٥/١ والأغاني

(سأى) ٦١/١٠ .

غطفان أيضاً قيس بن خارجة بن سنان الذي خطب في حرب داحس والغبراء يوماً إلى الليل^(١) وهرم بن قُطبة الفزاري^(٢) الذي احتكم إليه علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، فقال لهما: - كما مرنا -: « أنما كركبتى البعير الأدرم (الفحل) تقعان على الأرض معاً^(٣) » .

ومن خطباء تميم المفوهين أكرم بن صيفي وضمرة بن ضمرة، ويروى أنه لما دخل على النعمان بن المنذر زرى عليه للذي رأى من دمامته وقصره وقتله، فقال للنعمان : « تسمع بالمُعَيْدِي لأن تراه » فقال : أبيت اللعن ! « إن الرجال لا تُكَال بالقُفْزَان^(٤) ولا توزن بالميزان، وليست بمُسُوك^(٥) يُسْتَقَى بها، وإنما المرء بأصغريه : بقلبه ولسانه، إن صال صال بِجَنَان، وإن قال قال ببيان^(٦) » . ومن خطباء تميم أيضاً عطاردين حاجب بن زُرارة وهو خطيب وفدها، كما مرنا بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنهم عمرو بن الأهمم المنقري ، ولم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه^(٧) ، ويروى أن الرسول سأله عن الزُّبْرَقَان بن بدر فقال « مانع لحوزته ، مطاع في أدنيه » فقال الزُّبْرَقَان : « أما إنه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدني شرفي » فقال عمرو : « أما لئن قال ما قال ، فو الله ما علمته إلا ضيق الصدر ، زمر^(٨) المروءة ، لثيم الخال، حديث الغنى . فلما رأى أنه قد خالف قوله الآخر قوله الأول ورأى الإنكار في عيني رسول الله قال : « يا رسول الله ! رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمت ، وغضبتُ فقلتُ أقبح ما علمت ، وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الآخرة » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « إن من البيان لسحراً^(٩) » . ومن خطباء بني منقر التميميين أيضاً قيس بن عاصم الذي قال فيه الرسول صلوات الله عليه حين رآه : هذا سيدُ أهل الوبر^(١٠) ، وهو الذي قال فيه عبدة بن الطبيب حين مات^(١١) :

وما كان قيسُ هُلكهُ هُلكَ واحدٍ ولكنه بُنيانُ قومٍ تهديماً

- | | |
|--|------------------------------|
| (١) البيان والتبيين ١/١١٦ . | (٧) البيان والتبيين ١/٣٥٥ . |
| (٢) البيان والتبيين ١/٣٦٥ . | (٨) زمر : قليل . |
| (٣) أغاني (سامي) ١٥/٥١ . | (٩) البيان والتبيين ١/٥٣ . |
| (٤) القفزان : جمع قفيز ، وهو مكيال عراقي . | (١٠) البيان والتبيين ٢/٣٣ . |
| (٥) المسوك : جمع مسك وهو الجلد . | (١١) البيان والتبيين ٢/٣٥٣ . |
| (٦) البيان والتبيين ١/١٧١ . | |

ومن خطباء إِيَاد قُسُّ بن ساعدة، وهو الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : رأيتُه بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ^(١) . ويقول الجاحظ : « وإِيَاد خصلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى رَوَى كلام قُسِّ بن ساعدة وموقفه على جملة بعكاظ ووعظته ، وهو الذى رواه لقريش وللعرب ، وهو الذى عَجَّب من حُسْنه وأظهر من تصوُّبه . وهذا إسنادٌ تعجز عنه الأمانى وتنقطع دونه الآمال ^(٢) » . على أن ابن حَجَر آتهم هذا الإسناد ^(٣) ، وخاصة بعد توسُّع الرواة فى خطبة قس وتحميلهم لها إشارات بقرب مبعث الرسول عليه السلام ، وبما لا ريب فيه أن لها أصلاً صحيحاً تزيد فيه الرواة .

وواضح أن هذه كثرة من الخطباء الجاهليين ، إن لم يصح ما أُرثَر عنهم من خطب فلمن من المحقق أنهم خطبوا كثيراً فى أقوامهم وقبائلهم وإلا ما اشتهروا بالبراعة فى هذا اللون من ألوان اللِّسَنِ والبيان . وكان مما بعثهم على إحسانه حاجتهم إليه فى مواطن ومواقف عدة ، وكان قلما يرتفع نجم سيد من ساداتهم إلا والخطابة صفة من صفاته وسجية من سجايه ، حتى تساق له القلوب بأزمتها وتُجمع له النفوس المختلفة من أقطارها . وكل شئ يؤكد أن منزلة الخطيب عندهم كانت فوق منزلة الشاعر ، فهى قرين السؤدد والشرف والرياسة ، يقول أبو عمرو بن العلاء : « كان الشاعر فى الجاهلية يقدِّم على الخطيب لفترط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيّد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ، ويهوّل على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيّب من فرسانهم ، ويخوّف من كثرة عددهم ، ويهاجم شاعر غيرهم ، فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوق وتسرّصوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر ^(٤) » . وعلى هدى هذا القول مضى الجاحظ يقول : « كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوج لردّه مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر ^(٥) » .

وقارن بالكلّى المصنوعة للسيوطى ٩٥/١ .

(٤) البيان والتبيين ٢٤١/١ .

(٥) البيان والتبيين ٨٣/٤ .

(١) البيان والتبيين ٣٠٨/١ .

(٢) نفس المصدر ٥٢/١ .

(٣) السيرة الحلبية (طبعة مصر) ٢١٠/١ .

وربما كان من أسباب ذلك أن الشاعر — إذا استثنينا زهيراً — كان هو الذي يهيج النفوس للحرب بما يدعو للأخذ بالتأر ، أما الخطيب فكان غالباً يدعو إلى السلم وأن تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة أوزارها ، وكثيراً ما يقف من قومه موقف الناصح الأمين يهديهم ويرشدهم ، أما الشاعر فأكثر مواقفه هجاء وتنابد بالألقاب والأحساب والمآثر والمعائب .

وقد تعارف خطباؤهم على جملة من السنن والتقاليد في خطابتهم ، فكانوا يخطبون على رءوسهم في الأسواق العظام والجامع الكبار^(١) ، وقد لاثوا العمائم على رؤوسهم ، وفي أثناء خطابتهم كانوا يمسكون بالعصي والمخاض والقضبان والقنا والقسي راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض ، وأشار إلى ذلك لبيد إذ يقول^(٢) :

ما إنْ أَهَابُ إِذَا السَّارِدُ عَمَّهُ قَرْعُ الْقَيْسِيِّ وَأَرْعِشَ الرُّعْدِيدُ

ووقفت الشعبية طويلاً عند عادة خطباء العرب من اتخاذ العصي والمخاض ، ورداً عليهم الجاحظ في بيانه مبيناً فوائد العصا ، ومن قوله في تلك العادة : « إن حَمَلَ العصا والخصرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للإطناط والإطالة ، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ومقصود عليهم ومنسوب إليهم ، حتى إنهم ليذهبون في حوائجهم ، والمخاض بأيديهم لئلا لها وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها^(٣) » وكانوا يمدحون في الخطيب ثبات الجنان وحضور البديهة وقلة التلفت وكثرة الريق وجهازة الصوت وقوته ، وكانوا يعيبون فيه التثنع والارتعاش والحصر والتعثر في الكلام ، يقول النَّمِر بن تَوَلْب^(٤) :

أَعَذَّنِي رَبٌّ مِنْ حَصَرٍ وَعِيٍّ وَمِنْ نَفْسٍ أَعَالَجَهَا عَلاَجا

ويقول أبو العيال الهذلي :

وَلَا حَصْرٌ بِخُطْبَتِهِ إِذَا مَا عَزَّتِ الْخُطْبُ

وذموا في الخطيب أن يُكثر من مَسَّه لَذَقْنَه وشواربه ولحيته ، وكأنما رأوا في ذلك

(١) البيان والتبيين ٧/٣ .

(٢) نفس المصدر ٣٧٢/١ ، ٩/٣ .

(٣) البيان والتبيين ١١٧/٣ .

ضرباً من الخرق في استخدام الجوارح ، يقول معن بن أوس المزني في بعض هجائه ^(١) :

إذا اجتمع القبائلُ جثَّتْ رِدْفاً وراء الماسحين لك السبّالاً ^(٢)
فلا تُعْطَى عَصَا الخطباء فيهم وقد تُكْفَى المقاداة والمقالا

وكثيراً ما كانوا يتزيدون في جهازة الصوت ويتحلون سعة الأشداد وهذل الشفاء ، ومن أجل ذلك قال الرسول صلوات الله عليه : إياي والتشادق ، وقال : أيفضكم إلى الثرثارون المتفسيهقون ^(٣) .

ولإذا ذهبنا نستطيع النصوص عن أساليب خطابهم ، وهل كانوا يعمدون فيها إلى الأسلوب المرسل أو إلى الأسلوب المسجع وجدنا أنفسنا بإزاء تراث متهم لا يمكن الاعتماد عليه في الاستنتاج ، لما قلنا مراراً من أن حقبة متطاولة تفصل بين العصر الذي دُوِّنت فيه تلك الخطب والآخر الذي قبلت فيه . ومع أن الكثرة الكثيرة من هذه الخطب متحلة نلاحظ أن من نحلوها الجاهليين إنما قاسوها على أمثلة رُويت لهم ، فإذا لاحظنا أن أكثر مفاخراتهم ومنافراتهم رُوِي مسجوعاً كان معنى ذلك أنه ثبت عند من نحلوا الجاهليين هذه المفاخرات والمنافرات أنهم كانوا يسجعون فيها . وتستطيع أن ترجع إلى منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية وتحكيهما لنفسيل بن عبد العزى في تاريخ الطبري ^(٤) فستجدها مسجوعة ، ومثلها منافرة جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أوطاة الكلبي إلى الأقرع بن حابس ، فقد رُوِي في شرح نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة ، وهي مسجوعة ^(٥) ، ومثلها منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل المروية في كتاب الأغاني ، فهي الأخرى مبنية على السجع ^(٦) . ويجعل الجاحظ ذلك قاعدة عامة أو كالقاعدة العامة ، فيقول : « إن ضَمْرة بن ضمرة وهَرَم بن قُطبة والأقرع بن حابس ونُفَيْل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع ، وكذلك ربيعة بن حُذار ^(٧) »

(٤) الطبري ، القسم الأول ص ١٠٩١ .

(٥) النقائض ١٤١/١ .

(٦) أغاني (طبعة الساسي) ٥١/١٥ .

(٧) البيان والبيان ٢٩٠/١ .

(١) البيان والبيان ٣٧٢/١ .

(٢) السبّال : مقدم اللحية . هجوه يأنه

ليس رئيساً ولا غطياً .

(٣) البيان والبيان ١٣/١ . المتفحق :

الذي يفتح بالكلام جوانب فمه ويملؤه به .

كما يقول في موضع آخر إنهم كانوا يستخلصون الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، بينما كانوا يستعملون المشور المرسل في خطب الصلح وسئل^١ السخيمة وعند المعاهدة والمعاهدة . وكأنهم عرفوا في الجاهلية لونين من الخطابة لوناً مسجوعاً ولوناً مرسلًا . ولا تظن أنهم في خطابهم المرسل لم يكونوا يروون فقد كانوا يعملون إلى ما يثير السامعين من كلم بليغ ، حتى يؤثر فيهم ويبلغوا ما يريدون من استمالهم ، يقول الجاحظ : « لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد وفي صنعة طوال الخطب ، وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأي في معالظ التدبير ومهمات الأمور ميثوه^(١) في صدورهم وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قومته الشكاف ، وأدخل الكبير ، وقام على الخلاص أبرزه محكمًا منقحًا ومُصَفًّى من الأدناس مهذبًا^(٢) » .

ومن يقرأ الفقر القصار والمحاورات المختصرة التي بقيت من تراثهم ، تلك التي يروها الجاحظ ، يشعر حقاً أنهم كانوا يبتغون التجويد في كلامهم ، تارة بما يصوغونه فيه من سجع ، وتارة أخرى بما يخرجونه فيه من استعارات وأخيلة . ودائماً يعنون بهاء اللفظ وقوته ونصاعته ، كما يعنون بوضوح الحجة ، وتصور أشعارهم جوانب من ذلك كقول لبيد لحرم بن قُطَبة حين احتكم إليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن عُلَثة^(٣) :

إنك قد أوتيت حُكماً معجِبا فطَبَّقَ المَفْصِلَ واغْنَمَ طَيِّبا
وواضح أنه يقول له : إنك قد أوتيت حكماً فاصلاً قاطعاً يفصل بين الحق والباطل كما يفصل الجزار الحاذق مَفْصِلَ العَظَمين . ومن ذلك قولهم فلان يقلُّ الحَزَّ^١ ويصيب المَفْصِلَ ويضع الهِناء مواضع الثَقَبِ^(٢) . والعبارة الأخيرة مستعارة من صنيع الحاذق حين يلمّ الحرب بإبله فيضع دواءه في مواضعه الدقيقة ، يمشلون بذلك للمصيب الموجز في خطابه وبيانه ، كما مثله في التعبيرين الأولين بالجزار الحاذق الذي يصيب عين الموضع من جزوره سواء في العظم أو في اللحم . وقد يشبهون كلامهم بالسهم المصمى ، ومن ثم استخدموا كلمة مِدْرَه للشجاع والخطيب المفلق في الوقت نفسه ، وأصل معناها المُرَامى ، فاستعيرت من رامى السهم لرامى الكلام

(١) ميثوه : ذلوه .

(٢) البيان والتبيين ١٤/٢ .

(٣) البيان والتبيين ١٠٩/١ .

(٤) نفس المصدر ١٠٧/١ . الهناء :

القطران . والثقب : أول ما يبدو من الحرب

في الإبل .

الذى يبلغ به ما يريد من إصابة خصمه والنكابة به ، يقول زهير بن أبى سلمى ^(١) :
 ومِزْرُهُ حَرْبٌ حَمِيْهَا يُتَقَى بِهِ شَدِيدُ الرَّجَامِ بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ
 ونراهم يصفون خطباءهم بأنهم مصاقع ولُسن، وافتخروا بذلك طويلا على
 نحو ما نجد عند قيس بن عاصم المِنْقَرِي يصف ما فيه وفي عشيرته بنى
 مِنْقَرٍ من الخطابة والفصاحة ^(٢) :

إِنِّى أَمْرُو لا يَعْتَرِي خُلُقِي دَنْسٌ يُفْنِدُهُ ولا أَفْنُ ^(٣)
 من «مِنْقَرٍ» فى بيت مَكْرُمَةٍ والأَصْلُ يَنْبَتُ حَوْلَهُ الْفُضْنُ
 خطباءٌ حين يقوم قائلهم بيض الوجوه مصاقعُ لُسن

وقد حلدروا طويلا من شدة وقع اللسان ، وقالوا إن جرح اللسان كمجرح اليد
 وإنه غضب وقاطع كالسيف ، يقول طرفة ^(٤) :

يَحْسَامُ سَيْفِكَ أَوْ لِسَانِكَ وَالْكَلِمُ الْأَصِيلُ كَأَرْغَبِ الْكَلِمِ
 ولعل مما يدل دلالة قاطعة على أنهم أحسوا بحمال ما يلفظ به خطباؤهم أننا
 نراهم يشبهون كلامهم بالثياب الموشاة وبالخلل والدُّبَّاجِ وأشباه ذلك ، يقول
 أبو قُرْدُودَةَ الطَّائِي فى رثاء ابن عَمَّارٍ خطيب مَدَنٍ حِجٍ وقد مات مقتولا ^(٥) :

وَمِنْطَقِي خُرْقٌ بِالْعَوَاسِلِ لَدَّ كَوْثَى الْيُمْنَةِ الْمَرَّاحِلِ ^(٦)

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أن الخطابة كانت مزدهرة
 فى الجاهلية ، فقد كانوا على حظ كبير من الحرية ، وكانوا يخطبون فى كل موقف :
 فى المفاخرات وفى الدعوة إلى السلم أو الحرب وفى النصيح والإرشاد وفى الصهر
 والزواج . وابتغوا دائما فى كلامهم أن يؤثر فى نفوس سامعيهم بما حققوا له من ضروب
 بيان وبلاغة .

(٤) البيان والتبيين ١/١٥٦ . أرغب :

أوسع : الكلم يسكون اللام : الجرح .

(٥) البيان والتبيين ١/٣٤٩ .

(٦) العوasl : الرماح . المراحل : جمع
 مرحل وهو ما نقش فيه تصاوير الرجال .

(١) ديوان زهير (طبعة دار الكتب)

ص ٢٢٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/٢١٩ .

(٣) يفند : ينقض ويضعف . الأفن :

ضعف الرأى .

سجع الكهان

كانت في الجاهلية طائفة تزعم أنها تطلع على الغيب وتعرف ما يأتي به الغد بما يُلْقَى إليها توابعها من الجن، وكان واحداً يسمى كاهناً كما يسمى تابعه الذي يوحى إليه باسم «الرثي». وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم، فكانت لهم قداسة دينية، وكانوا يلجأون إليهم في كل شئوهم، وقد يتخذونهم حكاماً في خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم ابن عبد مناف وأمّية بن عبدشمس واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعي، وقد نفّر هاشماً على أمية^(١). وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عن آرائهم في كثير من شئوهم كوفاء زوجة أو قتل رجل أو نحر ناقة^(٢)، أو قعود عن نصرة أحلاف^(٣)، أو نهوض لحرب، ففي أخبار بني أسد أن حجراً أبا امرئ القيس رَقَّ لهم، فبعث في إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهّن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة، فقال لبني أسد: «يا عبادي! قالوا لبيك ربنا، قال: من الملك الأصهب، الغلاب غير المغلب، في الإبل كأنها الرّبرب^(٤)، لا يعلق رأسه الصّخب، هذا دمه يَنْشَعِب^(٥)»، وهذا غداً أول من يُسَلَّب، قالوا: من هو يا ربنا؟ قال: لولا أن تجيش نفس جاشية، لأخبرتكم أنه حُجْر ضاحية. فركبوا كل صعب وذلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجْر فهجموا على قُبْته وقاتلوه^(٦). وكثيراً ما كانوا ينلدرون قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر^(٧)، كما كانوا كثيراً ما يفسرون رؤاهم وأحلامهم^(٨).

فنزلة كهّانهم في الجاهلية كانت كبيرة، إذ كانوا يعتقدون أنه يوحى إليهم، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التي تجاورها،

(٦) أغاني ٨٤/٩.

(٧) الأمال للقال ١٢٦/١ والسيرة النبوية

٢٢١، ٤٣/١.

(٨) السيرة النبوية ١٥/١ وما بعدها.

(١) السيرة الحلبية ٤/١.

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١٨/١١.

(٣) أغاني ١٤٠/١١.

(٤) الربرب: القطيع من الظباء.

(٥) ينشعب: يسيل.

ومن ثمَّ كان العرب يقصدون كثيرين منهم من مناطق بعيدة، وما يلاحظ أنَّهم كانوا يكثرُّون في اليمن وفي بيوت عبادتها الوثنية، وخاصةً من يتعمقون في القدم، ولعل في ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب وعرب الشمال. وتلقانا في كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم وقد يبالغ القصَّاص، فيسمون لبعضهم صوراً خيالية، فمن ذلك أن شقَّ بن الصَّعب كان شقَّ إنسان أو شطره فله عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة، وأن سطيح بن ربيعة الذئبي لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وأن وجهه كان في صدره ولم يكن له عنق^(١)، وربما كان أحذب. ومن كهانهم في أواخر العصر الجاهلي سواد بن قارب الدؤسي وقد أدرك الإسلام ودخل فيه^(٢)، ومنهم المأمور الحارثي، كاهن بني الحارث بن كعب^(٣)، وخنافر الحميري، وكان يقول إنه أسلم بمشورة تابعه «شِصار»^(٤). وأكهنهم عزَّى سلمية، يقول الجاحظ: «أكهن العرب وأسجعهم سلمية بن أبي حبة وهو الذي يقال له عزَّى سلمية»^(٥). ومن قوله^(٦): «والأرض والسماء، والعقَّاب والصقَّعاء، واقعةً ببَقَّعاء، لقد نَفَّرَ المجدُّ بنى العُشراء للمجد والسناء»^(٧). ونجد بجانب هؤلاء الكهان جماعة من الكاهنات، وربما كنَّ في الأصل من النساء اللاتي يهين أنفسهن للآلهة ومعابدها، ومن أشهرهن الشَّعْثاء^(٨) وكاهنة ذى الخلصة^(٩) والكاهنة السَّعدية^(١٠) والزرقاء^(١١) بنت زهير والغبيطة القرشية^(١٢) وزبَّراء كاهنة بنى رثام، ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت: «واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والتَّعْجَم الطارق والمُزَن الوادق، إن شجر الوادي ليأدو وخيتلاً، ويحرق أنياباً عُصلاً، وإن صخر الطَّود لينذر ثُكُلاً، لا تجدون عنه معلاً»^(١٣).

-
- (١) عجائب المخلوقات للقرظبي ١/١٧١. (٢) السيرة النبوية ١/٢٢٣. (٣) الأمالي ١/٢٧٦ واسمه فيه المأمون، وانظر ٣/١٥١ والأغاني ١٥/٧٠. (٤) الأمالي ١/١٣٣. (٥) البيان والتبيين ١/٣٥٨. (٦) نفس المصدر ١/٢٩٠. (٧) الصقَّعاء: الشمس، بقعاء: ماء أو موضع. نفر: حكم بالغلبة. بنو العشراء: عشيرة من فزارة. السناء: الرقعة.
- (٨) جمع الأمثال للميداني ١/٩١. (٩) نفس المصدر ١/٢٢٣. (١٠) نفس المصدر ٢/٥٤. (١١) أغاني (دار الكتب) ١٣/٨١. (١٢) سيرة ابن هشام ١/٢٢١. (١٣) اللوح هنا: الريح. الوادق: المطر. يأدو: يخل. يحرق أنياباً عصلاً: كناية عن الغضب والشر. عصلاً: معوجة. الطود: الجبل. المل: الملجأ. انظر الأمالي ١/١٢٦.

ونحن لا نطمئن إلى ما يُروى في كتب التاريخ والأدب من أقوال جرت على السنة هؤلاء الكهان والكاهنات ، فإن بُعد المسافة بين عصور التدوين والعصر الجاهلي يجعلنا نهم مثل هذه الأقوال ، إذ من الصعب أن تُروى بنصّها وقد مضى عليها نحو قرنين من الزمان . ولأنما استشهدنا ببعض منها للدلالة على أنه ثبت في أذهان من تحدثوا عن الكهّان والكاهنات في الجاهلية أنهم كانوا يعتمدون على السجع في كلامهم ، ولذلك حين أجروا ألسنتهم بالكلام جعلوه مسجوعاً على شاكلة ما رويناه من أقوالهم . ومعنى ذلك أنه وُجد في العصر الجاهلي سجع كان يقوله الكهان ، وقد اختلط الأمر على بعض قريش في أول نزول الذكر الحكيم ، فقرنوه بسجع كهنتهم وردّ عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جلّ وعزّ : (ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) وقال سبحانه وتعالى : (فذكر ، فما أنت بنعمة ربك بكاهن) وقال : (إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) .

ومما يدلّ على أن كهنتهم كانوا يسجعون ، بل كانوا لا يتكلمون إلا بالسجع ، الحديثُ المروى عن أبي هريرة ، فقد حدث أنه « اقتلت امرأتان من هذيل ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر ، فقتلتها وما في بطنها ، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقضى رسول الله أن دية جنيها غرة : عبد أو وليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها ^(١) . . . فقال حمل بن النابغة الهذلي : يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ^(٢) ، فقتل ذلك يُطْلَ ^(٣) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما هذا من إخوان الكهّان ، من أجل سجعه الذي سجع ^(٤) » . ويقول الجاحظ : « كان حازي (كاهن) جُهينة وشقّ وسطيح وعزّى سلمة وأشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع ^(٥) » . وإذا صح أن ما يروى في كتب التاريخ والأدب من سجع الكهان تقليد دقيق لما كانوا يأتون به من هذا السجع لاحظنا أنهم لم يكونوا يسجعون فحسب ،

(٤) صحيح مسلم (طبعة الأمّانة) ١١٠/٥

وانظر موطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ١٩٢/٢ .

(٥) البيان والتبيين ٢٨٩/١ وما بعدها .

(١) عاقلة المرأة : عصبها الذين يتصامنون

معها في دفع الدية .

(٢) استهل : صاح .

(٣) يطل : يهدد به .

بل كانوا يعمدون أيضاً إلى ألفاظ غامضة مبهمة ، حتى يتركوا فسحة لدى السامعين كي يؤوّل كل منهم ما يسمعه حسب فهمه وظروفه . ومن ثم دخل الرمز في كثير من أقوالهم ، إذ يومتون إلى ما يريدون إيماؤه ، وقلما صرحوا أو وضّحوا ، بل دائماً يأتون المعاني من بعيد ، بل قل إنهم كانوا لا يحبون أن يصوروا في وضوح معنى ، ويتخذوا له أشباحاً واضحة من اللفظ تدل عليه ، لأن ذلك يتعارض مع تنبيههم الذي يقوم على الإيهام والوهم واختيار الألفاظ التي تخدع السامع وجوهاً من الخدع ، ومن ثم كان من أهم ما يميز أسجاعهم عدم وضوح الدلالة وأن يكثر فيها الاختلاف والتأويل .

وليس هذا كل ما يلاحظ على السجع الذي يضاف إليهم ، فإنه يلاحظ عليه أيضاً كثرة الأقسام والأيمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والدليل الداجي والصبح المنير والأشجار والبحار وكثير من الطير . وفي ذلك ما يدل على اعتقادهم في هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحاً خفية ، ومن أجل ذلك يحلفون بها ، ليؤكدوا كلامهم وليلبغوا ما يريدون من التأثير في نفوس هؤلاء الوثنيين .

وهذا السجع الديني كان يقابله — كما قدمنا — سجع آخر في خطابهم ، بل في كلامهم وأمثالهم التي دارت بينهم . ولعل في ذلك كله ما يدل على أن الجاهليين عُنُوا بنثرهم كما عُنُوا بشعرهم ، فقد ذهبوا يحاولون تحقيق قيم صوتية وتصويرية مختلفة فيه ، تكفل له جمال الصياغة وروعة الأداء .

خاتمة

خلاصة

حاولتُ في الصحف السابقة أن أؤرخ للأدب العربي في العصر الجاهلي ، فتحدثت عن صفة الجزيرة العربية وتاريخها القديم ، وكيف أنها كانت مهد الساميين ، إذ خرجوا منها موجة في إثر موجة ، وكانت موجة العرب الجنوبيين الذين يسمّوا حوض المحيط الهندي آخر موجاتهم ، وكانت تفصلهم من عرب الشمال صحراوات واسعة جعلتهم يستقلون عنهم في لغتهم وخصائصها النحوية ، كما جعلتهم يستقلون عنهم في حضارتهم . ومع ذلك فقد ظلت قائمة بين الجنوبيين والشماليين أو القحطانيين والعدنانيين صلات اقتصادية ودينية وسياسية أتاحت لهم ضروباً من التداخل والتشابك . واستطاع الشماليون أن ينفذوا في آخر الأمر إلى صورة خطّهم العربي المعروف .

ومضيتُ أتحدث عن العصر الجاهلي وحدّته بنحو قرن ونصف قبل الإسلام ، أما ما قبل ذلك فهو الجاهلية الأولى ، وكل ما بأيدينا من شعر قديم إنما يرجع إلى العصر الجاهلي أو الجاهلية الثانية . ونحن نفاجأ في أول هذا العصر باكتمال الخط العربي ، كما نفاجأ بهذا الشعر الناضج الذي يضاف إلى الجاهليين . وأخبارهم واضحة تمام الوضوح ، فقد كانت تقوم في الشمال إمارات الغساسنة والمناذرة وكندة ، بينما كانت تتجمع قلوب العرب حول مكة ، فهي بيت كعبتهم وعبادتهم الوثنية ، وهي مركز تجارتهم وقوافلهم التي تربط بين حوض المحيط الهندي والبحر المتوسط ، ووراءها قبائلهم البدوية ، وكانت تتنظم قسمين كبيرين من عرب الشمال العدنانيين وعرب الجنوب القحطانيين الذين هاجروا من ديارهم إلى ديار الشماليين منذ أزمان بعيدة . وكانت كل قبيلة وحدة قائمة بنفسها ، وهي وحدة دعمتها وشائج متينة من العصبية . وكان لكل قبيلة سيد ومجلس يضم شيوخ عشائرها ، وواجبات السيد دائماً أكبر من حقوقه ، ومن ورائه أفراد قبيلته متضامنين أوثق ما يكون التضامن ، وخاصة حين يُطلب ثأر أو تنشب حرب ، وقد تحولوا يجز يرتهم إلى ما يشبه ميداناً حربياً كبيراً ، ففي كل مكان عراك وقتال وفي كل مكان دماء تسيل . ولهم حروب

مشهورة سجلّها علماء اللغة والأدب في العصر العباسي كحرب البسّرس وحرب داحس والغبراء .

وانتقلت من ذلك أبحاث في حياتهم وأحوالهم الاجتماعية ولاحظت أن مجتمع القبيلة كان يتألف من ثلاث طبقات ، هي أبناؤها ومواليها وعبيدها ، وكان أهم شيء يشدُّ من بنيان هذا المجتمع حرصهم على الشرف وما سموه المروءة ، إذ كان كل منهم يحرص على البذل والشجاعة والوفاء وحماية الحار وإباء الضيم ، وتخلّلت ذلك آفات ، أهمها : الخمر والقمار واستباحة النساء . وقد تأخذ هذه الآفات عند بعض الشباب أمثال طرفة شكل فتوة جامحة . ومن المؤكد أنه كان للمرأة الحرة عندهم منزلة كريمة . ولم تكن معيشتهم واحدة ، فقد كانت الزراعة منتشرة في الجنوب والشرق وواحات الحجاز ، وكان أهل مكة يعيشون على التجارة ، على حين كان البدو يعيشون على رعي الأغنام والأنعام وصيد الحيوان ، وكان بينهم سادة يملكون مئات الإبل وصعاليك لا يملكون شيئاً . ومع أنهم كانوا على صلة بالحضارات المجاورة كانوا لا يزالون أقرب إلى طور البداوة ، وكان علم الأنساب أهم علومهم ، ولم يكن لهم وراءه إلا معارف محدودة تقوم على التجربة الناقصة كبعض معارفهم الطبية والفلكية . وكانت كثرتهم وثنية تتعبد لآلهة وأصنام وأوثان كثيرة ، وكانت الكعبة في مكة أكبر معابدهم ، وكانوا يحججون إليها في أشهر معلومات . على أن نفراً منهم شكّوا في أواخر هذا العصر في دينهم الوثني واتمسوا دين إبراهيم ويسمّون المتحنّفة والحنفاء وكأنما كانوا إرهاباً لظهور الإسلام والدعوة المحمدية . وكانت النصرانية في أثناء ذلك تنتشر في القبائل المحاذية للشام والعراق بينما كان كثير من اليهود ينزلون في واحات الحجاز وفي اليمن ، وتعربت كثرتهم إلا أن العرب ظلوا يزدرونهم ويفترون من دينهم .

ولما تمّ لي بيان هذه الجوانب أخذت أبحث في اللغة العربية وعناصرها السامية القديمة ، ووقفت عند أقدم لهجاتها المثبتة في النقوش ، وهي التمودية واللّحيانية والصّفيوية ، تلك التي كتبت نقوشها بالخط المسند الجنوبي ، ثم اللهجة النبطية ، وكانت نقوشها تكتب بالخط الآرامي ، ومنه نشأ تطور الخط العربي في الحجاز . وتختلف هذه اللهجات الأربع اختلافات كثيرة عن لغة الجاهليين ، وإن كان

من المؤكد أن اللهجة النبطية أقربها جميعاً إليها ، وقد أخذت في الدور منذ القرن الثالث للميلاد ، بينما أخذت تحل محلها مقدمات الفصحى بحيث لا نصل إلى نهاية القرن الخامس وأوائل السادس الميلادي حتى تتكامل تكاملاً تاماً وتعم بين القبائل النجدية وفي الحيرة وبين الغساسنة ، وتصبح هي اللغة العامة المتداولة بين الشعراء . وكانت هناك لهجات قبلية كثيرة ولكن الفصحى ظفرت بها جميعاً في المجال الأدبي ، بحيث كان الشعراء في كل قبيلة ينظمون بها مرتفعين عن لهجاتهم القبلية أو المحلية . وقد حار المستشرقون طويلاً في معرفة اللهجة التي سادت بين القبائل في الشمال وأصبحت اللهجة الأدبية الشائعة على كل لسان ، وأثبت أنها لهجة قریش ، إذ تآزرت بواعث دينية واقتصادية وسياسية على أن تم لها هذه السيادة منذ أوائل العصر الجاهلي .

وبحث عقب ذلك في رواية الشعر الجاهلي وتدوينه ، مبيناً كيف تضاعفت جهود القبائل العربية ورجالها وشعرائها على حمله جيلاً بعد جيل ، حتى تسلمه منهم طبقة من الرواة المحترفين في البصرة والكوفة ، وكان بينهم الثقة الذي لا يرتفع شك إلى روايته مثل المفضل الضبي والأصمعي والمهم الذي يجمع العلماء على إبطال روايته مثل حماد وخلف الأحمر . وفي تضاعيف ذلك كان الشعر الجاهلي يدون ، بحيث لا نصل إلى أوائل القرن الثالث للهجرة حتى يتكامل تدوينه . والذي لا شك فيه أنه دخله انتحال كثير ، ولم يكن القدماء غائبين عن ذلك ، فقد نصوا على كل ما شكوا فيه من رواة ومن شعر ، حتى يحيطوه بسياج من التوثيق ، أو بعبارة أدق حتى يحيطوا الصحيح منه . ومنذ أواسط القرن الماضي يلم المستشرقون بالمشكلة ، واندفع منهم مرجليوث في هذا القرن يزعم أن الشعر الجاهلي جميعه منحول على أهله ، وهب كثير من المستشرقين يردون عليه ، ومن ذهب مذهبه في تعميم الحكم على الشعر الجاهلي بالانتحال والوضع طه حسين ، وإن لم يتسع بحكمه اتساع مرجليوث ، وعلى هدى من آراء طه حسين ومرجليوث جميعاً تناول القضية بلاشير في الجزء الأول من كتابه « تاريخ الأدب العربي » . وقد ناقشت آراءه وآراء غيره من الباحثين ، وانتهيت إلى أن هناك شعراً منتحلاً كثيراً لا سبيل إلى الثقة به ، ولكن بجانبه شعر صحيح رواه الثقات وعلى رأسهم المفضل الضبي

والأصمعي ، وهو الذى نستند عليه فى دراسة الأدب الجاهلى ، دراسة نُخضعه فيها لبحث داخلى دقيق . ومن أجل ذلك وقفتُ عند مصادره لأدلّ على قيمتها ومدى ثروتها .

ومضيتُ أبحث فى خصائص الشعر الجاهلى ، فتحدثت عن نشأته وأنها انطمرت فى ثأيا الجاهلية الأولى، بحيث لا نجد منذ أوائل العصر الجاهلى أو الجاهلية الثانية شيئاً نستبين منه طفولته ، إنما نجد هذه الصورة النموذجية المعروفة للقصيد الجاهلية ، وهى صورة شاعت بين القبائل جميعاً ، وكان للقبائل المضربة منها بالذات الحظ الأوفر . ووقفتُ عند موضوعاته ، ولاحظت فيها بقايا من الصلة القديمة بين شعرهم والأناشيد الدينية التى كانوا يرتلونهم لآلهم ، كما وقفت عند معانيه ولاحظت أنها حسية تغلب عليها السطحية والتقريرية والسرعة السريعة، أما ألفاظه فكاملة الصياغة حافلة بالصقل والتجويد، زاهرة بقمم موسيقية وتصويرية كثيرة.

وأفردتُ بعد ذلك فصلاً لأربعة من الشعراء ، يعدهم النقاد السابقين المجلّين فى العصر الجاهلى ، وهم امرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى . واعتمدت فى دراسة الثلاثة الأولين على رواية الأصمعي لدواوينهم ، وبدأت بامرئ القيس ، فتحدثت عن حياته وكيف دخلتها الأسطورة ، ثم تحدثت عن ديوانه ، وبحثته بحثاً داخلياً ، فإذا أكثر ما يضاف إليه تشوبه الريبة بشهادة الأصمعي ، واستظهرت أن تكون المعلقة وتالياتها فى ديوانه صحيحتين فى جملتهما ومثلهما القصيدتان الحادية عشرة والسابعة والعشرون لأنهما من رواية أبى عمرو بن العلاء ، الثقة الصدوق . ولا يبقى له بعد ذلك إلا مقطوعات قصيرة تعرض فيها لمن أجاروه ومن رفضوا جواره . واستطعتُ من خلال هذه النصوص القليلة أن أوزع شعره على دورتين فى حياته، دورة غلب عليه فيها اللهو والعبث، ودورة ثانية غلب عليه فيها الحزن والإحساس بسوء المصير . وأخيراً صورتُ خصائصه الفنية مبيناً منزلته فى الشعر الجاهلى وكيف عدَّ أباه غير منازع ولا مدافع .

وبحثتُ بعده النابغة الذبياني ، فتحدثت عن حياته ، وكيف أمضاها فى بلاط المناذرة والغساسنة سفيراً لقومه الذبيانيين ، وكيف كان يحتلّ بين الشعراء مكانة مرموقة فى داخل الجزيرة وفى مكة وسوق عكاظ . وبحثتُ فى ديوانه على ضوء رواية

الأصمعي ، وأنكرت منها خمس قصائد على رأسها قصيدته في المتجردة . وشعره من هذه الناحية أوثق من شعر امرئ القيس لأنه أقرب منه عهداً ، ولم تدخل الأسطورة في حياته ولا في شعره . ووقفتُ عندما اشتهر به من مديح واعتذار ، مبيناً قدرته على الوصف ورصف الموضوعات وتنسيق المعاني وإبتكار الصور والأخيلة ، يهديه في ذلك كله ذوق مهذب ، هذبه الحضارة التي نعم بها في الحيرة وعند الغساسنة ، فإذا هو صاحب حسٍّ دقيق وشعور رقيق .

وكان يعاصره زهير بن أبي سلمى المزني ، وقد نشأ في بني مرة الديانين بحيث عُدَّ فيهم ، وتصادف أن كان خاله شاعراً وأن كان زوج أمه أوس بن حجر من كبار الشعراء الجاهليين ، فحسَّ كلُّ منهما جميعاً الشعر ، وعاش له يتعلمه ويعلمه شعراء من بيته ومن غير بيته ، بحيث أصبح أستاذاً للمدرسة عُرفت به . وقد وقفتُ عند ديوانه وأسقطت منه ما أسقطه الأصمعي . ولاحظت أن الشعر عنده انتهى إلى صورة مثالية من التنقيح والتحجير في قوالبه وصيغته تحجيراً لاحظته القدماء إزاء بعض مطولاته ، فقالوا إنه يصنع القصيدة في حول كامل وإن له سبع حوليات . وهو يرضم إلى هذا التحجير عناية بعيدة بالتشبيهات والاستعارات ، بحيث يُعدُّ حقاً شاعر التصوير في العصر الجاهلي وكان يكثر من الحكيم ومن الدعوة إلى الخير والسلام ، فلا نغلو إذا قلنا إن شعره يعد صورة رفيعة للخير والحق والجمال .

وانتقلتُ إلى الأعشى ، فتحدثت عن حياته التي كان ينفقها متنقلاً في أنحاء الجزيرة ، ثم عرضت لديوانه ، واضطرت لبثته من خلال رواية يكثر فيها الانتحال ، وتصادف أن كان راوية شعره مسيحياً ، فنحله كثيراً من الأفكار المسيحية ، وتداول شعره القصَّاصُ والوعاظ المسلمون ، فأضافوا إليه أشعاراً كثيرة ، لغرض العظة والاعتبار . كما أضاف إليه الرواة غير قصيدة ، كقصيدته رقم ٢٤ التي تحكي قصة وفاء السمَّوأل . وجعلنا هذا كله نشك في كثير من قصائده وأشعاره ، وإذا بنا نرفض أكثرها ، ولا نُبقي له إلا على نحو عشرين قصيدة . وقد لاحظتُ عليه غلوّاً في المديح وتأثراً دقيقاً بالحضارة التي عاصرت في الحيرة ، حتى ليقرب شعره من شعر العباسيين لا في معانيه فحسب ، بل أيضاً في سهولة ألفاظه وخفة أوزانه . ونفس الموضوعين الأساسيين اللذين يدور فيهما شعره لا يختلفان

في شيء عما نقرؤه للعباسيين ونقصده وصفه للخمر وغزله وتلحه فيه وما قد يلاحظ عنده من المبالغة المسرفة وكثرة التضمين .

وخرجتُ من هؤلاء الشعراء المبرزين إلى دراسة طوائف من الشعراء اتفقوا في اتجاه من اتجاهات الحياة الجاهلية ، فدرستُ أولاً الفرسان وما يصورون في أشعارهم من بطولتهم ومثاليتهم الخلقة الرفيعة . ثم درست الصعاليك وما يصورونه في أشعارهم من غاراتهم وما نحسُّه عند نقر منهم من تسام وعون للفقراء والمعوزين . ثم بحث في شعراء اليهود مبيِّناً كثرة ما نُحل عليهم . ووقفت عند النصاري من الشعراء أمثال عدى بن زيد العبادي ، ولاحظت أن شعراً كثيراً زُيِّف عليه . ولا نبالغ إذا قلنا إن أكثر ما يضاف إلى أمية بن أبي الصلت ، إن لم يكن كله ، موضوع منتحل . وتدور الأشعار المضافة إليه في موضوعين أساسيين ، هما نشأة الكون وما يتصل بها من خلق السموات والأرض ، والموت أو الفناء وما يعقبه من العذاب والثواب .

ولما فرغتُ من بحث الشعر الجاهلي وشعرائه انتقلتُ أبحث في النثر الجاهلي ، فلاحظت أن الجاهليين لم يعرفوا الرسائل الأدبية المحبرة ، ولكنهم عرفوا القصص والأمثال والخطابة وسجع الكُهَّان . ومن الحق أنهم لم يدوّنوا شيئاً من قصصهم ، غير أن ما أضافه العباسيون إليهم يصوّر غير قليل من روحه وطبيعته . وعرضتُ لأمثالهم وما كان من ازدهار الخطابة بينهم واصطلاحهم فيها على طائفة من السُّنن والتقاليد . وكان كُهَّانهم يحاولون التأثير البالغ في نفوس سامعيهم بما يسوقون إليهم من أسجاع وألفاظ غريبة وأقسام وأيمان موهمة . وكل ذلك يؤكد أن الجاهليين حاولوا في نثرهم ما حاولوه في شعرهم من روعة الأداء ، حتى يستأثروا بقلوب سامعيهم ويخلبوا عقولهم وألبابهم .

تعليق

واضح أن الصورة السابقة للأدب الجاهلي إنما تعنى بإبراز خطوطه الأساسية ، ومن المحقق أن هناك خطوطاً صغرى لا يبرزها البحث ، فنحن مثلاً إنما تحدثنا عن الشعراء المجلّين ، وتركنا كثيرين لم نكد نلمّ بهم إلا بعض اقتباسات من

أشعارهم نثرناها نثراً في بعض الفصول . وإنما تركنا تفصيل الحديث عنهم ، إما لأن ما وصلنا من أشعارهم قليل لا يسوّى صورة أدبية تامة لهم ، وإما لأن الانتحال باد في كثير مما يضاف إليهم من أشعار وأخبار . ولنقف قليلاً عند أصحاب المعلقات الذين لم نفردهم بالدرس ، وهم عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعبيد بن الأبرص وطرفة وعنترة وليبد ، فأما عمرو والحارث فلنهما مقلّان ، وقد تشكك ابن سلام في شعر عبيد بن الأبرص ولم يصحح له سوى المعلقة وقال إن شعره مضطرب ذاهب^(١) . أما طرفة فيقول ابن سلام إنه أشعر الناس واحدة^(٢) ، وهي قوله :

لَحَوْلَةَ أَطْلَالٍ بِبُرْقَةٍ تَهْمَدُ وَقَفْتُ بِهَا أَبْكِي وَأَبْكِي إِلَى الْغَدِ^(٣)

وفيها أبدع في وصف ناقته ، إذ لم يترك فيها صغيرة ولا كبيرة إلا رسمها ، وكأنه يريد أن ينحت لها تمثالاً ، لا يغادر ذاكرة الجاهليين . والتصوير والحكمة جميعاً يتداخلان في شعره ، وهو من هذه الناحية يشبه النابغة وزهيراً ، على أنهما يتقدمانه ويفضلانه . وأيضاً فإنه مقل والأسطورة تجرى في أخباره ، ولذلك كله لم نفرده بالبحث . وأما عنترة فقد تحدثنا عنه في تضاعيف كلامنا عن الفرسان . وليبد مع أنه لحق الجاهلية عاش طويلاً في الإسلام ، فأولى أن يدرس في المخضرمين .

وقل ذلك نفسه فيمن تركناهم من شعراء الجاهلية غير أصحاب المعلقات ، فقد تركنا أوس بن حَجْر لأن فنه يندمج في فن تلميذه زهير ، ولأن الرواة خلطوا بين أشعاره وأشعار ابنه شُرَيْح^(٤) وعبيد^(٥) بن الأبرص . ونرى ابن سلام يسلك معه في طبقته — وهي الثانية — بشر بن أبي خازم الأسدي وهو مقل : وفي شعره مصنوع كثير^(٦) . وجميع الطبقة الثالثة عند ابن سلام من المخضرمين ، أما الطبقة الرابعة فسلك فيها طرفة وعبيداً ومرّاً رأينا في أشعارهما . ونراه يضم إليهما عدى بن زيد العبادي ، وأسلفنا الحديث عنه بين أصحاب الديانات السماوية ، كما يضم علقمة ابن عبدة ويذكر له ثلاث قصائد جيد ، ويقول : لا شيء له بعدهن يُذكر^(٧) .

(٤) الحيوان ٢٧٩/٦

(٥) ابن سلام ص ٧٦ - ٧٧

(٦) الحيوان ٢٧٩/٦

(٧) ابن سلام ص ١١٧

(١) ابن سلام ص ١١٦

(٢) ابن سلام ص ١١٥

(٣) الرواية المشهورة للشطر الثاني في البيت :

« تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد » .

وهو يشتهر بإحسانه لوصف الظِّلِم ونعامته (١) . ومن ذكرهم ابن سلام في الطبقة الخامسة الأسود بن يعفر النهشلي التميمي ، ويقول ابن سلام : « له واحدة طويلة رائعة لاحقة بأجود الشعر لو كان شَفَعَهَا بِمَثَلِهَا قَدَمَاهُ عَلَى مَرْتَبَتِهِ » (٢) . أما الطبقة السادسة فنظم فيها عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة ، وقد عرضنا لهم بالحديث فيما أسلفنا . وجعل الطبقة السابعة لأربعة مقلين هم حُصَيْن ابن الحُمام المرِّي والمتلمس (خال طرفة) والمسيَّب بن عكَّس (خال الأعشى) وسلامة بن جندل السَّعْدِي التميمي . أما الطبقة الثامنة فنظم فيها عمرو بن قَمَيْثَة (عم طرفة) وعوف بن عطية بن الحَرَع ، وهما مقلان . وجعل في الطبقة التاسعة الخادرة أو الحويلدة ، وقصيدته (٣) :

بَكَرْتُ سُمِيَّةً بُكْرَةً فَتَمَتَّعَ
وَعَدْتُ غَدَوَ مَفَارِقٍ لَمْ يَرْبَعِ

من جيد الشعر ومختاره ، وليس له وراءها شعر يذكر . أما الطبقة العاشرة فجميعها مخضرمون أو إسلاميون . وأفرد لأصحاب المرائي فصلا ، ولكنه لم يسلك بينهم جاهليا . وتحدث عقب ذلك عن شعراء القرى العربية ، وأهمهم أمية ابن أبي الصَّلْت شاعر الطائف ، ومرَّبنا في حديثنا عن أصحاب الديانات كثرة ما وضع عليه من أشعار . وفي قبيلة عبد القيس بالبحرين شعر جيد ، وربما كان خير شعرائها المثقَّب العبدى المعاصر للنعمان بن المنذر ، وهو يُسَلِّك في المقلين . وليس وراء هؤلاء الذين ذكرهم ابن سلام شعراء فيهم غَنَاء ، سوى الصعاليك ، وقد أفردناهم بالحديث . وبما لاشك فيه أن الأسطورة تغلب على أخبارهم ، لاندراج كثيرين منهم في القصص الشعبي ، ويشبههم في هذا الجانب حاتم الطائي الذي طالما تحدث الرواة عن كرمه . وواضح من ذلك كله أننا لم نتسع في الترجمة لشعراء الجاهلية ، لقلة ما بأيدينا من شعر وثيق لهم يقفنا على خصائصهم ، ومن ثمَّ اكتفينا بالترجمة للطبقة الأولى منهم تلك التي عني الرواة بدواوينها وأجمعوا على تقديمها وأنها لا تبارى في حسن الديباجة ورونق الكلام .

(٣) المفضليات رقم ٨ . يربع بالمكان .

يقيم .

(١) الحيوان ٤/٣٦٦ .

(٢) ابن سلام ١٢٣ .

فهرس الموضوعات

صفحة	
٦ - ٥	مقدمة
١٥ - ٧	تمهيد
٧	١ - كلمة أدب
١١	٢ - تاريخ الأدب
١٤	٣ - تقسيمات تاريخ الأدب العربي وعصوره
٣٧ - ١٧	الفصل الأول : الجزيرة العربية وتاريخها القديم
١٧	١ - صفة الجزيرة العربية
٢٢	٢ - الساميون
٢٦	٣ - العرب الجنوبيون
٣٠	٤ - العرب الشماليون
٣٢	٥ - النقوش ونشأة الكتابة العربية
٦٦ - ٣٨	الفصل الثاني : العصر الجاهلي
٣٨	١ - تحديد العصر
	٢ - الإمارات العربية في الشمال (الغساسنة - المناذرة -
٤٠	كننة)
٤٩	٣ - مكة وغيرها من مدن الحجاز
٥٥	٤ - القبائل البدوية
٦٢	٥ - حروب وأيام مستمرة
١٠٣ - ٦٧	الفصل الثالث : الحياة الجاهلية
٦٧	١ - الأحوال الاجتماعية
٧٦	٢ - المعيشة
٨١	٣ - المعارف

٨٩	٤ - الدين
٩٧	٥ - اليهودية والنصرانية
١٠٤ - ١٣٧	الفصل الرابع : اللغة العربية
١٠٤	١ - عناصر سامية مفرقة في القدم
١١١	٢ - لهجات عربية قديمة
١١٧	٣ - نشوء الفصحى
١٢١	٤ - لهجات جاهلية
١٣١	٥ - سيادة اللهجة القرشية
١٣٨ - ١٨٢	الفصل الخامس : رواية الشعر الجاهلى وتدوينه
١٣٨	١ - رواية العرب للشعر الجاهلى
١٤٨	٢ - رواة محترفون
١٥٨	٣ - التدوين
١٦٤	٤ - قضية الانتحال
١٧٦	٥ - أهم مصادر الشعر الجاهلى
١٨٣ - ٢٣١	الفصل السادس : خصائص الشعر الجاهلى
١٨٣	١ - نشأة الشعر الجاهلى وتفاوته فى القبائل
١٨٩	٢ - الشعر الجاهلى شعر غنائى
١٩٥	٣ - الموضوعات
٢١٩	٤ - الخصائص المعنوية
٢٢٦	٥ - الخصائص اللفظية
٢٣٢ - ٢٦٥	الفصل السابع : امرؤ القيس
٢٣٢	١ - قبيلته وأسرته
٢٣٦	٢ - حياته
٢٤٣	٣ - ديوانه
٢٤٨	٤ - شعره

صفحة

٢٩٩ - ٢٦٦	الفصل الثامن : النابغة الذبياني
٢٦٦	١ - قبيلته
٢٦٨	٢ - حياته
٢٧٥	٣ - ديوانه
٢٨٠	٤ - شعره
٣٣٢ - ٣٠٠	الفصل التاسع : زهير بن أبي سلمى
٣٠٠	١ - قبيلته
٣٠١	٢ - حياته
٣٠٤	٣ - ديوانه
٣٠٦	٤ - شعره
٣٦٥ - ٣٣٣	الفصل العاشر : الأعشى
٣٣٣	١ - قبيلته
٣٣٥	٢ - حياته
٣٣٩	٣ - ديوانه
٣٤٨	٤ - شعره
٣٩٧ - ٣٦٦	الفصل الحادى عشر : طوائف من الشعراء
٣٦٦	١ - الفرسان
٣٧٥	٢ - الصعاليك
٣٨٨	٣ - شعراء آخرون
٤٢٣ - ٣٩٨	الفصل الثانى عشر : النثر الجاهلى
٣٩٨	١ - صور النثر الجاهلى
٤٠٤	٢ - الأمثال
٤١٠	٣ - الخطابة
٤٢٠	٤ - سجع الكهان
٤٣٢ - ٤٢٤	خاتمة
٤٢٤	خلاصة
٤٢٩	تعليق